العـــودة إلى ايثاكا

إهداء إلى
صديق المحافظ اللي يجلس بجانبه

ايفند يونسن



رواية

ترجمة : معين الإمام

ايفند يونسن

العودة إلى ايثاكا

الأوديسة برواية حديثة

ترجمة معين الإمام

العودة إلى ايثاكا
الأوديسة برواية حديثة

رواية المدى

المـــؤلـــف : ايفند يونسن
عنوان الكتـاب : العودة إلى إيثاكا
المتـــرجـم : معين الإمام
النـاشـــر : المدى
الطبعـة الأولى : سنة ٢٠٠٦

Author:Eyvind Johnson
Title: Standernas Svall
Translator: Mouine Imam
Al- Mada P.C.
First Edition : 2006

First published by Albert Bonniers Forlag AB, Stockholm

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

المحتوى

الجزء الثاني

الجزء الأول

-١-

عند نهاية السنين

لم يكن هليوس، إله الشمس الرؤوم الغشوم، وأحد جواسيس الآلهة، كما اعتقدت الشعوب البربرية وغيرها من القبائل، مقياسه الوحيد في حساب السنين، فقد تطول إحداها لتبلغ عشرا، وتقصر أخرى لتصبح يوما.

تذكر بعض سنواته برضى كبير، أجل، بامتنان كبير جعله يتلمظ، أو على الأقل يرطب بسرعة شفتيه بلسانه الأحمر، أداة التذوق التي كانت ذات مرة حادة قوية وغدت الآن واهنة كليلة. أولا الشفة العليا، الغائرة من جهة اليسار حيث فقد ثلاث أو أربع أسنان، وبعدها السفلى المتورمة المتدلية إلى حد ما. حركة اللسان هذه دائرية أفقية، تعبر دون شك عن الرضى، والمسرة، والقناعة الذاتية، وتكمن خلفها ذكريات عن أطباق طعام فوق موائد مستطيلة أو بيضوية من الخشب المعطر، وعن النساء: خطوط ومنحنيات الجسد الأنثوي، مركزه أو أطرافه، أجزاؤه الجوهرية الحميمة، التي أغرم بها.

كانت رحى الحرب تدور، وهنالك أمور أخرى تجري آنذاك. رفض أن يتذكرها. لكن بسبب هذه الأسنان التي سقطت، أو اقتلعت بالقوة، بدا فمه موروبا. والنساء اللاتي قبّلهن لاحظن ذلك. وكل من استطاع مسح ومعاينة هذه السنوات العشرين الأخيرة قد لاحظ ذلك أيضا: الفارق المميز بين انطلاقة شاب في الخامسة والعشرين وهذا الكهل البالغ خمسة وأربعين. تشوه الفم هذا غيّب عن ابتسامة الوجه بعضا من الطيبة والرقة، والود الطبيعي، والذكاء اللماح.

كان يبتسم الآن. وبسبب هذا الفم الموروب بدت الابتسامة باهتة ومبهمة بحيث استحال تفسيرها على الفور، إلا لمن عرف شخصيته وتاريخه. وما لاح على هاتين الشفتين المحاصرتين بين الشارب الأحمر الخشن المتهدل، واللحية الطويلة التي غطت

الوجنتين، مجرد ابتسامة موروبة ومزورة. في تلك اللحظة كانت مزورة حتما! لكن إن فسرتها باعتبارها ابتسامة شريرة، ومتعطشة للدماء، وسادية، ومتهوسة بالحرب، فستكون مخطئا. كان التزوير فيها سطحيا وليس أصيلا أو جوهريا.

كان أسيرا فوق جزيرة، أو لسان من الأرض الصخرية داخل في البحر، تملؤه الينابيع وتكسوه الأشجار، في الطرف الجنوبي الشرقي مما سيدعوه المغامرون والبحارة بعد ثلاثة آلاف سنة، نقلا عن اسمه العربي والسامي، مضيق جبل طارق، الواقع عند آخر حدود العالم الممكنة. هناك بقي طيلة أكثر من سبع سنين.

جحيم وأبالسة وأشياء أخرى. فكر بكل ذلك وهو يحك أنفه الأخرق المتوسط الحجم، الذي لم يكن شكله سيئا، بكفه العريضة وأصابعها القصيرة. الخنصر والبنصر في اليد اليسرى معوجتان باتجاه الوسطى، وتتخذان شكل قبضة ظلت على حالها سنين عديدة، بسبب تقلص عضلي ناتج عن جهد هائل بذله. أما الوسطى فلا تعاني من أي تشوه، لكن تجاعيد الجلد على المفاصل تعمقت ونتأت. في حين انحنت السبابة على استحياء نحو الوسطى ثم باتجاه راحة اليد، كأنما تبحث، في الذاكرة، في محاولة مرعبة لاستعادة تلك الساعة المهلكة حين كافحت بكل طاقتها مع الأصابع الأخرى بحيث استحال عليها العودة إلى وضعها الطبيعي. الإبهام قصيرة وعريضة، لكن في إظفرها ملمحٌ من سمو فخيم تبدى بوضوح في المظهر الجانبي للمفصل. ندوب الخناجر والسيوف ملأت ظاهر راحة اليد، ولربما دمرت الأعصاب فيها. أما بنصر اليمنى فقد قطعت كلها. وكان تأثيرها بالنسبة لبعض الناس مشابها للسن المخلوعة: بدت اليد مكشرة. وعدا ذلك كانت سليمة. راحة كلتا اليدين، خصوصا اليمنى، أبانت علامات دالة على أنها كانت ذات مرة صلبة ومشققة، فهي تحمل آثار الندوب التي سببتها المياه المالحة.

الرسغان ثخينان قويان كأنهما لقائد يعمل بيديه، أو ربان يمسك الدفة بقبضتيه. لم تكن الذراعان العاريتان طويلتين، إلا أن من الممكن القول إن عضلاتهما مفتولة قوية. المنكبان عريضان، والظهر قوي دون شك، لكنه لم يعد منتصبا تماما. ويكادُ يبدو رشيقا أو سريعا في حركة قدميه، رغم أنه لم يكن بدينا فعلا؛ بل كان يعطي انطباعا بالضخامة وثقل الحركة، لكن ما إن يَسِرْ بضع خطوات - بعد الخطوة الأولى - حتى

يدرك من تسنح له الفرصة بمراقبته أنه لم يفقد رشاقته كلها. حزامه المعدني قصير، حيث لم يتراكم الشحم على خصره بعد.

بعض السنوات كانت جيدة، لكنَّ الحقيقة أَن العديد منها كانت عجافا، فكر بذلك، وهو يرقب المنظر الممتد أمام المنزل. آذنت الشمس بالمغيب، والظلال الداكنة لفت الوادي في الجهة الجنوبية الشرقية. وعلى الناحية اليسرى، شَهَقَت الجبال وفوقها غيومها - لن ترى تقريبا ذراها مع هذه الريح الشرقية الرطبة التي تهب من البحر. الغابات طوقت الوادي من الجهتين. ولاح أمام ناظريه بساط العشب الأخضر، ممتدا حتى صخور الشاطئ.

رفع رأسه وأنصت. بين صرخات النوارس وطيور الخرشنة، سمع هدير الموج المتكسر على الشط، موج البحر الأبدي. ومن فوق الجرف أمكنه رؤية ضوء الشمس لمدة طويلة: يتلألأ على الذرى في الطرف الآخر من المضيق. وخلف الجبل تقع جزيرة الكهف، مخبأة خلف الشط، ومحمية من عُتوّ الرياح، بمغارتها الضخمة التي قاما معا برحلات استكشافية إليها، حين كانت في حالة مزاجية جيدة.

أصاخ إلى المنزل. مازالت هناك في الصالة تعوي كالذئبة، لكن العواء بالنسبة له لم يكن أكثر من همهمة خافتة، شابهت صوتا بعيدا كخرير الجداول الأربعة الدفاقة من أعلى الجبل، كان عليه أن يقتلها منذ أمد بعيد، كما خطر له بواحدة من اللهجات التي تعلمها، أن يرسلها إلى الجحيم. ثم..

كانت عنقه غليظة؛ يمكنك أن تشبهها بصاري السفينة - وذكاءه بالشراع، يخفي ويعلن رغبته اللهفانة المركبة. اللحية الحمراء والشعثاء بعد ثلاثة أيام بلياليها من ممارسة الجنس وتناول الشراب، غدت برونزية بفعل الزيت. وتحتها لاحت الذقن العريضة التي يعكس شكلها شخصيته. الخطوط حول الفم بدت منتظمة حين يرسم ابتسامته الموروبة. والشارب الأهدل يستطيع مص شعره لو أراد.

طيور البحر صخبت وتحدت بزعيقها دكنة الليل. تنشّق النسيم، رغم أن رائحة الملح والطحالب والسمك النتن وصلت إليه. عاد إحساسه بالتحدي على شكل موجة صغيرة. داعب لحيته بأصابع يده اليمنى، ثم أمسك أنفه ومرر إبهام ومفصل السبابة المعوجة باتجاه الأسفل، وكرر هذا مرة أخرى وتحسس كتلة اللحم التي غاب عنها العظم،

لكنه أبعد يده فورا، كأنما أراد كبح التحدي الذي أثاره. كان مثل بعض الناس، ولن أقول من هم، الذين يريدون إخفاء خيبة أو عاطفة، ويكتفون على ما يبدو بالتأكد من أن أنوفهم قبيحة أو جميلة كأنوف الآخرين. المنخران واسعان ينشقان الهواء بشهوة، وتبدي التجاعيد عليهما وحولهما وسامة ومكرا. ههنا رجل لا يخدع بسهولة. ههنا رجل رابط الجأش، ماكر مراوغ. لم يكن بالمستطاع أن تقوده من أنفه - لأن بإمكانك القول، وفي هذا دعابة تبدو حمقاء لكنها حاذقة فعلا، إن ما يقوده من أنفه تفاعل القوى في داخله. فعند "قاعدة" الأنف يتجمع التعقل والحذر على شكل نتوء: يتوضح هنا مزيد من الدهاء والحذق والتفكير. الجبهة عريضة وليست مرتفعة كثيرا، تمتد عليها من الصدغ إلى الصدغ ثلاثة أو أربعة تجاعيد أفقية. الحاجبان كثيفان وأشد قتامة من الشعر الذي فقد غزارته عند قمة الرأس، وكان ينتشر في تلك اللحظة ليتهدل باتجاه مؤخر العنق ويخفي أذنيه دون أن يضعف قدرته على السمع. وتحت العينين، العينين المتيقظتين، تنتفخ جيوب متورمة ربما نتيجة الإفراط في الشراب. أما لونهما فيراوح بين الرمادي والأخضر، وبياضهما في الحقيقة محتقن بالدم كما يحدث عادة في الكهولة، التي تأخذ نظرة البراءة من العيون التي امتلكتها بفضل الغرارة والشذوذ. وما تزال نظرته المحدقة حتى الآن، رغم ما يبدو عليه من تعب، متيقظة، وباحثة، ومحاذرة.

لم يكن طويل القامة كثيرا، لكن قامته لا بأس بها، وكما قيل فإن في ظهره انحناء خفيفا. أما الكتفان فقد تنكبتا حتما أعباء ثقيلة؛ و لربما خلفت مشكلات السنوات المبكرة آثارها.

سمع مرة أخرى هدير الموج، والجلبة الصاخبة للنوارس، وزعقات طيور الخرشنة.

حين استدار نحو بيتها، البيت الأبيض المنتصب أمام الجداول الأربعة في الجبل، اضطر مرة أخرى للاعتراف بموقعه الجميل. قال في نفسه غاضبا إنه موقع جميل. فهو يربض في أيكة من أشجار الحور السوداء؛ وخلفه مغارة ضخمة، مخبأة داخل النباتات التي نمت خارجة من الجبل: شجر السنديان، والفلين، وأشجار أخرى خفيضة. في المناطق الأكثر ارتفاعا، هناك الدوالي، ثم تظهر غابات السنديان الداكنة، وبعدها الخلنج، والجبال، وفيما وراءها إلى الجنوب تمتد الصحارى العظيمة. أما في الغرب فلا شيء سوى الجبال، ثم البحر الواسع المجهول، محيط الأطلنطيد.

هذا هو المكان الذي يمكن للمرء أن يبقى فيه؛ كثيرا ما خطرت له الفكرة عندما راوده نفس ما شعر به الان. وفي ذات الوقت عرف بأنه ليس المكان الذي يستطيع هو أن يقيم فيه. أكثر من سبع سنين الآن! كان في الرابعة والأربعين - الخامسة والأربعين - لكن في بعض الأحيان كان يصرخ (لنفسه): أنا في الخامسة والثلاثين. ولا أحسب سنوات الحرب العشر. لم يكن بعيدا عن الهستريا آنئذ.

كانت هي، المرأة، تقول: أوه، يا قزمي الصغير، يا طفلي المسكين، هل أنت مستعد؟ تعال! هيا داعبني. لا تعبس، فأنا أعرف أنك راغب بذلك! هيا! هيا!

بالتقزز والشهوة؛ والكره واللهفة، بالجسد الذي استجاب والروح التي أفقدتها الخمر صوابها، كان يزحف إلى سريرها العريض.

وهذا ما حاربت من أجله! عشر سنوات وأنا في أتونها. اللعنة؛ لم أعد قادرا على الحساب، هكذا كان يفكر بعد ذلك.

في الحقيقة كان يحسب بدقة شديدة. أو: إن عملية الحساب كانت تجري تلقائيا في داخلته، مثلما تقطر قطرات المطر في برميل في ركن المنزل بعد هطوله فورا، وهي تحسب عددها إلى أن يمتلئ البرميل ويطفح أو يقوم بذاته بعملية الحساب. ويقول بلغته الخاصة: الآن سيفيض مائي. تابع عملك إذن، جاوب القطرات والرذاذ والسقف المبلل بألسنتها، لسوف نستمر بالعد، واحدة، واحدة، واحدة، والمجموع الكلي واحدة: القطرة الأولى التي تفيض. البرميل يعد: قطرة، اثنتان، ثلاث، مائة ألف، ويشعر بالماء بين جدرانه، في خوائه، داخل أضلاعه التي تعد نيابة عنه، كأنما يقوم هو بالعملية. عَلم عِلم اليقين بأنه مقيم هنا منذ سبع سنين ونصف السنة، ومع ذلك قال جهرا لنفسه ولها: هذا ما لا أعرفه، ولا أحصيه بدقة.

يا حبيبي الصغير! هل تشعر بمثل هذه التعاسة المروعة هنا؟

أجاب بصبر مهذب: لا أريد الخوض في هذا الموضوع.

هل تفكر بها، زوجتك - تلك الدمية الحمقاء؟

رد قائلا: لا أريد التحدث عن هذا الأمر.

لكنك تفكر بابنك! ليلا نهارا! في سريري، وأنت معي، هذا ما تفكر به! هل تظن بأنني لا أدرك ذلك؟ لا، لا. لست غبية إلى هذا الحد. أنت تفكر بهما دائما، دائما!

بهذا اكتسب نوعا من السلطة عليها، ونتيجة لذلك تنامت رجولته. وماذا حدث آنئذ. أجل، تعاظمت الشهوة في ذات الوقت، شهوة وَجَّهَهَا الفكرُ نحوها أحيانا، هناك في النأي، على جزيرته، لكنها ملحة وقوية بحيث تطلبت إشباعا الآن، في تلك اللحظة، ومن يشبعها له؟ هي، المرأة التي هنا، عن طيب خاطر، وفي استعدادها الطوعي وخضوعها المؤقت كَمَنَ سحر فتان، تولهٌ بالعطر والرغبة، حطما إرادته الرجولية رغم زيادة نشاطه وفحولته، بحيث دمرت حريته الجوانية التي يحتاج لاستخدامها حين.. متى؟ في يوم الحساب، يوما ما.

الأمر غريب حقا، هكذا كان يقول لنفسه حين يشعر بخواء داخلي بعد أمسية غرامية ملتهبة، بل حتى باضطراب بالفكر. حين أكون رجلا فعلا أفقد حريتي. أنا حر؟ آه، حسنا، كائن عقلاني إذن. قال، وهو يعرف نفسه: أنا بين "معترضتين" الآن. لو كنت شابا، في مرحلة الفتوة، لأصبحت بكليتي تحت سلطتها، لكن ليس لأمد طويل، لسبعة أعوام، لثمانية - إلى أن اكتشفت، اكتشفت فعلا، أنها أكبر عمرا بكثير. كانت ستتشبث بي، لكن في النهاية كنت سأجد امرأة أكثر شبابا لألهو معها، ربما جواري من هنا، أو فتيات من الجزيرة المخبأة، أو من غيرها من الجزر، أو من الجبال. لمجرد اللهو فقط. مجرد متنفس لي. رجولتي، رجولة الشباب، ستحررني من إسارها. لو كنت عجوزا لاجتذبتني أيضا، لأنها في هذه الحالة ستكون أصغر عمرا، ولتوجب علي تقدير طاقاتها وقدراتها في السرير واللهو، وتثمينها بصورة نظرية مجردة: لكن التجربة وافتقاد الرغبة الذكورية سيعملان على تحريري لفترات طويلة، ربما "يعرف" جسدي الآن أنها أفضل من يمكن اللهو معها، أفضل من.. لا، لا ينبغي أن أفكر بهذه الطريقة. لكنها مثالية. هذا هو الأمر. يمكنها أن تلهو، وحين أنظر إليها يخطر ببالي أنها قادرة على ذلك. تلك هي التجربة الملزمة للكهولة. مزيج الدم والكحول أوقعني أسيرا.

بتلك الطريقة حلل الأمر بينه وبين نفسه. همس والتعب يهده في الليل، انثروبوس هو اسمي الجديد. انثروبوس الملعون. فكر بدهاء في اللحظة التالية، انثروبوس حرمني من اسمي الحقيقي ومنعني من استخدامه، ومن الإحساس بالروابط مع ما يتعارض مع روابطي معها. فيزيولوجيا، الأمر كله عبارة عن رغبة وإشباع. سيكولوجيا، أنا خرقة

بالية من مزق مختلفة من الجلد: ليوث مسلوخة، تنانين مسلوخة، خراف وعجول وخنازير وبشر مسلوخة الجلد.

اسمي الآن "نكرة"، لكنك يا من تسكن السماوات، في الجبال النائية، خالق السحاب، ومبدع الكون، لسوف تساعدني على الخروج من هذه الحالة في النهاية! فأنا لا أحتمل سنواتك يا زوس!

* *

الجبال في الغرب استولت الآن على كل ما بقي من ضوء النهار. دكِنَ الأخضر ليتحول إلى أزرق، ثم أسود، وهبت الريح باتجاه المضيق وامتزجت مع ريح آخر الصيف التي تنسم من الشرق. لألأت النجوم، كوكبة بعد كوكبة. ودفق الضوء من المنزل الكبير عبر الفناء الداخلي ليخرج من خلال البوابة المفتوحة في الجدار الخارجي على شكل حزمة عريضة. لقد شادت الآلهة المنزل من أجلها؛ الأمر الذي كان يعني غرباء مجهولين في زمان سحيق. الضوء حمل أصواتا في ركابه؛ فلو حلك الظلام أكثر لكان الصمت أعمق. جلبة قصفها المعربد أتت منسلة منزلقة على حزمة الضوء. مساعدوها وخدمها كانوا هناك؛ كلهم سكارى. لم تصدر الأمر بعد بأن يطوفوا بها أرجاء المنزل ثم يحملوها إلى الكهف، إلى الجداول الأربعة حيث يمكن أن تبرد قدميها. اصطف العبيد حول الجدران في انتظارها. كانوا يغنون؛ إذ لم تصمت القيثارات بعد. سرعان ما ستدعوه - دعوة الخريف، كما فكر بها الآن - ولسوف تسقط بضع أوراق إضافية من شجرته، مدومة إلى الأرض وتذهب إلى النفايات. فكر بأن المرأة عاقر! البقرة ! لكنه لم يقاوم، لسوف يفكر بلغة اللحظة، لا السنوات، ولا العقود.

داعب لحيته، وشعر برجفة في صدره حين هبت النسيمات من الجبال. سرعان ما سيحل الخريف من جديد. سرعان ما سيبدأ العيد العظيم في الكهف على الجزيرة المخبأة: لسوف يجدفون، ويشربون، ويلهون. هذا ما حدث حين قصت السنة بمقصها، وقطعت الزمن، وعلّمته بالعيد، البغيّ، الساقطة، المنحلة. ثم تتعرى وتهذر وتلهو وتلعب دور فتاة خبيرة محنكة.

أدار ظهره للبيت بحركة عنيفة. الوادي الداكن قبالته انحدر باتجاه الشاطئ الصخري. ثم سمع مرة أخرى، بوضوح، صوت الأمواج المتكسرة على الشط. ورأى في

الجهة الشمالية الشرقية أضواء واهية. جعلها نأي المسافة وعدم قدرة عينيه على اختراق الحلكة تشع وتخبو. إنها الجزر التي أبحر في محاذاتها أحيانا وسط العاصفة والعتمة.

فكر: الجحيم وكل شياطينها! وبصق على الأرض. بدأ الارتقاء صعدا على الدرب باتجاه الجرف، غربا. قال في قرارته، لا يهمني إذا صرخت لي. ولا بمقدار ذرة. لقد سئمت من كل هذا إلى حد الانفجار.

ما زالت الرياح التي تهب من الجبل دفيئة، والصخور دافئة، لكنه ارتعد وأمسك بردائه ذي الكمين القصيرين وشده إلى جسمه بيده اليسرى. كان بمقدوره أن يلبس عباءته. لا، لم يكن بمقدوره أن يلبس عباءته. بدأ صندله ينزلق على الصخور المهرأة. في بعض الأماكن كان الدرب يشع بلون أبيض. حين ارتقى قليلا زاد هبوب الريح قليلا. مشى عبر مرج أخضر، فرجة في غابة، وسط حفيف أوراق الشجر، لكن إصبع قدمه اليمنى ارتطمت فجأة بحجر وأطلق شتيمة. سمع صوت شخص يتكلم آتيا من جهة اليسار من الجبل، كان أحد الرعاة. هنالك جرس يرن دون صدى: الصوت أثار أعصابه. تساءل - لوهلة عابرة - عن البحارة والجنود الذين كانوا تحت إمرته آنئذ.

غرقوا، تشتت شملهم، قضوا. وأنا ما أزال هنا.

رأى فجأة موقعه تحت ضوء جديد: بدأ يصحو من نعاسه، لتستيقظ النقمة في تشوش عواطفه المختلطة مثل كتل صلبة في العجين، مثل حصوات في العجين، تتكثف تبعا لقوة الخمر: لتتحول إلى قسوة ومرارة. ثم أتى الغضب. إنه التحول القديم. أتى ليحميه من لهف الشوق، والأسى، واليأس. توقف وضرب بقبضته فخذه العاري الأشعر. الألم أراحه. أدار وجهه إلى الريح، مثلما تستدير سفينة مبحرة لتغير اتجاهها: جَبَهَ الريح وفكر بكلمات واضحة لا لبس فيها: إنها تهب، فلتنزل علي اللعنة، وتذرّي القذر في عينيك، بحيث تصاب عيناي، أنا البحار العتيق، بدوار البحر وتنز ماء مالحا!

ضحك - أو صات كالدجاجة - وكان الرضى في صوته وفي التعبير الذي أظهره لحلكة الليل والجبل قسريا. ملعون أنا إن لم تنزَّ عيناي ماء مالحا! هكذا فكر بلهجته القديمة الفجة.

لم يهرب. تذكر حلمه حول ما سيكون عليه حاله. لسوف يذهبان (هو والصبي، ولا بد أنه بلغ الخامسة)، في أمسية ملعونة غاب قمرها كهذه، من المراعي الشمالية الشرقية في جزيرته، باتجاه البيت الفخيم الرحيب المشرف على البلدة. لو اكترثت بالسنين لتوجب علي القول إنني حلمت في ذلك الخريف قبل أن أغادر، هكذا خطرت له الفكرة الآن مثل كلب ضخم ركض في ذاكرة المنام، وقرصه في رجله كي يهدأ ويخضع داخل طية الحلم. لكنه كان كلبا بائسا، لا يمكنه فعل شيء؛ نبح مرة أو اثنتين، ثم دلى ذيله بين قائمتيه واختفى. من المفترض أن يكون هو والصبي في طريقهما إلى البيت بعد زيارة العجوز، أبيه الهرم، الذي كان يعاني من هجمة كره شديد للحداثة وصخب المدينة، وألح على العيش في الريف (ترى، هل "العمر" ما يزال موجودا في جزيرة الوطن، وهل ما يزال الناس يهرمون هناك؟). يومايوس، المشرف الجديد على قطيع الخنازير، أتى من زرائب خنازيره على الطرف الجنوبي من الجزيرة حاملا حكايات يرويها عن الجد والجدة، عن الأب والأم. ومن يشبه الصبي؟ كان سيصغي، عيناه مثل.. أجل، أصغى بعينيه أيضا. كيف كان الحال في الحلم؟ هناك في أرض المستنقعات كان خائفا من الظلام، وقيل له: تعال يا ولدي الصغير، تيليماكوس، اعتاد أبوك أن يسير هنا مع جدك، وكان صغيرا في مثل عمرك - صبيا ضخما في الرابعة أو الخامسة.

الصبي (في الحلم الذي لم يتحول إلى حقيقة أبدا) خبأ يده بيده، يد الطفل الصغيرة الدافئة، مثلما خبأ هو يده بيد والده - في تلك الأيام، قبل عهد بعيد، حين كان هنالك أشياء مثل الزمن، حين تواجد الزمن على الأرض، ولم يكن يكذب.

عندما نرجع إلى البيت سوف نطلب من أمنا أن تعطينا كعكة بالعسل، هكذا قال لابنه في حلمه، لأن ذلك ما قاله أبوه له ذات مرة، في إحدى المناسبات العالقة في القسم الخلفي من الذاكرة، في تلك البقعة من "قدر" الذاكرة. لا أرهب الظلام حين تكون معي يا أبتاه، هكذا قال له تيليماكوس، أو كان سيقول له لو أنه بلغ الرابعة أو الخامسة. سارا معا لبرهة - في الحلم- ذلك هو الشيء المدهش الذي حدث في حياته على ظهر الأرض، بين الرجال، قبل الحرب. سارا معا لبرهة، ثم قال الصبي: لا أخاف الظلام ، يا أبي.

لا يخاف الظلام؟ هذا جيد؛ لا ينبغي لأحد أن يخافه. الظلمة ليست خطرة، السبب

يقتصر على أن هليوس رحل مبتعدا بمركبته، وهو في الغرب وراء البحار، يزيّت العجلات حتى لا تصدر صريرا في الصباح الباكر حين نذهب لنجز الخراف ونأخذ الصوف لنصنع منه خيوطا ننسج بها ملابسنا التي تقينا صقيع الشتاء وزمهريره.

سيقول الصبي حين يبلغ الخامسة وهما يسيران عبر الأرض السبخية في طريقهما إلى البيت: ليس هذا ما عنيته يا أبي. أنا أخاف من العتمة لكن أريد ألا أخاف. ولهذا السبب لست خائفا الآن. لكن إن رحلت عنا فلسوف أخاف الظلام. لكن لا أريد أن أخاف من الظلام، ولذلك لن أخاف حتى وإن رحلت في المركب الكبير.

في حلمه - إذن - ضغط بكفه على تلك الراحة الصغيرة، الدافئة، الرطبة، ضغط عليها بتؤدة، وأمسك بها بيده الكبيرة، وأحس بسعادة غامرة، سعادة يشوبها الحزن والود تجاه ابنه الصغير، كان سعيدا بثقته التي لا تحدها حدود. كان..

الآن، كان يرتقي الدرب باتجاه الجرف. ضرب بيده على فخذه، بحيث شعر بالألم واللذة في آن؛ قبض على ردائه، ثم أفلته، ثم أمسك بملء قبضة من الفراغ وشد عليها.

قال بصوت عال لنسيم المساء البارد: "من المزعج أن تهب بهذه القوة".

ثم وصل إلى الذروة. النوارس كانت تزعق في الخليج على الطرف الآخر؛ هنالك بعض الأشخاص، إضافة إلى آخرين على الجزيرة الصغيرة. أوقدوا نارا. فكر قائلا: يمكنني أن أتحمل أي شيء. توقف وحدق بعينين لا تبصران إلى سطح الماء اللألاء، وإلى الأفق المعتم المحدد لتخوم الجزيرة هناك، وأصغى إلى صوت المياه. لم يسمع هدير الموج؛ بل خريرا ملغزا على الحصى. يمكن أن أحتمل كل شيء، لكن ليس انقضاء السنين، وأن زمانا يمضي، وأن الحياة ممكن أن تتغير دون أن أكون هناك - الآن. لا، لا أقدر على التأمل بتلك الأفكار، أستطيع الإحساس بها فقط. لا توجد أفكار تعبر عن ذلك. الآن، لن أفكر أبدا.

دنت رائحة الطحالب، الريح نزلت إلى الخليج وغرفت رائحة البحر وصيحات الطيور ونثار الماء قبل أن تصعد مرة أخرى. هبط بحذر على الدرب المنحدر. أجل، رائحة الطحالب ساعدته. دفعت كتلة الذكريات إلى الجانب الآخر؛ أبصر رؤى جديدة خارجة من الماضي. تذكر الرحلات، والرحلة العظمى. هناك العديد من الأشياء التي يمكن أن تضحكك وتسليك. حاول جهده.

حين نزل إلى المكان المعتاد حيث يسحب الزورق الصغير، كان عرقه صبيبا. شربوا كثيرا، يمكنه أن يشعر بذلك في مفاصله ومثانته. رفع ثوبه وبال وهو واقف هناك على الصخرة. أصاب الرذاذ قدميه. كانت الصخرة بارتفاع ثلاثة أو أربعة رجال، وتحتها يكمن الملاذ الصغير بينه وبين الجزيرة المخبأة. رأى عددا من الأشخاص الآن. لا يمكنك سحب القوارب حتى الموضع الذي تكثر فيه الحصى، فوجهُ الصخرة والارتفاع يحولان دون ذلك، لكن المكان يشكل ملجأ من العواصف. عاد إلى الدرب. ينبغي أن أغسل قدميَّ على أقل تقدير، فكر بذلك وخلع نعليه. سار بحذر شديد فوق الرمل، كان ناعما، وما زال دافئا بفعل أشعة الشمس. علا الموج حول الجزيرة وانخفض، عانقها، وترقرق عبر البقعة الحصوية حتى حافة الشط حيث كان يقف، وبلغ قدميه، وسال ماؤه الفاتر حاملا الرمل الناعم بين أصابعهما.

عاد إلى الصخرة وخلع ثوبه. وحين رجع إلى أقصى الحافة التي تصل إلى الموج الفوار، انحنى وغرف الماء براحتيه. ولم يخطر له حتى انتصب مجددا أن ما فعله كان يشبه تقديم قربان، تضرعا ابتهاليا، صلاة إلى بوسيدون، العدو. وصل الماء إلى ركبتيه، وحاول أن يلاحق سطح الماء المنحسر، لكنه تخلف عنه، ولم يستطع الوصول إليه، ثم عاد مرة أخرى، فلطمته الموجة بشدة عند أعلى فخذيه، وبلغت خصره، وارتفعت فجأة إلى تحت إبطيه، واضطر للانحناء إلى الأمام للحفاظ على توازنه. بلَّ الماء لحيته وشعره، وذاق فمه طعم الملح. تراجع إلى الخلف بضع خطوات كي لا يسحبه الماء حين يعود. الآن، ابتعد الماء عن جلده، راوده شعور مختلف وأحس بأنه طاهر. ركض بضع خطوات إلى الأمام، مطاردا الموجة المنحسرة، ولاقاها مجددا مع عملية الشهيق التالية. وحين وصلت إلى صدره غطس وسبح مسافة قصيرة، لكن شعر على الفور تقريبا بالماء يدفعه، استدار وسبح بمساعدة الموجة التالية الرقيقة. طاف جسده على الماء الفوار، وركع على ركبتيه وراحتي يديه، وتلقى لطمة خفيفة على مؤخرته. عندما عادت الموجة التالية كان قد وقف منتصبا على قدميه وترك المياه تبلّ ركبتيه ويديه. وسار خارجا من قبضة الماء بعد أن وطأ الحد الأخير الرقيق من الموجة المنهكة. اقتلع حزمة من العشب من تحت الصخرة وفرك كفيه. مازالت الصخور دفيئة؛ مست الريح برفق - وفتون - جدار الجبل العاري، واكتسبت شيئا من فتور همته. أراد أن

ينفض عنه الماء، وقفز عدة مرات على رجل واحدة ليخرج قطرة ماء من أذنه. لم يكن في أذنه ماء: بل ذكرى لقطرة ماء دخلت أذنه ذات مرة منذ أمد بعيد. التقط ثوبه ونشف جسده بقماشه الناعم وهو يسير بين الشجيرات ليرتقي الصخرة. هناك، انتعل صندله ولف الثوب الرطب على رأسه. سمع أصواتا آتية من جهة الجزيرة.

ربض قاربهم الكبير في الماء عند الجزيرة، واستطاع أن يلمح شكله الانسيابي في وهج النار. المجاديف تشق الماء، والنوارس تحوِّم زاعقة. لقد بحثوا عنها هناك، والآن يأتون إلى هنا. رفعت المجاديف مصدرة جلبة وقعقعة؛ وصرخ صوت آمر. احتكت الحصى بشدة بقعر القارب وهو يسحب من الماء. كان طويلا وضيقا، من القوارب السريعة المجهزة بخمسين مجدافا؛ لاح أكثر قتامة من الماء لأنه مطلي بالقار. سمع صوت رجال يخوضون في المياه، والآن هربت الطيور المتجمعة هنا.

سار بين الشجيرات وكمن بينها منتظرا. صعد رجلان الدرب على الطرف الآخر من الصخرة، يتحسسان طريقهما خطوة خطوة. صليل أسلحة؛ أحدهما كان يحمل سيفا.

سمع صوت شاب يقول: "من الأفضل على أية حال أن تبقى هنا وتراقبهم. فإذا أرادوا أن يتجولوا في المكان، قل لهم إن عليهم أن يلتزموا الهدوء. النهب ممنوع هنا. لسنا في حملة هذه الليلة".

"حاضر، يا سيدي المبجل".

وقف على حافة الصخرة ولاح شكله المظلل على خلفية السماء. أول شيء ظهر كان قبعته المخروطية بقطعتيها المتصلتين المهدلتين كأذني حمار. لمع سيفه القصير تحت حزمة الضوء الآتية من لهب النار المتسعرة على الجزيرة. كان يرتدي جزمة عالية الرقبة ودرعين للساقين.

وقف المبجل على الصخرة وصاح لرجاله في الأسفل:

"لا تنسوا، لسنا في حملة هنا ! يجبُ ألاّ تأخذوا شيئا، ولا تمسوا عودا. تذكروا ذلك! لا ترتكبوا أية حماقة مع النار أيضا!".

صدرت همهمة من الأسفل.

".. المبجل".

تردد الرجل لوهلة. وحين سار، تلمس طريقه بقدميه، لكن سرعان ما أصبح يمشي بثقة وبمزيد من الخفة؛ ولا يكادُ يسمع وقع خطواته.

* *

تركه يبتعد على الدرب قبل أن ينسل خارجا من بين الشجيرات. خيم الهدوء على الرجال المتجمعين على الشاطئ. حاول أن يحزر من هم؛ كان يعرفهم، لكنه تظاهر بأنه يخمن. لم يلجئوا إلى القتل عادة، خصوصا حين يرافقهم في الحملات الرجل الخفيف الخطو، لكن يبدو أنهم وجدوا من الصعب أن يبعدوا أيديهم عن ممتلكات الناس الآن كما فعلوا عادة. قائدهم، الرائد، كان شهيرا، وهم معرفون بسمعتهم السيئة، وليس من المستبعد أن يزحفوا عبر الجبل ويهاجموا المنزل على أية حال.

شتمهم مستخدما كلمة شائعة في أكارنانيا. الكلمات مثل السنين: مشحونة بالذكريات التي صعب عليه الاعتراف بها. همس قائلا في إثرهم: طغمة ملاعين من ذوي الأصابع الطويلة. همس مرة أخرى وهو يضع يده على حزامه، ويمسك قماش ثوبه الرطب: حفنة لعينة من مشعلي الحرائق. رسم ابتسامة بشعة، ابتسامة ساخرة للدفاع عن نفسه ضد ما يسببه تأثير الذاكرة من ضعف ووهن. فكر قائلا: ملاعين من ستيمفاليا، وبعد ذلك فورا: ملاعين من بيريا.

مع هذه الكلمات، حملته الأسماء بعيدا عن مواجهة الذكرى الشجية المثيرة للبكاء. لكن بعد لحظة وجدت الذكرى طريقا التفافيا جديدا، وتقدمت إلى الواجهة في لعبة "الغميضة" التراجيدية تلك. من الطبيعي أن يعرفوا كل الأشياء التي..

عشرون سنة! كانت مثل لسعة سوط مزقت قلبه.

لاحق الرجل الخفيف الخطو. جرى قليلا، ثم جثم، محاولا أن يكون خفيف الحركة، لكن شعر بالثقل في جسمه وقدميه، والتعب في ذراعيه المتدليتين. كشر مرة أخرى تكشيرة بشعة وأمتعه تشوه وجهه، وسعى لحماية نفسه بهذه التكشيرة. فكر بقلق: إذا وصل إلى هناك قبلي، فسوف يربك الأمور معها، يا له من فضولي متطفل.

حين تذرى القمة، وجده أمامه. كان الرجل الآن يسير بخطوات واسعة ثابتة، ويصفر لحنا خافتا. بدا هزليا - أجل، بطولي، ومقدس، لكنه يثير السخرية بقبعته

المخروطية والزاندتين اللتين تشبهان أذني الحمار، مثل بربري، لاعب أتى من أقاصي الشرق.

توقف الرجل ونظر إلى المنزل وإلى حزمة الضوء العريضة المنبعثة من الباب وعبر الفناء.

في المنزل كانوا يلهون ويغنون ويرقصون. حين ناداه الآخر، توقف عن الصفير فجأة، ورفع رأسه، واستدار بسرعة، دورة كاملة.

"أهلا أيها المبجل!"

رد الرجل: "من؟"

اضطر أن يتنحنح مجددا؛ كأن نوعا من الشلل انتابه. ذهب دهاؤه القديم، ومكره، وبحث عن الكلمات، وكان القصور الذاتي في صوته عقبة كأداء.

قال بغلظة: "ما الذي تنوي أن تفعله هنا أيها المبجل؟".

صفر الرجل الخفيف الخطو "فو فو.. فو فو.!"

اقترب بضع خطوات:

"ها أنت هنا إذن! أنت من كان يتسلل خلفي. السيد الرحّال! حسبت..".

غمرهما الضوء، وعرى وجهيهما بشكل مقيت.

قال وعلى سحنته تكشيرته البغيضة: "حسبت بالطبع أنني أحد اللصوص الذين كانوا معك، يا حضرة المبجل".

لم يهتم المبجل بذلك. اقترب منه أكثر، حاملا بيده صولجان الرسول، ورفعه كأنما رغب بان يثبت شخصيته.

قال وهو يجر قدميه مثل خصي أو شاذ مغرم بالصبيان: "حسنا يا قبطان، يا عزيزي الرحال - أمير البحر! ها أنت هنا إذن!".

غمغم الكهل وقد عيل صبره: "لا تتكلم بصوت عال هنا؛ ليس ثمة ضرورة لذلك. يمكنني أن أسمعك جيدا. ما الذي تريده؟".

ضحك الرسول جذلا: "مجرد حديث. حديث معك بالطبع. ومعها طبعا. أنت تدرك ربما عن أي موضوع؟".

تردد قبل أن يجيب. لم يقرر في داخلته إذا ما كان على قلبه أن يشعر بالغضب،

أجل، الغضب المتغطرس، أو الأسى؛ وهل عليه أن يظهر سخرية خفيفة أم زراية شديدة. ولا وثق بصوته. برّحه أن يرى أنه تغير. وقف الآخر هناك، وجسده يتأرجح كأنما يتدلى سعيدا من علاقة الثياب - رداء خاويا في مهب الريح.

قال أخيرا بغلظة: "من أرسلك إلى هنا أيها المبجل؟ إذا كان لديك أي سؤال تريد أن تطرحه علي فلسوف أجيبك، لكن بشرط ألا تتكلم معها الآن - هناك في المنزل - إنها سيدة أجلّها جدا، لكنها حاليا - حسنا، أنا أقدرها كثيرا، وأسدت لي خدمات عظيمة..".

قال الرجل الخفيف الخطو: "هل قدمت لك خدمات عظيمة حقا؟"

تستطيع أن ترى أنه على حافة الانفجار لتنطلق الكلمات من داخله: تأرجح جسده من جديد، وبدا وكأنه على وشك أن يضع مولودا! "حسن، الآن، نظن بأنك أسير هنا؛ هذا ما نظنه. أم هل تعتبر المكان منتجعا للراحة؟".

بمقدورهما سماع هدير البحر: موجاته تلطم الشطين. فكر في سره: إنها الأعوام، تكتسحني الآن.

"إن كنت تحمل تهنئة أو رسالة إلي، فسأطلب منك أن تسلمها لي فورا، أيها المبجل".

ماد الآخر بجسده.

"أمرت أن أقدم تقريرا لك وأعطي رسالة إليها - الـ..، حسنا، مديرة منتجعك".

قال بفظاظة: "لا أريد سماع أية تقارير. لست مهتما بالتقارير هذه الأيام. لقد فات الأوان".

اعتدل الآخر في وقفته؛ يمكنك تخيله وهو يضرب الأرض بعقبيه.

"أوامري تقتضي أن أقدم تقريرا أيها الجنرال!"

قال وهو عارف بالمرسل: "ممن؟ هل لي أن أسأل؟"

"هل أنا بحاجة لأبلغك؟".

قال بصوت متعب: "كلا. ولسوف أصغي لك أيها المبجل، إذا وعدت بعدم التحدث معها الآن، فورا".

مرة أخرى ماد جسد الرجل الآخر، ولوح بعصاه القصيرة أمام أنف الرجل الملتحي.

قال وهو يغير تكتيكه: "لربما لن أقدم لك أية تقارير، ربما لن أزعجك بأوامري. فمن يعلم ماذا أفعل لو غضبت منك يا أمير البحر! هل تعرف أنت؟".

تذكر أن خائن الأمانة يقف هناك قبالته، وتحرك بضع خطوات إلى الوراء، كأنما العتمة أحلك هناك. قال في سره: إنها السنون. الآن تجتاحني مجددا وفي هذه المرة لن أهرب.

قال بقدر ما يستطيع من الهدوء: "هنالك كوخ في الجبل على مسافة قريبة من هنا، كثيرا ما لاذ به الرعاة حين تمطر. يمكننا التحدث هناك. هيا بنا".

تقدمه في المسير. وتبعه خفيف الخطو ووقع أقدامه مسموع؛ وكان يصفر لحنا خفيعنا مرة أخرى.

-٢-
الانتظار

تهادت ابنة دوليوس في مشيتها، وهزت ردفيها، ثم رعشت جسدها كله، ورفعت ذراعيها فوق رأسها كأنما تقف أمام المرآة، رغم عدم وجود أية واحدة قربها. الآن، هناك جماعة من الرجال الودودين في المنزل، ولذلك استعرضت صدرها ومؤخرتها المتمايلة أمام عيونهم، لكن حتى لو كانت وحدها لفعلت ذلك، في عبق عطرها الفواح، وظلها؛ بل ينعكس غنجها في أصوات العبيد الآخرين التي توازن بين الحسد والإعجاب.

"ميلانثو!".

قالت: "نعم يا ست" (وليس "حاضر يا سيدتي" أو "حاضر يا صاحبة الفضيلة" أو "حاضر يا صاحبة السمو" كما يفعل العبيد والجاريات والوصيفات). قالت "نعم يا ست!" بصيغة السؤال، بصيغة لوم لأنها انزعجت، أو تنازلت وتعطفت.

انتظرت بينلوبي. فقد حان وقت تصفيف شعرها. يوريكليا، المربية العجوز ومرضعة الأبطال، كانت تضع مناشف باردة وساخنة على وجهها لإضفاء النضارة على بشرته. ما زالت العجوز تظن أن لها بشرة ناعمة جميلة، لكن الفتاة التي تنعم ببشرة سمراء تتناسب مع جدائل شعرها الفاحم المشدودة (الذي تفوح منه رائحة الزيت)، تظن أن السيدة المبجلة تبدو ذاوية تماما. كانت مهمة ميلانثو تصفيف شعرها. تقدمت خلسة ووقفت على عتبة الباب.

"نعم يا ست؟".

"قالت المرأة الكهلة: شعري".

"أجل يا ست".

تقدمت الفتاة بهدوء ونعومة إلى الأمام وقد حبست نفَسَها، لكن الصندل الذي

تتعله أصدر قعقعة عالية لا ضرورة لها حين داست الأرضية الخشبية في مخدع النساء.

علقت بينلوبي بنوع من الكآبة: "انتعلت الصندل في غير يوم الراحة".

قالت الفتاة: "أجل يا ست"، لكن صوتها الآن غدا خنوعا ومتملقا ومتوددا.

عملت يداها الناعمتان الفتيتان برشاقة وسرعة. سرحت أولا شعر الأميرة البني الطويل الرائع، وإن بهت لونه نوعا ما، ثم ضفرته في ثلاث جدائل طوتها على شكل لفائف. شاهدت قرب الأذنين بعض الشعرات الرمادية، تلقت الأوامر بنزعها، لأن يوريكليا لا ترى جيدا. هنالك ثلاث أو أربع شعرات. شاهدتها بالأمس أيضا، كما تتذكر؛ ولو أرادت لتذكرت أن الشعرات الرمادية ظهرت قبل أربعة أو خمسة أيام. لم تهتم بها الآن أيضا. هناك اثنتان على الأقل في الجانب الأيسر، واثنتان في الأيمن. رفعت بينلوبي المرآة ورأت على السطح البرونزي الصقيل وجها مشوها زيفته المرآة. لم تشاهد بنفسها أية شعرة رمادية.

سألت وهي تتجنب ذكر أي شيء عن اللون: "هل هناك أية شعرات زائدة؟".

أجابت الفتاة: "لا أرى أيا منها".

"انظري مرة أخرى!"

كانت الجملة بلهجة آمرة.

انحنت الفتاة واقتربت أكثر، من العنق البغيضة، العنق البغيضة البيضاء، وشعر المرأة الكهلة المقيت. ومن خلال النافذة أمكنها رؤية إحدى قطط المنزل تمشي عبر الفناء الداخلي باتجاه البوابة.

قالت: "أجل. واحدة".

"واحدة فقط؟".

كان ذلك بمثابة أمر للبحث بصورة أدق.

قالت برقة "أجل، لا أرى سوى واحدة. لم يظهر الكثير منذ مدة طويلة".

لانت بينلوبي إلى حد ما.

قالت: "حسنا، انزعيها".

طرفت الكهلة بعينيها وانتظرت - خافت على الدوام من التعرض لأي ألم، كانت

شديدة الحساسية، منذ صباها. صرخت "أو!" حتى قبل أن تشعر بالوجع. انتزعت الفتاة شعرة بنية مع الرمادية. وحين التفتت لتنظر كانت البنية قد سقطت على الأرض؛ رفعت الأخرى كي تتفحصها سيدتها. أخذتها، ونظرت إليها بأسى، ثم لفتها على شكل خاتم ضيق حول أنملة خنصر يدها اليسرى، وسحبتها وجعلتها على شكل كرة صغيرة. ابنة دوليوس ذات الشعر الفاحم قالت في سرها: فلتستخدم الشعرة في السحر، لتحرقها، لتبتلعها. فكرت: حان الآن وقت الاستجواب. وصابت في تخمينها. فهو يبدأ دائما قبل أن تخلع السيدة الكهلة "الروب دو شامبر" وترتدي ملابس الصباح. كانت يوريكليا العجوز تستنفد كل ما لديها من ثرثرة قبل أن تسرح شعرها، حيث تجلس طيلة الصباح على حافة سريرها تهمس وتئن. يا للسماوات كم هي قبيحة، هكذا فكرت ابنة دوليوس، وكانت أفكارها شديدة التركيز والكثافة بحيث شعرت فجأة بالخوف من أن تصبح مسموعة.

تنحنحت العجوز النحيلة، ذات الشعر الرمادي والعينين الحادتين لكن الحسيرتين، والثديين المترهلين الذاويين، والعنق المحنية، واليدين اللتين بانت عروقهما (هكذا كانت الفتاة تراها بعيون الصبا المترعة بالازدراء والتقزز). عندئذ بدأت الكهلة من فورها.

"اقتربي يا ميلانثو".

تقدمت الفتاة بضع خطوات إلى الأمام، واستدارت ووقفت قبالة سيدتها، ومالت إلى جانبها قليلا. اتخذت موقفا دفاعيا، أي: هزت شعرها الصوفي القصير، ونظرت ببراءة - في ذلك اليوم كان بياض عينيها محتقنا بالدم - ورطبت بلسانها شفتيها، ثم رسمت ابتسامة عريضة مداهنة. الرعب كَمَنَ خلف الابتسامة.

"تبدين نعسانة اليوم يا بنت".

"إذا أرضاك قول ذلك"

"هل جافاك النوم؟"

أجابت الفتاة: "لا يا ست"، وصدقت القول: فقد نامت نوما عميقا، وتلك حالها دوما إن سنحت الفرصة. الآن، فتحت عينيها بصورة أكبر لتبالغ في إظهار انتباهها ويقظتها. وحين حدقت إلى فم سيدتها، وجبهتها، ومنبت شعرها، وأذنيها، وذقنها، تحرك رأسها ذات الشمال وذات اليمين في رعشات خفيفة. كانت مصغية لجلبة

الأصوات الآتية من الصالة الكبرى أسفل المنزل، ومن فنائه الخارجي، ومستعدة لتتيقظ وتنتعش وتمتلئ بقدر هائل من الحيوية والنشاط حين يؤذن لها بالانصراف ومغادرة المخدع. جذبت بطنها بقدر ما تستطيع - وعليه ركزت بينلوبي بصرها.

"إنه يوريماكوس، أليس كذلك؟".

زفرت الفتاة صوتا خفيفا واهيا لا بد أنه عنى "أجل"، لكنها بالتأكيد لم تكن بحاجة لذلك. إذ لم تغض بصرها، إلا أن السمرة زادت في وجهها.

"وانتينوس؟".

معظم هدوء الكهولة غاب عن صوت بينلوبي؛ وحل محله الشك وعدم اليقين الآن. رفعت بصرها، لكنها لم تنظر إلى الجارية وجها لوجه. رمقت شعرها الغجري الأسود، والجيد المتمايل، والثديين الناهدين المكورين اللذين سرعان ما سيرضعان وليدا - وانزلقت نظرتها على عجل إلى الخصر. ليس ثمة حاجة لأن تهمس بالجواب - لا- وهذه ستكون الكلمة الصحيحة المترعة بالحقيقة؛ لكنها خافت من أسماء أخرى.

قالت سيدتها برقة: "أجل، أنت تطاردين كل الأنواع. أنا لا أسمع عن ذلك بالطبع، لأن وقاري لا يسمح به، ولا مركزي، ولا يناسب أذني أن تصغي لمثل هذا الأمر. لكن حين يهمس به إلي، لا أستطيع تجنب معرفة ما يدور. أنت تنسلين خلسة إلى هناك في الليل، وتجلسين معهم حين يعجزهم السكر عن العودة إلى المنزل أو الخان. أعرف هذا، وجوابي المناسب الوحيد، الملاحظة التي ينبغي أن أبديها إذا سمحت لأذني بسماع مثل هذه الأشياء، إن اخترت الإصغاء لمثل هذه الهمسات، سيكون معبرا عن الرفض القاطع - هل يقتصر الأمر على يوريماكوس وحده؟".

ملعونة الإشاعات والثرثرات العتيقة، هكذا فكرت الفتاة ونظرتها المحدقة تصل في مداها إلى يوريكليا.

قالت: "أجل". اللفظة كانت واضحة، رنانة، رغم أنها لم تكن صادقة تماماً.

"هل يثير انتينوس المتاعب".

أجابت الفتاة بنبرة بهيجة مفعمة بالحيوية: "لا أعرف. لا أعرف ما الذي تعنيه سموك بإثارة المتاعب. لكنه يتكلم بصوت عال؛ يتناقشون حول العديد من الأمور التي لا أستطيع فهمها، ولا يعطيني دوري كجارية الحق بالفهم (شددت على كلمة "دوري"). لكنه يتكلم بنبرة أعلى من كل الآخرين".

عندما رأت الجبين الملكي، جبين الكهلة، يتغضن وترتسم عليه أمارات الكآبة، قالت مبتهجة وهي تأخذ نفسا سريعا:

"كثير من الناس يرون صوته جميلا حقا".

اختفت التجاعيد، من وجهة نظر الفتاة، من الوجه الكهل الهرم والذاوي.

ومع ذلك، حسبما فكرت ابنة دوليوس بازدراء، ما زالت تعتبر جميلة، وما زال الناس يقولون مع مسحة من الصدق في أصواتهم، إنها فاتنة ومحببة إلى النفس. خشيت مرة أخرى أن يسمع أحد أفكارها؛ زفرت، ثم استردت نفسها مجددا، كي تنطق كلماتها التالية بشكل متوازن وهادئ، قالت وهي تنحني مرتين: "غياب الست هو الذي جعله يصرخ مطالبا بحضورها".

تبدت ابتسامة (ينبغي القول إنها جميلة حقا) على محيا المرأة الكهلة، إشراقة من جبل هليوس النوراني انتشرت على بشرتها؛ هزت رأسها استنكارا:

"اذهبي الآن أيتها الحمقاء".

* *

حين ابتعد وقع الصندل المتحدي - الذي زاد تحديا كلما نأى - بعد أن عبرت ميلانثو حجرة الانتظار، ثم هبطت سلم مخدع النساء، إلى القاعة، ولم يعد من الممكن لها أن تسترق السمع، التفتت السيدة النبيلة إلى يوريكليا. تقابلت عيونهما في نظرة واضحة من الفهم المتبادل لا يمكن أن تعبر عنها الكلمات. بإمكان العجوز تفسير تعبير المرأة الأخرى كما تهوى، ولم تخطئ التفسير أبدا؛ لكنها أيضا نشأت في عصر العواصف السياسية، حين أحضرها والد "الغائب" إلى الجزيرة. بصرها الحسير، الذي كان ادعاء ملفقا إلى حد ما على أقل تقدير، أنقذها بصورة معجزة بين حينٍ وآخر من وجوب الاعتراف بأنها فهمت هذا الأمر أو ذاك: إذ إن قصر البصر المزعوم الذي يصيبها بشكل دوري منعها من السقوط في الشَّرَكِ التي فشل العديد من ذوي البصر المديد الحاد في رؤيتها عند أقدامهم. فلو لعبت يوريكليا دورا سافرا في السياسة لأصبحت وزيرة بكل سهولة، وزيرة للإعلام ربما، أو للمالية، أو احتلت منصب مفوض (قوميسار) الشعب. بالطبع، كل ذلك مجرد افتراض تخميني. لكن في موقعها الحالي الذي شغلته ما يناهز عشرين عاما، انخرطت (ربما ليس بأسلوب هادئ وصامت وغير

فعنولي كما حسبت، لكن بدون هدف محدد) في أنشطة إدارة شؤون الدولة شملت كافة أفرع الحياة المدنية والسياسية في ايثاكا، ووصل نفوذها إلى كل مجموعة الجزر على شكل تعليقات هامة، أو هز رؤوس، أو وكزات، أو غمزات، أو همهمات، أو نحنحات، أو انحناءات، بدءا من ليوكاس ودوليكيوم، مرورا بساموس وزاكينثوس، وصولا إلى البر ذاته. وبدون مبالغة تتجاوز ما هو ضروري تماما لتوضيح فكرة النطاق الخفي لتأثير شخصيتها، يمكن القول إن قصر بصرها مكنها من أن تفهم بكل وضوح النزعات الاقتصادية والسياسية في أقرب بقعة من البر، في اكارنانيا، حيث تمتلك الأسرة قطعانا من الماشية على مراع مستأجرة في المناطق الرعوية الخصبة. نفوذها، نفوذها الخفي، امتد مسافة أبعد حتى من ذلك، لكن إن تجرأ أحد ليوحي بهذا الأمر، كانت تضغط يديها المعروقتين على ثدييها الذاويين. وتقول شيئا مشابها لما يلي: "لا أفهم ما تعني! أنا، العجوز البائسة؟ لا يمكن أن تكون عاقلا!". أو ربما تقول: "إن أردت المباهاة أمكنني القول بأنني وصيفة، لكن في الواقع، كما ترى، أنا مجرد مربية عجوز أعتني بالأطفال، وتجد السيدة متعة في التحدث معي بين حين وآخر". لكن في الحقيقة، لا ينحصر الأمر في السيدة وحدها، بل في يوريكليا ذاتها التي يعمل لديها عملاء ومخبرون في كافة الجزر وعلى البر - وغير ذلك من الأماكن.

التقت عيونهما معا مرة أخرى، بينما ظلت ترتسم على محيا المرأة الكهلة تلك الابتسامة الصباحية المغناج، التي بدت وكأنها تقول إن أمامها يوما واعدا تترعه، أو تنكهه على أية حال، أحداث سارة. كانت بينلوبي خبيرة محنكة، عركتها رغبات الحياة ومشاعر الوحدة، لكنها لم تتقدم إلى المستوى الذي بلغته المرأة العجوز، أي أنها لم تتجاوز تخوم الرغبة إلى تبني موقف التسليم الحيادي، أو مرحلة الفعل الهادئ/النشط، الفعل الذي يعتمد - بطريقة ما - على الإيثار والتجرد من الدوافع الشخصية. قدرتها على التصرف تتبدى بوضوح في شكل ذقنها والخطوط المحيطة بالفم والعينين، بلونهما العسلي، والتجاعيد الصغيرة التي تعطيهما تعبير الباحث المستطلع. كانت مهذبة حسنة السلوك، لكنها في ذات الوقت امرأة عملية وفاعلة، وليست مجرد نصف إلهة تكتفي بالتفحص والمعاينة - وهو دور شاع كثيرا بين السيدات النبيلات اللاتي اعتدن حياة الدعة والكسل في البر وحتى على الجزر، والذي

كان مرده – في جزء منه – إلى التقوى وعظات ونصائح الدعاة الجوالين المتمكنين من أسرار الدين. كانت ربة بيت مقتدرة. أما التراخي الواضح على جسدها الكهل فقد قوّى - بدل أن يُضعف - ذلك التعبير. كان مسلكها مسلك العارف الخبير، لكن أي عالم نفس متمرس سيلاحظ بسرعة أن موقفها سطحي ولا ينبع من الصميم. لبت متطلبات مركزها، لكن مع ابتسامة بينها وبين ذاتها، ابتسامة تسخر من ذلك الجزء من ذاتها الذي ينحصر في تحمل الأعباء المنزلية والزراعية في الجزيرة. حين ترى وجهها تضطر للاعتراف، كما تفعل يوريكليا أو الفتيات والجواري، أوالنبلاء في القاعة الكبرى، أو المزارعون والرعاة، بأن هناك مبررا كافيا لمناداتها بلقب سيدة، أو "مدام"، أو صاحبة الفضيلة - وليس صاحبة السمو الأميرة أو الملكة. لقب "الزوجة" كثيرا ما استخدم في مناداتها أيضا، رغم وجود العديد من الزوجات اللاتي هجرهن الأزواج، لكنها كانت بالطبع "الزوجة" بألف ولام التعريف. وإذا ما قام رواة الأحداث، وأولئك الذين ينقلونها بعد تعديلها أو تضخيمها أو اختزالها، والذين هم أدوات الآلهة الجليلة وجماهير العامة من الطبقات الوضيعة، بتعريف الناس عن طريق الكلام الشفاهي أو الكلمات المحفورة على الألواح الحجرية أو الشمعية، بأن بينلوبي تعيش على مستوى ما تتمتع به من اعتبار ومكانة، ومركزها كملكة للجزيرة، لكنها لا ترغب بالاستفادة من مجدها وعظمتها، فإن ذلك لا يشير إلى أي تناقض ذاتي عميق في شخصيتها. لقد ولدت أميرة، وفي الممارسة السياسية كانت ملكة، الزوجة الحاكمة للمملكة؛ لكن كان من السخف مخاطبتها بلقب "صاحبة الجلالة"، ولم تجر أية محاولة من هذا القبيل. الأمير، تيليماكوس، كان يلقب أيضا بـ"الفتى" أو "الابن"؛ وهذا ما أكد موقعه في المجتمع، لكن في ذات الوقت أشار إلى ازدراء خفي للتملق والتزلف والألقاب الشائعة على البر الرئيسي: مثل صاحب السمو، وغيره من الألقاب التي يجعلها الاستعمال اليومي تبدو هزلية بالنسبة لسكان ايثاكا الذين تتركز اهتماماتهم على الخراف والماعز والخنازير. لكن لم ينس أحد - ولو ثانية - أنها "السيدة" و"الزوجة"، والسيدة الأولى في مملكة الجزيرة؛ وحتى حين تغزل أو تنسج من أجل متعتها الخاصة - والفائدة المادية - أو تمد يد المساعدة في جز الصوف أو حلب بقرة أو معزاة، فإن ذلك لا يمثل مجرد فعل عملي، بل فعل طقسي، مباركة، استحسان كريم مهذب، إقرار بقيمة العمل وتقدير للجسد واليد الصَنّاع التي تؤديه.

كانت عظيمة بجمالها.

من الطبيعي ألا يمثل ذلك رأي الفتيات الوقحات من أمثال ابنة دوليوس السمراء، ولا أولئك الجواري اللاتي ضاجعن الأعضاء الشباب والكهول من عصبة المطالبين بالزواج، متبعات الإملاءات التي فرضتها خدمتهم وإمتاعهم، لكن المراقب الجاد لا يستطيع إلا أن يجد بهجة وسعادة في ذلك المزيج بين افروديت وديميتر. كانت في ذروة مرحلة الأمومة، قبل أن يذوي الجمال وتبدأ الشيخوخة، التي يمكن أن تمثل أيضا قمة الصفاء والنقاء، والدماثة، والروحانية. كان وجهها سمحا جميل الشكل، وجبينها عريضاً وضيئاً، لكنه ليس مرتفعا كثيرا بحيث يؤثر على تناسق الوجه؛ أما العينان فهادئتان وما زالت الجاذبية تكمن فيهما، في حين أن الشعر بني، كستنائي تقريبا - كما أسلفنا - وبالرغم مما فكرت به ابنة دوليوس، فهو ناعم الملمس. في ذقنها أمارات دالة على القوة لكن ليس على القسوة، والجيد بديع التكوين. كانت جميلة الهيئة، ولم تكن بحاجة لبذل جهود إضافية كي تبدو عامرة الصدر ضامرة الخصر مكورة الكفل. جمالها يكمن في تناسق خطوط جسدها إذا جاز التعبير.

مشيتها متمهلة مهيبة - لا يمكنك مثلا تخيلها وهي تركض - لكن ليس فيها ثقل الكهولة. كانت تعتني بيديها وقدميها عناية شديدة، وتستعمل مساحيق التجميل على ذراعيها ووجهها، لكن ليس إلى حد الإفراط. على وجه العموم، كانت امرأة جليلة وجميلة، امرأة قادرة على تزيين أفضل البيوت، وأفخم القصور وأكثرها ترتيبا وتنظيما. امرأة تتمتع شخصيتها الطبيعية الهادئة والحاذقة - وليس فكرها ربما - بقوة التأثير أو السيطرة على أية حال: لو تواجد غيرها من النساء في نفس الغرفة، فإنها هي وحدها، مهما كانت الظروف، ستكون السيدة الأولى، لا بسبب مركزها الاجتماعي فقط ولكن أيضا، وفوق كل شيء، بسبب تأثير ملامحها، وطريقتها في الجلوس، وحركاتها وإشاراتها.

قالت: "دعيني الآن أسمع التقارير المتعلقة بقطعان الخراف والخنازير. أما البقية فيمكنها الانتظار حتى بعد الظهر".

كانت تقف أمام النافذة المفتوحة. وشاهدت قطة تسير ببطء في الفناء الداخلي حاملة فأرة بفمها.

* *

مما لا شك فيه أن ميلانثو، ابنة دوليوس، تمتعت بمركز اجتماعي جيد، ولا ريب في ذلك حتى وإن اعتقدت، متأثرة بشقيقها وكيل قطيع الماعز، بأنها أتت من عائلة كريمة المحتد في بلد في أقصى الجنوب، على الطرف الآخر من البحر العظيم. لكنها لم تكن راضية بذلك، ولن يكون من الطبيعي أن ترضى؛ إلا أن هنالك أوقاتا كانت تبتسم فيها وتقنع، لحظات من السعادة الهادئة حين يقوى شعورها بالحماية. لم تكن خاضعة لحالة العبودية. ولربما يقال عنها في العصور اللاحقة بأنها جارية، لكن الراوي الذي يهتم بعقلها كما يهتم بمظهرها الخارجي سيقول: لقد تم إلغاء الرق من قبل "الزوج"، "الرحال"، الذي تاق إليه كل من في المنزل ولربما خافه، لكنه ظل محتفظا بعبيده. كانت ميلانثو من ممتلكات البيت تبعا لكافة قوانين وأنظمة البشر، وشرائع الآلهة بالتأكيد، لكن عاملها سكانه كفتاة تعمل في خدمة "العائلة"، وتخلوا معها عن المنظور القانوني.

سارت عبر الفناء ورأت القطة.

الراوي الذي يتمتع بمعرفة أكبر بآلية الحياة والمطلع على الأمور التافهة وظلالها، ربما يصف المشهد على النحو التالي:

مشت ابنة دوليوس عبر الفناء، ووقع أقدامها مسموع. أشعة الشمس لاهبة. رأت القطة وهي تمسك بفكيها - أو بفمها - فأرة رمادية. الفأرة ملأت شدقي القطة. تهادت ابنة دوليوس في مشيتها وراءها. وهاهو يأتي نحوها.

"مرحبا!"

"يوم جميل".

"هل أتى الآخرون؟".

"أجل، بعضهم".

أمسك بذراعيها.

"دعني يا يوريماكوس. اسمع، أنا حامل".

"هذا أمر لا يعنيني أبدا. وبغض النظر عن ذلك، لقد استطعت مراوغتي الليلة الفائتة! مع من؟".

"هذا ليس من شأنك".

"انتينوس، بالطبع؟".

"أحمق. كنت متعبة وحسب، يا عزيزي".

وصلت القطة إلى منتصف الفناء. ركلها بقدمه؛ انطلقت كالشيطان باتجاه باب القطط عند مدخل المطبخ.

الشمس تسفع الأرض بأشعتها، الحارة، الحارقة.

عيناه سوداوان؛ هنالك موت يكمن فيهما. الخراف والماعز تتبارى في الثغاء خارج الأسوار وصولا إلى التلة المطلة. الطعام سيكون جاهزا بعد قليل. في الفناء الخارجي يذبحون خنزيرا وبعض الخراف. وهج الشمس لاهب وقاد.

"لسوف نرى بعضنا في أصيل هذا اليوم يا يوريماكوس".

"هل أنت متأكدة".

"متأكدة".

"حسن، إلى اللقاء إذن".

قعقع وقع الصنادل في اتجاهين مختلفين. مزيد من الرجال تجمعوا أمام البوابة، كهول وشبان.

يمكن سماع أصوات صليل وقعقعة من خارج القاعة الكبرى حيث يتجردون من أسلحتهم.

الشمس تسفع الجلود فعلا؛ ولم يصل النهار إلى منتصفه بعد.

أجل، تلك هي إحدى الطرق لوصف المشهد، الحقيقة، الرواية المباشرة، التصوير الفاعل. لكن يمكن تقديمه بأسلوب آخر:

المنزل - أو القصر - مكون من طابقين اثنين. فهو ينتصب، مثل الأكروبول، وسط مجموعة من البيوت الجميلة المشرفة على الميناء على الخليج قبالة المضيق الفاصل بين الجزيرة وساموس الصخرية. وفي الأسفل، على المنحدر، تمتد مزارع وكروم البلدة. في ذلك الجزء الشمالي من الجزيرة، حيث ترتفع الأرض، يقع المرج الذي ترعى فيه قطعان

الأغنام والماعز. في حين يعيث الخنازير في الطرف الجنوبي، الذي يمكن الوصول إليه عبر الجرف المرتفع للتلال ومجاز ضيق من الأرض.

هنالك فسحتان واسعتان أمام القصر. الباحة الخارجية المسورة التي تأخذ شكل مستطيل - لذبح الحيوانات وتقديم القرابين - عرضه خمسون قدما وطوله مائة وخمسون. والباحة الداخلية، التي تسير عبرها ابنة دوليوس الحبلى، وهي أصغر مساحة إلى حد ما ومعبدة جزئيا بالحجارة المسطحة: الجدران، بارتفاع قامتين، مبنية من الحجر الصامد المصقول، حيث وضعت كتلة فوق كتلة دون استخدام الملاط. وفي داخلها تقع بئر عميقة تصلح مياهها للشرب. هنالك صف من الأعمدة يحيط بالباحة الداخلية من جهاتها الأربع، وينتصب في مركزها مذبح العائلة وصخرة الذبح. القاعة الكبرى التي يتم الدخول إليها من الباحة الداخلية عبر مجاز مسقوف، تبلغ مساحتها أربعين قدما مربعا تقريبا، ولا يوجد فوقها طابق علوي. في المركز هنالك موقد وأعمدة حوله، وعلى مسافة قريبة من الجدران هنالك دعامات أخرى تسند عوارض السقف؛ وبين الأعمدة والجدران توجد مساحة كافية للموائد. وتقع خلفها قاعة أخرى، بنصف مساحتها، ويصعد منها سلم يفضي إلى مخادع النساء حيث تقيم بينلوبي. وفيما وراءها أيضا، في الطابق الأرضي، تقع غرف المؤن وغرف الضيوف، ثم الباحة الخلفية مع مخزن السلاح. هنالك أيضا غرف الخدم والمطبخ الداخلي وبعض الغرف الصغيرة الأخرى.

ساءت حال القاعة الكبرى نتيجة البلى الذي أصابها من الاستخدام اليومي من قبل عدد كبير من الناس لعدة سنين. الاحتفال كان يدعى "الخطبة"، لكنه عبارة عن سلب ونهب في واقع الأمر.

على جانبي القصر كليهما، ووراء الأسوار، تنتشر بيوت سكنية رحبة، ومزارع الزيتون وكروم العنب. أما بقية البلدة على المنحدر باتجاه الميناء فتتألف من بيوت بيضاء صغيرة ومتوسطة الحجم، في حين تتبعثر الأكواخ على الأطراف. هنالك العديد من السفن في الميناء على الدوام، إما راسية فيه أو تقف على الشاطئ المغطى بالحصى. ولا يمكن لأحد أن يصف البلدة بأنها رائعة إلا من أبقاها في ذاكرته أو مضّه الشوق إليها وهو بعيد عنها.

جلست ابنة دوليوس بين الأعمدة إلى اليمين، تستجير بظلها من هجير الظهيرة. كانت هي والقطة الآن في نفس الجانب؛ ونظرت القطة من خلال "فتحة القطط" في ممر المطبخ تستعرض متباهية فأرتها الرمادية السمينة. وضع يوريماكوس رمحه في المعبر المسقوف ودخل القاعة الكبرى، لكنه التفت مرة أو اثنتين ليتابعها بنظراته. ومن دون مبالغة شعرت بنظرته المسددة إلى ظهرها.

قامت بالجولة، وخرجت إلى ضوء الشمس، وتبعت في المجاز الضيق ظل الأعمدة، ثم خرجت إلى الشمس مرة أخرى. مشت بتمهل خارجة من المدخل إلى الباحة الخارجية. كان اثنان من نبلاء ساموس يهمان بالدخول. لسوف يعقد لقاء كبير ومناقشة موسعة ذلك اليوم – وماذا يناقشون: السياسة. السياسة بالنسبة لها مثل القطة، ومثل القدر. قدرها. عرفتها جيدا، لكن في كل مرة تنحني لتداعب السياسة، وتلاطفها لتتعرف عليها أكثر، تهرب مبتعدة عنها. فهي متعلقة بالموت والقسوة، بالأسنان والبراثن الحادة. ولها صلة بحلمها: الحلم بان تصبح ابنة دوليوس السمراء ذات يوم سيدة عظيمة، حاكمة، تستعيد كافة حقوقها: الحق بحرية اللهو، واختيار العديد من الرجال، والحق بحرية القصاص، والانتقام. لم تعرف دوما ممن، إنما فكرت بالانتقام وحسب. ما عرفته من السياسة، معرفة متأصلة أو موروثة، هو أن عليك أن تكسبها إلى صفك إذا أردت أن ترتقي لتصبح ما كنته.

انتينوس سيضرب ضربته الكبرى ويغير كل شيء. التغيير شأن من شؤون السياسة. ثمة حاجة إلى شكل مختلف من أشكال الحكم إذا أردنا تصحيح مسار كافة الأمور. حين قال ذلك، عرفت بأنه أصاب.

لم يأت رئيس المطالبين بالزواج إلا بعدما جالت تحت الشمس والظل ثلاث جولات. هنالك امرأة تقف على الأرجح أمام النافذة وتنظر منها، ربما هي يوريكليا أو السيدة. لم تأبه لذلك كثيرا، ولا تخاف منهما إلا إذا كانت وحيدة.

همست: "انتينوس"، التفت نحوها قبل أن يتوقف: لكنه رفع رأسه ونظر إلى النافذة في الطابق الثاني.

:نعم يا فتاة ماذا تريدين؟".

كان بمقدورها أن تقول بأنها تريد كل شيء. تلك هي الحقيقة. أرادت أن تقف هناك في المدخل المضاء، لتعلن عن نفسها، لتملك العالم، ويملكها هو: الجارية. أرادت أن تكون الضوء الذي يهمس، ومع ذلك شعرتَ برغبة طبيعية وملحة في أن يعتبرها جزءا من كل شيء.

قالت: "أنا واقفة هنا. أردت فقط أن أكون واقفة هنا حين تأتي"، رددت ذلك ببساطة، وانحنت، وفكرت برفع ذراعيها على الطريقة الوثنية والركوع على الأرض، لكنها تذكرت في ذات الوقت أنها ليست جارية فعلا.

قالت: "ثم أردت أن أشكرك على الليلة الماضية".

عبس، وعبر بحاجبيه الكثين عن قسوة مزيفة؛ وجلجل بالسلسلة التي علقها حول رقبته ذلك الصباح وعلت وجهه أمارات التسامح والتعطف. "حسن، حسن. ادخلي الآن. أتوقع أن أدعوك عدة مرات، ربما هذا الأصيل، أو هذا المساء، على الأرجح. هل أتى يوريماكوس؟".

قالت: "أجل".

قال ابن يوبيثيس، السياسي المحلي البارز: "حسن. حسن. ميلانثو، هل تعرفين شيئا عن تيليماكوس؟ هل يفكر بالرحيل؟".

شعرت الآن بسعادة غامرة مرة أخرى؛ فتلك سياسة وهي تساعده بها.

قالت بأسلوب غامض يناسب السياسة: "اكتشف الوكيل المسؤول عن رعي الخراف بعض الأشياء". ولم تقل "شقيقي" أو "ميلانثيوس ابن دوليوس".

قال: "حسنا، حسنا. ماذا عرف؟".

قالت بغرور: "يتبنى أفكارا ظلامية. فهو.. "

قال بتبرم: "حسنا، حسنا".

قالت: "انتينوس..؟".

"نعم؟".

"ألا أعجبك ولو قليلا؟". تألقت كأشعة الشمس، وبدا ظلها الصغير محببا. كانت ستلمسه بيديها الجميلتين لو لم يبتعد خطوة قصيرة إلى الجانب ويختلس نظرة سريعة إلى مخدع "الزوجة"، التي من المحتمل أن تكون "أرملة"، ولربما ستصبح قريبا "ثكلى".

قال: "أجل يا طفلتي. طبعا، طبعا. إذا التقيت بأخيك فقولي له إنني أريد التحدث معه".

كان سياسيا في عجلة من أمره، كأنما يريد تشكيل حكومة قبل حلول المساء، لكن لائحته ليست مكتملة تماما. راقبته ابنة دوليوس وهو يختفي داخل القاعة الكبرى. مشت إلى الباحة الخارجية؛ كانت خالية؛ وقاءت عند أحد الأركان.

-٣-

مسامرة

مشى الاثنان مخترقين قلب العتمة، ولاح اللسان الضيق الداخل في البحر والجزيرة في الأسفل، كظلال سوداء مقابل مياه الليل الرمادية. تسعرت النيران على الجزيرة، لكن وهجها لم يغمرهما، لأنها اشتعلت داخل مخيم كبير وبدأت تخبو الآن. رقص الانعكاس على الأمواج المتكسرة؛ وقفز الضّوء على قممها وهي تتسلل إلى البر. كانت النار وهيجة أيضا في الشمال، على الطرف الآخر من المضيق. ولم يعد بمقدورهما رؤية الضوء المنبعث من منزلها.

مضت فترة طويلة دون أن يتبادلا الحديث. "الرجل الخفيف الخطو، "المتأرجح"، "الغدار"، تخلف بضع خطوات. ما زال يصفر بنعومة لنفسه؛ كان كمروض حيوانات قنع بما أنجز.

الآن، حاول الرجل الأكبر عمرا، كما يبدو من مظهره، أن يستخدم فضلة مكره السابق لإخراج نفسه من سياق الحديث الوشيك، وكان ذلك بمثابة تكتيكات هروبية، حلقة في استراتيجية السلوان. حاول القيام بذلك من خلال إقحام نفسه في الواقع المحسوس للّيل البهيم، عبر التفكير بالأفاعي، والشجيرات الشوكية التي تسبب حكة في الرجلين، والصخور التي قد تتدحرج، والأقدام التي يمكن أن ترتطم بها. عملت الخطة بصورة جيدة. كان يعرف بأنك إذا أردت تذكر شيء عليك بالتراجع إلى غابة الذاكرة، إلى مستنقع الذاكرة، بخطوات صغيرة وئيدة، حينذاك تعود إليها وتقف هناك. أما إن أردت النسيان، فيمكنك أن تنسل مبتعدا، وتتسلل بحذر إلى واقع المستقبل، حتى دون أن يعلق الحاضر بثيابك، بخطوات خفيفة وناعمة كي لا تسمعها الذاكرة، أجل، بحيث تربكها وتحيرها. ذلك ما فكر فيه، لكنه بالنتيجة أحدث ضجيجا وصخبا

ـ ذهنيا طبعا ـ بحيث سمعت الذاكرة وتابعت الأمر بانتباه. لكن مع ذلك حسب بأنه أبلى بلاء حسنا حين لم يمت على الفور من التبريح الهائل لتحريك مشاعر الندم، أو الاستسلام لقهر الترويع المقدس والفرار بجلده. كان ذهنه صافيا، لكن قدرته على التفكير بالشكل المناسب كانت محدودة في تلك اللحظة. بلغت الشجيرات الخفيضة الركب؛ كانا يسيران في ممر طرقته الأغنام. تعلمت قدماه بحذق وبراعة العثور عليه بعد خبرة طالت سبع سنين.

أترعه الأمل. أملَ ـ من ناحية ـ بأن يكون كوخ الرعاة خاليا، بحيث يتمكنان من التحدث دون أن يزعجهما أحد، وطمحَ من ناحية أخرى، إلى وجود بعض الأشخاص هناك، يلغون أو يشخرون، بحيث يقاطعون حديثهما ويمنعونهما من متابعته. في الواقع، تعين عليه أن يكون واقفا خارج المدخل، متكئا على الجدار، الموقع الصحيح للمغادرة، ولتوديع أي عابر سبيل فضولي وثرثار يرغب المرء بالتخلص منه. عندئذ، سيكون بمقدوره القول: الآن يا سيدي العزيز، بدأ الجو يبرد؛ ولسوء الحظ علي الذهاب إلى البيت لأنام. لسوء الحظ أيضا، أنا مرتبط بموعد، وليمة وعدت بحضورها. لسوف تتفهم الأمر، إذ إنني سأظل مشغولا بالاحتفالات التي نظمت ـ إلى حد ما ـ من أجلي... لسوء الحظ، أشعر برغبة في النوم فسلطانه طاغ علي. أنا آسف، لكن هذه هي الحقيقة. تصبح على خير يا سيدي، سعدت بمعرفتك؛ وسيكون من دواعي سروري أن ألقاك على كأس شراب ونتحدث عن التعارف المتبادل بيننا، وعن الذكريات القديمة.

أفعى!

سأله الصوت من خلفه: "هل أنت خائف؟".

انسلت الكلمات خارجة من فيه: "لم تكن أفعى. إنه جذر نبتة. أو ربما عظاءة. الأفاعي تنام في الليل".

قال "الغدار"، "الفضولي": "الجذور الزلقة والعظاءات أشياء كريهة"، لكن لم تظهر في صوته علامة على أنه يكرهها فعلا.

سأل الرسول: "هل ما زال المكان بعيدا؟".

كان بمقدوره الإجابة بأن المكان ما زال بعيدا، يفصله عنهما نأي مسافة مرعبة، بعيدة إلى حد أن الرجل العادي، الإنسان العادي مثله آنئذ، لا يمكن أن يأمل أبدا

ببلوغه، أو ربما غدت الإجابة على النحو التالي: المكان قريب جدا؛ في اللحظة التي ترفع فيها قدمك تكون هناك؛ تيار ورياح الحياة ذاتها تحملك إليه، لكنه ما زال يحتفظ ببقايا دهائه ومكره، الفن البسيط الضروري لإنقاذ حياة المرء عندما يخوض في أحاديث تميت أو تحيي، لذلك قال ما هو مبرر بالكامل وما لا يقبل أي استثناء، بالرغم من حقيقة أن الصفة الوحيدة له هي خلوه من المعنى:

"ذلك يعتمد كليا على نظرتك والحالة التي أنت فيها".

وهذا ما مكنه من متابعة التفكير مباشرة. "تقريبا" هي اللفظة الصحيحة: فهي تتضمن أنه يفكر - إلى حد ما - بجانبه الصائب، نحو الجنوب الشرقي أو شرقا، باتجاه مناطق مينوس، الجزر المتعذر الوصول إليها تقريبا في بحر إيجه، كريت، نوسوس، فيستوس، التي اخترقها ذات مرة، حين كان الزمن ما يزال موجودا. تبع لسانه شفتي فمه المورب؛ عاد إلى ذاك الزمن وعرف تماما متى فقد الأسنان الثلاث أو الأربع، وكيف اقتلع بوسيدون، الممسك بزمام العالم، آكل الجيف، تلك الأسنان من فكيه.

علق "الغدار" بصوت نضح بالنفاق المقيت: "لابد أن المكان هنا مرهق ممل بالنسبة لك".

قال وقد جهد ليبدو مهذبا: "لا أدري الجواب عن هذا السؤال. هل كانت رحلتك سعيدة؟ هل كانت الريح مؤاتية والبحر هادئا، أيها المبجل؟".

"استثنائية بكل المقاييس ياأمير البحر".

كان الاثنان يمهدان السبيل لحديثهما المهم، ويقتربان من النقاش الحاسم من جهتين.

قال "الغدار" بعد بضع خطوات مستخدما أحد ألقابه للاقتراب من الموضوع أكثر: "على أية حال لا يمكن أن تكون سعيدا هنا ياأمير البحر. مع كل ترحالك والتفكير بأن الجميع في انتظارك هناك في الوطن.. أجل، ستمر عشرون سنة بعد مدة قصيرة".

أجاب الآخر "ليست المسألة هل أنا سعيد أو تعيس. ها هو الكوخ".

أشار "الفضولي" بنبرة استفهامية واقعية وصوت غلبه الزيف كليا: "لن تدعك ترحل بالطبع مهما كان الثمن؟".

قال الآخر دون أن يجيب عن السؤال: "المسألة تكادُ لا تتعلق بالسماح أو عدم السماح لي بالرحيل".

الكوخ المبني من الأغصان والطين كان مظلما وخاويا. وحين انحنيا من أجل الدخول من فتحته السوداء زكمت أنفيهما رائحة الماعز والخراف، رائحة التيوس والأكباش التي أثارها انفعال ونشاط الخريف، إضافة إلى الحليب الفاسد، والبول. لا يمكنك في الداخل الوقوف منتصبا. علا حفيف الأماليد اليابسة والطحالب الجافة تحت قدمي صاحب القبعة المخروطية. مد ذراعيه وتحسس الأعمدة الهابطة من السقف بشكل مائل من كافة الأركان. فسقط تراب وأوراق يابسة على مؤخرة عنقه.

قال الرجل الأكبر سنا: "اجلس". جثا الرسول وجلس على كومة من الأغصان المهدة، الأماليد الرفيعة وخزت مؤخرته. وحين استقر في مكانه اكتشف بأنهما يجلسان على جانبي المدخل. ولم تكن ثمة حاجة بهما لبذل جهد كبير والانحناء إلى الأمام لرؤية الناحية الشمالية الأقل حلكة.

تدرب الرسول والديبلوماسي الغدار بشكل صامت على ما سيقوله. كان موهوبا بفتح الثغرات، وأدرك أن عليه توجيه دفة الحديث نحو الموضوع بعناية وحرص، وأن تأثير عظته أو أمره - أو نصيحته - لا بد أن يعتمد كليا على قدرته على انتقاء الكلمات المناسبة وبراعته في الاستجواب.

الرجل الأكبر عمرا - على ما يبدو - كان مستعدا ومتيقظا. رسم تكشيرة بشعة في الحلكة الجحيمية الصامتة داخل الكوخ. بادئ ذي بدء، كان ممتنا للظلمة، لكن حين أخذ يفكر بالاتجاه الذي التفت إليه - جهة الشرق - بدا له أن الظلام يملك قوة اختراق إشعاعات الضياء المبهرة: هليوس الأسود، "هليوس المضاد"، كان ينخز كينونته الجوانية بأصابعه الظلامية. حتى قبل أن يبدأ الكلام عرف ما هو المطلوب، وأنه سيذعن، ويهزم. لا، هنا لم يكن يوجد نصر ولا هزيمة، لكنه سيذهب في اتجاه آخر بعد تلك الليلة.

سأل الديبلوماسي الفضولي من موقعه في الحلكة: "هل كنت بصحة جيدة طيلة الوقت".

"جيدة جدا".

قال "الغدار" وقد عرف بأنه استخدم تكتيكا جيدا: "أجل، فأنت برغم كل شيء ما زلت شابا، وصحتك كصحة الشباب. أنت أيضا قوي جسديا. لكن المرء لا يستطيع إلا

أن يتساءل هل الحياة السهلة التي عشتها هنا لم تكن.. أعني، أن التركيز جرى خلالها على ممارسة الجنس، وليس على التمرينات البدنية، الأمر الذي يوهن حتى أقوى الرجال".

كذب الرجل الأكبر سنا حين قال بصوت أجش: "لا أفهم ما تعنيه أيها المبجل".

"في الحقيقة أنت تفهم!". أتى الجواب مع ضحكة من العتمة التي يخضع فيها للاستجواب. "أستطيع أن أبلغك شيئا: نحن نعرف".

"ماذا تعرفون؟".

"عنك، عن مرحلة العمر الانتقالية، عن نزعة التكرار في فترات منتظمة. أستطيع أن أخبرك عن مئات الحالات. تكون شابا، تقع في شباك الغرام، تتزوج، تتعود زوجتك، تفكر بأن شيئا ما ينقصك، الحب يغدو عادة، و.. آه.. حسنا! ثم تأتي الأزمة! تصادف امرأة، لطيفة، جذابة - وأنت بعيد عن زوجتك! كثيرا ما يحدث هذا مع الرجل وهو في الأربعينات من العمر. كم كان عمرك حين أتيت إلى هنا؟ خمسة وثلاثين؟ ستة وثلاثين؟".

أمكنه أن يقول إنه كان في السابعة والثلاثين، في الثامنة والثلاثين تقريبا، لكنه لم يكلف نفسه عناء الإجابة.

"هل يعجبك المكان هنا؟".

لم يجب الآخر عن هذا السؤال أيضا.

قال ابن زوس، هرميز الغدار، وهو يغير الموضوع تقريبا: "لا بد أن يكون عقلك سياسيا". كان يجر الثور من قرنيه، لكن ذلك أوصلهما إلى جوهر المسألة. قال الآخر مجددا: "أيها المبجل، لا أفهم ماذا تعني".

قال الرسول: "نوقشت قضيتك أمام المجمع. أبدى والدي اهتماما شديدا بأنشطتك الإضافية. وقررنا وضع حد لهذا.. هَمْ مْ مْ.. الفصل من الأحداث في أقرب وقت. لديك مسؤوليات وأسرة؛ لست شخصا عاديا يمكن أن يفعل ما يحلو له. لا يمكنك أن تدير ظهرك لوطنك وتفعل ما تشتهي. أتيت إلى هنا حاملا أمرا إليك".

ازدرد ريقه؛ ورطب بلسانه شفتيه؛ بلع ريقه مرة أخرى. كان الصوت عاليا إلى درجة أنه فكر: العتمة تلتهمني، العتمة تطوقني. تنحنح، ولم يعلم كيف سيبدو صوته.

"أنا لا أفعل ما 'أشتهي'، أيها المبجل. وأرغب بأن أعرف ماذا قررتم بشأني، في مجلس عائلتكم؟".

قهقه "الغدار":

"التصويت في قضيتك تم بالإجماع. لربما علي أن أشير إلى أن بوسيدون لم يكن حاضرا - فكثيرا ما ينهمك في مشاغل خاصة بسياسته. وإن كنت تريد معرفة مكانه فهو مع الأرواح في الجحيم. أثينا هي التي أثارت القضية".

قال الرجل الأكبر سنا بصوت ثابت حسب ظنه: "أحترم شقيقتك احتراما كبيرا". أمكن له أن يستشعر كيف كان رسول الآلهة يتأرجح في الظلمة مثل أفعى ترفع رأسها.

"أثارت موضوع سياسة أغاممنون والضجة حول طروادة قبل خمسة عشر أو عشرين عاما، وقالت إنها لا ترى من الملائم ولا الممتع تذكر هذه الأمور. قالت للممجد: 'يا أبتاه، قبل بضعة أيام علمت أن أمير ايثاكا لم يرجع بعد إلى وطنه وجزيرته. زوجته في انتظاره طيلة هذه السنين، وابنه، الذي سيصبح شابا بعد وقت قريب، يحتاج فعلا إلى أب يقف إلى جانبه أمام كل المشاكل والصعاب في الجزيرة الآن'".

لم ينطق الآخر بكلمة.

قال الرسول: "لم يعلن عن موتك بعد، بل عُدِدْتَ مفقودا. بيتك مكتظ بالخاطبين الذين يتوددون إلى زوجتك ليل نهار. تخيل أن بعضهم من أصدقائك القدامى - وأبناء أصدقائك - من الجزيرة والجزر الأخرى والبر الرئيسي. يريدون سلطتك وأملاكك بالطبع. ولا أعلم هل تريد زوجتك الزواج مرة أخرى. لكن الآن شَكَّلَ الأمراء الصغار تحالفا أو شركة! أولئك الذين لن يحصلوا على بينلوبي سوف يحصلون على أية حال على حصة من الأرباح - وهم منهمكون في اقتناصها مقدما".

توقف عن الكلام وانتظر - كان يعرف بأن الآخر جالس ينتظر. بعد ذلك قال بنبرة رقيقة وهو يبالغ في تضخيم المسألة:

"الحالة مسلية جدا، أليس كذلك؟ الصبي بلغ الحلم، لكن كل النوايا والمقاصد والغايات خارج الصورة تماما. هل تعلم ماذا قالت شقيقتي؟ قالت: 'لم يعرف الصبي أباه، ولا يتذكر حتى شكله'. ما اسمه؟ تيليماكوس، أليس كذلك؟".

قال الاخر بصوت أجش: "تابع".

قال الرسول: "اه، إذن أنت تريد أن تسمع المزيد؟ هذا أمر مفاجئ جدا! هل أنت مهتم بحديثي؟".

تأرجح كالأفعى جيئة وذهابا، وبدت العتمة أكثر حلكة.

قال الآخر بصوت خفيض: "خبرني عن الحالة هناك".

"طبعا، طبعا. من الطبيعي أن أخبرك عن الأوضاع هناك. فمن أجل هذا أتيت إلى هنا".

"حقا؟".

"قال أبي إنه نسي المسألة في الواقع، لكن إذا كانت الأمور ستتجه نحو الكارثة في الجزر الغربية فإنه سوف يتدخل. إذ تقلق أبي على الدوام المضاعفات السياسية، وهو الذي يتحمل على الدوام اللوم على كل ما يحدث. أمرني بزيادة نشاط جواسيسي، واكتشفنا الكثير من المعلومات عنك. أجبني بصدق: هل بمقدورك الرحيل من هنا؟".

حفيف خفيف أتى من اللحية الخشنة حين عبثت بها أصابع الآخر. كان صوته خشنا وقلقا.

"لا، لا أستطيع الرحيل من هنا. لكن... لم أحاول ذلك أبدا".

"هي لا تمنعك، ولن ترفض أن تدعك تغادر إذا استطعت أو رغبت؟".

قال الرجل الأكبر سنا: "لا أدري الجواب عن هذا السؤال. يبدو وكأنني أمنع نفسي. أنا..".

توقف فجأة عن الكلام.

خفت الآن حلكة الظلام عند مدخل الكوخ. الآلهة تحمل الزمن معها وتتعامل معه كما تريد. حسب أنه يستطيع سماع هدير البحر البعيد أسفل الجبل والغابات الكثيفة على أطراف الوادي، وهمس النجمات النائية، ووقع الخطوات الحذرة لرجال يزحفون صعدا عبر الوادي.

قال الرسول: "لكنها على أية حال تعترض سبيلك فعلا".

أجاب الآخر: "أجل، بطريقة ما".

قال الرسول: "بمساعدتنا لن تعيقك معارضتها يا أمير البحر"، آملا بأن استخدام اللقب سيكون بمثابة تلميح رقيق إلى احتمال مغادرة البحار لهذا المكان.

مال الآخر بجسده إلى الأمام باتجاه الظلمة الأقل حلكة كأنما يصغي لمن يختلسون السمع. وحين بدأ الكلام، كان صوته واضحا بصورة غير متوقعة.

"لم أرغب أبدا بالذهاب إلى تلك الحرب. أردت أن أبقى في ايثاكا، إذ شعرت بأننا لو رحلت فسأغيب مدة طويلة. وهذا ما فعلته تماما: غبت مدة طويلة جدا. هل تفهم ذلك؟ أريد أن أحرث وأزرع"، تابع حديثه بصوت أخفض: "لربما كنت مزارعا أكثر مما كنت أميرا وبحارا ومحاربا. في تلك المرحلة من الشباب، عودت نفسي على فكرة البقاء في الوطن دائما".

فكر الرجل الأكثر شبابا، في الجوهر والمظهر، قائلا: الآن هو على الطريق الصحيح. وفيما بعد سوف أرشده قليلا.

قال الرجل الكهل: "جاؤوا وأرادوا أن أذهب معهم. أرادوا مني ومن شعبي خوض غمار الحرب إلى جانبهم من أجل تلك المرأة - لا أتذكر الآن ماذا كان اسمها".

كان على ما يبدو يجهد ذهنه بحثا عن الاسم، أو يتظاهر بذلك.

قال الرسول: "أنت تتذكر جيدا".

قال الآخر: "زوجة منيليوس".

قال الرسول ملقنا الاسم بنبرة ديبلوماسية بدت ودودة وغير تدخلية: "هيلين". قال الكهل، وربما كان منافقا: "أجل، بالتأكيد، وكان علينا القتال من أجلها. لكنني لم أكن راغبا في القتال. فيما بعد حرصت على خوض المعركة، لكن ليس في ذلك الحين. لم أكن راغبا بالدخول في معترك السياسة، سياستهم 'هم'، كان لدينا ما يكفي من المشاكل على جزيرتنا. لم أكن أريد الذهاب معهم. قام أغاممنون ومنيليوس بجولة لحشد الحلفاء. أوه، حسنا، لم يكن الأمر برمته طوعيا كما بدا في الظاهر. فمن ذا الذي يقول لا للملك العظيم حين يقدم الطلب شخصيا؟ عرفت حين أتى الاثنان. لكن لم أرغب بأن تكون لي أية علاقة مع تلك الأحلام حول مسينا الكبرى ولا اسبارطة الكبرى. ما زلت أعتقد - إن كنت أعتقد بأي شيء، أتحمل مشقة الاعتقاد بأي شيء - أن حادثة تلك المرأة - هيلين - كانت مجرد ذريعة".

بقي الغدار صامتا ينتظر. يمكن لأي سؤال الآن أن يفسد الحديث برمته، وبمقدور ملاحظة أن تقلبه وتدحرجه على منحدر التلة نحو البحر. حسب بأنه سمع خطوات متسللة.

قال الكهل: "لم أفعل ذلك عن جبن. ما فعلته كان عملا شجاعا، بل أكثر شجاعة من أي عمل قمت به منذ ذلك الحين. ذهبت إلى أحد الحقول - أوه، كان الربيع بديعا في تلك السنة، آخر ربيع جميل يمكن أن أتذكره!".

كان الشاب متحرقا ليقول شيئا أيضا لكنه فكر: لا ينبغي على المرء إفساد قصة ممتعة. والآن أنا أسمعها بلسانه. وستكون هذه حكاية مفيدة فيما بعد، في التجارة، وفي المهمات والبعثات والحملات التي أقوم بها.

قال الكهل: "جاء الاثنان وسألا عني في المنزل. لكنني أعطيت جماعتي تعليمات.. على كل واحد أن يهز رأسه ويشير بيده نحو الحقول، أما زوجتي فقد حبست نفسها داخل غرفتها. حين قدما إلى الحقل - كان أقربها بحيث لا يضطرون للسير مسافة طويلة - وجداني هناك. في البداية، وقف كل منهما مذهولا وقد فغر فاه، حين رأى ما كنت أفعله".

كان ثمة صوت غريب في حنجرته؛ لم يكن مجرد حزن؛ قد تظن بأنه صوت ضحكة، أو على الأقل تحول سريع خارج عن السيطرة نحو الضحك؛ صوت أجش كنقيق الضفدع أو قرق الدجاجة؛ لكن رأسه ظل محنيا.

قال: "لابد أن ما كنت أقوم به قد بدا جنونيا أيضا، مثلما كان القصد منه. كنت قد ربطت ثورا وحمارا جنبا إلى جنب كي أحرث الحقل. وحين قدتهما على طول خط المحراث - أراهن أن خطوط الحراثة لم تكن مستقيمة - عدت لأنثر الملح من كيس أحمله. كان الجو حارا وعرقي صبيباً، لكنني تابعت العمل على عدة صفوف، ثم اخترقت بالمحراث الصفوف الأخرى. تيليماكوس - ابني - الذي لم يتجاوز السنتين، أتى متعثرا من المنزل ينادي: 'أبي، أبي'، اللفظة واحدة من الكلمات القليلة التي ينطقها. لكن أغاممنون ومنيليوس وقفا هناك وتهامسا معا. أدركت أنهما لم يصدقا أمر جنوني أبدا. حين أتى تيليماكوس، أخذه أغاممنون بين ذراعيه وسار نحوي. وضع الصبي على التراب، قريبا من مسار المحراث. انحرفت طبعا إلى الجانب، لكن المنحنى لم يكن

كبيرا، وبدا ذلك أمرا طبيعيا. رفعت المحراث عندما اقتربت من الصبي خوفا على سلامته. شعرت بالبرد يتسرب إلى داخلي. وحسبت أنني مأفون فعلا. أليس من علامات الجنون أن تتظاهر بالجنون؟ حين ناداني أغاممنون، لم أستطع المتابعة وتوقفت. كانت مشاهدة ذلك أمرا مسليا، كما قال، تسلية حقيقية، وإن علينا أن نأمل بأن تحصد ملحك الذي زرعته خمسة وعشرين أو ستة وسبعين ضعفا ـ لكن في هذه الأثناء، أتينا، كما تدرك ربما، لإقناعك بالانضمام إلينا. لسوف نحرث حقولا مختلفة الآن، حقول البحر أولا. الوضع السياسي هو كذا وكذا، وموقف طروادة يبدو متحديا بصورة إجرامية، كما قال أغاممنون، ووقف أخوه هناك يومىء برأسه. عرفت بالطبع أن زوجته هربت منه ـ أخذت بالقوة تبعا للغة السياسية التي استخدماها".

صمت وأخذ يفكر.

قال بنبرة جديدة مترعة بالضغينة في صوته: "نحرث حقولا أخرى، نحرث البحر. أجل، علينا أن نفعل ذلك. أطلقا علي فيما بعد اسم 'الداهية'. لم أحب الاسم أبدا. كان يجب عليهما تسميتي بـ'اليائس' بدلا منه. قالا إنني محارب على درجة من الكفاءة تمنعني من متابعة تمليح حقولي في الجزيرة".

انتظر المبعوث لحظة أو اثنتين، ووازن الوضع. قال محاولا تقنيع نبرة الإطراء: "كنت جنديا مبرزا أيها الجنرال ـ لم تكن استراتيجيا عظيما ـ وستعذرني على صراحتي ـ لكنك بارع على صعيد التكتيك".

لم ينتبه الآخر لما قاله.

قال: "لربما عليك الدفاع عن نفسك". كان الآن يتحدث وسواد الليل بدأ يتحول إلى زرقة الفجر. "أجل، عليك أن تفعل ذلك، إذا ما تعرضت للهجوم. لكنني في بعض الأحيان أشعر بوجود فكرة في صدري، في عظمي، في كبدي، في كليتي، فكرة أتت من جبيني أو من بطني. وهي تقريبا كالتالي: إذا فكر الكل بأنهم إذا لم يدافعوا عن أنفسهم، إذا لم يحملوا السلاح للدفاع عن أنفسهم ضد الهجوم، إذا فكر كل واحد.. لا، لم أفكر بهذه مطلقا، لم أصل أبدا إلى نتيجتها، لكنها موجودة. فيما بعد، لسوف يتمكن ابني أو أبناؤه، أو أبناؤهم، من التفكير بها. قال لي أحدهم ذات مرة إن مثل هذه الأفكار تنتشر في أماكن أبعد جهة الشرق، حيث ينتهي العالم عند حدوده القصوى، حيث يعيش البرابرة والشعوب المجهولة".

أراد الرسول أن يتثاءب ويقول إن مثل هذا الكلام مجرد هراء صبياني، لكنه أدرك أن من غير الحكمة التحدث على هذا النحو في تلك اللحظة. إلا أنه بدأ اكتشاف تباطؤ في تدفق الحديث المزعج المضجر.

قال: "على أية حال، كانت حربا ممتازة، حربا استثنائية، وليس ثمة شك أبدا في أنها ستسجل في التاريخ. لربما تعلم أنت بأن الأغنيات قد تناولتها في كافة المناطق الراقية، في كل الأماكن التي أتى منها الأبطال؛ في كافة العائلات الكريمة في واقع الأمر. والمغني الذي لا يعرف أغنية عنها لا ينال عشاء يشبعه".

قال الكهل: "العبيد شاركوا فيها أيضا. إذ قادوا عرباتنا، وشحذوا أسلحتنا. استخدمناهم كدوريات استطلاعية، وفرق انتحارية، ومجدفين، وتابعين للأبطال. أتخيل بأنه لم يتبق كثير منهم للعودة إلى الوطن. كانوا أول من رُدي في ساح الوغى، في البحر. أمراء البحر والجنرالات هم أغلب مَن عادوا، كما أظن. أراهن بأنهم رجعوا على متن سفنهم وهم في راحة تامة. لقد أحرزنا نصرا مؤزرا. وخلفنا كومة بديعة من الخرائب وراءنا".

بعد ذلك غيرت أفكاره وجهتها إلى حد ما، وتخلى مرة بعد أخرى عمّا يمكن دعوته بمنطق الحديث المنظم الهادئ، وتكلم عن أشياء في عالم الواقع، مثل إرسال إشعاعات من الأفكار نصف المنطوقة التي لم تخضع لتفكير كامل في كافة الاتجاهات.

قال: "يجب أن تؤمن بضرورة شن بعض الحروب" (ربما كي لا يبالغ في استفزاز الآلهة). "يمكنك أن تقول إن حربهما، حرب طروادة، كانت ضرورية ـ دفاعا عن النفس".

قال الرسول مع إيماءة من الحدة في صوته: "سلالتنا الحاكمة، نحن، الأسرة المقدسة، راقبنا ما حدث، وكنا محايدين تماما. كان لدينا متطوعون على كلا الجانبين، ومن جهتي أنا، تابعت عملي كالمعتاد".

رفع الآخر رأسه وحدق إلى المكان الأشد حلكة حيث جلس المبعوث.

قال: "أنتم ـ آلهة الأوليمب! أنتم من بدأ الحرب، أنتم مصدر الأفكار. اسأل أغاممنون من أين حصل على أفكاره! من أجل مصالحكم خضنا الحرب. وتصادف أن توافقت معها مصالح أغاممنون، وكذلك كانت الحال مع منيليوس، على الأقل في بعض

الجوانب. أردتم أن تظهروا لنا أن القوة أمر عظيم واستثنائي ومتوهج ودموي بشكل مثير، ويصعب استخدامها والتمتع بها من قبل الآخرين إلا إذا كانوا من الآلهة العظام! أردتم أن تظهروا لنا أن الحرب تتطلب تضحيات وقرابين ولذلك فهي مقدسة. وأراد أغاممنون أن يكون ملكا عظيما ويختبر جيشه، حالما ينجح في حشد واحد، وأسطوله، حالما يضم إليه مئات السفن وآلاف المجدفين والأبطال.. ".

قال المبعوث، وبدا صوته الآن أكثر حرارة: "اعذرني يا سيدي، لن ألقي خطبة للدفاع عن أسرتنا، هذا فوق مستوى حديثنا غير الرسمي، لكن بالنسبة إلى أغاممنون الذي كان عمليا أكثر من سواه، فقد ضحى بالكثير. خاطر بكل شيء، ابنته، كما تعلم.. ".

قال الآخر بصوت أصبح جافا وواقعيا فجأة: "لم يكن يضحي بشيء إلا من أجل نفسه ومجده".

فكر الرسول: يجب ألاّ نتشاجر الآن، وسيكون ذلك ـ في هذه الحالة ـ تصرفا غير ديبلوماسي، رغم أنني أعرف بالطبع أن هناك مشاجرات يمكن أن تكون ديبلوماسية إلى حد استثنائي.

لم يزد على القول: "لسوف يقرر التاريخ هذا الأمر".

قال الآخر: "التاريخ! التاريخ لا يقول شيئا سوى أن هذا أو ذاك الشخص الذي ترك هذا النقش أو ذاك على هذا الحجر أو ذاك يفترض أنه فعل ذلك بأمر من هذا الحاكم أو ذاك ـ التاريخ لا يقول شيئا سوى أن الذي أمر بتلاوة الملحمة البطولية هذه أو ترديد أغنية المحاربين تلك، قد أنشدها في الواقع بصوت عال إلى حد جعل ذريته ومستمعيه وأطفالهم يحفظونها عن ظهر قلب ويورثونها إلى الأجيال التالية! أراهن بأن ورشة أغاممنون للنقوش التاريخية، أو مدرسة الأغاني، تعمل بكامل طاقتها. إذا كان حيا وتمكن من رعايتها".

قال المبعوث: "هو ميت الآن. لكن ذكراه ستبقى حية في كل العصور".

لم يقلق الآخر المسار الجمالي أو المنطقي للحديث؛ قال: "لقد خضنا حتى العقبين، حتى الركبتين، حتى الصدر، حتى قمة الخوذة في دماء البشر من أجل أشياء لا نعلمها. حسب أغاممنون أنه كان يقاتل في سبيل شرفه، وجيشه، وأسطوله، لكنه في

الجوهر أراد التحرك على الإيماءات العسكرية، لعقد صفقات الموت والدمار والخراب بحيث يتوافق الواقع الخارجي مع حالته الجوانية ـ وكان مسكونا بالشياطين حتى التخمة. أما منيليوس فقد اعتقد بأنه يقاتل لاسترجاع زوجته الهاربة. ومن أجل استعادتها، ولكي يستطيع أن يهمس إلى أذنها الصغيرة بكلمات ناعمة ومعسولة، ويضم جسدها إليه، قتل راضيا مسرورا النساء والأطفال، وأحرق مدنهم وبيوتهم، وشوى أجسادهم كما تشوى الخنازير الرضيعة. أنا نفسي..".

انخفض صوته، وانحنى رأسه مرة أخرى، وتمتم بكلمات غير مسموعة. وحين وجد المبعوث نفسه عاجزا عن فهم ما يقوله الآخر، قرر أن يعيد الحديث ويوجه دفته حسب الخطة الجمالية المنطقية والهندسية الصحيحة.

قال: "أجل، أنت نفسك كنت في معمعانها طيلة الوقت! وكان أداؤك ممتازا؛ كنت بطلا".

قال الآخر: "هذا صحيح. لكن لا أعلم تماما لمَ حاربت، رغم أنني فكرت بالأمر كثيرا خلال كل هذه السنين التي أمضيتها هنا مع كاليبسو، افترض أنني حاربت كي أتمكن ـ من جهة ـ من خوض المعركة وأصبح بارعا في القتال، نظرا لأنهم بدؤوا يطلقون علي ألقاب 'الماكر'، و'المفكر الداهية'، و'اليقظ الحذر'. لكن في الواقع الحقيقي، حاربت على الأغلب كي أتمكن من العودة إلى الوطن".

"ما معنى ذلك؟".

أجاب الكهل، الذي دل مظهره على عمره: "أعني أنني ذهبت إلى الحرب كي أتمكن من العودة إلى الوطن".

قال المبعوث: "لكنك كنت مقيما في الوطن، أليس كذلك؟".

أجاب الآخر بطريقة جافة ولا مبالية: "بالضبط. بعضهم يغادرون الوطن للهروب منه، لأنهم لا يشعرون بالسعادة هناك؛ أنا غادرت الوطن كي أعود إليه؛ تلك هي أقرب الطرق".

قال المبعوث: "سوف أكون ممتنا لو حصلت على تفسير أكثر وضوحا".

قال الآخر: "شعرت أن ذلك من واجبي. لا، ليس تجاهكم يا آلهة الأوليمب، ولا تجاه أغاممنون ومنيليوس وزوجته، بل تجاه شعبي، ووطني. لو لم أذهب إلى الحرب،

لتورطت في حرب مع أغاممنون. وبالنسبة لي كانت تلك حرباً عادلة: الدفاع عن شيء أفضل ضد شيء أسوأ. كانوا سيهاجموننا بدلا من طروادة، وكنا قد واجهنا مأزقا خطيرا. لكنها كانت الحرب العادلة التي ينبغي خوضها. بالنسبة لي، ولكي أجنب شعبي القتال في حرب دفاعية، أخذت جيشي الصغير وأسطولي الصغير لشن حرب هجومية. اعتقدت أن من واجبي أن أجنب ايثاكا الحرب. تظاهرت بالجنون كي لا نشارك فيها. وأدركت فيما بعد أنني لو أردت العودة من ترحالي وتجوالي إلى الوطن، إلى ذلك الحقل حيث الثور والحمار والملح، فعلي أن آخذ طريق طروادة، المدينة البائسة التي هاجمناها. لقد ضحيت بطروادة أيها المبجل. وكانت بمثابة قربان؛ أعرف هذا الآن".

قال الرسول ببرود: "حسنا، لقد لعبت دورك جيدا يا أمير البحر. كنت جنديا بارزا واستثنائيا. وممثلا بارعا وشهيرا جدا".

أجاب الآخر بنبرة حذرة: "لربما كان الدور الثاني ليس بعيدا عن الصواب".

بدأ الظلام الآن ينحسر في الخارج؛ وأصبح بمقدور كل منهما رؤية الآخر؛ وبخلال فترة قصيرة سوف تكون عربة هليوس جاهزة تنتظره لركوبها. شعر مبعوث عالم الأوليمب، المراسل الطيار، وجامع ما يقال وما يدور من أحاديث، والحامي المحايد للصوص والتجار، شعر بوخزة من الإحباط حين رأى وجه الرجل الآخر تحت ضوء الصباح المنتشر. في الظلام الدامس، كان قد رأى الرجل الذي عرفه قبل عشرة أو اثني عشر عاما في الحرب، بملامح مختلفة تماما؛ تخيله شخصا حطمه الحنين المأساوي الجارف للوطن. حسب أن إقامته مع كاليبسو كانت مجرد سلسلة متتابعة من الأيام المترعة بما تفرزه التعاسة من اشمئزاز وتبريح. الرجل الذي لمحه أمامه الآن كان ناضجا لكن ليس محطما؛ ولم ير إيماءة تلمح إلى الشيخوخة أو العجز في جلسته تلك، وانحناء جسده إلى الأمام. كان في حالة جيدة، وقد زاد وزنه إلى حد ما منذ الحرب، إضافة إلى امتلاء وجنتيه ومعدته: سيماء من الهدوء ورباطة الجأش وليس الاستسلام المأساوي. وحين استوعب ذلك، قال:

"أفترض أنك ستعود معي الآن إلى الوطن؟".

اضطر للانتظار لحظة أو اثنتين، بينما ينتشر الضوء ويتنامى. لم يتحرك الآخر أو

يغير جلسته: جثم هناك وقد أحاط ركبتيه بيديه وأراح جبهته عليهما. كان الشعر خفيفا في قمة رأسه؛ وسيصبح أصلع بخلال سنة أو اثنتين. لكن كتفيه وعضلات ذراعيه كانت قوية جدا.

سأل دون أن يرفع رأسه: "كيف حال أبي؟".

قال الرسول: "المنزل مزدحم بالخاطبين، والحالة السياسية متفجرة. نريد شخصا يمسك زمام الأمور هناك بقبضة قوية. تيليماكوس غير قادر على التعامل مع الوضع".

قال الآخر وقد أطرق رأسه: "لا أريد مزيدا من القتل".

قال المبعوث، محاولا أن يضيف بعض الشفقة والخشية إلى صوته: "فكر بزوجتك التي طال انتظارها؛ وبابنك الذي لا يكاد يعرف والده؛ هل يمكنك تخيل كل ذلك؟".

أجاب الآخر: "حسن جدا".

"فكر بذلك القطيع من الخاطبين إزاء امرأة وحيدة!".

رد الآخر: "حسنا، إذن أغاممنون قد مات. آه. حسنا، هذا لن يؤدي إلى السلام. ليس لدي إيمان بذلك. كيف مات؟".

قال الرسول بنبرته الرسمية: "اغتيال سياسي" وأردف: "ودراما من الهوى والعاطفة. ابنك مهدد الآن. نحن نعيش في عصر الجريمة السياسية. ألا تشتاق لابنك على الأقل؟ حتى وإن كنت.. لا تحن إليها، ينبغي عليك على الأقل التفكير بابنك. أتحن إليه؟".

قال الآخر محدثا الأرض: "أشتاق إلى طفل لم يعد موجودا. أحن لأشياء لا وجود لها".

رفع بصره فجأة.

"إذا أردت أن تعرف. لن أقتل بعد الآن".

قال المبعوث: "المسألة لا تتعلق بالقتل أو الحرب أو غير ذلك من هذا القبيل. المسألة تنحصر في استعادة النظام على جزيرتك. هذا كل.. الأمر بسيط".

قال "المستدعى" : "أعرف حقيقة الوضع. علي خوض الحرب مجددا. أعلم أنه أمر: لكنني لا أشعر بأية متعة أو رغبة بتنفيذه. أستطيع أن أدعوها حربا دفاعية - لكن الاسم ليس صحيحا تماما. هناك في الشرق البعيد، عند نهاية العالم، يستخدم

البرابرة الذين يسكنون هناك تعبيرا صحيحا ومختلفا عن هذا الوضع، لكن لا أستطيع تذكره.. ".

لزم الصمت، وتلمس بكفيه المشوّهتين الأرض حواليه، كأنما هو ـ أعمى ـ يبحث عن شيء لا يجده هناك. أصبحت ابتسامته، التي كانت بشعة وحقودة، ابتسامة حرجة ومرتبكة؛ نهض ومشى خارجا، محني الظهر. تبعه المبعوث.

وقف الكهل ونظر جهة الشرق، ثم نحو الوادي في الأسفل، ومنه إلى البحر. أتى هليوس على مركبته. استيقظت الطيور في الغابة، وبدأت النوارس حول الجزيرة تزعق طالبة طعام الصباح. وثغت الأغنام في المراعي. تخلى البحر عن لونه الرمادي في الليل، وتألق باللونين الأحمر والأزرق.

قال المبعوث: "إذن سوف تأتي معي على الفور؟ حالما نتحدث معها!".

قال الآخر: "أحتاج بضعة أيام لتجهيز نفسي".

"لكن لدي مركب هنا".

قال الآخر: "لست في عجلة من أمري. لسوف أتدبر أمر وسيلة النقل. وإذا كان من الضروري تماما التحدث معها، فسأطلب منك الانتظار حتى الأصيل".

قال المبعوث موافقا ـ بتسامح أولئك الذين ينفذون الأوامر: "كما ترغب. لكن هل أستطيع الاعتماد عليك؟".

قال الآخر: "أنت تعرف تحت سلطة من أنا".

حنى المبعوث رأسه؛ وارتسمت على وجهه ابتسامة ديبلوماسي محنك؛ ابتسامة يمكن أن تعني الكثير من الأشياء.

"حسنا، صباحك سعيد وشكرا على الحديث يا اوديسيوس!".

أومأ الآخر برأسه دون قصد: "صباحك سعيد"؛ لكنه بقي واقفا هناك يراقب هرميز، أحد أبناء حاكم الأرض والسماء الكثر، وهو ينزل باتجاه سفينته.

-٤-

تجارة

ألمحت بينلوبي بأكثر الأساليب رقة إلى أنها ترى ميلاثو - ابنة دوليوس - مغرورة قليلا. بالطبع لم تصرح بذلك علنا؛ لأنه سيكون أمرا سوقيا - بل قالت: "نحن نقترب من نمط من الأزمة السياسية الآن يا يوريكليا. يمكنني أن أشعر بذلك. ما هو الموقف الذي تظنين أن ميلانثيوس، شقيق الفتاة، سيتخذه؟".

بدا السؤال ساذجا بحيث يتطلب إجابة بسيطة. كلتاهما عرفت بأن المسؤول عن قطعان الماعز يخدم حزب الخاطبين. لكن المرأة العجوز، خادمتها الموثوقة، فعلت ما وسعها لتقديم الإجابة الساذجة:

"لدي نفس الشعور أيضا".

رفعت السيدة العظيمة رأسها بحيث بدا الخط المحدد لذقنها جميلا ومحببا. نظرت عبر النافذة. كانت الفتاة تعبر الباحة الداخلية؛ وسارت خلفها القطة تحمل شيئا في فمها.

"يوريكليا، هل استفحلت مشكلة الفئران مرة أخرى؟".

حدقت العجوز بنظرها الحسير في اتجاه بصر الأخرى. كانت القطة الآن تندفع مسرعة باتجاه مائل عبر الباحة والفأرة تتدلى من فمها كأنها لسان رمادي سميك.

قالت العجوز: "ليس للفتاة الكثير من الأعمال التي تشغلها. لهذا السبب هي حامل بطفل".

قالت السيدة: "لربما تلقت تربية ممتازة عندنا؟".

رأت الاثنتان انتينوس واقفا يتحدث معها في مدخل الباحة الخارجية.

قالت السيدة المتوحدة: "لا أدري ما السبب، لكنني لم أستطع أبدا الانسجام مع

القطط. فحين تحك بجلدها ساقي ـ آه! كما سمعت أنها قد تسبب الطفح الجلدي ـ أو البرص".

لم تجب يوريكليا، التي اعتادت أن تأخذ قطة إلى سريرها في الشتاء كي تدفئ ظهرها، عن تلك الملاحظة المتعلقة بالقطط، لكنها قالت:

"أجل، في الواقع، الفتيات الصغيرات متعجلات".

وقصدت من العبارة التوكيد على أن ابنة دوليوس الشبيهة بالقطط لم تنضج بعد، رغم أنها حبلى، لتصبح امرأة شابة، وبالتالي فإن "الزوجة"، "المرأة التي تنتظر"، ربما تشعر في تلك اللحظات على الأقل بأنها ما زالت شابة.

لم تتفوها بكلمة عن انتينوس، رئيس الخاطبين والمتنافسين، لكنه كان هدف نظراتهما. وحين مشى عبر الباحة باتجاه القاعة الكبرى، كانت القطة المبتهجة تنسل تحت الدعامات على جانب المطبخ.

قالت بينلوبي:

"آه. القطط تثير الاشمئزاز. ألا نستطيع استخدام بديل آخر؟ مصائد؟ ولم لا تلتهم الفأر المقرف؟".

قالت يوريكليا: "القطط تتبع غريزتها الطبيعية يا صاحبة الفضيلة". وبهذا أبعدت نفسها عن الرهاب المرضي من القطط الذي سيطر ـ بمحض الصدفة ـ على بينلوبي سيطرة كلية.

انتقلت الاثنتان (بسرعة كبيرة، حسب رأي العجوز) لمراجعة الحسابات. أعداد الخراف والخنازير على الجزيرة ما زالت تتناقص بسرعة، حتى قطعان الماعز تنخفض أعدادها: تختفي. كما يتناقص القطيع في ليوكاس على البر الرئيسي ـ في المزارع على ساحل أكارنانيا.

"كيف يقدر الناس على التهام هذه الكميات غير المعقولة يا يوريكليا؟".

قالت العجوز: "يجب ألاّ ننسى أننا بعنا بعضها ـ لكن على العموم أنت محقة يا صاحبة الفضيلة، فقد استهلك جزء كبير منها في المنزل".

"هل تظنين أن ميلانثو .. أجل؟".

لم تكن العجوز تسمع جيدا على الدوام، وفي بعض الأحيان لا تجيب، بل تكتفي بأن تغمغم شيئا.

"يوريكليا، هل سمعت ما قلت؟".

بدا أن العجوز قد سمعت وفهمت المقصود تماما.

"نحن نحقق في الأمر يا صاحبة الفضيلة".

"من يحقق؟".

"أنا، التافهة التي لا أهمية لها، يا صاحبة الفضيلة".

لم يتعرضوا لأية اختلاسات واضحة على نطاق واسع طيلة أربع أو خمس سنوات. ثم اقتصرت على جلود الماعز، والماعز، والصوف.

"يمكن على الأقل أن نبيع الجلود؛ خصوصا جلود الخراف، ثم كل الثيران التي تم التهامها. ولدينا ما يكفي من الصوف لتشغيل أنوالنا ستة أشهر أخرى". ابتسمت. وبرغم قصر البصر الذي تعاني منه العجوز من حين لحين، إلا أنها لم تتمكن من تجنب رؤية تلك الابتسامة السريعة؛ رأتها ورسمت ابتسامة عريضة كشفت عن فمها الخالي من الأسنان.

"أجل، النسيج يسير بصورة جيدة".

هنا، كان بينهما سر لم يعد سرا بعد فضيحة النسيج الكبرى؛ لكنه كان اتفاقا نسائيا، شيئا يمكن أن تغمز كل منهما للأخرى حوله.

في السنة السادسة عشرة بعد رحيل الزوج، أصبحت الأملاك الكبرى، مثل الكروم ومزارع الزيتون، وقطعان الماعز والخنازير والخراف على الجزيرة، والمواشي وغيرها من المصالح الاقتصادية في ليوكاس والبر الرئيسي، أصبحت قضية كبرى في ايثاكا. الخاطبون، أي الطبقة النبيلة من ملاك الأراضي في الجزيرة، شكلوا ما سمي بالحزب التقدمي، وكانوا يتلقون دعما خارجيا. وغدا الحزب أداة للحصول على مزيد من السلطة والقوة. فهم النبلاء معنى "التقدم" باعتباره مقدمة لتطبيق شكل أكثر صرامة من العبودية والعسكرة، وكانوا يحاولون عبر منهج "بعيدا عن العين بعيدا عن القلب" إلغاء "الأغورا"، أو المجلس الشعبي الذي لم يعقد اجتماعا منذ اندلاع حرب طروادة. وبدلا من ذلك كان الصوت الوحيد المسموع هو صوت مجلس النبلاء، أو مجلس الأعيان. طالب الحزب التقدمي بالإصلاحات لتحقيق وضع أفضل، وعنى بالإصلاحات لتحقيق وضع أفضل أن يتولى مهمات ومشاريع "الزوجة" الزراعية والتجارية الكبيرة (مع ما تفرزه من نفوذ سياسي) رجل شاب يمكن أن تختاره زوجا ثانيا لها.

بالطبع، لعب جمال بينلوبي دوره. فقد كانت زينة للمنزل والمدينة والنبلاء. وأظهر هؤلاء الاحترام لها، لكنهم مارسوا ضغطا عليها بشكل غير مباشر من خلال الخدع والحيل. وتمكنت يوريكليا، المخلصة الوفية، من متابعة مختلف الخطوات والتحركات عبر صلاتها التي وصلت إلى عمق البر الرئيسي. ولم يتمكن التقدميون، طالما ظلت الدولة قوية ومستقرة اقتصاديا، ولم يكن هناك حديث عن إهمال أو سوء إدارة، من الوصول إلى "الزوجة" أو التأثير فيها من خلال المجلس الشعبي. وينبغي ألاّ يغيب عن البال ولا لحظة - حتى وإن كانت لحظة بلاغة خطابية مستلهمة من المقدس، أو لحظة بطولية تغلب عليها قعقعة السلاح - أن ذلك هو صراع اقتصادي، قضية تتعلق بالمزايا العملية، مسألة تتصل بالربح والفتح.

على وجه العموم، يمكن إيجاز برنامج الحزب التقدمي كما يلي:

يجب إقامة نظام جديد - هناك كثير من الأقوال وقليل من الأفعال. الآلهة سئمت من كسل وتراخ وثمالة البشر، خصوصا شعب ايثاكا. الإصلاحات التي حاول "الغائب" ووالده العجوز تطبيقها ونجحا في ذلك جزئيا قبل عشرين أو ثلاثين سنة، ثبت أنها غير عملية على وجه الخصوص: نتيجتها الوحيدة كانت إهمال الدين وتجاهل أهمية الشرف والسمعة. علاوة على ذلك، رغب التقدميون بترسيخ فكرة أن الحرب ضد طروادة مثلت حلا جيدا للعديد من المشكلات السياسية المحلية، لكن "الزوج المختفي عن الأنظار"، "الجريء البعيد"، "الهارب"، لم يستغل الفرص المتاحة التي أفرزتها الحرب على الصعيد السياسي: برغم كل شيء، تشير الحقيقة إلى أنه لم يرجع إلى الوطن مترعا بالشرف والفخار ومحملا بالغنائم والأنفال كما فعل البطل الحكيم نستور ملك بيلوس ومنيليوس ملك إسبارطة.

برنامجهم الفعلي، الذي لم يكن مكتوبا ولا ذكر صراحة في اجتماعاتهم، رغم أنه احتل عقول وأذهان الخاطبين والمتنافسين، كان كالتالي:

السيطرة المشتركة تعني سيطرة زعماء الحزب التقدمي على الأرض التي تعاني من سوء الإدارة (حقول القمح والذرة، الكروم، ومزارع الزيتون)، وعلى قطعان المواشي التي نفق معظمها. أما أفضل صيغة مناسبة للسيطرة فتتم عبر "الاستيلاء" على "الزوجة"، التي بدأ العديد من الناس يدعونها بـ"الأرملة". إذ لا يمكنها الزواج منهم

جسيعا، حيث لم يكن يسمح بتعدد الأزواج. ولا جرى إثبات سوء الإدارة بشكل قانوني؛ أما الحل في هذا السياق فيكمن في ضرورة تغيير القوانين. هذا الحل يمثل واحدا من سبيلين. أما الاخر فهو منهج المكر والخداع، المنهج البشري بامتياز، ويتمثل في تدمير "الزوجة"، أو جعلها تشعر بأنها محطمة، وبالتالي إثارة رغبة حارة داخلها، أو شوق لهيف للزواج، أو خوف من الفقر، وبالتالي يمكنهم المشاركة في الغنيمة مع ذلك الذي اختارته زوجا لها.

من وجهة نظر معينة يعتبر ذلك بمثابة ملهاة تجارية. فقد كانوا منهمكين في إفقارها للحصول على ثروتها؛ تكالبوا على طعامها وشرابها؛ كانوا يفقرونها كي يغتنوا هم مما أكلوا وشربوا.

في تلك السنة السادسة عشرة بعد "الرحيل"، أي بعد السنة السابعة من انتهاء الحرب رسميا، والنصر الدموي المؤزر على طروادة، كان الوضع خطيرا إلى درجة أن "الزوجة"، "الهادئة"، التي دعيت بصورة شبه سرية وظالمة "القبيحة البسيطة"، شعرت بأنها سجينة أو شبه سجينة. الإله، الذي يتضرع إليه الناس باسم ميليكيوس، زوس الرقيق اللطيف، أصبح أكثر لفتا للأنظار باعتباره جامع السحاب برونتايوس، وأقرب إلى بروتولويجوس المشابه لإله الحرب اريز، مدمر الرجال والعجوز الصاعق، صاحب اللحية الطويلة المشاكس، الفظ، الصعب المراس. الخراف والماعز في أحسن حال: إذ يبدو أنها تتمتع بحماية "إلهة الصحة"، لكن على البر الرئيسي انتشر وباء الحمى القلاعية مما قلص أعداد القطعان هناك، كما انتشرت في الجزيرة حمى الخنازير. قدموا القرابين بحماس لكن دون جدوى؛ وظل الرأي العام على الدوام تحت هيمنة التقدميين الذين قالوا للناس: ها أنتم ترون كيف تصبح الأمور حين نولي أمرنا امرأة! ها أنتم ترون ماذا يعني الافتقار إلى رجل مناسب في البيت! وكيف تتبدد الثروة! وصف عملاء يوريكليا المزاج العام للناس على البر الرئيسي - وكافة مروجي الإشاعات هناك - وعلمت من خلال الخدم شعور الناس في ليوكاس وعلى الجزيرة. وحين انتهى الفصل الحار، وبدأ الخريف، قالت لسيدتها، "الهادئة"، خلال موسم جز الصوف:

"لا أدري، لكن هناك علة في معدتي، لأنني أرى أحلاما مرعبة في الليل".

طلبت بينلوبي منها أن تقص عليها أحلامها، وفعلت ذلك بعد إظهار كثير من الإحجام والتردد:

"حلمت بأنني جارية، أعني أمة حقيقية".

قالت السيدة العظيمة وهي على وشك الضحك: "من المفزع كم تحطين من قدر نفسك. ولو كانت معلوماتي صحيحة، فقد دفع عمي عشرين ثورا لشرائك في صباك. بم حلمت؟".

"حلمت بأن لدينا عشرة آلاف خروف وتوجب جز صوفها كلها. هل يمكن أن تتخيلي ما هو أسوأ من ذلك!".

"على أية حال، لابد أنك شعرت بانتمائك إلى بيت ثري؟".

لم تجب العجوز عن السؤال؛ قالت:

"ثم حلمت بأن علي أن أمشط الصوف كله؛ وقد ملأ الهري".

قالت السيدة: "نعم، لو أن لدينا مثل هذه الكمية".

قالت العجوز: "ثم رأيت أن علي أن أغزل الصوف كله".

ضحكت بينلوبي وقالت: "لو أن للمرء مثل هذا الصوف!".

"وبعد ذلك توجب علي نسج كل الخيوط!".

نهضت العجوز وقد شبكت يديها وهي تنظر ببصرها الحسير نظرة بريئة أمامها.

قالت بينلوبي وقد غابت الضحكة عنها: "أجل، تلك كمية هائلة يصعب نسجها. بماذا حلمت أيضا؟".

قالت العجوز: "حلمت بأضخم نول في العالم. العارضة كساري أضخم السفن في الميناء وكل مكوك كالدلفين، أو كالنسر الذي يحوم طيلة النهار والليل".

بدأ الملل يصيب "المرأة الهادئة" من أسلوب العجوز المتكلف والغامض في رواية حكاياتها الخرافية. قالت فجأة:

"يوريكليا! ما الذي تريدين قوله؟".

لكن العجوز لم تكن لتتخلى عن أسلوبها؛ ولا بد من الافتراض أن الأمر تطلب منها عدة أيام للتفكير بحلم على هذه الدرجة من التعقيد: كان محبوكا بعناية.

قالت وقد رفعت رأسها، ولم تكن قصيرة النظر هذه المرة: "ثم حلمت أن علي خياطة معاطف للمحاربين من النسيج كله تقريبا".

"نعم؟".

"ثم حلمت بأن علي التخلص من المعاطف وأثواب القماش المتبقية".

"نعم؟".

"ثم حلمت بأنني قمت برحلة تجارية إلى البر الرئيسي وبعت وقايضت كافة المعاطف وأثواب القماش، واشتريت بالمال عشرة آلاف خنزير، كلها في صحة جيدة، وعشرة آلاف معزاة، ثم عشرة آلاف خروف، توجب علي البدء بجز صوفها مجددا".

كان الحلم بمجمله مروعا.

"وكيف انتهى منامك؟".

قالت العجوز وهي تنظر إلى الأرض: "أجل، تلك كانت النهاية، الشكر للآلهة".

حدث ذلك في الصباح، بعد أن مشطت شعرها. عند الأصيل قالت "السيدة المتوحدة":

"أعتقد أن علي أن أخرج وأرى كمية الصوف التي نحصل عليها".

ذهبت يوريكليا معها. كانوا يجزون الصوف في الحقول المشرفة على البيت مباشرة، على الطريق المؤدي إلى ملجأ لم يستخدم أبدا - تقريبا - على الطرف المقابل للبر من الجزيرة. في تلك الجهة تقاعد عمها ليرتيز في مزرعة صغيرة، لكنهما لم تصلا إليها بعد. المقصات كانت تعمل بدأب، والعديد من الخراف تنزف من ظهورها، والصوف معبأ في السلال على شكل غيوم رمادية قذرة:

"يوريكليا! لو قمنا بغزل الصوف بأيدينا لأصبح لدينا كمية كبيرة من الخيوط في المنزل".

قالت العجوز: "من المفترض ذلك".

بعد بضعة أيام فقط، بدأت خمسون فتاة من المزرعة والبلدة تمشيط الصوف. العزاب النبلاء من المطالبين بالزواج، والعديد منهم لم يغادروا حجر أمهاتهم منذ مدة بعيدة، اشتكوا من الخدمة السيئة على المائدة المفتوحة كل يوم. في الأسبوع التالي بدأت الفتيات الغزل. الشخصيات البارزة في حزب الخاطبين أرسلت وفدا إلى مخدع النساء. نبيلان، هما انتينوس ويوريماكوس، كانا الناطقين باسمه. وقفت بينلوبي عند قمة السلم، والوفد عند أسفله. اشتكى أعضاؤه، وامتدحوا وأطروا بالطبع جمال "الزوجة"، المرجح أن تكون "أرملة"، وطلبوا منها أن تتخذ قرارها بسرعة.

قـال انتــينوس: "الأمــور بلا نظام أو ترتـيب هنـا. مـجـرد عـدد قليـل من الخـدم، والفتيات هنا وفي البلدة منهكات تماما في الأمسيات".

"أنا بحاجة للفتيات أيها الرجل العزيز!".

علق انتينوس بسخرية: "هذا ما أدعوه كرم الضيافة!".

قالت "الزوجة" وهي تسيطر جيدا على نبرة صوتها - وهي تسحره على الدوام: "سمها ما تشاء. لكنني بحاجة للفتيات. علي أن أرعى أعمالي التجارية بنفسي".

أجاب انتـينوس: "التـجـارة في الواقع شـأن من شـؤون الرجـال. والآن، قـررنا أن نحصل منك يا صاحبة السمو على جواب، عليك اختيـار واحد منا. هناك عدد يقدر بمائة وثمانية رجال منا على القائمة، واثنان وخمسون موجودون في البلدة الآن. الأمر متروك لك يا سيدتي!".

قالت بأسلوب ودي: "أيها الشاب، عليك التحلي بالصبر. أنتم مفتونون بالنساء، كلكم! أليس من الأفضل الحصول على زوجة ميسورة بدلا من امرأة فقيرة أكل الناس طعامها مثلي؟ هدّئوا من روعكم! وحين أصلح حال مزارعي وأملاكي بما يكفي لأستحق واحداً منكم، فلسوف أعطيكم جوابي".

قال يوريماكوس، ونادرا ما نطق بكلمة: "لكن نريد بعض الخادمات على أية حال".

أعطتهم اثنتي عشرة فتاة.

لكنها أرسلت يوريكليا إلى البلدة لاستبدال الفتيات الاثنتي عشرة في اليوم التالي. عندما انتهى تمشيط الصوف بدأن الغزل على الفور. بعد سبعة أيام، أتى وفد آخر (مكون أيضا من العضوين انتينوس ويوريماكوس) من القاعة الكبرى. وقفت عند أعلى السلم المفضي إلى مخدع النساء. وانتظر الاثنان في البهو.

"ما الذي تريدانه هذه المرة؟".

أجاب انتينوس: "المطلب القديم المعتاد. وماذا غيره؟".

قالت: "أنا مستعجلة الآن. نحن نغزل الصوف. أنا مشغولة بإصلاح وضع المنزل الاقتصادي. يجب أن أتمكن من تقديم الطعام والشراب لضيوفي النبلاء الذين أجلهم وأكبرهم".

"يجب أن تتخذي قرارك يا سيدتي قريبا جدا!".

قالت، وأدارت ظهرها لهما، وهما ينحنيان: "لسوف تحصلان على جواب غدا".

في تلك الليلة تبادلت حديثا مطولا مع يوريكليا، تلك المرأة العجوز التي ضعف سمعها، وحسر بصرها، وأوهنتها السنون، وعانت من شرود الذهن الآن. حين عاد الوفد في اليوم التالي، أمكنها أن تجيب:

"لا أظن بأنك راغب بفقيرة؟ ولن تريد الزواج من معدمة، تَزَوَّجَتْ قبلا، وأصبحت الآن معلقة: لا هي أرملة ولا مطلقة، بل ما زالت تنتظر زوجها - كل يوم، كل ساعة؟ لن تريد تولي زمام منزل مهدم خرب، خوت مخازنه وأقبية طعامه وشرابه، منزل دون نبيذ، ودون طعام، دون مسرة ورونق؟ وحق السماء، من المؤكد أنك لا ترغب بمغازلة امرأة بسيطة لا يصل عدد رؤوس قطيعها إلى عشرة، امرأة بائسة معدمة ليس لديها سوى عشر من المعزِ وأربعة خنازير، وبضع شجرات زيتون يابسة وكرم هزيل؟".

بالغ الناطق باسم الوفد بدوره وبأسلوبه الخاص. ولم يكن هذا سوى الشاب الساخر المتهكم، والسياسي الوقح، انتينوس:

قال كأنما يمثل على المسرح: "نعرف أن مملكتك تمتد من أبعد جزيرة باتجاه مغرب الشمس إلى أكارنانيا تقريبا على البر الرئيسي، أيتها الملكة، أيتها الأرملة السامية. نعلم أن قطعانك لا حصر لها مثل أفكارك الحكيمة! وكل ما يتعرض للفساد والخراب من أملاكك مرده الافتقار إلى اليد الصارمة القادرة على إنقاذه، لتستفيد منه البلاد. دعيني أذكرك، أيتها المهجورة التي تخلى عنها زوجها، بأننا وطنيون - على الأقل نحن الذين ننتمي إلى هذه الجزيرة! دعي واحدا منا ينقذ ثروات مملكتك القوية، التي لم يسمع عنها أحد، من الخراب والفساد والإفلاس المأساوي!".

اضطرت أن تضحك منهما.

قالت: "انتظر حتى أعرف كمية الخيوط التي سأحصل عليها". مع هذا الجواب اضطر الاثنان للذهاب. ولم يجرؤ أي منهما على المتابعة، ففي الحقيقة كان هؤلاء السياسيون النبلاء والمتنافسون على الزواج منها، يلعبون لعبة جريئة جدا.

بعد ذلك مباشرة، بدأت بينلوبي النسج. لم يصبح هذا بعد النسيج الشهير، "النسيج" (بألف ولام التعريف)، الذي أدى إلى تخليد اسمها أعواما طويلة؛ بل هو العمل الذي تولت القيام به لتصحيح أوضاعها المالية.

من الطبيعي أن يتطلب تقدم العمل وقتا. أولا، بمساعدة يوريكليا، نظمت دورة تدريبية على النسج والحياكة، وفي الحقيقة كانت مدرسة نسيج متكاملة. وبدا نتيجة غزو الجزيرة وتدفق النبلاء من الراغبين بالزواج من بينلوبي، أن الفتيات، بنات طبقة "البرجوازية الصغيرة" والعبيد، قد بذلن جهودا كبيرة لأداء الأعباء المنزلية. واستمر النبلاء الراغبون بالزواج في السفر من/ وإلى كافة أنحاء مملكة الجزيرة: من دوليكيوم، وساموس، وزاكينثوس المغطاة بالغابات، وليوكاس، والبر الرئيسي، ولم يكن منزل "الزوجة" المكان الوحيد الذي يروِّحون به عن أنفسهم. كان هناك حشد كبير منهم، بعضهم جاء مع وسطاء، وممثلين، واخوة، وأبناء عمومة، وأعمام، والعديد منهم استعرض خدمه وحشمه وحملة أسلحته. أقاموا إما عند معارفهم، أو في خان نويمون في وسط البلدة، وبالطبع تركوا أثرهم على الحياة هناك، حيث بلغ في بعض الأحيان حد المعلم الأساسي لها. في بعض الفترات ظلوا في منازلهم من أجل جني محصول العنب أو الزيتون أو الذرة، أو من أجل ذبح حيواناتهم، لكن ستجد دائما جماعة منهم في البلدة وفي القاعة الكبرى - وليس ثمة حاجة لوصف وضع الفتيات حين يصل البحارة والجنود الأجانب! وبالرغم من أن المسلك الأخلاقي لم يتدهور إلى حد كارثي فيما يتعلق بالجنس، إلا أنه تغير بشكل كبير خلال السنوات الأربع أو الخمس التي خضعت خلالها لشروط النبلاء والمتنافسين على "الزوجة"، منذ أن فقد الأمل بعودة "الرحال" "المختفي" الذي طال انتظاره وتشوهت سمعته نوعا ما، إلى أرض الوطن.

مع ذلك، كانت الفتيات على استعداد لتعلم المهنة أو الفن، لكن العديدات منهن لم يتمتعن بما يكفي من الذكاء والموهبة والبراعة. أنوال التدريب الأولى وضعت في مخزن، هريءٍ قديم لتخزين الذرة والصوف، وخلال فصل الخريف، حين حملت الريح المطر من الغرب والشمال، استخدمت جميعا في الدورة التدريبية داخل المخزن. في الربيع، تمكنت الفتيات من وضع عشرة أنوال إضافية في مخزن أكبر مساحة كانت السيدة قد أصلحته. استطاع المصنعان معا تشغيل خمس وسبعين امرأة: أرامل الحرب؛ كاهنات سابقات من البر الرئيسي اللاتي أدمن الشراب قليلا، بعض بغايا الميناء اللاتي رغبت "الزوجة" بإنقاذهن، والباقيات كن من الفتيات اللاتي تراوحت أعمارهن بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة. لا يمكن القول إن السلوك الأخلاقي العام قد تحسن أو تدهور،

لأن ذلك يقع خارج الحدود التي يود الراوي حصر نفسه ضمنها، لكن ظهر تغيير باتجاه ما هو مفيد على الصعيدين العملي والاجتماعي. لم يتراجع مستوى المشاعر التقوية والطائفية لدى الكاهنات والعاهرات السابقات، ولا تخلت الفتيات عن متعهن الليلية مع النبلاء وخدمهم؛ لكنهن الآن يتلقين دخلا ثابتا، اعتبرته معظمهن، خصوصا الجواري وشبه الجواري، بمثابة حصة في الأرباح. وحين عملن، أنتج عملهنّ رأس مال للسيدة "المنتظرة"، "ذات الذهنية التجارية المغامرة".

ظلت توريدات الصوف والجلود جيدة طيلة ثلاث سنين، وتمكن عملاء ووكلاء يوريكليا في كافة أرجاء الجزيرة وعلى البر الرئيسي من إجراء مقايضاتهم بذكاء وأمانة. في السر، ودون علم النبلاء، زادت رؤوس قطعان الماشية في أكارنانيا وليوكاس، كذلك عدد الخنازير والخراف على كل الجزر، فيما عدا ايثاكا. رتبت كافة الأمور يوريكليا، المربية السابقة، ومدبرة المنزل، الجارية التي اشتراها ليرتيز، عم بينلوبي، مقابل عشرين ثورا، حين كان هو وهي في مرحلة الشباب. يوريكليا، ابنة اوبس، المتحدر من نسل بيسنور المعذَّب، المبتلى. يوريكليا التي تحظى بالإكبار والإجلال، وجدت نفسها فجأة في علاقات قرابة مع عدد ضخم من الناس الواجب زيارتهم، ومصابة بأمراض عديدة، يحتم علاجهم زيارة الحمامات والأضرحة في الخارج. بل كانت لها خالة في مسينا اضطرت لزيارتها، ولا بد أنها عجوز هرمة بعمر الآلهة تقريبا؛ تذكرت فجأة أيضا خالة أخرى أقامت في أقصى التخوم الشرقية، وعمة عاشت بعيدا فيما وراء طروادة، في مكان ما حول خليج أرغوس. كانت رحلات طويلة توجب على العجوز القيام بها. وجدت لنفسها رفيقا وحاميا: عبد محرر أبكم، لكن ليس أصم، خضع لبعض التدريب العسكري، والسياسي على الأرجح. وهو رجل عريض المنكبين، لحيان، وأشعر، في الأربعين من العمر، اسمه داكريوستاكتوس، لأن عينيه تدمعان كلما هبت أية نسمة رقيقة؛ قطع لسانه على ساحل "أصحاب الوجوه المسفوعة" قبل وقت طويل من قيام ليرتيز بشرائه. في رحلاتهما، استخدما لغة لا يفهمها سواهما، وهذا ما أعطى يوريكليا في البر الرئيسي سمعة ذائعة باعتبارها تمتلك قوى سحرية.

حين أصيبت العجوز بواحدة من نوباتها المرضية، ظلت في البداية لعدة أيام تعاني من السعال أو الحكة، أو تضغط بيدها على ظهرها الهزيل وهي غير قادرة على

الوقوف منتصبة بسبب النقرس؛ ثم تسوء حالة سمعها عن المعتاد. ومن أجل استعادة نشاطها، كانت تستجمع شجاعتها وتحاول المشي، متأوهة مولولة، وتسافر على طرق وعرة أرهقت الناس، وتبحر في مياه عاصفة، وترتقي جبالا بعيدة فيما وراء بيلوس؛ ومن الغريب أنها ازدادت نشاطا وقوة. لكن بعد وقت قصير، أو في السنة التالية، تدهورتْ صحتها مجددا، واكتشفت مزيدا من الأقرباء على بعد مسافات نائية في أجزاء مجهولة من البلاد. في إحدى المناسبات طالت غيبتها بحيث ظن الناس أنها ماتت، ونسوها تقريبا؛ لكن ربانا حسن الاطلاع كان يتعامل مع كل أنواع البشر، نشر إشاعة مفادها أن بعضهم شاهدها في ديلوس وكريت في آن معا. وذكرت هي نفسها عند عودتها أنها كانت في بيلوس الرملية، ثم غادرت إلى الطرف الجنوبي من جزيرة بيلوبس، وإلى سيثرا - لكنها وهي هناك سمعت أن ابن أخت لها، نسيت كل شيء عنه من قبل، كان يعيش في كونسوس في كريت، ولذلك هرعت بالطبع لزيارته. أحضرت معها متاعا كثيرا من رحلتها تلك؛ قالت إنها تلقته كهدايا، وأُرْسِلَ بسرعة إلى مخزن كنوز بينلوبي. ومن بين الأشياء التي أحضرتها زبادي، وأوعية ذهبية، وكؤوس، وأكواب من الذهب والفضة: ولربما حسب أقرباؤها أن العجوز التي نادرا ما شربت الكحول، مدمنة على شرب الخمر.

ما لم يلحظه الناس في الجزيرة بعد هذه الرحلات التي قامت بها بحثا عن المتعة وسعيا لتحسين حالتها الصحية، كان واضحا للعيان بين قطعان المواشي على البر الرئيسي، والخراف التي تربيها بينلوبي على الجزر الأخرى حيث تملك أراضيَ رعوية هناك: لقد زاد عدد رؤوسها بسرعة لا تصدق. كانت "الزوجة المنتظرة" تراكم رأس المال، وليس ثمة شك في أن يوريكليا كانت تبيع الملابس الصوفية والجلود وتشتري قطعان المواشي في كافة أنحاء الأرخبيل وصولا إلى بحر إيجة، وذلك إما مباشرة أو عن طريق وكلاء لها.

كانت بينلوبي بحاجة لذلك أيضا. ففي بعض الأحيان زاد عدد طالبي الزواج، والمعجبين المتأنقين، والمتنافسين على المائة: والرقم الذي ذكر هو مائة وثمانية.

العبيد القائمون على الخدمة والندل والسقاة كانوا يرفعون أيديهم ويفردون أصابعهم العابقة برائحة الثوم والدهن ولحم الخنزير والأطعمة التي يحضرونها بعدة طرق، ويقولون: عشرة أضعاف هذا العدد وفوقه عشرة! وهم يأكلون ويأكلون!

يمكن القول إن المائدة الكبرى في منزل "الغائب" كانت تضم - مرتين يوميا - خمسين ضيفا على موائدها. وبافتراض أنهم رجال، شبان أو كهول، يتمتعون بشهية مفتوحة، فإن حسبة رياضية بسيطة تعطينا فكرة عن عدد الخنازير والخراف والمعز، وعدد الثيران المستوردة، وكميات الخمر والخبز التي استهلكتْ في مثل هذا المنزل المضياف خلال أربع أو خمس سنين: الكميات المستهلكة ضخمة فعلا. وعلاوة على النبلاء من طالبي الزواج، يجب ألاّ يغيب عن البال أولئك الذين يقومون على خدمتهم من عبيد ومساعدين وخدم، الذين وصل عددهم إلى المائة حتما، يضاف إلى هؤلاء ستة من المغنين والمعدمين المقيمين بصورة دائمة في المنزل. فإن افترضنا أن الشخص الواحد يستهلك نصف كيلو من اللحم لمدة مائتي يوم في السنة، فما هي الكمية التي يستهلكها في ذلك البيت الكريم؟ مائة كيلو غرام؟ حسنا، كم تبلغ كمية اللحم التي يحتاجها مثلا خمسون شخصا؟ خمسة أطنان: أي ثور، أو خروف، أو خنزير يزن خمسة أطنان! إذا كان بالمستطاع تخيل مثل هذا الحيوان. في خمسة أعوام يصل الرقم إلى خمسة وعشرين طنا. والآن إذا ضاعفنا الرقم، كي يشمل الخدم الإضافيين، وحملة الأسلحة، والمساعدين وغيرهم، نصل إلى ما مجموعه خمسون طنا. ويمكن حساب الرقم بالنسبة للخراف على سبيل المثال. فالذبيحة التي نزع عنها الجلد والأمعاء، تزن حوالي عشرين كيلو غراما: هذا يعني ألفين وخمسمائة خروف. وإذا اعتبرنا أن متوسط وزن الخنزير أربعون كيلو غراما، فإنَّ العدد يصل إلى ألف ومائتين وخمسين. لنفترض الآن أن كل اللحم المقدم هو من لحم العجل، وأن وزن العجل في المعدل الوسطي مائتان وخمسون كيلو غراما، يبلغ عدد الثيران المستهلكة مائتين، توجب على بينلوبي ذبحها لمجرد أنها هدف للتودد وطلب القرب. فما رأيك بذلك؟

أو لنأخذ النبيذ مثالا. النبيذ الأسود الكثيف يمزج بالماء طبعا، لكنه استهلك بكميات كبيرة خلال الاجتماعات واللقاءات التي كثيرا ما كانت تستمر طيلة النهار وهزيعا من الليل. فإن شرب كل ضيف نصف زجاجة من النبيذ مع كل وجبة من مخزون "الزوجة"، فإنَّ الرقم يصل إلى ثلاثة عشر غالونا في اليوم، أو مائتين وستين غالونا في عشرين يوما، أو ألفين وستمائة غالون في مائتي يوم - فكم تبلغ الكمية في خمس سنين من التودد وطلب القرب؟ هنالك ثلاثة عشر ألف غالون من النبيذ تدفق من الجرار والكؤوس والأقداح والطاسات لتضيع في أحشاء هؤلاء النبلاء من آكلي اللحم وطالبي القرب!

ثم هناك العسل، والحلويات، والفواكه التي لا يمكن حساب كمياتها: ولا بد أن يصاب العقل بالذهول حين تخطر له الفكرة، لكن يمكن حساب كميات الخبز المستهلكة. لنفترض أن الشخص يستهلك نصف كيلو من الخبز يوميا، وهو معدل لا يساوي شيئا بالنسبة لحشد من النبلاء المعتاشين على مائدة "الزوجة". أما الكمية التي يستهلكها مائة منهم فتصل إلى خمسين كيلو غراما في اليوم، وفي مائتي يوم من كل واحدة من السنوات الخمس التي استضافت فيها الزوجة النبلاء المتنافسين على الزواج منها، تبلغ الكمية رغيفا وزنه خمسون طنا! وعندما تترجم هذه الأرقام بلغة الزرع والحصاد والطحن والخبز والخدمة والرعاية، يتبين على الفور حجم العبء الملقى على عاتق أسرة بينلوبي، والقلق الذي عانت منه "المرأة العادية" القابعة في "الانتظار"، والجهد الخارق الذي بذلته في إدارة كل ذلك بمساعدة يوريكليا.

أي بيت يقدر على مثل هذا الكرم. منزل "الغائب" تمكن من ذلك إلى حد معين. لم يكن "الرحال" فقيرا حين غادر منزله، لكن بمقدور المرء أن يدرك حجم العبء الملقى على مصروفه - ويرى كم كانت ضرورية عمليات الغزل والنسج والرحلات التجارية التي قامت بها العجوز، مدبرة المنزل التي تحظى بالاحترام والتقدير.

لم يكن النبلاء والطفيليون الذين يتوددون إلى "الزوجة" أغبياء لدرجة الجهل بالأنشطة التجارية التي كانت تقوم بها. ولا كانوا معارضين لها من حيث المبدأ، لكنهم أدركوا أنه من الصعب أن تتحسن فرصهم إذا تمكنت "الزوجة" من الاستمرار في الحفاظ على رأسها فوق الماء بالرغم من العبء الذي يمثلونه. فلسوف تحافظ على حريتها - وهذا ما أفرز انقساما في المصالح في عقول الأشخاص الأوعى، والأكثر خبرة بالتراث التجاري في الأسرة: فمن ناحية رغبوا بالسيطرة على هذا المجال المربح - فعلا واحتمالا - قبل أن يصاب بالإفلاس، ومن ناحية أخرى، أرادوا "تليين" السيدة من الناحية الاقتصادية، بحيث تضطر للزواج في سبيل موازنة رصيد الدائن والمدين إلى حد ما.

السلطة الاقتصادية هي التي استهدفوها، لكن الإله المعبود، بحرارة وحماسة أحيانا، أو بدافع الاحترام والإجلال، أو على مضض أحيانا أخرى، زوس إله الرعد - الذي سمي في الحقب المبكرة على الجزيرة ميليكيوس، الرقيق - لم يكن يبدو مهتما بهذه التفاصيل في سيرورة العالم. التظاهر بالتعبد الذليل للإله من قبل بعض النبلاء

المتوددين إلى "الزوجة"، الذين اهملوا بعدوى الانشقاق وعدم الامتثال للعقيدة التقوية السائدة، لم يمنع زوس أبدا من الاستمرار في النظر إلى المشكلة على مملكة الجزيرة تلك بلا مبالاة مطلقة. خلال تلك السنوات الماضية اتجهت أفكار السيدة آلاف المرات إليه وإلى أسرته المقدسة، إلى هرميز وأثينا بالطبع، وديميتر، وقدمت القرابين، وسعت من خلال يوريكليا للاتصال مع مركز ستيمفاليا - بيريا حيث يصنع القرار، لكن دون جدوى. ولذلك اضطرت للاعتماد على نفسها.

ضغط والدها عليها أيضا. وكان العجوز، الملك العجوز، ايكاريوس، يعيش متقاعدا في مزرعة ريفية في أكارنانيا، وكان واحدا من بين العديد من الملاك الاسميين لقطعانها. من الناحية النظرية، مازال يتمتع بالسلطة اللازمة لتزويجها مرة أخرى، لكنه شكك في هذه النقطة. فقد كان احترامه لـ"الرحال" عظيما، ولم يتمكن أبدا من إقناع نفسه بأنه غادر ظهر هذه الأرض، أو غرق، أو احترق، أو تحلل وتفسخ في مكان ما. لكنه تعرض للعديد من العوامل المؤثرة لتغيير رأيه، وليس ثمة شك في ذلك. وفي الرسائل التي كتبها من حين لآخر بمساعدة كاتبه الذي أحضره من بويوتيا، وبعثها إلى كبرى بناته، يمكن أن نتبين قلقه الواضح حول الشؤون الاقتصادية، حيث كانت متخمة بعبارات مثل: "عاجل!"، "تحركي بسرعة!"، "لا تتأخري!"، وغيرها من التعابير الصارمة والركيكة نوعا ما؛ وما هو مقصده منها؟ لا شيء سوى أنه لا يريد ابنة غير متزوجة (ابنته الثانية كانت مقيمة في فيراي مع زوجها وأطفالها) - يكره أن تكون له ابنة غير متزوجة تتردد في الزواج، ابنة نصف أرملة ونصف زوجة. كما أن النفوذ وعوامل الجذب السياسية والاقتصادية - طبعا - التي سيمتلكها نتيجة وجود صهر حقيقي من لحم ودم، كانت أهم وأثمن بالنسبة له من المجد الذي ما زال متشبثا باسم "الرجل المختفي".

تقول كلمات إحدى رسائله ما يلي:

"صاحبة الشرف الرفيع الابنة الرائعة، طفلتي الرفيعة المقام، تحميها الآلهة!

شكرا لرسالتك الأخيرة التي تلقيتها عن طريق العبد الأبكم. أشعر بالسرور، لأنك وتيليماكوس بصحة جيدة على ما يبدو. كذلك أشعر بالبهجة والحبور لأن العديد من الأشخاص يركزون انتباههم عليك؛ مما يظهر أنه بالرغم من كل شيء فإن الرجال الناضجين وحتى الشباب في كافة أنحاء منطق الجزيرة ما زالوا يقدرون الأنوثة الحقيقية حق تقديرها. عبء العمل ثقيل على كاهلك طبعا. بل ثقيل جدا كما يبدو لي. كم هو

ممتع لو يكون بجانبك زوج في مثل هذا الوضع. والد للأبد، يحمل الرمح، والترس، والصولجان، ويشرف على المراعي. آه، أجل. الزمن يمضي، وينقضي مسرعا، وفي طريقه يزرع الشيب في رؤوسنا أو يأخذ ما عليها من شعر. جمال المرأة يذوي ويبهت، كما قيل حقا، ويخبو بسرعة. أجل، يا ابنتي العزيزة، الوضع السياسي غير مستقر. هذا أقل ما يمكن أن يقال عنه. ولا أحد يعلم المسار الذي ستتخذها التطورات في المستقبل. أتمنى لو تقيمين صلات مع أشخاص نافذين، أعني من خلال رباط الزواج. الوقت قصير كما قلت".

اختتمت الرسالة بحديث حول الجو والرياح واحتمالات المحصول وأسعار المواشي. والفقرة الأخيرة كتبت أيضا بأسلوب ودي، لكن تبدت فيها نبرة أبوية سلطوية:

"القانون هنا وفي مناطق الجزيرة يعطي الحق للوالد بمعاملة ابنته كما يريد. العلاقات بينك وبين زوجك المختفي كانت جيدة حسب علمي. ويمكن للمرء القول إن زواجكما كان زواجا قلبيا عن حب. لكن لا يستطيع أحد أن يعيش على الذكريات وحدها. لم أتوصل بعد إلى أي قرار يتعلق بوضعك ومستقبلك، لكني كثيرا ما أفكر بالسرعة التي يمر فيها الزمن، كيف يجري مسرعا. أود أن أراك تتمتعين بالسعادة والحماية قبل أن أغمض عيني وأغادر إلى عالم الموتى. أفكر فيك في كل نهار يمنحه لنا هليوس، ويمكنك التأكد بأنني أخطط من أجلك ـ لسوف أبذل قصارى جهدي لأرتب شؤونك".

السيدة، سيدة الأعمال العظيمة، هزت كتفيها باستخفاف، وزمت شفتيها وقالت ـ بلهجة تظهر احترام الابنة لأبيها:

"يعملون في ذاك الاتجاه أيضا يا يوريكليا!".

أجابت العجوز:

"ما زالت صاحبة الفضيلة شابة. الرجال يسافرون في رحلاتهم، لكنهم غالبا ما يعودون حين يقدرون على ذلك. أحسب أن هذا يحدث كثيرا. سمعت عن رجال سافروا لمدة عشرين أو ثلاثين سنة ثم عادوا إلى وطنهم. البحر واسع، طويل الطرق والخطوط، وليست جميعا سهلة على المسافرين".

لكن هذا لا ينطبق على الوقت الحالي، حين تغامزتا دون أن تعترف أي منهما حتى لنفسها بأنهم فعلوا ذلك؛ حدث هذا عندما كانت ابنة دوليوس ما تزال طفلة وغير قادرة على إغواء الرجال ولم يمسسها أحد.

ـ٥ـ
الآخر

قال الرسول، حامل الصولجان، "صاحب القدم المجنحة" كما يحب أحيانا أن يسمي نفسه متفاخرا: "إنه أمر يا سيدتي العزيزة. أمر من 'المهيب'".

بدا الديبلوماسي الناجح راضيا مسرورا، وهو يرقب كاليبسو وينتظر جوابها المحدد. لو كانت مخلوقة بشرية بالكامل، لقال المراقب البشري الذي يتفحصها: "بين الخامسة والثلاثين والأربعين. ربما بين الأربعين والخامسة والأربعين". عيناها سوداوان، والتجاعيد على وجهها حفرتها الخبرة والتجربة، ولأنها لم تدلكها فقد تجمعت بكثافة حولهما ـ كانت سمراء ناعمة البشرة، مثل امرأة أتت من واحات مخبأة في عمق صحارى الجنوب البعيدة: وجه أسمر مدور، وذراعان سمراوان نحيلتان لم يتمكن حتى الخوف من هليوس أن يعطيهما بياضا، كانت سمراء صقيلة الجلد إذا أردنا قول الحقيقة. لم تكن فارعة القوام. بل تذكرك بالدمية، دمية رقيقة طرية، وبالنسبة للزعماء الذين يملكون العديد من النساء: تعتبر الخليلة المثالية.

ومع ذلك كانت حاكمة، لا مجال للخطأ في ذلك. اعترف الرسول بينه وبين نفسه بالحقيقة، وحاول إخفاءها خلف ابتسامة متسامحة. جمعت الاثنين صلة قرابة بعيدة، وأحد التفسيرات المحتملة لابتسامته ربما كانت: نحن في معسكر العائلة العُلوي، نحن، الصفوة، نخبة البشر والآلهة، نعلم أشياء عنك. أشياء كثيرة. نعرف هروبك الطائش المريب، وتحديك، ونفيك. لكننا متساهلون معك، أسرك معتدل خفيف الوطأة، حر غير مقيد، ولا نطالبك بالكثير. نحن نتفهم حالك.

كانا يجلسان في قاعة منزلها. لاحظ الرسول أن الجارية التي تهوّي الغرفة قد اختيرت بعناية: عبدة سوداء قبيحة، شعرها رمادي، ومقلتاها محتقنتان بلون الدم وتتحركان بشكل دائري، واصطبغت شفتاها بالأزرق ـ كأنما عليهما نبيذ فاسد. ولا يمكن لها أن تثير أي رجل.

وضع الرسول ساقا على ساق، في حين ارتاح مرفقه على ركبته اليمنى واتكأت ذقنه على راحته. في جلسته لا مبالاة تصل تقريبا، لكن ليس تماما، إلى حد تجاهل وجودها، أو ربما ازدرائها. لكن صوته أظهر تملقا واحتراما قسريا.

"ذلك هو الوضع إذن يا سيدتي العزيزة".

جلس الاثنان بطريقة سمحت لهما بالنظر عبر المدخل المفتوح ومنه إلى الباحتين؛ أمكنهما رؤية الخليج في الجهة الشمالية الشرقية. مالت الشمس إلى المغيب وبدأت الظلال تكبر في الوادي. هنالك بعض الأشخاص يتنقلون حول الصخور جهة اليمين. وعلى الشمال انتصب على الجرف شخص ساكن لا يتحرك.

قالت، محاولة السيطرة على نفسها: "لقد كان سعيدا جدا هنا".

بدأت ساق الرسول تتأرجح.

"سعيد وسعيد. هذا يعتمد على رؤيتك للسعادة، وتفسيرك لها. عليك أن تعذريني، لا أريد أن أقول شيئا خارج حدود الأدب، لكنه ظل بعيدا عن وطنه وبيته زمنا طويلا".

ابتسم لها ملاطفا، معجبا.

قالت: "أجل، أفهم كل ذلك. ومع هذا.. ".

"سيدتي العزيزة، قضى في الحرب عشرة أعوام ثم ثلاثة في رحلاته قبل أن ينزل هنا. وكم أمضى هنا؟ سبعة، ثمانية؟".

لم تكلف نفسها عناء الإجابة. تبع ذلك ما يمكن تسميته بالمشهد، فصل من مسرحية؛ مفاجأة ذاتية مريرة مليئة بالحث والإقناع والحزن. قالت:

"هناك في الميناء رجال طاقمك، أيها المحترم، المبجل. ألا ينبغي عليهم الصعود إلى متن السفينة؟ ألا يتوجب عليهم الإبحار؟ لم لا تذهب إليه وتقنعه بمرافقتك بينما لا يزال يرغب بالرحيل؟ في هذه الأمسية ربما لن يرغب بالرحيل؛ أنا أعرفه".

نهضت، وتهدل ثوبها الأزرق حتى قدميها، حتى صندلها الأحمر. حين وقفت بدت رشيقة القد، نحيلة الجسم، سمراء البشرة. وبينما كان يرقب المشهد ويبتسم ابتسامة الخبير المحنك، تابعت تمثيل دورها:

"آه، أنتم يا من تعتبرون أنفسكم أسمى الآلهة، أنتم الأقوياء، الحاسدون! أنتم ومتعكم، وحياتكم التافهة - لا، لا، لا، أنتم لا تفهمون شيئا! حسنا، خذه معك إذن! حالا، هل تسمع، هيا أسرع، اصعد إلى السفينة معه هذه اللحظة! انظر، ها هو يقف وينتظر! ها هو يقف هناك مترددا! استغل فرصة تردده! بحلول هذا المساء ربما لن يكون من السهل إغراؤه، أيها المبجل!".

بينما كانت تمثل في مشهدها المسرحي الرفيع، كان الرسول يصوغ إجاباته. وحين توقفت عن الكلام وشهقت - ويا لحجم النفس الذي يمكن لهذا الجسد الضئيل أن ينشقه! قال:

"لن يأتي معنا على المركب. لقد قلت ذلك من قبل".

قالت بسرعة: "تلك أيضا سياسة".

أصبحت ابتسامته أكثر سخرية في تعبيره عن التقدير، فهو الديبلوماسي، الواسع الاطلاع والمتحفظ، لكنه بدا (حسبما فكرت) أحمق إلى حد يبعث على الرثاء.

قال: "ليس ثمة سبب يدعونا للتدخل في الشؤون الداخلية لجزيرته. نرغب فقط بإتاحة الفرصة له للعودة إلى الوطن. لكن لا نستطيع أن نتعهد بدعم عصيان مسلح - إذا كان وصوله إلى الوطن في هذا الوقت يعتبر محاولة للقيام بعصيان مسلح ضد الحزب الذي يمسك بزمام معظم السلطة في ايثاكا".

قالت: "ولكن؟". بالرغم من أنها كانت تقف في وسط الغرفة وقدماها فوق

الأرضية المزخرفة، إلا أنها تركت انطباعا لديه بأنها رفعت قدما لتصعد سلما غير مرئي.

"يرغب، ويجب أن يرتب أمر نقله من هنا. اكتفينا نحن بإعطائه دفعة محفزة".

قالت بلهجة أكثر حدة: "ولكن؟ أنت تريد منه الذهاب إلى الحرب مرة أخرى. هذا يناسبه، وهو مستعد لذلك، لكنكم لا تريدون ركوب أية مخاطرة ".

بدأت الآن تمثل مجددا، وتابعت المشهد:

"أنتم تحسدونني على كل شيء! علي أن أبقى هنا في مزرعة قديمة في آخر العالم ـ أنا ابنة أطلس! ـ على مزرعة قديمة بوار لا تغل شيئا، أجلس هنا وأفكر قلقة من أين سأحصل على وجبة الطعام التالية، معزولة، كأنني منفية في وطني! تريد أن تبقيني هنا لهدف سياسية ـ منسية، لكن منتجة حين يسعدك أن تتذكر وجودها المفيد ـ كعلامة للإبحار قربها، لكنها باقية هناك. تركتموني في سلام لعدة سنين. ويا له من سلام! بعيد كل البعد عن التسلية والمتعة والإثارة والقداسة. ثم أتى. وبقي. كنا في منتهى السعادة، أؤكد لك ذلك. كان راضيا، لم يتلهف للرحيل. نسي كل شيء، أجل، نسيكم، نسي العظيم المبجل. لم يعد لديه أية رغبات محددة".

قال بقسوة مفاجئة، وصريحة:

"أجل، ساءت الأمور كثيرا في نظرنا".

تابعت التمثيل:

"وحين توجب عليه الرحيل، حين أجبرتموه على الرحيل، حين أمرتموه بالرحيل ـ لم يعد هناك سفينة متوفرة ليغادر بها ! لا توجد سفينة في طول البحر وعرضه، في بحر بوسيدون العظيم كله ـ لا يوجد ولا مركب واحد! لكنني استطعت العثور على سفينة! لسوف أدبر الأمر! علي أن أكون مكتبا لسفرياتكم ووكيلا لمرافقة مسافريكم واستئجار السفن! أعلمونا فقط ـ أوامركم ستنفذ بسرعة ودون تكلفة! أوه، هذا كاف ليجعل المرء.. ".

قال: "سيدتي العزيزة. أود الإشارة إلى أنني مضطر لإرسال تقرير بكل ما قلت".

عدلت أساليبها الكنكية لنصل إلى نتيجة لا تصدم. رسمت ابتسامة مضيفة باردة. ورفعت يدها اليمنى مباعدة بين أصابعها الرشيقة:

"لسوف أدفع تكاليف الرحلة. وسيكون من دواعي سروري أن اقدم هذه الخدمة الصغيرة لك ولأسرة الآلهة الجليل. أتوسل إليك أن تبلغ تحياتي إلى الإله الجليل وتؤكد له ولائي المخلص وطاعتي الكاملة".

قال المبعوث وهو ينهض: "نحن شاكرون لعرضك الودي. سيكون.. كيف أعبر عن ذلك؟ أجل.. سيكون من الطبيعي أن يصل وطنه بهذه الطريقة. لقد تبنينا مبدأ مساعدة أولئك الذين يحتاجون العون في الأوضاع السياسية الدقيقة ـ لكن دون أن نناصر أحدا صراحة. إذا تذكرت حرب طروادة، سوف تفهمين مقصدي ربما. آمل أن تدركي بأننا نقف على الحياد".

قالت وهي تمد يدها: "أدرك ذلك بكل وضوح أيها المبجل. انقل تحياتي".

قال الرسول: "لسوف يغادر في أقرب وقت ممكن. أحسب أن بمقدوري ترك رجلين هنا ـ أعني كمراقبين؟ ويمكن أن نستدعيهما بخلال مدة أسبوعين أو نحوهما. آمل أنه لا يوجد لديك اعتراض على ذلك".

قالت: "أوه، لا أبدا وكيف أعترض؟".

حين سار عبر الفناء الخارجي ظهر أربعة من حراسه الشخصيين من خلف الجدار ومشوا وراءه على الدرب النازل نحو ميناء الشرق حيث نقل سفينته خلال الصباح. كان كل منهم يحمل رمحين، وقوسا، وكنانة، إضافة إلى سيف وترس طويل. في منتصف الطريق أعطاهم أمرا؛ ساروا في رتل واحد جهة الجرف إلى اليسار حيث كان الشخص ما يزال واقفا.

تراخت جلستها. كانت ما تزال واقفة في منتصف الغرفة وظهرها إلى الموقد. لكنها أصبحت أكثر ضآلة وأقل أهمية. رفعت يديها إلى وجهها.

غمغمت قائلة إلى الجارية التي استمرت تهوّي الغرفة برقة بمروحة من ريش النعام: "اذهبي" فجأة، ضربت كاليبسو الأرض بقدمها، وأبعدت يديها عن الوجه المضنى والعينين السوداوين المغرورقتين بالدموع، وصاحت:

"ألم تسمعي أيتها القردة السوداء ! اذهبي من هنا، قلت لك اذهبي من هنا !".

-٦-

حبك الخيط

في نهاية المطاف، وبواسطة عدد لا يحصى من الوفود التي تألفت على الدوام من انتينوس ويوريماكوس، وضمت فيما بعد امفينوموس، استطاع الخاطبون إجبار بينلوبي على تقديم وعد بإعطاء جواب محدد وإعلان اسم من تختاره. ليس من الواضح عدد التهديدات المبطنة، وإلى أي مدى استخدم ايكاريوس، لكن يمكن للمرء أن يتخيل أن النبلاء المطالبين بالزواج كانوا فاعلين في استخدام ما لديهم من أسلحة. ولربما هددوا بإثارة المشاكل على البر الرئيسي أو إشعال ثورة في الجزر. وربما استخدموا أساليب تحريضية أخرى غير اقتصادية ومالية.

ماذا قدمت بينلوبي ذات مرة، في السنة السادسة عشرة، في بداية عصر المطالبين بالزواج منها، إلى انتينوس، الشاب القوي والنشيط؟ هل كان أكثر من لمسة بشفتيها؟ من هم العبيد الذين يعرفون، وما الذي يعرفونه؟ ألم تبدأ ميلانثو آنئذ تلك الفترات من اليقظة والسهر في الليل حين كانت تنسل في البيت، صامتة، دون أن يسمع أحد وقع أقدامها؟ من يعلم شعور تلك المرأة بعد أن طال غياب زوجها، وماذا تحس "نصف الأرملة" بجسدها حين تعبق في الجو روائح تجدد الطبيعة وانبعاثها، وحولها أريج ذكوري من فحولة الشباب؟ ما الذي حصل عليه منها يوريماكوس الساحر الفتان؟ هل كان أكثر من لمسة شفتين لشفتين، وملامسة جسد رجل لجسد امرأة؟

فيما بعد تم محو العديد من الآثار: لقد قاتلت في سبيل حريتها. لكن ما هي؟

أعطتهم وعدا؛ حين تغزل كل بالات الصوف في مخازنها وتحولها إلى خيوط، وتنسج كافة الخيوط ملابس، عندئذ سوف تختار. بالطبع لم تكن تنوي إيقاف عاملات النسيج لديها - فهن يدركن مغبته من الناحية الاقتصادية - لكنها شعرت بأن ذلك

سيعطيها فترة من الراحة كي تختار وتقرر، فترة توقف لالتقاط الأنفاس قبل أن تبدأ حياة جديدة. يمكنكم التأكد من أن الروح المعنوية للنبلاء الخاطبين كانت في أفضل حالاتها، بل وصلت إلى حد الجرأة والوقاحة!

حددت بينلوبي مدة سنة. لكن كانت هناك كمية كبيرة من الصوف، حتى وإن حاولوا (من خلال التزام المسؤول عن قطعان الماعز، ميلانثيوس ابن دوليوس الناجح) ضمان ألا ينقل الصوف الجديد الخشن الذي تم جزه من ظهور وأجناب الخراف إلى مخزن النسج، بل أن يباع في الجزيرة وعلى البر الرئيسي. عملية النسج سارت قدما دون توقف؛ قطعة من القماش بعد أخرى كانت تخرج من الأنوال وتسلم إلى الوكلاء. لكن مخزون الصوف ظل ضخما إلى درجة لا تصدق. ولربما كان هناك نوع من الصلة بين تلك الحقيقة وبين نوبات المرض واعتلال صحة يوريكليا. هنالك إرهاصات بعيدة كانت تدل على قرب مرض العجوز؛ إذ تبدأ بالعطاس، والارتجاف، والارتعاش، ثم ترفع يديها إلى الشمس نائحة نادبة، وتتمخط وتمسح أنفها بطرف ردائها، وتمشي بصعوبة، لاهثة الأنفاس، وتتحدث عن المرض، وتعطس وتسعل - ثم تغادر إلى البر الرئيسي بحثا عن علاجات سحرية هناك. عادت إلى الجزيرة في إحدى الليالي؛ وبدا أن هناك كمية من الصوف تكفي لغزل خيط طويل يمكن أن يصل بين طرف العالم في البحر الشرقي وحافته الأخرى في البحر الغربي. واستغرق نسج هذا الخيط أكثر من ثلاث سنوات.

اكتشف الخدعة ميلانثيوس، المشرف على قطعان الماعز. كان يتساءل عن الأمر، برغم ذكائه المحدود، ومن المفترض أن شقيقته قد ألمحت إليه به. صحيح أن اثنين من أشقائه إضافة إلى أبيه قد عملوا كرعاة، إلا أنهم نادرا ما رووا حكايات، واستهجنوا قيام ميلانثيوس بذلك. حدث الأمر على النحو التالي:

في إحدى الليالي، أتى أربعة من الرعاة إلى مركز البلدة، وساروا جاهدين بمحاذاة السور وهم يحملون رزمة ثقيلة على محفة. توقفوا مرارا لتبديل مواقعهم على مقابضها. لم تنبح الكلاب وهم يعبرون البوابة المفتوحة، وتابعوا سيرهم نحو مخزن الغزل بصمت وهدوء تحت ضوء النجوم الواهي.

قال واحدهم: "أرهقني عمل الليل هذا".

رد صوت آخر: "لكن يوماكوس قال إن علينا إنجازه".

قال ثالث: "سوف يقدمون لكم أجرا إضافيا".

لم يقل الرابع شيئا. فتح الباب وتبعته الكلاب؛ بدأ أحدها يهر. ثم نبح فجأة.

صرخت أصوات من الداخل:

"توقفوا! ماذا تفعلون هناك؟".

ركض ثلاثة من الحمالين: أمكن سماع وقع خطواتهم السريعة على طول السور؛ اختفوا بمثل لمح البصر تبعتهم كلابهم صامتة. تسمر الرابع حيث هو: وقف كلبه معه وهو ينبح متحديا. من داخل مخزن الغزل أتى رجلان يحمل كل منهما سيفا ورمحا.

"مرحبا!".

ظل الرجل واقفا في مكانه.

قال ميلانثيوس وهو يلمس البالة: "صوف! كنت متأكدا من ذلك".

قبض مرافق ميلانثيوس على ذراع الرجل الصامت وسعى للتعرف عليه تحت ضوء النجوم، لكن حين أحس بقوة تلك العضلات المفتولة ترك ذراعه على الفور؛ كما أن كلب الرجل هاجمه بضراوة واضطر للتراجع بضع خطوات.

"إنه داكريوستاكتوس، مخلوق يوريكليا الأبكم".

فكر الأبكم؛ ثم أخذ البالة ودحرجها إلى الداخل ثم أغلق باب مخزن الغزل - سار في طريقه مع كلبه؛ ولم يجرؤ أحد على لمسه.

قال انتينوس: "لا أريد استخدام السلاح، لكنه سوف يدفع ثمن فعلته!". في اليوم التالي تكلم مع "الزوجة" وأفهمها بأنهم يعرفون أن الرعاة يأتون إلى البلدة حاملين بالات الصوف في الليل.

قالت بينلوبي باقتضاب: "لم أر شيئا من ذلك"، وكانت على حق: لم تر أية بالات صوف تنقل إلى البلدة. "لكنني سوف أتحدث مع يوريكليا حول الأمر".

بعد ثلاثة أيام، قدم انتينوس ويوريماكوس مطالبين بتوضيح المسألة؛ وشرحا قائلين إنه تقرر في أحد الاجتماعات السماح بغزل ونسج الصوف الموجود في المخزن، على أن تتوقف العملية عند هذا الحد. واعتبر أن ذلك يمثل منتهى الكرم.

قالت بينلوبي:

"شعرت يوريكليا بتوعك، ولذلك غادرت إلى البر الرئيسي على ما أظن. هنالك نبع ممتاز في دلفي - إنه داء النقرس الذي تعاني منه أحيانا".

قال انتينوس (الحزب التقدمي) في خطابه: "فيما يتعلق بنا، يمكنها أن تسافر إلى أي مكان تريده، لكن نطالب بالتحكم بالصوف الذي تنتجه الدولة. نعرف كيف تم تهريب الصوف إلى هنا من البر الرئيسي؛ حصلنا على أرقام من الرعاة وربابنة السفن".

قالت السيدة (من المستقلين) في جوابها عن السؤال: "تلك مسألة لم أكن أتابعها عن قرب". وهذا صحيح: إذ لم تشغل ذهنها بالتفاصيل.

قال الناطق باسم الحزب التقدمي في النقاش الذي احتدم فيما بعد: "قررنا أن يتولى جنودنا حراسة المخزن ومصانع الغزل".

تحدث يوريماكوس مؤيدا ما قاله الناطق.

قالت بينلوبي: "لا شيء لدي أضيفه على القضية".

أوقف كل هذا توريد الصوف، وحالما يفرغ المخزون سيتوقف الغزل. عادت يوريكليا بعد مدة وجيزة من رحلتها، التي لم تكن طويلة هذه المرة: ذهبت لزيارة ليرتيز في مزرعته الريفية المشرفة على البلدة. كانت تبدو متوعكة الصحة أكثر من المعتاد، مما يشير إلى كثير من الأشياء، لكنها لم تذهب إلى دلفي للعلاج في نبعها. بدلا من ذلك، ترددت على مصانع الغزل والنسيج في محاولة تخريبية جهيدة (إذا أردنا استخدام التعبير الفظ، رغم عدم استعماله آنئذ بالطبع) لتعطيل العمل وعرقلة الإنتاج. وجدت عيوبا في فلكات المغازل؛ ورأت أن العديد من الفتيات غير مؤهلات للعمل أو أنهن يعانين من الإنهاك فيه، وهؤلاء أرسلتهن إلى منازلهن لأخذ قسط من الراحة لبضعة أيام. ومع ذلك، سار العمل على غزل الخيط بعناد ودون توقف، رغم بطئه إلى حد ما، ليتحول إلى كرات، وبدأ الصوف ينفد. ظهور العجوز في مصانع النسيج كان له تأثير مشابه: هنالك مشاكل كثيرة في الأنوال، إضافة إلى تبرم وتذمر وتردد العاملات، الأمر الذي أدى إلى تباطؤ العمل. لكن الخيط ظل يتحول إلى قماش. لم ينعس الحراس في الليل أكثر من المعتاد، وفشلت عدة محاولات لتهريب كميات صغيرة من الصوف الجديد. توقفت المغازل، وسرعان ما أوقفت المناسج أيضا

لفترة، وخلال مدة التوقف، فكرت بينلوبي واتخذت قرارها. في إحدى الليالي رأت يوريكليا مناما جديدا، وفي الصباح روت الحلم وهي تجلس على حافة سرير سيدتها.

"رأيت فيما يرى النائم أن ليرتيز مريض جدا. علي فعلا الذهاب ورؤيته مجددا".

قالت السيدة، "الكنة" الصالحة: "يا له من حلم مفزع. كيف حاله؟ هل تعلمين؟".

قالت العجوز: "حين كنت هناك آخر مرة كانت حالته عادية. يريد أن يبقى وحده ويشغل نفسه ببستانه وكرومه".

"وهل ما يزال غير راغب بالانتقال إلى المنزل والعيش معنا هنا؟".

قالت يوريكليا بتجهم: "لا، طالما ظل هؤلاء.. هَمْ مْ.. الأشخاص يأتون إلى هنا".

"بم حلمت أيضا؟".

"حسنا، كما قلت، كان مريضا جدا. جدا. بحيث اضطر للبدء بالحديث عن الأكفان ومثل هذه الأشياء".

هتفت بينلوبي وقد أصابتها رعدة: "هوه! علينا فعلا أن نرسل إليه بعض الطعام اللذيذ. ونرعاه بالشكل المناسب! بماذا حلمت أيضا؟".

"حسنا، حلمت أن 'كنته' اضطرت لنسج كفن من قماش ناعم له، وهذا تطلب وقتا طويلا"؟

قالت السيدة وقد استغرقت في التفكير: "هذا منام غريب، هل حلمت بشيء آخر؟".

"رأيت أن هؤلاء الأشخاص لا يستطيعون رفض حقها في القيام بذلك. لم يجرؤوا على الرفض. سوف يكون رفضهم لحقها في إنجاز هذا العمل بمثابة تصرف وثني وبربري أمام الناس".

قالت بينلوبي: "هذا حلم لافت وجدير بالملاحظة".

أجابت العجوز، وقد بدا حتى صوتها "حسيرا" الآن: "أجل، إن من المشوق فعلا أن أحلم بهذا - مهما بدا الحلم غريبا".

قالت السيدة: "من الأفضل أن تذهبي وتلتقي به مرة أخرى ثم تعودي لإخبارنا عن حالته، ما مدى سوء وضعه الصحي، ومدى بؤسه وشقائه".

في أحد الأيام اللاحقة، حين انتهت السيدة من تسريح شعرها وتناول فطورها، ذهبت العجوز لزيارته بصحبة الأبكم دامع العينين داكريوستاكتوس.

عاد الاثنان في اليوم التالي. وقامت العجوز بجولة على المناسج وأزعجت كل العاملات؛ ناكدت ووبخت الفتيات وأبدت ملاحظات قاسية جعلت حتى النساء الأكبر سنا يفقدن الاهتمام بالعمل والعزم على متابعته. تحسر معظمهن واعتبرن الحياة عبئا ثقيلا، وأنهن محرومات من الاستمتاع بمباهجها كما يفعل الآخرون.. إلخ. أصابتهن العجوز جميعا بعدوى اليأس والقنوط. ثم جالت في أنحاء البيت وحوله تثرثر وتتكلم بصورة غير عادية. أخبرت الجميع عن الحالة الصحية السيئة للسيد النبيل ليرتيز؛ فقد أصبحت أيامه معدودة. واحسرتاه على الرجل العجوز المخذول (كان حاكما ذات يوم!). ها هو ذا يرقد هناك، بحاجة إلى كفن. بدا أن السيدة، "الزوجة"، قد وعدته ذات مرة أنها ستحيك كفنه - وليس مسموحا لها الآن بالحياكة! لسوف يتوقف النسج في وقت قريب، حين تستهلك المناسج الخيط. أجل، أجل،! هل يمكن تخيل مصير كهذا! لم تكتف العجوز بجولاتها في المنزل الرحب؛ ذهبت أيضا إلى البلدة، وظهرت في السوق، والميناء، وزارت البيوت والمعارف والأصحاب الذين لم تتحدث إليهم منذ سنين - في كل مكان سمع الناس قصتها، وعرفوا آسفين ما آلت إليه أمور ليرتيز، الذي كان رجلا رائعا في زمانه. تخيلوا! رجل مثله يرقد هناك، مريضا وتعيسا، ومع ذلك غير قادر على أن يواسي نفسه بفكرة الحصول على كفن جميل من زوجة ابنه حين يصل إلى النهاية! الحياة في الحقيقة تقسو على بعض البشر، بينما يستمتع غيرهم بالأكل والشرب والتسلية.

حين روت يوريكليا حكايتها، تواصلت وانتشرت بزخم ذاتي لتذاع في كل البلدة وتصل إلى الأرياف، ليسمعها رعاة الخنازير في الجزء الجنوبي من الجزيرة، والفلاحون ورعاة الأغنام والبحارة في الجزء الشمالي - بل إنها "أبحرت" مع القوارب إلى البر واخترقته إلى البحر.

غدت العجوز مصدر كافة المعلومات المتعلقة بمرض ليرتيز. لم يتوقف الخاطبون عن سؤالها عن حالة الرجل؛ فعلوا ذلك في كل مرة التقوا بها، وتجاوبت الآن معهم. عرفت كافة تفاصيل وضعه الصحي المتدهور باطراد؛ كانت على اتصال مستمر معه. ويمكن القول إن ليرتيز كان يجعل من الموت قضية صاخبة.

ضربت بينلوبي ضربتها في اللحظة المناسبة.

من بين المدعين المطالبين بالزواج منها، والطامحين، والأملين، والأنانيين القادمين من الجزر الجبلية والغابات والقرى الساحلية، من دوليكيوم، وساموس، وزاكينثوس وغيرها من الجهات، هنالك العديد من النبلاء الجهلاء والقساة والمتنافسين المتهورين الذين كان ضعفهم الوحيد في الحياة السياسية مجسدا في خوفهم من الأشباح، وإيمانهم بالخرافات. كانوا بطريقة ما من النوع التقي المؤمن. لم يكن انتينوس ولا يوريماكوس - ولا امفينوموس، الذي أتى من دوليكيوم - من المؤمنين بالخرافات، لكن توجب عليهم ممارسة سياستهم بطريقة يستفيدون فيها مما يسمى بالقوى الشعبية، الأمر الذي عنى اقتناص دعمها عبر استغلال نقاط ضعفها، ثم استخدام ما يكمن فيها من وحشية، وتطير، وخوف من الأشباح. هذه الأنماط البسيطة شكلت المدفعية الثقيلة لحزب الخاطبين، وأذرع زعمائه الضاربة. لم يكن هؤلاء مبرزين في النقاشات، لكن، من ناحية أخرى، لعبوا دور "جوقة الكورس" بامتياز، باعتبارهم "حزبا"، وأغلبية. رعّبهم زوس، مرسل الصاعقة وجامع السحاب، لكنهم لم يعرفوا كثيرا زوس الرقيق، زوس - ميليكيوس.

في صباح أحد الأيام، وبعد حديث مطول مع يوريكليا، هبطت بينلوبي السلم من مخدع النساء والتقت عند أسفله بالوفد المعتاد، معززا هذه المرة بامفينوموس. فقد استشعر الثلاثة أحداثا سوف تقع.

قالت السيدة المضيفة: "لا أريد أيها السادة التحدث معكم بشكل شخصي، بل أريد مخاطبة المجلس برمته".

أجاب انتينوس، وهو يقلب ناظريه في المكان: "لكننا نمثل اللجنة الدائمة. نحن الثلاثة، يا سيدتي، خدام أذلاء وأدوات متواضعة مرتهنة بإرادة شعب الجزيرة والخاطبين المتحدين".

قالت بينلوبي بكبرياء، وباستعلاء ملوكي تقريبا: "هراء! أرغب في التحدث إلى الآخرين أيضا. أرجو التفضل بمرافقتي إلى قاعة زوجي 'الغائب'. أريد قول بعض الكلمات".

توجب عليهم السماح لها بذلك. كان النبلاء يجلسون على الموائد الموضوعة بين الأعمدة بمحاذاة الجدران، والضجيج يعم القاعة، لكنهم سكتوا فجأة، وتركوا طعامهم

وشرابهم حين دخلت بينلوبي متهادية في مشيتها التي ناسبتها جيدا، ووصلت المكان الذي اعتاد زوجها الجلوس فيه قرب الموقد، ووقفت هناك.

قال انتينوس، الناطق الرسمي، بلهجة برلمانية رسمية، رغم أن صوته بدا حادا نوعا ما: "صاحبة الفضيلة ترغب بتقديم تصريح". ساد القاعة بعض التوتر.

تحدثت مباشرة إليهم:

قالت: "أيها السادة، لم يكن قصدي بأية حال انتهاك قدسية قوانين الضيافة بإقحام نفسي في مناقشاتكم المهمة دون ريب. تعرفون جيدا أعمق أفكاري (كان ذلك بمثابة كذبة بالطبع، مراوغة للحقيقة)، كما أن آرائي حول الدين والأخلاق لن تخفى عليكم أيضا".

لم يكن ذلك سهلا؛ فهي ليست خبيرة مجربة. وفي تلك اللحظة، بدا وكأنما فتوتهم، توقهم الحقيقي أو المزيف لها، رغبة هذه الأجساد الذكورية بها، وطمع نفوس هؤلاء المزارعين، والرعاة، والقراصنة بالسلب والنهب والغنائم، توشك على قطع أنفاسها. الآن، عند بدء خطابها، نظرت إلى امفينوموس الذي كان في العادة لطيفا ورقيقا. انخفض صوتها في البداية، ورجف، لكن ظلت محافظة على رباطة جأشها بما يكفي على أية حال لاختتام خطابها بأسلوب ممتاز.

أولا، أوجزت موقفها: نعرف ذلك. أبلغتهم بأنهم يعرفون مسبقا: أن زوجها انطلق في مشروع حربي مجيد، وأنه تبعا للأغنيات والإشاعات، فإنه يعتبر واحدا من أبرز الرجال حين يتعلق الأمر بالتفوق في الذكاء على عدوهم الوحشي والحقود وتحطيم قواه، وأنه ظل مصرا على العودة إلى الوطن طيلة الأعوام العشرة الأخيرة، وأن مكانه غير معروف حاليا. لكنها لم تتلق أي خبر يدل على موته. إلا أن ذلك ليس هو الموضوع الذي رغبت بتناوله في حديثها، بل الموت الوشيك لشخص آخر. عمها الحبيب الجليل ليرتيز، الذي يرقد مريضا منذ مدة طويلة، كما يعرفون. ومن المعتقد أن النهاية ستأتي في أية لحظة. لقد وعدت هذا العجوز الرفيع المقام الذي يحظى باحترام كبير بأن تحيك له كفنه، كفن كتاني يليق حجمه بجسده النبيل، وعظامه الجليلة. وما هو الموقف الآن؟

توقفت عن الكلام في لحظة مناسبة اختارتها بمهارة وحذق لإحداث التأثير المطلوب. جلس الحاضرون إلى موائدهم محدقين أمامهم بكآبة وعناد.

ثم بدأت الحديث عن الموت، عن مثوى الأموات، فهم السابقون ونحن اللاحقون، وتساءلت عما يمكن أن يحدث للموتى حين تنتهي شؤونهم وجهودهم بين الأحياء، على سطح الأرض. يمكنكم تخيل الآتي: يأتي ليرتيز إلى عالم الأموات ويقابل هناك فورا العديد من معارفه القدماء - على سبيل المثال، بعض آباء هؤلاء الحاضرين الآن، أصدقاء الميت القدامى من ساموس الصخرية، من زاكينثوس الغابية، من دوليكيوم الحالمة - وكلهم أبطال عظام على شاكلته. سيقول أحدهم: لا أعرف من أنت، أيها الصعلوك العجوز الرث الهيئة. ولا بد أن يجيبه قائلا: لربما يعود السبب إلى أن الأحياء على سطح الأرض ما ألبسوني ثيابا لائقة حين غادرتهم. فزوجة ابني وعدتني فعلا بأنها ستحيك لي كفنا، لكنها لسوء الحظ لم تف بوعدها. ولا بد بعد أن يتساءل غيره من الأبطال الموتى عن هذه "الكنة" البغيضة التي نكثت بوعودها. ولربما سيدافع عنها ليرتيز قائلا: لم يكن الخطأ خطأها. فقد أرادت أن تنسج الكفن، لكن أبناءكم وأحفادكم وأخوتكم منعوها؛ فقد وضعوا حظرا على النسج.

توقف حاذق آخر. بدأ الحضور يحدقون الآن بصورة أكثر كآبة، وأشد إحساسا بالذنب، إلى أطباقهم وكؤوسهم. وظهرت أمارات القلق على وجوه الحاضرين الأكثر دهاء ومكرا، مثل انتينوس ويوريماكوس وغيرهما؛ إذ عرفوا ما ترمي إليه، لكنهم لم يقدروا على تفسير المرمى جيدا. بدا امفينوموس اللطيف مكتئبا بشدة. تبادلوا النظرات فيما بينهم، عبسوا وهزوا رؤوسهم، وماج الشعر وتراقص على نواصيهم.

تابعت حديثها: "حسنا، هذا هو الوضع. من الواضح أن ليرتيز سيذهب إلى مثوى الأموات بثوبه العادي، أو حتى بجسده العاري. لا يمكن فعل شيء حيال ذلك".

توقفت عن الكلام من جديد. لكنها تابعت قبل أن يتمكن انتينوس من النهوض.

"الآلهة التي تسيطر على مصائر البشر بهذه الحكمة وتلاحظ كل تضحية، وكل خير نفعله، وتملك القدرة على سماع أوهى همسة نتفوه بها - لا بد أنها أدركت مدى غرابة الطريقة التي كرم فيها ميت يشبهها من عدة نواح، وينتمي لأسرة رفيعة المقام. والآلهة، مثلها مثل كل البشر، حقودة (بشكل طبيعي وصحي) ولا تنسى شيئا".

الحاضرون القادمون من الجزر البعيدة، وحتى بعض من أتى من المدن، تبادلوا النظرات وهم يرتعدون خوفا. وبدا التأثر واضحا على حكام الدوقيات الريفية الذين يتصفون بالبساطة والسذاجة.

"الآن، أود أن أسأل إذا ما كان أحد يعارض قيامي بنسج كفن لوالد زوجي، ليرتيز، بحيث يهبط إلى مثوى الأموات مكفناً بما يليق به؟ أطلب ممن لديه أي اعتراض أن يرفع يده ويصرح به، ولسوف أعلم عمي باسمه، قبل أن يسأل عن أمور عديدة حين يصل المرقد المجيد للأبطال الخالدين". كانت الخاتمة متوهجة ومنمقة إلى حد ما، لكن الحماسة جرفتها؛ ولم تكن الخطبة معدة سلفا كلها.

فتح انتينوس فمه، لكنه أغلقه من جديد. تملكه الغضب لكن لم يجرؤ على الاعتراض.

قالت: "إذن، أستطيع البدء بالحياكة متى أشاء؟".

تمكن انتينوس الآن من جمع شتات نفسه بما يكفي للحديث؛ لكن صوته كان حادا وحانقا.

"نحن مجبرون على الإذعان يا سيدتي".

قالت: "هنالك سبب يدعونا للاستعجال، فقد يموت في أية لحظة".

قال يوريماكوس، وهو يدير نحوها وجهه الأسمر الذكي، وعينيه اليقظتين الودودتين: "أيتها السيدة المبجلة. أنا معجب بذكائك. لكن أعتبر أن وعدك ما زال قائما؟".

أجابت ببرود: "أنا أفي بوعدي دوما، إن شاءت الآلهة".

قال: "اعذريني، أنا لا أشك بذلك، لكن حين يستهلك كل الصوف في المناسج يجب أن تختاري واحدا منا زوجا لك".

لوح بذراعه بإشارة حشدت أعضاء الحزب.

قالت مجددا: "لا أنكث بوعد أبدا"، وابتسمت له ولأمفينوموس ابتسامة مفاجئة ودافئة، ابتسامة مغرية من امرأة مجربة، جعلت وجهي الشابين يتوردان. قالت ليوريماكوس: "هل تعارض، يا سيدي، نسج كفن لوالد زوجي. فهل له أن يملك واحدا أم لا؟".

أجاب بارتباك إلى حد ما: "من الواضح يا سيدتي المبجلة أن من المتوجب عليك نسج الكفن. ما قصدته أن عليك الإجابة الآن، حين ينتهي النسج ويستنفد الصوف كله".

قالت بنبرة صوت متعالية: "يبدو أنك أسأت فهم المسألة أيها الشاب". توردت وجنتاه مرة أخرى ـ موجة الدماء الحارة انتشرت في وجه الفتى.

قال مترددا: "أجل، ولكن.. ".

لم تجب عن ذلك، بل أومأت برأسها إليه، وتهادت في مشيتها المهيبة خارج القاعة ـ السيدة المبجلة، العظيمة، المحنكة.

جلسوا هناك. ما كادت تغادر القاعة حتى علا الصراخ والثرثرة فيما بينهم. صاح انتينوس، القاسي الغاضب:

"أرجوكم! ليتكلم كل منكم حسب دوره!".

* *

الإشاعة، التي تطارد دوما الشهرة، أو المجد، أو الحشمة، تسربت كالخمر من جرة مثقوبة، وحومت كسرب من الطيور المذعورة، وانسلت خَفيّة مهموسة. بحلول بعد الظهر وصلت إلى المدينة، وفي المساء ذاعت في الجزيرة كلها؛ وبخلال بضعة أيام انتشر الخبر في كافة أنحاء مناطق الجزيرة وعلى ساحل أكارنانيا. سيطر على زعماء الحزب التقدمي شعور بالسخط والنقمة والغضب، لكن من الخطأ الادعاء بأن كافة الخاطبين، أو المدعين الذين قدموا إلى ايثاكا لتمضية العطلة ولقاء الأصدقاء، أو لمجرد التطفل، شعروا بالأسف لما حصل. أدرك الكل أن "انقلاب" بينلوبي، الذي عزا كثيرون الفضل فيه إلى يوريكليا، سوف يطيل انتظار الخاطبين، وبالتالي يتيح مزيدا من فرص التطفل على موائدها؛ أما خبرتهم بطرائق "الزوجة" الحربية فقد اتسعت الآن بما يكفي ليدركوا أنها لن تجعل الكفن صغيرا جدا. أشد الخاطبين عنفا وقسوة، وأكثر المتطفلين طموحا، أشاروا بأسلوب فظ، أو بسرور لم ينجحوا في إخفائه، إلى أن فترة الانتظار ستطول ستة أشهر.

المغازل التي توقفت عن العمل، والمناسج التي نادرا ما أصبحت تعمل الآن، أصبحت من القضايا الثانوية: لم يعد لها أية أهمية سياسية، ولا أي تأثير في تطورات الأحداث. وتركز الاهتمام بدلا من ذلك على شخص بينلوبي وعلى خيوط الكتان.

سوف تقوم بالنسج بنفسها، في المنزل داخل أحد مخادع النساء. وبدا واضحا أن المسألة ستتصل بالكتان، قضية تتعلق بالتزويد والتوريد والمماطلة التسويف؛ وكان من

الغريب رؤية مدى ما سببته من مضاعفات في كل مكان. انتينوس هو أول من عرض تزويد الكتان في أقصر وقت؛ كان الكتان متوفرا على الفور. قدم يوريماكوس عرضا مشابها، كما أن امفينوموس اللطيف الدمث، زعيم الخاطبين القادمين من جزيرة الحلم، جزيرة القمح، أرسل إلى موطنه خادمه ورسوله موسكاريون للحصول على الكتان الناعم، إما من جزيرة العشب والقمح، أو من أي مكان آخر، لكن على جناح السرعة.

في أحد الأيام وصل الكتان، لكن بينلوبي شرحت الأمر بالقول إنها أعطت يوريكليا صلاحيات كاملة لشراء كتان من النوع المناسب من البر الرئيسي، وأن العجوز في طريقها إلى هناك. هدأت الأمور لفترة. وحين عادت يوريكليا في النهاية بعد غيبة دامت أربعين يوما، تبين أنها سقطت مريضة في قرية صغيرة في اليس ورقدت في منزل شقيقة جديدة لم يسمع بها أحد قبلا، وكان من الصعب الحصول على الكتان من أكارنانيا بسعر معقول، لكنها مع ذلك ابتاعت كمية منه، وهي في الطريق إليهم. كما انتهزت الفرصة لشراء بعض الصوف، فمن المؤكد أن من الأفضل للمغازل والمناسج البدء بالعمل مجددا، لأنه يمنع الفتيات والكاهنات السابقات وعاهرات الميناء من الانتكاس والسقوط من جديد في مهاوي وشرور التبطل والكسل، كما أن صنع الملابس لا يمكن أن ينزل الضرر بأحد أو يطيل مدة الانتظار. ثبت أن الكمية الصغيرة التي جمعتها من الصوف بشكل عرضي تبلغ أربع بالات معبأة داخل أكياس من الجلد؛ وبعد عشرة أيام وصلت سفينة إلى خليج البلدة - من مكان ما على الساحل الجنوبي من البر الرئيسي - حاملة عشر بالات إضافية من الصوف: وتلك نتيجة ليست بالسيئة بالنسبة لعجوز مريضة حسيرة البصر لا تستطيع حتى أن تسمع جيدا. وجرت الإشارة إلى وجوب عدم ترك الصوف في مكانه مدة طويلة، ولذلك بدأت العاملات بغزله على الفور، واكتشف آنئذ أن عدد العاملات على المغازل قليل جدا مثلما هي حال فلكاتها. جرى تشغيل مغازل جديدة، بل إن بعضها استورد من جزر أخرى ومن البر الرئيسي، وسرعان ما بدأت المناسج العمل بكامل طاقتها.

طال انتظار الكتان كثيرا. الأعضاء القياديون في حزب الخاطبين اشتكوا وتذمروا وأصدروا نداءات عديدة قبل أن يصل في نهاية المطاف من البر الرئيسي. عرفت بينلوبي بموعد الوصول. وحين طوت سفينة الشحن العريضة أشرعتها في المضيق قبالة

ساموس، ثم استخدمت المجاديف للوصول إلى خليج البلدة، تجمع عدد كبير من السكان لاستقبالها، كأنما هي سفينة محملة بالذهب من ارغوليس، التي كثيرا ما انشغل بها المخيال الشعبي.

أما بالنسبة للكتان، فلم يكن هناك سوى بضعة أكياس خفيفة الوزن. وحين نقلت إلى مخدع السيدة، اكتشفت يوريكليا، برغم بَصرها الحسير، أن الكتان من نوع رديء خشن الملمس، وفي ذلك اليوم كادت أن تندلع ثورة سافرة في قاعة "الزوج الغائب". ولا بد أن نتذكر أن أولئك الذين عرفوا بتعرضهم للخداع، وشاهدوا الصوف ينقل تحت أبصارهم، لم يكونوا من الأطفال، ولا صبية من صغار السن، ولا فتية يتصفون بالرقة واللين، بحيث يقبلون أن يصبحوا ضحايا مستكينة تسهل خديعتها ـ كلا، العديد منهم كانوا رجالا مكتملي الرجولة وشخصيات بارزة في المجتمع. رفض عدد منهم الأكل، وأفرط غيرهم في الشرب وراحوا يتقاتلون في الباحة حول مذبح زوس. طرد اثنان من المتسولين، ونقل أحد الرجال القادمين من ساموس الصخرية إلى سفينته الطويلة الراسية في الميناء لتحمله إلى موطنه ليدفن هناك. وهدد انتينوس بدعوة المجلس الشعبي للانعقاد في السوق، لكنه لم يجرؤ على الوصول إلى هذا الحد، وقنع الأعضاء باجتماع مجلس الأعيان الذي انعقد في منزل أحد الخاطبين الكهول، وهو تاجر/ ربان من البلدة.

همست يوريكليا كلمة إلى أذن سيدتها. كانت تحلم من جديد ـ هذه المرة حول قوس انكسر، حول الحد الأقصى لتحمل الرجل الذي يخطب ود امرأة، حول الشاب/الإله الذي ثبت على جسده جناحين من الشمع وحاول الطيران، لكن ذاب الجناحان تحت أشعة الشمس ـ أليس من الغريب أن يحمل الشاب نفس اسم والد صاحبة الفضيلة تقريبا، ايكاريوس؟ لم تفهم ماذا يعني مثل ذلك الحلم.

سألت بينلوبي وهي تدخل في الموضوع مباشرة: "أنت تريدين تهدئة ثورتهم، إذن؟".

قالت يوريكليا وهي تحدق ببصرها الحسير إلى أصابعها الذاوية: "عاينت الكتان".

"إنه أفضل بالطبع مما حسبنا في البداية؟".

قالت العجوز وهي تومئ برأسها، "بالضبط".

بعثت "الزوجة" برسالة إلى مجلس الأعيان تقول فيها إنها تريد مقابلة وفد منه.

بعد وقت قصير كان أعضاء اللجنة الثلاثية يقفون أسفل السلم المؤدي إلى مخادع النساء.

أبلغتهم بينلوبي بأسلوب ودي بأنها تفحصت الكتان بعناية أكبر.

* *

غزلت الكفن بنفسها. تحدثت، وسمحت للآخرين بالحديث، عن مدى ما لاقته من صعوبة نظرا لعدم تعودها على العمل: وكيف جعل القلق يديها ثقيلتين. علاوة على ذلك، توجب عليها التفكير بالحفاظ على مناسجها تعمل بحيث تملك ما يكفي من المال للنهوض بأعباء كل الضيوف الذين ظلوا يأتون ويذهبون، ويأكلون ويشربون، ويشرفون منزلها. لم يتمكنوا من منعها من استخدام الصوف من خراف "الغائب" في الجزيرة وباقي الأرخبيل؛ ولا عرقلة بيعها للملابس في البر الرئيسي، والمتاجرة بالجلود. لم ينجحوا في عرقلة حياكتها للكفن، التي كانت تسوف بها أصلا، حياكة مناسبة، أو باختصار: "الحياكة" بألف ولام التعريف. كانت تغزل لفترة وجيزة في الصباح بعد أن تسرح شعرها، وفترة وجيزة أخرى بعد الظهر. كان الخيط رفيعا ناعما من الكتان الممتاز، خيطا ملكيا يناسب شخصية عظيمة جليلة. وتحدثت مطولا عن مدى بطء يديها في العمل، يدي امرأة صناع لولا ذلك؛ تمسكان بفلكة المغزل بوقار رزين وتتركان الخيط يتشكل.

سألوها: "متى تتوقع السيدة البدء بالحياكة؟".

أجابت:

"يجب أن أفكر أيضا بابني".

النظرة التي لا تكاد تدرك تقريبا - بالنسبة للأحياء الآن، لا تدرك أبدا - والتي تبادلتها مع يوريكليا العجوز حين كانت ابنة دوليوس السمراء تعبر الباحة الخارجية كالقطة، احتوت ذكرى ذلك أيضا من بين العديد من الأشياء.

-٧-

الأسرى

حين شاهد سفينة الرسول الطويلة، الملطخة بالقار الأسود، بضربات مجاديفها الخمسين المتحمسة التي تنشر الرذاذ، تتجه نحو مدخل الخليج، سار في نزهة بعيدة عبر شبه الجزيرة الضيقة ثم صعد إلى التلال. الحراس الأربعة الذين بقوا على الجزيرة لاحقوه عن بعد. كان الجو جميلا؛ وبدأت رياح غربية خفيفة تنسم عندما خرجت السفينة إلى البحر المفتوح ونشرت أشرعتها: ووهجت تحت الضوء بلون الدم.

سعى بارتباك لتحليل مشاعره. لكن الأمر بدا وكأنه يلتقط نتفا من قشرة جرح لم يلتئم بعد: إن لم تحاذر فلسوف يلتهب. بذل جهدا لاستحضار صورة بينلوبي الآن، لكنها لم تأت. فكر قائلا، أنا أيضا هرم فعلا. أحس بألم ممض حين تذكر الصبي: شاب غريب لا يعرف عنه شيئا. أي نوع من الفتيان هو؟ أية لغة يتحدث؟ ما الذي يفكر فيه ويحلم به؟ هل يحلم؟ لم يجد جوابا عن الأسئلة.

أشد ما أدهشه أنه بدأ يحس بنوع من الانفعال والحماس للرحيل. من الطبيعي ألا تكون المشاعر مماثلة لتلك التي عرفها في فتوته، حين انطلق للمرة الأولى في رحلاته إلى بيلوس، وإسبارطة، ثم إلى كريت؛ أو عندما أحس بالمرارة (وإن تلهف للمغامرة) وقبل مذعنا الانضمام إلى حملة أغاممنون ضد طروادة. ليست المغامرة بغيته الآن. لكنه تساءل عن شعوره حين سيصعد مجددا إلى مركب - لا سيكون طوفا - وعن عودته إلى البحر، وتجربة الحياة فيه، ومقابلة بوسيدون وجها لوجه. وبعيدا إلى جهة الشرق كان ثمة شاطئ مليء بالحصى حيث يمكنه النزول عليه وتسلق الصخور المنحدرة والتوجه إلى بيته، أرعبه ذلك، وشعر بالإثارة، والفضول، والتردد، والخوف.

تركته صامتا لبرهة وهما يتناولان طعام العشاء. راقبها بعناية من فوق كأسه وهو

يشرب، وكثيرا ما كان يشرب. كانت جميلة، جميلة إلى حد منفر، إلى حد مثير، فيها برودة الجليد وحماوة النار. الخمر جعلته كئيبا وسوداويا.

قالت في النهاية: "أفهم أنك تريد مغادرتنا في أقرب وقت ممكن".

أجاب: "كاليبسو، لقد كنت سعيدا معك هنا".

قالت: "كنت دائم الارتياب. لا، لا، لا تحتج، أعرف الأمر. وكنت قادرة على فهمه إلى حد ما. لقد كنت مرتابا لعدم وجود منافس لك".

قال وهو يحني رأسه وعلى وجهه ابتسامة واهية: "لا أفهم تماما".

قالت: "المسألة لا تحتاج إلى شرح. كنت ترتاب بي لأنك حسبت بأني أريد الاحتفاظ بك هنا بأي ثمن وتحت كل الظروف. لأنني كنت وحيدة، منفية من قبل العائلة الجليلة المهيبة، قلت في نفسك: الآن حين عثرت أخيرا على رجل كفء سوف ينام معها كل ليلة، لن تدعه يرحل. هذا ما حسبته، أليس كذلك؟ ليس هذا استفهاماً بل بيان".

قال: "هذه مجرد لعبة فكرية تمارس في الصالونات - لكنك محقة على وجه العموم. ولم لا أكون متشككا؟ لا توجد مراكب هنا - باستثناء طوف صغير للعبور إلى جزيرة الكهف - لا توجد مراكب صالحة، لأن النبلاء لا يأكلون السمك، ويستطيع العبيد الصيد على الشاطئ. ليس ثمة أدوات للنجارة، لو أردت ممارسة النجارة - فهنا، في هذا المكان الريفي لا توجد سوى الأدوات التي نأكل بها، أو السيوف التي نقتل بها الأعداء إذا هاجمونا. أنت نفسك لم تذهبي إلى أي مكان، لأنك أسيرة. وحين يجد أسير حبيسا..".

قالت: "من يمارس ألاعيب الفكر الآن؟ هل سترحل في وقت قريب؟".

"عندما أجد مركبا يحملني عبر البحر".

قالت: "أنت غريب الطبع. كنت كذلك طيلة هذه المدة، وكل لحظة معك تفرز شيئا غريبا". مالت إليه عبر المائدة وقالت: "أستطيع أن أرى ما بداخلك. تريد الرحيل، لكنك تخاف من أن تجد العالم لا يشبه ذاك الذي غادرته قبل عهد بعيد. أو أن يكون قد تغير إلى حد عدم قدرتك على الانسجام معه، والحياة فيه. يوجد هنا أمان الثبات - أستطيع أن أجعلك مخلدا مثلي، بحيث تعيش عمرا مديدا، بل أبديا. أما الثمن فهو

الديمومة واللاتغيير. وأنت لا تريد أن تدفعه. وتشعر أن من واجبك الرحيل. أردت البقاء هنا، رغم أنك لم تقل لي ذلك أبدا. لم ترغب بالذهاب مع هرميز؟ ألم يعرض عليك أن يأخذك فورا؟".

"لم يعرض أخذي في رحلة واحدة، بل أراد فقط نقلي من مكان لآخر، كما تنقل رزمة أو أداة مفيدة. أشعر بالسرور لأنني رفضت. الآن، يا كاليبسو، لديك الفرصة لأن تفعلي بي ما تشائين".

قالت: "أنا خاضعة للأوامر. أنا أسيرتك ـ الحمقاء. يمكنك أن تفعل بي ما تريد. يمكنك معاقبتي لأنني غبية ـ إن بقيت. يمكنك أن تمزق فؤادي بتقديم خدمة الرحيل إلي".

قال ساخرا: "تلك كلمات فخيمة".

قالت بحماس أكبر: "إنها الوحيدة التي يمكن استخدامها لذكر القليل عن الحقيقة الآن! أنا معجبة بك ـ رجلي البشري! ـ كثيرا. لو كنت أملك السلطة لما تركتك ترحل، إن أردت أن تعرف حقيقة شعوري!".

قال: "لو كانت لدي السلطة..".

"أجل؟".

"لا أعرف. في كل مرة أشعر فيها بأنني خاضع لأمر منهم، الآلهة العظام، أحس أيضا بأنني أرتكب خطأ في الطاعة ـ لكن ليس ثمة ما يمكن للمرء أن يفعله. إلا أن بمقدوره أن يسأل نفسه: كيف يوجهون العالم؟ السؤال اختياري حر، لقد غرسوا بذوره في قلبي. لكن ينبغي أن أعاقب إن أجبت عنه".

قالت: "إن كانت إجابتك خاطئة".

"كاليبسو، الجواب خاطئ على الدوام إن استمده المرء من تجربته الخاصة".

قالت بعد ذلك:

"يمكنك أن تسألني. أنا كنت سأسألك: هل يمكنك أن تسيّر الحياة بشكل أفضل من ـ البحر، هل يمكنك أن تكون بوسيدون (اخترت الاسم عشوائيا) ـ أفضل من بوسيدون؟ يمكنك الإجابة: نعم أو لا".

قال: "أستطيع. لنفترض أنني أجبت: نعم. وهذا مجرد افتراض. كذلك أستطيع

الإجـابة: لا. لكن إن أجـبت: نعم، علي على الأقل أن أهمس بالجـواب، بحـيث لا يسمعه".

قالت: "نحن لا نجرؤ على اللعب بالألفاظ مع الآلهة".

قـال: "لا، ولكن يمكن أن أقـول التـالي: إذا وضع زوس الأفكار في رأسي، فـهي إذن أفكاره هو. الآن، لم يضع أفكارا في رأسي، بل مـجـرد احـتـمـالات للأفكار. لقـد زودني بالأداة التي أستطيع العزف عليـها ما أستطيع، ولا شيء أكثـر. أو يمكننا قـول ذلك بأسلوب آخر: لقد أعطاني 'المشكال' الذي يمكنه صنع العديد من الأشكال، لكن لا يوجـد شكل خـارج الاحـتـمـالات المقـررة. يمكنك القـول إنـه هو الذي صنع 'المشكال' وهو المسؤول عن الأشكال المحتملة التي تظهر فيه".

قالت: "أنت ذكي".

أجاب: "لدي خبرة عظيمة بالبشر والآلهة".

قالت وهي تلقي نظرة على القاعة: "لن تستطيع خداع 'الجليل المبجل' بالكلمات يا صديقي".

الجارية السوداء العجوز ذات الشفتين البنفسجيتين كانت واقفة عند باب المخدع الداخلي.

قـال: "لم أحاول أبدا خداعـه. أنا ريشـة في مـهب رياحـه. قـشـرة بيـضـة في يده. تجاربي وخبراتي هبة منه. أفترض أنه يريدني أن أستخدم ما وهبني".

سألت مرة أخرى بشكل مباشر: "هل تقدر على تصريف شؤون العالم".

"في لحظات معينة نظن جميعا أننا قادرون على ذلك".

"هل يمكنك تصريفها بشكل أفضل من 'المهيب الجليل'؟".

قـال وهو ينظر حـواليـه: "لن أتـلفظ بمثل هذه الـكلمات، فـهي تجـديف وكفـر. لكن بمقدوري الإجابة كـالتـالي: بخبرتي، وجـهلي الذي لا قـرار له، بعـمى بصـيرتي، سوف أسير العالم بصورة مختلفة. هذا يوافق المنطق: بصورة مختلفة. فمن ذا الذي يقدر على تسيير العالم مثل 'المهيب الجليل'؟".

شرب من كأسه وراقبها مرة أخرى من فوق حافتها.

"كنت في أحسن حال معك. وجدت الطمأنينة إلى جانبك. ولديك كثير من الحب

لتعطيه. أود لو أكون شخصين اثنين: نصفي يجب أن يبقى هنا. لو وُجدت روح في داخلي، في صدري، نفس من روح، بخار يحيى حول قلبي، فإن جزءا منها سيبقى هنا. كذكرى: لي ولك. أود لو كان لي جسدان، وذاك الأفضل تجهيزا بأداة الرجل، التي تجسد رغبته بالتناسل، الجهاز الذي نسعى به نحن معشر الرجال للحب وبه نجده ـ لسوف أرغب آنئذ أن يبقى معك الجزء الأفضل من جسدي".

قالت، وشربت معه: "أرغب برجل أكثر قوة. يتوجب أن يمتلك آلتك وثقلك، وحماسك كل ليلة، بتوازنه ومهارته، وخبرتك وإيقاعك عندما تسير أو تتكلم أو تنام أو تصحو أوتشاركني مضجعي. لكن، كما قلت، يجب أن يكون أكثر قوة".

قال: "أنت لا تهرمين أبدا. وذلك هو موطن قوتك كامرأة بشرية ونقطة ضعفك ككائن إلهي، كند للآلهة، كسليلة للآلهة. أنت تنضجين، لكنك لا تهرمين لتتجاوزي الحد الذي وضعه 'المهيب الجليل': لقد توقفت عند هذا الحد الآن. أجل، أنت تهرمين، لكن هرمك تقدم جواني بطيء نحو الحكمة، هرم دون نهاية. لسوف تعمرين طويلا، طالما وُجدت الآلهة: دوما وأبدا ربما. وحين أموت وأحرق، وأصبح رمادا أو كومة من العظام في القبر، سوف تبقين جالسة هنا، وتكونين ذات الشخص الذي أنت هو الآن، أو ذاته تقريبا، لكن أكثر حكمة، ولسوف يمضك الشوق لصباك. ولربما سأكون أنا صباك. وسوف تتحرقين شوقا للشبان.. ستنالين مرادك لو شئت، وسوف يأتون إليك، ويحضرون إلى هنا، لكن لن تكون لهم قيمة لأنك ناضجة وخبيرة. النضج والخبرة هما المرار في شرابك. تشعرين بالغليل ولديك الشراب، لكن الطعم تفه في حلقك".

قالت: "هذا صحيح ربما. حالما أعرف أقل مما أعرفه الآن. لدي ما يسميه البشر الفانون السعادة. لكنني ما أزال أعيش حياة مشابهة جدا لحياة البشر الفانين. يمكن أن أحزن. وأندب. تماما كحالي الآن، أو بعد لحظة، على الحد الفاصل بين الإحساس الذي هو ذاته (أجل، الذي هو ذاته! كررتها مرتين) والفكر، الإلهام الذي يأتي خلف الإحساس، عندئذ أعرف الفرح من حقيقة أنني أحزن. لكن ذات مرة عرفت الفرح بطريقة الشباب من البشر. تلك كانت قبل أن يحضروني إلى هنا ويجعلوا مني أرملة مقدسة أو شبه مقدسة".

قال: "مازلت تعيشين حياة البشر".

قالت: "أجل، حياة بشرية، مع طفولة وصبوة وشيخوخة، لكن بدون نهاية، وخارج

إطار الزمن الإنساني. حياة بشرية ضمن الزمان اللانهائي للمهيب المبجل، للآلهة، طويلة وممتدة إلى الأبد السرمدي".

قال، وهو يرفع كأسه ثانية وينظر بعينين نصف مغمضتين من فوق حافتها، بفضول، وربما بخوف، وربما بافتتان: "كاليبسو، لمَ لا تستسلمين؟ لمَ تصرين على التشبث ببعض من جوانب حياتك البشرية في سرمد المهيب الجليل؟ لمَ لا تنسلين عائدة إلى الألوهة، لمَ تسعين وراء الفرح الإنساني الوجيز والترح الإنساني المديد ـ لن تستطيعي الشعور بهما بشكل كامل، في العمق؟".

قالت وهي تشرب بتهور: "إذن ما الذي تسعى إليه أنت؟". بدأت تترنح بعد أن أحدث الشراب مفعوله كما يقولون. "ألا تسعى وراء فرح ومتعة الآلهة، حياة الإله، أمان وسلام الأرباب؟".

قال: "أمان وسلام الإنسان. لكن لربما ينبغي عليك محاولة إعادة تشكيل داخلتك بحيث تبدو كداخل صدر الإله ـ لا أعلم ما الذي أسعى إليه. لا أعرف ما الذي سأسعى إليه. أمتعتني الحياة هنا".

ومثل تلميذة مدرسة في سن الكهولة، مالت برأسها واتكأت بمرفقيها على الطاولة، وحاولت التحديق إلى عينيه:

"مرت عليك فترات لم تكن فيها سعيدا هنا؟ ايه؟ حسبت أنني مغالية في الإلحاح والإزعاج؟ أليس كذلك؟ كنت سريع الرضى والشبع؟ لم أكن لأتركك في سلام قبل أن تجوع وتعطش مرة أخرى. لم أطعمك الحب بالملعقة، بل بالمجرفة. حسبت أنني 'نقعتك' في برميل مترع بماء الحب، أليس كذلك؟ ودفعتك للسقوط في حفرة حب امرأة كهلة، وحيدة، فانية، هذا ما حسبته، أليس كذلك؟ العلاقة كانت مبالغة في ملامحها البشرية بالنسبة لك، أليس كذلك؟".

نطق اسمها برقة قائلا: "كاليبسو، هكذا يبدأ الشجار بين البشر. أنت.. ".

قالت بازدراء: "أوه. أنت خائف من الشجار على طريقة البشر؟ تريد أن تحدثني بأسلوب إلهي. ترغب بهذا وبغيره من الأشياء. حديث سام رفيع المقام حول عطالة الزمن، والهجوع في الخواء اللازمني، ونثار الماء الذي تحدثه الأمواج الرتيبة ـ محادثة قدسية لا مبالية حول الآلهة، والخريف الآتي بعد الصيف، وفصل المطر القصير بالنسبة للبشر، يتبعه الربيع حاملا حياة نضيرة وآمالا عريضة في قلوبهم، بحيث يرغبون فجأة

بقتل بعضهم بعضا. لكن كل ذلك لا يعنينا فعلا نحن الكائنات الإلهية السامية. وهكذا دواليك!".

"كاليبسو، أنا.. ".

صاحت فيما يشبه الزعيق الآمر الهيستيري، والتوسل المسترحم المتباكي في آن معا: "أريد شجارا على طريقة البشر، هذا كل ما في الأمر! أنا التي يتوجب عليها الذهاب إلى عالم الإنسان.. أنا، لأنني أريد ذلك! ما الذي تريده أنت؟ أن تجلس هنا وتفكر بنفسك كسجين؟ لكن في اللحظة التي يأتي فيها أحدهم إليك ويهمس في أذنك أن بإمكانك الرحيل متى شئت، بمقدورك أن تقفز إلى أي مركب وترحل، عندئذ تريد أن تبقى حيث أنت، أنت تحب الشعور بأنك رميت إلى البشر رغما عنك.. أجل، من يعلم ما تريد حقا! هل تعبر عنه بالكلمات؟ أم أقوم أنا بالمهمة؟ هذا ما تخشاه. لم تكن خائفا حين أتيت إلى هنا قبل سبع سنين، كحالك الآن. خائف، هل تسمع! أنت خائف من بلدتك، ذلك الجحر الصغير، من جزيرتك الصغيرة، الكومة الصغيرة من الحجارة والخراف والماعز، أنت خائف من أن تكون زوجتك قد تغيرت، أنت خائف من أن يكون طفلك، بمحض الصدفة، بشكل عرضي، بمنطق مرور الزمن، قد تجاوز لسوء الحظ - أوه.. واحسرتي! - قد تَعَلَّمَ أن يتمخط بمفرده، ولم يعد يريد الجلوس على ركبتك. أنت خائف، خائف من الحياة! ولكن..".

مالت نحوه بضراوة ومدت عنقها؛ لفائف شعرها الأسود تهدلت على وجهها، وحين رفعت قبضتها إلى جبينها في إيماءة عنيفة ضربت بمرفقها إبريق الخمر ليندلق ما فيه على الطاولة.

"لكن ماذا لو لم أعد أريدك بعد الآن!".

قال: "الآن نحن 'نتخانق' مثل البشر. الآن نحن نعيش في زمن بشري. افرحي يا كاليبسو واستمتعي!".

رفعت بصرها بسرعة. كانت عيناها مفتوحتين، ونظراتها المحدقة تتفرس في وجهه، بحثا عن التهكم هناك أو الغضب، لكنه كان هادئا. ثم حنت رأسها حتى اتكأت ذقنها على قبضتيها الثابتتين على الطاولة القذرة. تهدل شعرها الأسود ببطء ليستقر في بحر النبيذ. رأى أنها قريبة من البشر، خصوصا الآن وهي تبكي.

غمغمت قائلة: "أوه، سامحني، سامحني. أنا لا أعرف ما أقول". حدق إلى

شعرها الأسود، شعرها الحبشي الأجعد، وإلى كتفيها السمراوين. وفي الصمت الذي تبع انهمار الدمع مد يده اليمنى المشوهة، وأراح أصابعها الأربعة المفرودة على مؤخرة عنقها بين ذلك الشعر الفاحم.

"كاليبسو، أخبريني عن الفترة التي كنت فيها شابة وشبيهة بالبشر".

تحدثت وهي تنظر إلى الطاولة بصوت فيه ملامح الصبا الملتهب، والكثير من تذمر الشيخوخة. عرف القصة من قبل. هنالك أغنيات تدور حولها.

قالت وهي تحرك رأسها إلى الخلف بشكل لا يكاد يدرك، وإن شعرت بها يده: "كان والدي واحدا من أهم منتجي الفواكه في هذه المنطقة واشتهر تفاح أراضيه على طول الساحل، ووصل صيته إلى شواطئ الآلهة على البر الآخر. في إحدى المرات طرد رحالا أتى في المساء وطلب أن يبيت حتى الصباح - حسب أنه سيسرق تفاحه؛ كان غريب السلوك إلى حد ما - الآلهة المبجلة أرادت اختباره".

"لقد سمعت عن ذلك يا كاليبسو. الأغنيات تتناول الحكاية. كان هذا..".

قالت: "أجل. كان هذا إلها. إله عظيم يزور آلهة أدنى مرتبة. أراد ابتلاءنا. أنزل لعنته على بيتنا، وبعد ذلك أصيب والدي بالذعر. تحجرت عيناه وفقدتا بريقهما. وحين كان يلمس أحدنا، كانت لمسته كحك الصخر الخشن. كان طويلا وضخم الجثة؛ جبلا بدون أحاسيس. ذلك هو داؤه".

قال مرة أخرى: "سمعت عنه".

غمغمت قائلة وهي تنظر إلى الطاولة: "لكنك لم تسمع عني. لم تسمع عني. لم يسمع عني أحد، عن كاليبسو الحقيقية، الشابة الشبيهة بالبشر".

"هنالك رجل آخر معني بالأمر، أليس كذلك؟".

"أجل، أتى وأخذني بعيدا. فض بكارتي؛ زودني بالرغبة والاستمتاع بالشهوة. قال 'أنت حورية البحر'. وصلت علاقتنا إلى المدى الذي يصل إليه البشر الفانون".

"هل كان من البشر؟".

"أجل، كان مزارعا؛ لم يكن حتى حرا. كان حرا معي فقط. أجبروه على خوض حرب اندلعت قبل عصرك وعصر أغاممنون بعهد بعيد، قبل أيام بيليوس واتريوس وزمن اترايدس الملعون، وقبل وقت طويل من زمن ليرتيز وجدك وأبيه. أسر وقدم قربانا للآلهة، قطعوا قضيبه وألقوه للكلاب، ولم أستطع إنقاذه. ثم لعنتُ الآلهة. أطلقت

صرخة غضب ضدها وضد الحياة الأبدية. طالبت بحياة بشرية وموت بشري. لكنني لم أنل ما طلبت. ذلك كان عقابي".

"وهكذا أتيت إلى هنا؟".

غمغمت قائلة وهي تنظر إلى بركة النبيذ المسكوب: "لم يحدث هذا على الفور. مررت بالكثير قبل ذلك. أردت رجالا من البشر لا من الآلهة. سعيت وراء أجساد الرجال من البشر بحثا عن قمة السعادة وعن تحررها، لكن نادرا ما وجدتها. سقط الرجال كأوراق الشجر الذابلة ورائي نتيجة الشيخوخة أو الموت البشري العنيف. أحبوا أنفسهم حتى الموت؛ سعوا وراء رائحة الحوريات المتضوعة مني، لكنهم لم يقدموا لي السعادة إلاّ ما ندر. أنت تعلم شعور من يعيش في الجبال ويتوق للبحر، تسير، وتسير، وتسير إلى الجبل التالي، ومنه إلى الذي يليه وهكذا، لأنك تظن أن البحر المريح يربض خلف كل قمة. لكنه لا يوجد هناك؟".

"لمَ أحضروك إلى هنا؟"

"أرادت الآلهة الجليلة الرجال الفانين لأغراض أخرى. وحين صدر الأمر، طلبتُ أن يسمح لي بالموت كالبشر. ولعنت حروب الآلهة التي تأخذ الرجال من زوجاتهم، وتفرق الأجساد التي اتحدت والشفاه التي تلاقت. الحرب هي قوة العضو الأعرج في الجسد. وبدلا من أعضاء الرجال المخلوقة من اللحم والدم والعصب، أرادت الآلهة الجليلة رؤية أعضاء من خشب وبرونز، أرادت رؤية الرماح والسيوف في أيدي الرجال".

قال وفمه قريب من شعرها: "كاليبسو، لكن المحاربين مغرمون بالحب؛ ومضاجعة النساء".

غمغمت قائلة: "لا، لكنهم يفرغون ما بداخلهم. فهم لا يبحثون عن صدر امرأة يرتاحون عليه، بل ثقبا يفرغون ما بداخلهم فيه. تلك هي الحرب. ولهذا السبب تبدو الحرب جميلة ومحببة في نظر الآلهة الجليلة المهيبة. لا تريد الرجال المتمتعين بالنبل والرقة واللطف، بل سلالة من أولئك الذين يفرغون ما بداخلهم على عجل، ويحملون أعضاء من الحديد والخشب، ويفرون من صدور النساء التي يمكن أن يسكنوا إليها".

قال: "لا أجرؤ على طلب المزيد".

قالت: "بعد أن ترحل لسوف أعاقب على ما أقوله لك الآن".

قال: "لكنني لست خائفا بقدر ما تظنين".

قالت: "لا أظنك خائفاً كثيرا. أنت تريد أن تحافظ على حياتك للقيام بمهمة أخرى جهزت نفسك لها الآن بعد أن قررت الرحيل".

قال: "ذلك هو الأمر يا كاليبسو".

قالت: "أتى العديد من الرجال إلى هنا خلال إقامتي. لقد تركت الآلهة الجليلة سفن البحارة تجنح على شاطئ الجزيرة. أقاموا معي حتى وافاهم الأجل أو أبعدتهم الآلهة الجليلة. حافظوا على شهوتي حية. لكن لم أجد الحرية والراحة في أحد سواك. بصبرك الجسدي والروحي منحتني أعظم مسرات ومباهج البشر. لديك الخبرة الجسدية وقوة الإرادة الضروريتين للانتظار حتى تهدأ شهواتي وأستطيع الراحة والنوم. هكذا كانت العلاقة بيننا. لكنني أتعبتك وأنهكتك".

قال: "سرني كثيرا بقائي هنا معك".

رفعت رأسها ليرى الدمع يلمع في عينيها؛ انتظرته كي يتابع. لكنه أغلق فمه. انحنى رأسها مرة أخرى.

قالت: "هنالك أشياء أسمى للبشر من ذلك. ليست مهمة للسعادة، لكنها أسمى وأعلى. لا يمكن أن أحصل عليها. ولذلك أكتفي بالآتي: أن أكون ملاذا لراحة الرجال من البشر الذين يعطونني الراحة. أستطيع سماع أفكارهم فيما بعد. بالنسبة للعديد منهم، استيقظت أفكارهم حالما أفرغت أعضاؤهم النسغ في جسدي. بالنسبة لبعضهم الآخر لم تأت الأفكار، بل اكتفوا بالنوم أو برغبة المطاردة. فالرغبة بقنص الحيوانات أو الرجال ربما هي نتيجة عدم العثور على المرأة".

قال: "كاليبسو، لا حاجة بك لإخباري بالمزيد".

قالت: "ليس من أجلك فقط أروي الحكاية. أريد أن أصدم الآلهة الجليلة. أريد رجلا مثلك، لكن أكثر شبابا، الآن، حين ترحل، أريد ابنك".

رفع يده، ثم سحبها:

"كاليبسو، أنا إنسان بمشاعر إنسانية، قولك هذا يجعلك غير مناسبة لي، إما فتية جدا أو هرمة جدا. قولك يغير رائحة جلدك. يبعث منك رائحة طفل رضيع أو امرأة عجوز. يعني أنك تطاردين وتقنصين، وتلهثين، وتفوح منك رائحة الجهد والعرق".

بصوت هادئ واضح، وإن ظلت تحدق إلى الطاولة القذرة، قالت: "هنالك الخشب والأدوات وكل ما تحتاجه. ولهذا يمكنك البدء بصنع سفينتك متى تشاء".

-٨-
الابن

كان الصبي في حوالي الثانية من العمر حين أبحر "قائد الجيوش"، "أدميرال الأساطيل الحربية"، الملك/ المزارع الصلب الماكر (كما سيدعى لاحقا في القصائد الشعرية والأغنيات الشعبية) لدرء خطر طروادة الداهم عن بلاد أغاممنون الإغريقية. الآن، في عمر الثانية والعشرين ونصف، ما تزال الملامح الصبيانية بادية عليه، تلك الملامح النمطية المميزة لفتى في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة. كان طويلا، نحيلا، حسن التكوين، وما زال في سلوكه ارتباك طفولي. صوته يفتقد الثقة، كأنما سينقطع، وفي بشرته بثور، رغم أنه صاحب النساء. تعلم نظرية استخدام السلاح على يد جده، ليرتيز، الذي كان يزوره كثيرا، وتدرب عليه على يد المعلم مينتور وسواه من أصدقاء والده القدامى، لكن ذلك لم يتجاوز التدريب العادي، ومن الخطأ القول إنه رياضي بارز أو جندي حاذق. كان تيليماكوس شابا من النوع الذي سيصبح ربما راوية للقصائد الملحمية، أو مؤلفا، أو منخرطا في مجال من مجالات الفكر، إذا تمتع بحرية الاختيار.

كانت بينلوبي تراه وهو يكبر وينتقل من مرحلة الفتوة إلى الشباب وهي منشغلة بالحياكة.

خلال السنوات الثلاث التي انشغلت فيها ابتعد تيليماكوس عنها أكثر من ذي قبل، لكنها تمكنت من مراقبته. وحين عملت في الغزل طيلة ستين يوما ونصبت المغزل في قاعة مخادع النساء في الطابق العلوي، بدا وكأن حدا فاصلا رسم بينهما، جدارا جديدا شيد بين الوالدة والولد. فهم تماما أن غرضها كان التسويف والمماطلة وإعطاء "الحظ" فرصة، لكن أسلوبه تغير ولم يعد يتبع طرائق الفتى الغرير العابث، الذي يبتهج حينا، ويكتئب حينا آخر، بل بدأ يأخذ ملامح رجل المستقبل، ملك المستقبل الذي

يتشكك ويرتاب بدوافع الآخرين. لم تستطع أن تقول له: آمل أن أخدعهم لمدة عامين أو ثلاثة. فبرغم كل شيء لا ينبغي لشاب أن تكون أمه مخادعة، تغش وتتلاعب بالحقيقة. كانت أيضا ملكته، سيدته الأمومية الأميرية. الشاب الذي يؤمن بالقوة الاختراقية للحقيقة لا يمكن أن يحتمل المكر في السياسة، حتى وإن كانت الماكرة أمه التي ولدته من رحمها. طريقته هي الصراحة التامة، وشعر بأنه مضطر للإعلان عمن يكون وبم يفكر، لم يهمس بالحقيقة المتعلقة بأهدافه في الظلمة التي تخفي النوايا، بل أعلنها جهارا في وجه معارضيه باندفاع وإلحاح الاستشهادي. كانت هواجسه وظنونه حول سلوكها بمثل وضوح وصراحة اعتراضاته على الحزب التقدمي. صعب عليها أن تقول: أنا أحاول إنقاذ بضع سنوات إضافية من أجلنا، ويمكن أن يحدث كثير خلال هذه الفترة. وسيكون بمقدوره الرد على ذلك بالقول: لقد قدمت لهم وعدا رسميا. وحين يتم الانتهاء من الكفن، حين يتلقى النسيج آخر خيوطه، سيرتاح المغزل. وما الذي تشير "راحته" بدلالتها؟ حسنا، أمكنها الإجابة بأن ذلك يعني أنني وصلت إلى الحد الأقصى من الحياة التي عشتها حتى الآن. لكن بذلت ما وسعني لمنع قدوم اليوم الأخير من النسج. وحين يأتي، لن أستطيع فعل المزيد: آنئذ سأصبح ثانية الأميرة بينلوبي، ابنة المدعو ايكاريوس الذي يزفها إلى عريسها؛ عندئذ لن أكون "الزوجة"، بل "العروس". بمقدوره الرد على ذلك بالقول: لكنك قمت بغزل ونسج القماش، خيطا بعد خيط. لقد جدفت بيديك مركبك؛ لم يحملك أحد مكبلة في سفينة عبيد ملطخة بالقار لتباعي لمن يريد أن يشتري، لكن كل ضربة مجداف كانت من صنع يديك. منطقه سيكون بسيطا، مغاليا في البساطة، لكنه عديم الشفقة كحال الشباب وطبيعة الأشياء. أمكنها أن تجيب: لو لم - أماطل - في تجديف القارب، لأخذني أحدهم - بسرعة فائقة. ما زلت قادرة على الاختيار، إذا حان موعده، الآن أستطيع أن أختار بالطريقة التي يختار فيها المرء موته. كان سيرد على ذلك قائلا: يمكن للمرء أن يختار ميتة أفضل أو أسوأ؛ يمكن له أن يجدف بقاربه في خضم الموج ثم يوجهه إلى جرف شاهق ليتحطم عليه مزقا، أو يمكنه أن يجدف نحو ميناء هادئ يموت فيه من السأم. إنهم يجبرونك على اختيار زوج جديد، ونظرا لأنك تنسجين فقد اتخذت قرارك. لسوف تختارين من تعتقدين أنه الأفضل. هذا صحيح، سوف تجبر عندئذ على الرد، فلا مكان هنا للجواب المراوغ.

فكرت بأنه إذا حل وقت الإجبار، فلسوف أختار - لا، لا، ليس الاسم! سوف يتمكن من الإجابة بقسوته الصريحة: أنت تعلمين الاسم في ذهنك. هنالك ثلاثة - المسألة لم تعد تتعلق بقبول أو رفض رجل جديد، لا، بل بالاختيار بين ثلاثة من الخاطبين - انتينوس، يوريماكوس، امفينوموس. لست بحاجة لذكر الأسماء. هؤلاء هم. كل خيط تضيفينه إلى النسيج يدنيك من هؤلاء الثلاثة، يقربك إلى واحد منهم. يوما ما سوف تنسجين الخيط الأخير. آنئذ سوف تقابلينهم وجها لوجه. فهم في الانتظار. لسوف تختارين واحدا منهم. حتى في هذه اللحظة أفكارك مشغولة بمن سيقع عليه اختيارك. تختارينه كل ليلة في ذهنك. حين تفكرين بهم، لربما تتركين المكوك يسرع أكثر مما تظنين.

أجل، سيكون على صواب، إذا قال ذلك. ولسوف يكون على خطأ أيضا. أحيانا تعتقد بأنها تجدف نحو الشاطئ الذي سيتحطم عليه المركب. كلما أسرعت كلما كان ذلك أفضل، هنالك شيء ما في ذهنها. لكن تقف خلف فكرة الهلاك هذه ربة البيت الذكية، "السيدة"، متيقظة وعلى أهبة الاستعداد. يجب أن تتجنبي الصخور، تلك هي إحدى قواعد الرسو على الشط. جدفت ببطء شديد؛ تلكأت مع المكوك، وتدلى النسيج بكسل بينما الخيط الجديد يزحف إليه. جلست فوق كرسيها العالي وحلمت - حلم يقظة (معيق) بخليج هادئ محمي ضد الأنواء. في كل يوم، كانت الشهوة تصعد من أجساد الرجال في القاعة الكبرى، في الغرف والصالات، في الباحتين، باتجاه المرأة التي تنسج. وحين كانت تفكر بأنهم يرغبون بالاستيلاء على كنوزها وسلطتها الرسمية، تنسج الخيط بهدوء وترو. كما تهدأ تماما أيضا حين تتذكر بأنها تنسج مصيرها كامرأة، وتحدد طول أو قصر وحدتها القسرية. لكن حين تتذكر أنهم يريدون مشاركتها مضجعها وإنجاب أطفال منها، أطفال "متأخرين" في إنجابهم؛ وذلك مخاطرة بالنسبة لامرأة في منتصف العمر، تجد نفسها مضطرة لإخفاء مشاعرها خلف الفكرة: هذا ضروري، إنه وعد، وأنا أبذل ما بوسعي لتطويل مدة الإجراءات.

خيط فوق خيط، نقرة بعد نقرة. لم يبدأ صراعها الحقيقي ضد الشهوة إلا في السنة الثانية من بدء النسيج.

كبر وابتعد أكثر وأكثر عن "الصبي" الذي كانه "الفتى"، وأصبح، دون أن يلاحظ كثيرون ذلك، رغم أن من المؤلم أن تلاحظه هي، "الابن"، "الوريث". عرفت بأنه يتدرب

على رمي السهام والرماح، رأته يفعل ذلك كل يوم تقريبا في الباحة. كان يحمل أحد أقواس والده القديمة التي فقدت أوتارُها بعض المرونة ويرمي السهام على ترس مهمل علقه كدريئة على الجدار في أحد الأركان كي يزيد المسافة. تصبب العرق منه في غمرة حماسه، وإن تبدت على وجهه الفتى المليء بالبثور أمارات الغيظ والمرارة. رجف جسده النحيل، وكافحت ذراعاه الطويلتان الرفيعتان، وتلمست يداه الوتر بعصبية؛ سمعته يصب لعناته، ثم أطلق سهمه المرتعش: نبا عن الهدف! أسفت لحاله، وآلمها أن ترقبه؛ رغبت لو أنها تمد رأسها من النافذة وتقول إن السهم كان قريبا من الهدف أو شيئا من هذا القبيل، كلمة تشجيع، لكنها أدركت أن تلك مسألة يجب ألاّ تتدخل بها مهما حدث. ركض باتجاه الجدار، وبحث عن نبلته، ونظر شذرا وخجلا إلى الترس، وانحنى والتقط السهم الذي سقط على مسافة قريبة فوق الأرض المفروشة بالحصى، وتفحصه، ونظر إليه ليرى مدى استقامته، ثم عاد مكتئبا متمهلا ليأخذ موقعه، وحرك قدمه إلى الأمام مثلما تدرب، وشد وتر القوس قليلا قبل أن يسدد ويرمي سهما آخر. لم تنظر إلى أين ذهب. وحين نظرت بعد ذلك فورا، رأته يقف حاملا القوس بيده اليسرى، يتفحص علامة على الجدار الحجري لم تكن مرئية من موقعها. اقترب سهمه هذه المرة من الهدف. وسمعته فيما بعد يركض إلى الأمام ويعود أدراجه، وفكرت: ليتهم لا ينظرون ليروا ماذا يفعل - ولو شاهدوه لصدحت ضحكاتهم وعلت نكاتهم.

بإمكانها أن تتبعه بسمعها: كيف ركض إلى الأمام وإلى الوراء، كأنما يشارك في سباق مع نفسه، مع ظله، مع كفاءته المستقبلية، مع افتقاده للمهارة، مع فتوته.

"آ آ آه!".

انطلق ثلاثين أو أربعين خطوة بشكل مائل عبر الباحة إلى الهدف. كان السهم معلقا على الحافة السفلى من الترس، لمحته قبل أن يسقط من تلقاء نفسه. انحنى والتقطه، ووزنه بيده، ووضعه في الثقب الضحل الذي أحدثه، وضغط بشدة: ها هو! تراجع بضع خطوات إلى الخلف واستمتع بمنظره هناك، تمتع بالرمية الصائبة، باليوم، بالساعة؛ سمعته يتنفس بعمق - ثم سقط السهم مجددا. سار متمهلا، بكبرياء، ورجولة، والتقطه وهو يصفر، بداية لحن. تعرفت عليه: إنه اللحن الذي اعتاد العائدون من طروادة على غنائه. إنه هو!

عرفت مدى تفاهة الكلمات حتى قبل أن تلفظها، لكنها لم تستطع منع نفسها من أن تصيح قائلة له:

"تيليماكوس، هل أحضرت الثور؟".

توهج وجهه بالكبريا ، والفخر والبهجة حين رفعه نحوها، لكن التوهج انطفأ حالما رآها.

"أجل، تمكنت من إصابته. بضربة حظ".

أدركت الحماقة الفاضحة التي ارتكبتها، لكن توجب عليها المتابعة.

قالت بصوت يملؤه السرور القسري والدموع في عينيها:

"أوه، يا للروعة!".

قال تيليماكوس بلا مبالاة وهو يهز كتفيه استخفافا: "هَمْ مْ".

حمل قوسه والسهم بيمناه، والترس بيسراه، وسار مبتعدا عبر الباحة. بدا من ظهره أنه أكثر فخرا وتيها الآن. خلال فترة الأصيل، نظرت من النافذة مرات عديدة، لكنه لم يأت ليرمي سهامه.

علمت يوريكليا أنه يتدرب على رمي الرمح والمبارزة بالسيف في منزل ليرتيز في الريف. وسمعت أنه أمضى وقتا طويلا مع الرعاة في الجزء الشمالي من الجزيرة، ومع يومايوس، المسؤول عن قطيع الخنازير، وجماعته في الجزء الجنوبي. سمعت بأنه مهتم بإدارة شؤون المزارع والأطيان، كما سمعت شائعات أنه كثيرا ما تواجد في مركز البلدة وفي الميناء. وحكايات عن غرامه بجارية نصف حبشية في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، شعرها أجعد وعيناها سوداوان لكن بالطبع لم يطل به الوقت قبل أن يتركها - أو ربما يعاشرها.

في أحد الأيام في السنة الثانية من "النسج"، أتى إلى مخدع أمه في زيارة لها - أصبح الآن يعلن عن قدومه، إذ لم يعد ذلك الصبي الخلي أو المتجهم الذي يدخل ويخرج طيلة الوقت. الأمر الذي أقنعها بمدى التغير الذي أصابه. كان من أتى لرؤيتها شابا نبتت لحيته. استشعرت بأنه يعرف الآن من هي المرأة. لم تختف البثور كلها، لكنها في طريقها إلى الاختفاء، نظراته واضحة، وفي عينيه تعبير جديد يدل على معرفة أكبر، وحرية أعظم، وكان أكثر سيطرة على جسده. بدأ يحمل سيفا، علقه بصليل حاد على الحائط في القاعة عند قمة الدرج. حياها بانحناءة.

"أردت فقط أن أعرف كيف حالك يا أمي".

"شكرا لك. أنا بأحسن حال. وماذا عنك؟".

قال: "أوه، لا بأس. لا أستطيع أن اشتكي. أمضيت للتو عشرة أيام مع جدي وهو دائما يرعاني جيدا".

سألت: "كيف حاله؟".

قال: "بخير. يبذل جهدا ليعيش كالمعتاد. لكنه ليس كما كان بالطبع".

جالت نظراته المحدقة في الغرفة: توقفت عند الكفن المعلق في المغزل.

"لتغيير الموضوع: كيف حال النسج؟".

تحدثت كثيرا عن النسج مع كل الذين أتوا لزيارتها، مع كل من قابلتهم. في كل يوم تتحدث مع يوريكليا حوله. تعودت الحديث عن عملها، وبالنسبة لها ليس هناك شيء خاص في الحديث عنه. لكن السؤال الآن أصبح فجأة مربكا ومحرجا وبغيضا.

قالت بنفس نبرته المطمئنة: "أوه، على ما يرام. أتقدم خطوة كل مرة. هل تود إلقاء نظرة على القماش؟".

قال بإبائه الذي وجده مؤخرا: "شكرا، لا أريد إزعاجك الآن. أستطيع أن آتي وأشاهده في يوم آخر. أنت التي أرغب بأن أسمع عنها الآن".

قالت وقد اكتشفت أنه لا يوجد لديها الكثير لتضيفه: "كما قلت لك، أنا بأحسن حال". شعرت بأن نظراته تخترقها، والأمر الغريب هو أنها عرفت بأنه رأى ما لا تظن أنه موجود فيها: الارتباك الناتج عن نسج الكفن. ولا يعود السبب إلى أنها ما زالت تنسج منذ مدة طويلة - فذلك هو محل افتخارها - بل لأنها وصلت به إلى ذلك الحد. أدركت أنه من الأفضل لها، والأنسب، أنه لم يكن يريد معاينة عملها عن قرب.

كانت تقف على بعد ست خطوات منه. ودت لو اقتربت منه ولمست وجنته وقالت: "ما الذي يفعله ولدي الصغير طيلة اليوم الآن؟". لكن سنوات طفولته وصبوته قد ولت - كلها فجأة! كان يقف أمامها شاب، يتمتع بخبرات لا تصل إليها الآن. نبت الشعر على ذقنه، وظهرت لحيته الخجولة، ولم تعد شعراتها جبانة تظهر مترددة في مرحلة حب الشباب؛ لا، بل يمكنك أن تسميها لحية فعلا، وذلك إن امتلكت بعض الشعور الودي وبشيء من المبالغة.

فكرت ولم تساعدها الفكرة: حين بلغ اوديسيوس الحادية والعشرين كانت له لحية حقيقية، كان في كريت، وفي الرابعة والعشرين ذهب إلى طروادة.

بقيت واقفة حيث هي. فكرت: بعد بضع نبضات من قلبها، بعد عشر لحظات، سوف يذهب.

قالت: "سمعت أنك تمضي وقتا طويلا في الميناء. كان والدك أيضا شديد الاهتمام بالمراكب والسفن حين كان شابا".

فكرت: شابا؟ لم قلت ذلك؟ ما الخطأ فيما قلت؟

قال الابن: "ربما ما يزال على اهتمامه".

فكرت: الآن سيذهب. الآن. في هذه اللحظة!

استعد للانحناء، لكنها أوقفته.

"لا إن من المسلي الاهتمام بالمراكب حين يكون المرء شابا. الإبحار، التجديف ـ العمل عليها. والحياة المنعشة هناك في المضيق، في البحر..".

فكرت: ماذا أضيف؟ سيذهب الآن، في هذه اللحظة!

قالت: "مضى زمن طويل مذ جلست على مركب. لكنني اعتقدت دائما أن المراكب والسفن أمر.. مثير جدا".

قال برجولة مهذبة: "ينبغي على المرء، برغم كل شيء، معرفة كيف يبحر بمركب".

ثم تحطمت الصدفة، لم تتحطم كليا، بل تصدعت؛ تقدمت عدة خطوات نحوه. عرفت بأن من المتوجب عليها أن تكون جليلة، متمهلة في حركاتها، سيدة، أمّاً ذكية ومتحفظة لا تتأرجح مع موجة عواطفها، امرأة تعرف كيف تبحر وتوجه الدفة وتشعر بحركات الموج؛ لكن عليها أيضا أن تحاول التقرب منه.

"تيليماكوس، هل فكرت.. أعني: هل تفكر.. هل تخطط للإبحار بعيدا؟".

"أنا؟".

رفع حاجبيه (أجل وجهه اختلف!) معبرا عن اندهاش مفضوح في زيفه. كان صوته ما يزال حادا قليلا؛ لن يستطيع أن يكون ديبلوماسيا قبل مرور بضعة أشهر من الآن.

"إلى أين أبحر؟ ليس لدي مكان أبحر إليه، أليس كذلك؟ وليس لدي حتى مركب خاص بي. ليس لدينا مراكب الآن، أليس كذلك؟ وليس عندي طاقم أعرفه".

ما قاله ببساطة كان أكثر من اللازم؛ أفرط في تحميل تمثيله بعلامات استفهام ثقيلة. الآن هو الذي انهار، وراودها شعور بالارتياح حين رأت مدى فشله في تمثيل دوره. حين وضعت يدها على عضلاته المشدودة المتوترة، تراجع خطوة إلى الوراء.

قالت وهي تمسك بذراعه الأخرى أيضا، وتحتضنه بيديها الاثنتين (الان تملكه!):
"تيليماكوس، ابني. قل ما الذي يقلقك".
لكنها تأخرت جدا؛ استطاع أن يجمع شتات نفسه.
"أمي العزيزة، ليس هناك أمر محدد يقلقني، لست أنا الذي يقلق! أردت فقط أن أطمئن على حالك. الآن لن أعيقك مدة أطول".
حرر نفسه منها، وحان وقت انحناءته؛ أصبحت خالية الوفاض. حين سار بضع خطوات باتجاه الباب، توقف للحظة وظهره لها، متفكرا، ودار بسرعة على عقبه؛ لربما سيصبح ديبلوماسيا في وقت أقصر مما حسبت:
"أجل - هنالك أمر واحد أريد أن أطلبه منك"؟
قال: "حسنا؟"، ورفعت ذقنها وانتصبت لتصبح "السيدة" و "المدام". "ما هو الموضوع؟".
جر قدمه على ألواح خشب السنديان فوق الأرضية التي ثبت عليها بصره - لكنها عرفت بأنه يمثل، ولم يكن سيئا.
قال: "أمي، أعرف بأنك مشغولة جدا. أعني بأمور المنزل، وإدارة شؤون المزرعة، وغير ذلك. ثم مع.. ضيوفنا. فكرت أن أتولى واجبات المضيف كلها هنا".
أشار بإبهامه إلى الأسفل.
صاحت متعجبة: "لكن يا ولدي العزيز! سيغـ.. ".
لم تلفظ الكلمة.
قال باستخفاف: "تعني أنهم سيغضبون"؟
جمعت هي أيضا شتات نفسها.
"تيليماكوس! هذه مهمة ضخمة كما تعرف. ولسوف يجري نوع من المراسم الشعائرية".
قال وهو ينظر في وجهها مباشرة: "لا أظن أن ثمة حاجة لمراسم احتفالية كبرى. ولربما لن تكون مطولة أيضا".
الآن ها هو يستدير، ويذهب. تناهى إليها صوت قرقعة من الخارج وهو يأخذ سيفه ويعلقه على خصره. وسمعت صدى وقع خطواته على الدرج: ترامب، ترامب، ترامب، ها أنا ذا قادم، ها هو "الابن" يأتي.

مالت على كرسي العرل الطويل وحدقت عبر النافذة. ابنة دوليوس كانت تعبر الباحة، ووقعْ صندلها مسموع.

في اليوم التالي جلس في مكان والده. بينلوبي كانت هناك وصادقت على ذلك: دخلت حين اجتمع الكل، كانت هي "السيدة"، "الزوجة"، "الست". مقعد "الغائب" كان الأبعد، قرب الموقد: مقعد بذراعين ومسند أسود، وعليه جلد ليث رث أكله العث.

قالت، وهي تجلس في مقعدها الخاص قربه: "أيها السادة، واجباتي كسيدة لهذا المنزل لا تتيح لي القيام بواجبات الضيافة نحوكم، أو تمثيل زوجي الغائب كما أرغب. لذلك، ومن الآن فصاعدا، سيمثله ابني بدلا مني".

حين صعدت السلم المفضي إلى مخدع النساء، سمعت قهقهاتهم المجلجلة.

لكنه جلس هناك. لم يقبلوا به، لكنهم أيضا لم يستطيعوا طرده. لم يكونوا عصبة من اللصوص: أي ما زالوا مجبرين على اتباع قواعد التهذيب واللياقة. أدركت السيدة أن اليوم الذي يتوقفون فيه عن ذلك آت لا محالة.

جلس هناك. قبل الأمر بصبر وصمت. هل ستحضر مربيتك معك يا بني؟ أم مربية "البابا"؟ لِمَ لمْ تحملك إلينا بعد أن تهمس بضع كلمات في أذنك؟ أم أنها "الماما" التي همستها؟ ألم تكن يوريكليا حقا؟ حسنا يا بني، ها أنت تجلس بين الأبطال، وأنت بطل تقريبا! أخبرنا عن الحملات البرية التي قمت بها والمعارك البحرية التي خضتها! ألا تروي لنا شيئا عن رحلاتك الطويلة؛ على سبيل المثال، حين هزمت الفينيقيين على سواحل كريت! خبرنا قليلا عن شعورك حين حولت مدينة بريام إلى كومة من الرماد! هل كان الأمر صعبا؟ لا بد أن الجراح أثخنتك طبعا؟ لا، لا، لا! لا تقدموا نبيذا خفيفا لبطل المعارك وبطل الشراب، تيليماكوس، صاحب الشهرة العريضة، الذائع الصيت! دعوا مربيته تأتي وتحضر له نبيذا ثقيلا، شرابا صرفا غير مخلوط من ثدييها! أو الخمر الكثيفة التي شربها الأبطال أمام أسوار طروادة! نخبك! يا مجد بلادك!

قبل سخريتهم. كان بمقدوره أن يرد عليهم قائلا: من هم الشباب بينكم الذين حاربوا في طروادة. خبرونا أنتم القادمين من ساموس: كلي آذان مصغية؛ أنا مذعن مطيع. هيا، أخبرونا عما حدث! في الليل، في غرفة نومه كان يجلس على حافة السرير ويبكي، لكنهم لم يعرفوا ذلك.

قال انتينوس:

"أيها السادة، هنالك علاج فعال للبثور: الصلاة ودهن معزاة".

اهتزت الرؤوس من فرط الضحك.

"ما اسمها ؟ هل هي سوداء؟ هل هي من عائلة دوليوس؟ هل هي مذبوحة جيدا ؟".

أو:

"هل تعرفون وصفة جيدة تنبت شعر اللحية؟".

أو

"يبدو أن الصبي مصاب بالهزال ومستنزف الحيوية. هل استنفد حليب يوريكليا ؟".

لم يكن يرد في أغلب الأحوال، لكنه جلس هناك وشرب قليلا. جلس هناك. بدؤوا يتعودون عليه. نادرا ما شارك في الحديث، تواجد هناك عندما قدمت وجبات الطعام، ولم يكلفوا أنفسهم حتى عناء الوقوف حين يدخل أو يخرج. حدق بكآبة أمامه مباشرة، ونادرا ما دعا أحدا إلى مائدته.

من الخطأ القول إن حديثهم دار طيلة الوقت عنه، أو عن "الزوجة"، أو عن "الغائب". كان لديهم العديد من المواضيع المهمة الأخرى لمناقشتها. تحدثوا عن السياسة، وعقدوا صفقات تجارية، والتقوا بأقربائهم الذين أتوا من الجزر الأخرى، أما أهل ايثاكا فقد انشغلوا بشؤون المدينة. كانوا بمثابة برلمان خارج المجلس الشعبي؛ كانوا يمثلون الحزب التقدمي، الأداة السياسية لأولئك الطامعين بالسلطة. أصغى تليماكوس بانتباه لما كان يقال، وشعر تجاه العديد منهم بالاحترام والتقدير. بدأ بعض الخاطبين يعتبرونه شابا مطالبا بحقه، ورأوا فيه "الرجل القادم"، "الخطر الداهم"، شاهدا مرهقا، مستمعا يفكر، شخصا يتأمل مليا. اعتبره آخرون فتى يريد الجلوس بينهم، ليرى رأي العين مثالا نموذجيا لامعا يجسد كيف يتصرف أبطال الحرب ونوابغ السياسة. ثم إن هنالك بعض الحاضرين الذين اعتبروه مجرد ساذج مغفل لا يؤذي ولا يضر.

في واحدة من سلسلة تلك الليالي الطويلة، أتت إليه ابنة دوليوس اللدنة. لربما كانت تمارس السياسة، أو أن أحدا قد أعطاها فكرة رغب باستغلالها: هنالك طريق مختصرة للسلطة تمر من خلاله.

قبلها طيلة عدة شهور؛ والصمت الذي خيم كان بعمق الحلكة نفسها.

-٩-

الرحيل

شرعت كاليبسو في تعبئة الموارد المتاحة في مملكتها الصغيرة. ابتسم الجندي القديم فيه - بينه وبين نفسه - ساخرا من اندفاعها، وحماسها النشيط. أعطت أوامرها لصياديها، والبستاني ومساعديه الأربعة، والطاهي وصبيانه، وستة من الرعاة، بالبدء ببناء سفينة له، لكنها نسيت - تقريبا - في غمرة استعجالها النجارَيْنْ العاملَيْنْ لديها واللذيْن عاشا هنالك طيلة العديد من السنين: إلى هذه الدرجة ابتعدت عن وقائع حرفة النجارة. ذكر ذلك لها.

قالت: "أعرف. أعرف. فكرت بهما أيضا".

جمعتهم كلهم في الباحة الخارجية وألقت فيهم خطبة بصوت مرتفع ينضح بالسلطة، كما تخيلت. في واقع الأمر شرقت بالدمع، مما جعل نبرتها حادة صارخة.

قالت وهي تنتصب في وقفتها وترفع ذقنها وتلوح بيدها: "العمل ملح وعاجل ويجب أن تسرعوا بإنجازه. ضيفنا الكريم سيغادرنا". أضافت دونما داع - وعرف الجميع ذلك: "لقد صدرت الأوامر. ضيفنا الكريم لديه إذن بالسفر. المحترم رسم مخططا لسفينة وينبغي بناؤها الآن. ابدؤوا العمل فورا".

لم تكن لديها فكرة عما يجب إضافته لذلك. أجل، اعتقدت أنها سمعت ذات مرة أن الخشب ينبغي أن يكون جافا.

قالت: "يمكنكم أن تأخذوا أشجار الصنوبر الميتة من الأرض الداخلة في البحر".

الجمهرة الصغيرة بقيت واقفة هناك تراقبها وهي تمشي. موجة من الشهوة الذكورية تبعتها عبر المدخل المقنطر.

استدعى النجاريْن، وهما رجلان شابت لحيتهما وكانا قبل استعبادهما يعيشان في

صيدا على الشاطئ الفينيقي بعيدا إلى الشرق. أعطتهما اسمين جديدين حين جرفتهما الأمواج إلى الشاطئ قبل أكثر من أربعين سنة وظلت تستخدمهما لمتعتها الخاصة: بروتوسيديس، الذي أصبح الآن عجوزا ساخطا دائم التذمر، والبيستيكوس، الرجل الميال للتفاؤل في شبه الجزيرة. حدق الاثنان إلى المخطط الذي رسمه بالفحم على لوح خشبي.

قال البيستيكوس: "سيكون رائعا. فهذا تصميم استثنائي وممتاز لصنع طوف؛ واحد من أفضل التصاميم التي رأيتها في حياتي. الأطواف مراكب عظيمة. فهي آمنة ولا يمكن أن تجنح، كما تبحر بسلاسة بشرط أن تكون الرياح هادئة. يبدو لي أن التصميم تحفة فنية أيها السيد المحترم".

قال بروتوسيديس متذمرا: "أيها المحترم، سوف يغرق في اللحظة التي نضعه فيها في الماء. وعلى أية حال، لسوف يتحطم نتفا إذا هاج الموج، وأية عاصفة سوف تقلبه على جانبه. لن تستطيع الإبحار به أبدا أيها المحترم، وعلى أية حال لن يوصلك إلى وجهتك. لكن كما ترغب أيها المحترم، فالأمر سيان عندي!".

ترك لهما فرصة الكلام.

سألهما: "كم عددكم؟".

بإضافة صبيان الطاهي، والزنجيين الصامتين المكشرين العاملين عند الجزار، يصل العدد إلى عشرين. انتظرهما كي يقوما بحركة، لكن حين بقيا واقفين هناك ضمن جمهرة من الأشخاص المحدقين إليه وإلى التصميم في يده، سار مبتعدا وتبعاه. قال في نفسه لم يقتنعا بالتصميم. هل أنا مقتنع به؟ أنا الآن في أيدي الآلهة الجليلة.

فوق لسان الأرض الداخل في البحر، تغطى منحدر التلة بالأشجار المقطوعة والميتة التي بقيت واقفة. شجر "جار الماء" في الأسفل، ثم الحور والصنوبر: العواصف لم تقتلعها جميعا، لكن هليوس جففها، وعب نسغها، حسب تعبير الجزار المتدين (الذي يقوم بدور الكاهن في مراسم تقديم القرابين). أشار إلى خمس وعشرين شجرة صنوبر ميتة اقتلعت من جذورها، والعمل استغرق النهار بطوله. فبغض النظر عن أدوات النجارة القديمة، لم يكن لديهما سوى فأسين حادتين - واحدة عريضة الشفرة تخدم الغرض إلى حد ما، والأخرى حربية مزدوجة الشفرة مزينة بزخارف بشعة. أرسل الجزار/

الكاهن أحد الصبيان لإحضار فأس ذبح القرابين المصنوعة من البرونز الصقيل اللامع، وحين تبين أن شفرتها غير قاطعة وتثلم بسرعة، اضطر بروتوسيديس وأربعة من الصبيان للعودة إلى المنزل وشحذها. عادوا متشائمين، الخمسة كلهم، وبعد وقت قصير جرح البستاني رجله اليسرى وهو يحاول عرض كيفية تشذيب جذع شجرة وتحويلها إلى شيء يمكن دعوته بالعارضة الخشبية. قال البيستيكوس إن الجرح سيلتئم بخلال يومين اثنين؛ أما بروتوسيديس فاعتبر أن الرجل لن يعيش سوى بضع ساعات. كان جرحا سطحيا أصاب اللحم الطري من الجزء الداخلي من ربلة الساق اليسرى، ولم تقطع أية أعصاب. صاح ابن البستاني مولولا، في حين كان هو يتحدث عن قربان من الخمر، لأنه كان عطشان - الوقت يقترب من الظهر - وارتأى بروتوسيديس أن الحادث نذير شؤم، كما أعلن البيستيكوس أن العارضة تبدو قوية بديعة، وأنها قطعة عظيمة من الخشب، وستعوم كمركب من الفلين، وأنها متينة كالبرونز.

بينما كان يأكل مع كاليبسو في تلك الأمسية جلسا صامتين طيلة الوقت تقريبا. لكن الليلة كانت ليلتها.

في اليوم التالي جروا جذوع الأشجار إلى الخليج الشرقي. تطلب الأمر كثيراً من الصراخ لدفع الحمير كي تتزحزح. الأخشاب كانت متباينة في الطول. وبعضها بدأ يتعفن، وتوجب عليهم اقتطاع عدة أقدام من نهاياتها قبل الوصول إلى اللب القوي. تحت اللحاء ظهرت أثلام ملتوية مليئة بنشارة الخشب البنية التي خلفتها الديدان. "سحابة" من طيور البحر طارت حولهم تزعق وتسب وتلعن - تلك كانت جلبة النهار. معظم الخشب كان مشققا وأكد بروتوسيديس أنه سيتشرب بالماء بعد يومين من الإبحار. قال البيستيكوس: "لكن الماء المالح نفسه يشكل حماية ممتازة؛ فهو يسد الشقوق، ومن الصعب أن تجد ما هو أفضل منه للخشب. لسوف يغدو صلدا كالبرونز". قال بروتوسيديس مكملا "وثقيلا مثله".

راقبهم جميعا - الرجال المهزولين، العبيد. حالته المزاجية سمحت له الآن، في اليوم التالي ذاك، بالضحك. لم يكن سعيدا، ولا حرا، لكن الضحك مثل المنفذ الوحيد له - وإلا لقتل العديد منهم، عرف ذلك تماما. عمل معهم. استخدم الفأس المزدوجة الثقيلة ببراعة؛ كان حاذقا في استخدام الفأس وماهرا في فن النجارة ولم تخطئ أية ضربة منه

الهدف، لكن متعة المهارة الحرفية الداخلية، متعة النجارة، قد اختفت منذ أمد بعيد ولم ترجع أبدا. ولم يكن يرغب باستعادتها. إلا أن يده الصناع بنت سفنا من قبل.

في أمسية ذلك اليوم الثاني قالت:

"أنت ترى أنني أفعل كل شيء من أجلك. تعلم بأنني أقدم لك الرجال والأدوات والخشب. يمكنك أن تظهر الدليل الذي يثبت أمام الآلهة الجليلة أنني لا أحاول إعاقتك، وأنني لا أعرقل عملك ولا حتى لساعة واحدة. ولربما لاحظت أنني أحاول أن أوفر على جسدك بذل أي جهد منهك يؤثر في عملك - وأنني لا أطلب كثيراً منك في الليل؟ ألم تلاحظ ذلك؟".

في تلك الليلة قالت:

"لسوف أفتقدك كثيرا. فحولتك الذكورية من أروع ما خبرت في حياتي. لديك جهاز ممتاز على نحو خاص لجلب المتعة وإشباع شهوات النساء، خالدات وفانيات. لديك القدرة على الصبر والاحتمال. ألا تشتاق لزوجتك؟".

كان مستلقيا على ظهره قربها. فكر: الآن أستطيع إجابتها لو أردت. هذه هي اللحظة المناسبة. رأسها فارغ؛ هنالك محل فيه لأي شيء وكل شيء الآن. أنا متعب ولست مسؤولا ويمكن أن أقول أي شيء دون أن أتأثر.

"حسنا؟".

قال: "الخشب الذي حملناه إلى الخليج اليوم كان ممتازا".

أمكنهما سماع الريح تعصف في الغابة، والموج البعيد يهدر على الشطآن.

قال بعد برهة: "الريح تهب جهة الغرب. لقد صليت من أجل ذلك".

وأردف: "أنا ممتن جدا لما تفعلينه من أجلي".

قالت: "الآن، سوف تقابل نساء أخريات، نساء فانيات من البشر. آمل أن يكن لطيفات صريحات معك كما كنت أنا. تعال".

في اليوم التالي بدؤوا نحت جذوع الخشب. وقف حاملا الفأس بيده، وشعر بمدى ثقة كفه المسكة بالمقبض، وكيف احتفظت بمعرفته بالفؤوس والخشب، وكيف ستتصلب قروحها في وقت قريب - صلابة انتمت إلى تلك اليد، ووجدت فيها موقعها المناسب. أحس كيف شدت حتى أصابعه المشوهة المتضررة على المقبض الناعم المصنوع من خشب

الزيتون. لكن ذهب المعد الداخلية التي كان يحسها حين يصنع قطعا منتظمة من الخشب، ويحافظ على خط مستقيم على طول الخيط المشدود. استرجعت يده ذكرياتها، لكن اختفى الرجل الجواني، الرجل الذي يملك قلبه وعقله، الساكن داخل جلده، والرابض في صدره، وخلف عينيه الهادئتين. أتته إحدى الذكريات: صنعتُ سريرا مريحا، سرير العرس، قوائمه تتكئ على شجرة ما زالت تغرس جذورها في الأرض. وتذكر شيئا آخر: آه، تلك الخدعة الخشبية التي استخدمناها عند طروادة، حين صنعت يداي حصانا أجوف، دمية لعملاق. خدعنا بها الآلهة أيضا، والعديد من أصحاب الجلال والعزة، مثلما خدعنا شعب بريام الغبي.

الغبي؟ فكر وحاول تفادي مزيد من التفكير بالخاطرة. هل ما زلتُ أعتقد أنهم أغبياء؟ صاحوا صارخين، تحدثوا عن الموت المجيد، لكنهم ماتوا بسرعة لم تسمح لهم بمعرفة إذا ما ماتوا ميتة مشرفة أم لا. لقد ماتوا حرقا، وليس ثمة شرف مجيد في ذلك.

صرخ غاضبا على بروتوسيديس: "يا لها من مثاقب رديئة بالية!"، لكن هذا لم يجب، واكتفى بالانحناء على الجذع وصب لعناته عليه.

كانوا يحفرون ثقوبا لوضع أوتاد في العوارض الخشبية التي غدت ناعمة صقيلة الآن بفضل النحت والكشط. تجاوز مرحلة الحكم على إذا ما كانت المثاقب سيئة، وهل من الأفضل حرق الثقوب بقضبان نحاسية محماة؛ لكن الآن وقد قال بأنها سيئة، فلا بد أن تكون رديئة بالية. كانوا قد أضرموا نارا على الشط، ومن أجل الإسراع في العمل أحرقوا معظم الثقوب. أدخلوا أوتادا خشبية بسماكة ثلاث أصابع وثبتوا معا جذعا بعد جذع. ووضعت الأسافين في نهايات الأوتاد؛ وكلما دخل الوتد في العمق زاد رسوخا وقوة. المركب المسطح القاع بلغ عرضه خمس خطوات وطوله خمس عشرة. أما الجانب السفلي فقد ثبتوا عليه سبع عوارض كي يرتفع المركب حين يطفو. ثم قلبوه رأسا على عقب، وتلك عملية شاقة، كما صنعوا كتلة بارزة من الألواح الخشبية المصقولة في المؤخرة، من أجل مجداف التوجيه. أحدثوا ثقوبا خشبية عمودية، وبنوا مقعدا ودعامة مثلثة للدفة. في المركز، وباتجاه المقدمة، حفروا ثقبا للصاري، كما وضعوا على الجانبين أسافين للدعامات. وبنوا أمام الصاري صندوقا للمؤونة وثقل الموازنة، ونصبوا حول

الجوانب حاجزا من الكلابات والحبال الغليظة. ربطت المؤخرة بحبل ثخين، والتف حول المقعد حاجز على شكل صندوق تقريبا يسمح بالرؤية من كل اتجاه، طوله ثلاث خطوات وعرضه خطوتان، تصل حافته إلى الصدر تقريبا، ومن الممكن مد ظلة فوقه؛ مقعد التوجيه كان طويلا بما يكفي لكي ينام الربان عليه.

كان البيستيكوس راضيا تماما حين انتصب في وقفته، والعرق يتصبب من جبهته، وألقى نظرة هازئة على البحر الضبابي الحار؛ فقد اعتبر الطوفَ من نوعية سماوية رائعة. أما بروتوسيديس فغمغم وهو منكس الرأس شيئا عما إذا كان من الضروري فعلا بذل جهد مضن لقطع عشرين شجرة صنوبر متفسخة، وبتر رجليك، لتخضب المناطق الريفية كلها بالدماء من أجل إعطاء الفرصة لرجل آخر كي يغرق نفسه. دعا البيستيكوس صنيعهم بالقارب. أما بروتوسيديس فكان مع الرأي القائل إن ما يسمى بالمركب سوف يرعب كل طير وسمكة في البحر، ويسبب نشوء ديانات جديدة على طول كل الشطآن، لكنه لن يبتعد كثيرا على أية حال، لأنه يعتبر بمثابة تجديف على الآلهة.

لم يكافئ ولم يعاقب، بل تركهم يتحدثون ويثرثرون. عند الأصيل أطلقوا الطوف إلى الخليج، حيث ارتفع بين الموج، ثم ربطوا بالصاري شراعا مربعا من القماش الأحمر السميك. وتوجب وضع سناد للجزء الأسفل من الصاري في البداية.

بلغ طول مجداف التوجيه ست خطوات، وأحدث فيه ثقب للحبل الذي يبقيه في مكانه، أما شفرته التي يصل طولها إلى ذراع فكانت بعرض أربع أيد.

كان الفراق بينهما أسهل مما تخيل. عرف الاثنان بأنه راحل حتى قبل أن يغادر؛ جهزته للرحلة أفضل تجهيز. تلقى ثيابا جديدة، أثوابا داخلية كتانية وعباءات صوفية ودثارين للوقاية من برد الليل. أرسلت إليه عدة أطباق من الطعام - لحم مشوي ومقدد، خبز، عسل، جرار مليئة بالخمر والماء، إضافة إلى التين والتمر والتفاح - لم يعرفا مسافة الرحلة، لكن شيئا ما أخبرهما بأنها ستكون سعيدة.

على جدار الصالة الواقعة خلف القاعة الكبرى، علق حزام نجاة مصنوع من قطع كبيرة من الفلين مربوطة بسير جلدي. كان الحزام قد جرفته الأمواج إلى الشاطئ منذ مدة طويلة، لكن الفلين لم يتفسخ والسير الجلدي ما زال متينا. ألمحت إلى أن حورية بحر أرسلته لها لهذا الغرض بالذات: لحماية شخص تحبه من الغرق. ذكرت اسم الحورية: اينو، فتاة بشرية تمت ترقيتها إلى مرتبة الآلهة.

قالت: "خذ الحزام معك، وحين تصل إلى الشاطئ أعده إلى البحر: لربما سيعوم عائدا إلى هنا مجددا كنحية منك، إن شاءت الآلهة".

في الأمسية الأخيرة استحم الاثنان في قمة الرابية، ثم نزلا إلى الشاطئ على الجانب البعيد. هو وهي فقط. جدف بها إلى "الجزيرة المخفية" في تيار قوي باتجاه البحر المفتوح. صاحت الطيور من حولهما عند الغروب. كان قد أحضر معه بعض الفحم في جرة نحاسية؛ نفخت فيها لإبقائه متوقدا. تسلقا الدرب الصاعد إلى الكهف المزدوج الكبير على الجانب الشرقي من الجزيرة، وجلسا خارجه لوهلة محدقين إلى البحر. كانت تعيش هنا، في "سرة" البحر تلك، قبل أن تسمح لها الآلهة الجليلة بالانتقال إلى لسان الأرض الداخل في البحر. كانت ذرى الجبال المكسوة بالثلج على الجانب الآخر من المضيق تتلألأ تحت آخر شعاعات الضوء التي يرسلها هليوس. مع الغسق أشعل نارا في مدخل الكهف، وذلك في إشارة منه إلى الآلهة بأنه مستعد للرحيل. ومض اللهب على جدران الكهف العالية التي يبلغ ارتفاعها العديد من القامات.

قالت: "هنا القاعة الأولى التي سكنتها. كانت أشد رهبة آنذاك. فقد كنت أكثر قربا من الآلهة في تلك الأيام".

انتظرا بينما خبت النار. أخذ حجرا مسطحا وسحق الجمر.

قال وهما يجدفان في طريق العودة: "كل هذا لا وجود له في الواقع. مملكتك تقع في نهاية العالم وليس لها وجود فعلي ـ لكنها موجودة؛ حية هنا في داخلي".

فيما بعد، بدت له الليلة الأخيرة معها أشبه بالمنام، واختلطت في ذهنه مع أحلام اليقظة وأحلام النوم التي كثيرا ما أتته، وظلت لفترة طويلة تحول حكاياته إلى خلطة تمتزج فيها الحقائق، والأكاذيب، والرغبات. الطوف ربض متمايدا مع الموج في شط الخليج الشرقي، والصاري مجهز بالشراع، والزنجيان الصامتان العاملان لدى الكاهن/ الجزار وقفا في الليلة اللطيفة حارسين مع البيستيكوس في حمى جرف الميناء؛ حراس الرسول تابعوا المراقبة، بعيون يقظة من الجرف الصخرية الأخرى. النوم فارق الأجفان. لم تشرب كثيرا في تلك الأمسية. تمدد إلى جانبها على السرير الرحيب؛ الأبواب ظلت مفتوحة؛ والليلة كانت دافئة.

قالت: "أخبرتني القليل عما جرى لك قبل أن تأتي إلى هنا".

قال، وهو يدع مؤخرة عنقها تستند على راحته المفتوحة: "أخبرتك عن كل ما يثير الاهتمام. معظم ما جرى كان ضمن نطاق الحرب والترحال والسفن الغارقة".

قالت: " بعض الليالي أمضيتها سهرانة أصغي إليك وأنت تتكلم في نومك".

قال، محاولا تجاوز الأمر بيسر: "لابد أنك عرفت كثيراً إذن".

لكن المسألة كانت بغيضة: لقد اخترقت حجرة ملكه أغلقها بأقفال ومزاليج وعقد موثقة صنعها بكل حذق ـ أقفلها في وجه نفسه ولم يرغب أبدا بدخولها والتعرف إليها، احتج على ما فعلته. استفحلت الشهوة نتيجة "ذاك الذي يوجع"، استفزها الحزن، وتشربت بنوع من البغضاء لها. لا، ليست البغضاء؛ لم يكن يريد ألا تكون هناك، بل رغب بأن لا يكون في داخلها فضلة من أحلامه، ولا ذكريات عما قال في نومه. شيء ما تحدث بصوت مرتفع، الصمت، كثيرا ما همس الرجل الجواني المذبوح والمبعوث حيا من خلال فمه.

قال: "يهذي المرء ويقول هراء كثيرا في نومه ـ لكنه ليس مسؤولا عنه. ما الذي قلته؟".

انزلقت مؤخرة عنقها قليلا على راحته المكورة، واحتك شعرها على قروحها الرقيقة. فاح منها عبير عطر جديد جعلته يطرف بعينيه ويلتقط أنفاسه. أمكنه أن يشعر بأنفاسها على وجهه، وعرف أن شفتيها نصف مفتوحتين.

همس: "كفاك كلاما". ودون أن يفتح عينيه، وضع يده اليسرى على ذقنها، وجعلها تنزلق على جيدها، لتتريث قليلا على كتفها وثديها. أكمل ما بدأه دون أن يفتح عينيه.

قال لنفسه وهما يرقدان جنبا لجنب في أمان لا نهائي: الكرى يأتي الآن. اقترب أكثر، ومس جفنيه، وانسل مبتعدا.

سأل بعد برهة: "ما الذي قلته؟". التمع في عينيها ضوء النجوم الآتي من النافذة في أعلى الجدار. كادتْ ألاّ تتحركَ شفتاها.

"ماذا؟".

"حين تكلمت في نومي؟".

قالت وهي نصف مستيقظة: "لا أتذكر". وأردفت في نبرة أوضح: "لا، لم يكن هناك أمر محدد؛ تكلمت حول.. "

كان الصمت مطبقا إلى حد مكّنهُ من سماع همس النجوم عبر تنهدات أشجار الغابات على التلة وفي الوادي، وهدير الموج على الشط.

قالت: "لا أتذكر الآن".

قال: "لا تقلقي؛ ليس الأمر مهما. في الواقع، كل ما يقوله المرء في نومه لا أهمية له. فكرت دوما أن أولئك الذين يحاولون تفسير المنامات هم حمقى".

ران عليهما الصمت مجددا.

"ألا تستطيعين تذكر أي شيء قلته؟".

الريح، الموج، النجمات. السنة الجديدة على الأبواب، فكر بشيء من أجل التفكير وحده؛ سوف يقترب هليوس آنئذ. العشب القديم ستذروه الرياح أو يتحول إلى سماد حين ينبت الجديد.

قال: "ولا كلمة واحدة؟".

قالت: "تحدثت ذات مرة بلهجة صعبة، لهجة البلاد البعيدة. عن شيء له علاقة بالمدن، بالبيوت، والقيادة والحكم. قلت 'استاي..'. 'استاياناكس'".

رفع جسده على مرفقه؛ أراد أن يوجه لها لطمة. لكن صوته الآخر الجواني حذره؛ إنها إلهة. لا يمكن قتلها. لا تعني شيئا. وأنا ـ .. أنا لا أعرف شيئا حول ذلك!".

تمدد مرة أخرى. تنحنح، واختبر صوته: كان راسخا.

قال: "كم كان ذلك مسليا. كم كان مسليا".

"الآن أنت منزعج. جعلك هذا تشعر بالانزعاج".

"أنا؟".

ضحك، وقال: "تذكرت حكاية مسلية".

كيف يمكن للمرء قتل الآلهة؟ بنسيانها. تمدد بجانبها ونسيها. سعى إلى نسيان كل شيء ونسيان أنه يقظان. أنا نائم، هكذا فكر بعقله الصاحي، أغط في النوم.

سألت: "حسنا، ما هي الحكاية المسلية؟ هل تدور حول حيلة خدعت بها أحدهم؟".

أخذوا الطفل، استاياناكس، حاكم المدينة الرضيع، ابن اندروماكي.. قتلوه ـ هل كنت أنا؟ لم أكن أنا. لكن من يتمتع بوضوح الرؤية، بالمكر والخداع، بالذكاء وبعد النظر والحصافة، يعرف أنه لو ترك الطفل حيا لـ ...

قال بصوت واثق: "أجل، حول خداعي لصاحب العين الواحدة".

"أجل خدعته تماما".

قال: "لا، لم أكن أنا؛ كنت على حافة الكذب، كدت أقول أنا. فعل ذلك شخص آخر. اسمه اوتيوس".

قالت: "اللهجة الغريبة مرة أخرى. يا له من اسم غريب! ما معناه؟".

بدا من صوتها وكأنها فضولية، بدا ودودا متوسلا؛ بخلال برهة سوف تقترب منه أكثر وتصغي إليه بجسدها كله.

قال: "لا أحد".

رموا الطفل من فوق السور وسقط على السطح المرصوف بالحجارة أمام المدخل، وأحدث ارتطامه صوتا مكتوما، كتلة من اللحم ما زالت ترعشها الحياة. لم أفعل أنا ذلك. إنها الحرب.

بإمكان المرء دوما التفكير بكذبة ممتعة. كنت قادرا على الكذب بكل براعة؛ أطلقوا علي اسم "الخداع المسلي"، "رجل الخيال الواسع"، رجل لديه على الدوام حكاية مسلية يرويها. لكن لم أكن أنا الذي فعل ذلك بالطفل، أنا..

بمقدور المرء أن يقص عليها حكاية طويلة؛ ويزوقها بالمبالغات؛ وعلى أية حال ما زال الصباح بعيدا. أغلق جفنيه وانتظر الرغبة كي تأتي ومعها السلوان. سمع البحر، والشطآن.

ليس من الضروري أن تكون الحكاية صحيحة؛ لم تكن الحقيقة بغيتها. يمكنه روايتها كما يهوى. وإذا ما روى المرء قصته بسرعة، عندئذ.. عندئذ سيظن ربما أنه جزء منها، وأنها ستمتصه إلى جوفها.

قال: "حدث ذلك قبل وقت طويل من قدومي إليك. حين كنا في طريق العودة إلى الوطن من الحرب.. من الحرب".

توقف هنا.

قالت بعد أن انتظرت عدة دقائق: "حسنا؟".

"لن تأتي إلى الذاكرة يا كاليبسو. يبدو أنني نسيتها. لكن أتذكر فعلا أنها كانت حكاية مسلية جدا".

تردد صدى الكلمات داخل رأسه.. حكاية مسلية جدا! فكر: لا بد أن أعطيها شيئا. أدين لها بقصة مسليه لن يؤلم ذكراها.

قال: "ذات مرة، حاول اوتيس - ذاك هو اسمه - أن يخدع الرب العظيم المبجل، إنها حكاية مسلية جدا".

قالت: "رويت حكاية من هذا النوع من قبل. أذكر أنها كانت مسلية جدا، لكن لا أتذكر تفاصيلها".

لم يتذكر هو أيضا. في السنة الأولى التي أمضاها هناك، تذكر كل شيء - استطاع أن يتذكر ذلك. إنها هناك في داخلي؛ عرف هذا تماما؛ لو استطعت فقط أن أبدأ روايتها، فسوف تستعيدها الذاكرة كلها.

قال: "إنها فعلا ممتعة جدا. تدور حول قطيع هليوس و.. كريبديس و.. وسيلا".

سألت متشككة: "وحول السيرانات؟".

"أجل، قصة مشوقة جدا".

قالت: "نسيت كيف تمضي فصولها. خبرني".

فكر: ستكون ليلة طويلة. لن تصل إلى منتهاها.

قال: "أجل، الأمر كله كان مشوقا جدا. نحن.. أعني هناك رجل يدعى أوتيس من.. من ساموس كان يسافر.. كانوا جماعة كاملة. لا أذكر من أين أتوا أو إلى أين اتجهوا. لدي فكرة تشير إلى أنهم كانوا في الطريق إلى الوطن عائدين من الحرب. لا أدري من أين أبدأ".

قالت مقترحة البداية: "السيرانات".

"لا، ليس من هنا. كن فتيات فاتنات فعلا.. لا، أعني إلاهات، وكن واقفات على الشط يلوحن و..".

قالت وهي تحك ظاهرة كفها على لحيته: "كن يغنين، أليس كذلك؟".

قال: "أجل، أوه، أجل. غنين فعلا! لكن القصة لم تبدأ من هنا. بدأت عند.. مع أخرى".

"امرأة؟"

"أجل. أو ربة إن شئت".

"وبقيت معها؟ زمنا طويلا؟".

أبعدت يدها عنه.

قال: "لم أكن أنا - بل الرجل الذي يدعى اوتيس - كان يعيش معها، لكن لا أتذكر كيف وصل إلى هناك. لا بد أنه رجع من حرب من الحروب - أقام معها فصل الشتاء برمته".

قالت: "حين يقيمون مع النساء لأية فترة، يكونون دائما قد عادوا من حرب ما على ما يبدو".

"ليس دائما".

قالت: "لا، ربما لا. الآن أخبرني القصة".

"كان لديها مكان على جزيرة تدعى - أعتقد أن الاسم يتعلق بصقر أو زهرة، عشبة الصقر - جزيرة عشبة الصقر، تربض قرب الساحل الطويل إلى الشرق، البلاد الواسعة فيما وراء ساردوس، وراء بحر ساردوس. كانت قادرة على ممارسة السحر وغيره من الأشياء. لكنني لا أتذكر القصة كاملة، لا أذكرها من البداية".

"كنت تتذكرها قبل زمن بعيد، قبل سبع سنين، حين أتيت إلى هنا".

شعر بصدقها. كان قادرا على تذكرها كلها الآن، لو أراد.

قال بسرعة: "لسوف أتذكر الأمور الجوهرية. أتى اوتيس وجماعته إلى هناك وهم في رحلة، وحين أرادوا المغادرة، بعد نصف سنة، أعطتهم مؤونة يأخذونها معهم، مؤونة ضخمة، أتخمت سفينتهم بالطعام".

"كانت ربة مثلي؟".

"تقريبا. ربما.. على أية حال من عائلة أرستقراطية. ويمكنها أن تمارس السحر".

"ماذا تقصد؟".

قال: "لا أتذكر تماما. لكن ظني أنها غير قادرة على ممارسة سحر مقدس على شاكلة الآلهة الجليلة، بل مجرد شيء شبيه بالسحر، مثلك. بواسطة الأعشاب وغيرها. الرجال، الرحالة، أقاموا معها فترة طويلة إلى درجة.. الألفة. أعتقد أنهم شربوا كثيرا إلى حد أنهم شاهدوا صقورا وجرذانا، وهجعوا وتمرغوا كالخنازير. لجأت إلى تدابير

أصابتهم أحيانا بجنون العظمه وجعلتهم يعتقدون بأنهم أشد قوة ووسامة من كل الرجال الأخرين، وفي أحيان أخرى زحفوا على أربع ونبحوا كالكلاب، وزأروا كأسود الصحراء، ونخروا كالخنازير. لكنها انئذ أعطتهم دواء يعيد الوعي إليهم. هنالك عشبة كانت تنمو في الجزيرة، نوع من 'المولي' السحري، استخدمتها كعقار وخلطته بالخبز أو النبيذ، حيث استعادوا وعيهم وأصبحوا أشد مقاومة. كان يمتعها أن تسحر الخمر بحيث يسقط ضيوفها تحت الطاولة ويتصرفون كالحيوانات، لكنهم إن تذوقوا ولو رشفة من الترياق، المحضر سلفا، تمتعوا بالمناعة ضد تأثيره". أضاف متفكرا: "كان الأمر لافتا وغير عادي".

"حسنا، وبعد ذلك؟".

"بعدئذ.. بعدئذ حدث شيء ما له، لهم.. وهذا ما لا أتذكره".

"وماذا عنها؟ هل ضاجعته.. اوتيس؟ هل كانت جميلة؟".

قال: "كانت تشبهك كثيرا. أعني من الوصف الذي قدم لي أتخيل أنها لا بد أن تشبهك".

"وماذا حدث بعد ذلك؟".

شعر بالإثارة والاهتياج إلى حد جعل قلبه ينبض بعنف؛ أمكنه سماع دقاته: تك.. تك.. تك. كأنما أحدهم يركض على أرض حجرية وعرة.

قال: "تلك حكاية بحار".

رواها متمهلا، باحثا عن الكلمات، وبين حين وآخر كان يتوقف لوهلة ويصغي.. لقلبه، للغابات، للبحر، للهمسات الآتية من النجوم. أحيانا يأتي ثغاء خروف مذعور أو متوحد على جانب الرابية باتجاه المرسى. في أحيان أخرى، حسب أنه سمع وقع خطوات تتراجع، تتلاشى.

"كان لديها بيت رحيب عاشوا فيه لفترة، وجهزتهم بكل ما يحتاجونه حين رحلوا. كانوا جماعة من المحاربين والمجدفين، حوالي خمسين رجلا، في طريق العودة إلى الوطن، باتجاه الساحل الجنوبي الطويل. اضطروا للمرور بالجزيرة الكبيرة التي تشبه المثلث، الرمح الثلاثي الشعب، تريناكيا أو تريناكريا، عبر مضيق به دوامة ضاربة.

حذرتهم من "السيرانات"، حيث توجب عليهم المرور بهن أولا.. خدعوا لكنهم خافوا أيضا، ثم أدركوا فيما بعد أنها كانت تغشهم".

هدأت دقاق قلبه: وصل إلى أرض أكثر استواء.

قال: "إنه نوع من الغيرة. كن بعض الفتيات الجميلات اللاتي وقفن على الشط في مكان ما، على جزيرة ما، لوحن وغنين. وعلى أية حال، كان القنال مخادعا؛ وله سمعة سيئة".

"هل نزلوا على الشاطئ.. شاطئ السيرانات؟".

قال: "كان اليوم لاهب الحرارة. وتصرفوا كالأطفال. سدوا آذانهم بالشمع حتى لا يستسلموا للغواية.. كان هو، اوتيس، الوحيد الذي لم يفعل ذلك. لكنه ارتعب أيضا.. طلب من اثنين من رجاله أن يوثقاه إلى الصاري بحيث لا يتمكن من القفز من السفينة والسباحة إلى الشاطئ، أو محاولة دفع مرافقيه إلى الرسو على ساحل الجزيرة. فيما بعد، توصلت إلى نتيجة مفادها أن هناك مدرسة موسيقية غنائية تدرب جوقات المنشدين: فتيات من عائلات تنتمي إلى الطبقة الراقية يرسلن إلى مدرسة داخلية هناك لبضعة أشهر كل سنة".

"هل أراد القفز إلى الشط".

تردد.

"أراد ذلك لحد ما. كن جميلات يتمتعن بأصوات بديعة فتية. و .. صبايا كما تعلمين. أراد أن يشرح الأمر لرجاله، لكن ذعرهم حال بينهم وبين الفهم، علاوة على تلك السدادات الشمعية في آذانهم. حسبوا أنه وقع ضحية سحر السيرانات، أعني سحر الفتيات وغنائهن. لم يكن الأمر بذلك السوء. أراد أن يخبرهم بالحقيقة - أن ذعرهم لا ضرورة له - لكنه لم يستطع".

"وماذا حدث بعدها؟".

اضطر أن يتوقف ويشرب من كأسه.

"أجل، حذرتهم المرأة /الربة من شيء أو اثنين. وأدركوا فيما بعد أن ذلك مجرد أنانية محضة.. أعني من خطر الفتيات وليس الدوامة الهائلة. كان المر المائي، كما

قلت، خطرا. هنالك طريقان اثنان، واحد طويل يلتف حول الجزيرة الكبيرة من جهة الغرب، والآخر قصير يخترق المضيق بين الجانب الشرقي من الجزيرة والبر الرئيسي. بعد مناقشات مستفيضة اختاروا الطريق القصير؛ كانوا يستعجلون الوصول إلى الوطن. وتبعا لعادتها في المبالغة، أعطت المرأة /الربة - وكانت تدعى سورسي - أبعادا إلهية مقدسة لكل شيء، وصورت القنال باعتباره مسكونا بساحرتين تلتهمان الرجال وغير ذلك من مثل هذه الأمور. دعت الأولى كريبديس، والثانية سيلا. الرجال أصابهم الذعر قبل ذلك، لكنهم أصبحوا الآن في حالة أسوأ. تعرفين أن هناك مغاور تحت الماء ودوامات وتيارا ضاريا يغلي فيه الماء. وصلوا في إحدى الأمسيات بعد الغروب بعد رحلة بحرية طويلة. في البداية، فقد رجال اوتيس بعض المجاديف حين حاولوا التجديف عبر المياه الممتدة بين الصخرة وحفرة الموت. حتى اوتيس نفسه تأثر بالجو الغريب بالتأكيد. وقف كالطود حاملا رمحين.. لكن الأمر كله كان سخيفا".

انتظرت؛ ثم:

"لماذا كان سخيفا؟".

"حسنا، في نهاية المطاف، اعتقد، مثل غيره، أن هناك ساحرتين تجلسان على جانبي المضيق وتريدان التهامهم. لكنه كان أشد خطرا بكثير. إذ كان ممرا صعبا إلى حد لا يصدق. عبروه. اعتقد هو وعدد من رجاله أنهم شاهدوا الساحرتين. فقد اثني عشر رجلا.. بلغت الدوامات وعصف الرياح حدا من العنف قذف بهم إلى خارج السفينة، كأنما يد خفية اقتلعتهم من على متنها".

فجأة أصبح واعيا بحقيقة قصته؛ صعب عليه التحدث بنبرة خفيفة. الرجال كانوا في الماء، يصرخون؛ ثم جرفهم التيار، بعضهم أتى من مسقط رأسه، وغيرهم من منطقة أرغوليس التي أتى منها أغاممنون.. منتصرون في حرب عظمى في طريق عودتهم إلى الوطن، حاملين في ركابهم زهوهم وخيلاءهم وشهرتهم، غرقوا كأنهم نكرات عديمة القيمة؛ فقدوا توازنهم وسقطوا، أو جرفتهم المياه من على ظهر السفينة، ولم يجدوا ما يكفي من وقت إلا للصراخ قبل الغرق. مرة أخرى حاول أن يغمض عينيه ليحجب الصور، لكنها عادت مرارا وتكرارا. وفي أعماقه، في كينونته الجوانية، قبعت صورة أخرى، اسم آخر: استياناكس.

قالت: "وماذا حدث بعد ذلك؟".

قال: "نعم؟ بعدئذ؟".

قالت دون رحمة: "أعني، أين ذهبت بعد ذلك؟".

ندمت على الفور.

"أقصد ماذا حدث لـ .. لاوتيس والآخرين بعد ذلك؟".

قال: "حذرتهم، هي التي كانوا يعيشون معها، من شيء آخر، من القطيع".

"القطيع؟".

"أجل، من قطيع هليوس".

سألت، مجدفة على الآلهة: "هل عمل هليوس في الفلاحة؟".

كان الوقت ليلا؛ وما زال هو بعيدا.

قال: "سمته قطيع هليوس. هنالك على الجزيرة داخل المضيق لسان من الأرض داخل في البحر كالخطاف، أجل ككف مشوهة، كبرثن حاد موجه إلى البر. في الداخل، في الخليج الرابض تحت البركان العظيم، كانت تملك، هي أو أقرباؤها، قطيعا. إن لمسته، أصابك النحس، كما قالت، لأن هليوس ذاته يملك القطيع. وبرغم كل شيء لديك كفايتك من الطعام لتعيش دون أن تذبح أبقاره وثيرانه. ولو فعلت ذلك يمكنك تخيل نهايتك: لن تجد سبيلك إلى الوطن أبدا. ووعدوا بأن لا يلمسوا القطيع.

وصلوا إلى أرض هليوس في إحدى الأمسيات حين كان الهواء يزداد برودة. ساعدتهم ريح معتدلة، نسمت من الشمال الغربي طيلة النهار، وبالرغم من أنهم فقدوا عددا من رفاقهم، إلا أنهم كانوا في حالة مزاجية جيدة وهم يبحرون قريبا من الساحل ويشاهدون قطعانا عظيمة من الماشية ويسمعون خوار البقرات وهي في المراعي. كانت الحيوانات من سلالة ممتازة، لونها بني نحاسي ما عدا الأرجل، ثم رأى الرجال أن على جباه معظمها غرة بيضاء، علامة من علامات هليوس. قبل أن يحل الظلام نزلوا على شط الخليج العريض، حيث ظنوا أنهم وصلوا إلى أرض الآلهة الجليلة ذاتها. وكانت نيتهم أن يمضوا الليلة هناك فقط. اوتيس من جانبه فضل الإبحار مباشرة دون توقف، وذلك بالالتفاف حول مقدمة ساحل الأرض الطويل إلى الجنوب ومتابعة الرحلة باتجاه

الشرق عبر البحر للوصول إلى شواطئ موطنه. حين كانوا ينزلون على شط الخليج ذكرهم بوعدهم بعدم لمس قطيع هليوس".

الآن، عاد أخيرا إلى المسار الصحيح: سوف تكون قصة مسلية. اقتربت منه أكثر؛ عادت أصابع يديها لتمس لحيته.

قال: "تزودوا بمؤونة كبيرة. لكن في تلك الليلة لم يتمكن أحدهم، ويدعى يوريلوكوس، واثنان آخران أوثلاثة من النوم؛ شعروا بالأرق والقلق وجالوا على طول لسان الأرض الداخل في البحر ثم اتجهوا نحو الحقول؛ وهناك وجدوا مغارة. عادوا في الصباح يغالبهم النعاس لكن أمارات الرضى والسرور كانت بادية عليهم".

سألت وفمها قريب من أذنه:

هل كانوا يبحثون عن النساء؟".

قال: "سأتطرق إلى هذا. لا أدري مدى علاقة الآلهة الجليلة بالأمر، وهل فكرت ولو للحظة باوتيس ورجاله، لكن على أية حال ساد الهدوء التام في اليوم الأول. وقرروا الانتظار يوما آخر حتى لا يجدفوا في الحر القائظ. صعدوا إلى المغارة وتمددوا داخلها واستمتعوا بالبرودة. قال يوريلوكوس: 'من الممتع أن نبقى هنا قليلا. هنالك كثير من الطعام حولنا'. وأخبرهم صراحة كيف جال هو والآخرون لسان الأرض الداخل في البحر وصعدوا إلى الجزء الرئيس من الجزيرة خلال الليل، وكيف أرعبوا فتاتين، كانتا تحلبان البقرات كما يبدو، حيث ركضتا بسرعة كبيرة ولم يتمكنوا من اغتصابهما. لكن الآلهة كانت رحيمة وسمحت لهم بدلا من ذلك برؤية قطيع من البقرات السمان في الجوار. ذكرهم اوتيس، الذي كان ينوي فعلا الوفاء بوعده، بما تعهدوا به مرة أخرى. لكنهم الآن لم يتمكنوا من أن يعدوا بشيء. وفي كل الأحوال، أنا على الأقل لن ألمس الطعام، كما قال في نفسه".

"والفتاتان؟".

"في المساء ذهب بعض الرجال للبحث عن الفتاتين اللتين تحلبان الأبقار؛ اشتدت الشهوة داخلهم حين تمددوا طيلة النهار دون أي عمل. لكن اختفت الفتاتان. البقرات ظلت هناك ترعى، وحين لمس الرجال ضروعها عرفوا بأنها حلبت. في الصباح بدأت

الريح تهب مجددا، لكنها أتت الآن من الجنوب الشرقي باتجاه الجنوب. سحبوا المركب بقدر ما يستطيعون ونقلوا كل المؤن إلى المغارة. في ذلك المساء كانوا جميعا تقريبا يشتمون رائحة الفتاتين التي تشبثت بالمكان". همست: "وكان عليهم البقاء هناك، في عبق رائحة الفتاتين".

قال: "ظلوا هناك خمسة وثلاثين يوما".

"هل عثروا على الفتاتين؟".

"وعدوا بعدم لمس القطيع، لكنهم لم يقدموا أي وعد يتعلق بالفتاتين. لن أضيف المزيد حول هذا الأمر".

قالت: "تلك قصة مسلية ـ هل تنزه اوتيس في الأماسي والليالي؟ هل عثر على فتاة؟".

قال: "لن أقول المزيد عن هذه المسألة. لا أعرف كافة التفاصيل".

"لكنهم عثروا على فتيات؟".

"قال: "واحد منهم كان في الغابة عثر على فتاة في إحدى الليالي. ثم حدث ما حدث".

"هل كان اوتيس؟".

قال: "لا أريد قول المزيد. برغم كل شيء لم يكونوا من الشيوخ العاجزين، وكانوا في طريق العودة إلى الوطن من الحرب، وذاك الذي عثر عليها توجب عليه إشراك رفاقه بها".

همست: "ما الذي حدث لها بعدئذ؟".

كان صوته خفيضا، وضاع في حفيف الأشجار وهدير الأمواج وهمس النجوم:

"كان الأمر فوق طاقتها".

كره اهتمامها المستمر. فكر: تريد أن تعرف. تريد أن ترى. يجب أن أتابع القصة وتجنب ذلك الجزء منها. ينبغي أن أبتكر شيئا.

قال بصوت خفيض أجش: "في الواقع كانت قصة مسلية تماما".

"مع الفتاة؟".

"خاضوا حربا ثم سافروا. الحكاية بشرية، حدث تاريخي".

"وماذا عن الفتاة الثانية؛ هل أمسكتم بها؟".

قال: "لم يمسكوا بها. ذهبت لكي تحضر المزارع المسؤول عنها، أو الرجل الذي يدير لسان الأرض الشبيه بالخطاف، أو الجزيرةِ الكبرى".

"هل كان يعيش على الجزيرة؟"

فكر: يجب أن أخترع شيئا. الآن ينبغي أن أجد شيئا هزليا.

قال: "إنه هليوس. في الواقع، لم تكذب هي - سورسي - عليهم.. لا يمكن إلا أن يكون هليوس".

تكلم بسرعة، وفقاعات اللعاب تحيط بفمه، التفت كي لا تلاحظها.

"أنا واثق من أنه هليوس. تحولت الريح إلى عاصفة وبقيت في الجنوب؛ توجب عليهم الانتظار، الأمر الذي استنفد مؤونتهم المخزنة. في أحد الأيام، حين كان اوتيس يغط في نومه خرج يوريلوكوس وذبح ثورا. وعندما استيقظ، أدرك بأنهم ضاعوا جميعا".

"ألم يصطادوا السمك؟ ألم يكن لديهم شبكة؟".

"كانوا محاربين وأبطالا؛ لم يكونوا عبيدا؛ لم يأكلوا السمك".

قالت: "لا، هذا صحيح. لم يكونوا من العبيد، كانوا سادة نبلاء من محتد كريم، بشر نبلاء في رحلة نبيلة عائدين من حرب نبيلة. كانوا نبلاء محاربين".

قال: "أجل".

"ألم يقدموا قرابين؟".

"أجل، لكن النبيذ استنفد؛ قدموها بالماء، ولم يستطيعوا تقديم القرابين إلى هليوس من قطيعه. ثم أكلوا وناموا بينما العاصفة تهب. وبين حين وآخر كانوا يخرجون للبحث عن الفتاة الأخرى".

قالت: "لكن على أية حال، كان بمقدورهم الصيد".

"ولم يكونوا في حالة مزاجية مناسبة، ولم يكن هناك كثير من الطرائد لصيدها. وفي النهاية اعتبروا أن الآلهة قد وهبتهم القطيع.. فلم إذن يقنصون الغزلان أو الطيور؟

ثم أتى اليوم الذي انتهى فيه كل ما لديهم من ثيران وأبقار وخراف يمكنهم ذبحها. ثم هدأت العاصفة؛ حسبوا أن بمقدورهم الانطلاق من جديد. وهنا بدأ الجزء الهزلي".

اضطر للتوقف والتفكير بكيفية جعل روايته مسلية، والتوكيد على جانبها الهزلي المحال، الذي يستفز الضحك الشديد من الأعماق.

قال: "يمكنك تخيل كيف بدا الوضع حين غادروا المكان. لم يذبحوا القطيع بالشكل المناسب، بل كانوا يقتلون ثورا ويأكلون أفضل لحمه، ويستولون على خروف ويشوون أفضل أجزائه. لقد قضوا على العديد من الحيوانات؛ لا أعرف العدد بالضبط. وتناثرت جماجمها وجلودها وعظامها في كل مكان ونتنت. هل تعرفين ما حدث حين أحضروا المركب وأوشكوا على ركوبه؟".

توجب عليه أن يتوقف ويفكر بما حدث، ولم تقاطعه:

قال متردداً: "نهضت الجماجم وبدأت بالثغاء والخوار. الجلود رفرفت فوقنا كالطيور الممسوسة، الهياكل العظمية..".

قالت: "فوقنا؟".

قال ببعض الحدة: "أعني: فوق رجال اوتيس. ينبغي ألاّ تقاطعي السرد وقد وصلنا إلى النقطة المهمة".

قالت، ومست بشفتيها أذنه: "لا، لم أكن أقصد ذلك. الهياكل العظمية..؟".

"سارت مترنحة هنا وهناك. لا بد أن المنظر كان هزليا ومروعا. انتقام الآلهة. ذعر الرجال إلى حد أنهم بالوا على أنفسهم قبل أن يتمكنوا من الانطلاق بالمركب ونشر الشراع والخروج من الخليج. على أية حال لم يبتعدوا كثيرا قبل أن تهب عليهم عاصفة أخرى. لم يتمكنوا من الرجوع. اتجهوا شمالا عائدين إلى الدوامة الهائلة، وسيلا وكريبديس. الريح غيرت اتجاهها إلى الغرب، ثم تحطم الصاري، وبقية القصة معروفة. غرق الجميع. كانوا أربعين".

"كلهم؟".

قال: "نجا اوتيس".

قالت: "هذا غريب. اوتيس.. 'لا أحد' نجا؟".

قال: "هنالك بعض الحقيقة في ذلك. لجأ اوتيس، زوس أرسل عليهم برقه الصاعق. حدث هذا في الحفرة الخطرة قبالة سيلا؛ جرفهم الموج كل تلك المسافة. تمكن اوتيس من تدبر أمره؛ طاف متمسكا بالصاري، وحين عبر المضيق جرفه التيار إلى شمال تريناكريا والجزر الصغيرة. ثم هبت الريح من الشرق. وجرفه الموج غربا لمدة تسعة أيام"؟

صمت ونظر إلى السقف. هب نسيم الصباح؛ من الغرب، سرعان ما انتشر الضياء. مد ذراعه ومس وجهها.

قال مرة أخرى: "كاليبسو، كنت سعيدا معك هنا. لن أنساك أبدا.. مهما حدث لي".

لمست هي أيضا وجهه وجسده.

"لسوف أشتاق إليك كثيرا".

اقتربا من بعضهما. وحين داعب الكرى جفنيه في ضوء الفجر أيقظه صوتها الهامس القريب من خده:

"أين ذهب بعدها.. اوتيس الذي جرفه الموج نحو الغرب؟".

حدث نفسه وهو نصف نائم: رويت كل هذا وأنا سعيد بانتهاء القصة. رويتها دون رواية، وسار الأمر على ما يرام.

غمغم: "لا أدري. كيف لي أن أعرف؟".

* *

تهادى الطوف خارجا من الخليج، وبدا هو كأنه رجل في حلم؛ أبحر في الصباح قبل اشتداد حر النهار، وهو ما يزال نعسان. حملت المؤن على الطوف ولم يرتفع الماء نتيجة ثقلها إلا بمقدار أنملة؛ شعر بالأمن والأمان. كان قد ثبت الصاري ودعمه بسناد، ونشر الشراع ثم جلس على مقعد القيادة. ملأت الشراع الرياح الغربية. وحين التف حول لسان الأرض الداخل في البحر، التفت مرة أخرى. ما تزال تقف هناك تحت الجرف؛ تألق ثوبها الأبيض تحت أشعة الشمس وخلفها الصخرة؛ وامتد فوقها واديها الأخضر، مرتقيا باتجاه أطلس، كما بدا له. رفعت ذراعها، واستدارت لترتقيه. بدت لناظريه أنها

تغوص في بحر الخضرة. لوح بذراعيه مرتين أو ثلاثا؛ لربما شاهدته. رفرف الشراع الأحمر السميك؛ ها هي موجة هناك؛ كان البحر يتنفس؛ ارتاح على صدره. ثمة إحساس جديد: متّعه ركوب البحر مرة أخرى. في الساعة الأولى توجه بخط مستقيم نحو هليوس.

- ١٠ -
النسج

حادثة "النسج" وصلت إلى حد الفضيحة. لكن هل هي حادثة؟ كانت عملية طويلة من الناحيتين الجسدية والذهنية، صراعا مستمرا بين رغبة المرأة "المنتظرة" بتأجيل اتخاذ القرار، وتوق ربة البيت والحائكة الماهرة إلى إكمال قطعة فنية جميلة، والتمكن من مد القماش تحت أشعة الشمس وإعطائه بياض هليوس الناصع كما يقال باللغة المنمقة، أو قصره بتعريضه لأشعة الشمس حسب اللغة العادية. تلهفت للمس القماش بيديها والاستمتاع بنوعيته الممتازة واتساق خيوطه الكتانية الناعمة.

حاكت بدأب ونشاط برغم كل شيء. كانت تبدأ العمل قبل الظهر حالما تفرغ من حديث الصباح مع يوريكليا، وتنتهي من تمشيط شعرها وتناول إفطارها الخفيف. تعودت أن تشتغل بدرجات متفاوتة من السرعة حتى يحين موعد الغداء في منتصف النهار، وفي أثناء ذلك تستقبل الزوار فيما يشبه المجلس للاستماع إلى طلبات ووجهات نظر الناس. لم يكن لديها بلاط تعقد فيه اجتماعات رسمية، بل شيء شبيه بذلك، جلسة تستمع فيها للناس. قد تأتي إليها أرقى نساء المدينة، ولا ينحصر غرضهن في الإسهاب حول كم سيستمر الجو الجميل، أو متى ستنتهي موجة الحر، أو كيف بدأ موسم المطر الرائع أو المقيت. أو التساؤل هل سيستمر هذا الطقس الماطر والعاصف فترة أطول؛ ومتى ستتمكن السفن من الإبحار مجددا؟ وهل تتذكر السيدة فصل الخريف قبل اثني عشر عاما؟ قبل أن تنتهي الحرب؟ قبل زمن طويل، كانت جدتي تسمي الخريف فصل المجاعة الكبرى، حين تعرضت ايثاكا لهجوم تجار متوحشين من الجنوب نهبوا كل ما لديها من مؤن. في الواقع أتوا في الصيف. أسروا عبيدا وحرقوا بيوتا. حدث ذلك حين كان ليرتيز ما يزال ملكا؛ كان غائبا آنئذ. لم تطل فترة

غيابه كما حصل لـ"الغائب المبجل"، لكنه لم يكن هناك على أية حال. سافر في تجارة، كما كان يقال حين تذكر القصة أمام الأطفال.

لم تتآلف مع أي واحدة منهن، لكن سمحت لبعضهن بالتكلم بشكل صريح لمجرد أنها عرفتهن منذ لحظة وصولها عروسا من البر الرئيسي. تعودن القول: عزيزتي بينلوبي، أتينا في زيارة قصيرة! لم يأتين لمجرد الثرثرة والحديث عن الطقس، رغم أن كل حديث يبدأ به. أتين من أجل التجارة. أسعدها اللقاء بهن، لأنها تعرفت منهن على ما يجري في البلدة والجزيرة وما يحدث على البر الرئيسي من ناحية، ولأن مثل هذه اللقاءات وفرت لها الجو المناسب لقول ما تريد من ناحية ثانية. الهذر يبدأ حول أمور سطحية: عزيزتي! يا له من ثوب ساحر! أوه، إنه واحد من أثوابي القديمة من السنة الماضية. أحببت القماش دوما. لكن الآن علينا إلقاء نظرة على "النسيج"!

كن ينظرن إليه. الفتيات اللاتي أتين بصحبة أمهاتهن يلكزن بعضهن بعضا ويقهقهن وتتورد خدودهن، أمّا الأمهات فيلقين عليهن نظرات صارمة متجهمة بينما يهززن رؤوسهن ويلمسن القماش و..

"أوه، لقد قطعت شوطا بعيدا! العمل يسير على قدم وساق! لكن من أين حصلت يا صاحبة الفضيلة على مثل هذا الكتان المدهش! لسوف أطلب من زوجي بالتأكيد أن يحضر لي بعضا منه في المرة القادمة التي يذهب فيها إلى أكارنانيا".

قالت بينلوبي: "عثرت يوريكليا عليه بمحض الصدفة".

"أوه، يوريكليا، يوريكليا هذه!".

نظرن إلى القماش، وتحسسن بأصابعهن نسيجه، لتنتهي الزيارة على هذا النحو.

كانت تودعهن بكلمتين أو ثلاث، كأنما من ينطقها ليس من البشر الفانين، بل هي مجرد كلمات محومة هناك في الهواء: التقدم في العمل كان بطيئا. إلا أن الانطباع الذي تتركه الزيارة لا يشير إلى تباطؤ في العمل إلى درجة التآمر والتخريب، بل مجرد توان حتى لا يظن أحد أنها متلهفة لزواج جديد. قالت في نفسها، العمل بطيء إلى حد مناسب، وذلك حين كانت تجلس ذات مرة وحيدة على المقعد الطويل أمام النول.

ومع ذلك، لم تكن متأكدة من أن وتيرة العمل صحيحة على وجه العموم. لقد أسرعت في العمل طيلة سنتين اثنتين. كانت تغزل وتفكر كم الخيط رفيع، ودقيق،

وكيف لا يزداد طول الكفن الموعود، بل يبقى على حاله. لكنها، وهي تحلم، كانت تنسج قطعة كبيرة. وحين تكتشف مبلغ ما بذلته من جهد، والمقدار الذي نسجته دون أن تفكر بضرورة الحياكة بتمهل، تبعد يديها عن النول، وترفعهما إلى وجهها المتورد كوجنات الفتيات اللاتي أتين مع أمهاتهن في الصباح. وبعد ذلك تهمس "الكهلة"، "الملهوفة"، التي "هجرها زوجها" إلى كفيها المكورين:

"أوه، لا! أوه، لا!".

* *

كان انتينوس وزملاؤه من أعضاء اللجنة يقفون أسفل الدرج المفضي إلى مخادع النساء.

قال: "سيدتي، كنا نتساءل عن مدى التقدم في العمل؟ وهل سينجز قريبا؟ موسم جز الصوف بدأ على الجزر الأخرى أيضا، زرع الناس هناك وحصدوا، والعديد من المعجبين بك يا صاحبة الفضيلة يريدون موعدا محددا قبل أن يعودوا إلى ديارهم ومزارعهم. وليس لدينا رغبة نحن أهل ايثاكا في الانتظار طيلة عمرنا. إن قطعة قماش كهذه، كما يقولون - فالكلمات كلماتهم وأنا أكرر ما قالوه بنزاهة وتواضع - تستطيع أية جارية حياكة قطعة قماش كهذه بخلال خمسة عشر يوما إن بذلت الجهد الكافي". ثم أضاف بوقاحة مظهرا أسنانه الرائعة وفمه الأحمر: "أجل، أنقل إليك ما يقال وما يهمس به الناس؛ وهذا لا يمثل رأيي بأية حال".

لم تسأله عن رأيه؛ ردت بالقول:

"أيها السادة، لسوف أعلمكم حين أنجز العمل".

قال: "ونحن راغبون بأن نسمع منك يا سيدتي عن حال المحترم الذي يستحق الرثاء، ليرتيز، لن يستطيع أحد الحصول على ما يكفي من الحقائق، ما يكفي من الحقيقة الصادقة، حين يكون عضوا في لجنة مهمة. لقد قيل إن تلك المرأة الغريبة، يوريكليا، اكتشفت دواء عجيبا لعلاجه في أكارنانيا أو بيلوس. وسيسرنا أن نعلم أنه يمارس الآن نشاطه المعتاد، وأنه تخلص من السعال الذي أصابه".

قالت باقتضاب: "لسوف أعلمكم حين أنجز العمل".

قال بسخرية ظاهرة: "حقا، هذا لطف منك؛ وباعث على الرضى والسرور".

أجابت بصوت ارتجف أمام فتوته الصفيقة: "سيدي لسوف أعلمكم، كما قلت، بكل خبر يسر آذانكم أو لا يسرها كثيرا".

قال: "سيدتي، كل كلمة تخرج من بين أسنانك الساحرة تشبه الموسيقى للسمع، والعسل للذوق".

شعرت بالقلق والاهتياج بعد هذا الحديث بحيث لم تتمكن من حياكة النسيج لمدة طويلة.

* *

وقفت يوريكليا في الغرفة تعاين النسيج ببصرها الحسير. كانت ذاوية وواهنة إلى حد جعل مفاصلها اليابسة تصدر صريرا. انحنت وحدقت إلى شيء ما في القماش.

"حسنا، ما رأيك يا يوريكليا؟".

قالت العجوز: "عيناي ضعيفتان الآن، حالة بصري تسوء باطراد. ولم يعد ثمة إحساس في أناملي".

"كأنك لا تحلمين هذه الأيام، أليس كذلك؟".

ردت العجوز: "لا، توقفت أحلامي. يقال إنه حين تتوقف الأحلام في الليل يقترب العمر من نهايته. إذا أفرغ كيس الذكريات، ولم يعد ثمة اهتمام بالمستقبل. لقد انتهى أمري".

قالت بينلوبي وعلى ثغرها ابتسامة: "يا للهول. أنت في حالة سيئة. إلى مَ تنظرين؟".

قالت العجوز: "إنه خيط. لا أريد الانتقاد، أرجوك لا تظني ذلك؛ ومن انتقد، أنا العجوز البائسة المحرومة من الحكم الحصيف! أنا التي لم أعد أعتمد على عيني أو لمسة أناملي. لكن أعتقد، كما يبدو لي، أنا الحمقاء الغبية، أن هناك خيطا أكثر سماكة من الخيوط الأخرى. أليست غريبةً تلك الأفكار التي تراود المرء في الشيخوخة؟".

وقفت السيدة بجانبها، وانحنت لتعاين السطح الأملس الأبيض المائل إلى الرمادي.

"أين رأيت الخيط؟".

قالت العجوز: "رأيت؟ أنا لا أبصر شيئا، ولا أحس بشيء. لكن ذلك بدا لي، أتى إلي عن طريق المخيلة. أوه، يا مدام! أوه، يا صاحبة الفضيلة، لا بد أنني في طفولتي

الثانية: لا بد أن تطرديني، أو تبيعيني، أو ترسليني إلى الحقول أو الكروم؛ لا يمكنك الاحتفاظ بي في المنزل بعد الآن؛ فعقلي لا يعمل بشكل صحيح!".

"لكن أين رأيت الخيط؟".

أشارت سبابة العجوز المهزولة إلى مكان على القماش المعلق المشدود.

"هناك؛ لكن الأمر مجرد تخيل. اطرديني، دعيني أغسل السلالم، لمَ أحظى أنا، المخلوق المسكين، بثقتك يا صاحبة الفضيلة، ارسليني إلى الميناء لأداء أصعب الأعمال؛ قولي أنا ساحرة شمطاء، دعيني أصبح جارية للعبيد الحقيقيين: الأمر انتهى بالنسبة لي!".

لم تشاهد بينلوبي أي خطأ في النسيج.

قالت: "أجل، أعتقد أنك مصيبة. أحد الخيطان يبدو أكثر سماكة من الأخرى. يمكنك رؤيته بوضوح. حاولي رؤية حلم جيد من أجلي هذه الليلة، احلمي مرة أخرى أيتها العجوز المريضة الضريرة!".

قالت العجوز شاكرة: "أنت طيبة معي كثيرا يا صاحبة الفضل. لسوف أقدم قربانا وأستحضر الحلم بحيث يأتيني".

لم تنسج السيدة، "المماطلة"، "المنتظرة بفارغ الصبر"، مزيدا من القماش في ذلك اليوم. لكنها وقفت أمامه ونظرت إلى سطحه الأبيض الضارب إلى الرمادي، وضربته بيديها: كان ناعما أملس الملمس.

* *

لحظات قوة، لحظات ضعف. وما القوة والضعف؟

هل تغمض عينيك وتقرر ترك القرار للقدر، للصدفة؟ أو أن تطرف بهما وتتخذ القرار بنفسك: هل أظل متشبثة بعناد بهذا السبيل حتى النهاية، حتى لحظة الزواج من رجل جديد؟ وأؤمن بأنه، "الزوج"، "الغائب" سوف يرجع، وأنه لا يرقد في سفينته في غيهب البحر، ولم يصبح طعاما للسمك، ولم يدفن في قبر صخري، تحت قبة من الحجارة في أرض غريبة سكانها من البرابرة، ولم تحوله النيران رمادا تذروه الرياح؟ ما هي لحظات القوة؟ أن تقولي لنفسك: لا، لا أعتقد أنه سيأتي؛ يجب أن أرتب شؤون حياتي، ومستقبلي؟ أو: لسوف يأتي، ولا بد أن أظل الزوجة الوفية؟ ما هي لحظات الضعف؟ كم بقي من حبه، وكم من ذكريات جسده ما زالت تثير جسدي؟ كم أتوق

إليه؟ الشوق الكامن فيّ، الذي يأتي في الليل إلي، أليس مجرد اشتياق لأي رجل؟ أليس من الغريب بعد كل هذه السنين أن أشعر بذلك، أنا التي لا زلت فتية؟

وهكذا يصبح الضعف قوة، والقوة ضعفا.. وما هو السمين والغث تحت هذه السماوات؟

استيقظت في نهار جديد للحياكة. تمددت على السرير وقد أغمضت عينيها وسمعت يوريكليا تدخل إلى غرفتها، عبر الباب الموارب الذي أصدر صريرا خفيفا، ثم تزحف نحو النافذة لتفتح الستائر، التي تعتم، وتعطي الراحة. مشت العجوز بخطوات خفيفة وسريعة، وبدت حركاتها رشيقة وفتية إلى حد مدهش. قرقعت الحلقات الخشبية على عارضة الستارة. فتحت المصاريع، لكن الضوء لم يدخل. فتحت الكهلة عينيها وأغمضتهما من جديد ـ الأسماء أتت مرة أخرى في لحظة اليقظة تلك؛ لربما استحضرتها معها من نومها. كانت القائمة طويلة.

انتينوس، يوريماكوس، امفينوموس .. ما زالوا يقفون جنبا إلى جنب، لكن من السهل أيضا تخيلهم واحدا خلف آخر.

ديموتوليموس، يورياديس، الاتوس، بيساندر.. يوريداماس، أمفيميدون، بوليبوس، تيسيبوس الثري من ساموس، أغيلوس، ليوكريتوس، ليوديس، الخاطب/ الكاهن.

حدثت نفسها: لنفترض أنني أجبرت على الاختيار؟

في النهاية، علي أن أختار. سيكون من واجبي الاختيار.

حسبت أن الأسماء وذهنها قد عملا معا على استحضار الأجساد، والوجوه. فكرت أولا بانتينوس، بحرارة وغضب ورغبة. ثم بامفينوموس، وراودها إحساس بالدفء والتهيج البسيط. وبعد ذلك فورا، أو بعد برهة قصيرة، فكرت بيوريماكوس، وشعرت نحوه بمحبة هادئة. كانت ستقول عنه إنه شخص ممتاز لو ترجمت أفكارها إلى كلمات. شاب جيد وناجح رغم فتوته، ولا بد أن قصته قد انتهت مع إحدى الجواري. وهو أهل للثقة حسبما يراه الناس من طبقتنا الاجتماعية. فكرت بعد ذلك على الفور بانتينوس: لديه أيضا عشيقات. وارتأت لوهلة قصيرة أن الأمر لا يعنيها؛ فمكانتها أرفع من ذلك، ثم ما علاقتها بشؤون انتينوس الخاصة؟ فهو ليس زوجها. ولا يثير إعجابها أبدا، هكذا فكرت وصحت من النوم تماما.

كانت يوريكليا تقف بين النافذة والسرير. حين بدأ القماش يطول ويتدلى بسرعة على الأرض، انتقلت بينلوبي من غرفة النوم الأخرى حيث سرير الزوجية الذي يتكئ على دعامة من خشب الزيتون الراسخة في أرضيتها؛ تمددت في السرير الذي أحضرته معها من البر الرئيسي قبل سنين عديدة. رأت أن اليوم رمادي والسماء ملبدة بالغيوم.

"اقتربي أيتها العجوز! صباح الخير!".

تقدمت المرأة خطوتين. بدت في حالة يرثى لها إلى حد لا يصدق.

"ما خطبك، هل أنت مريضة؟".

"صباح الخير يا سيدتي. في الحقيقة أنا في حالة سيئة. أعتقد فعلا أنني أصبحت غير مسؤولة عن تصرفاتي".

ابتسمت بينلوبي لها وطرفت بعينيها للضوء الرمادي.

قالت بصوت نشيط ومرتاح: "أجل، انتهى أمرك أيتها المسكينة. هل المعدة أم الرأس هذه المرة؟".

التمعت عينا العجوز؛ وتمايل ظهرها الذاوي كأنها فتاة شابة.

قالت بمرح: "أنا أحلم بأشياء مرعبة تجعلني أعتقد بقرب أجلي". النبرة بدت متجهمة ومنكسرة، لكن المرح الفوار كمن تحت سطح الكآبة والقنوط.

قالت بينلوبي: "أعتقد أن علينا قتلك في وقت قريب. لكن لا أدري كيف نأخذ نفس الحياة منك. هل نزوجك؟ ربما إلى المغني فيميوس؛ لسوف يغني لك حتى الموت؟ أو نضحي بك كقربان بشري كما كان يفعل الناس قديما؟ مثل شاة، أو عجلة؟ أخبرني والدي ذات مرة أنه سمع في الأيام الخوالي أن الناس اعتادوا التخلص من الضعفاء والعجزة والمرضى والتعساء، كلما مات شخص رفيع المقام. فهم يجبرون على مرافقته إلى المحرقة أو إلى القبر.. تماما كما فعلوا، حسبما يقال، بأسرى الحرب بعد سقوط طروادة. إلى المحرقة أو القبر كقربان.. ما رأيك!".

ضحكت. وضحكت يوريكليا ضحكة مكبوتة، لكن تعابيرها كانت كئيبة.

"بم حلمت أيتها العجوز؟".

"يا صاحبة الفضيلة، الحلم مريع إلى حد يجعلني لا أجرؤ على البوح به".

قالت بينلوبي وهي تطلق ضحكة جذلى: "حسن إذن، لا حاجة بك لأن تتحدثي عنه".

أطلقت العجوز ضحكة مكبوتة أخرى، ونظرت إليها عبر جفنيها المتقاربين. في تلك الساعة المبكرة من النهار، ما تزال بينلوبي تبدو فتية وبارعة الجمال: لم تظهر عليها بعد أمارات الهرم والكبر.

قالت العجوز: "ومع ذلك، أشعر بأنني مجبرة على البوح به. في سالف الزمان، على أيام البرابرة، قبل أن يعرف الناس ما نعرفه الآن بزمن طويل، كان هناك نظام حقيقي للعبودية.. حيث يمتلك سيد المنزل كل شيء، كل شيء مهما صغر داخل/ أو على عبيده. كان يمتلك كل الأفكار التي يفكر فيها كل من في بيته.

النفس الذي يتنفسه عبيده؛ التذوق في ألسنتهم، دموعهم وضحكهم. في هذه الأيام، لا يملك السيد إلا أجسادهم؛ هنالك حرية عظيمة في عالم اليوم. وهذا أمر لا يناسب ميولي من عدة نواح".

استندت "الكهلة" على مرفقها، وأزاحت خصلة من الشعر البني عن جبهتها، ونظرت بعينين نصف مغمضتين إلى ثدييها المكورين، والانحناء اللطيف حول فخذها تحت الغطاء الرقيق، وتركت يوريكليا تقف وسط الغرفة تنتظر. ولم تكن العجوز في عجلة من أمرها: التزمت الصمت.

"ما الذي تعتبرينه حرية عظيمة إذن يا يوريكليا؟".

قالت العجوز وهي تنحني إلى حد الركوع: "لست سياسية، ولا أشغل نفسي بهذه الأمور. لكن أعتبر أن سيد (أو سيدة) البيت له الحق بمعرفة كافة الأحلام التي تأتي إلى أهله في الليل أو النهار. فبرغم كل شيء، الأحلام أتت إلى البيت. وإذا ما دخلت إلى جارية مسكينة حدث وكانت مستلقية في طريقها، أو تعثرت بها إذا جاز التعبير، فهذا لا يغير في الأمر شيئا. أي أنه لا يجعل الحلم ملكا للعبد؛ إنه حلم البيت. ومن يملك البيت؟ العبد أم السيد؟ إذا أحضرت جرة من الخمر من البلدة أو خروفاً مذبوحاً من الحقول، ووضعا في القاعة الكبرى أو الباحة الخارجية.. فهل يذهب العبيد أو الخدم إليهما ليشربوا ويأكلوا؟ ألا يقولون بدلا من ذلك: ها قد أتى شيء للسيد؟ من الأفضل أن نحمله له أو نضعه في الهري، كي لا يفسد تحت أشعة الشمس أو زخات المطر؟".

قالت بينلوبي، "المالكة": "أجل، هنالك بعض المنطق في كلامك. أنت محقة تماما. أعطني حلمك الذي أتاك الليلة الماضية، لأن ملكيته تعود لي؛ هيا، أخرجي أحلام

البيت؛ لا تحاولي اختلاسها". ضحكت مجددا وهزت رأسها لتبعد خصلة من الشعر عن جبينها - لم تنزل أية خصلة عليه، لكنها حركت رأسها إلى الخلف برغم ذلك.

قالت العجوز بنبرة فخيمة: "أعتبر أن من واجبي إبلاغ فضيلتك بحلمي". التمعت عيناها وأنعمت النظر؛ كانت مترعة بالمرح. أضافت: "وبأسرع وقت ممكن، قبل أن يفسد ويتفسخ. لكنه مروع ولا ينبغي سماعه قبل الفطور؛ ألا تأكلين شيئا قبل البدء يا صاحبة الفضيلة؟".

سألت الكهلة متعجبة: "آكل! هنا في السرير! كي أزداد بدانة وتبلدا!". وأضافت بصوت شديد القسوة: "أنت حقا شريرة غريبة الأطوار، شخصية ماكرة، مخادعة، أنت أسوأ عدو لي!". لكنها لم تتمكن من الحفاظ على نبرتها، وارتسمت ضحكة على شفتيها. "أعتقد أن علينا أن نفتح جسدك ونزيل كافة أحلامك، بغض النظر إذا ما كانت كامنةً في معدتك أو قلبك أو.. لكنها بالطبع رابضة في جمجمتك. لسوف آمر بقطع رأسك بعد ظهر هذا اليوم للبحث عنها؛ وسنعطي المهمة - باعتبارها مهمّةً إضافية - إلى ميلانثيوس، المسؤول عن قطيع الماعز، الرجل الذي نحبه كثيرا، ونعجب به أنا وأنت إلى حد هائل، يتعذر قياسه! ولسوف يفعل بالضبط ما اعتاد فعله البرابرة في الجنوب أو على الطرف الآخر من البحر العظيم في أقاصي الشرق؛ سيحضر رأسك على طبق وسأقوم أنا..".

لكن غلبها الضحك، فأطلقت ضحكة رائعة.

"يوريكليا، أيتها العجوز المأفونة، خبريني الآن عن حلمك. أعطني حلمك وإلا.. وإلا لن استمع لك؛ هيا، لا تكوني غبية، بم حلمت!".

قالت العجوز: "إنه مرعب. في العصور السالفة كانوا سيحرقونني حية - وأنا أستحق ذلك - إن تجرأت على الحلم بمثل هذا الشيء. وأنا لا أجرؤ على الكلام عنه إلا لأنني أعتبرك يا صاحبة الفضيلة تملكين كل أحلام سكان هذا البيت. أنا بريئة ولست سوى أداة عقابية؛ فإله الأحلام لم يرغب بالطبع بإزعاج السيدة في الليلة الفائتة بمثل هذا الحلم الصفيق الغبي. رأيت فيما يرى النائم.. لا، لا أجرؤ على البوح به".

جلست بينلوبي على حافة السرير وتركت ساقيها البيضاوين "الكهلتين"، وإن حافظت على جمالهما، تتدليان.

"حسنا؟".

جمعت العجوز شتات نفسها. كان هنالك كثير من "التمثيل" في خوفها، إلا أن جزءا منه كان حقيقيا.

"حلمت أن السيدة لا تستطيع الحياكة".

همست الكلمة الأخيرة وأدارت وجهها، لتحني عنقها النحيلة المجعدة نحو الأرض.

"لا أستطيع الحياكة!".

السيدة، "الحائكة"، الخبيرة المتمرسة بالكتان، أعظم سيدات منطقة الجزيرة تلك، التي غدت كهلة الآن، انحنت إلى الأمام بحركة مفاجئة عنيفة. ثم تخضب ببطء لون وجهها الأبيض الذي اعتنت ببشرته كثيرا. تصاعد الغضب من الحجاب الحاجز، إلى الثديين والصدر، إلى العنق ثم الوجه، مما جعل الفم صلبا، ورفع الحاجبين، وغضن الجبين. لربما شعرت العجوز بالخشية بشكل جدي، بل خافت فعلا؛ ثم أظهرت رعبا شديدا. رفعت يديها المعروقتين، المرتعشتين قليلا، إلى وجهها الذاوي لتتجنب اللطمة التي لم تأت. ران صمت مطبق على الغرفة، أجل، البيت كله حبس أنفاسه إلى حد جعل سكانه يسمعون ثغاء الخراف والماعز في الحقول، وكيف كان البحر يرسل موجة إلى خليج البلدة أسفل التل، لكنه أوقفها فجأة وأنصت.

سقط وعاء معدني من يد إحدى الجواري وقعقع على الألواح الحجرية التي رصف بها مدخل منطقة المطبخ. استعادت البلدة حركتها الصباحية الاعتيادية. الأمواج المتوقفة عادت لتضرب الشاطئ، وتترقرق على الحصى والرمل، وحول الصخور. صرّ السرير حين غيرت السيدة مكانها عليه. تراجعت موجة الدماء الحارة التي خضبت وجهها. تحررت "الكهلة" من قسوة غضبها.

"أيتها العجوز الحمقاء!".

علا لهاث العجوز السريع إلى حد جعله يبدو نواحاً؛ توقفت يداها عن الارتعاش، ولاحت عيناها براقتين وهي تحدق من خلفهما.

قالت بينلوبي: "يا كومة العظام البالية!"، كانت نبرتها ودية، لكن الصوت لم يصبح واضحا بعد: "هل تحاولين خداعي في هذا الوقت المبكر من الصباح؟ خبريني عن حلمك الآن، لكن أسرعي فقد بدأت أشعر بالجوع".

قالت يوريكليا، المشهورة المخلصة، العجوز الذكية المغامرة: "صاحبة الفضيلة، لم

يكن في الواقع سوى منام سخيف، لكن نظرا لرغبتك بسماعه من شفتي المرتعشتين الذاويتين، فهو كالتالي: حلمت أنني أقف بجانب القماش المنسوج. لم أستطع رؤية شيء بعيني التعستين، لكنني لمست النسيج. ثم حسبت، أنا الحمقاء الغبية، الغراب العجوز الناعب، أن النسيج خشن يفتقد الملاسة. قلت لنفسي إن ذلك خطأ، وإنني حين أرى من جديد فسأعرف أنه ناعم أملس متناسق إلى أقصى حد. ثم غير هليوس ضوءه، لا أدري كيف، وأصبحت عيناي التعستين حادتي البصر. تمكنت من رؤية النسيج. لكن - وسامحيني على حلمي السخيف! - ظل النسيج خشن الملمس يفتقد النعومة. أعني أنه لم يكن كذلك، لكن تخيلت في الحلم أنني لمست ورأيت أنه خشن، يفتقد الجودة في الحقيقة. لكن لا تظني أن القماش كله كان على هذا النحو، إذ لم يجرؤ الحلم على أن يكون بهذه الصفاقة؛ مجرد قطعة صغيرة منه؛ قدم واحد من القماش كان خشنا، أو قدمان على الأكثر، قدمان ونصف إن أردت الصدق".

قالت بينلوبي "الحائكة"، "هذا حلم وقح إلى حد استثنائي في الحقيقة!". وبالرغم من الابتسامة التي علت شفتيها إلا أن هناك نبرة توبيخ في صوتها. أضافت: "ليست خطيئتك أن يكون الحلم صفيقا إلى هذه الدرجة، لكن لا أستطيع منع نفسي من اعتباره كذلك. ما الذي فعلته بعدئذ، هل فكرت بذلك يا يوريكليا؟".

تساءلت العجوز ساخطة متعجبة: "فكرت؟ كيف أفكر أنا بعقلي الناقص؟ لا، كنت ضحية الحلم؛ تعرضت للهجوم، أجل، أجرؤ على القول إنني اغتصبت بالحلم".

هنا، ضحكت السيدة من أعماقها وغدا صوتها واضحا صافيا كرة أخرى.

"أجل، لقد فض بكارتك يا فتاتي. للحلم ذوق جيد! خبريني الآن، ماذا حدث بعد ذلك؟".

نظرت يوريكليا إلى قدميها العاريتين؛ أحست بالإساءة والإحراج في آن:

"قلت لنفسي إنه مجرد حلم. أتذكر أنني فكرت: أتاني هذا الحلم ليثير غضبي وتعاستي. أعرف جيدا أنه ليس ثمة خطأ في النسيج؛ أنا متأكدة من ذلك تماما؛ ذاك أحد الأشياء القليلة التي أعرفها فعلا بذكائي المحدود وقلبي الواهن، لكن ما أزال أعتقد بأن قدما من الكفن - أو اثنين على الأكثر، أو ما لا يزيد عن قدمين ونصف إن أردت الصدق - كان خشن الملمس. سوف يبدو الكفن مميزا في فرادته حين ينجز، حسبما حدثت نفسي في الحلم. أعني حلمت بأنني قلت ذلك".

"وماذا حدث بعدئذ؟".

قالت العجوز: "وقفت هناك وفكرت مليا. أعرف بأنني لا أستطيع التفكير، لكن بدا لي في الحلم أنني قادرة على ذلك. حسبت أنني فكرت قائلة في المنام طبعا: عمل ممتاز تعرض للتلف". أبقت عينيها مسمرتين على الأرض.

سألت "الحائكة الماهرة": "وماذا بعدها؟".

بحثت قدماها البديعتان عن الخفين. نهضت من السرير، وبدأ النهار بالنسبة لها. كان وجهها هادئا متألقا نسبيا. تقدمت يوريكليا خطوتين سريعتين إلى الأمام، وانحنت بحركة رشيقة سلسة، بل جميلة محببة، ووضعت الخفين الجلديين الحوراوين في قدمي سيدتها. وقالت لها وهي في تلك الوضعية القريبة من الركوع:

"حلمت بأنني يا صاحبة الفضيلة، أنني أنا السيدة. إلى هذه الدرجة من الوقاحة والصفاقة يمكن للحلم أن يصل لو أراد. كان حلما مجنونا. جعلني أرى أنني جالسة على النول لأبدأ في جذب الخيوط الخشنة، أعني الخيوط التي جعلها الحلم - كذبا وزورا - خشنة سميكة، خيطان الحلم الكاذب، المجنون، الصفيق. وبيدي العاجزتين الراجفتين أفسدت العمل الرائع، وأذكر بوضوح أنني فكرت: ها أنا ذا أجلس هنا وأمزق هذا القماش الذي يجب إنجاز حياكته بسرعة ربما. وهذا ما سيؤخر العمل كثيرا، لكن لا مفر منه. ذلك ما حسبت أنني حلمت بأنني فكرت".

سألت بينلوبي وهي تنظر باهتمام جديد إلى العجوز "نصف الجارية" - التي تشغل "منصب" وزير الداخلية: "ما هو شعورك حين أصبحت.. بينلوبي؟".

قالت العجوز بطريقة جافة: "رائع إلى حد ينأى عن الوصف".

نهضت العجوز وهي تتنهد، كأنما أسأمها المشهد الطويل، وأكلّها الدور التمثيلي المجهد. تغير الضوء في الغرفة؛ في أعالي السماء، اندفعت السحب باتجاه مركبة الشمس، كثيفة حينا، خفيفة أحيانا، وبانت فجوات كبيرة بين حشودها في أحيان أخرى. كان زوس يتلمس طريقه ذاهلا نحو الخليقة. أما هليوس فقد حاول تجنب سحابه، وزاد سرعته، واستطاع في أغلب الأحوال أن يسبقه، فهو الصياد والطريدة.

قالت يوريكليا، العجوز الشهيرة: "مزقت النسيج. أذكر أنني حلمت بأن الوقت كان ليلا، وأن أحدهم حمل مشعلا لينير لي المكان، وأذكر أنني كنت خجلة قليلا، رغم أنه كان

شعورا رائعا بالخجل، لا ذلك الإحساس البسيط الوضيع بالخجل الذي يسيطر على الجارية، بل إحساس سام خليق بالسيدة الجليلة التي حسبت أنني كنتها. أتذكر أنني حلمت بأنني فكرت بأنني لم أكن أريد أن يعرف أحد بأن القماش الذي نسجته - أعني القماش الجليل الذي نسجته أنت يا صاحبة الفضيلة، القماش الذي تجرأ حلمي الهذياني الوضيع على الحط من قيمته بهذه الصورة المريعة! - لم أكن أريد لأحد أن يعرف بأنني فكرت بأنني نسجته ببعض الخيوط السميكة. حلمت أن من المرعب إطالة مدة العمل، لكن علي القيام بذلك. لم أكن لأستطيع - كما حلمت بأنني فكرت! - الجلوس وحل الخيوط خلال النهار حين يأتي الناس لإلقاء نظرة على القماش، لا، توجب علي العمل في الليل؛ حلمت بأنني فكرت كما يلي: لا يمكنني أن أنكث بوعدي وأوقف النسج؛ لقد وعدت بحياكة كفن لليرتيز، ووعدت بأن أرد على..هَمْ مْ مْ.. الخاطبين المتوسلين لاختيار واحد من بينهم حين أنجز العمل على القماش - إذا لم يرجع "الغائب الجليل" قبل ذلك. لكن إن تبين أن النسيج سيئ وخشن ويفتقد الملاسة، فأنا مضطرة طبعا لحل خيوطه لتحسين نوعيته، وجعله كفنا حريا بليرتيز المحترم المبجل. وإذا ما نسجت آنئذ قدرا صغيرا من القماش كل يوم، فلسوف أحافظ على الوعد الذي قطعته على أية حال، وبرغم كل شيء، فإن الهدف هو جعل النسيج برمته ناعما بديعا. لسوف أحافظ على عهدي، هكذا حلمت بأنني فكرت، لكن في الليل علي حل الخيوط وإعادة النسيج، وإلا سيفسد القماش وعندها سأخلف وعدي. هذا ما حلمت بأنني فكرت فيه، وكان حلما مريعا!".

نهضت السيدة، "الحائكة"، وسارت عبر الغرفة، ووقع خفيها مسموع؛ تجاوزت العجوز ووقفت أمام النافذة حيث رقة الصباح، والضياء. أمارات الصبا اختفت من وجهها؛ كانت حذرة متيقظة، كهلة غلبها التردد ربما.

في الخارج كانت أمور البيت تسير كالمعتاد. وفي الحقيقة، بدأت قبلا مع تجهيز الحيوانات للذبح واستعداد العبيد الذين يتولون ذبحها. وفي أسفل التل، استلقت البلدة والميناء تحت الضياء الملتبس المتقلب، بلدة تنهض من جديد على خليج في مضيق ساموس - وخلف ساموس الصخرية امتد البحر اللانهائي وعلى صفحته يغادر رجال ومراكب، ويعود - ربما ؟ - رجال ومراكب.

قالت دون أن تلتفت: "هذا حلم غريب إلى حد بعيد".

أضافت بنبرة لاذعة، بل غاضبة تقريبا:

"تلك فكرة في منتهى الغباء أيتها الذئبة العجوز! اذهبي عني الآن. ولا أريد تسريح شعري أيضا. لسوف أرسل أحدا إن احتجت لمساعدة".

في تلك الأمسية بالذات أرسلت في طلب يوريكليا.

قالت: "تفحصت القماش اليوم، ووجدت قطعة صغيرة لم أرض عنها، مجرد قدمين، لا، ربما ثلاثة، ربما بين اثنين وثلاثة. وخطرت لي فكرة. تعالي إلي في غرفتي الليلة عندما ينام الجميع، واحضري معك بعضا من خشب المشاعل".

في تلك الليلة، حضرت يوريكليا العجوز الشهيرة.

* *

من الطبيعي أن يعرفوا بالأمر. حدث ذلك في السنة الثالثة من النسج. الراوي الذي أعاد سرد الحكاية في الأيام اللاحقة، مال للاعتقاد، وهو يرزح تحت حمل قصته، وبالتالي رآها إلى حد ما من الأسفل، بأنهم عرفوا بالأمر قبل ذلك، وحزروا العلاقة السببية. ويمكن الافتراض بالتأكيد أن يوريماكوس، الذي لم يكن أحمق، والذي سمع تلميحا زاد من حدة بصره الثاقب، والذي لم يعد يحسد انتينوس على ردفي ابنه دوليوس المياسين، كان أول من اكتشف الأمر من بين الخاطبين والمتنافسين. ويمكن للمرء أن يخمن أن ميلانثو همست بالأمر إليه أو إلى شقيقها المسؤول عن قطيع الماعز، ميلانثيوس، ثم وصل الخبر إلى انتينوس أو امفينوموس. كما يمكن الافتراض بأن لديهم سببا وجيها للسماح لـ"الزوجة" بالمماطلة والتسويف: العديد من الخاطبين سئموا من تتالي السنين، رغم أنها حفلت بأطايب العسل، والخمر المعتق، والطعام من مطبخ ممتاز، وصحبة ممتعة. المنافسة على طلب يد الزوجة ومشاركتها السرير يمكن أن تخف حدتها كما هو متوقع مع ازدياد طول المدة التي يستغرقها النسج. دعونا نفترض أن نسبة كبيرة من المتنافسين العنيدين والخاطبين الذين لم يشعروا بحب عميق نحو بينلوبي، لم يرغبوا بالتعجيل في إنجاز العمل، بل رغبوا، على العكس، في التطفل على موائدها لأطول فترة ممكنة قبل الزواج من نساء أخريات. دعونا لنفترض أيضا أن العديد من النبلاء والأبطال كانوا يخشون في السر من عودة "الزوج" "الغائب". أجل، لنضع مثل هذه الافتراضات وسنكون حتما على المسار الصحيح، لأننا سنتمكن عندئذ،

بالحدس، من معرفة السبب الذي جعل تباطؤ العمل على القماش لا يثير كثيراً من اللغط والاعتراضات، وذلك بغض النظر عن الإشارات والتلميحات الساخرة.

سمع الابن بالأمر وهو جالس إلى المائدة في مقعد "الزوج" وشعر بالانقباض. والدتك، "المدام"، "صاحبة الفضيلة"، أمك الذكية.. إلخ، يبدو أنها هرمت وتصلبت أصابعها. ماذا؟ ربما انشغلت بالتفكير بالزوج بحيث نسيت إدخال الخيط؟ العبارة أثارتهم: انفجرت عاصفة من الضحك رددت صداها الجدران، والتفت على الأعمدة، وحومت نحو السقف، واندفعت من الأبواب. أو: "المبجلة"، "المتحمسة"، كانت في عجلة من أمرها بحيث نسيت الخيط؟

عرفوا بالأمر تماما. من المستحيل أن تخدع الخاطبين لمدة تزيد عن العامين - لربما تنطلي الخدعة على أشدهم غباء، لكن ليس على غالبيتهم. من المحال أيضا أن تتمكن من خداع السيدات النبيلات اللاتي زرنها، أو جواريها وخادماتها. هؤلاء يعرفن كل شيء عن الحياكة. يعرفن أن خمسمائة خيط تزيد طول القماش بمقدار إصبع، من البرجمة إلى الأنملة؛ وأن في السداة حوالي مائة وستين خيطا ليزيد الطول بمقدار إصبع. وبإمكان الحائكة الأمينة والمهتمة أن تنسج بكل ارتياح ثلاث أصابع من القماش في اليوم. أما عرض القماش فيمكن تقديره بحوالي عشرين إصبعا، أي ست عشرة بوصة بلغة أيامنا هذه؛ الكفن إما قصد منه أن يلف جثمان ليرتيز حين يجتاز مرحلة حياته هذه، ولربما بضع مراحل لاحقة، من الصحة والعافية والقوة ليشرع في الرحلة إلى مثوى الأموات، أو يمكن خياطة طولين أو ثلاثة منه معا لصنع كفن عريض. وإذا نسجت الحائكة ثلاث أصابع في اليوم لمدة ثلاثمائة يوم في السنة، فلابد أنها أنجزت في عامين ألفا وثمانمائة إصبع، وهذا يعادل في حساب الخلف المعجب بإنجازات السلف حوالي ست وسبعين ياردة. وبالتالي كانت قادرة على حياكة عدد يتراوح بين خمسة عشر وثمانية عشر، بل حتى عشرين كفنا لليرتيز في السنة الأولى من العمل فقط. ولا يمكن للرواي، خادم الأحداث، إلا أن يقول: ما الذي فكرت فيه السيدات اللاتي زرن بينلوبي؟.

شاهدنها تحيك القماش، ورأين الخيوط الناعمة تزحف إلى السداة وتبقى في القماش المعلق؛ لكن لفة القماش المنسوج على العارضة لا تكبر بالقدر الكافي. خلال موسم الجفاف، في قيظ الصيف، وذرت الرياح الهائمة الغبار عبر النافذة المفتوحة؛

خلال فصل المطر، وفترات الضغط المنخفض، توضع السخام الأسود القادم من المطابخ والقاعة الكبرى على القماش، الذي زاد سوادا باطراد مع تباطؤ العمل فيه.

في البلدة كان الناس يتهامسون منذ مدة طويلة:

"لا بد أنها تفك الخيوط وتعيد نسجها!".

**

كانت تعيد النسج. هنالك تفسير وحيد يمكن الدفاع به عن ذلك أخلاقيا، واستخدمه أساتذة المدارس في أثينا في السنوات اللاحقة وفي غيرها من المدن فيما بعد: أرادت المماطلة والتسويف. لكن ذاك الذي يخمن الدوافع، ويضع الافتراضات، الباحث اللاحق عن البواعث، يمكنه أن يؤكد أن ذلك لا يمثل الحقيقة كاملة. من الواضح أنها رغبت بالمماطلة. في جزء منها كانت "المماطلة المسوفة"، "المناضلة المخلصة". أصغت إلى صوت جواني، شيطان، للحصول على الأمن والأمان؛ لكن ذاك الصوت الجواني شابه بصورة مذهلة صوت يوريكليا. إذ لم تقل لها صراحة: أعيدي حياكة القماش! عليك أن تحيكي الخيوط في النهار وتفكيها في الليل، وستبقين محافظة على وعدك: لسوف تحيكين! لم تعدي بأن توقفي حل الخيوط. وعدت بحياكة القماش وأنت تفعلين ذلك. أنت لا تكذبين، أنت تمارسين السياسة . كل هذا جزء من مهنتك، من حقوقك كحاكمة، كسيدة. أنت لا تنكصين عن وعدك بالحياكة، لكن تفكين الخيوط لأن ذلك لا يتعارض مع التزاماتك. لم تقل يوريكليا: توقفي عن العمل وحاولي تخريب القماش. بل قالت: أظن أن هناك بعض الخيوط السميكة. سامحيني على وقاحتي، وعلى بصري الضعيف! أجابت "الحائكة" بأنها هي نفسها قد فكرت بأن القماش يفتقد النعومة والملاسة. ومن حقها أن تفكر بذلك. لم تكن واثقة تماما، لكن من أجل التأكد حلت الخيوط، لكي يحصل ليرتيز على كفن جيد وناعم الملمس. وبوصفها "كنة" أمكنها القول:

ألا يستحق كفنا من أجود الأنواع؟ وهو الذي كان ذات مرة الرجل الأول في ايثاكا!

في الليل، وقفت الاثنتان هناك لحل خيوط القماش. وعلى وجه بينلوبي، "الحائكة الناعسة"، تعبير حزين: كانت تحل جزءا من مستقبلها، من سعادتها ربما، من أمانها الآتي في كنف زوج جديد. يمكن تفسير الموقف على هذا النحو.

لكن يوريكليا، العجوز المشهورة المتواضعة، ابتسمت تحت الضوء المتراقص

للمشاعل الداخنة. لم تحل "الحائكة" خيطان القماش كل ليلة، بل بين حينٍ وآخر. النسيج ازداد طولا دون شك، لكن ببطء وتمهل.

كما قلنا آنفا، لم يفضحوا أمرها إلا في السنة الثالثة من بدء العمل.

* *

في صبيحة أحد الأيام، ظهرت اللجنة عند أسفل السلم المفضي إلى مخادع النساء. ونزلت بينلوبي حتى منتصف درجاته لمقابلة أعضائها.

قال انتينوس بعد أن انحنى هو ورفيقاه: "أيتها السيدة، يا صاحبة الفضيلة، الحائكة الممتازة، نحن لا نشكك بنيتك الصادقة، لكن اجتمع رأي زملائنا على توكيلنا بمهمة إلقاء سؤال عند قدميك. يمكنك يا صاحبة الفضيلة المتألقة أن ترفضي سؤالنا بازدراء، لكنه بصيغته الأولية يسير على هذا النحو: هل تعلمين يا سيدتي أن الناس في البلدة يؤكدون على أن المغزل يعمل بصورة معكوسة في الليل؟".

ردت بصدق: "لم أسمع هذا من أحد أبدا يا سيدي".

قال انتينوس وهو ينحني مرة أخرى مع يوريماكوس وامفينوموس حتى كادت رؤوسهم تلامس الأرض: "لدينا صلاة متواضعة نؤديها أمامك يا صاحبة السمو"؛ كان هناك بعض السخرية، بل حتى التهكم في انحناءاتهم.

أجابت: "أنا مصغية".

"نظرا لأن صحة المبجل ليرتيز تتحسن على ما يبدو بصورة مرضية وغير عادية، ولأن الكفن المنسوج من أجله، الذي لا بد أنه طويل، رغم أن طوله لا يكفي، يستبعد أن يحتاجه خلال السنوات القليلة القادمة، قررنا أن نتوسل إلى فضيلتك أن تدخري قوتك، وألا تضيعي جمالك النسوي المتألق بالحياكة، بل أن تختاري بدلا من ذلك زوجا من بيننا".

أجابت بأنف: "وعدت بأن أنسج الكفن أولا. واعتدت أن أحافظ على وعودي".

قال وهو ينحني للمرة الثالثة: "ليس لدينا أي شك بذلك. نحن نرغب فقط بأن نحررك يا صاحبة السمو من المهمة المجهدة".

أجابت: "أنا زوجة ابن ليرتيز".

قال انتينوس: "إنه كريم المحتد؛ ولربما يعيش إلى الأبد. إنها رغبتنا الملحة ألا نشغل يديك السماويتين بمثل هذه الأشياء، لأنك يا صاحبة السمو سوف تختارين زوجا منا قريبا".

" أجابت لقد أعطيت وعدا، وأنوي الوفاء به".

قال وعلى وجهه تكشيرة متهكمة ساخرة: "نعرف، نعرف. ولا أحد يشك في ذلك. نحن جميعا نثق بالسيدة. لكننا نشعر بالقلق من أن يرهق العمل المضني ذهنك يا صاحبة الفضيلة. وتحدثنا في الموضوع مع والدك الجدير بالاحترام، ايكاريوس".

فهمت آنئذ.. أووه، لا، أدركت منذ مدة طويلة.. أنهم اكتشفوا أمرها، وأنهم ساعدوا على القبض عليها متلبسة.

أدارت لهم ظهرها وتراجعت ثلاث أو أربع خطوات على السلم. كانوا من ذوي التنشئة الحسنة ولم يعتبروا ذلك بوصفه أمرا بالانصراف، بل وقفوا منتظرين. لربما استمتعوا بالمشهد، الذي كان في بعض النواحي من صنع أيديهم، فهم الذين أوجدوه وألفوه.

حين التفتت مرة أخرى ونظرت إليهم، انحنوا وأصغوا بانتباه إلى ما ستقوله.

"كم يوما لدي؟".

عرفوا بأنها قد تجبرهم.

أجاب انتينوس: "عشرة، حسب ظننا".

قالت وهي تبتسم: "أنتم ظرفاء، وتتمتعون بروح الدعابة أيها السادة!".

قال انتينوس: "ننتظر جميعا بفارغ الصبر، تكوينا نيران العشق. كم يوما تقترحين يا صاحبة الفضيلة؟".

قالت: "خمسون يوما".

أجاب انتينوس: "عشرون على أبعد تقدير".

قالت: "يمكن أن أخفضها إلى أربعين".

قال انتينوس: "سوف نتجاوز الحدود في مهمتنا ونعطي السيدة مهلة خمسة وعشرين يوما".

أدركت أنها وصلت إلى الحد الفاصل. فإذا أنجز العمل كان بها، هكذا فكرت وشعور مزدوج باليأس - ودعونا نقول - بالبهجة يسيطر عليها.

قالت: "ثلاثون يوما".

انحنوا صامتين وانتظروا حتى ارتقت كل درجات السلم.

وهنا توقف نولها عن العمل.

-١١-

في خضم التيار والريح

كانت الريح غربية؛ التيار أيضا اتجه نحو الشرق. لم يكن يشتكي من الجو. ولكي يبقى في جانب الآلهة الآمن ويظهر لها امتنانه صاح بأعلى صوته:

"لا يمكن للمرء أن يشتكي من الجو".

خلال الساعات القليلة الأولى لم يتحرك كثيرا. جلس مرتاحا في المقعد الصغير وهو يقبض على مجداف التوجيه. أصغى إلى صوت الخرير الأبدي الذي يعبر الطوف، بدءا بلطم الموج على أنف المقدمة المفلطح، مرورا بهمس المياه وارتطامها بالجانبين، وانتهاء بلغوها المهذار مع النصل العريض لمجداف التوجيه. كان قد فكر في البداية بصنع دفة أفضل، وأكثر ثباتا، لكن ذلك سيتطلب وقتا طويلا. كان في عجلة من أمره؛ شيء ما في داخلته استحثه على السرعة، كأنما كل ما حدث خلال السنوات السبع الماضية - القليل الذي حدث - كان يتراكم أمامه. توجب عليه أن يخترقه ليخرج من الطرف الآخر، حيث يعيش البشر الفانون.

قال، وهو يلقي نظرة شزراء على شمس الصباح: "لا يمكن للمرء أن يشتكي من الجو". في وقت لاحق من النهار، أصبحت على يمينه.

قال: "سيكون من المؤسف التشكي من الجو".

البحر كان خاويا. عرف أن لدى الناس سفنا سريعة، ويقومون برحلات طويلة من الجزر في الشمال والجنوب، ومن موانئ على سواحل صخرية وعميقة الخلجان. ولربما ما يزالون يسافرون في رحلاتهم التجارية وغيرها، حتى وإن اقترب الوقت من نهاية موسم الإبحار. عبر المضيق خلفه، ثم اتجه نحو بلاد القصدير والساحل الضبابي، حيث يقع عالم الأطلنطيد وحكايا البحارة. حين التفت، كان لسان الأرض التابع "لها" قد اختفى؛

غاص خلف أفق المياه، لكن انتصبت ورا ء جبال أبيها والسحب تحوط ذراها. امتدت المياه المجهولة أو المنسية أمامه مباشرة، وعلى جانبيه، لكن ما تزال خلفه حزمة ضيقة من الأفكار، والذكريات، امتدت كنسغ شجرة سمع بأنها لم تتصلب أبدا - كخيوط ناعمة، في شبكة عنكبوت قوية. سرعان ما ستتمزق ربما، والحقيقة الواضحة المتعينة لتلك السنوات السبع: الجرف، الوادي، حورية البحر، سوف تغور في الأحلام، بين الأشياء التي لم تحدث. ربضت أمامه حقيقة واقعية أخرى، الحقيقة البازغة، التي ستحدث له ولعالم الفانين الذي يتجه صوبه.

تذكر ذات مرة حين كان المجدفون الأحرار يغيرون أماكنهم في سفينة كان يسافر على متنها، سقط أحدهم في الماء وغرق. ما زال بمقدوره رؤية وجه الرجل. صاح وصرخ، ملأ الماء فيه، ثم صمت وتصلب وغرق قبل أن يتاح لهم الوقت لمساعدته. سيتذكر الاسم بلحظة لو أراد. لم يكن اسما جيدا. الآن هو في عالم الأموات، شبح لا حول له ولا قوة. خطر له أن لديه فعلا عددا كبيرا من المعارف هناك.

عند الظهر أكل بعض اللحم المشوي وشرب عدة جرعات من الماء. هبت الريح بثبات، لتملأ الشراع، وترفرف الظلة التي نشرها فوق رأسه. بقيت ثابتة، غريبة؛ والموج خفيف لا يكاد يلحظه. تهادى الطوف برقة؛ وبين حينٍ وآخر تدفق الماء فوق أخشابه، يلطمها وينثر رذاذه عليها، ويبلل حبال الحاجز. أما العوارض فقد بخرت بفعل حرارة الشمس. اضطجع على مقعد الدفة وحدق إلى قضيب الدفة والشراع؛ بدا مكورا، كبطن رجل مترع بالأمل ومتخم بالطعام؛ نتأ باتجاه المستقبل. ثبت حبال الشراع على المرابط على جانبي المقعد؛ أصدرت السيور الجلدية صريرا، صوتا بعيدا آتيا من الماضي، أصوات صرير أخرى أتت من الثلم المخصص لمجداف التوجيه. غلبه النعاس، واستيقظ جفلا حين التف سير مجداف التوجيه على ذراعه. ظل نصف نائم معظم الوقت. وحين ابتعد هليوس باتجاه الغرب، سحب الظلة قليلا نحو المؤخرة. حومت فوقه النوارس الزاعقة؛ ولسوف تتبعه في طريقها بين الجزر الكبرى والأراضي العديدة. سرب من أسماك التونا عبر المياه أمامه في طريقه إلى الجنوب؛ حدق لمدة طويلة في التماعاتها المتألقة.

* *

قالت: أنا أنتيكليا، أماك.

أجاب برزانة: أعلم يا أمي. صاح صوت في داخله: أمي! لا تذهبي؛ ابقي هنا معي، أشعر بالوحدة في عالم الموت الذي يغمرك!

يجب أن تدعني أشرب من دم القربان يا ابني.

حاول منعها. دفعها فانزلقت مبتعدة كالهواء. أجساد ضبابية احتشدت حوله وحول الحفرة المليئة بدم حيوان القربان؛ كان مطوقا بسحابة من الموتى. وقف في منتصف السحابة ونافح عن بركة الدم الأسود.

قالت السحابة: نحن عطاش.

لكنها كانت دم قربانه، الدم الذي حصل عليه، بحرة سوداء صغيرة من الانتصارات. كان سيد الدم؛ امتلك سلطة على الدم.

قال: لا يسمح بالشرب إلا للمتنبئ. لن يشرب إلا تيريسياس لكي ينطق بالحقيقة.

سأل أحدهم: كيف أتيت إلى هنا؟ هنا عند بوابات مثوى الأموات؟

ما أمكنه القول إنه ميت، ولا حي. كان يحتضر، أو يولد. كان هناك؛ في زيارة إلى الأعراف.

قال للأرواح: لسوف أجيب في وقت آخر حين أكتشف الأمر. الآن، أرغب بمعرفة المستقبل. الآن، أريد معرفة الأشياء التي كانت.

بعد ذلك، أبعد تيريسياس نفسه عن السحابة واتخذ هيئة بشرية. لحية العجوز كانت بشرية؛ وكذلك عيناه الغائرتان ويداه الراعشتان، حين انحنى وعبّ - وسال لعابه.

* *

قطعت مركبة هليوس مسافة بعيدة واقتربت من أفق السماء. الطوف سار في خطه المرسوم. كاد ألاّ يستطيع رؤية الجزر والجبال الساحلية في الجنوب. أكل مرة أخرى، وشرب قليلا من الخمر الممزوج بالماء. وحين اتجه نحو صندوق الطعام في المقدمة، شعر أكثر بحركة الطوف. كان الطوف حدَّه. وحين جلس بكسل، خلي الذهن بعد وجبة طعامه، أتى خاطر إليه: إذا كنت سأصاب بدوار البحر فلا بد أنه أصابني الآن. مرت سنوات عديدة منذ أن ركبت البحر آخر مرة. حاول التفكير بالبحر، بالعمل في البحر؛

تفحص الشراع؛ وسحب حباله، وترك مجداف التوجيه معلقا بسيره الجلدي. حاول أن يعرف هل غيرت الريح اتجاهها. لكنه لم يستطع أن ينأى عن الحلم. فكر: لن أحاول تفسيره. وصاح بأعلى صوته:

"الريح ثابتة. كان الجو ممتازا للإبحار اليوم. رائعا".

اتجه في مساره نحو الجنوب الشرقي، وحين غدت شمس الأصيل على يمينه، أبحر بطريقٍ مائل باتجاه الساحل حيث واجه الريح التي تنسم من البر. لم يكن يريد النزول على البر تلك الليلة، بل في التالية. لألأت قمم الجبال بلون أبيض، ثم اصطبغت بلون أصفر محمر، مثل ذهب بونت أو كريت، ثم عتمها الاحمرار مع غروب هليوس في البحر خلفه بمسافة بعيدة. رفرف الشراع بفعل النسيم الذي هب من البر؛ استدار مجددا باتجاه الشرق، باتجاه العتمة. أضاءت النجوم واحدا تلو آخر، ثم في كوكبات؛ حدق إلى أشكالها المدهشة، مثلما فعل خلال السنين التي قضاها "معها" وحول بتمهل الأشكال الإلهية والحيوانية في القبة السماوية إلى موقعها الصحيح. اختار راعي الشاء، مع النجم اللامع في الطرف المستدق الذي يشير إلى الأسفل، باتجاه البحر. في الأعالي فوقه، لاحت بنات أطلس السبع. أما الدب الأكبر فكان على يساره: سيبقى على هذه الحال طيلة الرحلة. فتح الصندوق وأخرج عباءة صوفية؛ بدأ الجو يبرد الآن، فقد اقترب الليل والفصل خريف. أكل بعض اللحم وشرب عدة جرعات من الخمر.

جلس لعدة ساعات ساكنا جامدا - تقريبا. ارتاحت ذراعه اليسرى على مجداف التوجيه، واليمنى على ركبته. بين حين وآخر كان يمسد الشعر على جبهته ويشد العباءة على صدره ورجليه. ثمة تيار هابط آت من الشراع.

لربما سأصاب بصداع كذاك الذي أصابني في..

كان يقف على السور ويشرف من عل على شوارع طروادة.

في تلك الليلة قتلوا الطفل، استياناكس.

فكر: لا، لم أكن أنا، الحرب هي التي قتلت الطفل، اريز قتلهم جميعا. كنا أسلحة في خدمة الحرب. الحرب استخدمتنا كما شاءت. أمكنها استخدامنا لتحقيق النصر، للهزيمة، للانقضاض واقتحام المدن بالقوة والحيلة، لقتل الأطفال.

رفع وجهه. السماء في مكانها الصحيح. القمر لاح في الجنوب؛ أرسل نوره حزمةً

ذهبية عريضة إلى البحر والأمواج بلون فضي على جرف الشاطئ. عادت الريح لتنسم من الغرب مجددا. فتح فمه ونشق الهواء بعمق؛ التثاؤب ملأ صدره، وزحف إلى أطرافه. مد رجليه. ثمة هدير في أذنيه؛ تعب منهك ضغط على جبينه. استلقى وتساءل لوهلة ماذا يوجد فعلا في الغرب، بعيدا فيما وراء المضيق، في أمصار الغرب، إسبانيا، وبلاد القصدير، بسواحلها الضبابية وبحارها المائجة. وعلى امتداد مسافة أبعد نحو المحيط الفسيح، صوب الشمال، باتجاه ساحل المعارك، ساحل إله الشمال بورياس، الذي لا تسمع عنه إلا في الحكايات الخرافية العتيقة. لن يصل إلى هناك أبدا؛ فهو هرم لا يكفيه ما تبقى له من سنين.

لن أتمكن مطلقا من إخبارهم عن الأشياء التي خبرتها. لن يؤمنوا بصدقها. الحقيقة تتوقف عند حدود طروادة. إلى أن تشاجر أغاممنون ومنيليوس حول العودة إلى الوطن. لكن بعد ذلك لا يصدق شيء. في الوطن؟ لربما أنا نفسي لم أعد موجودا بالنسبة لهم. أجل، رجل رحل وبحثوا عنه وانتظروا أوبته طويلا: هكذا يرونني. لكن لن يصدقوا أنني أعود. فإن أراد أحد أن يخبرهم عن الأشياء التي حدثت، عليه أن يجعلها هزلية ومضحكة ولا تصدق. لو أن بمقدور المرء تجنب رؤية الماضي. كنت "معها" سبع سنين. أسيرا؟ في الحقيقة كنت أسيرا؛ لم أستطع الهرب من هناك؛ ما كانت لتتركني أرحل. هذا ما يمكن للمرء قوله. هذا ما يمكن للمرء أن يقوله لهم. لكن ليس باستطاعته وصف الأمر على هذا النحو: طيلة سبع سنين كنت أسير جسدها، فخذيها، عطرها. تحررت ـ يمكن للمرء أن يقول ذلك. أرادت الآلهة الجليلة مني الرحيل من هناك والعودة، إلى معركة من أجل السلطة السياسية. وما يكمن خلف شهوتي، ما يكمن داخل رأسي، يخبرني بأن من الأفضل والأنفع لي أن أعود إلى أرض الوطن وأصبح سيد ايثاكا مرة أخرى. لو سئلت لأمكنني القول: حررتني الآلهة الجليلة. لكن لا أستطيع القول: أردت البقاء معها. لم أرغب بأن أكون حرا. في الحقيقة الفعلية كان عليها أن تبعدني. لكن بمقدوري أن أقول لهم ما يلي: كنت أسيرا. قبل أن أصل إلى هناك، خبرت أمورا كهذه! يا للمغامرات التي خضتها أيها السادة! من كل الأنواع والأشكال! لكن لا أستطيع القول: كنت في عالم الموت واليأس. ثم أتيت إليها. وجدت معها السعادة. قبل أن آتي إليها كنت في عالم الشقاء وبين يدي الموت، عند تخوم

مثوى الأموات، مع الأرواح والأشباح. أوه، يا لها من مغامرة، حكاية رحال! هكذا سيقولون. يجب أن تخبرنا عنها فعلا! خذ كأسا من النبيذ وابدأ..

* *

حكيم طيبة انفصل عن سحابة الأرواح، واتخذ شكلا، ومشى متثاقلا ثم انحنى فوق بركة الدم. صرّت مفاصله وقرقعت مثل حبال الأشرعة الجافة. شم الرحيق الحليبي، وخمر القربان الحلو، وطحينه المتناثر على الحواف؛ أبعد لحيته الطويلة ولعق من البركة.

تكلم الآن عن المستقبل يا تيريسياس.

قال العجوز: شكرا، الدم طيب شهي.

أجل، كبش أسود ونعجة سوداء. إذا أخبرتني بكل ما سيحدث لي فلسوف أضحي بأفضل بقرة عاقر لدي عندما أعود إلى الوطن ثانية.

إنه دم ممتاز. ما الذي تريد معرفته؟

كل شيء يا حكيم طيبة.

شعر العجوز بالإطراء؛ رجفت لحيته. أصغى بلهف لعبارة "يا حكيم طيبة"، وود لو يلعقها كدم الأضحية.

قال: أجل. أجل. ورفع بوهن وجهه النحيل الشاحب؛ لم تبصر عيناه الغائمتان شيئا، ولم تعكسا سوى الدم والظلال.

أنت في الواقع تعرف كل شيء، أيها الرحال من ايثاكا، أليس كذلك؟

أجل، لكن أريد توكيدا. أريد أن أسمع ما سيحدث بصوتك، الذي هو صوت الآلهة.

أطلق العجوز ضحكة خافتة وهو يتلقى بلهف جملة "الذي هو صوت الآلهة". قال بتواضع: لا تبالغ على هذا النحو. ما الذي تريد توكيده؟ وكيف وصلت إلى هذه الحفرة البائسة خارج حدود الحياة التي تخطر على البال؟

بحث عن تعابير فخيمة متكلفة:

قال: يجب إخبارك بأنها، الربة الجليلة سورسي، التي كنت أنا ورجالي البواسل الأبطال ضيوفا عليها، قد أرسلتنا إلى تخوم مثوى الأموات، قد أحضرتنا إلى هنا

قريبا من مملكة الموت لاختبارنا. وضعننا في مركب مطلي بالقار الأسود. (فكر بمكر ودهاء وبرود: يجب أن أكذب الآن وأجعل الأمر يبدو دراميا). أحد رفاقنا، وهو شاب اسمه البينور، ثمل في اليوم الأخير الذي كنا فيه هناك، وصعد إلى سطح منزلها المضياف المريح فزلت قدمه وسقط فكسر عنقه. كان حادثا مؤسفا. لكن الربة الجليلة التي سكنت ذلك البيت الشهير الجميل، علىَ جزيرة "عشبة الصقر" المدهشة، الفاتنة سورسي، سحرها الشاب. استخدمت جسده لإمتاع جسدها. التهمته بجسدها الرباني وشربته بعينيها المقدستين. وحين سقط من على السلم بعد أن شرب كثيرا من الخمر - أم هل حسب بأنه قادر على المشي في الهواء؟ - لم يعد بمقدور جوع جسدها وغليل عينيها أكله وشربه. ثار غضبها كأسد هصور من الساحل البعيد يسير على أربع، وحش ضار بفكين مفترسين وأقدام قوية وبراثن حادة. أرسلتنا جميعا إلى هناك.. أنا ورفاقي: اذهبوا الآن. لكننا عرفنا بأننا لن نبقى هنا. رفاقي ينتظرونني، في مكان ليس قريبا جدا من التخوم. لدي أوامر بسؤال أكثر الرجال حكمة بين الأرواح حول مصيري، الذي ربما أعرف عنه القليل. قدري أن أرغب بأن يعاد السرد من جديد، يا تيريسياس. عبرنا النهر في مركب قادر على العودة إلى حياة الفناء. يمكن اعتبارنا أمواتا تحت الاختبار.

قال المتنبئ العجوز القادم من طيبة: أنت تكذب فيما يتعلق بالبينور. أنا ميت من أمد بعيد بحيث أعرف من الهواء إن كان أحد يكذب: المذاق بدأ يصبح مرا. يجب أن أشرب كأسا لأتخلص من المذاق المر.

انحنى فأصدرت مفاصله صريرا، وابتلع بضع جرعات من الدم. وحين انتصب ولعق لحيته، بدأ التنبؤ. أتت النبوءة من تلقاء نفسها، سالت من فيه كالرضاب، وقطرت من لحيته كاللعاب المر.

لسوف تصارع الشمس أيها الرحّال. قطيع هليوس على ترينا كريا سيكون واحدا من دوربك إلى الشقاء والبؤس. ستفقد كل رفاقك وتصبح أكثر البشر وحدة وعزلة على وجه البسيطة. رحلتك ستستمر للأبد، ستسافر رغما عن إرادتك، بعيدا داخل ذاتك. ستشرب دماء كل الرجال والأطفال التي سفكتها، قطرة قطرة، ولن تحب الطعم. كل الأجساد التي شققتها بالرمح والسيف والسهم والخنجر والهراوة والحجر سوف تنثر دماءها عليك. ستحرقك يا عبد اريز. سوف تختبئ بين ذراعي امرأة وفي قبضة

الحكايا والأكاذيب، وحين تنسى كل شيء،، سوف ينبثق من داخلك أمر، ويأتي من خارجك أمر، مستحضرَيْن ذكرى كل شيء. سوف تستدعى إلى الوطن حين لا تصبح راغبا بالعودة. هذا هو مصيرك.

قال: أعرف ذلك. أرغب فقط بتوكيده.

أنت مباع لرجال. أنت تحت سلطتهم كما أنت تحت سلطة الآلهة. أجل، أنت خاضع لسلطة الآلهة، وهي تستغل الرجال لإبقائك هناك. تقيدك بالدم؛ قدماك ستخوضان في الدماء البشرية.

قال: أعرف ذلك. أرغب فقط بتوكيده. ألن أجد السعادة؟

حين تضع جانبا رمحك وسيفك وفأسك المزدوجة الشفرة في ركن معتم حيث سيدفنها الغبار، عندئذ ستأخذ مجدافا عريض النصل، وتمشي وتمشي حتى تصل إلى جماعة من الناس لا تعرف البحر - أقصد جماعة لا تضع الملح في طعامها الذي تأكله، ولا تعلم شيئا عن المراكب الحمراء الملطخة بالدم، أو السفن المصبوغة بالقار الأسود، أو المجاديف التي تجعل المركب يطير مخترقا الأمواج. فإن قابلت آنئذ رجلا يسألك هل هو رفش ذاك الذي تحمله على كتفك، فستجيب إنه كذلك وتبدأ حفر الأرض بمجدافك. عندئذ قد تجد السعادة. لربما ستكون السعادة مدفونة في تلك البقعة. وبعدها ستخرج من عزلتك وتنضم إلى أشخاص يحفرون الأرض برفوش بسيطة بحثا عن السعادة، ولا ينقبون عنها بالسيوف أو الرماح في أجساد الآخرين. ثم قد تصبح شخصا جديدا تماما، الأول في نوع جديد.

قال: فكرت بمثل هذه الأشياء منذ أمد بعيد. لكن قبل أن أشرع في تجوالي في الهضاب والمروج بحثا عن أرض خصبة من أجل رفشي الخشبي، يجب أن أعود إلى الوطن. سوف أفعل ذلك.

قال العجوز وهو يصدر صريرا: يجب ويجب!

أقصد، على المرء أن يبدأ مع الناس في الأرض التي يعرفها؟

قال تيرسياس العجوز: أنا لم أعد مهتما بهذا. شكرا على الدم، كان ممتازا. لا تنس البقرة العاقر والخروف اللذين ستضحي بهما حين تعود إلى الوطن. الحصول على القربان يجعل الحياة أكثر سهولة؛ ففيه بعض اللهو لنا هنا. تخيل لو يضحي أحدهم للآلهة على حسابي! أو يفكر الناس بذلك!

كيف سأموت.. عندما يحين أجلي؟

أنت تعرف.. لن يأتيك الموت من بوسيدون على الأقل. لن يأتي من البحر.

أجل. أعرف.. ليس من البحر، لكن سأواجه الموت في البحر عدة مرات برغم ذلك. أرغب بتوكيد هذا.

إن اعتنيت بنفسك، ستزداد وزنا وبدانة. أما إن لم تفكر كثيرا بكل ما حدث لك، فسوف تكون سعيدا ربما. سوف تموت دون أن تشعر، دون أن تلاحظ. يوما ما ستجد نفسك هنا متلهفا للقرابين، لتشرب من دم الأضاحي، كحالنا نحن.

انسل داخلا بين الأرواح. تناهى من البعد صوت مياه النهر. رفاقه الذين وقفوا على الضفة ينتظرون، كانوا ينادونه. أمكنه سماع عروق العجوز تصر كسيور جلدية جافة داخل الغيمة. هبت ريح صرصر من مثوى الأموات، تيار هوائي بغيض معاكس؛ أصدر صريرا مع مفاصل العجوز المصابة بالروماتيزم.

* *

غلبه النعاس عدة مرات خلال الليل، فترات نوم قصيرة قطعتها رفرفة الشراع التحذيرية. الرياح التي هبت من البر ومن الجزر الكبيرة امتزجت هناك واندفعت نحو الشرق.

نقل مجداف التوجيه من اليسار إلى اليمين، وتفحص السماء الممتدة، وانزلق على طول المؤشر المتحرك لحزمة ضوء القمر. صحا مجددا مع ارتفاع الشمس أمامه، لتدفع الرياح من الجنوب والشمال أمامها عبر الجزر البعيدة الكبيرة؛ ثم التقت بالنسيم الغربي الثابت وغضنت برقة وجه الماء، أعطته خيولا بيضاء، صيرته رماديا، ثم أصفر، ثم أحمر - وهكذا بدا الاحمرار يتحول إلى زرقة النهار. أدار الطوف بحيث تكون مركبة الشمس البازغة أمامه مباشرة. النوارس والخرشنة والطيور الأكبر حجما حلقت فوق نعاسه. حين نهض وتمطى وبال، حدق إلى الساحل الذي كان أقرب مسافة من الليلة الفائتة.

قال بصوت عال: " سيكون الجو مثاليا واستثنائيا اليوم. تحياتي المتواضعة لك يا هليوس.تحت قوسك المائل العطوف أتابع رحلتي الممتعة. أفكر بك أيتها الشمس مع كل نبضة قلب. أفكر بقرابين رائعة أمجدك بها حين تتاح لي الفرصة. حين أصل البر بعد رحلتي السعيدة".

شعر بمذاق تفه في فمه بعد قوله هذا. توجب عليه أن يطري الآلهة قليلا، حتى وإن لم يكن لديها متسع من الوقت لتصغي. انحنى وملأ كفيه بالماء ومسح جبهته؛ سال الماء على وجنتيه ووصل إلى لحيته التي تصلب شعرها بفعل الملح. في الصباح الماضي اغتسل بالماء الساخن لآخر مرة في بيتها. تبخر كل عبير العطور والزيوت. لا تفوح مني سوى رائحة البحر، رائحة البحّار، وسرعان ما سيصبح زيت السمك الطعم الوحيد على لساني. خلع إزاره واغتسل. أنعشه الماء، لم يكن باردا لكن بقيت فيه برودة؛ بحر ليالي أواخر الصيف. ربط المجداف بالسير الجلدي وسار عاريا إلى المؤخرة ثم إلى المقدمة، ليجرب الصاري، ويفرد الشراع، ويجلس على صندوق الطعام، ويأكل، وينعم النظر في القمم المكسوة بالثلج التي غمرتها أشعة شمس الصباح الصفراء الذهبية في الجنوب الغربي، والجرف الصفراء في الجنوب. في رأسه المسار والخارطة. عليه أن يتبع الساحل حتى البحر المفتوح في الجنوب. ثم يندفع بخط مائل باتجاه ترينا كريا، ليحاذي ساحلها الجنوبي، ويلتف حول الرأس الجنوبي للجزيرة المثلثة الشكل، في انحناءة ذهنية ومادية عميقة لهليوس والعديد من الآلهة الجليلة، ثم يتجه نحو الشمال الشرقي تقريبا عبر البحر الايوني باتجاه الجزر القريبة من ساحل أكارنانيا.

صرخ بأعلى صوته: "كنت محظوظا بالجو إلى حد استثنائي".

ـ ١٢ ـ
أثينا

توقفت يوريكليا عن الحلم أو كانت "تختلس" لنفسها الأحلام التي تأتيها والتي هي في واقع الأمر ملك للبيت. بدلا من ذلك، علقت بملاحظات وجيزة لم تقلها من قبل، وهذا شيء مذهل. على سبيل المثال، لاحظت أن الابن قد كبر خلال سنوات النسج، وأبلغت سيدتها بالاكتشاف كأنها تنقل خبرا:

"كم ينقضي الزمن بسرعة!".

"ماذا تعنين يا يوريكليا؟".

"أجل أعرف أنني امرأة ساذجة، لا تملك القدرة على التفكير والتأمل بأية مقاصد وغايات؛ لا أستطيع حتى صياغة الكلمات بالشكل المناسب، كما أنني لا أسمع ولا أرى.. كيس عتيق من العظام أنا! لكن حدث في هذا الصباح ـ صدفة، بمحض الصدفة، لم يكن ذلك في نيتي أبدا، كل ما في الأمر أن التعب أصاب رجلي التعيستين الموجوعتين ـ أن جلست على مقعد في الباحة الداخلية ونظرت إلى الناس وهم يأتون ويذهبون. وهناك في المدخل، وقف تيليماكوس. استغربت كم أصبح طويلا وقويا ورجوليا. قبل سنتين فقط كان مجرد صبي صغير".

قالت بينلوبي بترقب: "لاحظت ذلك أيضا. ما الذي كنت تفكرين به".

نزعت للتذمر والعناد مذ توقفت عن الحياكة؛ وبدا الآن أيضا أن الإشراف على الأنشطة الصناعية ـ الغزل والنسيج ـ يصيبها السأم.

ارتعبت العجوز ونفت الفكرة بإشارة من يدها.

"أفكر به؟ وكأنني قادرة على التفكير بأي شيء! لا أستطيع التفكير بفكرتين؛ حسنا، ربما اثنتان، لكن ليس أربعاً أو خمساً. حسنا، ربما إن بذلت جهدا حقيقيا قد

يصل العدد إلى سبع، ثمان، اثنتي عشرة على الأكثر، لكن مع فترات طويلة تفصل بينها".

سألت السيدة ببرود: "ما الذي تريدين التحدث عنه الآن؟".

"يقولون إن تيليماكوس قد بدأ بإلقاء خطب، أجل، بدأ يناقش القضايا ويلعب دورا في هذا المجال. لسوف يتحول إلى شخصية بارزة".

قالت بينلوبي: "هراء!".

قالت العجوز: "آه، أجل، ليس لديه الوقت الكافي".

عندئذ، ردت بينلوبي بغضب، أو بنزق على أقل تقدير:

"يالك من عجوز حمقاء!".

قالت العجوز: "أجل، أنا حمقاء، ويصعب التعويل علي. يجب أن يغلق فمي بالسيور الجلدية والعقد. بالمناسبة، كنت أفكر بالعقد. يبدو لي أن فن ربط وشد العقد في حالة تدهور هذه الأيام؛ الناس يرغبون بالأقفال الخشبية والخطافات البرونزية ومثل هذه الأنواع؛ القديم لم يعد صالحا الآن".

قالت السيدة بنبرة غدت أكثر ودا: "ما هو قصدك؟".

"بمقدور ليرتيز ربط عقد محكمة لا يستطيع إلا هو و(تنهدت) ابنه، الغائب المبجل، حلها. تلك هي العقد التي تعلمها في كريت، أو من الفينيقيين القادمين من صيدا وصور، أو غيرهما. وابنه تعلمها منه. لكن هل يعرف تيليماكوس الآن مثلا شيئا عنها؟ لا، شباب هذه الأيام لا يسافرون كثيرا. كأنما ليس لديهم رغبة بالسفر. حين كنت شابة..".

هتفت الكهلة متعجبة: "هذه الأيام، هذه الأيام،.. لا شيء سوى هذه الأيام، وكم كان العالم مدهشا في الأيام الخوالي. أحسب أنه لم يكن مسليا أبدا!".

لم تكن يوريكليا لتلتزم الصمت إزاء رأيها في الموضوع، الذي كان كالتالي:

"هنالك طبعا تحسن كبير طرأ الآن. فكري مثلا بجارية عادية مثلي! في هذه الأيام أستطيع الكلام بحرية - تقريبا - معك يا صاحبة الفضيلة. من المسموح لي أن ينطق لساني المتلعثم، وشفتاي المثرثرتان، وصوتي الناعب الأجش. في الماضي، لم يكن الأمر يتطلب سوى لحظة حتى يقطع رأس الجارية، أو ترسل إلى المذبح، ويخرج قلبها وكبدها وكليتاها لترمى في حفرة القمامة!".

تعجبت بينلوبي وهتفت: "أف، يا للأشياء التي تتحدثين عنها! أشياء تجعلك ترتجفين!".

قالت العجوز: "أجل إنها مريعة. لكن مهما قلت، فإن الناس قد تعلموا أشياء فعلا. وأنا من جانبي أظن أن الشباب كانوا يسافرون أكثر في الماضي. أتذكر.. لا، لن أذكر أسماء. لكن على أية حال كانوا يغادرون الوطن ويجدون الفرصة لتعلم أشياء مفيدة. كانوا يزورون أصدقاء آبائهم القدامى - مثلا - على البر الرئيسي. أما في هذه الأيام فيكتفون بالجلوس على المائدة، أو الخروج إلى الباحة لإطلاق بعض السهام، أو يجدفون بقوارب صغيرة في الميناء أو المضيق.. ويحسبون أنه لا يوجد المزيد ليتعلموه!".

قاطعتها السيدة قائلة: "تقصدين أن على تيليماكوس إذن أن يسافر؟".

مرة أخرى، نفت العجوز الاقتراح بيديها النحيلتين.

"لا أبدا! كيف لي أن أصل في التفكير إلى هذا الحد؟ لكن حين تأمر سيدتي.. (خطرت لها فكرة). إنها مجرد فكرة؛ وأعتقد أنها فكرة جيدة جدا".

قالت بينلوبي: "طبعا تحدثت معه بالأمر؟".

"أنا؟ لا، كيف أتحدث معه؟ (مترددة). أعني حين التقيت به صدفة في الباحة ذكرت دون قصد أن رجلا من تافوس كان هنا في تجارة و..".

قالت السيدة بنزق من جديد: "لن أسمح بالسفر! هو، يترك البيت ويسافر! لم أسمع في حياتي شيئا كهذا. فما يزال صبيا.. وعلى أية حال أحتاج إليه هنا. لا تضعي أفكارا غبية في رأسه!".

لم تفعل ذلك يوريكليا. لكنها قابلت الابن صدفة في الباحة في اليوم التالي - أو ربما حتى في نفس اليوم - وحرصت على أن تسأله هل حدث والتقى بالرجل القادم من تافوس.

من المحتمل أن العجوز تعرف هذا الرجل الذي قال إنه قدم من تافوس. وعلى أية حال، يمكن للمرء أن يشتبه، دون أن يقلل من شأن لعبة الآلهة مع تيليماكوس، بأن العجوز هي التي دفعت الغريب للوقوف في المدخل المفضي إلى الباحة الداخلية في صبيحة أحد الأيام حين كان الخاطبون يسلون أنفسهم برمي الحلقات المعدنية أو بالجلوس على الجلود ولعب النرد، في حين يجري تحضير مأدبة الغداء الأولى لذلك اليوم. كان

الرجل كهلا، طويل القامة، ناعم اللحية، أنيق اللباس، يرتدي درعين للساقين، ويحمل سيفا قصيرا، ورمحا طويلا. وعندما ترى ظهره تجد فيه شبها كبيرا بمنتور العجوز. حسبوا أنه منافس جديد، خاطب أو مغامر. تبع الآخرين، لكنه توقف في بهو المدخل. كان "الابن" جالسا إلى مائدته، لكنه حين رأى الغريب نهض وسار إليه ليسأله عما يريد. كان هناك شيء غير عادي في أسلوب تيليماكوس.

قال الرجل: "اسمي مينتيس من تافوس. الدوق مينتيس. أود التحدث مع تيليماكوس".

قال الابن: "هذا أنا".

تفرس فيه الرجل القادم من تافوس بعناية، وتفحصته عيناه الزرقاوان.

قال: "أنت بالفعل تشبهه كثيرا".

سأل الابن: "من تعني؟".

أجاب رجل تافوس: "والدك".

تحركت شفتا تيليماكوس كأنه يهمس، ولم يجب بصوت عال وهادئ إلا بعد بضع لحظات:

"هل تعرفه حقا؟".

أومأ الرجل الذي قال إنه من تافوس.

تحركت شفتا تيليماكوس مجددا، وتطلب الأمر بضع لحظات مرة أخرى؛ لربما كان يهمس، من يدري؟

قال وهو يأخذ رمح الغريب ويسير قبله: "لسوف تشرفني إن جلست على مائدتي". وضع الرمح - وكان سلاحا بديعا، له سنان مرصع وقناة خفيفة مزخرفة وصقيلة - داخل جعبة رماح "الغائب" قرب العمود خلف الباب. أشار إلى أحد الخدم الذي وضع كرسيا عالي المسند قرب كرسيه ومد قطعة بيضاء من القماش على المقعد.

"تفضل بالجلوس".

دخل الخاطبون زرافات ووحدانا، وجلسوا بصخب في أماكنهم المعتادة. نظروا إليه، لكن تيليماكوس لم يكلف نفسه مشقة تعريفه بهم: غمره شعور مفاجئ وإيجابي بأن هذا الرجل يخصه، إنه ضيفه.

نظر الرجل القادم من تافوس حواليه بفضول. ابنة دوليوس وقفت ببطنها المكور - كانت على الأرجح في شهرها السابع - في ركن قرب مكان انتينوس، وحين جلس الابن وضيفه أخذت إبريقا من الماء من إحدى الخادمات وسارت به إليهما. غسل الرجلان أيديهما صامتيْن. ولم ينطق أحدهما بكلمة حين جرى تقديم الطعام المكون من الخبز ولحم الخنزير الطازج المحمر على المائدة. انتزع تيليماكوس قطعة يقطر منها الدهن من الجزء الداخلي من الفخذ ووضعها أمام الضيف. وحين مزج النبيذ في إناء أمام الباب وملئت الكؤوس، قال الابن:

"دوق مينتيس، هل تسافر في رحلة طويلة؟".

"يمكنك أن تسميها كذلك".

ابتسم الرجل؛ بدا وجهه فجأة فتيا ورقيقا، أنثويا تقريبا.

"هل يمكننا التحدث دون أن يزعجنا أحد؟".

جالت نظرة تيليماكوس المحدقة في أرجاء القاعة. وقفت خلفه ابنة دوليوس الحبلى.

"ميلانثو، نريد أن نتحدث على انفراد".

امتعض وجهها وسارت مبتعدة وهي تجر قدميها، علا وقع صندلها على الأرض، وتمايل جسدها، وتأرجح ردفاها كأنما ما زالت تعتبرهما مغريين. ذهبت إلى يوريماكوس ووقفت قربه بحيث مس فخذها مرفقه. تهامس الاثنان. ثم مال يوريماكوس نحو انتينوس الذي كان يجلس على المائدة المجاورة؛ كانا يتهامسان الآن.

قال الابن للضيف: "إذن عرفت أبي؟".

"أجل، تقابلنا، لكن منذ مدة طويلة، مرة قبل الحرب وأخرى خلالها".

قال تيليماكوس: "هل تسافر في رحلة عمل؟".

قال الغريب: "أجل لدي كمية من الحديد أريد مقايضتها بالنحاس على الشاطئ؛ فكرت بالإبحار حتى ارغوس".

ثمة كذبة في الرواية، لكن هناك أيضا نفَس الآلهة في الكذبة. شعر تيليماكوس أن عليه ألا يطرح أسئلة كثيرة حول هذه الأمور في حالة عدم رغبة الضيف بالكذب. بعيدا، في الطرف الآخر من القاعة، قرب الباب، بدأ المغني فيميوس، الرجل الودود

اللطيف، الغناء والعزف على قيثارته. أخذ عدد من الشبان الذين أدارت الخمرة رؤوسهم، يصرخون مرددين الكلمات؛ بينما حاول غيرهم إسكاتهم. مال الابن فوق المائدة باتجاه الضيف:

"أنت تعرف طبعا كيف تجري الأمور هنا ؟".

الرجل الذي سمى نفسه مينتيس القادم من تافوس أومأ برأسه.

قال تيليماكوس: "أؤكد لك أن الجو ليس ممتعا كثيرا". لم يعد المضيف المهذب اللطيف الآن، بل أصبح صبيا وحيدا منعزلا، كحاله التي كان عليها مؤخرا. طغى التذمر على صوته، وارتعشت شفتاه، ولربما لم يكن بعيدا عن الانتحاب.

قال: "لقد ظل الوضع على هذه الحال عدة سنوات. ينهبون بيتنا ووطننا. ولا يقيمون أي اعتبار لوالدتي أو لي. ولم تتحسن حالهم حتى حين قَدَّمَتْ لهم وعدا. فبخلال عشرين يوما لسوف تختار واحدا منهم. إلا إذا.. لا، لا أظن فعلا أن ذلك سيحدث. لا أعتقد أنه سيأتي. لقد انتظرنا طويلا. فكرت أحيانا بأن عليها أن تختار بسرعة حتى تضع نهاية لكل هذا. أريد أن ابدأ بشيء، أيضا".

قال الرجل القادم من تافوس وعلى محياه ابتسامة: "بماذا ؟".

قال الابن وهو ينظر إلى سطح المائدة الصقيل: "أريد أن أبدأ حياتي".

مرة أخرى تفحصه الغريب بود؛ ثم جالت نظرة العينين الزرقاوين في أرجاء القاعة. سكر بعض الخاطبين، وسرعان ما سيحملهم الخدم، أو يقودونهم إلى الخارج، أو يخرجون مترنحين، كي يستعيدوا نشاطهم استعدادا لمأدبة المساء؛ بينما بدأ آخرون يختبرون قوة أذرعهم عبر المائدة، وفي خضم كل ذلك غنى فيميوس بتردد وخضوع، وإن علت الكآبة وجهه. وما كان أداؤه في أفضل حالاته.

قال الرجل القادم من تافوس: "هل تدري ماذا أفعل لو كنت مكانك؟".

قال الابن: "لا يمكن فعل شيء إزاء ما يحدث". لكنه رفع رأسه وأصغى وهو يرشف من قدحه.

"هل فكرت بالسفر؟ بالرحيل.. أجل.. إلى مكان ما ؟".

قال تيليماكوس: "في الواقع فكرت. حلمت بذلك أحيانا. لكني لا أعرف أحدا - أقصد - لا أعرف شخصيا أحدا يمكن أن أسافر إليه".

قال رجل تافوس: "لو كنت مكانك، فسوف أدعو المجلس الشعبي في الغد وأطالب بأن يعود كل هؤلاء إلى ديارهم وبيوتهم. ويمكن لوالدتك أن تذهب إلى أبيها، إيكاريوس، أليس هذا اسمه؟ .. وتنتظر هناك. ثم تقوم أنت بزيارة إلى بيلوس، إلى الملك نستور، وتسأله هل يعرف شيئا عن رحلة أبيك، فإن لم يكن يعرف شيئا، تستطيع الذهاب إلى منيليوس في إسبارطة. وإن تبين بعد ذلك أن أباك قد مات فعلا، يمكنك عندئذ العودة إلى الوطن. ويمكن لأمك إما أن تتزوج مرة أخرى.. لكن في تلك الحالة ينبغي على أبيها ترتيب مراسم الزفاف ـ أو..".

نظر حوله بحذر. اقتربت ابنة دوليوس.

قال تيليماكوس بفظاظة دون أن يقابل عينيها: "ميلانثو، لا نريد أن يزعجنا أحد. نود التحدث على انفراد".

سارت مبتعدة وهي تهز ردفيها. كان يوريماكوس وانتينوس يجلسان الآن ويتهامسان مع امفينوموس.

"أو؟".

شحب وجه تيليماكوس من فرط التأثر والقلق.

قال رجل تافوس: "هل سمعت بابن أغاممنون، اوريستيس؟ بالطبع سمعت أليس كذلك؟".

"أجل. لكن ليس معي رجال، وهناك قطيع من هؤلاء. وليس لدي سفينة يمكن أن أحضر المحاربين على متنها إلى هنا".

قال الرجل القادم من تافوس: "يجب أن اذهب الآن. لكن سأبقى في البلدة حتى الغد".

مال بجسمه نحو تيليماكوس.

"أستطيع أن أدبر أمرا فيما يتعلق بالسفينة. هل حاولت التحدث مع.. هؤلاء الذين هم في مثل عمرك؟ الأمور العظيمة تنجز حين يتفق الرجال من نفس العمر. هنالك شيء آخر: أقيم في فندق نويمون قرب الميناء. سفينتي ورجالي في الخليج، في الطرف الشرقي من الميناء. أمر آخر: أعتقد أن والدك حي يرزق. ولربما هو في طريق العودة إلى الوطن، من يعلم؟ لكن يجب أن تتصرف وكأنه لن يعود. يجب أن تتصرف وكأن والدتك المحترمة ليس أمامها سوى تلك الأيام العشرين".

نهض الابن ورافقه عبر القاعة، دون أن يقدمه إلى أحد. شعر أنه بمجرد هذا التجاهل، بمجرد مصاحبة رجل كهذا، فإنه يؤدي عملا مهما في توكيد الذات. أخذ الرمح من الحامل وسلمه للضيف. كان تحفة بديعة بحيث لم يستطع منع نفسه من السؤال - وبالتالي استعراض معرفته.

"من كريت؟".

قال الرجل الذي زعم أنه قادم من جزيرة تافوس، مبتسما: "من مكان قربها".

رافقه الابن عبر الباحتين. عند البوابة الخارجية، توقف وراقبه وهو يسير مبتعدا باتجاه البلدة والميناء. مشى برقة ونعومة، متهاديا كالإله. وبدا ظله متألقا ذهبيا تحت أشعة الشمس.

حين عاد، كان فيميوس قد بدأ عزف وغناء أغنية أخرى. قدموا له الشراب، وهذا ما جعله دوما مغنيا ملحميا يصدح بأعلى صوت. الأغنية تدور حول إحدى القصص المبتذلة للحملة على طروادة والحرب، والتي سمعها الابن طيلة سنوات طفولته وفتوته حتى سئم تكرارها. كان فيميوس مخلصا في ولائه للبيت وكثيرا ما أقحم عبارات تمجيدية تمتدح "الزوج"، "الغائب"؛ وحين يجد وفرة من الخمر، كان ينزع إلى المبالغة في ذلك: ليس ثمة اعتدال في مدائحه لما فعلوا.

سكر الجميع.

جلس تيليماكوس في مكانه. رفع كأسه ووضع حافته بين شفتيه، ثم: لا، ولا قطرة واحدة في بقية هذا اليوم! رغب بإظهار قوته، نضجه، وأنه سيد في بيته؛ وحاول دون وعي محاكاة الرجل القادم من تافوس في الجلال والوقار والتصرف والسلوك. وضع الكأس بتمهل - لا كمثل شاب متعجل تملكه الغضب، أو كشخص يحاول دون داع أن يظهر سطوته، لكن بجلال حري برجل، بدوق من تافوس، أو من أي مكان أتى أو مهما كانت شخصيته؟ - رفع رأسه بتمهل ونظر إلى المغني. كان فيميوس يصيح بصوت أقرب للنباح، ونشزت قيثارته. الآن، لا، بل بخلال لحظة، لسوف يفتح سيد البيت، "الابن" و"الوريث"، فمه ويصدر الأمر، يعلنه ويستمتع به إن رغب. لربما يرغب بذلك. لم يقر رأيه بعد. يمكنه أن يبت في المسألة، أو يقرر تركها. كان رجلا حرا. قرر إسكات الضجيج المريع. يستطيع أن يأمر الآن: توقف يا رجل سئمت حتى الموت من هذا. عد إلى بيتك هذا اليوم. أرغب بتبادل الحديث مع هؤلاء السادة.

التفتوا إلى الباب خلفه، وهو أيضا أدار رأسه باتجاهه. ساد الصمت في القاعة الرئيسية - فيما عدا الأصوات التي ما زالت تأتي من فيميوس. كانت بينلوبي، "الزوجة"، "المنتظرة"، تقف في المدخل؛ ولمح خلفها يوريكليا وخادمتين بدا الرعب على وجهيهما. تبعتها الخادمتان بجبن وذعر حين دخلت القاعة. رجفت شفتاها، ودل التعبير على وجهها المزين بالمساحيق إما على الغضب أو الأسى. لربما كان توتر الأعصاب. لربما كان في الأمر انقلاب، ضربة قوية مفاجئة: لكن كانت شفتاها ترتجفان، وعيناها تطفحان بالدمع. نظر الجميع إليها باندهاش. فيميوس السكران هو الوحيد الذي لم يلاحظ شيئا.

.. البطل الذي لا ينسى استل سيفه وضرب،
ضرب وضرب، والدم سال أنهارا،
تدحرجت الهامات، وانشقت الصدور، وانقطعت الأحزمة.
وكما تعلمون انتصر المخلد في الذاكرة!
ظهره قوي كظهر ثور
وذراعاه كبرونز كريت
وما كانت النهاية التي تعرفونها جميعا:
انتصر، انتصر، انتـ..

زعقت بصوت حاد: "اسكت! ألا تجد شيئا آخر تغني عنه في هذا البيت؛ أنا.. أنا.. لمَ ينبغي أن تغني عنه! أمنعك من الغناء!"؟

شعر تيليماكوس بأسف شديد لها؛ وفي ذات الوقت خجل بها. أترعه إحساس بالقوة، بالسلطة، برغبة في السيطرة، يجب أن يقول شيئا: وقبل أن تمنع أسنانه العبارة، انزلقت منسلة من فيه:

"لكن، يا أمي، دعيه يغني! لم آمره بالتوقف!".

حولت نظرتها المحدقة إليه، وأدرك كم ذهلت. توقف فيميوس عن الغناء فجأة؛ ما زال رنين واه يأتي من قيثارته؛ كان ثملا أو مذعورا إلى حد جعله ينسى أن يضع يده على أوتارها.

"لكن يا تيليماكوس!".

شعر بأنه يريد تحطيم شيء ما، لكن رغب أيضا بأن ينفجر باكيا.

صاح متعجبا بصوت حاد مثل صوتها: "ألا يكرم والدي في بيته؟".

"لكن يا تيليماكوس!".

ارتسم على وجهها تعبير يدل على العجز، الأمر الذي جعل الغضب يربكه.

"أمي، أنا من يصدر الأوامر هنا!".

حاولت أن تقول شيئا بشفتين راعشتين، حدقت إلى وجهه، وهيئته، وتقوس حاجباها إلى حد لا يصدق فوق تلك الجبهة المتغضنة البيضاء (حتى حافة حجابها). توقفت على هذه الحال في زمن توقف، ما تذكره من المشهد بعد مدة طويلة كان طريقتها في الوقوف: كأنها اختفت، ذابت، كأنما انهارت وهرمت بسرعة خاطفة - دون أن يلحظ ذلك أحد سوى "الابن". ثم تذكر الأفواه الفاغرة للحاضرين، خصوصا البسطاء منهم، وكيف التفت يوريماكوس من فرط الارتباك والحرج، وكيف نظر امفينوموس إلى المائدة، وتعبير البهجة الذي شع من عيني انتينوس اللامعتين المتسائلتين. ران على العالم صمت مطبق لبضع ثوان، ثم استدارت وخرجت من القاعة بخطى وئيدة مترددة، وارتقت السلم إلى مخادع النساء.

أول من تحدث كان انتينوس بالطبع.

"انظروا ما يحدث الآن؛ هاهو يأتي!".

تجرأ الجميع على الضحك.

-١٣-

العاصفة

في ذلك المسار المتجه شرقا ظلله الشراع حتى آخر الصباح. بعد ذلك بقي تحت الظلة بقدر ما يستطيع؛ تمدد لفترات طويلة على المقعد ونام.

هل اشتاقت، المرأة التي رحل عنها، له كثيرا؟ هل تجد شخصا آخر تستمتع معه. لديها عبيد وخدم وحشم. لربما ترسل الآلهة المبجلة عاصفة وحطام سفينة إليها، ثم تكتمل الصفقة. غمغم قائلا: ليس لدي شيء أقوله حول ذلك.

قال كل شيء ممكن عنه، بصوت خفيض. تمدد ورأسه يرتاح على طرف الصندوق، وراحتاه تضغطان على خشب المقعد الدافئ المصمغ بالراتنج. كثيرا ما كانا معا في الغابة، فكر بها، وقال عنها. كانت حياتهما على هذه الصورة فقط.

"في حقيقة الأمر سئمت منها فعلا".

قواه الجسدية لم تكن متعبة الآن. نهض وتسلق خارجا من ملجئه، فوق حبل الحاجز، ونزل ببطء إلى الماء. تمسك بكلتا يديه، وبقي في الماء الذي وصل إلى عنقه وترك الطوف يسحبه لفترة، بينما انزلقت الذكريات الجسدية خارجة منه.

ظل لعدة ساعات ممددا بكسل وهمود على المقعد. وبين حينٍ وآخر كان ينهض ليتفقد المسار. بعيدا في البحر، باتجاه الشمال، شاهد سفينة تبحر وقد سحبت مجاديفها الطويلة. كانت كبيرة وسوداء؛ لا بد أنها تحمل خمسة وثلاثين أو أربعين مجدفا، حسب رأيه. قطعت مساره قبل أن يراها: الآن، كانت تبحر باتجاه الشمال الشرقي، جسمها منخفض، مع ارتفاع في مقدمتها ومؤخرتها، وشراع داكن مستطيل الشكل. إن كانت سفينة قراصنة، فلابد أنها محملة بشحنة كاملة، أو أن ركابها متعبون وفي طريقهم إلى الوطن، أو أنهم يسرعون لغرض ما على الساحل الطويل. بعد

مرور ساعتين، أبحرت سفينة تجارية تشبه مكورة البطن على مبعدة عدة مراحل منه قرب البر. أمي أتت إلى ايثاكا على متن واحدة من سفن اوتوليكوس التجارية. الرسول قال إنها كانت ميتة.

نام لفترة وجيزة

**

قالت أمه دون أن تحرك شفتيها: أنا هنا أيضا، أنا ميتة. لم يتذكر من قال له ذلك، لكنه عرف الأمر مسبقا. بانت خلفها، خلف شبحها، صورة ملكة قوية نشيطة، ممتلئة صحة وعافية، وافرة الحليب، أرضعت بنفسها ابنها فترة من الزمن. جلس قربها عند بركة القرابين.

قالت بعد أن شربت، وتمكن هو من رؤية عينيها الضبابيتين: هل هي مجرد زيارة؟.

زيارة قصيرة. أتيت إلى هنا مع رجالي بمحض الصدفة. هنالك أمر أو اثنان فكرت بأن أسأل تيريسياس عنهما.

قالت: كان هنا قبل لحظة.

كيف هي الأمور في الوطن يا أمي؟

قالت: أنت تعرف.

لكن أنا أسألك مع ذلك؛ أود توكيد الأمر.

قالت: علينا جميعا أن نحزر ونخمن. وثبتت عينيها على وجهه: لقد تقدمت بك السنون.

أريد أن أعرف حال بينلوبي وابني.

قالت: أنت قلق. لكن أحسب أن بينلوبي على ما يرام. لسوف تتدبر أمورها جيدا.

ما زالت العداوة القديمة ظاهرة في صوتها.

قالت: حين سافرت إلى هنا، أتيت من الريف مباشرة. والدك يعيش وحيدا الآن في بيته الريفي. انتقلنا إلى هناك قبل بضع سنين. لم يعد هنالك سيد في الجزيرة. لا بد أن يأتي إلى هنا. لمَ أكون وحيدة هنا؟ هنا، لا توجد هموم ولا مخاوف.

ليس لها وجود؟

قالت بصوت صارم: لا. لا وجود لها. كل شيء انتهى.

انحنى وحدق إلى البركة.

قالت: ما كان ينبغي عليك أن تغادر أرض الوطن. كان عليك أن تدافع عن أهلك. أنا هنا لأنك رحلت. أفتقدك كثيرا بعد أن غادرت. كنت ذكيا وطيبا وصالحا.

سأل مجددا: وتيليماكوس؟

لوحت بيديها الشبحيتين؛ تأرجحتا بفعل الريح الحارة التي هبت من مثوى الأموات.

لم تمر عليه أوقات سعيدة، كما أتخيل.

ألا تحبين أن آتي إلى هنا وأطرح الأسئلة يا أمي؟

لا.

لكن أريد التحدث مع العراف.

قالت: هذا حمق. أنت خائف من العودة إلى حياة البشر الفانية، وتظن أن بمقدورك الحصول على العون هنا. وهذا هو الحمق بعينه.

قال متأوها، وحاول وضع رأسه على حضنها: أريد توكيدا فقط. مد ذراعيه وراءها، انسلت مبتعدة، اختفت ورائحة الحليب تفوح في إثرها. لهب النار مس البركة وجففها. عانقت يداه الخواء، وحين تلاقت الراحتان سفعت كل منهما الأخرى كأنها لهيب، كقضيب محمى من النحاس.

رفاقه على ضفة النهر كانوا ينادونه. تساءل عن الكلمة التي كانوا يصرخونها، هل هي صدى "حمق"؛ لم يتمكن من فهمها.

* *

في المساء اتجه نحو الساحل في الجنوب، وبحث حتى وجد خليجا مناسبا. طوى الشراع وجدف في قنال ضيق؛ وخلف القنال لاحت بحيرة صغيرة، طوقتها بساتين خضراء كثيفة: ارتفع الماء وهبط مع الموج. أسرع إلى جذر شجرة، وجهد للوصول إلى البر، ثم بحث عن حجر كبير يخدم غرضه، صنع مرساة بحبل ورماه، ودفع الطوف قليلا بعمود. كان الماء بعمق قامتين في الموضع الذي رمى فيه المرساة. أكل في الظلمة تقريبا وشرب كمية من الخمر تفوق ما شربها في الأمسية الماضية.

قال بصوت خفيض: "كان يوما مجيدا فعلا، وأنا ممتن للسماح لي بأن أعيشه. يوم ممتع للرحلة إلى حد استثنائي. الآن يجب أن اخذ قسطا من الراحة كي أستعد ليوم هليوس الرائع غدا".

تمدد على المقعد في ملتجأ دفة التوجيه، تحته عباءة وفوقه عباءة. تأرجح الطوف؛ أصغى إلى خرير المياه على طول الشطآن، تثاءب وهمس:

"أنا متعب جدا. يجب أن آخذ قسطا كافيا من النوم، وإلا سوف أؤذي نفسي بالأحلام".

* *

ظلت الريح المواتية تدفع القارب وتحمله لمدة ستة أيام أخرى. في مناسبتين اثنتين، نزل على البر في الشاطئ الشرقي، وعبر خلجان وأقنية رملية. في صباح أحد الأيام وجد صعوبة في الخروج إلى البحر: دفق الأمواج دفع الطوف الثقيل ـ الذي تشرب خشبه بالماء إلى حد ما ـ إلى حصى الشاطئ؛ توجب عليه العمل حتى بعد الظهيرة قبل أن يخرجه ويجهزه للإبحار.

ضيع الوقت. تنامى الإحساس بالاستعجال داخله، لكن الأحلام عموما كانت ألطف. في الليلة السابقة على الساحل الجنوبي رأى كابوسا. فكر: إنها مشكلة في المعدة. عانى في الواقع من مشكلة في معدته واضطر لأن يجلس القرفصاء على الشاطئ عدة مرات ولوقت طويل في كل مرة. فضلة اللحم المشوي رماها في البحر؛ ولم يتبق من القديد سوى فخذ من لحم الضأن؛ الديدان هاجمت الآخر. من الفواكه، ما زال التفاح صالحا للأكل؛ التمر غدا كتلة دبقة. الخمر أيضا، في القربة وفي الجرة، لم يتغير طعمه، وفي إحدى الأمسيات وجد نبعا وأخذ مؤونة من الماء العذب. أمضى وقتا طويلا يفكر جديا بالسبب الذي أزعجه. صحيح أن عوارض الإسهال قد اختفت بخلال أربع وعشرين ساعة، لكن كلفه بعضا من قوته. حاول أن يحسب المسافات من الخريطة الموجودة في رأسه، مع الأخذ بعين الاعتبار التيارات وانحراف الطوف مع الريح، لكنه أكد مرات عديدة في اليوم ـ بصوت عال ـ أنه معتمد كليا على الآلهة الجليلة. حين انعطف الساحل جهة الجنوب، أصبحت الريح أكثر تقلبا وتحولا، وتراوحت بين البرد القارس والحر اللافح. بعد ذلك، لاح ساحل تريناكريا إلى الشرق منه. وبخلال نهارين

وليلتين، ظل يقظا خلالها، أبحر إليه. إلى الشمال، في المضيق، وعلى الطرف الشرقي من الجزيرة المثلثة، ربض جبل النار الأبيض، ولسان أرض هليوس المعقوف الداخل في البحر. نزل في المسا، على بر الساحل الجنوبي وقال بصوت مسموع: "لم أذق طعم اللحم تقريبا؛ معي مؤونة؛ لم آكل سوى اللحم المجفف الذي لم يسرق من أحد". حاول أن يكون إلى جانب الآلهة بتقديم قربان، صب بسرعة كأسا من الخمر وتمتم صلاة. نطق بأسماء عدد من الآلهة الجليلة، لكن ليس اسم بوسيدون.

بعد أن نام بضع ساعات، انطلق بسرعة مجددا تحت جرف الساحل المنحدرة باتجاه الطرف الجنوبي من الجزيرة المثلثة. كان يعرف بأن العديد من الناس يعيشون في تريناكريا؛ شاهد سحب الدخان والنيران على البر، وفي الخلجان رست مراكب ضيقة، طويلة، سوداء، سريعة، وهناك مراكب عريضة، مكورة البطن، حمراء الجوانب: للحرب والتجارة. في أصيل أحد الأيام وصل إلى أقصى الطرف الجنوبي من الجزيرة. هناك، نزل على البر، وتفحص مركبه، ومؤونته، وجسده. كانت ركبته اليسرى متقرحة وتذكر أنها اصطدمت بشيء. البحر المفتوح امتد الآن إلى الغرب والشرق والجنوب. رسا في الخليج، واستحم في الموج، وغسل يديه بالماء دون أن يذكر اسم بوسيدون، حاول أن يضحك للموج، أن يبدو راضيا مسرورا. ثم أكل، وتمدد على الجرف ونظر باتجاه المدى الأزرق - الرمادي اللانهائي في الجنوب، باتجاه الأشكال المعتمة للجزر. نظر إلى يديه. غدت القروح على راحتيه الآن صفراء متصلبة. وفاحت رائحة البحر من شعره المتطاير على جبهته ولحيته المتيبسة بفعل الملح. بعض الدلافين سبحت كلهب النار تحت أشعة هليوس الحمراء المتلألئة. خلف ظهره امتدت غابات كثيفة، ومن ورائها لاحت الجبال العالية والجرف التي تكتسحها نيران الجحيم. أغمض عينيه، وتمدد على ظهره، وحدق إلى العتمة المضطربة داخل جفنيه.

* *

بين الأرواح التي رفرفت حوله كالأبخرة الفوسفورية، كان أغاممنون يؤكد بكل جدية أنه أغري أو دعي إلى بيت ايجستوس وأن ملكته كانت هناك، وهذا يتناقض بالطبع مع الروايات الأخرى، التي تؤكد أنه اغتيل داخل قصره. لن أتكبد مشقة التحقيق في الأمر، ولا أريد التحدث مع أغاممنون الذي يقف أمامي؛ كل هذا مضى وانقضى، ولدي

الآن أشياء أكثر أهمية وإلحاحا من جمع المعلومات حول ابنك، أيها الملك العظيم. لست إناء تصب فيه الماء ثم تحصل منه على الخمر فيما بعد.

مساء الخير يا أغاممنون.

مساء الخير يا اوديسيوس، لكن أخبرني الآن، دون أن تحاول أن تختلق أو تغير بسحرك ما حدث، أخبرني الآن هل ابني في اوركومينوس، أو في بيلوس الرملية، أو مع منيليوس في إسبارطة. ولماذا سمح لمنيليوس بأن يعيش؛ أليس من أجله توجب علينا جميعا أن نموت، من أجل خاطر ملكته الملعونة المقدسة - أم ماذا؟ أجب!

تصبح على خير يا أغاممنون. لا أعرف شيئا. الموضوع لا يهمني.

لربما أنت مهتم بشخص معين يدعى.. هل أخبرك عنه؟

لا. أعرف. اختف!

وأنت لم تكن تدقق كثيرا يا اوديسيوس. هل تتذكر؟

اختف!

قتلت الأطفال أيضا. أليس كذلك؟ ولربما ما يزال الأسوأ أمامك - أنت الذي سُمح لك بالعودة إلى حياة البشر الفانية.

اختف! أنا مشغول بنسيانك.

لا، لا، لا تنسني يا اوديسيوس.

لسوف أقرر ذلك. لكن اختف الآن.

الناس لا ينسوني. وأنت تأخذ الجحيم معك، وكل من هم هناك أنت تأخذهم معك بذاكرتك.

أغاممنون، الآن حان الوقت كي تختفي فعلا.

* *

حين أفاق كانت العتمة مخيمة. بحث عن مكان آخر يستطيع فيه النوم بشكل أفضل. تمدد داخل صدع في صخرة ونظر إلى النجوم. سوف أحاول أن أتذكر كل النساء اللاتي عرفتهن، هكذا فكر حين وقف وبال. هذا الرجل عرف كل شيء؛ فكروا بما يحدث لو قرر أن يروي الحكاية! حاول أن يضحك - سمع ضجة؛ كانت ضحكة. ما زالت فيه قوة ومادة جوهرية، ابتسم مكشرا. فكر: كل من عرفتهن ملعونات. أية حكاية سأرويها لو أردت!

كان يشعر باليأس. لم يكن ممددا بشكل مريح؛ النوم لن يأتي؛ أصدر حفيفا في العشب حوله، وفي الشجر فوقه، وصريرا في الطوف الراسي فوق حصى الشاطئ في الخليج. لسوف أبني سفينة بأربعين، بستين مجدافا. لن أركب البحر مرة أخرى. سوف أبحر إلى كريت وأشاهد القصر الجميل هناك. سأكون واحدا من ضيوف مينوس الذي لن يضطر للاستحمام في البيت الخالي من القمل خارج البوابات النحاسية. سأعيش في الوطن على المروج، في الغابات، في التلال، وأستلقي في الحقول وأسمع الأشجار تتنهد والشجيرات تهمس وأغط في نومي. نهض واقفا ومشى جيئة وذهابا على طول الجرف. لم تمر على بشر أوقات صعبة كالتي خبرتها. ذات مرة كانت الأمور على أحسن حال لعدة سنوات. معها. توقف ونظر إلى الأمواج المتلألئة في المأوى المحمي تحت الجرف. خشب الطوف احتك بالحصى وأصدر صريرا، سيور الجلد أنّت منتحبة. سوف أخصص معظم وقتي لتربية الأغنام. وأتاجر مع السكان على الساحل. لن تعرف الجزيرة حكما جديرا بالاحترام مثلي، لأنني أفهم كل شيء. إذا أساء أحد إلى بينلوبي أو تيليماكوس فسيعاقب بقسوة. اقتلعْ الجذور ثم تخلص منهم. أقطع رؤوسهم. لكن سأكون لطيفا مع الأطفال. الأطفال أفضل من عرفت. الأطفال الصغار الذين تحملهم بين ذراعيك، ولم يتعلموا الكلام بعد. الذين لا يعرفون أسماءهم. لا، لن أفكر بالأطفال. حاول أن يتذكر أسماء كل الكلاب التي امتلكها. تذكر على الفور تقريبا كيف كاد كلب أن يعض تيليماكوس، وحش رمادي كبير. كشر عن أنيابه وربما كان سيعضه. رثوا للكلب بعد أن قتلوه. حاول تذكر القصائد التي سمعها منذ وقت طويل، قصائد أجنبية أتت إلى الجزيرة من البر الرئيسي. "هَمْمْ.. صوت الطفل الرضيع بحر عاصف، فمه نار، ونفسه ردى". فكر مجددا: سوف أحاول أن أتذكر أسماء كل النساء اللاتي ضاجعتهن. أتساءل عن حال الجو في الصباح، وهل ستبقى الريح غربية لتسمح لي بالإبحار مباشرة. انحدر نازلا إلى الطوف وشرب قليلا من النبيذ.

أصدر الطوف صريرا: استياناكس!

شرب مزيدا من النبيذ، الصرف، الثقيل.

**

شعر في ذلك الصباح، للمرة الأولى منذ عدة سنين بالحنين إلى الوطن. لكن ليس إلى حد يجعله يستعمل الكلمة الفعلية حين وقف على صخرته وترك نفسه تتيقظ. ثم قال إن الجو كان مؤاتيا حقا، وإن النسيم منعش، وبالغ في الهبوب قليلا جهة الشمال، لكن إن حصل المرء على العون من "الشخص المعني" - ولم يذكر اسم بوسيدون - ومن الشمس، فإنه على الأرجح سيخدمه ولن يؤذيه. ثم قال إنه لا يرغب أبدا بالتجرؤ على انتقاد الجو الحالي المحسوب بعناية والمستَغَل بذكاء، لكن بإمكانه دوما أن يرغب بريح مختلفة؛ إذ تكمن في طبيعة الإنسان والرحالة رغبات من أنواع مختلفة. وتبعا للخريطة في رأسه، يمكن أن تدفعه الريح - بسبب عدم تمكنه من فن الملاحة وأخطائه في حساب انحراف الطوف وتأثير التيارات - إلى ما وراء البحر الايوني، باتجاه السواحل التي لا يسمع عنها المرء إلا في حكايا الرعب والحنين. ثم قال إن كل الأمور تسير بشكل ممتاز ومرتبة أحسن ترتيب، وأنه بين أيدي الآلهة الجليلة، وأنه يتلقى أفضل اهتمام ورعاية وانتباه.

لكن كمن تحت الرضى الذي عبر عنه علنا أو غمغمة، والامتنان لوصوله إلى هذه المسافة، ولأن الطوف ما زال عائما، ولأنه حصل على مؤونة من الماء العذب، ولأن الشراع والدعامات نجحت في الاختبار، ولأن الألم في ركبته اليسرى لم يتفاقم، ولأن معدته قد تحسنت، وأمعاءه انتظمت الآن - كمن تحت كل ذلك قلق، وتحت القلق توق للشط الآخر، الصحيح. قطع مسافة بعيدة بحيث استحالت عليه العودة إلى كاليبسو؛ حتى لو سمحت الآلهة الجليلة بمثل هذه الرحلة - ستهب ريح داخلية تواجهه، وتيار معاكس يمنعه من القيام بها. ألح عليه اشتهاؤها بالتأكيد، وما زالت ذكراها واضحة مميزة، لكن اخترقت شذى عبيرها رائحة طحالب البحر على شاطئ ايثاكا. اندفعت نساء أخريات في الصورة: لكنهن أقصين وغُيِّبن في أعماق الذاكرة. الفتوة التي اختفت للأبد تأوهت وأنَّت ونشجت هناك. خطر على باله: من الواضح أن الزوجة تهرم مع المرء. لكنْ هناك أمانا مريحا مع الزوجات لا توفره حتى أكثر حوريات البحر كمالا: عادة حياتية استمرت حتى وإن غاب وابتعد، عادة حياتية تسير أو تبحر مع المرء - وإن غابت عن البصر. لست بحاجة لتسلق الجبال العالية أو لأن تدفعك كافة أنواع الرياح

في البحار المائجة لكي يكسبها. فهي تصاحبك. خذ خطوة جانبية، ستجدها تجري كدرب بجانب الآخر، درب‌ك: أنت ترجع إليه؛ أنت هناك، لا تنفصل عنها.

والتوق الجارف يكمن مختبئا خلف هذه: هنالك عدد كبير من الأمور التي يجب أن أصلحها الآن وقد غبت كل هذه المدة الطويلة.

تذكر الساحل: كيف بدا حين رجعتَ إلى الوطن من رحلة وأبحرت أو جدفت إلى المضيق بين جزيرة الوطن وساموس الصخرية. نهضت الجزيرة من تحت الماء في سديم الصباح أو تحت شمس الأصيل بضوئها الباهت وظلالها الطويلة: كانت حمراء اللون. تذكر كيف تذكر، وهو شاب يافع، كيف كان يغطس وهو صبي في مياه الخليج، وكيف اعتاد أن يفكر وهو يرجف: لو لم يسحبه مينتور، ولم يكن أبوه هناك، ولم يخطر على بال الصبيان الآخرين فكرة إلقاء لوح من الخشب، لما كان بمقدوره الوقوف هنا وتذكر الحادثة. والمنحدرات التي تغطيها أشجار الزيتون الهزيلة، وسفوح التلال المزروعة بالكروم، والمرج والغابة والبلدة ببيوتها على المنحدر الذي تشرف عليه قاعة الملك الكبرى. والهواء. هواؤها لا شبيه له في أي مكان. لا يهم إن كان أفضل أو أسوأ: كان مختلفا، اعتاد عليه المرء وسهل عليه تنفسه. كل يوم استطاع تذكره تقريبا كان منعشا يسهل تنفسه. ثمة أمان فيه. كل يوم استطاع استرجاع ذكراه الآن، كان هناك أمان مريح في هواء ايثاكا.

قال جهرا: "طبعا سيكون الأمر صعبا في الأيام القليلة الأولى. ولن يكون هناك استعراض رائع للترحيب بعودتي إلى أرض الوطن". عليهم أن يأخذوا المرء كما هو. فقد أنجز ما قدر عليه. كان في الطريق إلى الوطن طيلة الوقت. انتصر في الحرب. رب البحار - لم يذكر اسم بوسيدون - استولى على الغنيمة. ليس هذا توبيخاً لحاكم البحار، لا، أبدا. الحق بجانبه. والمرء يبتهج من أعماقه لتمكنه من تقديم الغنيمة إليه. إنها قربان على مذبحة لتلطفه وتفضله بإبقائه بعيدا عن الوطن لبضع سنين عابرة وممتعة من الدراسة والتعلم والترحل".

هذا الشعور المفاجئ كان حنينا للوطن.

أحس بالقلق وهو يثبت الصاري ويدعمه وينطلق. البحر سيكون هائل الاتساع،

والرحلة ستكون أطول بألف مرة، والموج أقوى بألف مرة. عرف بأن النهار سيصبح صعبا، مع بحر متلاطم، وتيار مختلف، ورياح متقلبة. دار حول لسان الأرض الداخل في البحر ووضع مسارا إلى اليسار من هليوس نوعا ما. سرعته كانت جيدة منذ البداية: أصدر الصاري والشراع وحبل الشراع الجلدي صريرا حادا ومدويا؛ تدفق الماء أكثر من السابق. يستطيع أن يجف بسرعة بسبب الشمس والريح التي ظلت دافئة، لكن البرد يزداد في الليل الآن.

في ذلك البحر، يتقزم الرجال والسفن من كافة الأحجام. وحين يشاهد الطوف من جهة هليوس، يبدو كذرة أصغر حتى من حجمه من قبل في بحر أكثر اتساعا، وإن حاولت رؤيته من منظور حاكم البحار، فإنه لا يبدو أكثر من مجرد شظية خشبية على سطح هائل، قشرة من لحاء تحمل شراعا وخلف الشراع تقف حشرة لها أطراف بشرية وصوت بشري. غاصت الشطآن وغدت مجرد شعاع من ضياء. وفي الأعلى، انكمشت الغابات وانسحبت باتجاه ظهور الجبال في الشمال بذراها الضبابية التي تلفظ الدخان. التيار الجارف كان أقوى. في الماضي البعيد، أبحر هو ورجاله ذات مرة على طول الساحل الشرقي لتريناكريا، عبر المضيق في الشمال، بين سيلا وكاريبديس،وذبحوا وأكلوا ما يمكن تسميته بقطيع هليوس. هذا موضوع لحكاية بحّار ممتعة، لكن فيها بعض الحقيقة. فكر: لا يمكن روايتها.

الريح كانت أقوى هناك، والبحار أوسع، والجو أقسى. لكن مع مغيب الشمس، لم يبق في السماء سوى بضع غيمات في الغرب والجنوب. لم ينهمك في العمل خلال الليل مثلما توقع. نام أحيانا على مقعد التوجيه. في المرة الأولى التي استيقظ فيها على رفرفة الشراع ولطمة مجداف التوجيه المربوط بالسير الجلدي، ربط سيرا جلديا حول خصره وعقده على الدعامة. راقب مواقع النجوم واتجه نوعا ما إلى اليسار من الشرق، مقتربا من اتجاه الدب الأكبر. الحلم أتى إليه: كان يمشي عبر الجبل في الطرف الجنوبي من جزيرته متجها إلى البلدة في الشمال؛ هنالك ريح باردة، والوقت شتاء.

في اليوم التالي أصبح الجو مؤاتيا ونام نوما متقطعا. في إحدى المرات أيقظه صرير سفينة داكنة اللون بثلاثين مجدفا تعبر بنفس الاتجاه وقد نشرت شراعها وجدفت

بمجاديفها. على صفحة البحر الأزرق الواسع تحت شمس الأصيل لم يكن هناك سوى الرجال على السفينة وهو على طوفه. نادى المجدفون عليه حين مرت سفينتهم والماء يفور حولها، وجوههم سمراء تصبب منها العرق وأسنانهم البيضاء مكشرة؛ كانوا يأخذون فترة راحة، ويجلسون في أماكنهم رافعين المجاديف التي تقطر ماء، وبين حين وآخر يجدفون قليلا تحت إمرة بطل يعتمر خوذة ويجلس فوق ألواح خشب في المؤخرة. تخيل أن بإمكانه رؤية صورته هو ومركبه معكوسة فيهم: كم يبدو منظره هزليا من سفينتهم المهيبة - أنا متسول البحار، أفاق البحر. لم يفهم ما قالوا، لكنه رفع ذراعه ولوح، وردوا له التحية. فكر في نفسه: لا يتاجرون بالعبيد، أو أنني بدوت في حالة مزرية، بحيث لا أستحق عناء الأسر. ملابسه الجيدة كانت معلقة على الصاري كي تجف؛ الثوبان الداخليان والعباءتان ما زالت صالحة للاستعمال لكنها قذرة. فكر: يا لمنظري البديع عندما أدخل المدينة: الأسلحة معوجة وصدئة. الخدوش تملأ الدرع الجلدي. لديه زوج من السكاكين وسيف قديم مصقول، ونصلتا رمح، وخوذة ضيقة عتيقة وضعها في الصندوق في المقدمة. قال بصوت مسموع: فاتح بطل. هذا هو أنا. لابد أنهم خافوا مني، ولذلك انطلقوا بأسرع ما يمكنهم.

في المساء، أكل وجبة شهية، وقال بصوت عال: "معدتي ممتازة، لا تعاني من دوار البحر، وكذلك الحال مع صدري وحنجرتي، لا أعاني من صداع في رأسي؛ جسدي كله في أحسن حال". قدم الشكر والحمد إلى هليوس الذي كان على وشك المغيب، وقال:

"البحر يتصرف فعلا على نحو ممتاز. الرحلة أسهل بكثير مما ظننت. أعتقد حقا أن الإبحار سيكون ممتعا خلال هذه الليلة".

أعاد بصره إلى هليوس وتظاهر بعدم رؤية السحب المتراكمة في الجنوب. السماء الغربية اصطبغت بلون أحمر قان. قال محاذرا: غروب أحمر جميل إلى حد استثنائي. هذا لون لا حاجة للخجل منه! الآلهة الجليلة تعلم ما تفعله حين تمزج الألوان. هليوس رسام عظيم، واحد من أفضل المبدعين في الفضاء والأرض. تردد، لكن قَبَّل بعد وهلة ركام السحب في الجنوب وامتدحها، متعجبا من أشكالها البديعة التي لا تصدق وتوازنها المدهش. قال: وبرغم كل شيء، كثيرا ما يحدث، في أغلب الأحوال،

وباستمرار في واقع الأمر، أن تتراكم السحب وتستعرض نفسها لكي يدرك البحارة الأذلاء، التافهون، أجل، الغائبون عن النظر، وغيرُهم ممن هم في طريقهم إلى الوطن، مهارة الآلهة في تشكيل الغيوم.

فكر: أتساءل متى ستأتي؟

نهض، وسار إلى صندوق المؤونة بعد أن مر لصق الشراع ليخرج حزام النجاة.

ـ ١٤ ـ

المجلس الشعبي

وافق نبلاء المدينة على السماح بدعوة المجلس الشعبي. ويمكن للمرء الافتراض أنهم رغبوا ببساطة أن يعطوا الفرصة لـ"الابن" كي يجعل من نفسه أضحوكة

عقد الاجتماع في السوق، ولم يصادف حظا من النجاح. فقد تذبذبت الآراء؛ جزء من السبب يرجع دون ريب إلى مؤسسة النسيج، إلى قسوة يوريكليا التي لا ترحم في التجارة وجهودها لإنشاء احتكار؛ ظلت العجوز على الدوام خلف الكواليس، والسيدة هي التي تحملت كل اللوم. كما أن دعاية حزب الخاطبين كان لها بعض التأثير. وبرغم كل الاحترام الذي تحظى به "المنتظرة"، مل الناس من القضية برمتها؛ فقد طالت مدتها. لم يشعر ذلك أصحاب الخان فقط بل الناس عموما. ولم تكسب البلدة كثيرا من الخاطبين: لأن أولئك الذين أتوا منهم من خارج الجزيرة وأقاموا فيها بصورة دائمة أصبحوا أكثر تقشفا ـ لم يكونوا كلهم من الشبان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن العديد منهم بدؤوا يحضرون معهم كل المؤونة التي يحتاجونها حين لا يقيمون في المنزل الكبير. كما لم تكن السلطات المدنية مسرورة كثيرا بحياة الليل فيها، حيث لجأت نفوس الخاطبين البهيمية إلى تصرفات عنيفة في بعض الأحيان. الجاريات أنجبن العديد من أبناء الزنا من آباء لا يعترفون بهم؛ وفي هذا السياق، تحولت المرابح الاقتصادية إلى عجز واضح في ميزانية الأخلاق. علاوة على ذلك، سادت الفكرة القائلة إن الوقت قد حان كي تتزوج السيدة النبيلة، "شبه الأرملة"، التي ظلت تحيك القماش حتى عهد قريب.

ومع ذلك، دعا تيليماكوس المجلس الشعبي للانعقاد في السوق، ولم تكن البداية سيئة جدا. أتى مصطحبا كلبين رائعين أحضرهما من ليرتيز؛ كانا مرافقيه الوحيدين. لم تكن الفكرة سيئة. إذ أراد إثارة مشاعر التعاطف معه عبر إظهار حقيقة أن أصدقاءه الوحيدين الآن هم من الحيوانات. لكن الكلبين لم يكونوا مدربين، وشعر

كثيرون بأن من المتوجب الإبقاء عليهما مربوطين. لم يكونا ضاريين، مثل كلاب الحراسة، لكن من النوع البغيض الذي يلعق وجوه الناس، وأرجلهم، وباقي أعضائهم؛ وحين ينفض أي منهما جسمه ينشر في الجو قملا كبير الحجم: في رأي كثيرين كان من الواجب تنظيف الكلبين جيدا.

كان المشهد نادرا، حيث عقد النبلاء والأعيان جلسة البرلمان في السوق؛ لم يحدث ذلك من عدة سنين. أتوا سيرا على الأقدام من كل حدب وصوب، وجلسوا بجلال وأبهة في أماكنهم، بينما وقف سكان البلدة والخاطبون من الجزر الأخرى وأتباعهم الفضوليون حولهم على شكل حلقة. بيسنور، الذي لعب على الدوام دور رئيس البرلمان والناطق باسمه فيما مضى، أمسك "عصا المتحدث". بيده. أول من تلهف للكلام وتوجب عليه أن يناوله العصا كان عجوزا من سكان البلدة المشهورين، ومع أنه ودود إلا أنه ثرثار إلى حد ما وقرصان سابق، لم يفوت مناسبة دون أن يكرر أن أحد أبنائه، انتيفوس، شارك في الحملة على طروادة، لكنه لم يرجع أبدا. أما يورينوموس، وهو ابن آخر له، فكان في حزب الخاطبين، لكنه لم يكن شخصية بارزة بينهم.

قال العجوز: "ما الذي حدث؟ ما هو الذي حدث؟ لم يجتمع المجلس الشعبي منذ أن أبحر اوديسيوس مع ابني انتيفوس..".

سالت الدموع على لحيته الرمادية الطويلة.

صاحت عدة أصوات بنفاد صبر: "تابع! تابع الرواية".

سأل العجوز: "أيها السادة، ما هو هذا الأمر الهام؟ هل وصل نبأ يقول إنهما في الطريق إلى أرض الوطن؟ قال لي ابني انتيفوس قبل أن يرحل: 'إذا لم أرجع في السنة التالية، فسأرجع في التي تليها'. أتذكر ذلك كأنه حدث اليوم؛ كنا نقف قرب السفينة؛ توجب عليهم أن يجدفوا وينتظروا خلف لسان الأرض الداخل في البحر لانتظار رياح المساء. وكان الأصيل رائعا، واعتقد الجميع أن السفن تشكل منظرا جليلا ـ لكن انعقاد المجلس الشعبي أمر ممتاز، الساحة العامة تشكل متنفسا، إن أردتم رأيي المتواضع..".

تلمس "عصا المتحدث"، وأخذها بيسنور من يده دون أن ينتبه لذلك في البداية؛ لكن حين رأى أن يده فارغة جلس مرتبكا على مقعده الحجري، وشد شعر لحيته وطرف بعينه ناعسا.

أشار تيليماكوس إلى بيسنور فناوله العصا. حين نهض واقفا كان عصبيا جدا ولم

يستطع أن يتذكر الفاتحة الاستهلالية التي حفظها عن ظهر قلب والتي نوى أن يبدأ بها: دخل في الموضوع مباشرة.

قال (متلعثما في البداية، قبل أن يستعيد رباطة جأشه): "عمي العزيز ايجبتيوس، أنا من امتلك ما يكفي من الجرأة لأدعوكم جميعا إلى هنا. لم أتلق أية أخبار عن والدي تشير إلى أنه في طريق العودة إلى الوطن، أو أن الرجال الذين كانوا معه واختفوا سوف يعودون. الأمر ببساطة أن جميع هؤلاء الأشخاص الذين يدعون أنهم متيمون بأمي يأكلون طعامنا".

غمغم أحدهم في الصفوف الخلفية: "أوه، لسوف تتدبر الأمر بشكل جيد". لم يعرف تيليماكوس من قال ذلك، لكن المقاطعة ساعدته؛ فجرت غضبه.

قال: "يعتبرون بيتنا من الأملاك العامة؛ يأتون ويذهبون متى يشاؤون؛ يطعمون ويشربون كما لو أنهم في بيوتهم - أو كأنما ليسوا في بيوتهم فعليهم هناك دفع ثمن الزاد. والدتي لا ترغب بأية علاقة معهم؛ هي قالت ذلك (هنا، ضحك أحدهم، وحسب تيليماكوس أنه رأى ابتسامة عابرة على وجه انتينوس).

أضاف بصوت أجش، ولم تكن دموع الصبوة بعيدة كثيرا: "ثيران وأغنام وخنازير وماعز.. كل شيء، يذبحون كل شيء ويأكلونه".

أومأ بعض الشيوخ من ذوي اللحى الرمادية برؤوسهم، بعض الكهول حدقوا إلى السماء أو إلى الأرض. عرف فجأة أنهم يصغون إليه.

قال: "بمقدورهم - أليس كذلك؟ - طلب العون صراحة من جدي. يمكنهم الذهاب إليه وتقديم الهدايا التي حددها كمهر وترتيب الأمور معه - أليس كذلك؟ إذا أراد أن يتحمل المسؤولية ويعلن وفاة والدي، لكنه لا يجرؤ على ذلك. هل يجرؤ أحد منكم هنا أيها السادة على إعلان وفاته؟".

صدرت بعض الأصوات الهامسة من أطراف حلقة المجتمعين، لكن لم تصدر كلمة من حزب الخاطبين.

قال: "تعلمون جميعا الوضع. لا أستطيع الدفاع عن نفسي ضدكم؛ فعددكم كبير".

ثم سمع صوتا ساخرا:

"وأنت بطل همام!".

تجاوز ذلك الحد.

صرخ: "يجب أن تخجل من نفسك. ويمكنك أن تتأكد بأنني سأطالب باسترجاع كل شيء...".

أعمته الدموع؛ ألقى بالعصا على الأرض وصاح:

"يجب أن تخجلوا من أنفسكم فعلا! هذا ما أردت قوله!".

أمكنه أن يرى أن بعض الرجال أصابهم الارتباك. جلسوا على مقاعدهم الحجرية وحدقوا أمامهم مباشرة، أو إلى الأرض. ماج العامة حولهم؛ سر الناس بالمشهد، وتدافعوا وداسوا على أقدام بعضهم بعضا خلال محاولاتهم رؤيةَ ما يحدث. انحنى بيسنور والتقط العصا ونظر حواليه. قفز انتينوس واختطفها.

قال بتحفظ: "لا حاجة بك أبدا لإثارة مثل هذا اللغط حول التوافه. أنت تقف هناك وتوجه الإهانات لنا، رغم أن من واجبك معرفة حقيقة الأمور. أمك 'المحترمة المبجلة' أعطتنا نصف وعد، ثم طالبت بمزيد من الوقت لتقديم جوابها، ثم أتت قضية النسيج، والآن، اتفقنا على ألا نغادر قبل أن تقرر. هذه قضية سياسية أيضا يا بني، قضية تهم الناس، البلدة - باختصار، هي مسألة تتعلق بالسيطرة على القيادة. فكل شيء الآن تحت رحمة الرياح. وإن كنت حقا قد كبرت ولم تعد ترتدي ملابس الأطفال وأصبحت رجلا، فعليك أن ترسلها حالا إلى ايكاريوس وتدعه يعطيها إلى الرجل الذي ستتزوجه".

لم يجلس تيليماكوس في مكانه مجددا؛ وصاح الآن قائلا:

"هل أطرد أمي من البيت، وما يزال أبي حيا! إذا كان هذا مقصدك، فله صراحة! لا، في الواقع لن يحدث هذا أبدا! إن رغبت بإرادتها الحرة الذهاب إلى ايكاريوس، يمكنها أن تفعل ذلك، لكن..".

"انظروا!".

"انظروا! انظروا!".

التفتت الوجوه إلى الأعلى. فوق البلدة مباشرة، في الأعالي، حلق طيران عظيمان آتيان من البحر.

"إنهما نسران بالتأكيد".

"نسران! نسران!".

"لا أراهما، أين هما؟".

"هناك!".

"ها هما! هناك!".

دار الطائران حول بعضهما بعضا كأنهما يتعاركان. هاليثرسيز العجوز كان يدور ويدور مثل الطائرين، ارتعشت لحيته، وبدا على وشك أن يدق عنقه، سال اللعاب من فمه الخالي من الأسنان: هاليثرسيز عراف يرجم بالغيب.

"أعرف المعنى! أعرف المعنى!".

"يعرف المعنى! هذا هاليثرسيز! عراف قادر على التنبؤ بالمستقبل!".

سأل يوريماكوس متشككا: "حسنا، ماذا في الأمر؟ بلوى بالطبع؟ يمكنك التنبؤ بالبلايا جيدا!".

"يمكنه التنبؤ بالبلايا جيدا! ماذا بعد؟ ماذا بعد؟".

نعب العجوز متشائما: "إنها بلوى! أرأيتم، إنه يرجع، وانظروا، ستجدون أنكم تستحقون اللوم على كثير من أفعالكم، أيها التافهون! انظروا، هذا بالضبط ما يظهره الطائران، ما الذي تريدون معرفته أكثر من ذلك؟".

"إنه يعود! انظروا! هو!".

سأل امفينوموس ببرود: "من الذي يعود؟". نهض واقفا مثل البقية.

قال هاليثرسيز: "هو! انظروا، هذا ما أراه!".

قال امفينوموس: "بووه"، ثم أدار ظهره إليه ونظر إلى الآخرين.

"هو! أجل، هو! من هو؟ هو، بالطبع!".

حلق النسران باتجاه الجبال، ثم عادا وحوما فوق البلدة من جديد واختفيا باتجاه ساموس والبحر.

تجمهروا حول هاليثرسيز، والعجوز دار مهرولا وتبختر مختالا.

"أليس هذا ما قلته، أليس هذا ما قلته دوما؟".

"هذا ما قاله دوما!".

"وماذا بعد يا عم؟".

"سيرجع في السنة العشرين، بالطبع!".

"سيرجع في السنة العشرين..".

"أف، كلام فارغ! كيف تعرف ما يرمز إليه الطائران؟".

"كيف يعرف ما يرمز إليه الطائران؟".

قال العجوز بشكل مبهم: "أنا أعرف ولن أقول المزيد".

"يعرف يعرف".

يوريماكوس، المعروف برباطة جأشه وطبيعته الهادئة، تقدم خطوتين مهددا العجوز الذي انكمش مذعورا.

"في الواقع أنت تستحق جلدا موجعا بالسوط أيها العجوز".

رددت الجوقة: "جلدا موجعا بالسوط!".

قال العجوز بصوت مذعور: "لكنني أراه يا عزيزي يوريماكوس!".

"يراه فعلا!".

قال يوريماكوس: "هراء، أنت لا ترى أكثر مما يراه الناس! لكنك تريد أن تسبب التشوش والارتباك؛ أتظن أنني لا أعرف ذلك؟".

"يريد أن يسبب التشوش والارتباك!".

"لكن يا عزيزي يوريماكوس الطيب، تنبأنا من قبل بأنه في السنة العشرين..".

"تنبأنا من قبل بأنه في السنة العشرين..".

هز يوريماكوس كتفيه استخفافا؛ ونظرا لأنه كان واقفا فقد ألقى في الناس خطبة وجيزة.

"هذا المسمى بـ'المجلس الشعبي' برمته عبارة عن حمق وغباء. مع المتنبئين والعرافين وأمثالهم! أما هدفه فهو تمكين تيليماكوس من تأخير التطور الطبيعي للمسألة! وكأننا في الحزب لم نعرف أفضل ما يناسب المدينة! لكن عند رؤية تيليماكوس يفعل ما يريد برغم معارضتنا جميعا هنا، فإننا سوف نحل المسألة نهائيا عن طريق دفعه إلى أن يطلب من والدته، 'المحترمة المبجلة'، أن تسافر إلى أبيها القدير ايكاريوس ، وأن تنتظر هناك حتى يقرر من الذي ستختاره. يمكنها دوما أن تساعده في هذه المسألة، ولسوف لن ننكث بأي عهد ـ ما زالت لديها أيام عديدة. وبعد ذلك ستحترم كافة الإجراءات الرسمية، ويمكن لايكاريوس ترتيب مراسم الزفاف، وبذلك سوف تعود إلى هنا وتصبح الحاكمة".

لم يتمكن تيليماكوس أن يقدم إجابة مفحمة؛ كان صوته منتحبا، وعاد صبيا مرة أخرى.

"هل يمكنكم توفير سفينة سريعة بحيث أبحر إلى بيلوس وإسبارطة، وأحاول تبين ما يعرفونه هناك عن والدي"، هكذا صاح بصوت أجش، وازدرد ريقه. "أنا..".

توقف عن الكلام.

قال مينتور أحد أصدقاء "الغائب" القدماء، الذي كان رسميا - وإن لم يكن عمليا - الوصي على تيليماكوس: "هذا أمر - كما أعتقد - توافقون عليه. يبدو أنكم لا تدركون جيدا من هو - الغائب! حاذروا من أن يعود!".

"ماذا؟ أجل، قال: إن عليهم أن يحاذروا من أن يعود الغائب..".

صاح ابن يونور الشاب، ليوكريتوس، ونظر حواليه بحثا عن التشجيع: "إذا أتى سنستقبله - بطريقة تناسبنا. فنحن لم نولد بالأمس!".

قال انتينوس بصوت سلطوي: "الآن دعونا ننهي هذه المهزلة!".

"ماذا! أجل، لسوف يستقبلونه بالطريقة التي تناسبهم، كما قال!".

انفض المجلس وسط أحاديث غير مفهومة - كان هزيمة واضحة لتيليماكوس.

مشى متمهلا باتجاه الميناء والكلبان يقفزان حوله.

* *

كل ما عُرف عن الأحداث التالية في ذلك اليوم هو أنه قابل المدعو مينتيس القادم من تافوس في خان نويمون، قرب الميناء، وأنهما تبادلا الحديث. بعد ذلك أمضى هو والرجل القادم من تافوس عدة ساعات في أنحاء متفرقة من البلدة وفي القرى المحيطة. قابل رفاقا وأصدقاء قدامى يمكن أن يعتمد عليهم. لم يكن يحاول تشكيل حزب، بل تجميع طاقم. حين عاد - مع كلبيه - إلى البيت، كان حوالي العشرين من الخاطبين يجلسون في القاعة الكبرى، يتسلون بالألعاب اللفظية والكلمات في انتظار العشاء.

رفع انتينوس وجهه الداكن المكشر نحوه وصاح في نبرة تصالحية:

"تعال، ولا تكن خجولا مثيرا للرثاء! لم لا تجلس وتلعب وتأكل وتشرب مثل البشر!".

بل نهض ووضع يده على كتف "الابن":

"تعال يا فتى، واستجمع قواك!".

حرر تيليماكوس نفسه منه.

قال ببرود: "أعتقد أنك متصاب تماما. عمتم مساء".

دخل إلى غرفته وأرسل في طلب يوريكليا. أمضى الاثنان وقتا طويلا يتحدثان حول مختلف الشئون. في وقت لاحق من تلك الأمسية، بعد العشاء، حين عب الضيوف كفايتهم من الشراب وقصفوا وعربدوا، تسللت العجوز والابن إلى غرفة المؤونة.

رفعت العجوز يديها:

"يا لها من فكرة! لن أقول المزيد! من أين حصلت عليها؟ إلى البحر.. أنت! سأقسم أن لا دخل لي في الموضوع! اذهب إن أردت".

ضحك لها ضحكة نصف مكبوتة:

"ألا تريدين أن اذهب؟".

قالت العجوز بصوت كصوت الدجاجة:

"لمَ أريدك أن تذهب؟ أعتقد أن عليك البقاء في المنزل. حسنا، ماذا تريد أن تأخذ؟ ليس هناك العديد من الأيام المرعبة في متناول يدك".

حين زاد المرح والعربدة داخل القاعة الكبرى، وازداد الليل حلكة في الخارج، أتى أربعة رجال من الميناء وحملوا صناديق المؤونة. سفينتهم تنتظر خلف اللسان الداخل في البحر، وكان هناك غيرهم ينتظرون. لسوف يجدفون بهدوء إلى الرأس الجنوبي، حيث ستدفعهم الرياح الغربية التي تهب على الجزيرة ليلا.

قال تيليماكوس ليوريكليا:

"بخلال بضعة أيام ستبلغين أمي أنني لا أقيم مع جدي. إن سألت. وبمقدور الآخرين أن يفكروا بما يريدون".

قالت:

"لربما لا يكون نستور كما تظن. لا تنس أنه عجوز في أرذل العمر. لكنه ما يزال رجلا قويا جدا".

كان المركب بعشرين مجدافا، يملكه نويمون، وبني ليكون سريعا. نشروا الشراع تحت جرف لسان الأرض الداخل في البحر. كان مينتيس القادم من تافوس معهم؛ أما سفينته فستتبعه قريبا.

* *

وفي ذلك الصباح - بعد عدة أيام - علمت المرأة "الكهلة" "المنتظرة" بالأمر، بعد أن مشطت شعرها ابنة دوليوس الخائنة التي تزداد بدانة. يمكن للمرء علاوة على ذلك، أن يخمن بأنها اشتبهت بما حدث كثيرا. هل أرادت أن يقوم بالرحلة؛ يستحيل الإجابة عن ذلك بعد مرور هذا الوقت الطويل.

وقفت أمام النافذة ونظرت إلى ميلانثو التي قابلت لتوها انتينوس في المدخل، ورأتها تعبر الباحة الداخلية. تبعتها القطة وهي تمسك الفأر بأنيابها.

قالت السيدة إلى يوريكليا التي وقفت خلفها مباشرة: "في الواقع، لم أحب القطط أبدا".

- ١٥ -
بوسيدون

أتساءل متى ستهب؟ هكذا فكر وهو يجتاز الشراع نحو صندوق المؤونة في المقدمة لإحضار حزام النجاة. كاليبسو استخدمت تعابير طنانة لوصفه ودعته "حجاب أمان حورية البحر كي تلف نفسك به". كان على وشك أن ينحني حين حسب أنه لمح تخوم البر في الشرق - مثل ظل على ظل أشد حلكة. نظراته المحدقة التقطته أو كادتْ. بعينين يسيل منهما الدمع، حدق وهو جاثم هناك، محاولا التقاط شيء اختفى، وعاد، ثم اختفى. الآن، ها هو هناك مجددا. الآن غاب عن النظر وحلت الظلمة محله. ركض إلى مقعد التوجيه، وجلس منحنيا يحدق إلى ما وراء الشراع، ثم عاد جريا إلى المقدمة، لكن خط الحد غاب الآن نهائيا. رفرف الشراع بقوة. رجع إلى مجداف التوجيه. زوس! أثينا! لو أن هذه ساموس الصخرية وزاكينثوس الغابية! حاول أن يستعيد ذكرى ذلك الظل المختفي. بنى الجزر كما تذكرها، عدل الصورة العابرة - وعرف أنها قد تكون هي - أليس كذلك؟

توقف هبوب الريح في الجنوب. الموجة الأولى مست الطوف الذي صر بصوت مزعج. ربط الحزام حوله. كان يتجه في خط مباشر نحو الشمال. وفي كل مرة حاول فيها تعديل المسار قليلا جهة الشرق، مال الطوف على جانبه.

أبحر في مواجهة الريح طيلة الليل. في الصباح هدأت قليلا، وحين أرسل هليوس، الذي كان غائبا عن النظر، ضوءه الرمادي، بدأ المطر يغدق. كانت الرؤية محدودة، وفي كل اتجاه ظهرت قمم الموجات الرمادية المتراجعة. حاول المحافظة على الطوف متجها نحو الشرق، الشرق، الشرق! جلس طيلة اليوم، يغالب الكرى جفنيه، والتعب ذراعيه، والبرد جسده، يبله المطر، ويدفعه التيار من اتجاه إلى آخر، نحو الشمال الشرقي ربما. شاهد مرة جزيرة صغيرة، صخرة يتكسر عليها الموج. عبر قربها باتجاه بحر المساء الكئيب الموحش.

خيم الهدوء النسبي ساعات. ما زالت البحار مائجة، لكن إيقاع الأمواج متوازن. حين غاب ضوء هليوس في السديم الضبابي إلى يساره، عرف وجهة مساره: شمالا، ثم أصبح الجو مشابها تقريبا لليلة الفائتة.

فكر: أتساءل متى ستأتي العاصفة القوية.

لمس بأصابعه قطع الفلين وسيور حزام النجاة، وغمغم هامسا:

"لا يعني ذلك أنني خائف من أي شيء. أنا بين أيدي آلهة موثوقة وحسنة النية تجاهي. لكن حزاما كهذا يبقي المعدة دافئة. الحزام ليس اختراعا سيئا. قالت إن حورية بحر قذفت الحزام على شط جزيرتها. أنا لا أشكك بكلامها أبدا، لكن في هذه الحالة، كنا سنرى - على الأقل في الماضي - مثل هذه الأحزمة مرمية في كل مكان على الشطآن. الحورية وهبتك - من خلالي - حجابها، حسبما قالت. إنه حلية للزينة. حين تهب بشدة، عليك أن تتزين".

فك الحزام، ورفع ثيابه الداخلية، ثم ربط الحزام على لحمه العاري. قال جهرا: "يحافظ على الجسم دافئا وفي حالة طيبة".

ازداد عصف الريح. طوى الشراع بصعوبة شديدة. نظر إلى القمر؛ بدا صغيرا ولا يكاد يرى، فقد حجبته أستار الغيوم؛ لكن تابع مساره. معظم كوكبات النجوم غابت عن البصر، لكنه ما زال يهتدي بالنجمات الست. الريح هبت الآن من الجنوب الغربي واشتدت كثيرا، بينما ارتفعت الأمواج أيضا. ما زال الطوف يقاوم العوامل الجوية. فكر حين أصابه رذاذ الموج مرة بعد أخرى: لو يستطيع أن يتماسك. فكر وكأنه جائع، كأنه نادم لأنه لم يأكل المزيد من قبل، خلال كل الأيام التي انقضت: سوف يفسد الطعام حتما. وجدانيا وعاطفيا، تشبث بالآلهة، بالمقدس الرابض في قمة السماء وقاع البحر. وعبر بربرة من الكلمات الخالية من المعنى أتت ترانيم التسبيح، والصلوات، والوعد بالأضاحي التي تعلمها في شبابه، صلى "التباريح"، أو صلاة العشاء للسفر بالبحر. بدأت العاصفة تهب داخله، خارجة عن السيطرة: انطلقت من صدره، وأصبحت مشهدا مسرحيا مرعبا مثلته رياح قبة السماء التي قذفت بنفسها عليه من كل الجهات، واتخذت شكل إسفين، رأسا مستدقا بقوة إلهية مقدسة، أجل، ثقل رمس مصري اتكأ برمته على رأسها الحاد، ضريح ملك انقلب رأسا على عقب، نار مفاجئة لا تبصرها العين، ومضة برق خاطفة، سلسلة

صواعق من الهواء المضغوط دفقت عليه ماء يلسع كالسياط؛ و "هرم" من المياه انبنى في قاع البحر ليصل إلى السطح، هرم استهدفه من القاع بمهارة حاذقة، واتكأ على قمته طوفه الحقير الذي لا يكاد يرى، في حين كان يُقصف من الأعلى بالقمة المستدقة لهرم الرياح التي تندفع بعنف فوقه: كان بين فكي كماشة الآلهة، بين أنياب الآلهة! قوى البحر والسماء الهائلة التي لا حد لجبروتها هاجمته بضرباتها!

في هذره المبهم، في تراتيل تسبيحه الخالية من المعنى، في الأصوات التي نطقها دون تفكير، كمنت الدهشة أيضا. الراوي الذي سيعيد الحكاية بعد آلاف مؤلفة من السنين، يمكن أن يفسر الأمر كما يلي: تعلم الرحَّال، خلال السنوات السبع التي انقضت، أن يعتبر نفسه شخصا تافها لا أهمية له. الآن، في حمأة اهتياجه - وسط عصف الريح، وهياجِ البحر، والذعر الذي استمر دقيقة - ذهل الرحال لأن آلهة السماء والبحار، أو آلهة البحار وحدها بمساعدة الرياح الوحشية المربكة، تهتم به: في البداية، كان ذلك مجرد إحساس، ثم أصبح فكرة. ذهل لأنها اهتمت به بتلك المهارة الضارية والحذق الوحشي، تلك البراعة المتفوقة من العنف، بحيث شيدت هرمين اثنين، في السماء والبحر، والطبيعة، وتركت القمتين تلتقيان بدقة في المكان الذي تواجد فيه طوفه مصادفة في تلك اللحظة الاتفاقية. كان في المركز، في نقطة أصبحت فجأة عين العاصفة. أترعته خلال عدة لحظات غطرسة اليأس، تيه الرعب: لم يواجه أحد شيئا كهذا من قبل! استخدم لغته، لهجة الهذر المشوشة، لصياغة كلمات ضمت ذلك الفخر المذعور، والتي ترجمها أعظم مداحيه، أولئك الذين اقتربوا منه وعرفوه جيدا، إلى: أوه، أنا التعس الشقي! يا ويلتاه، أنا المنكود، يا لسوء حظي، لمَ ينبغي علي أن أعاني المزيد، ما الذي سيحدث لي الآن، وكيف ستسير الأمور معي؟

اجتاحت الأمواج الطوف: بضراوة. وصل الماء إلى حيث يجلس. لم يجرؤ على ربط نفسه بدعامات الدفة، وبالمقعد، لكنه تشبث بشدة به وبمجداف التوجيه. بين حين وآخر، تندفع موجة لتلطمه من الأسفل - صفعة هائلة مباشرة من يد الماء القوية تلك - والطوف يقف مسمرا لوهلة ثم يرتعش. حبل الشراع أصدر صريرا كوتر القوس المشدود حين عصفت به قوة الريح. فكر: لو أصاب طرف السير الجلدي عيني لفقأها. صرخ، استحث، هتف مشجعا طوفه: هيا! تماسك يا صديقي! لسوف ننجو! لكن لم يكن حتى لهذه الكلمات غرض آخر سوى إحداث الجلبة والضجيج.

لم يسمع شيئا حين انحلت الحبال والأوتار في المقدمة، لكن عندما بدأت ألواح الخشب تهتز وتترنح وتنهار تحته، عرف أن كل شيء سيحدث في اللحظات القليلة التالية، وأن النهاية وشيكة. بربر بلسانه حين عصفت الريح بالطوف وتخلخلت الدعامات وسقط الصاري والشراع بشكل مائل على المقدمة. تحطمت جرار الخمر والماء داخل صندوق المؤونة الذي عام في المياه: أنا في أيدي آلهة طيبة، ودودة، رائعة. في تلك اللحظة مال الطوف، وألواح الخشب التي ظلت متماسكة بفعل سيور الجلد المتينة أصبحت مثل يد ممدودة وانقلبت على جانبها؛ قفز من مقعده حين انقلب.

ملأ فمه طعم الملح، شخر، وسعل، وسبح ليتجنب الغرق؛ في اللحظة التالية اكتسحته موجة جديدة. حين نهض، تلقى لطمة قوية على كتفه الأيمن - الآن سأغرق! - تشبث بمجداف التوجيه. شعر بأن حزام الفلين هو الذي يبقيه عائما، شده أكثر تحت ذراعيه ووضع مرفقيه على المجداف. انتصب عموديا مع الموجة التالية، التي حملته هو أيضا، لكن تمكن بدفعة من يده اليسرى أن ينتقل إلى منتصف المجداف بحيث أصبح مستويا: تشبث به بإحكام. فكر: لم تنكسر أية عظمة، العظام سليمة. آلمه ذلك، وقال في نفسه لا بد من وجود خدش. تبين له أن الطوف ليس بعيدا عنه، وشاهد بجانبه قطعة خشب عائمة. بعد الموجة التالية أصبح أقرب إليه؛ أربكتهما موجة عنيفة، فترك المجداف وتمسك بقطعة الخشب. أمكنه تسلقها وشعر براحة أكبر.

تأرجح مع الموج بحركة رتيبة. أدرك أنه منهك. وشعر بوخز الألم في عينيه بفعل الماء المالح، وفي كتفه وركبته. أصبح الماء أكثر برودة مما كان قبل برهة. ما زال يتأرجح. اكتسحته موجة، وكاد أن يفلت الخشبة. تيقظ فجأة وقذف بنفسه إلى الأمام وتشبث بها من جديد. استطاع أن يفك عروة الحزام حول ثيابه الداخلية ويتخلص منها. ربط الحزام الجلدي حول الخشبة وخصره؛ كان طوله كافيا، ووضع اللسان في آخر ثقب.

أريد العودة إلى الوطن، إلى الوطن، إلى الوطن! الهذر اتخذ معنى دلاليا، الكلمات خدمت غرض تقوية وتغذية الإرادة. فكر بحمق: أنا بين أيد أمينة؛ أريد العودة إلى الوطن، فكر بذلك ومَأنَ إرادته بالطعام والشراب. أغمض عينيه وتأرجح صعودا وهبوطا، حمله الموج، بزبده ورذاذه، دوامة قمم الموجات لطمت أذنيه ومنخريه، لكن الموج لم يكتسحه أو يصرعه. في بعض الأحيان نأى في أماكن غريبة؛ شربوا

وثملوا وقاؤوا كالخنازير، هكذا فكر بالكلمات لا بالصور، بالترجيع الرتيب لصدى الحكاية المروية، ما زالت في أذنيه بقايا من ذكرى شيء سمعه. كذبتُ حين قلت إنني أغلقت فوهة بركان، تذكر دون أن يتذكر شيئا خلا الاسم: بوليفيموس، شيء له علاقة بحياته. ما زال يتأرجح. أريد العودة إلى الوطن. وتلقت إرادته لقمة طعام، قدحا من الغذاء. هنالك جهة وحيدة لكل رغباته الآن، على قمم الأمواج، في الدوامات. ذات مرة فكر في خضم الموج المتلاطم: لا شيء يهمني الآن. لا يهم كيف تبدو الآن. كم هم حمقى. كيف يبدو تيليماكوس. كم أنا متعب ومرهق. أريد العودة إلى الوطن.

في لحظة طويلة من الصفاء أتت مع التعب والإرهاق، أعلن ولاءه وتقديره ـ بلسانه ـ للآلهة (كوسيلة نفعية) مسبحا بأسماء العديد منها. أثينا أنت عادلة، معينة، ذكية. هليوس، أنت جواب الآفاق، حارق، مطارد الظلال، أن تزود يد الأرض الممدودة بضروريات الحياة، بالدفء الرائع، لكي تصبح خضراء مشجرة وتنبت القمح والعشب، لتعطي اللحوم المشوية والثمرات، وأنت تهبها الضوء حتى نرى كل الجمال الذي تصنعه. زوس، أنا أحبك، أنت ساكن في قلبي وكل أفكاري، أنا معجب بقوتك، وذكائك، وسلطتك. هرميز، كانت هذه رحلة ممتعة. أثق تماما بكل ما تقول. أنت رسول رائع، لا تنطق إلا بالحق دوما، ولم يعرف عن أحد في جماعتك أنه سرق شيئا. أنت راعي الصدق وحامي حمى الحقيقة، أنت الأمانة ذاتها. وأنت سريع رشيق، أنت الأسرع والأرشق.

فجأة، ذكرت شفتاه اسم بوسيدون. بوسيدون، أنت لا تريد لي سوى الخير. أنا ممدد أتأرجح سعيدا بين يديك، على موجاتك الناعمات. أنت تطوقني بود عظيم. بسبب غبائي، غبائي البشري، قلت وفعلت أشياء تعاقب عليها بعدلك ـ بعفوك الرحيم. أنت.. أجل، أنت ـ من عدة نواح ـ السابق، ولك المقام الأول على كل الآلهة. أنت جميل وذكي في آن.

فكر، صرخ، زمجر (كل الحالات متماثلة في ذلك البحر الذي لا يوجد فيه من يسمعه): "أريد الوصول إلى الوطن!". امتلأ فمه بالماء المالح. شعر بأن لسانه ليس منه، وتشنجت حنجرته.

ما زال يتأرجح صعودا وهبوطا. الرعب نفسه غط في النوم على الإيقاع الرتيب.

في لحظة صفاء أخرى، قبل أن يبزغ الفجر مباشرة، فكر: سيكون هذا اليوم الثامن عشر أو التاسع عشر، مجرد بداية. أنا أترحل منذ عشرين عاما. لا، منذ سبعة عشر أو ثمانية عشر يوما، وتلك عشرون سنة. هذا لا يجوز، لكن لا أبالي.

مع انتشار الضياء رأى أرضا. في البدء لم يدرك ما يراه. نتأت خارجة من البحر فجأة وقطعت اتساق المشهد كلسعة السوط: شعر بوجع في مؤخرة عينيه حين أدرك أنها أرض. بر، صخرة. أرض صلبة يتمدد عليها. ساحل.

وبعد ذلك مباشرة أدرك أنها بعيدة.

أغمض عينيه لبرهة. ما زال يتأرجح.. فوق، تحت، فوق، تحت. حين فتحهما مجددا وخرج من الدوامة التي سحبته إلى الأسفل، رأى أنها لم تقترب. انسبل جفناه مرة أخرى. تأرجح، وتأرجح، فوق، تحت، فوق، تحت. تصلبت رجلاه، وآلمه الحزام تحت ذراعيه. فتح جفنيه من جديد. على قمة الموجة رأى أنه اقترب. ظل التيار لعدة ساعات يجرفه نحو البر.

استيقظ حين كان وجهه تحت الماء؛ كان باردا، ووضع لوقت طويل وجنته على قطعة الخشب المسطحة المقطوعة المتأرجحة، وسعل. تدلى جسده بصورة مائلة، وشعر بأن رجليه واهنتان لا حياة فيهما. لم يشعر بالبرد، لم يكن خدرا، لم يكن عائما، كان معلقا في الماء يتأرجح كثمرة على غصن. هنالك ضغط في أذنيه، داخل رأسه. الطرف الخشن من قطعة الخشب احتك بصدره وساعديه؛ وحسب أن البحر أصبح هادئا كأنما نأى عنه.

أراد أن يفتح عينيه، لكن لم يتمكن من الرؤية إلا عبر شق ضيق. تدفق الضوء، كان الضوء ملحا وموجعا، وواخزا. في المرة التالية التي ألقى فيها نظرة "سمع" الضوء، كيف تفجر ودوى داخله؛ أغمض جفنيه أمام دفقه وطوقته العتمة، عتمة بارقة، متقدة بالشرر، متوعدة مهددة، حمراء وصفراء. حين استطاع فتح عينيه من جديد أدرك أن الماء يجرفه باتجاه ساحل صخري تنحدر نحوه الجرف الشاهقة. الجرف العالية الداكنة، الخضراء، المتلألئة كانت في انتظاره هناك. فكر: لا بد أن أصل إلى رأي. بخلال لحظة أو اثنتين تمكن من بلوغ أقصى قدرته على التفكير، القدرة التي وهبتها الآلهة الودودة الحامية إلى الإنسان حين يعوم هائما في البحر على غير هدى: لا بد أن أقدر المسافة.

مرة أخرى آلمه تقرح عينيه، لكنه تحمل حتى تمكن من الرؤية. كانت الطيور تحوم حوله، والمياه تكسو الصخور الداكنة المثلمة بإزار أبيض شائك من الزبد. أرعبه الأمر قبل أن يفكر به. يجب أن ابتعد من هنا. أنا قريب جدا، يجب أن أبتعد. الموجة الطويلة انسلت من الخلف ثم ارتفعت وتفجرت زبدا يشبه بياضه الكتان. التفت ونظر مرة أخرى، رأى ذاك الجدار الأبيض من الزبد يتلوى على طول الشاطئ المحاصر بالتلال

الذي امتد من اليمين إلى الشمال ـ شريط مزركش من المياه المدوّمة التي تغسل الصخور. فكر: لوح الخشب. أجل، سوف تتحرك رجلاه. توجع مع كل ركلة. اليمين، الشمال، اليمين، الشمال. لم يكن يشعر بقدميه. هنالك شيء ما هناك، شيء وخزه، ألم ـ لا زالت قدماه هناك. حرك كفيه، ثم ذراعيه. أحس بوجع في كتفه حين تحرك على لوح الخشب. فكر: المسافة قريبة. يجب أن أسبح. يجب أن أرى.

كان التيار يسحبه باتجاه الصخور. فكّر: لوح الخشب. تمكن من الرؤية مجددا. وتدبر أمر رفع اللسان، السير الجلدي كان ملقى على لوح الخشب؛ ثم انزلق من فوقه، وغاص في الماء. وتركه حين أتت موجة جديدة، ودفعه عنه وسبح. لم يعد يظهر منه فوق سطح الماء سوى رأسه، لكن حزام النجاة جعله يطفو. شعر بالراحة. سبح مجددا والعتمة تمنع عينيه من الرؤية. حين التفت وحدق باتجاه البر، رأى لوح الخشب يتأرجح قرب حافة الزبد. في المرة التالية التي أمكنه رؤيته، كان محمولا على الزبد، ثم ارتد وغاب عن البصر. كانت الشمس مشرقة. سبح بقوة والشمس خلفه. أصبحت الرؤية الآن أكثر سهولة. حين سحبه التيار، سبح بحركات خرقاء متصلبة.

ذلك خليج صغير، احتمال. حين حمله الموج قرب صخرة أمسكها بيديه، وقبض على نتوءاتها الخشنة، وتمكن من التعلق بحافتها بينما اندفع الماء فوقه. شعر بأن أصداف الرخويات الحادة تسحج ركبتيه، وتنتزع الجلد من راحتيه. موج البحر العاصف كله تدفق فوق كتفيه ورأسه، أحس بكراهية البحر. لن أتركها، لن أتركها، لن أتركها. لكنه لم يتمكن من الصمود هناك، سحبه التيار الجارف وعاد فجأة إلى حيث كان. رفعه الموج فزحف، وركل، وتلوى، وألقى بنفسه إلى الأمام. والآن، اجتاز حافة الصخرة. شعر بقاع حصوي يلمس ركبتيه، تعثر وسقط، لكنه نهض من جديد، وحين انحسر الماء تمكن من المشي بضع خطوات مترنحة. نثار المياه المرتد من الصخرة القريبة منه بدا كالضباب حين اندفعت الموجة التالية؛ طفا بفضل حزامه الفليني وحرك ذراعيه بضع مرات، وترك الموج يحمله نحو الشط. حين تراجع الماء مجددا، كان راكعا على ركبتيه ويداه بين الحصى، نهض وتعثر بضع خطوات وسقط، الموجة التالية دفقت زبدا عليه، لامس الماء كتفيه، ورفعه بضع بوصات عن القاع، ثم لمسه مجددا، بلغ الماء أعلى ساقيه. سار بضع خطوات أخرى، سقط، نهض، حاول أن يركض، سقط من جديد. مرة أخرى حمله الموج، وسحبه نحو البحر، أراد أن يجره بقوة كرهه للبشر. تدحرج،

وثبت قدما، ثم رمى بنفسه إلى الأمام، وتشبث بموقعه هناك. حين لم يتجاوز عمق الماء مستوى ركبتيه، تمكن من الجري، لكنه سقط، ثم نهض، وركض بضع خطوات، وسقط من جديد. الرذاذ انتشر فوقه، والموجة الآتية لطمت أسفل قدميه ومؤخرته، لكنه تمدد حيث كان. تأوه؛ كان أعمى، ومقعدا، ومحطما. لم تصل إليه الموجة التالية. ركع على ركبتيه وزحف عبر الزبد. الهدير أصبح أبعد مسافة.

تحسس مزقا من الطحالب، والأصداف، والحصى الملساء؛ شعر بالرمل تحت يديه وركبتيه. الرمل: فكر بنعومته تحت كفيه. هذا رمل. تمدد لوهلة وهو ينشق الهواء إلى رئتيه، هنالك حشرجة في حنجرته. سال الماء من فمه وأنفه. رفع جسمه متكئا على ركبتيه ومرفقيه وهو يتقيأ.

إنه مصب أحد الأنهار.

ألقى نظرة على المكان، ومض بلون أصفر وأخضر. فكر: عشب. عشب وشجر. تمدد دون حراك وترك الأرض تتأرجح. شعر برغبة في التقيؤ مجددا، وحاول. انغرس مرفقاه في الرمل الجاف، كان دافئا؛ الجزء الأسفل من جسده بقي في الماء الذي زاد برودة. فكر: إنه بارد. الماء بارد.

زحف مسافة أبعد، تمكن من التدحرج على ظهره في الرمل. الماء ملأ إحدى أذنيه؛ سمع صوت غناء فيها، ضايقته. مال برأسه على الجانب، لكن الماء لم يخرج من أذنه. ألقى نظرة أخرى، أمكنه رؤية الأشجار بوضوح أكبر. اختفى النهر، بمجراه العريض بين الشجر. على أحد الجانبين، باتجاه المنحدر، هنالك عشب وأوراق شجر. أوراق شجر سقطت من الأغصان في الخريف. لا يمكن أن أتمدد هنا. البحر يبحث عني. البحر خارج يبحث عني. لسوف يصل إلى هنا. زحف مسافة أبعد. الطريق طويلة لا نهاية لها بين الرمل والعشب والأوراق. كان البحر يطارده، خرج باحثا عنه، محاولا اختراق مخبئه وإحضاره. لمس جدار الصخرة. كان أكثر دفئا من الرمل. فكر: الدفء. هنالك دفء فيها.

تمكن من النهوض على ركبتيه. كانت الأرض تميد، وتوجب عليه أن يتشبث بالصخرة التي بدأت تتأرجح معها وتريد أن تنقلب فوقه. نجح في المقاومة وإجبار الصخرة على الثبات. بعد برهة، نهض على قدميه، وقف، لكن للحظة، ثم سقط وبقي ممددا. احتكت ذراعه بالصخرة. فكر: لا بد أنها كشطت جلدي. لكن ذلك لا يهم.

حاول أن يقول بصوت عال: "لا شيء خطيرا".

بعد لحظة، كان ممددا هناك، يبكي. فكر: إنها الأرض تلك التي ألمسها. نطق لسانه المتورم بالكلمات:

"إنها الأرض تلك التي ألمسها".

* *

لووا ذراعيه إلى الخلف وقالوا بأنهم سيشنقونه إذا لم يخبرهم. هل تعرف شعور من يضرب بالسوط على أسفل قدميه؟ قد نعلقكَ من قدميك ورأسُك إلى الأسفل، نحن رجال بوسيدون لا ندقق كثيرا في تفاصيل ما نفعل. كانوا رجالا من أقصى الجنوب ومن أقصى الشرق ومن أقصى الشمال، أرادوا أن يعرفوا. تكلم الآن، وإلا فسوف نكسر أصابعك. وقف طيلة الوقت. يمكننا أن نحطم خصيتيك: هل تتخيل ماذا ستشعر آنئذ؟ أي بطل عظيم ستكون بعدها! صرخ: لم يلمسوه بعد، لم يضغطوا عليه أبدا. لكن سنأخذ منك أصابعك، لأننا كرماء معك. هناك في الشرق يقتلعون الأظافر، واحدا إثر آخر، لكننا سنتلطف بك إذا تكلمت. حاول التفكير بكيفية تجنب إخبارهم. ضغطوا يديه بين لوحين من الخشب. نحن لا نقتلك لأننا رحماء بك. أنت حي وبإمكانك الصراخ. يمكنك أن تريل وتتقيأ حين نركلك في المعدة. افترض أننا سنفتح معدتك بحيث ترى بأم عينك أحشاءك وكل القذر الموجود فيها. لكننا طيبون معك. يجب أن تخبرنا كم عدد السفن، وكم عددكم فيها، وأين خبأتم الكنز، ومن أين حصلتم على الأواني الفضية والأطباق الذهبية؛ يمكنك الاحتفاظ بنصفها إذا تكلمت. إذن لن تتكلم. الآن سنقطع المفصل الأول في إصبعك الوسطى. هاك، انظر. يمكننا قطع الإصبع كلها، لكننا سنرأف بك؛ نحن أناس طيبون، نحن "بشر". أحدقت به الوجوه، كانت سوداء، وسمراء، وصفراء، وبيضاء. الآن سنقتلع إصبعا أخرى، من اليد اليسرى؛ نحن طيبون، انظر ولسوف ترى. هيا، سنأخذها. سوف نكوي النهايات لنوقف نزيف الدم؛ نحن كرماء معك. تكلم الآن، ثق بنا، لا نريد لك سوى الخير. أطلق زعقة حادة. ثم حشروا خرقة في فمه. بمقدورنا كسر فكك بدلا من ذلك، لكننا لن نفعل. نحن كرماء معك. الآن سنقتلع ضرسا. ثم قالوا: إذا لم تتكلم لسوف نرميك في البحر. نحن رجال بوسيدون. بعدها تكلم وأخبرهم. اسمي اوديسيوس. من ايثاكا. كنت مع الملك أغاممنون في الحملة ضد طروادة التي فتحناها ودمرناها. قتلت استياناكس، أنا أو واحد منا، وكان الأمر سهلا، لم يكن له وزن، قذفنا به من فوق السور، ثم نزلت إليه، أنا أو واحد

آخر، حملته من رجله وضربت رأسه بالأرض المرصوفة بالحجارة: كان الأمر سهلا، لم يكن له وزن تقريبا. كنت في طريق العودة إلى الوطن منذ مدة طويلة، وأنا الان بين أيديكم، آلهة، خالدة مخلدة، والذهب في مريء البحر، في بطن بوسيدون؛ غرق مع مراكبنا؛ ليس ثمة ذهب. قالوا: إذن سنرميك في البحر، لأننا رجال بوسيدون. صاح: لا، لا، لا، سأفعل كل ما تطلبون، سأخبركم بكل شيء، لكن لا تقذفوا بي في البحر..

فأفأ فمه، ولسانه السميك المسموم بالملح: "تقذفون بي في البحر، لا، لا، لا".

* *

أفاق، كان يشعر بالبرد، وبوخز مؤلم في عينيه، اللتين تورمتا حتى غمضت جفونهما أو كادت، الوجع برّح جسمه كله. كان الوقت مساء مع ومضة من ضوء الشمس بقيت على قمة المنحدر على الجانب الآخر من مصب النهر. كواسر الموج زأرت هادرة، أصاخ إليها، والزبد سال على الشط الحصوي تحته. فكر: أنا ممدد على اليابسة، على البر.

حزام النجاة كان يضغط عليه. جلس وحاول أن يفك العقد. مزقه في عدة أماكن قبل أن تستجيب السيور الجلدية. لهث بشدة واستلقى على ظهره ليأخذ قسطا من الراحة. لكنه أحس ببرد شديد. إذا تمددت هنا فترة طويلة فسأصاب بالرشح. جلس، ثم وقف وأمسك بالحزام بيده. تعثر وهو يخوض في الماء عكس التيار باتجاه أيكة الشجر. الضفتان هنا أكثر ارتفاعا، وعند المنعطف هناك رأى منصة للرسو أو مكانا للاغتسال أو شيئا من هذا القبيل. فكر: هنالك ناس يقيمون هنا.

رمى الحزام الفليني في الماء، ورآه يعوم مبتعدا حتى كواسر الموج. "حجاب حورية البحر"، هكذا قال أحدهم. لم يتذكر بوضوح من قال العبارة. أحدهم قالها. فكر بعقله العملي: كان حزام نجاة جيدا. ممتازا. إذا ما طفا عائما في البحر فلسوف يصل إلى شخص يحتاجه. أو يرمى على شط بحاجة إليه. أنا من جهتي لست في البحر. أنا على البر، أقف على اليابسة. أنا إنسان بشري على اليابسة.

تعثر وهو يمشي بين الأشجار. حفّت الأوراق الجافة تحت قدميه، وحول عقبيه. تمدد على ظهره تحت الشجرة العظيمة. قطف أوراقا ووضعها فوقه، نظفها وصنع منها غطاء بيديه الماهرتين. تغطى بالأوراق، وغاص فيها، وشعر بالدفء آتيا منها. أنا رجل أتمدد في مضجع دافئ على اليابسة. أنا رجل من مكان ناء فيما وراء البحر. أنا حي.

- ١٦ -
في بيلوس

سافر الشاب كأنه رزمة محملة على سفينة، وشعر لمدة طويلة بأنه كذلك. بعد أن خمدت الإثارة التي أحس بها في البدء، أصبحت المغامرة كلها أمرا بسيطا. دفعتهم ريح ثابتة هبت من الشمال الغربي في اللحظة التي استداروا بها حول لسان الأرض الممتد من الجزيرة داخل البحر. كان رفاقه على قدر كبير من الحماس والنشاط، فمن جهة استطاعوا خداع الخاطبين، الحزب، ومن جهة أخرى كان الإبحار على هذا النحو مغامرة عظيمة: في الحقيقة، عقد أولئك الأكثر رومانسية منهم مقارنة بينها وبين رحيل الأبطال باتجاه طروادة قبل عشرين عاما، الرحلة إلى الحرب التي قام بها آباؤهم وأجدادهم حين كانوا هم صبية في مقتبل العمر، أو لم يولدوا بعد. ابن "الزوجة"، سليل "الغائب"، ألمح إلى أنه لا يفكر فقط بزيارة نستور الجريني، ملك المدن في عالم الشعوب الثلاثة، والحاكم الفعلي للاتحاد بين بيلوس الرملية، وارين، وثريون، وايبي، وسيباريسوس، وأمفيجينيا، وهيلوس؛ ومن المحتمل أن يتابع طريقه إلى منيليوس في إسبارطة و - ربما - قد يصل إلى كريت. اكتسب "الابن" فجأة العديد من الأصدقاء. مينتيس، ذلك الرجل الذاهل الغريب من تافوس، الذي يشبه من الخلف مينتور، لكن يبدو وجهه أصغر عمرا، قام بدعاية مكثفة لـ"الوريث" حين كان في ايثاكا (ظهر فجأة في آخر لحظة وأراد السفر معهم في المركب: ستلاقيهم سفينته في مكان آخر). أحاط به أصدقاؤه كالترس، كالحاجز الواقي: بلغ عددهم على ظهر المركب عشرين نفرا. كان رفيقهم، وشعر بأنه صاحب ملك حين فكر بجرار الخمر الاثنتي عشرة، واللحم، والخبز، والطحين، والعسل الذي زودته به يوريكليا العجوز. أجل، سفينته كانت مخزنا عائما للطعام والشراب، سفينة نبيلة تعود ملكيتها إلى شاب يتيم الأب في تلك الآونة لسوء الحظ - ملأهم شعور بالحرية، وروح الشباب، وشهوة الترحال!

خلال عبورهم في الليل إلى البر، شعر بأنه "رزمة"، لكنها رزمة كريمة على نحو خاص، وأنه "لورد" نبيل. مسارهم اتجه نحو الجنوب تقريبا - الإبحار ترك بشكل كلي تقريبا في أيدي ذلك البحار المتمرس الاستثنائي، مينتيس القادم من تافوس - حتى نتوء الأرض الداخل في البحر مقابل زاكينثوس. بحلول الوقت الذي بدأ فيه الضياء ينتشر أوصلتهم الرحلة إلى أقصى مكان يمكنهم منه رؤية مركبة هليوس ترتفع خلف الجبال في أركاديا، وترسل ضوءا مبهرجا فوق البحيرة الواقعة إلى الشمال مباشرة من بيلوس الرملية: وصلوا إلى الشاطئ الرملي قرب نهر ألفيا، قبل أن تنشط الريح البرية، ريح الصباح الشرقية التي تتبع هليوس مثل مكنسة هوائية.

قال مينتيس: "هذه هي". ردد عدد من الرجال الآخرين: "هذه هي"، وفي خليج صغير دفعوا السفينة إلى أعلى موقع ممكن فوق الموج.

يبدو أن لبوسيدون مزارا هناك، أو على الأقل مذبحا لتقديم القرابين، وتوضحت في كل مكان آثار سوق كبيرة أقيمت مؤخرا لتقديم الأضاحي والقطعان. رست السفن على طول الخليج؛ السواح والتجار كانوا في المدينة يأخذون قسطا من الراحة؛ وما زالت النيران تدخن في أماكن عديدة، وكانت أكوام من عظام وقرون وجماجم الثيران المذبوحة أول ما لاقوه. قدموا على عجل ولا مبالاة قربانا، توترت أعصابهم، وبدأ عدد منهم البحث فورا عن خيول يفترض أن عددها كبير هناك، لكنهم لم يجدوا أيا منها.

قال مينتيس: "سوف تأتي، سوف تأتي".

هو الذي أخذ القيادة الآن. شعر الشبان بالخيبة والغضب حين أخبرهم بأن عليهم الانتظار حيث هم. لربما تخيلوا أنهم سيلقون استقبالا رائعا - بعد كل الدعاية التي أطلقها مينتيس في الأيام القليلة الماضية - وتذكروا كل ما سمعوه حول الأضحيات الجماعية من الثيران السوداء بقرونها المطعمة ومثل هذه الأمور؛ وهنا لم يقابلهم سوى جو حزين لا يوصف خيم على المشهد الذي اختتم الاحتفالات التي كان من المؤسف أن يصلوا إليها متأخرين. نبقى هنا؟ ننتظر هنا؟ فكروا بحكايا كؤوس نستور الذهبية العظيمة، وقصره الجميل، وقصص الرحلات، كما فكروا بالرحلة إلى إسبارطة ومنيليوس - والأجمل من كل شيء، بها، هي التي حلموا بها وتحدثوا عنها طيلة الليل - هيلين. تذمروا، وتجهموا، لكن لم يجدوا فائدة من التشكي والعبوس: كان عليهم البقاء والانتظار.

"يجب أن تروحوا عن أنفسكم بقدر ما تستطيعون، بينما نذهب نحن إلى المدينة"، هذا ما قاله لهم منتيس. "يمكنكم التزام الهدوء صبيحة نهار واحد - فلا أحد يعلم ما قد يحدث في المساء، أيها السادة!".

شعر تيليماكوس بالسخط والاستياء إلى حد ما. تنهد بينه وبين نفسه. كان قد ارتدى أفضل ما لديه من ثياب حتى قبل أن ترسو السفينة، والآن غلبه فجأة شعور بالدونية كذلك الذي يتملك سكان الجزر حين يزورون أماكن على البر مثل اليس بكل غناها بالخيول والقطعان. كان لديه شك بأن ملابسه ستبدو ريفية هنا في بيلوس، التي ظلت مقدسة منذ أمد بعيد. شخصية وسلوك مينتيس دفعته هو والآخرين إلى الشعور بأنهم مقيدون؛ فرض عليهم احتراما خوّفهم تقريبا. فمن المبالغة في تقديره قبل يوم أو اثنين، حين كان قريبا من أن يرفع مكانة الرجل القادم من تافوس إلى مرتبة الألوهة، وجد "الابن" نفسه الآن ينزلق على منحدر الشك والريبة. كان تيليماكوس قد سمع الكثير عن لعبة الخداع السياسي - دون أن يفهم معظم جوانبها - بحيث تسلى لبضع ثوان بفكرة أن الرجل القادم من تافوس قد يكون عميلا في خدمة قوى أجنبية ومعادية.

لكن شخصيته النبيلة البريئة وغير النزاعة للشك كان لها اليد الطولى. قال بصدق: "أشعر وكأنني عجوز قروية. والآن لا أدري ما أقول إلى نستور".

لعبت أصابع مينتيس الرشيقة الأنثوية بلحيته الطويلة الناعمة التي لمعت كالذهب، وشم تيليماكوس عبير العنبر الواهي. وسمع خلفه جلبة أصدقائه الذين لم يعتادوا بعد على حمل أفضل ما لديهم من أسلحة؛ بعضهم حملوا تروسا طويلة استعاروها خلسة من آبائهم، كأنما هم ذاهبون للحرب. كان مكتئبا، ومترددا ومتشككا.

قال الرجل القادم من تافوس: "لا تقلق. أعرف بالضبط ما هو شعورك. الأمر يشبه دوار البحر؛ أنت تشعر بالضعف والعجز. لكن لدوار البحر تلك الخاصية المبهجة، حيث يزول حالما تضع قدميك على الأرض الصلبة. تذكر فقط ابن من تيليماكوس والمهمة التي تنكبها! الآن، هيا تعال!".

سار الاثنان قليلا على الشاطئ الرملي، ثم صعدا دربا حفرته عجلات العربات

يخترق الأراضي السبخية المكسوة بشجيرات قصيرة، لكنهما سرعان ما وصلا إلى طريق أفضل وأعرض. شاهدا فوق الأرض السبخية أكواخا ثم بيوتا حجرية صغيرة، ثم لاحت أسوار المدينة العالية. تعرج الطريق المريح بصورة نصف دائرية حول التلة. وحين وصلا إلى البوابة المفتوحة في أسوار المدينة، تجمع حشد صغير من الناس حولهما. حدق سكان المدينة بمينتيس - على وجه الخصوص - الذي بدا رائعا بهيا وهو يرفل بحلته البيضاء المطرزة بخيوط الذهب، وخوذته الطويلة الذهبية، ورمحه البديع، ودرعي الساقين بلونهما الأبيض، وصندله الأحمر، وشعره الأشقر ولحيته الذهبية: كما حمل على ذراعه عباءة بيضاء مطرزة بالفضة. من ناحية أخرى، بدت ملابس تيليماكوس رديئة، وقد احمر وجهه وتعرقت يداه بفعل الحرارة والتوتر. مرة تلو مرة، سعى لاستنهاض شجاعته، وتعديل مشيته، والسير بخطوات رجولية مهيبة. فكر: أعرف ابن من أنا! فهو لا يعتبر أسوأ من الناس هنا! لا بد أنهم سمعوا عنه! فهو موجود في أغانيهم! لست بحاجة لتملق أحد!

مع ذلك، لم يتركه خوفه.

قال الرجل القادم من تافوس: "تابع السير!".

كان يمشي متقدما عليه بثلاث خطوات على الأقل. في الواقع الفعلي، كان في تصرفه وقاحة ساخرة، لا بد أنه متأنق معجب بنفسه، مما يجعل من يسير معه يبدو كخادمه. ألقى عليه مينتيس نظرة متسائلة من عينيه الخضراوين؛ تبادلا الابتسام.

"أما زلت متوترا؟".

قال تيليماكوس: "لست معتادا على مدن البر هذه".

سار الاثنان في طريق عريض، وعبرا سوقا كبيرا، بين دارات وبيوت مرتفعة ومنخفضة. وصلا إلى مكان مرتفع أمكنهما من فوقه رؤية ما وراء أسوار المدينة.

قال رجل تافوس وتوقف عن المسير: "راقب هذا المنظر، فهو يهدئ الأعصاب عادة"..

أمكنهما سماع هدير الأمواج البعيدة أسفل التل، لكنهما لم يشاهدا سوى جزء من خليج الميناء. زادت حدة بصره كأنما وهب عينيْ إله. البحيرة الضحلة ربضت إلى اليمين باتجاه الشمال، وخلفها نتأ رأس الأرض المدبب الداخل في البحر. أما إلى اليسار فقد

لاحت زاكينثوس الغابية / الصخرية، وفوقها يمكن رؤية تخوم ساموس الجبارة، وفيما وراءها، ايثاكا، المختفية تقريبا في سديم حرارة الجو العنبابي. بدت جزيرة الوطن ضيقة وعديمة الأهمية، جزيرة ماعز صغيرة بين أراضي ساموس وليوكاس. التلال بدت منخفضة كثيرا؛ كانت جزيرة صخرية صغيرة، ثؤلولة، جعدة في قماش البحر الأزرق اللماع.

هنالك سفينة سوداء طويلة طوت شراعها وفصلت صاريها عن سناده، كانت تجدف باتجاه ميناء بيلوس.

قال مينتيس: "تلك هي سفينتي".

قال تيليماكوس بصوت متحشرج: "أنت ترى بصورة ممتازة من هنا". قال الرجل الذي ادعى بأنه قادم من تافوس: "أجل، كل شيء يصبح مختلفا جدا حين تراه عن بعد".

"انظر، القصر أمامنا مباشرة".

فكر تيليماكوس بما سيقوله من قبل، لكنه لم يسأل عنه:

"أتيتَ إلى هنا قبلا يا دوق مينتيس؟ يبدو أنك تعرف كل شيء".

"أجل لدي فكرة تقريبية عن المكان. لقد سافرت كثيرا".

كان القصر عبارة عن بناء أبيض مرتفع، وأكبر من البيوت والدارات التي سارا بينها. جماعة من الجند خرجت بانتظام من الباحة الأمامية، شمال/ يمين، شمال/ يمين، فيما يبدو أنه تدريب الصباح على النظام المنضم. شعر تيليماكوس بخيبة الأمل والسرور الحاقد في آن لرؤية أن مشية الرجال لم تكن أفضل مما ينبغي؛ اعتقد أن أعضاء منظمات ايثاكا الحربية أكثر نشاطا وحيوية. فقد كان الجنود يمشون بتكاسل وبلا مبالاة؛ ويحملون دروعهم - رغم أنها قصيرة وحديثة - كأنما يحملون صواني فارغة، ورماحهم كأنهم سيقتلعون الأحجار بها؛ في حين تدلت سيوفهم وأقواسهم وقرقعت بحيث شابهوا أولئك الذين يثيرون الطرائد من مكامنها.

شمال/ يمين، شمال/ يمين، إلى اليمين در؛ إلى اليسار در؛ إلى الأمام سر!

تعثرت الصنادل، ودخنت الأرض. وخلف جماعة الجند، برز شابان رشيقان من مدخل الفناء. رمقهما الجنود وجروا أقدامهم باحترام أمامهما. توقف مينتيس وانتظر.

لم يكن أي منهما طويل القامة على نحو خاص، لكن بدا قويا موفور الصحة. وما كادا يصلان إليهما، حتى انحنى مينتيس انحناءة رسمية.

"أتساءل هل بالإمكان مقابلة الملك نستور؟".

توقف الشابان. لا بد أنهما في العشرين من العمر تقريبا. بدا الأول متيقظا تبدو على وجهه أمارات الريبة والغطرسة. أما الآخر صاحب الكتفين الأعرض فقد بدا متبلد الحس نوعا ما، في عينيه حول، أجل هنالك خطأ ما في عينيه، إنه أحول بالتأكيد.

قال المتيقظ المرتاب: "ادخلا إليه. أنتما بالطبع غريبان؟".

أجاب مينتيس بتحفظ: "أجل، وصلنا للتو بالمركب من الجزر".

قال المتيقظ بصراحة: اسمي بيسيستراتوس. نستور هو والدي. أبي في الداخل هناك يتناول طعامه الآن. تعالا، سآتي معكما. هذا أخي ثراسيميديس".

حدق ثراسيميديس إليهما بعينه الحولاء، وهو يطرف من حين لآخر. فغر فاه، فهناك شيء يعيق تنفسه من أنفه، وتدلت شفته السفلى. حك البقعة الواقعة خلف أذنه بلا مبالاة. بدا أحمق وبسيطا لكنه كان لطيفا، وهذا ما جعل تيليماكوس يشعر بمزيد من الثقة بنفسه.

حاول أن ينحني ويبتسم.

قال: "الجو جميل، والنسيم عليل في هذا اليوم"، لكنه ارتبك وتورد وجهه في اللحظة التالية وشعر بالاضطراب حين رأى نظرة مينتيس الساخرة لكن الودودة.

أجاب ثراسيميديس منهيا الحديث: "أجل، أليس كذلك؟".

شرح بيسيستراتوس، مشيرا إلى الميناء: "احتفلنا بالعيد يوم أمس ـ والكل متعب إلى حد ما اليوم".

حين ساروا عبر الباحة الخارجية، بذل تيليماكوس مزيدا من الجهود لاستنهاض شجاعته. ورنت داخل رأسه، على شفير الصمت، بعض الكلمات التي قالتها له يوريكليا ذات مرة في الصيف الماضي: فكرْ دائما بمن تكون. الآخرون خائفون أيضا من.. الناس الآخرين. وإن صادفت أي شيء مروع، تذكر أنه يوجد على الدوام ما يفوقه ترويعا. حينما تصل إلى ما وراء كل ما هو مريع، إلى صميم الكريه البغيض، بحيث تجلس هناك كأنك خلف لوح مصنوع من قشرة بيضة رقيقة ـ عندئذ حطم اللوح. ما تراه

قد يكون الأشد ترويعا وإثارة للاشمئزاز. لكن يجب عليك أن تنظر إليه - لأن احتمالات الحياة تكمن وراءه. حياة جديدة تبدأ خلفه. لا تغمض عينيك يا ولدي! لم يفهم حكمتها إلا عاطفيا. الآن، بذل جهده ليستمد القوة منها. لا تنس أنك لست رجلا كامل النضج، هكذا قالت يوريكليا متظاهرة بأنها تحدث نفسها، لكنه عرف تماما أن العبارة تقصده، لا تنس أنك لست شخصية بارزة فريدة، لكن تذكر أن الآخرين لا يغيب عن بالهم أيضا أنهم على شاكلتك. وأنت تفعل حسنا حين تظهر لهم أنك عارف بالأمر، إذا لم يعرِّض ذلك حياتك لخطر فعلي.

عبروا باحة داخلية يقع في طرفها الأيسر مخزن للمؤونة أو مخادع للنوم، إضافة إلى مذبح ناري مع مقعد للذبح وطاولة للقرابين إلى اليمين، ومن المفترض على ما يبدو أن المذبح مقام لبوسيدون، فله تأثير كبير في عقول الناس هنا، أو هكذا تخيل. خطوا فوق العتبة المرتفعة ودخلوا القاعة. وعلى نحو مفاجئ لم يعد خائفا. رأى الرجل الذي لا بد أن يكون نستور.

كيف تصور ذاك الرجل العجوز الشهير؟ لم يتذكر. برز من داخل قشرة البيضة ولم يكن هناك شيء يمكن أن يقاطع نظرته المتفرسة في كل اتجاه، حتى نحو المجهول. حلم بمحارب إلهي عملاق، راعي الرجال، أسد البر، فحل جامح برأس إنسان، أمير البحر والقائد الأعلى لتسعين سفينة عظيمة انطلقت ضد طروادة؟ حلم بصليل السيوف، بصوت كالصور، كرعد زوس، كزئير بوسيدون الهادر من الشمال إلى الجنوب؟ لم يعد يهم الآن. لقد رأى رأي العين.

كان نستور عجوزا ضئيلا ذاويا، بلحية رمادية/ بيضاء بالغة القذارة. وحين تقدم نحوه تيليماكوس، بعد وكزة من مينتيس، الذي كان بجانبه، لا، خلفه بنصف خطوة، والرجال في القاعة الكبرى يحدقون إليهما، تسلق خارجا من قشرة البيضة مع كل خطوة يمشيها، هكذا شعر. جلس العجوز في مقعد منجد مرتفع المسند خلف الموقد المحاط بأربعة أعمدة. على الطاولة أمامه وضعت كأس خرافية الجمال وزبدية. حدقت عيناه ببصرها الحسير، في نظرتهما المحدقة طيبة، وعلى محياه ابتسامة مترددة متسائلة متشككة لرجل في أرذل العمر. قيل في ايثاكا إنه عايش أربعة أجيال، أو ربما ثلاثة، وإنه ظل بكامل قوته وقدرته إلى ما قبل عقد من السنين. بدا وكأنه قد

عاش عشرة أجيال، ولم يعد يملك أية قدرة طيلة الخمسين سنة الماضية. أمّا ما أعطى تيليماكوس شعورا بالثقة الآن، في تلك اللحظة المهمة، فهو انذهال العجوز الواضح بكل ما كان يحدث. وحتى قبل أن يفتح ملك بيلوس فمه، أدرك بأنه قادر أحيانا على الشرود والقفز من موضوع لآخر مثل امرأة عجوز مذعورة.

قال مينتيس وهو ينحني بدماثة: "صاحب السمو".

قال تيليماكوس وهو ينحني بشدة: "صاحب السمو".

أومأ العجوز برأسه وحدق حوله بائسا. نهض شابان يجلسان في مقعدين مرتفعي الظهر على جانبيه، ثم ابتعدا عدة خطوات.

قال بتهذيب فظ، ونظر إليهما بعينين رماديتين دامعتين محتقنتين بالدم: "طاب يومكما، اجلسا أيها السيدان، هنا، اجلسا أرجوكما، هنا، لا بل هنا".

حين جلسا على جانبي الملك، استقر شعور تيليماكوس بالثقة داخله وأصبح جزءا من كينونته. تشرب بالشجاعة وقوة الإرادة مثلما تمتص إسفنجة نبيذا مسكوبا. في البداية اختلس النظرات، ثم نظر حوله دون تحفظ. القاعة الكبرى كانت أوسع قليلا من القاعة في بيته. وعلقت على الجدران تروس عتيقة الطراز مؤطرة بالمعدن ومصنوعة من الجلد والخشب، بعضها صبغ بألوان جميلة خضراء وصفراء وحمراء؛ وفي أحد الأركان قرب الباب المفضي إلى الفناء، علقت رماح وسيوف قصيرة. غطت كل المعروضات طبقة سميكة من الغبار؛ إذ لم تستعمل منذ عهد بعيد. انتشرت في القاعة رائحة اللحم المشوي؛ في الموقد نار على وشك أن تنطفئ. وعلى الموائد المصطفة بين الأعمدة على طول الجدران، جلس عشرة من الشباب والكهول، بدوا جميعا أقرباء، إما يعيشون هنا، أو قدموا في زيارة لتقديم الأضاحي أو التسوق؛ كانوا تجارا ومزارعين، ولم يبد على أي منهم علامة تدل على أنه خاض حربا جديدة. ومن الطابق العلوي أتى صوت امرأة سليطة، صوت أم انفجر فجأة. وبدون مقدمات - هكذا فكر تيليماكوس - وجد نفسه جالسا وسط جو الحياة اليومية الشائع: أي، في منزل غني لكنه عتيق.

حلم منذ طفولته وحتى الآن بنستور، بعظمة ذي الأعنة، وثرائه، وقوته، وسلطته السياسية، بحيث لم يقبله محيطه في تلك الآونة إلا كمنام. عرف بالطبع أنه لم يكن حلما، لكنه لم يمتلك الأداة العقلية التي تستطيع على الفور تحويل ما رآه إلى حقيقة.

ومع ذلك، ما زال يشعر بأنه مشهد عادي من الحياة اليومية، أو لنقل: مشهد عادي من الحياة اليومية بعد عيد الأضحى وإقامة السوق.

نادى العجوز، وهو يرفع عينيه الدامعتين باتجاه السقف: "يوريديسي! يوريديسي!".

أجاب صوت نفد صبره من مكان ما في الطابق العلوي: "أجل! ماذا تريد؟".

صرخ كصرخة النصر: "ضيوف!"؛ لكنه لم يتلق جوابا.

أواني الماء وضعت أمامهما، غمسا أيديهما وجففاها. الأواني كانت جميلة جدا، فضية أو مطعمة بالفضة. بدا البيت كله مجهزا بأدوات فاخرة شملت الطسوت، والأباريق، والجرار المصبوغة بألوان غريبة ووحشية، والزبادي البديعة، والطاسات والكؤوس. تذكر تيليماكوس أن الناس تحدثوا دوما عن الغنيمة العظيمة التي اقتنصها ملك بيلوس من الحرب. بدا العجوز أيضا مغاليا في مباهاته بأثاث وأدوات منزله، وحين وضعت الجواري أمامهم الطاسات الذهبية والفضية الثمينة، والأقداح الغريبة الشكل المزينة برسوم بديعة، راقبها بنظرات محدقة حسيرة كأنما خشي أن تخدش أو تلتوي. مال برأسه إلى هنا وهناك كأنه يصغي بنصف أذن فقط للغو مينتيس الناعم، المهذب، الخالي من المعنى. انتظر حتى تذوقا اللحم المشوي، ثم خلط بنفسه النبيذ الأحمر الداكن، الأسود تقريبا، مع الماء في إناء ذهبي كبير؛ ثم ملئت الكؤوس، وفي الحين ذاته رمق مينتيس بنظره الحسير.

"هل أعجبك النبيذ؟".

ذاق مينتيس رشفة منه

قال: "إنه مختار بعناية!".

"ماذا قلت؟".

قال مينتيس: "نبيذ غير عادي".

رد العجوز بصوت يشبه صوت الدجاجة:

"أجل! أجل! هكذا هو؛ معتق منذ عشر سنين".

شرب بنهم، واستمتع بالمذاق. كان قدحه من نوع غريب. يمكن أن يسمى طاسا. كان مصنوعا من الذهب، لكنه فضي من الداخل. ومن كعبه الدائري يرتفع عمود تتكئ

الكأس ذاتها عليه، ولحمل مقبضين مزدوجين مع قضبان بينهما. الجانب السفلي من القضبان مدعم بسنادات فضية بينها وبين الكعب. وعلى كل قضيب ترقد حمامة ذهبية مدت ذيلها وجناحيها. لابد أنها ستكون ثقيلة حين تمتلئ بالخمر. أدرك تيليماكوس أنها الكأس التي أخبره عنها ذات مرة أحد الذين كانوا في طروادة، كما ذُكرت أيضا في الأغاني؛ لكن قيل إن من الصعب على الرجل العادي حملها. الآن، رفع العجوز كأسه بيدين راجفتين؛ لم تكن أكبر أو أثقل من تلك التي ترفع بيد واحدة - ارتفاعها كان بطول كفين تقريبا، لا أكثر.

وضع العجوز الكأس، وداعبها بعينيه ثم التفت إلى مينتيس.

قال بنبرة استفهامية: "لربما بدا الأمر تطفلا، لكن سأكون مسرورا بمعرفة اسميكما والمهمة التي تسافران من أجلها؟ تجارة؟ إيه؟ أم في رحلة قرصنة؛ تلك مغامرة محفوفة بالخطر هذه الأيام، إيه؟ هل تتجهان نحو شمال أو جنوب الساحل؟".

لمح تيليماكوس نظرة من مينتيس. عب جرعة من النبيذ المعتق منذ أحد عشر عاما ولم يستسغ طعمه، لكن مجرد كونه ضيف شرف في أرض غريبة ويحمل بيده مثل هذا القدح، زوده بالشجاعة. نوى الإجابة، لكن مينتيس سبقه.

قال: "اسمي الدوق مينتيس من تافوس. لسنا من القراصنة، وعلى أية حال لم تعد القرصنة تجدي فتيلا في هذه الأيام حين تعرضت كل بلدة وكل جحر تقريبا على طول الشاطئ لنهب الفينيقيين والبرابرة. من جهتي، أنا في رحلة تجارية، وهذا الشاب قابلته في ايثاكا حيث أمضيت بضعة أيام".

قال العجوز: "ايثاكا؟ أجل بالطبع، الجزيرة الصغيرة هناك. حيث.. حيث تعيش يوريكليا.. أجل، يوريكليا. عجوز نشيطة، أليست كذلك؟".

حدق إلى الكأس الجميلة على المائدة، وداعبها بأنامل راجفة.

قال: "ألا تعتبرها عملا فنيا أنيقا حديث الطراز؟ حصلت عليها في رحلة قمت بها قبل عدة سنوات. لدي واحدة أخرى مصنوعة من الفخار المشوي ومزينة بالورود وأزهار اللوتس أيضا. تلك قدح رائعة فعلا، لكن ثراسيميديس هنا حطمها في أحد الأيام. حدث هذا قبل زمن بعيد؛ أعتقد أنني كنت في الحرب آنئذ. لكن هذه هنا مصنوعة من مادة أشد احتمالا وديمومة. كانت معي في الحرب العظمى. الكل اعتبرها رائعة بديعة. لسوف تجدها في الأغاني".

قال مينتيس: "إنها جميلة جدا، وغير عادية فعلا. اسم هذا الشاب تيليماكوس".

قال العجوز: "تيليماكوس، اسم جميل. ما رأيك بثراسيميديس؟ وبيسيستراتوس؟ ألا يعتبران من الأسماء الجميلة؟".

قال مينتيس بتهذيب: "أجل، اسمان جميلان جدا".

ثم حصل تيليماكوس على فرصته. وبإيماءة من مينتيس، استطاع أن يقول والفخر يملأ نفسه بالإثارة: "أنا ابن اوديسيوس!".

لم يبد على العجوز بشكل ملحوظ أنه انتبه، لكن كل الحاضرين التفتوا نحو تيليماكوس.

قال متفكرا: "اوديسيوس؟". لكنه غدا فجأة أكثر حيوية ونشاطا، وارتفعت طبقة صوته، ثم مال بجسمه إلى الأمام جهة "الابن". "لكنني.. أعرفه بالتأكيد! أليس كذلك يا أولاد؟".

قال بيسيستراتوس: "تعرفه حقا يا أبي. كان رفيقك القديم في الحرب!".

قال العجوز: "طبعا! كان صديقي القديم. آه كان شابا في تلك الأيام. شابا أنيقا فعلا. لديه روح المغامرة، وكان قوي الإرادة حقا. رجل حقيقي. كيف حاله في هذه الأيام؟".

بدأ بيسيستراتوس: "أبي..". لكنه أمسك عن الكلام.

قال تيليماكوس: "لم يرجع إلى الوطن بعد. ولا نعلم أين هو".

قال العجوز وهو يداعب بأصابعه لحيته التي تقطر مرقا وخمرا: "ماذا؟ هل ذهب في رحلة؟".

حاول بيسيستراتوس مرة أخرى: "أبي..". لكن العجوز أشار إليه بالتزام الصمت.

قال: "حسنا! الآن! لم تسمع عنه شيئا؟ اختفى تماما؟ هذا غريب. ضاع في المجهول، ايه؟".

توقف عن العبث بشعر لحيته، ثبت عينيه الحسيرتين على القدح الذي حمله مينتيس بيديه. لم يكن له ساق طويلة، لكن نقش عليه ببراعة رسم يمثل قنص الأسود.

قال: "هذا عمل فني رائع. من مسينا، أنا متأكد. أم هل هو من كريت؟ من النادر أن ترى مثل هذه التحفة الفضية البديعة".

قال مينتيس: " من النادر جدا، في الحقيقة. جميل جدا. أجل، والد الشاب، اوديسيوس، لم يرجع بعد من طروادة".

قال العجوز: "من طروادة؟"، ونقل نظرته المتسائلة من مينتيس إلى تيليماكوس، ثم هز رأسه وثبت نظرته المتفرسة على قدح تيليماكوس.

قال: "أقداح مثل هذا أصبحت نادرة الآن. هذا القدح (كان مشابها للقدح الذي يشرب منه مينتيس، لكنه ذهبي مفضض من الداخل ونقش عليه رسم لأخطبوط) من كريت أيضا، أعتقد ـ أو من قبرص ـ آه، لا أستطيع تذكر الأماكن التي أتت منها، لدي كثير. لكن سأريكما مجموعتي فيما بعد، ربما في أصيل هذا اليوم، لسوف نرى. لدي عدد من الكؤوس الجميلة المرصعة بالذهب، وعليها أبدع رسوم الحيوانات، لكن الفضية الجميلة فعلا محفوظة في خزانة في غرفة النوم. لن يصدق أحد مدى صعوبة معرفة متى حصلت عليها ومن أي مكان أتت".

قال مينتيس بتهذيب: "إنها هواية مميزة جدا. لكن بالنسبة لاوديسيوس..".

قال العجوز: "ماذا قلت؟ هواية!.. أوه، حسنا"، غمغم بصوت هادئ: "أعتقد أن بإمكانك تسميتها كذلك، لكنك لن تتخيل المشاكل التي أواجهها مع الكؤوس والطاسات والأقداح والزبادي و.. أجل، العديد من الأشياء التي أملكها، والتي استطعت جمعها معا بالعرق والدم. أنا..".

قال مينتيس: "أتى من ايثاكا مباشرة".

قال العجوز: "ايثاكا؟ هل قلت إنك أتيت من ايثاكا؟ هنالك امرأة عجوز كثيرا ما تأتي من هناك، لديها لسان كالمبرد، وتشتري الكتان والصوف والخراف والقطعان.. ما اسمها الآن؟.. لفظته قبل لحظة.. يوري.. انتظروا (منتصرا) يوري.. يوري..".

قال تيليماكوس مع انحناءة مهذبة، لكن الغضب تراكم داخله: "..كليا".

قال نستور وهو يرفع أمامه سبابة عمرها ثلاثة أو أربعة أجيال: "أيها الشاب، لا تقاطعني. الآن، أين كنت؟ أجل، حاولت مقايضة القطعان والأدوات المنزلية والأقداح والكؤوس وزبادي الذهب والفضة بالقماش أو شيء من هذا القبيل، لا أتذكر بالضبط. فكر بذلك.. أن تأتي إلى هنا وتطلب.. هل رأيت فعلا أقداحي؛ إن لم تفعل فتمعن بها الآن! ما رأيك؟".

شرب من قدح الحمام، لم يكن يعاني من مشكلة في البلع، رفعه باتجاه النافذة في أعلى الجدار إلى يساره.

"حاولت شراء، كأس نستور!.. هل تتخيل ذلك؟ ما اسمك؟".

قال "الابن" باقتضاب: "تيليماكوس".

استغل مينتيس الفرصة ولعب دور الوسيط: "والده اوديسيوس. تيليماكوس في مهمة للبحث عنه".

قال نستور وهو يضع الكأس على المائدة: "البحث؟".

غمز بيسيستراتوس لتيليماكوس بعينه، وعلت وجهه أمارات التعاطف وهو يتقدم ويملأ كأس نستور الشهيرة. حتى ثراسيميديس الأحول الكئيب بدا مفعما بالحيوية والنشاط. لربما تظن أن الولدين يرغبان برؤية والدهما ثملا.

قال مينتيس: "لم يرجع إلى الوطن بعد. تيليماكوس هو ابنه الوحيد. أمه اسمها بينلوبي. وهما يعيشان في ايثاكا".

غمغم العجوز وشد لحيته مجددا: "أجل، أجل، أجل".

قال بيسيستراتوس: "طروادة ياأبتِ طروادة!".

كشر ثراسيميديس.

قال نستور: "لم تحدث هذا الضجيج! ثراسيميديس!".

قال الابن خاضعا وقد اعتاد على التوبيخ، تعود دون مبالاة على التأنيب، سئم حتى الموت من التأنيب: "أجل ياأبتِ".

"لا تضع الكأس قرب حافة المائدة، قلت لك ذلك ألف مرة".

حرك ثراسيميديس الكأس بعيدا عن الحافة.

قال نستور بمزيد من الهدوء: "الآن، أين كنا؟ أوه، أجل.. يوري.. يوري..؟ كليا.. أجل، أرادت..".

قال بيسيستراتوس: "طروادة ياأبتِ".

"أجل، طروادة..".

قال بيسيستراتوس: "اوديسيوس".

قال نستور وقد أشرق وجهه: "أجل، هو. الآن تذكرت. كان معنا في طروادة، هذا ما أردت قوله. إذن، كما ترون، ذاكرة العجوز ليست سيئة إلى هذا الحد!".

قال بيسيستراتوس: "لقد ضاع ياأبت. تحدثنا عن ذلك قبلا، ألا تذكر؟ حين كانت يوريكليا هنا؟".

بدأ العجوز: "يوريكليا..".

قال بيسيستراتوس: "ضاع".

"ماذا قلت؟ ضاع؟ لا، كان معنا في طروادة، وأتذكر بوضوح كأنما حدث البارحة أنه.. أجل، هنالك شيء ما في أنفه.. أو في يديه، لا أذكر أيهما. لكن هنالك شيء ما فيه. ولا يمكنك الاعتماد عليه أبدا، فهو..".

"أبي!".

ارتجفت لحية نستور، وتيقظت عيناه، وبانت التجاعيد الأفقية العميقة على جلد جبهته.

"ماذا قلت؟".

قال بيسيستراتوس: "ها هنا.."

قال نستور متذكرا: "كانت لديه أفكار غريبة. كان.. لا أتذكر كل شيء. لكنه كان.. غريبا..".

قال بيسيستراتوس: "هنالك أغنيات حوله. كان بطلا".

حك نستور بيد مرتعشة جلد ذقنه تحت لحيته. لم يخدش الجلد، بل حكه برقة بظاهر أظافره؛ لم يصدر عنه صرير بل حفيف.

قال: "أبطال! بووه! ما هو المميز في ذلك؟ أنا بطل أيضا، ألست كذلك؟ وهنالك أغنيات عني أيضا، بقدر ما يتعلق الأمر بذلك. لا ينبغي أن تركز انتباهك على المغنين، فهم على استعداد لإطلاق ما يستطيعون من أكاذيب مقابل كسرة خبز وعظمة دسمة. أذكر كأنما حدث الأمر البارحة.. انتظر، الآن تذكرت، أجل، هنالك مغن يدعى.. كان من.. أعتقد أنه من نواحي إسبارطة، تعلم النظم والغناء من شخص يدعى.. يدعى (بانتصار) اوتوميديس من مسينا، الذي تعلم الكذب والغناء على يد مغن كان يدعى بيريميديس أتى من ارغوس.. أجل، الآن تذكرت! سئموا منه في النهاية.. أعني الأول.. ماذا كان اسمه، أو الآخر، حسنا، لا تقلق، ولذلك وضعوه في جزيرة وهناك مات من الجوع. وتلك نهاية غنائه!".

أطلق العجوز ضحكة خافتة سر بها ونظر حواليه.

كشر ثراسيميديس، وألقى بيسيستراتوس نظرة عجلى مرتبكة على تيليماكوس. شرب الآخرون ـ الضيوف أو الأقارب ـ صامتين وحدقوا متسائلين.

قال نستور مفسرا بوضوح مفاجئ: "كان إلى جانب كلايتمنسترا حين ذهب أغاممنون إلى الحرب. ايجستوس المارق قتل أغاممنون حين كان.. أوه، حسنا، سمعت الحكاية من قبل، طبعا؟".

قال تيليماكوس وهو يجبر نفسه على اللطف: "سمعنا عنها. لكن هناك كثير من الشائعات ولا نعرف حقا التفاصيل الفعلية. أعني في ايثاكا".

قال نستور: "حكاية ممتعة جدا بالفعل".

بانت على وجه بيسيستراتوس أمارات تعبر عن السأم المطلق.

بدأ ثراسيميديس يلعب بأصابعه بكأسه.

"ثراسيميديس!".

"اجل ياأبت؟".

"قلت لك لا تقرب الكأس من الحافة إلى هذه الدرجة! ضعها في منتصف الطاولة".

أطاع الابن صاغرا. وخيم الصمت على القاعة.

قال نستور: "يجب عليك أن تتوقف عن مقاطعتي. أين كنت الآن؟".

رفع ثراسيميديس الأحول بصره بسرعة غير عادية؛ التمعت عيناه، وذلك حدث هام.

قال بسرعة وارتباك: "كلايتمنسترا".

قال بيسيستراتوس: "اوديسيوس. ابنه ـ الذي يجلس هنا ـ كان يسأل عنه".

بدأ تيليماكوس: "أردت أن أعرف..".

قال نستور متذمرا: "أنت تقوقي كالدجاجة وتقاطعني في اللحظة التي أتذكر فيها شيئا. أين كنت الآن؟".

قال مينتيس بلطف: "كنا نتحدث عن المغنين والأبطال. نعرف بالطبع أنك يا صاحب السمو بطل عظيم. اسم سموك معروف لدى كل طفل في البر والبحر. وسيكون

من المثير والممتع سماع رواية سموك حول عودتك من طروادة إلى أرض الوطن. هل رافق أسطول سموك اوديسيوس وجماعته مدة طويلة؟ وأين انفصلت عنه وعن رجاله؟".

قال نستور بمزيد من اللطف وقد وضع يديه المعروقتين الراجفتين على المائدة أمامه ونظر إليهما: "هذا ما أخبرك به الآن".

قال: "هنالك عيب ما في يديه. أعتقد أن إصبعين أو ثلاثاً قد قطعت".

مال تيليماكوس إلى الأمام. اغرورقت عيناه بالدمع فجأة. موجة الدفء الصادرة من قلبه تعاظمت وكبرت، بدت كاستنشاق المهابة والبطولة. شعر فجأة بأنه يحب العجوز.

سأل: "من أية يد؟".

قال العجوز: "هذا ما لا أذكره. لم تقطع الأصابع فعلا. لدي إحساس بأنها سحقت. بنينا بعض سلالم الهجوم وحصانا خشبيا. أجل، نوع من الحصان، برج حصار كالحصان وأسميناه ،'الحصان'، وتسلق بعض الرجال السور وفتحوا البوابات لنا. يبدو أن ذلك حدث عندما سحقت أصابعه".

قال مينتيس: "ثم انتصرتم وأبحرتم عائدين".

داعبت يدا نستور الكأس؛ رفعها كأنما هي ثقيلة جدا، تفاخر بوزنها الثقيل، وأفرغها في جوفه ببطء، وسال لعابه، ووضعها مرة أخرى، ثم مص شاربه.

قال: "طبعا، قتلنا الأطفال أولا"؟

ـ ١٧ ـ
الترنيمة الأولى

في جدول من الدلافين وحفيف أوراق الشجر الدافئة، هام على وجهه، تأرجح بعيدا، حُمل على ذرى الموجات، ولامح الماضي، الماضي البعيد، والماضي القريب الذي حدث مؤخرا، وغاص في الينابيع الدافئة التي ضاقت أكثر وأكثر، لتصبح مغاور مليئة بمياه كحرارة الجسد، لتصبح أرحاما ـ ثم غُسل مرة أخرى في المخاض، ووُجه نحو النور، اتسع الثقب، ولد خارجا من رحم النبع على ذروة موجة من جديد. تكرر ذلك مرة تلو مرة، وتوجع جسده من ولادته، من تشنجه المؤلم، ثم توقفت الحركة في لحظة ما حين ارتفع، إلى أعلى مكان، على ذروة الموجة، وسكن كل شيء. أوشك أن يفتح عينيه، لكن أوراقا ثقيلة جديدة سقطت عليهما وغار عائدا إلى الدفء والعتمة، إلى لا كينونة ما قبل الولادة، بينما..

بينما كانت نوسيكيا تنطلق بعربتها، تزايد الشعور بالاستعجال داخلها، الأمر مجرد إثارة واهتياج، هكذا قالت بكلمات واضحة يمكن للآخرين سماعها وبكلمات صامتة لنفسها في آن معا، فكرت: إنها مجرد إثارة واهتياج، نتيجة إهمالها لدورها في العمل في المنزل ومبالغتها في الحلم. "ماما" لم تتفوه بكلمة قط. أجل، قالت: الآن، عليك الاهتمام بالغسيل؛ بدأ يتراكم في كل ركن، قالت ذلك قبل سبعة أو عشرة أيام، وفي مساء البارحة غضب "بابا" لأنه أراد قميصا كتانيا نظيفا، رداء نظيفا من الكتان المطرز، وحين أتى العبد مع اثنين، أراد ثلاثة ليختار منها، وأحضر العبد ثلاثة ثم أربعة، لكنه أراد آنئذ ستة ليختار من بينها ولم يكن متوفرا مثل هذا العدد حينها.

حين انطلقت خارجة فكرت بمخزونهم من الثياب وبمخزونها الشخصي الخاص منها.

بينما كانت تجلس في العربة المرتجة، عربة النساء، وتلك الكومة الضخمة من

الثياب خلفها، لصق ظهرها، بحيث استطاعت أن تتكئ على الأكياس المليئة بثيابها هي، وثياب "بابا وماما" وأشقائها، أرديتهم وعباءاتهم الخفيفة من الكتان المصبوغ وغير المصبوغ، وعباءاتهم السميكة من الصوف واللباد، وبينما كانت الجواري يمشين بجهد وتكاسل واستياء، أو يحاولن الغناء بأصواتهن الخشنة داخل سحابة من الغبار خلف العربة والبغلين، كانت تفكر بشيء، بخاطر مبهم، لمجرد لحظات قصيرة عابرة، ومضات، هروب دائم منه ورجوع دائم سريع وخجول إليه - فكرت "به" بالذي سيأتي الآن مع الخريف أو تحت أمطار الشتاء، أو في الربيع؛ وفكرت بأن من النادر أن يأتي إلى هناك أي واحد من الرجال المبجلين إلا بعد العواصف، وخلال العاصفة الأخيرة التي هبت من الغرب، لم يشاهد الحراس في أعالي الجبال أية سفينة في البحر.

بينما كانت تقود العربة شعرت، من خلال ومضات عابرة، ولحظات قصيرة، وفترات وجيزة من التوجس المنذر بالشر، أن عليها أن تسرع لتبدأ حياتها، لتبدأ حياة نوسيكيا على جزيرة الفيشيين التي كانت مكتظة بالرجال ومحرومة من "الرجل". ماما وبابا أبناء عمومة - أو بالأحرى أخ وأخت، ولا يمكن لأحد أن يجهر بذلك - لكنها ما كانت لترغب بالزواج من أحد أشقائها حتى لو تحول إلى ابن عم. لم تعرف السبب. أجل، لم تعرف السبب. لم تفكر بهم كرجال أو تحاول تخيل أي منهم كزوج. أجل، حاولت لكنها فشلت، هذا هو الأمر. في أحد الأيام، في وقت ما، سيأتي رجل آخر، غريب. عرفت ذلك مذ كانت طفلة: لن تتزوج أيا من أشقائها.

بينما كانت تقود عربتها، ارتفعت الشمس في السماء بسرعة، رغم أنهن بدأن مبكرا ليخرجن إلى الطريق قبل اشتداد الحر، ويتمتعن بنسيم الصباح العليل.

حين نزلت من العربة، وأفرغت الجواري حمولتها من "البقج" المليئة بكل أنواع الثياب الكتانية والصوفية، الخفيفة والسميكة، والعباءات والأردية الملوثة بالخمر والقَذر، والملاءات والأدثرة الحمراء والرمادية والبيضاء، وحين تجمهرت الفتيات حولها مثل الدلافين في الماء، والسمك في الجدول، أو أوراق الشجر التي تدوم وتسقط على الأرض لتدوّم من جديد..

.. من جديد، كان فوق ذروة موجة، بينما سكن كل شيء، وغدا في حالة من الصمت المصغي الذي يمكن أن يخبر الصاحي أن هناك أصواتا لضحكات، صيحات

واهية، نداءات خفيضة في الهواء. لكن ليس لمن يغوص عائدا إلى رحم الكرى، والأوراق الثقيلة تغطي جفنيه - نوم، نوم، نوم - في حين..

..كانت، بعد أن أعادت النظام إليهن، تفكر: الآن سننجز العمل بسرعة ثم نلهو ونلعب. من يعلم كم سيسمح للفتاة باللعب! كم سيسمح للفتاة بأن تظل فتاة! فكرت وتنهدت، تنهيدة مسموعة تماما، فيها فتنة المرح، وحلاوة العسل، وتوق ولهف، وإثارة واهتياج، وعندما بدأن نقع الثياب القذرة على طوف الغسيل الخشبي، أعطت أوامر محددة، وأشرفت على العمل وأنجزت المهمة.

أنجزت عملها، فهي الغسالة، رئيسة الغسالات. لم تكن تشارك شخصيا في الغسيل بقدر ما كانت تعطي التعليمات، وهذه لم تكن تحتاجها الفتيات، لأنهن قادرات تماما على النقع والحك والغسل، لكنها مع ذلك ركعت هناك على ركبتيها على المنصة التي علم أشقاؤها العبيد كيفية بنائها: جذع خشبي عائم أو اثنان، جذع خشبي أو اثنان غرسا في الرمل وألواح من الخشب فوقهما؛ وطوف للغسيل مثبت بمرساة قوية، بحيث لا يجرفه طوفان مياه المطر الدافقة من الجبال إلى البحر، أجل، شبه طوف يمكنك أن تحلم بأنك تبحر عليه وتحملك.. الموجة مجددا، ثم سمع في خضم ذرى الموج، فوق دوامة الزبد على قمم الأمواج، أن أحدهم ينادي. ذكرى النداء ظلت حوله، وحين غاص من جديد، شيء ما كان هو ذاته أيضا، عرف بأنه يُوشِكُ أن يستيقظ تحت الضوء المرقش الذي سقط عليه من هليوس، الذي كان يقف على أسوار طروادة ويطلق عليه سهاما سريعة حادة، تماما مثلما أطلق هو "نفسه" سهما على موجه الدفة على سفينة كان نستور منذ عهد بعيد، أو منيليوس منذ عهد بعيد، أو أحدهم منذ عهد بعيد، يبحر على متنها إلى طروادة، أو إلى الوطن عائدا من طروادة - وحاول أن ينادي: هذا أنا أرقد هنا في دفء سائل الرحم، أو في الفراغ بين الموجتين، أو غرقت في أوراق الشجر، إنه أنا، رغم أنك لا تتعرف علي، يا هليوس..

.. ورغم أنهن بدأن في وقت مبكر، إلا أنها لاحظت أن هليوس كان في كبد السماء حتى قبل أن يغسلن نصف الثياب. حذرتهن. قالت: يا فتاة ديماس، يا بنات مصر، يا بنات ثيسبروت، يا بنات عمومة يوكينيوس، يجب أن نسرع إن أردنا تجفيف

الثياب بحلول المساء!.. وأجبن بالضحك أو بالنظرات المتجهمة: أجل يا ابنة أريت، أجل يا ابنة الكينوس، أجل، أيتها الأميرة الصغيرة - أجل! (همست إحداهن استهجانا؛ وزمجرت أخرى غضبا، وهمست ثالثة) أجل، أيتها الفتاة الحمقاء، المتعجلة، الغسالة السريعة، نحن نعمل بأسرع ما يمكن! قالت: حسنا، حسنا، أسرعن ولسوف نلعب. قالت الفتيات، أو بعضهن، أو واحدة منهن: مع كل هذا العمل الذي نقوم به هنا لن نتمكن من القيام بهذا أو بالشيء الآخر. سمعت أجزاء من العبارة. أجل، الشيء الآخر، ضحكت لكنها خجلت وتورد وجهها وارتبكت - أجل، الشيء الآخر، أراهن أن لديكن من القوة ما يكفي للذهاب مع الشبان في الأمسيات وترك الحرية لهم لفعل ما يرغبون معكن - لديكن ما يكفي من القوة لذلك، أسرعن في العمل الآن! بعضهن انحنين على برك الغسيل. وغيرهن، الأقوى جسدا والأدكن بشرة، ركعن على الألواح الخشبية التي تأرجحت تحت ثقل أجسامهن. غمسن في الماء الأدثرة والملابس الثقيلة المشبعة به، وشطفن الثياب التي حكت بضراوة في تيار الماء المتدفق ببطء ونظرن إلى انعكاسات صورهن فيه وابتسمن، ثم كشرن عن أسنان بيضاء، وسحبن الثياب المبللة ونشرنها على الألواح الخشبية التي أصدرت صريرا وقرقعة؛ ثم عصرنها وناولن الملابس الكتانية والصوفية والأدثرة إلى أخريات علقنها على سيور وحبال مشدودة بين جذوع الأشجار - لتتعرض للشمس، والنسيم الخفيف - وحين كان طول حبال الغسيل غير كاف، وعرفن بأنها لن تحمل المزيد، وضعن الثياب والملاءات والأدثرة والعباءات على العشب - لكن حذار من أن تدوس إحداكن على الملابس، كيلا تخلف عليها الأقدام بقعا خضراء. أجبن: نحن نعلم ذلك، ولا نحتاج لمن يحذرنا! سنقوم بعملنا على أكمل وجه! وضحكن على واحدة ظهرت بقع خضراء على ثوبها الشفاف - قالت إحداهن: لكن البقع لوثت الثوب في الربيع ولم تتمكن من إزالتها بالغسيل، وهو الآن، الشاب، يعمل في البحر.. أو :أين ذهب الغاوي؟ والآن هنالك بقع على وجهها أيضا.. أجل، هذا ما يحدث بين الربيع والخريف! ثم نادت عليهن: أسرعن الآن، ولنتناول طعامنا قريبا..

.. وتحرك فمه، فمه الموجوع "المملح"، وارتفع فوق قمة الموجة، قبل أن يغطس مجددا مع السقوط المفاجئ لأوراق الشجر فوقه، شعر بالجوع. اخترق نومه، ارتفع من

أطرافه ومعدته وعبر صدره واستقر في حنجرته وحاول بلوغ وعيه، وحين غار مرة أخرى غمغمت شفتاه..

.. الطعام، نادت عليهن حين انتهين من نشر آخر دثار ثقيل على العشب قرب صخرة حارة. الشمس لاهبة، ولم تهب نسمة هواء. هدير البحر ذاته، الموج ذاته، تنشقا حماوة الشمس. طيور البحر رفرفت بأجنحتها البيضاء الوامضة فوقهن وهي في طريقها من وإلى الصخور، والفتيات هتفن وصرخن لمنع النوارس من ترك علاماتها على الغسيل. هتفت صائحة: احذرن. لا تدسن بأقدامكن هنا! بعد وقت قصير عليهن أن يقلبن الثياب. الفتاة المصرية اللحيمة، السمراء، العارية حتى الخصر، التي كانت أبعد مسافة على طوف الغسيل، أخرجت ثوبها من الماء، ثوبها المليء بالبقع على ظهره، وحكته، وعصرته، ثم نهضت على قدميها ومشت ببطء باتجاهها. نفضت الثوب أمامها، ونثرت عليها الماء كرذاذ المطر. صاحت سيدتها: لكننا سنستحم أولا. الماء في برك الغسيل التي نقعت فيها الثياب القذرة خلال الساعات الأولى ثم غسلت على عجل، لم يكن يغري أحدا. لزمن الضفة المنخفضة حيث الرمل الناعم، ثم الحصى، قرب نبض البحر، وحافة الزبد الذي دفعته الأمواج. رششن الماء على بعضهن بعضا، وقهقهن، وصرخن. وقفت نوسيكيا ومياه النهر تداعب قدميها، ومشت بحذر حتى بلغت ركبتيها، كان الرمل ثابتا وإن كان ناعما تحت أسفل قدميها. ها هي تمشي الآن على الحصى. الماء أكثر برودة هناك، لكن أشعة الشمس حارقة؛ ضحكت مع الأخريات؛ وفجأة أتى الإحساس الغريب غير العادي بأنهن شقيقات، كل النساء شقيقات. لا، لا، الأخريات ما زلن إماء، لكنها كانت منهن، شقيقة لهن. غسلت ذراعيها، وملأت كفيها بالماء وصبته عليها، كأنما تصبه من إبريقين، سال على بشرتها، ثم قطر من حلمتي ثدييها؛ ضحكت، وذهب هياجها. غسلت صدرها، وبطنها الناعم، ثم قرفصت وغسلت بأنامل حساسة حذرة أكثر الأعضاء حميمية؛ لكنها أسرعت في إبعاد أصابعها، لتغسل فخذيها، ثم ركبتيها ومؤخرتها وظهرها، كانت "غسالة الأجساد". على مسافة أبعد قليلا في الجدول، تعثرت الجواري في الماء، واللحمية برفقتهن؛ ضحكت الحبلى وصاحت - أووه! - في الماء. وقفن حولها وسمحت لهن بأن يضغطن على بطنها ويتحسسن الجنين وكيف يرقد - صاحت نوسيكيا: توقفن عن ذلك حالا! وانفصلت

عنهن وإن بقيت وسطهن، جواريها، شقيقاتها. خرجت من الماء. أنا جائعة! جائعة كذئب في جبال البر! وسيحل وقت الأصيل عما قريب!

..الذئاب كانت تنسل خلسة في الجبال وفي الغابة في أصيل ذلك اليوم، وحين ارتفع فوق قمة الموجة، في بحر أوراق الشجر، تحت وابل من سهام هليوس، وقد جهدت يداه لإبعاد أنيابها الحادة داخل أفواهها الحمراء، قفز أحدها إلى داخله وكمن في معدته. عضته الذئاب الأخرى في رجله وكتفه ونادى هليوس على أسوار طروادة ليطلق عليها سهامه، لكن موجة من أوراق الشجر دومت حوله في تلك اللحظة، واكتسحته، وغاص فيها والذئب داخله، لكنه فكر: الأخرى تسبح على السطح وتنتظرني، لكنها لن..

.. ولن أنتظر مدة أطول!". هكذا نادت عليهن، ثم أتين بتمهل إلى الظل تحت الأشجار. وضعن الطعام على الملاءة التي جفت تحت أشعة الشمس. جلست وسط الحلقة، لا كواحدة منهن، لكن كمشبك القلادة، السوار، أكلن اللحم المقدد، والفواكه، والخبز الشهي. أحضرن النبيذ في قربة من جلد الماعز، وذهبت إحدى الجواري إلى النبع وأحضرت الماء في زبدية فخارية. حين مزجت النبيذ الأسود الكثيف بالماء، جعلته خفيفا ولم تكترث بالطقس الشعائري الديني؛ القطرات القليلة التي سفحتها حين كانت تمزج الخمر يمكن أن تشكل قربانا لكل الآلهة. وبرغم ذلك، زادت حيوية الجواري، وغدون أكثر نشاطا وتيقظا من ذي قبل، وتبادلن الأحاديث الهاذرة فورا. استلقت الفتيات الأصغر سنا على ظهورهن وركلن الهواء بأرجلهن، وقهقهن وغمزن بعيونهن بعضهن بعضا غمزات لها معنى، أردن البوح بأسرارهن؛ في حين تمددت الأكبر سنا على الجانب أو الصدر، واتكأن على مرافقهن لتبادل اللغو بأسلوب أكثر جدية. لسوف تتعلم كثيراً دوماً إن توقفتَ عن طرح الأسئلة واكتفيت بالإصغاء وحولت بصرك عن المتكلم. اثنتان أو ثلاث ستنجب في وقت قريب، الجواري ينجبن الأطفال دائما. لسن جميعا على شاكلة تلك المصرية السمراء اللحمية المحشوة البطن، اينوينيا، التي تسكر دائما - وهي تضحك - كلما حصلت على خمر، وتحبل بأسرع ما تستطيع - وهي تضحك - كلما وجدت من يرغب بأن يجعل منها أما، وأنجبت حتى الآن أربعة أطفال. لكن الأخريات أيضا حملن بأطفال من صلب الخدم الذكور، أو عبيد المنزل، أو الطهاة، بل حتى من

الأشقاء الأمراء: وسيلدن خلال الخريف أو الشتاء. وبخلال بضعة شهور سيحبل المزيد منهن. الأمر سهل بالنسبة لهن. إذ لا يتوجب عليهن الزواج من رجال يطالبون بحقوق استثنائية، لا، سيعاشرن عبيدا آخرين حسب رغبة رب البيت أو حكام المدينة وسينجبن مزيدا من الأطفال، ويكن في يدي ديميتر مثلما هن في يدي أفروديت: حقولا لإنتاج عبيد جدد. بالنسبة لها، عليها أن تنتظر رجلا واحدا، رجلا خاصا، "المختار"، وسيحدد أبوها من هو المناسب لها. بذرته يجب أن تكون ملَكية، بذرة ملوكية، ولديه أداة أميرية، تشير باتجاهها مثل سهم ينطلق باتجاه شمس الصباح ثم يسقط في خط منحن عند الأصيل نحو الأفق، أجل، سوف توجه جسدها نحوه، مثلما تتجه الزهرة نحو سهم هليوس. هكذا تستطيع التعبير عن الأمر بكلمات لا تفتقر إلى القداسة. لكن أكثر الأفكار سرية، تلك التي تأتي قبل أن تغط في النوم ليلا، أو حين تستلقي ويغالبها النعاس في الظل عند الهجيرة، وتعب جرعة أو اثنتين من الخمر، كانت مختلفة اختلافا بينا، وأكثر صراحة: كانت تفوح بعبق التوق واللهف، هناك في يديها حين تمس صدرها أو بطنها.

قالت واحدة: "ألا يرفس برجله يا اينوينيا؟".

قالت البدينة، وتألق وجهها الأسمر بالسعادة، وتوهجت بشرتها بفعل الزيت الذي يلطخن به أجسادهن: "أوه، أجل! لا، ليس كثيرا، لكنه يفعل من حين لآخر".

"هل يؤلمك؟".

"يؤلم؟".

علت أمارات الدهشة وجه المصرية البدينة المتألق.

"لمَ يؤلم! إنه يتحرك فقط!".

قالت الجارية الأخرى: "حسبت أنه يؤلم".

قالت واحدة أخرى، ضئيلة مهزولة، أتت من ثيسبروت، ومالت بجسمها نحوها: "طفلي يؤلمني!".

"إذن أنت لا ترغبين بإنجابه بالطبع؟".

"هل ترغبين بإنجابه؟".

"إنجابه؟".

ما زلت البدينة مذهولة.

"لكنه هنا. هل لي أن أسأل لم لا أريده؟".

قالت أخرى: "لكن كثيرات على البر الرئيسي لا يُردْنَ أطفالهن".

قالت البدينة وقد شعرت بالإهانة: "كيف عرفتن ذلك؟ هل كنتن هناك؟".

"أمي من ثيسبروت، وأتت إلى هنا حين كانت طفلة".

قالت البدينة متباهية: "أمي من بلاد عظيمة في الجنوب، من أرض مصر العظيمة. لكنها لم تشر أبدا إلى أن النساء لا يرغبن بإنجاب الأطفال!".

قالت الضئيلة النحيلة: "ولدتُ على البر".

قالت أصغرهن عمرا: "جدتي أتت إلى هنا مع الملك العجوز".

"هل أكدت أيضا بأن النساء لا يرغبن بالأطفال على البر الرئيسي؟".

قالت الفتاة: "لم تقل ذلك بالضبط..".

أصغت نوسيكيا بعينين مغمضتين.

قالت البدينة: "لا يرغبن بإنجاب الأطفال؟ هذا أعجب ما سمعت. لماذا لا يرغبن بإنجاب الأطفال؟".

قالت فتاة ثيسبروت: "لا أدري. سمعت ذلك فقط. يقولون إن السبب يعود إلى انتشار الحروب".

قالت اينوينيا: "لكن في هذه الحالة بالذات تزيد الحاجة إلى الأطفال!".

فتحت نوسيكيا عينيها. كانت البدينة جالسة وهي تمسك بطنها بيديها الاثنتين لحماية طفلها الذي يرفس داخله، والذي هو ملكها في الوقت الراهن".

قالت ابنة الحاكم: "ما هذا الجدال التافه الذي تُثرنَهُ. تعلمن جيدا ـ أن الأبطال الحقيقيين لا يقتلون الأطفال".

قالت اينوينيا: "لا أيتها الأميرة نوسيكيا. الأبطال والنبلاء الحقيقيون لا يقتلون الأطفال".

قالت الضئيلة النحلية: "لا، بالطبع لا، الأبطال الحقيقيون لا يقتلون الأطفال".

قالت الجارية الشابة بصوت مبتهج وعينين لامعتين: "لا، الأبطال لا يقتلون الأطفال طبعا".

قالت النحيلة: "والحرب تساير الموضة السائدة".

قالت البدينة: "أجل، من الممتع اندلاع الحرب ورؤية المحاربين الحقيقيين".

قالت أصغرهن سنا، بخجل مدعية الحكمة: "إن أفضل الفتيان هم الذين يصبحون محاربين. هنا على الجزيرة..".

ووضعت كفها على فمها، ولم تجرؤ على المتابعة.

قالت البدينة: "لكن، من الأمور الجيدة ألا تشهد هذه الجزيرة حربا منذ أمد بعيد. الوضع أكثر هدوءا دونها. ولا يرجع السبب إلى اعتقادي بأن الأبطال الحقيقيين، المسايرين لـ'موضة' العصر، برماحهم وسيوفهم الحادة ودروعهم الثقيلة، وخوذهم، وعرباتهم، وخيلهم، يقتلون الأطفال الصغار. لا أعتقد بذلك أبدا. لكن يمكن أن يموت الأطفال رعبا - أعني يمكن أن يسقطوا تحت عجلات العربات أو بين أرجل الخيول، أو يصيبهم رمح أو سيف - تعلمن مبلغ فضول الأطفال، وكيف يركضون باحثين عن شيء. لكن الحرب 'موضة' حديثة برغم كل شيء".

"لكنك لم تشهدي أي حرب يا اينوينيا!".

قالت البدينة: "لا، لن أقول بأنني شهدت واحدة. لكن سمعت عنها كثيراً.. في كل الأحوال، الأبطال 'موضة' العصر، وأنا متمسكة بذلك".

قالت الفتيات: "أجل هم كذلك".

فكرت: الآن، سأنهض. لكنها بقيت مستلقية هناك مصغية لهن. كان الحر لاهبا حتى هنا في الظل. تذكرت فجأة كيف أتى شعبها إلى الجزيرة في زمن الجد نوسيثوس: كيف هرب هو وشعبه برمته من الحرب. لم يرغب أبي بالحديث عن الأمر أبدا، ولا أمي، لكن الأولاد اعتادوا أن يحلموا بالحرب و..

.. وتكتسحني موجة، في دوامة من ورق الشجر، هكذا فكر حين أفاق هنيهة. دفعتني خارج الحرب موجة من الماء المالح، الآن أنا ممدد على..

.. حين يلعبون كانت كل ألعابهم حروبا، تذكرتْ، لكن في نفس الوقت ما وجدوا أبدا عدوا يهاجمونه و..

.. بحر من أوراق الشجر، جنحت سفينتي في بحر ضحل من الأوراق. حين حرك يده اليمنى، بدأت الكف تحترق. كان جائعا وعطشان إلى درجة ظن فيها أنه لن يشبع أو يروي غليله أبدا. الآن، سرعان ما سينقلب ويتمدد على جنبه قليلا، لوهلة، قبل أن ينهض و..

.. ويقتلونه، لا يوجد من يحاربون ضده. ما زالت الجواري يتبادلن لغو الحديث. كن على حق، المحاربون "موضة" العصر، المحاربون أكثر نشاطا وحيوية من هؤلاء المستشارين

وأبنائهم الذين بدؤوا هنا يزدادون بدانة وترهلا منذ لحظة زواجهم، وامتلاكهم لقطعان الخنازير والبساتين والتجار المتميزين بسرعتهم. يجب على زوجي أن..

.. قبل أن يقف على قدميه ويلقي نظرة حواليه. لو يستطيع أن يقف على قدميه لخف إحساسه بالألم، وما كانت أطرافه ستتيبس إلى هذا الحد. استلقى مدة طويلة وسعى لأن يستجمع قواه من أجل هذا: يجب أن أكون قادرا على الحركة، على المشي لإحضار الطعام والماء، يجب أن أكون قادرا على الحركة. لم تعد الأرض تميد، لكنَّ هناك أزيزا في أذنيه، وصداعا موجعا في رأسه. فكر: الآن. الآن سأتحرك، الآن سأنقلب، الآن سأنهض. لسوف أعد حتى..

.. لا، لا يمكن أن أزعج نفسي بالتفكير بزوج المستقبل. سوف أعد إلى التسعة وأقفز واقفة. عدت ببطء إلى التسعة، وأعادت الكرة وفتحت عينيها، رفعت رأسها، واتكأت على مرفقيها، ثم وقفت:

قالت: "لدينا متسع من الوقت لنلعب بالكرة قليلا قبل أن نعود أدراجنا".

قفزت الفتيات جميعا. مشت اينوينيا بتمهل، متهادية، نحو حبال الغسيل، وتحسست الملابس والملاءات. جف الغسيل تقريبا. الفتيات الأخريات قلبن الملابس المنشورة على الشجيرات الصغيرة. الملاءات، المعاطف الكتانية، الأثواب كانت جافة، لكن ليس الأردية وعباءات الصوف والأدثرة. ذهبت جاريتان لتفحص البغلين، وأحضرت نوسيكيا بنفسها الكرة من العربة.

قسمت الفتيات إلى فريقين، يضم كل منهما أربعا. جلست اينوينيا في الظل على الأوراق تحت الشجر واعتبرت نفسها متفرجة. قطع هليوس مسافة بعيدة نحو الغرب. الجارية الحبلى جلست في ظل الأشجار والجرف الدافئ في أمان لا قرارة له. وفوقها في الأعالي، اندفعت سحب بيضاء باتجاه الشرق والشمال، والسماء بدت نظيفة تماما بعد أن كنستها العاصفة الغربية، في حين تدفقت الغيوم العالية الرقيقة. أحست بالسعادة. فكرت المصرية السمراء: أنا سعيدة. لن يصيبني شر هنا. فليس ثمة حرب هنا: الوقت أصيل. تبدو سعيدة، هكذا فكرت نوسيكيا حين سارت إلى ظل الأشجار والجرف. لقد خبرت الأمر. عرفت التجربة مع الرجال. حين نكون وحدنا سوف أسألها عن شعور المرأة التي يخصبها الرجل. هل الجماع مؤلم حقا. لا، لن أسأل؛ أعرف الشعور، رغم أنني لم أجربه. إنه يؤلم و..

نادت على الفتيات: "هل أنتن مستعدات الآن؟".

"أجل، أجل، أجل. اقذفي الكرة!".

"انتباه! سوف أقذفها الآن!".

الكرة التي حملتها بيدها اليسرى مصنوعة من جلد الماعز المخيط ومحشرة بالعشب الجاف، وهي أكبر قليلا من التفاحة. نقلتها إلى يدها اليمنى، وقدمت قدمها اليسرى وانحنت إلى الأمام. الفريق الآخر اصطف على بعد ثلاثين خطوة، تفصل بين الواحدة والأخرى خمس خطوات، مثل صف النبالة خلال المناورات الحربية. تظاهرت بأنها تسدد على "اللاعبة" الواقفة في أقصى اليمين، وادعت أنها ستقذف الكرة إلى تلك الواقفة في أقصى اليسار؛ ربضن مثل العدائين قبل بدء السباق وحركن أقدامهن بعصبية، وصرخن: أووه. رمت الكرة أمامها مباشرة، وتجمعن حولها ـ وأمسكت بها واحدة منهن وهي في الهواء. فجأة انطلقت الكرة و..

.. وحين عدَّ إلى التسعة أدرك أن الأصوات بشرية، أصوات نساء تلك التي سمعها. إحداهن أطلقت صرخة زاعقة. انقلب على جنبه، تألم، وفجأة وقف، مترنحا، سقطت الأوراق من جسده..

.. عادت إلى فريقها، أخطأتها، الجارية النحيلة الضئيلة أمسكتها بسهولة.

صاحت بغيظ: "هل لي بها؟ أعطني الكرة!".

هذه المرة تظاهرت بتسديد الكرة على الفتاة الواقفة في الوسط، ثم تظاهرت بقذفها، لكنها طارت من يدها..

.. ومرة أخرى، اكتسحه الجوع والنهك؛ ثبت نفسه بالاتكاء على جذع شجرة، كل شيء كان يتراقص حوله. فكر: صرخات، صرخات نساء، لديهن طعام. لهث بشدة. أتساءل هل أستطيع حتى الكلام؟ حرك لسانه على شفتيه المثخنتين بالشقوق والقروح. ما زال من الصعب عليه إبقاء عينيه مفتوحتين، شعاعات الضوء تحت الأشجار وخزتهما كحبات الرمل، كحبيبات الملح. أغمض عينيه، وارتاح، وترك العالم يسكن ويهدأ. الآن، تمكن من الرؤية مجددا. كسر غصنا صغيرا: أوجع يديه.

.. هَفَتْ، هفت، ركضن خلفها، يد إحداهن مستها، الكرة غيرت مسارها، طارت إلى اليمين ـ أووه! ـ طارت ثم سقطت إلى اليمين وتناثر الرذاذ! الكرة الآن في الماء.

تردد صدى صيحاتهن معا، حين أتى متعثرا نحوهن.

الجزء الثاني

-١٨-
ذكريات

قال نستور: "أجل، قتلنا طبعا عددا من الأطفال الأكثر خطرا في البداية. أولئك الذين لم نكن لنجازف بسببهم. يبدو أنها كانت فكرة اوديسيوس - سياسة كما تعلم! ولولا ذلك لكنا كرماء جدا واكتفينا بقتل الفتية الذين تتجاوز أعمارهم الرابعة عشرة، أم هل هي الثالثة عشرة؟ - أعني أولئك الذين ما كنا لنستطيع أخذهم معنا لبيعهم. كان أغاممنون كريما، وأي واحد سيتمنى في مثل هذه الظروف سيدا نبيلا مثله. حصلت منه على اثنتين وأربعين كأسا بعضها رائع فعلا. ما جرى للأطفال كان فكرة اوديسيوس - أم هل هي فكرة منيليوس؟ - واحد منهما على أية حال. وذلك لمنع الأسرة الملكية، آل بريام كما تعلم، من إثارة مزيد من المشاكل. لا أظن بأننا سنسمع عنهم بعد الآن!".

"صهل" مروض الخيول العجوز وحك لحيته؛ أصدرت هذه المرة صوتا خشنا عاليا ومزعجا.

"أنشدوا أغنيات عني أيضا، لذلك لا يمكن أن اشتكي. آه، لا، لا، تذكرت!".

انتصرت ذاكرته مجددا

قال: "املأ الكأس. وبعد ذلك يجب ألا تقاطعني مرة أخرى".

نزلت ملكته، يوريديسي؛ وقفت وهلةً في المدخل المفتوح المؤدي إلى الحجرات الداخلية، خلف نستور مباشرة. كانت أصغر منه عمرا بكثير، امرأة سمراء طويلة القامة في أواخر سن الكهولة، تحيط بفمها تجاعيد عميقة. بدت عيناها متعبتين؛ ووضعت قليلا من "البودرة" على وجنتيها. لاح خلف ظهرها وجه فتاة صغيرة؛ لمحه تيليماكوس قبل أن تنسحب الاثنتان بصمت. التفت العجوز حيث استشعر أن زوجته تقف خلفه وبدا منذهلا حين لم ير أحدا هناك.

قال: "ما الذي كنت أقوله؟ أوه، أجل املأ جوفك بالخمر. وبعد ذلك لن تقاطعني مرة أخرى".

نهض بيسيستراتوس بكسل وخدم والده؛ ملأ الخدم أقداح الآخرين. كاد ثراسيميديس أن ينهض؛ بدا وكأن موجة قد انتشرت بين الرجال الجالسين بمحاذاة الحائط، حيث قاموا ثم جلسوا على كراسيهم ومقاعدهم، وهو أمر يحدث غالبا حين يكون الحضور من الأبناء الصغار أو الأصهار في منزل يتمسك بالتقاليد العتيقة.

قال مينتيس القادم من تافوس: "أعرف بأنك أمضيت رحلة صعبة حين عدت إلى الوطن".

قال نستور متذمرا: "ألم أقل لك بألا تقاطعني. لقد أضعت الخيط مجددا!".

عبس لوهلة، وتذوق متعة العبوس، بينما انتظروه صامتين.

قال العجوز: "ايجستوس قتل أغاممنون"، ورفع رأسه تيها بهذا الانتصار الجديد للذاكرة.

تقبلوا الإعلان بهدوء.

"وخلّف ايجستوس مغنيا ملٌ منه على جزيرة تدعى كارفي وتركه يموت من الجوع!".

فتح تيليماكوس فمه، محاولا أن يستحث العجوز ليتابع، لكنه رد السؤال ثانية، مثل من يوشك أن يفقد قطرة نبيذ من شفتيه؛ وبدا الصوت كأنه نشقة. ألقى عليه مينتيس نظرة تشجيع سريعة؛ ونظر إليه بيسيستراتوس بتعاطف، وثراسيميديس بفضول.

"ألم تسمعوا بفرونتيس؟".

لم يجرؤ أحد على السؤال عمن يكون.

قال العجوز مسجلا نصرا آخر: "أصيب بضربة شمس!".

* *

جلس الاثنان وقتاً طويلاً، وفي الحقيقة كان لدى نستور كثير ليرويه. لكن كل ما يقوله كان مجرد نتف متفرقة، كأنما كان يقطع بفأس جذع شجرة خفية ويحولها إلى عارضة خشبية، ثم يرمي من داخل غيهب شيخوخته الهائلة، السخيفة، المؤثرة،

رقاقات تومض داخل فتحة تحت أشعة الشمس. فإن تفحصاها بدقة، يمكنهما أن يخمنا شكل العارضة.

طروادة كانت الكلمة ـ المفتاح؛ ثم أتت واحدة أخرى: رأس سونيوم، حيث أصيب قائد دفة سفينة الملك منيليوس بضربة شمس. أصبحت موقعا جغرافيا، رقاقة كبيرة من جذع الخشب، محطة للذاكرة: الرقاقات، الشظايا، قدمت معا موجزا مبهما لرحلة العودة التي قام بها منيليوس من طروادة. لكن بعد رأس سونيوم، لم يتضح أين قاد منيليوسَ سبيلُه. لم يسألاه. الملك العجوز، الربان، مروض الخيول، مالك الأرض، غمغم طويلا، وهو يداعب لحيته القذرة، عن الأبطال المشهورين، اياس وأخيل، بتروكلوس وانتيلوكوس، ابن نستور الذي كان واحدا ممن ردوا، وهذه سمع الجميع عنها من قبل، لكن بالتدريج، رقاقة إثر رقاقة، وصل إلى نهاية تلك القصة الطويلة المطولة وإلى رحلة العودة إلى الوطن. تمثل أحد التفاصيل التي لم يسمع بها تيليماكوس من قبل، ولا بيسيستراتوس الذي أصغى الآن باهتمام كبير، إلى أن القائد العام أغاممنون قد تشاجر مع أخيه منيليوس قبل الانطلاق في رحلة العودة. راعي الرجال، ملك الملوك والجيوش كما دعاه نستور، مستخدما التعابير العتيقة التي رجفت لها أفواههم وجعلت بيسيستراتوس يبتسم علنا، أراد أن يتريث قليلا ويقيم احتفالات على الشاطئ، أو في المدينة المحروقة المنهوبة، وذلك "لاسترضاء الآلهة"، كما يقال، والتأكد من أن الجو مناسب لرحلة العودة إلى الوطن. لكن منيليوس، بعد أن استعاد زوجته، رغب بالرحيل فورا؛ فقد عرف بوله شقيقه بالمآدب العامرة، وأدرك جيدا أن أعياد الشكر واحتفالات النصر المتفاخرة، والصلوات الجماعية هذه قد تطول إلى ما لا نهاية. حقيقة الأمر، كما قال نستور وأنفه غائص في عمق قدحه المزخرف باليمام، أن أغاممنون لم يكن جاهلا بالحياة التي تعيشها كلايتمنسترا في مسينا وارغوس، ولم يرغب في العودة إلى الوطن، أو أراد ـ على أية حال ـ أن يسلي نفسه أولا. ولم تكن مدينة بريام التي فتحت وأحرقت بعد ذاك النصر المبين، قد نهبت كلها أو أبيدت عن بكرة أبيها آنئذ. العديد من الجنود والضباط وحتى الأبطال انتهزوا الفرصة جميعا لإقامة احتفالات صاخبة عربيدة بالنصر. حدث اضطراب بين الإغريق. وتصادم جنود إسبارطة بقيادة منيليوس وجنود ارغوس بقيادة أغاممنون مع بعضهم بعضا وكاد يندلع القتال بينهم. لكن في

صبيحة أحد الأيام الرمادية، حملت الأنفال على السفن: أدوات وأشيا ء ثمينة، فضة، ذهب، لآلئ، سبايا، عبيد؛ بكلمات أخرى، غادر نصف الجيش، وتريثت البقية مؤقتا. وحين اجتازت الجماعة العائدة إلى الوطن تينيدوس، تدخل زوس ـ القاسي، الوحشي، كما دعاه نستور، بل أضاف لوصفه أيضا لفظة يمكن اعتبارها فظة ـ وفرق شملها إلى جماعات أصغر. الكلمة/ المفتاح كانت تينيدوس، وحين نطقها العجوز ربطها بكلمة أخرى لا علاقة لها بالجزيرة بل أتت من "تيندوس" التي تعني الخبير في اختيار المآكل والخمور والحكم عليها (تلمظ العجوز آنئذ)، أو ربما "تيندرينيون" أو عش الدبابير، وهنا حصل المستمعون على رقاقات جديدة متألقة غالبا، صورة لمزيد من الصراع المتعلق بالذوق؛ أو لربما كان نفس الشجار، نفس عش الدبابير في صدور الرجال، الذي كان يعني.. لم يتضح المعنى أبدا. قدموا القرابين في تينيدوس، لكن دون جدوى. وهناك أبحر اوديسيوس بسفنه على ما يفترض عائدا إلى أغاممنون، أو نحو وجهة أخرى لم يحددها العجوز الذي تعاظم انشغاله بجمال كأسه.

أحدثت الخمر وجو القصة تغييرا داخل تيليماكوس. اعتقد الآن أن الكأس جميلة. خطر له فجأة أن بمقدورك اعتبار الأمر على هذا النحو: يمكن أن تظل الكأس جميلة حتى لو حاولت أن تغرق فيها كل ما في العالم من ترح ولهف، وقلق وهم، وقسوة ووحشية. ليست جميلة إلا لذاتها. فكر: إنها لجريمة بالنسبة لي، وإشارة إلى خيانة عظمى داخلي، أن أعتبر كاس العجوز جميلة. كأس اليمام مصنوعة من الفضة، لكنها مذهبة من الداخل كي تشع بريقا أحمر. حين تترعها الخمر إلى الحافة ـ حيث لا يسمح لها بالبقاء طويلا ـ تعطي تأثيرا غريبا: تفقد لونها، وتصبح أقل كثافة، وتكتسب لون العسل. حدق إلى اليدين الراجفتين اللتين تحملان الكأس باتجاه وداخل اللحية الفضية القذرة. فكر تيليماكوس بمرارة، وبشعور بالخزي، لكن أيضا بالبهجة المصاحبة للاكتشاف: إنها جميلة.

اكتشف العجوز كلمة مفتاحية أخرى، ودومت رقاقات جديدة خارجة من الغياهب المظلمة في ذاكرته.

ليزبوس.

بدأت الخارطة تكتسب تخوما كفافية؛ الخطوط تجمعت معا في نقطة. في

ليزبوس، لحق منيليوس - البارع، الشبيه بالإله، كما دعاه العجوز ببلاغة طنانة - بستور، وهناك تناقش قائدا الأسطولين حول إذا ما كان عليهما تغيير الاتجاه والإبحار جنوبا إلى كيوس، ومن ثم الاتجاه غربا من هناك، مرورا بناكسوس، نحو ساحل ارغوس، أو الإبحار غربا إلى يوبيا ومنها إلى ساحل الوطن. رواية العجوز ملأتها الفجوات ولم توضح هذه النقاط، حسبما فكر تيليماكوس. إذ خلط نستور الأسماء والاتجاهات كأنما يروي حكايته من يوبيا البعيدة مرة، ومن حيث جلس الآن في بيلوس مرة أخرى، ومن مكان ما في الأرخبيل جهة كريت أو على شاطئ طروادة مرة ثالثة، أو من بين الفينيقيين أو ممتلكات بوسيدون في الأراضي المصرية مرة رابعة. لكن فجأة - على طول الدرب المتلوي للكلمات المفتاحية، وعبر الرقاقات الخارجة من جذع الخشب في الذاكرة - وصل إلى بيلوس، إلى الوطن، مخترقا العواصف، وثلاثة أيام من تقديم الأضاحي، ورائحة البحر، والطحالب، والعديد من الخراف والثيران التي أحرقت وشويت على شرف الآلهة المبجلة. جلس هناك، وبقي جالسا مدة طويلة. انشغلت يداه وأفكاره بالأقداح، وغمغم الأخبار المبتذلة التي تشير إلى أنه أحضر معه إلى الوطن حمولة أكثر من ثمانين سفينة من الغنائم والأسلاب. ها هو يجلس هناك وقد بلغ من العمر عتيا، عتيق الطراز، لا حدود لحكمته وتجربته فيما يتعلق بالحرب، والرجال، والثروات، والآلهة - لكنه غير قادر على التعبير عن كل ذلك بالكلمات. غله الهرم بأغلاله. كَمَنَ شعور تيليماكوس تجاهه بالضبط على ذلك الحد الفاصل الذي يتحول عنده التوقير إلى ذلك الحب الدائم الذي يكنه الابن لأبيه: تقدير حنون مختلط بلمسة من ازدراء الشباب. لم يكن نستور الذي يزدريه: كانت مشاعره نحوه تقترب من الحب، بل هو عجز نستور إزاء ذكرياته الهائلة، الكتلة الساحقة من ذكرياته، في مواجهة كل ما هناك ليتذكره. في تلك اللحظة، احتقر تيليماكوس شيخوخته الضعيفة الذاكرة.

قال مينتيس القادم من تافوس بدماثة: "نشعر بالامتنان لفضلك. كانت رواية رائعة، ملحمة مجيدة؛ أجل، إن سمحت لي، كانت حكاية تليق بالآلهة. وبعد ذلك، ماذا حدث بعد ذلك؟ أين ذهب اوديسيوس؟".

قال العجوز: "اوديسيوس؟ قلت لك للتو لا تقاطعني، لأن ذلك يشتت انتباهي! اوديسيوس؟ أجل، كنت سآتي على ذكره حين قاطعتني. كان.. كان أفاقا ماكرا، أذكر

ذلك بوضوح. و.. هناك شيء ما في يديه، أو في أنفه؛ لا، في يديه. كان واحدا من أفضل النجارين في الجيش. كان قريبا من الآلهة".

هنا، كان بمقدور "الابن" الباحث عن "الغائب" أن يسأل سؤالا آخر. كان عليه أن يطرحه ليوقف موجة القلق التي دفقت في صدره للمرة السابعة ذلك اليوم. لكنه نضج خلال رواية الحكاية إلى حد أنه امتنع عن السؤال؛ فقد عرف الجواب مقدما.

أبي في عداد الأموات، عرف ذلك. وإذا كان عليه أن يعيش عبدا في أرض أشباح الظلمة السوداء الحالكة، كمحارب منبوذ بأنف مكسور ويدين مشوهتين، فإنه سيكون عجوزا مهيض الجناح كحال هذا المخلوق الهرم المحبب إلى النفس، هذا الأحمق الطاعن القذر، المهذار، النتن، المختال، الذي أشعر نحوه بعاطفة قلبية، هذا السكير جامع الأقداح والكؤوس، وعابد الفضة - وإن كان كذلك، فهو على أية حال ميت بالنسبة لنا.

أحنى رأسه باتجاه المائدة، نهض بيسيستراتوس بهدوء ومشى إلى الجانب الآخر وجلس بجانبه. احتك كرسيه بالأرضية الحجرية حين حركه. الحالة المزاجية التي سيطرت على الجميع شابهت تلك التي تخيم ساعة الأصيل على الريف بعد يوم عمل مضن.

قال نستور وهو يحك بنشاط تقريبا البقعة الواقعة تحت لحيته:

"اوديسيوس، كان شيطانا مع النساء أيضا. حسنا، الآن (يتذكر)، ألم يرجع إلى الوطن بعد؟ آه، حسنا أراد دوما الرحيل والقيام بكل أنواع المغامرات. مغامرات حقيقية، مثلما كانت الحال في الأيام الخوالي..".

لم يقولوا شيئا، انتظروا بآذان خاوية، دون أن يصغوا فعلا، لم يعودوا مستعدين للإصغاء؛ انتظروا نستور ليجد كلمة مفتاحية جديدة تنطلق منها سلسلة من رقاقات جذع الخشب من الذاكرة.

لكن العجوز كان يشرب، صوت جياش أتى من الكأس.

قال مينتيس، الرجل القادم من تافوس الذي بدا فجأة أنه يعرف كثيراً، حسبما فكر تيليماكوس: "كثيرون رجعوا إلى أوطانهم. ايدومينيوس الكريتي عاد إلى وطنه".

قال العجوز بلهف: "أغاممنون عاد إلى الوطن. أغاممنون عاد إلى الوطن! هل سمعتم القصة الهزلية عن عودته إلى الوطن؟ كلايتمنسترا كانت تلهو مع رجل يدعى

ايجستوس، ثم حلف الاثنان وراءهما مغنيا يدعى - انتظروا الان، كان يدعى ديمودوكوس! - على جزيرة صغيرة تدعى.. كارفي! و.. وأصبح ايجستوس ملكا في ارغوس، لكنه مات قبل بضع سنوات. قتلوه! هل سمعتم هذه القصة؟ حدثت مؤخرا، قبل ثلاث سنوات أو نحوها. ولم ينته الاضطراب والاهتياج بين بائعي الخيول هناك!".

نظروا إلى موائدهم، كان الضوء يبهت في الخارج؛ والعتمة تنتشر في القاعة.

نظر بائسا إليهم، وحدق ببصره الحسير هائما من واحد لآخر.

"ثراسيميديس!".

نظر إليه ثراسيميديس نظرة جوفاء وحرك كأسه إلى منتصف المائدة.

قال مينتيس القادم من تافوس بعد أن أفرغ كأسه ووضعه على المائدة بعنف: "يجب علينا التفكير قريبا بمتابعة طريقنا".

جمع العجوز أفكاره مجددا.

قال، كأنما يتشبث بشدة بأمل من نوع ما: "لكنكما ستبقيان معنا لبعض الوقت. لا بد أن أتذكر أشياء كثيرة إن استطعت التركيز طيلة الليل. يجب أن أفعل ذلك".

قال مينتيس القادم من تافوس: "كان تيليماكوس يفكر بالمتابعة إلى إسبارطة. لذلك سوف يبيت هذه الليلة. أما أنا فلدي عمل مع بعض الأشخاص في كوكون، ثم أسترد دينا صغيرا لي بذمة أحدهم". ابتسم، ولمعت عيناه، وضحك ضحكة مشرقة. "لكن إن استطعت تدبر أمر نقل تيليماكوس إلى إسبارطة فسيكون ذلك رائعا".

قال بيسيستراتوس متلهفا: "لكن، بالطبع!"؛ وأومأ ثراسيميديس رأسه ببطء وغباء.

قال العجوز بعناد، كأنما هناك من يعارضه: "ابن اوديسيوس سيبيت الليل في كل الأحوال! لن يقول أحد على رفاتي، على عظامي المحروقة، أن ابن اوديسيوس لم يتمكن من المبيت هنا! لدينا وسائد وأدثرة وملاءات وفرش كافية في هذا البيت، ولن يقول أحد على رفاتي إن.. إن.. ما الذي تريد أن تعرفه؟ أين كان اوديسيوس، أليس كذلك؟ ألم يرجع إلى بيته بعد؟ هذا غريب! أجل، لا أعرف، لا أعرف".

قال بيسيستراتوس آملا أن يقنع مينتيس بالبقاء: "لسوف نذبح عجلة ونقدمها قربانا هناك في الريف في الصباح الباكر".

"أنا اسف؛ لدي عمل أفكر به!".

* *

خيم الظلام بحلول الوقت الذي نهض فيه مينتيس، الرجل الذي قال إنه من تافوس، واستعد للذهاب. لم يقبل أن يعطوه عبدا ليدله على الطريق. رافقه تيليماكوس عبر الباحتين نزولا إلى الشارع المؤدي إلى البوابة في سور المدينة.

قال بكآبة حين توقفا: "أنا ممتن لك جدا بسبب ما فعلته من أجلي. وأشعر بالحزن لفراقي عنك".

سمعه تيليماكوس يطلق ضحكة في الحلكة.

"أوه، لسوف نلتقي مجددا، سترى!".

قال تيليماكوس: "أفضل لو تكون معي في هذه الزيارة إلى منيليوس".

قال وهو يطوق كتفيه بذراعيه ويهزه بود: "هيا! لسوف تتدبر أمرك على أحسن وجه. ولا أعتقد أن والدك في عالم آخر غير عالم البشر. لدي إحساس.. أجل، سيعود إلى الوطن حين لا يتوقع عودته أحد؛ لسوف ترى!".

قال تيليماكوس: "لم تعد الأيام الباقية لدى والدتي كثيرة الآن".

ضحك الرجل القادم من تافوس مرة أخرى، ضحكة ناعمة كأنها أنثوية.

قال: "ستكون كافية، ففي الوقت متسع".

حين عبر البوابة واختفى في الظلام، بقي تيليماكوس حيث كان، مصغيا السمع تلاشى الصوت لكن ليس كتلاشي وقع الخطى. فقد شابه خفق أجنحة ثقيل الوطأة.

-١٩-
الرجل

دوت صرخاتهن الجماعية حين سار متعثرا نحوهن. رأت الفتيات جسده الضخم العاري من فوق الشجيرات. وحين خطى خارجا إلى الفرجة المفتوحة زعقت الجواري مرة أخرى - زعقات طويلة بدأت تجري كقطيع من الخراف، وتجمعن معا بحيث تصادمن ودسن على أقدام بعضهن بعضا. اندفعت الفتيات اللاتي كن بجانب نوسيكيا باتجاه العربة والبغلين، كأنما سيجدن ملاذا يحميهن هناك؛ اكتسحن الملاءات المعلقة على حبل الغسيل وتلك المنشورة على الأغصان، ووطأن بأرجلهن الملاءات والملابس على العشب ليتركن آثارا رملية عليها، وحين تعثر بعضهن وسقطن على الأرض أطلقن صرخات حادة كالخنازير التي تذبح، ورفسن بأرجلهن ورفعن أذرعهن، لكنهن نهضن مجددا بعد لحظة. اينوينيا وثبت خلفهن وقد اهتز بطنها وثدياها.

في الجدول هناك طافت الكرة البيضاء.

صاحت: "أحضرن الكرة!"، لكنهن لم يسمعن.

الغصن المورق الذي غطى به عورته كان أول ما رأته فيه فعلا. مشى مترنحا نحوها كأنما أذهلته الخمر. حسبت لوهلة أنه إله أو شيطان، ثم أدركت أنه إنسي فان. تشعث شعره وتصلب كأنه شجيرة. هنالك أوراق ذاوية علقت به وبلحيته؛ وورقة على وجنته تحت الأذن، وأخرى التصقت بجبهته وصدره الأشعر وذراعيه. كان عليها أن تركض هاربة، لكن فات الأوان؛ فالفرار الآن سيبدو سخيفا إلى أقصى الحدود. فكرت: رجل يتقدم نحوها! تقدم بضع خطوات قبل أن يتوقف ويرفع رأسه بلحيته الشعثاء التي ابيضت بفعل الملح، وعينيه الملتهبتين، وينظر إليها. تحرك رأس لسانه على شفتيه؛

كانتا رماديتين. لعقت شفتيها وازدردت ريقها حين رأتهما. كان مرعبا إلى أقصى حد، ومغويا، ومرعبا، وصاعقا. ها هو رجل يتقدم نحوها، هكذا فكرت حتى بعد أن توقف. حاول أن يقول شيئا لها. تحرك فمه؛ بلع ريقه فسمعت الصوت. رجف الغصن الذي يحمله بإحدى يديه، ورعشت الأخرى حين رفعها - أولا إلى وجهه، ثم أشار بها نحوها متوسلا مستغيثا.

فكر: يجب أن أؤثر في تلك الفتاة الواقفة أمامي، ويجب أن تفهم أنني لا أنوي إيذاءها، وأنني أريد طعاما. بذل جهدا لينطق بكلمة طعام، لكن النتيجة كانت غمغمة مبهمة بقيت في حنجرته. فكر: لا بد أن منظري بائس، وبذل جهدا دؤوبا ليبقى منتصبا على قدميه. يجب أن أؤثر فيها؛ إنها في ميعة الصبا، ينبغي أن أكون ماكرا ذكيا، إنها شابة وفانية من البشر، فتاة على الأرض، فتاة ريفية، ولديهم الطعام.

شعر بأن صوته قد عاد. مزق حنجرته حين تكلم؛ تمرد عليه لسانه الورم، وأوجعه الصداع في رأسه. فكر: يجب أن أكون حاذقا ماكرا.

بدا وكأنه خرج من مدفن في الأرض، مثل.. مثل أسد خرج من البحر؛ ليس من هذه الأنحاء، لكنه أنسي، هكذا فكرت ورأت رجليه الراجفتين، وذراعيه القويتين المكسوتين بالشعر، ولحيته المحمرة المملحة، ترتعش حول فيه حين حاول النطق. بدأ يتحدث إليها فجأة بلهجة غير مألوفة، مترددا في البداية، باحثا عن كل كلمة، ثم مسرعا بصوت أجش زاعق.

فكر: يجب أن أكون حاذقا ماكرا وأختار كلماتي بحيث لا ترتعب وتفر.

قال متلعثما: "أنت - أنت تبدين مثل ارتميس!". مزقت الكلمات حنجرته، وتحرك لسانه بشكل بغيض. حين سمع صدى صوته في رأسه فكر: هذه هي المناسبة الأولى من زمن بعيد أتحدث فيها إلى بشر من لحم ودم، إلى امرأة بشرية فانية.

لم يبد عليها أنها فهمت؛ لربما تتحدث لغة مختلفة. عروق رأسه كانت تنبض، بإمكانه أن يشعر بجسده يميد على قدميه. فكر: سيكون الأمر بغيضا فاجعا لو سقطت.

قال وقد أصبح الآن من الأسهل العثور على الكلمات ونطقها: "أعني تبدين مثل إلهة!".

كانت جذابة فاتنة، أو لربما من الأفضل القول: صبية جميلة رزينة ـ ترفل بثوب أبيض مبهر تحت أشعة الشمس ـ حافية القدمين، بدون حجاب، ذهبية البشرة، سوداء الشعر، كحلاء العينين.

قال مرة أخرى، وضغط الغصن المورق عليه: "مثل إلهة".

قالت: "لست إلهة".

كان صوتها مضطربا، وتلك علامة جيدة. كما أنها فهمت لغته، إنه في عالم البشر. يجب أن أفكر بشيء؛ لا يمكن أن أصرخ أنا جائع؛ فلست بربريا؛ يجب أن أقولها بطريقة أخرى، هكذا فكر.

قال: "أنت.. أنت تشبهين فتاة، سيدة شابة رأيتها في .. في ديلوس ذات مرة".

ردت ببرود وخجل: "حقا؟". الآن سيطرت على صوتها. ثم قالت بمزيد من الحدة ورباطة الجأش والتصميم:

"من أين أتيت؟".

كادت أن تقول "سيدي"، لكنها منعت نفسها.

قال: "من البحر".

"من البحر؟".

بدت متشككة. فوق المنحدر وقفت عربة؛ هناك زوج من البغال ربطا بجذع شجرة، ومن خلف العربة وبين الشجيرات حدقت وجوه أنثوية بيضاء وسمراء. لربما أتيت إلى جزيرة نساء، هنالك مثل هذه الجزيرة في الحكايا القديمة، هكذا فكر في نفسه. انتشرت في كل مكان ملاءات وملابس بيضاء وحمراء وبنية، وعلى الشجيرات وحبال الغسيل المشدودة بين الجذوع علقت الأدثرة، والأردية، والعباءات السميكة. هنالك ثياب تخص الرجال أيضا، هكذا خطر له بشيء من خيبة الأمل تقريبا.

قال: "جرفني الموج إلى الشط عندما هبت العاصفة. أحسب أن ذلك حدث أمس، أو أمس الأول. استلقيت هناك ونمت ثم استيقظت وسمعت..".

تقدم للأمام خطوة، لكنه لم يتابع حين تراجعت. قال: "لا داعي لأن تخافي مني. لكن ليس لدي ملابس، ثم أنا (حاول أن يبتسم، ويخفف من أهمية الأمر، ونضحك على نفسه) جائع جدا".

قالت مرة أخرى ونظرت فيما وراءه: "من البحر؟". سمعا هدير الموج؛ رجف جسمه برغم الحر.

قال، محاولا أن يبتسم مجددا، لكن شعر بأن البسمة بدت تكشيرة بائسة: "أجل من البحر".

عاد بصرها المحدق إليه؛ تفرست به صامتة. إن كانت خائفة فهي بالتأكيد لم تظهر ذلك. كانت نحيلة رشيقة؛ ذراعاها بيضاوان كأنها لم تجبر على العمل تحت أشعة الشمس كثيرا. أنفها ضيق، وذقنها مدورة، وفمها صغير. فكر: إنها تعلم ماذا تريد. لكن هناك هشاشة ما، شيئا مكسورا داخلها. ذكرته بشخص رآه من قبل - لا الفتاة في ديلوس، فهذه رواية مختلقة، بل برجل آخر عرفه منذ زمن بعيد. لم تعرف رجلا من قبل. فكر بهذا وكانت الفكرة بحد ذاتها هزلية؛ ثمة عنصر كوميدي في وقفته هناك مع غصن مورق يغطي بطنا يصرخ من الجوع، وحنجرة جافة، ورأسا مصدوعاً، ورجلين مرتجفتين، ثم التفكير بذلك. فكر: إنها في السابعة عشرة.. الثامنة عشرة. امرأة من لحم ودم. قال: "أنا مسافر منذ حوالي عشرين يوما. أتيت من مكان بعيد في الغرب.. ثم قذفتني الأمواج إلى الشاطئ هنا،أمس أو أول أمس. لا أدري كم مضى علي وأنا نائم".

مرة أخرى شعر بإغراء يدفعه للقول إنه يتضور جوعا؛ ذلك هو الأمر الوحيد الحقيقي، الحقيقة الحية، الشيء المهم الوحيد الذي يجب قوله، الذي يمكن للسان أن يعبر عنه بكل جدية. لكنه نجح في تجاوز كلمة طعام، وكلمتي لحم وخبز، وتدبر أمر مراوغة رغبته الضاغطة التي تجأر طلبا للطعام، ليمشي عشر أو خمس عشرة خطوة إلى ضفة النبع، ويشرب. تضاعف غليله حين سمع خرير الماء، ومع ذلك نجح في تفادي كل هذه الكلمات والحركة.

قال وقد استطاع أن يدفع لسانه إلى طاعته: "سوف تفهمين ، سوف تعرفين مدى خجلي المريع وأنا أقف هنا بهذه الهيئة. هل يمكن لي.. أعني بالطبع، هل أستطيع استعارة مئزر من أي نوع كان، حيث أبدو لابسا على أقل تقدير. لابد أن مظهري هزلي وأنا أقف بهذا الشكل. لابد أنك تحسبين بأنني قليل الاحتشام".

أجبر نفسه على الضحك. فكر: يجب أن أبدو محرجا مرتبكا، وحاول أن يطلق ضحكة مرتبكة؛ ولربما نجح. التفتت - دارت بجسمها بحيوية وسرعة، استدارت بحركة صبيانية ونادت على النساء الأخريات قرب العربة وبين الشجيرات، لكن قبل أن ينتهي النداء، قبل أن تقول منه مقطعين اثنين، وجدت أن كرامتها، كرامة فتاة تزعم أنها امرأة ناضجة، حاكمة شابة، ورنين اللهفة في صوتها، اللهفة للعب دور في هذه المسرحية، الدور النسائي الوحيد - وما الذي يعرفه هو! - وكانت تلعب ربما الجزء الأول منه، قد أصبحا سمة آمرة: نادت بلهف وأدخلتهنّ بالتالي في المسرحية والتمثيل: "يا بنات! هل تستطيع واحدة منكن أن تجلب إلى هنا بعض الملابس!". هكذا أمرتهم بنبرتها الودودة الجليلة.

هنالك حركة بين الشجيرات. اثنتان أو ثلاث من النساء انحنين على الأرض أو مددن أذرعهن والتقطن ملاءات وملابس وعباءة؟ وبدأن يتقدمن نحوهما كقطيع صغير، ثم أسرعن وكان منظرهن مثيرا. مشت في المقدمة فتاة نحيلة كانت أول من وصل، لكن الأخريات تبعنها في صف واحد، ثم في جمهرة ازدادت كثافة باطراد: بعضهن بدينات، وبعضهن نحيلات، حملن معهن مجموعة كاملة من الثياب، تكفي لتلبيس عريس، سوقاً كاملة للثياب تكفي لافتتاح مغسلة لتنظيفها، حملنها إليه؛ الأخيرة كانت امرأة نصف زنجية ضخمة الجثة، أتت متهادية في مشيتها، تلمع بشرتها بفعل الزيت و تحمل دثارا صوفيا رماديا سميكا.

كل ذلك حدث خلال المدة الفاصلة بين كلامها والتفاتتها، بينما كان هو يبحث عن كلمات جديدة وإيماءات يخفي بها وضعه الذي يدعو للرثاء.

قال: "أنتن فتيات طيبات جدا"، وأخذ الإزار الذي ناولته له الفتاة النحيلة الضئيلة المفعمة بالحيوية بانحناءة وضحكة شبه مكبوتة فيهما خوف وفضول في آن.

أجابت الملكة بتهذيب جليل: "لا شكر على واجب".

بحثت هي أيضا عن كلمات مناسبة، تكون واضحة وجوهرية وخفيفة الوقع.

ألقى المئزر على كتفيه، وترك الغصن يسقط، احتكت الأماليد بفخذيه، وحفت الأوراق؛ ركله بعيدا وترنح: ما زال توازنه سيئا.

قال محاولا استخدام نبرة حوارية خفيفة وسهلة: "أنا شديد الامتنان لهذا".

وجدت كلماتها.

"لربما تريد شيئا تأكله؟ بعد هذه الرحلة الطويلة؟".

شعرت بأنها أحسنت القول وفكرت: إنه قذر وأشعث إلى درجة مريعة!

كانت عيناه المحتقنتان تطرفان. تصلب شعر رأسه ولحيته المحمرة بفعل الملح، وتغطت ذراعاه ورقبته بالخدوش والجروح التي اسودت قشرتها، وهناك جرح طويل على ذقنه تحيط به كتل متجلطة من الدم.

قال: "سأكون ممتنا. فأنا جوعان قليلا..".

أومأ لها ورسم تكشيرة على وجهه مرة أخرى. وخزته عيناه؛ طرف بهما بسبب الضوء المنعكس من ردائها.

قالت: "لدينا طعام هنا. لكن.. لكن ربما ترغب بالاستحمام أولا؟".

قال: "كنت سأسأل هل يسمح لي بذلك. لا بد أنني أبدو زريا أشعث..".

انحنى لها، واستدار بصعوبة، ومشى إلى حافة الجدول؛ اضطربت خطواته. فكرت: يبدو أنه منهك، وشعرت بعاطفة ود نحوه، نحو مشيته المضطربة، ورجليه الراجفتين - نحو عنقه المحنية حين تعثر وعرج باتجاه الماء. جلس خلف شجيرة. الجواري ما زلن يقفن هناك وهن يمسكن الغسيل وينظرن إليه.

قالت: "لسوف نأخذ الغسيل؛ لا بد أنه جف الآن".

حين كان يستحم ويغتسل، جمعن الثياب، والملابس الكتانية، والملاءات والأردية، وحملنها إلى العربة: لم تجف العباءات السميكة والأدثرة تماما: تركنها منشورة فترة أطول. سمعت صوت الماء وهو يغوص فيه، ثم وهو يتأوه - لابد أنه يعب

الماء الآن ـ لكنها لم تنظر في ذلك الاتجاه. كانت الجواري يعبثن، ويسقطن قطع الغسيل؛ وينفضن عنها الرمل والعشب والحشرات؛ ضحكن بأصوات عالية، وهمسن إلى بعضهن بعضا، وترنحن وتعثرن وقهقهن. سارت إلى العربة؛ وحملت الفتيات الغسيل داخل صرر.

"هل جفت الأردية؟".

قالت اينوينيا: "معظمها".

سحبت رداء مطرزا لأحد أشقائها، ولباسا كتانيا داخليا، وعباءة مطرزة ووضعتها على العشب.

قالت مفسرة رغم عدم الحاجة للشرح: "هو بحاجة للثياب. احملن هذه إليه".

النحيلة الهزيلة أرادت أن تحملها إليه ركضا.

قالت: "لا، انتظري. الأفضل أن تذهب اينوينيا".

التقطت الشابة الحبلى ذات البشرة اللامعة الملابس وتهادت نزولا على المنحدر.

"انتظري!".

مشت وراءها بضع خطوات وهي تحمل قارورة الزيت ومشطها البرونزي.

"أعطه هذين أيضا".

حين نظرت في ذلك الاتجاه مرة أخرى، كانت اينوينيا ما تزال واقفة بجانب الشجيرة والملابس على ذراعها. يجب أن تعرف بأن عليها أن تضعها بجانب الشجيرة وتعود! هكذا فكرت بانزعاج.

"اينوينيا!".

التفتت الأمة وكشرت عن أسنان بيضاء عريضة.

"نعم؟".

قالت: "لا شيء. أجل.. يمكنك أن تضعيها هناك؛ لسوف نحضر الأدثرة والعباءات الآن. ضعيها هناك".

لم تسمع اينوينيا جيدا. رأت الرجل يخرج من الماء. أخفى عورته بيديه. فكرت: يداه مشوهتان، هنالك إصبع مفقودة، لربما بترها سيف!

سألت الجارية: "هل أنت.. هل أنت محارب؟".

قال وهو يأخذ الملابس منها: "أجل، كنت محاربا".

فكرت نوسيكيا: يداه مشوهتان، وكان في الحرب. إنه بطل قادم من البحر.

- ٢٠ -
بوليكاست

اعتاد نستور أن يستيقظ باكرا: حين أشرقت الشمس كان واقفا في مدخل الباحة الخارجية، يتجشأ. ستذبح عجلة في وقت لاحق من الصباح لإعداد طعام الغداء في منتصف النهار وتقديم القرابين. تردد صدى صوت العجوز الأجش، الزاعق نوعا ما في أرجاء الباحتين، وأصغى له تيليماكوس لوهلة وهو مستلق يغالبه النعاس. كان بيسيستراتوس قد نهض من الفراش أيضا. الغرفة المؤدية إلى القاعة الكبرى بسيطة تماما: لا تتفوق في ترفها على بيته. ترك نظرته المحدقة تتجول على الجدران المطلية بماء الكلس الأبيض. في أعلاها إفريز من الرسومات الخرقاء المستمدة من الأساطير القديمة - صيد الأسود كما يفترض. الأرضية مبلطة بحجارة مسطحة. في أحد الأركان انتصبت جرة ماء؛ وعلى الجدار بعض الخطافات لتعليق الملابس. فكر: هكذا إذن يعيش الملوك على البر.

سهروا إلى ساعة متأخرة من الليلة الفائتة؛ عرف بذلك من شعور في جمجمته. قدم العجوز كل أبنائه مرتين على الأقل؛ كانوا خمسة، أو ستة، أنجبهم في شيخوخته. وفيما عدا بيسيستراتوس بالطبع، أعطوا انطباعا بعدم أهميتهم، أجل، بل حتى تريّفهم. تناقشوا حول الدوق مينتيس، الذي لم يعرفه أحد من قبل. وفي النهاية، وبعد العديد من الأقداح المترعة، قدم نستور نظرية تشير إلى أن الرجل القادم من تافوس إله متنكر (أو إلهة). لربما كان مصيبا. قال العجوز إنه في سالف الأيام كثيرا ما ظهرت الآلهة في الأوقات التي لا يتوقعها أحد، أجل، كانت تظهر وتقوم بمعجزة، أو تكتفي بمجرد إظهار نفسها وتنتظر منك أن تعتبر ذلك آية. وهذا ينطبق على ما حدث هنا

تماما، وقد عرف أننا سنقدم القرابين في الصباح، حسبما ما قال العجوز. حين وصل إلى هذه النقطة، نزلت الملكة يوريديسي، "أكثر النساء استقامة"، مرة أخرى من الطابق العلوي، وحينذاك حان موعد نوم العجوز. رحبت ببرود بابن اوديسيوس، ولم تسأل أبدا عن رحلته أو عن ايثاكا؛ كل ما أرادته هو أن تأخذ العجوز إلى الطابق العلوي بأقصى سرعة ممكنة. اعترض بكآبة:

"لكن كانت عندنا هنا بالأمس أثينا يا امرأة؛ ومن المؤكد أن من المسموح لنا الاحتفال بذلك!".

هزت كتفيها باستخفاف، وتغطرس، ووقار؛ لقد سمعت كل هذا من قبل.

قالت بصراحة لكن ليس بود: "كلما أفرطت بالشراب رأيت أثينا وغيرها! تعال الآن!".

قبل أن يصعد العجوز السلم، أصر على جمع كافة الأقداح وعدها واحدا واحدا؛ أما كأسه الجميلة المزخرفة باليمام فقد أمسكها بيده، لكن "أكثر النساء استقامة" أخذتها منه وسلمتها إلى أحد الأبناء، ايكفرون، الذي أخذها على ما يبدو إلى الخزانة في غرفة النوم.

ذاك ما تذكره تيليماكوس عن نهاية يومه الأول في بيلوس. فكر: الآن يجب أن أنهض، أغمض عينيه، وتمطى، وتثاءب. لسوف أعد إلى العشرة: واحد..اثنان..ثلاثة..أربعة..خمسة.. لم أشرب من قبل بهذا القدر، ولم أذق خمرا مسكرة كهذه، لكن ليس بمقدور المرء أن يرفض حين يملؤون كأسه ويريدون منه أن يشرب واحدة أخرى. شربوا نخب أبيه أيضا. تذكر نستور تدريجيا أشياء كثيرة، معظمها مفترى ومخز. قال العجوز آمل أن تحذو حذوه. اوديسيوس ما تخلف أبدا حين دعت الحاجة. ثمانية.. تسعة.. عشرة. عد مرة أخرى ووصل متمهلا حتى الرقم سبعة حين فتح الباب، فتح عينيه، ورفع رأسه ونظر.

كانت فتاة في السادسة عشرة، أو السابعة عشرة، لها عينان بنيتان لامعتان يملؤهما التساؤل والفضول، وتذكر أنها هي التي لمحها في الأمسية السابقة. وقفت عند المدخل؛ وجالت نظرتها المتغطرسة في أنحاء الغرفة، وعادت إليه، ثم ابتسمت. مرر أصابعه في شعره، وازدرد ريقه. كانت جميلة فعلا. حملت في يدها منشفة صوفية كبيرة ولوحتها. "أمي ترسل لك تحياتها، هل تحب أن تستحم الآن؟".

"زقزقت". ليس ثمة كلمة أخرى تصف صوتها، صوت الضحكة؛ أمسكت المنشفة ولوحت بها.

قال مرتبكا بعد أن تنحنح "أوه"، (شربنا كثيرا في الليلة الفائتة)، "هذا يسبب لك كثيراً من العناء".

قالت مبتهجة: "لا أبدا! لسوف أدلك على الحمام؛ إنه جاهز".

"لكن.."، لم يضف شيئا.

قال الصوت المرح المبتهج: "إنه قريب. إذا أردت سآتي وأساعدك".

تورد وجهه وفهم".

"أنا.. لكن.. سيعنّيك ذلك كثيرا".

زقزقت مرة أخرى: "لا أبدا، لا أبدا. أنا أساعد الأبطال عادة.. أي حين يأتي أحدهم لزيارتنا".

اتكأ على مرفقيه، شعر بأن وجهه محمر، لكنه ابتسم لها.

"ضعي المنشفة على الكرسي هناك، لسوف أتدبر أمري. أين الحمام؟".

قالت مجددا: "سأدلك عليه. ينبغي ألاّ تخجل إلى هذا الحد. أنا معتادة على الرجال. لسوف أفرك ظهرك إن أردت. هيا، تعال، إلا إذا كنت تعتقد بأن الوقت مبكر؟ لكننا سنقدم القرابين قبل أن تذهب. هل تظن أن الوقت ما زال مبكرا؟".

تلك كانت سخرية بالطبع. شعر بالضيق معها، وليس بالغضب منها، مجرد ضيق خفيف. لا شك بأنهم من الريفيين السذج - ملك بيلوس والباقون، أم لا. بل هم أسوأ من نظرائهم في جزيرته. إذن، هذه هي الحياة على البر.

قالت مرة أخرى: "تعال! لسوف نذبح قربانا ونحتفل".

ما زال تيليماكوس يحاول جمع شتات نفسه. هنالك شيء يسد حنجرته، أمل بأن يزول قريبا. كانت صغيرة، قوية البنية، بنية الشعر، والضوء القادم من النافذة في أعلى الجدار سقط مباشرة عليها. وقفت تحت ضوء الصباح في المدخل نصف المفتوح على الممر. المساعِدات في الحمام هن عادة من النساء المتقدمات في السن، وتفضل هنا الزنجيات. على كرسي صغير في وسط الغرفة، وضع رداءه، أفضل ثوب عنده، الرداء المطرز الفاخر الذي يعتبر الأجمل فعلا على جزيرته، بعد رداء انتينوس؛ ولصق الجدار،

بجانب سرير بيسيستراتوس الخالي، تكومت عباءته، لا بد أنه أخطأ الخطاف (شربنا كثيرا في الليلة الفائتة) عندما حاول تعليقها. في حين رأى فردة صندله حيث قذفها في منتصف الغرفة، وغابت الأخرى عنه. في الركن انتصب إبريق يحوي ماء أو خمرا ممزوجة بالماء.

سأل ولم يعد صوته محشرجا الآن: "أين الحمام؟ سأجده إن دللتني عليه".

قالت: "سأدلك عليه إن تبعتني".

أحدهم كان يصرخ في الباحة. أصغى الاثنان.

"بابا يحدث جلبة لا داعي لها؛ وهو يفعل ذلك دوما حين تقدم الأضحيات؟ هل تحب ذبح الأضاحي؟ أعني أنه عمل وحشي".

جمع شتات نفسه، وأصبح الرجلَ الوقورَ الناضج ـ وقور وناضج مثل الزوار القرويين القادمين من الجزر بعد حفلة صاخبة في الليل.

قال: "الأضاحي ضرورية ومقدسة".

بدت عبارته سخيفة في ذلك المكان، تورد وجهه مجددا أمام عينيها البنيتين اللامعتين.

قال باقتضاب ـ كرجل: "على أية حال، الأضحيات أمر جيد. ما اسمك؟".

قالت: "بوليكاست"، وهي تثني جسدها وتحرك قدميها قليلا؛ كانت حافية. "هل تعتقد حقا أن أثينا هي التي كانت هنا بالأمس؟ ذاك الرجل الطويل الأشقر؟".

سألها وهو يمد ذراعه لكن دون أن يصل إلى الكرسي: "هل رأيته إذن؟".

قالت وعلى وجهها تعبير جديد: عبست وباعدت شفتيها: "لا يسمح لنا بالنزول إلى القاعة الكبرى حين تزورنا شخصيات بارزة. الفتيان والأخوات المتزوجات وحدهم المسموح لهم بالدخول إلى هناك". مشت عبر الغرفة والتقطت العباءة ورمتها له. "هل هذه ما تبحث عنه؟". اعتقد أن في أسلوبها شيئا من الازدراء. جذب العباءة، وجلس وحملها في يده. فكر مروعا: لو لم أتقيأ عليها.

"لك اسم جميل يا بوليكاست. اسم.. شاعري".

"هل تحب الشعر؟".

تقدمت نحوه عدة خطوات، ووقفت في منتصف الغرفة. على البر الرئيسي إذن،

تظهر الأميرات حافيات حتى أمام الضيوف على ما يبدو. كانت قدماها مغبرتين، فقد خرجت من البيت وعادت هذا الصباح.

قالت: "على أية حال، كان يجسد الطراز الحديث إلى حد رهيب".

"هل تقصدين.. مينتيس؟".

"أجل، ومن غيره!".

قال بصلابة: "رجل وسيم جدا".

مالت إلى الأمام بلهفة؛ ولألأت عيناها:

"هل تعتقد مثل بابا.. أنه أثينا؟".

نزع للاعتقاد بذلك في الليلة السابقة - رغم أن حجة نستور لم تكن مترابطة منطقيا أو غير قابلة للدحض. لكن السبب وراء ذلك كمن على الأغلب في أن رؤيته بصحبة إلهة متذكرة، أو وصوله مع إله مقدس، يشبعان غروره وكبرياءه.

قال الآن: "لا أدري. لكنني تمكنت البارحة من الرؤية عبر مسافة بعيدة حين وصلت إلى هنا - اعتقدت أنني رأيت موطني ايثاكا".

قالت: على أية حال كان يجسد الطراز الحديث! وقفنا في القاعة العلوية وراقبناك من النافذة. بدوت مضحكا ومذعورا - هل أنت جبان؟".

"أنا؟".

يجب أن أكون ذكيا أريبا. يجب أن أكون سريع البديهة وأجيبها فورا. ضايقته، وفي ذات الوقت جعلته يشعر بأنه أخرق وبغيض. عرفت ذلك تماما.

قال: "أنا أخاف؟ أجل، أخاف تيارات الهواء البارد".

تلك كانت دعابة عتيقة من ايثاكا: البحارة الشيوخ يقفون في الميناء، ويتفاخرون. لم تعط أي انطباع محدد.

قالت، ولم تضحك سوى عينيها: "هل تريد أن أغلق الباب إذن؟".

قال بارتباك: "لا". ثم اكتشف شيئا جيدا ليقوله: "أوه، أجل، أحب الشعر، وأنت؟".

قالت: "ليس كثيرا. فالمرء لا يسمع إلا أشياء قديمة حول - أوه، حول الأمور المملة القديمة، حول أغاممنون و.. لكن هذا يساير الطراز السائد! فكر بملكته!.. وتلك الأشعار المبتذلة حول بابا ورفاقه حين كانوا في الحرب، ومنيليوس واوديسيوس و..".

قال بصوت خفيض، وأصبح فورا شخصا مختلفا: "اوديسيوس كان أبي".

قالت بتعاطف حقيقي بان في صوتها: "نعم، أعتقد أن ملاحظتي طائشة؟".

فكر: "كان" أبي!

قال: "أنا أقوم بحملة للبحث عنه. لقد بدأت الحملة مع مواطني بلدي".

بدا وكأنه "أدميرال" على أقل تقدير. لم تعلق، بل قالت أوه، حقا، أجل، ولوحت بالمنشفة. جلس والملاءة تغطي جسده حتى كتفيه.

قالت، وقد بدت الآن أكثر تبرما وضيقا: "أعتقد أنهم في انتظارك".

أخرج قدميه ونظر إليهما. كانتا نظيفتين. ألقى العباءة على كتفيه ولفها حوله، وفكر: من المؤكد أنني أبدو مبهرجا.

"هيا الآن!".

تبعها، والآن تملكه الغضب تقريبا. من هو؟ قائد حملة بحث. وضيف، في الحقيقة ضيف شرف، عبروا عن تقديرهم له بإظهار اهتمامهم به ومحادثته نصف ليلة كاملة - رجل ربما كان برفقة إله أو إلهة؟ بالطبع إنها أثينا! وها هو هنا، تسحبه من الفراش فتاة لم تقع عليها عيناه من قبل - تقريبا. مثل أضحية، أمة، مثل.. قروية ساذجة! فكر: أنا غاضب.

قالت: "هنا"، وفتحت بابا على يسار الممر وأشارت إلى الداخل. "خذ غطسة سريعة، لأن عليك أن تعجل".

كان الحوض النحاسي في الركن، وجهز الحمام بأنابيب مياه و "دوش". الأرضية مبللة؛ ويبدو كما افترض أن العائلة برمتها وكل الأبناء والأصهار كانوا يغتسلون ليصحوا من سكرهم وينظفوا أجسادهم منذ شروق الشمس. أصدرت قدماه الحافيتان على الأرضية الحجرية صوتا كريها وبغيضا ولا علاقة له بالبطولة! حدق بعينين نصف مغمضتين بحثا عن خطاف يعلق عليه عباءته، لكن لم يتمكن من رؤية واحد.

"لسوف آخذها".

خلعها - بعد هنيهة تردد - بسرعة، ومد ذراعه إلى الخلف وهو يحملها؛ حين أخذتها احتكت يده بيدها. فكر: أتصرف بسخف؛ فبرغم كل شيء، عرفت فتيات من قبل؛ ويمكن أن أخبرها بقصة أو اثنتين لو أردت؛ فلربما حملت امرأة مني، من يعلم؟ لست متخلفا كما

تحسبني على ما يبدو! حطا فوق الحوض النحاسي الدائري، وجلس فيه؛ الماء بلغ رقبته بالضبط. كان باردا، ويندلق على الأرض كلما حرك ذراعيه ليغتسل: رشاش الماء انتشر على الأرض عدة مرات! وقفت إلى جانبه وهي تنظر إلى المشهد.

قالت وهي تنزع السدادة من الأنبوب فوق الحوض: "بنيتك قوية ومتناسقة".

دفق فوقه ماء جليدي، ماء يسبب التجمد، والرجفة، في تيار عريض، ولم يتمكن من كبحه.

"أو - وه - وو- وه!".

"هل هو بارد جدا؟".

قال وهو يحاول ألا تصطك أسنانه: "لا! حرارته منا.. اا.. سبة".

قالت: "هناك ماء أكثر دفئا أيضا، من الصهريج. لكنه مخصص للعجائز على الأغلب. هل أنت مصاب بالروماتيزم؟ أووه! كيف لم أفكر بذلك؟ كم أنا طائشة! لكن الأبطال يغتسلون عادة بمياه تأتي من هذا الأنبوب؛ فهي من النبع مباشرة ويفترض أنها مفيدة جدا - في صباح بعض الأيام".

انكمشت كل رجولته، بما فيها أداته ذاتها؛ لم يجرؤ على النظر إلى الأسفل حين وقف.

"خذ!".

لف ملاءة الحمام الصوفية، اللذيذة، التي تدفئ الجسد حوله ونشف جسمه. أصدرت قدماه صوتا بغيضا على الأرضية الحجرية الملساء وشعر بأنهما متورمتان ومسطحتان. انحنى وظهره لها وكذلك كل جسمه؛ كان شعره يقطر ماء.

قالت من خلفه: "الآن، سوف أدلك ظهرك".

تأثير الزيت ويديها كان.. أجل، مدهشا. دلكته بضربات سريعة على لوحي الكتفين نزولا إلى الخصر؛ لم يجرب من قبل شيئا كهذا أبدا. اختفى الشعور بالانكماش؛ دبت الحرارة في كل أنحاء جسمه، أحس بأن قدميه ورجليه قويت وعادت إلى وضعها الطبيعي. بإمكانها الاستمرار في ذلك بقدر ما ترغب.

"الآن استدر!".

فعل ذلك، دون خجل، لكن وضع ملاءة الحمام أمامه. تنقلت يداها الناعمتان في صدره، نزولا إلى وسطه، لتصعدا ثانية إلى ما تحت ذقنه: لو أن لي لحية أكثف؛ فاح

من يديها عبير العسل والزيت وشيء اخر، عصر من البر الرئيسي. تطاول رأسها إلى كتفه. أنفها جميل وضيق ومستقيم ولا يشبه أنوف أبيها وأشقائها الخرقاء؛ جيدها موشح بالذهبي الأسمر. ذقنها مدورة، ويداها.. سريعتان وناعمتان إلى حد لا يصدق.

"احن رأسك!".

انحنى فوقها، ودلكت شعره. يداها تحركت فيه كأنه المنشفة التي تحملها. دلكت برقة جبينه ووجنتيه، وعنقه وكتفيه؛ طوقته النعومة والروائح العطرة.

قالت، ورفعت وجهها نحو وجهه: "ألا تشعر الآن بحال أفضل؟".

ازدرد ريقه وأجاب:

"أجل، في أحسن حال".

بدا صوته رجوليا مهذبا، كأنما هو معتاد على النساء، وقالها مرة أخرى: "في أحسن حال".

"الآن، اذهب وارتد ثيابك؛ لا بد أنهم في انتظارك".

ود لو أنه لمسها، لكنه لم يستحضر الشجاعة. ناولته عباءته؛ لفها حول كتفيه وترك الملاءة تسقط. في اللحظة التي فعل فيها ذلك أدرك بأن فعلته لا تدل على الترتيب والنظافة، وانحنى ليلتقطها. لكنها سبقته، ووقفت هناك تلوح بالمنشفة الصوفية المبللة، ثم رمتها على كرسي صغير في الزاوية. كان عليه بالطبع أن يجفف قدميه بها؛ وهذا شيء بسيط يفعله آنئذ، لكنه سيفسد مزاجه الرائق. أصدرت قدماه المبللتان صوتا بغيضا وهو يمشي. استدار وقال:

"أعتقد أن بوليكاست اسم جميل".

كان عليه أن يقول المزيد، عبارته مع ذلك بدت مناسبة، وشجاعة، وخبيرة.

حين سار في الممر فكر: لم يكن ما قلته سخيفا. التفت، رفع يده ليلوح لها، لكنها كانت تمشي في الاتجاه المعاكس؛ لم ير سوى ظهرها. أطلق صفرة، وعندها استدارت، متسائلة، والقوس الداكن لحاجبيها ارتفع وكذلك ذقنها.

"أنت.. أنت ستكونين هناك أيضا؟ عند تقديم القربان؟".

قالت: "بالطبع. يجب علينا ذلك، رغم نفورنا أنا وأمي منه".

قال: "أجل، فتأثيره متباين في الناس".

تردد، لكنها استدارت وتابعت المسير. فكر: لربما كان من الغباء قول شيء كهذا.

-٢١-
الجياع

اللحم والخبز والفواكه التي حضرنها له كانت في انتظاره حين وصل العربة. بدا أكثر شبابا وأفضل حالا الآن. لم تعتقد، أو على أية حال لم يخطر على بالها، أن إلها زيًا قداسته هاتين الكتفين، إضافة إلى الرداء والعباءة المطرزين اللذين لبسهما، لكن وضوءه والزيت أزالا كثيراً من التعب والإرهاق من وجهه. أصبحت خطوته أكثر ثباتا ومرونة. بل إن عينيه المحتقنتين بالدم أصبحتا أكثر صفاء، وشعر رأسه ولحيته أكثر نعومة؛ الزيت أعطى لحيته بريقا ذهبيا. الجواري وقفن حوله في حلقة، محكمة تماما. فكرت: يجب أن يبتعدن عنه. فهن مغرمات بالرجال - حتى وإن ابتعدن عنه الآن مسافة تبدو وكأنها ميل. لسوف أخبرهن فيما بعد. فمن الوقاحة التجمهر حوله بهذا الشكل، كأنما هو حيوان غريب يأتي من الطرف الآخر من البحر.

تغطى وجهه بخدوش حمراء جديدة، لكن الماء غسل الدم المتجلط. في رجليه - ألقت نظرة خاطفة على رجليه المكسوتين بالشعر - خدوش أيضا. وثمة ندب عريض فوق ركبته اليسرى. فكرت: لا بد أن نعطيه صندلا. كتفاه قويتان، يداه عريضتان وصلبتان، لكن ذلك سببه التعامل بقسوة مع الأشياء، مثل يدي محارب أو بحار. إحدى أصابعه مفقودة. لم يكن فارع القامة مثل أشقائها أو أبيها، لكن بدت بنيته متينة. فكرت: لقد رأى وفعل كثيراً، أنا واثقة من ذلك. لا بد أنه يعرف كثيراً عن البلدان الأخرى، والشعوب التي تسكن مناطق نائية، بعيدة، وعن النساء.

فكرت: إنه رجل وسيم جدا.

قالت: "ليس لدينا كثير لنقدمه لك، لكن أرجوك اجلس وتناول طعامك - اينوينيا، احضري الماء".

أشارت إلى الفتيات، وشعرن بأن عليهن التراجع بضع خطوات، وقف هناك ورقبنه

بانشداه. أو.. يجب عليها أن تعدل، لم يكن انشداها بل فضولا. مزجت النبيذ وجلست على العارضة المنخفضة للعربة. ألقى بنفسه على العشب بجانب الطعام. ربطت منديلها على رأسها. فكرت: لا بد أنني أبدو مرعبة مثل ريفية لوّحتها الشمس. شعري بالطبع كتلة متشابكة، لكنني لا أستطيع البدء بتسريحه هنا. وليس معي أي مسحوق للتجميل. كنت غبية حين لم أفكر بذلك. وليس معي مرآة طبعا.

أرادت يداه أن تصل إلى الطعام بسرعة وتأخذ بعضا منه، فكر: يجب أن أسيطر على نفسي. كان فمه مليئا باللعاب، ازدرده. وأمامه وضع الخبز وشرائح من اللحم المقدد: خبز أبيض مدهش، جميل، نبيل - واللحم، ملوكي فخيم رائع. قال، والتفت بعيدا عن الطعام: "ما اسم هذا البلد الجميل؟".

قالت: "سكيري. بعض الناس يدعونها الجزيرة الطويلة و.. جزيرة الذيل. وجزيرة المركب السريع. والدي هو الملك هنا، ويدعى الكينوس".

فكر: الآن سآخذ بعضا من الطعام، الآن سآكل، والتفت نحو اللحم والخبز ورفع يديه. منظرهما يثير الشفقة، هكذا فكر بيديه، ولوى وجهه عائدا إليها.

"وأنت نفسك.. أميرة!".

السؤال ضايقها: تورد وجهها.

"أدعى نوسيكيا".

تدبر أمر تحريك عضلات وجهه، وابتسم لها. الآن سوف آكل! هكذا قال لنفسه. كانت يداه ترتجفان.

قال: "هذا اسم جميل. له علاقة بالسفن. بالبحر".

قالت: "أجل.. لا أعرف. نعم، ربما". تورد وجهها مجددا. "لكن الآن يجب أن تأكل؛ أنا متأكدة من أنك تتضور جوعا".

قال: "شكرا، شكرا".

مرة أخرى سيطرت إرادته على يديه، على فمه، على بطنه.

أجبر وجهه على الالتفات إليها؛ الأشياء غدت سوداء أمام ناظريه، والأرض مادت.

قال، وما زال صوته قادرا على إبعاد الرجفة عنه: "من هم الناس الذين يعيشون هنا. أدرك أنهم شعب سام رفيع المقام، هذا واضح منك" - هكذا قال مغاليا في الإطراء والتملق - "لكن ما اسمه، ما الاسم الذي يحمله أفراده؟".

قالت: "الفيشيون. أتينا من مكان بعيد في الشرق - أو الجنوب. غادرنا المكان بعد الحرب على ما أظن. لكن أرجوك كل الآن".

قال مرة أخرى: "شكرا لك، شكرا جزيلا لك".

توقعت أن يخبرها باسمه. فكرت: لربما لا يسود هذا التقليد في البلاد الأخرى. وجدت عبارة قد تؤدي إلى ذلك:

"هل كانت الرحلة ممتعة؟".

لكن بعد وهلة ابتسمت لنفسها: أدركت كم بدا السؤال غبيا. فهو..

كان ينحني إلى الأمام نحو الطعام. مد يده إليه. لم يكن يراها. التقط شريحة من اللحم، وحملها إلى فمه - رأت أنه "التهمها". أغمض عينيه. كان يمضغ شريحة أخرى. انشغل فكاه وعضلات عنقه. تلمظ. ورفع بيده الشوهاء قطعة من الخبز إلى فمه. علق الفتات في شعر لحيته. صدر صوت جياش من الزبدية الفخارية وهو يشرب.

التفتت بعيدا. الشمس تكاد تغرب؛ زاد عمق الظلال تحت الأشجار والجرف. سرب من الذباب رقص تحت أشعة الشمس فوق النهر؛ حين رأت ذلك، شعرت بأول القرصات في رجلها. لم تنظر إليه حين كان يأكل، لكنها سمعته يأكل. فكرت: المسكين يتضور جوعا. لربما يمرضه الطعام، إذا أكل بهذه السرعة.

الخمر صعدت مباشرة إلى رأسه. كانت خفيفة، لكنها حتى مع ذلك أثرت فيه تأثيرا قويا. صب مزيدا من الماء من الجرة الفخارية. بعض الجواري كن صغيرات في السن. واحدة منهن أو أكثر كانت حبلى على ما يبدو. إحداهن بدينة وسوداء مثل..

لم يرغب بتذكر ذلك. لكن هذه كانت بدون شك جذابة في صباها، حين كانت في الثالثة عشرة، أو الرابعة عشرة. لابد أنها في الشهر السابع. أمكنه أن يشعر بالطعام وهو ينزل في مريئه. فكر: ليس من اللائق الأكل بهذه السرعة. يجب أن أتبادل الحديث معها. فكر والجوع يعضه: لقد أكلت كفايتي. يجب أن أقرر بأنني شبعت. لقد شبعت.

فكرت: لن يروقهم أن أحضر رجلا إلى البيت.

قال: "شكرا جزيلا، أنا ممتن لك"، ونهض واقفا. تلعثم؛ بدأ يغمغم مجددا. اندفع الدم إلى رأسه، وترنح. فكر: لا أستطيع تحمل الخمر، كان من الحمق أن أشرب خمرا. شعر بنعاس مرعب فجأة.

قالت: "هذا واجبنا"، والتفتت مرة أخرى إليه.

جمعت الفتيات بقايا الطعام ووضعنها في سلة. فكر: كان علي أن اكل المزيد.

قالت: "سيرغب والداي بلقائك، أعرف ذلك. انتهينا للتو من الغسيل ولسوف نعود إلى المنزل".

قال: "من دواعي سروري أن أقابلهما، لكن ما الذي سيفكران به حين أقف أمامهما بهذه الهيئة.. بملابس مستعارة!".

قالت: وابتسمت له، وتورد وجهها مجددا: "يجب ألاّ تقلق لذلك".

فكر: إنها جميلة ولطيفة حقا. فتاة بريئة. تذكرني ـ بإحداهن. حلوة وفاتنة فعلا. حتى أفكاره تلعثمت، تزحلقت، اضطربت، ترنحت. حلوة وفاتنة فعلا.

قال وهو يخرج عن الموضوع: "كأنما عرفتك منذ سنين وسنين. أقصد أنت تذكرينني بإحداهن".

كانت تمسك اللجام، محاولة مساعدة الجواري في ربط البغلين؛ لم تفعل ذلك من قبل.

قالت: "انتظر".

وخزته يداه؛ أبغضه لمس شعر البغلين المتصلب. الجراح المفتوحة في كفيه التصقت ببعضها.

قالت: "لسوف أسبقك. أنت تعلم.. ربما ترى الأمر سخيفا؛ لا أدري كيف تسير الأمور في البلاد الأخرى، لكن الناس هنا يتكلمون كثيرا. أنت تعرف الوضع في الأرياف. يتكلمون عن.. أوه.. أي شيء ممكن".

قال: "أفهم ذلك تماما. دليني كيف أذهب ولسوف أجد طريقي حتما".

قالت: "الطريق طويلة جدا. لكن بمقدور الفتيات إرشادك، ولسوف تصل قبل حلول الظلام".

جلست في العربة، وأخذت الزمام والسوط بسيره الجلدي الطويل. دفعن العربة لترتقي المنحدر الصعب؛ مشى بجانبها وتبادل الحديث معها، والجاريات وراءهما. عند قمة الربوة أصبحت الطريق ممتعة؛ شاهد حقول الذرة، والغيضان، والبساتين، والغابات. بدت البلاد مزدهرة، جزيرة غنية فعلا. علم بأنهم أكثر انشغالا بالشحن، بالنقل والتجارة مع البر الرئيسي في الشرق والجزر في الشمال. ولسبب من الأسباب لا يتصلون بالجنوب كثيرا على ما يبدو. ما زالت الشمس محرقة؛ تصبب عرقا. شعر عدة مرات برغبة في الجلوس وأخذ قسط من الراحة.

"أما زال المكان بعيدا؟".

قالت: "لا، سنصل حالا إلى بستان أثينا؛ إنه هناك. يمكن الانتظار هناك قليلا، بحيث لا.. أوه، أنت تعلم، الناس يتكلمون كثيرا".

تورد وجهها؛ ظهرت أمارة ارتباك عليه.

لم يكن معبدا كما ظن، بل مزرعة لأشجار الزيتون على تلة خفيضة. شاهد المدينة في حمرة الأفق، لاح القصر متلألئا، أبيض اللون ورحيبا، يعلو على كل ما عداه، وحول البلدة، خارج الأسوار، انتشر مزيد من الحقول، والبساتين، والبيوت الصغيرة والأكواخ. بدت جميعا آمنة ووادعة.

قالت: "انتظر هنا قليلا. هل ستجد الطريق فيما بعد؟".

قال: "لسوف أتدبر أمري".

ترددت. وقف بجانب العربة وانتظر.

قالت: "هنالك شيء واحد أردت السؤال عنه".

"نعم؟".

"هل خضت حربا من قبل ـ هل أنت محارب؟".

كل شيء كان آمنا، هادئا. في الشفق، سمع نباح الكلاب، ورنين أجراس الماعز، وخوار البقر، وشاهد الدخان يتصاعد من السقوف. أحس كأنه رفع إلى مصاف نوع جديد من البشر، نوع لم يعرفه حتى آنئذ، نوع نسيه إن كان عرفه قبلا. عرق بشري يقع فيما وراء بقية البشر وفيما وراء الآلهة.

قال: "أجل. لكن حدث ذلك قبل أمد بعيد. قبل سنين عديدة".

قالت: "نعم، أردت فقط أن أعرف".

هنالك نبرة جديدة في صوتها. تساءل بينه وبين نفسه هل هي خيبة الأمل. فكر: أراد الناس دوما أن يكون لديهم أبطال. تابعت الجواري السير؛ توقفن لوهلة على مبعدة مسافة منه وانتظرن وتهامسن. بعضهن قهقه، غيرهن شاركن بضحكات نصف مكبوتة، إحداهن دمدمت أغنية، واحدة من أصغر الفتيات عمرا كانت تثب وبيدها شريط جعل الغبار يبدو كالدخان في الغسق.

قالت له: "وهناك شيء آخر. حين تدخل القاعة الكبرى اذهب مباشرة إلى الأم وانحن لها. اسمها أريت".

فكرت، وأذنها مصغية للفتيات: تعرفهن مربع. لسوف أحدثهن عن ذلك فيما بعد. هزت الرسن، ورفعت السوط، ولوحت في الهوا، إلى الأمام والخلف.

"ليس هناك شيء آخر تحتاجه؟".

"أجل، إن كان معك شربة ماء. ما زالت ظمآن". ضحك، فأوجعت الضحكة وجهه.

"شربت كثيراً من الماء المالح!".

بحثت في السلة؛ هنالك قطرة أو اثنتان في الجرة. ناولتها له مع قربة الخمر الجلدية.

قالت: "إنه فاتر".

"هذا لا يهم؛ أريد فقط أن أبل حلقي. لا، لا أريد خمرا، شكرا لك. فهي منومة".

قالت بمرح: "أوه، خذها". ضحكت فجأة.. ضحكة رنانة، سعيدة. "إذا ما وجدت الماء ساخنا".

ترنحت العربة. ثوبها تألق بلونه الأبيض في الضوء الخابي. وتردد صدى وقع حوافر البغلين البليد الرتيب؛ أصدرت صريرا حادا؛ والمحور أطلق صرخة زاعقة بين الفينة والأخرى. بدأت الجواري يغنين: جوقة من الأصوات الصافية والخشنة.

غاصت الشمس في البحر فيما وراء عالم البشر. وبينما كان الليل يرخي سدوله، جلس على أحد الحجارة البيضاء ضمن حلقة منها في الأيكة. ما زال النعاس يغالبه. رشف من الماء: فاتر، خلف طعما عفنا على لسانه. كان وجهه دبقا بفعل العرق والغبار، وقلبه ينبض بسرعة. فكر: ترى هل هذه نهايتي؟

شعر بأنه سيغط في النوم إن جلس هناك مدة أطول. نسمت رياح الجبال ناعسة في الأمسية وداعبت أوراق شجر الزيتون والسرو في أيكة الربة المقدسة. وبالرغم من جلوسه هناك، قريبا من الربة الجليلة، بدا له فجأة أن كل الآلهة، كل القوى الإلهية المقدسة، بعيدة، نائية. بالنسبة له كان الغليل هو الحقيقة الفعلية؛ كان يجفف لسانه، وحلقه، وحنجرته. عب فضلة الماء الفاتر قبل أن يتابع المسير.

احترس. حين سمع أصوات بعض الرجال تأتي نحوه، زحف إلى الشجيرات على المنحدر وانتظر هناك حتى مروا. عند البوابة في سور المدينة العالي لم يكن هناك حراس، ولا كلاب، كانوا ربما في منازلهم يتناولون طعام العشاء أو ذهبوا للتنزه. يبدو أن أيام هؤلاء الناس هادئة آمنة. تحسس مكان سيفه - إنها حركة كانت ذات مرة قبل عهد بعيد طبيعية ثابتة فيه، ولأنه نسيها، عادت الآن؛ افتقد فجأة سلاحه. شعر بأن

يده فارغة بدون رمح، وظهره غير محمي بدون درع. فكر: المكان امن جدا هنا، وأحس بأنه أكثر عريا بذاك الردا، وتلك العباءة على ذراعه مقارنة بحاله حين استيقظ.

عبر البوابة. لم ير إنسانا في العتمة التي كادت تخيم. توقف لحظة أصبح في الداخل، تردد. أمامه مباشرة شارع عريض؛ تلألأ الضوء من أبواب البيوت، بيوت الناس.

كان خائفا. فكر: أنا "خائف!"، وحاول إبعاد الخاطرة لكن أخفق؛ ثم سلم نفسه لها: أنا خائف. انسل بجانب السور لفترة، ولمس بيديه الكتل السميكة من الحجر الأملس. ما زالت حرارة النهار كامنة فيها: الأحجار تستنشق الدفء. توقف على مسافة أبعد قليلا. فكر: لا أستطيع المشي حاملا كل هذا، ونظر إلى الإبريق الفخاري وقربة الخمر اللذين حملهما بيده اليمنى. الخمر ترجرجت في القربة، تحركت مثل جسم حي، طير السُكْر الناعم في يده الموجوعة. جذب السدادة العظمية، وصب الخمر في جرة الماء وشرب؛ كانت حلوة ولزجة وقوية. وضع الجرة والقربة الخاوية على الأرض واتكأ على الجدار.

شعر على الفور تقريبا بأنه أحسن حالا، وأكثر شجاعة. الخمر لفته بحجاب؛ لديه شيء يحميه، ترس. قال بصوت عال وكشر: لا أستطيع تحمل أي شيء هذه الأيام. لا أستطيع تحمل حتى قطرة. لقد انتهيت، كليا، نهائيا، جملة وتفصيلا - أنا على وشك السكر. لكن من يبالي؟ ما الذي أحضرني إلى هنا فعلا؟ لمَ توجب علي الرحيل؟ لماذا لم أتمكن من البقاء حيث كنت؟

عرف بأنه لم يكن بمقدوره البقاء. الآلهة الجليلة كانت ستحضره بطريقة مختلفة، أشد قسوة وأكثر خزيا. والآن ها هو هنا، يتكئ على سور خشن في مدينة غريبة؛ وسرعان ما سيذهب في اتجاه آخر أو يفر هاربا. أو يستلقي وينام. لا، ليس متسولا تمسح به الكلاب أرجلها، إن حدث وكانت رقيقة إلى حد لا تمزقه إربا. فبرغم كل شيء أنا ملك أيضا، فكر بذلك وتمطى. أنا أيضا حاكم، أنا أيضا لدي مدينة وقصر.

كافح ضد الخمر، لكن لم تعد لديه قوة باقية. تراجع وسار بمحاذاة السور، ووضع عباءته على كتفيه، وبذل جهدا للسير بثبات. فكر: أنا اوديسيوس، أنا اوديسيوس، أنا اوديسيوس، ملك بين البشر.

الآن، هناك فتاة تقف أمام البوابة، ثوبها يتألق بلونه الأبيض في الحلكة. جمع شتات نفسه، وحسّن توازنه، ورفع هامته، واقترب. لكنها لم تكن هي.

قالت شيئا.

"ماذا؟".

كررته.

سألت بخجل: "هل أنت.. هل أنت الغريب؟".

تلعثم: "أجل.. أنا.. غريب. أجل هذا أنا في الحقيقة".

قالت وتراجعت خطوتين: "و.. ستذهب إلى القصر؟".

قال: "أجل، هذه نيتي". (يجب ألاّ أرعبها وإلا ستختفي؛ لربما هي إلهة، لربما هي أثينا. يجب أن اقف بثبات وأحافظ على صوتي هادئا).

قال بهدوء وتمهل وأوضح الكلمات: "أنا في طريقي إلى القصر، هذا مؤكد".

"الآنسة.."، صححت قولها، "صاحبة السمو.. أمرتني بأن أدلك على الطريق"، وانطلقت عبر الشارع العريض بين البيوت. تدفقت الأضواء من بوابات ومداخل الباحات والمساكن، وتحركت الظلال، ورأى أنها فتاة صغيرة السن.

استطاع أن يرى عبر سديم الخمر الضبابي أن المدينة كانت تشبه مدينته لكنها ربما أكبر. كما تشبه تلك المدينة الملعونة، البعيدة، التي حرقوها ودمروها، لكنها أصغر ربما. القصر المنير على خلفية السماء المعتمة شابه قصره، كما تذكره، لكنه ربما أكبر، من يعلم؟ الفتاة بشر من لحم ودم مثل الأميرة ـ ماذا كان اسمها؟ ـ شيء له علاقة بالبحر، بالسفن؟ ـ لكنها أصغر. أراد أن يضع يده على كتفها، لكنه لم يجرؤ. ففكر بدماغه المشوش: أيتها المرأة، أنت دعامتي وسندي. أنت، راعيتي، مبعوثة الإلهة.

قالت: "ها هو"، وتوقفت عند مدخل الباحة الخارجية. "لسوف تحيي الملكة أولا".

تعثر في الباحة؛ اختفت الفتاة في مكان ما، في الفضاء، في الحلكة، عبر باب في الجدار الشاحب. أدرك أن هناك حراسا، لكنهم لم يطرحوا عليه أي سؤال. اتجه نحو فتحة الضوء التي يكمن وراءها الملوك والملكات والناس. أول شيء وقع بصره عليه في القاعة حين تخطى العتبة العالية التي التمع فيها النحاس هو النار في الموقد الدائري ضمن حلقة من الأعمدة والانعكاس الأصفر والأحمر لها على الأقداح والطاسات. امرأة ريانة عليها ملامح الأمومة جلست تحت الضوء تنسج على مغزل. وجلس إلى جانبها رجل في كرسي عالي المسند. وعلى طول الجدران، جلس رجال شابت لحاهم على موائد صقيلة عليها أقداح وطاسات لامعة.

مشى مباشرة إليها، توقف، ترنح، انهارت رجلاه تحته. ارتطمت ركبتاه بالأرضية الحجرية؛ وضع رأسه على ركبتيها. فكر: لسوف أنام بين البشر الفانين.

-٢٢-
قربان نستور

حين انتهى تيليماكوس من ارتداء ملابسه، بدا أنيقا متألقا، مضمخا بالعطر، وشعر بأنه شبه إله. نظر برضى كبير إلى صورته في المرآة النحاسية التي كانت ملقاة على السرير حين عاد من الحمام. لم يستطع منع نفسه من التفكير بأنه متأنق على أحدث طراز.

الهواء منعش ومبهج؛ حين عبر القاعة الكبرى إلى المذبح في الباحة الداخلية، شعر بأنه لم يشهد صباحا منعشا ونقيا كهذا.

كان نستور يصدر الأوامر هنا وهناك، طالبا من أحد أصهاره، وابنه بيرسيوس، وخادم له، أن يذهبوا إلى الحقول لإحضار الأضحية، لكن العجلة وصلت قبل أن ينطلقوا، إذ نسي بأن الرعاة أمروا بإحضارها في الأمسية السابقة. ثم بعث رسولا إلى سفينة تيليماكوس، إلى كل الشبان الساخطين المغتمين الذين أقاموا احتفالهم الخاص في اليوم السابق على الشاطئ، وشربوا وتشاجروا وما زالوا يشعرون بتأثيره، والذين أتوا الآن بغير انتظام، لكنهم خلفوا اثنين من التعساء لحراسة السفينة. يمكن الآن سماع أصواتهم البعيدة حين خرج تيليماكوس إلى الباحة الأمامية.

المذبح مبني من الحجارة السوداء الزلقة. كان الأصهار، والأبناء، والخدم في الانتظار جميعا، إضافة إلى العديد من الأشخاص الذين قدموا من البلدة. خدم القصر اعتبروا المسألة مناسبة شعائرية وكذلك عدد من سكان البلدة لأنهم ارتدوا أفضل ثيابهم، والعديد من الرجال كانوا يحملون أسلحة عتيقة، لابد أنها كانت لآبائهم، وتروسا طويلة ثقيلة وجديدة ومداري خفيفة، حملوها بطريقة خرقاء نظرا لقلة التدريب والممارسة. حضر أيضا بعض الفقراء من البلدة؛ أتوا غالبا بدافع الفضول ولم يكونوا

متدينين جدا على الأرجح؛ فما كان رفيعا وساميا في الطقوس الشعائرية تجاوز مستواهم دون ريب.

لكن نستور استمر في الصراخ وإصدار الأوامر بصوته الأجش. من المحتمل أنه استغل الفرصة قبل أن تظهر زوجته وشرب كأسين من النبيذ الصرف كتمهيد استهلالي. قادوا العجلة؛ وقف ثراسيميديس وبيسيستراتوس على استعداد، يحمل الأول ساطورا ثقيلا من البرونز، والثاني سكينا طويلة مزدوجة الحد. حين لمح نستور تيليماكوس، صاح:

"حسنا، الآن ها هو يأتي!".

انحنى تيليماكوس، وقال صباح الخير. العجوز اتخذ موقعا قرب المذبح والآن أتى عبدان يحملان رزمتين من الأغصان المقطوعة وبعض جذوع الأشجار. شرح نستور كل شيء: كانوا ينتظرون رجال السفينة من جهة وليركيس من جهة أخرى.

"هذا صائغنا. لسوف نرصع قرون العجلة قبل أن نذبحها ونقدمها قربانا، هذا هو التقليد المتبع هنا منذ القدم".

ثم صاح:

"هل سيأتي ليركيس قريبا؛ هل سنبقى هنا منتظرين طيلة النهار! وأين يوريديسي والفتيات؟ ألن يأتين؟ اركضوا وأخبروهن!".

استدار بيسيستراتوس نحو المنزل وصاح فتردد صدى صوته في كافة أرجاء الباحتين:

"ماما! يا بنات! هيا!".

ظهرت يوريديسي من نافذة في الطابق العلوي.

"لا حاجة بك لأن تخور بهذا الشكل؟ يمكننا أن نسمع! لسوف أجهز بلحظة!".

قلدها نستور متذمرا: "أجهز بلحظة. إنها تقول ذلك دائما كلما ذبحنا أضحية، لكنها لا تريد سوى الابتعاد عنا. حسنا، أين ليركيس؟ ألم اقل إن على أحد أن يركض ويحضره!".

قال الابن الذي يحمل اسم زوس، ستراتيوس، وهو شاب صموت، فظ، عسكري المظهر: "لقد أرسلنا في طلبه، ها هو يأتي على أية حال".

كان ليركيس رجلا غليظ البنية، أعرج، ارتسم على وجهه تعبير مشمئز؛ وبدا أشبه بمغن جوال أكثر من أي شيء آخر. عرج إلى الباحة الأمامية، وهو يلهث ويتصبب عرقا، وعلى كتفه صندوق خشبي صغير علقه بواسطة سير جلدي. وخلفه، عند البوابة، ظهر طاقم تيليماكوس، رفاقه. فكر: ها أنا ذا، وأومأ لهم، ثم تمطى ونظر حوله مرة أخرى. لم تأت النساء بعد. أنا متألق ومعطر مثل أغاممنون في أسوأ حالاته، كممثل من البر الرئيسي والجنوب.

قال نستور: "آه، ها أنت!"، وأشار له إلى ليركيس. "الآن يمكن أن نبدأ. أين النساء؟ أجل، سوف نبدأ. شكلوا حلقة منتظمة أيها الناس الطيبون!". نادى على شباب ايثاكا الذين جعلتهم الخمر جبناء وبواسل في ذات الوقت: "أهلا بكم!". اشرأبت أعناقهم وحدقوا إلى تيليماكوس بمزيج من الحسد والإعجاب - بدا مهيبا فعلا في تلك اللحظة - وإلى الملك والعجلة، بلونها الضارب إلى الحمرة، وقرونها المحنية، وهي إلى حد ما من نفس سلالة قطعان البقر الموجودة في الجزر؛ لم تكن تبدو مكتنزة لتقديم شرائح كافية من اللحم.

صاح نستور: "أحضروا العجلة إلى هنا وأوقدوا النار".

أحد الأصهار من الرعاة قاد العجلة إلى نستور؛ مشت صاغرة دون أية جلبة. أحضر ايكفرون جمرا متقدا من مدفأة المطبخ في زاوية الباحة الأمامية قرب القاعة الكبرى، ونفخ عليه وألقاه تحت الأغصان على المذبح. شكل الأبناء والأصهار حلقة ونفخوا على الجمر حتى اشتعلت الأغصان وبدأت تطقطق. في البداية، خرج دخان كثيف وخيم على الباحة كلها، ومن ثم، ومع تسعر النار، تحول إلى عمود رفيع ورقيق: تلك علامة جيدة لأن رياحا غربية هوجاء هبت خلال الأيام الماضية. وحين توهج اللهب كاد الدخان يختفي أحيانا تحت أشعة الشمس اللاهبة. شعر تيليماكوس بأنه في أفضل حالاته المزاجية. لكن النساء لم يأتين بعده.

قال العجوز بنبرة منمقة: "هل أنت مستعد يا ليركيس؟". لكن هناك شيئا فيها يخبرك بأنه اعتاد السيطرة وقيادة الرجال في أوقات الحرب.

وضع ليركيس صندوقه على الأرض، وحدق كالعراف إلى السماء، كأنما يبحث عن طيور الكهانة، ثم فك الربطة الجلدية متفاخرا متباهيا. أخذ جرة صغيرة وفرشاتي دهان

وقمعين طويلين من الذهب المصقول حديثا؛ لم يكن أي منهما أطول من القضيب الذكري المتوسط الحجم، وإن شابهه في الشكل. الجواري الواقفات في الخلف ضحكن بصوت مكبوت ولكزن بعضهن بعضا. أما الرجال، من جهة أخرى، فبدوا أكثر جدية. استحوذت على تيليماكوس مهابة المشهد برمته، لكن الملكة والفتيات لم يأتين بعد.

قال ليركيس ونظر إلى الملك نظرة شذراء: "هل نضع القرنين الذهبيين بينما تقص الغرة، ثم نطليهما، هذه هي أسهل طريقة أيها الملك نستور. وإلا سوف يغطيهما الدم والدخان ولربما يحترقان؛ وسيكون من الصعب آنئذ تنظيفهما وتلميعهما مجددا، أؤكد لك ذلك".

نظر نستور إلى القمعين الذهبيين وجرة الدهان، ثم انحنى وهو يلهث وينفخ والتقط القرنين الذهبيين. قلبهما في يده. تلألأ الذهب المصقول حديثا ببريق وهاج. ارتسم تعبير من الطمع والمهابة في عينيه وهو يحمل القرنين الذهبيين مثل عضوي التناسل وداعبهما بأنامل مرتجفة.

قال موجها كلامه إلى تيليماكوس والآخرين: "أستطيع بالطبع وضع الذهب على القرنين، تغطيتهما بالذهب بشكل مناسب، لكن هذا ليس ضروريا فعلا. ولذلك نضع هذين الآن، وهي على كل الأحوال أضحية لأثينا ولن تضر. لكننا سنرفعهما فيما بعد ونطلي القرنين".

تلك كانت الكلمات الأخيرة التي نطقها أمام البشر الفانين منذ زمن طويل. أصبح، الكاهن، المضحي، واحدا من ملقني الطقوس الشعائرية؛ ومنذئذ غدت جميع حركاته وتعابيره مدروسة، حتى شفته السفلى المتدلية المخضلة تقلصت. وسكت صوت الضحك المكبوت القادم من الجواري. كما أمكن سماع وقع خطوات من داخل المنزل، من القاعة الكبرى. ظهرت يوريديسي مع بناتها، أي البنات الثلاث العازبات، أما الأربع المتزوجات فقد كن هناك مع أزواجهن. لبست ثوبا فضفاضا أحمر اللون من قماش ناعم، وصندلين حمراوين وتاجا وقلادة من أقراص فضية صغيرة، وكانت الملكة بحق. أما بوليكاست التي كانت آخر من أتى فقد ارتدت ثوبا أزرق. تألقت وهي تقف تحت أشعة الشمس. ورغم استحواذ الطقس المقدس عليه، إلا أن تيليماكوس لم يستطع منع نفسه من النظر إليها. نظرت نحوه، وجالت نظرتها المحدقة في المكان وتجاوزته؛ ثم

أحنت رأسها ونظرت إلى قدميها. تهادت يوريديسي بخطواتها الملكية المتمهلة ووقفت بجانب زوجها الملكي الكهنوتي، "المبجل" مؤقتا، الملك/ المضحي. في هذه اللحظة لم يعد من الممكن ملاحظة فارق السن بينهما. سموه، وحركاته المدروسة، السريعة، الواثقة، المهيبة، التي استلهمت وحيها من المقدس، بل حتى من الإلهي، ونظرة عينيه اللامعتين المتلألئتين التي بدت وكأنها تحدق بعيدا فيما وراء الفضاء، ولون وجنتيه الوردي المناسب للحيته البيضاء الفضية التي غسلت وسرحت حديثا. أو على الأقل حلت تشابكات شعرها؛ إضافة إلى ملامحها الصارمة، وجبهتها المتغضنة، وشكلها المنكمش المنحني مؤقتا الآن - الذي أخذ هيئة ربة المنزل الخاضعة الساخطة - واحتجاجها الجواني على اضطرارها للوقوف هناك، وتأثير ذاك الاعتراض الاحتجاجي على كينونتها، كل ذلك جعل عمرهما يتقارب: وبدا الاثنان لوهلة في نفس العمر المتقدم. اختفى فارق السن البالغ خمسة وعشرين أو ثلاثين عاما، تلاشى تحت سطح الورع القرباني المقدس، لكنه برز بسرعة مرة أخرى - بعد ثانية من اختفائه. بوليكاست كانت بوليكاست، لكن بدت كلتا البنتين الواقفتين خلف الملكة بليدة ولا مبالية بقامتها الطويلة، وعظامها الناتئة، وقد تخطت سن الزواج منذ أمد بعيد.

لكن بوليكاست كانت حلوة. ويصعب الاعتقاد بأنها شقيقة هؤلاء وابنة هذين. أغمض تيليماكوس عينيه. كان ابن ملك، ضيف شرف على طقس شعائري مقدس. وقف في الحلقة الداخلية، مع الأبناء تقريبا، وعلى بعد حوالي خمس خطوات من العجلة. في الحلقات الخارجية، وقف الخدم ومواطنو البلدة، وبعدهم طاقمه، رفاقه. تطاير الشرر من النار، وتسعرت جذوع الأرز الجافة المعطرة؛ ارتفع عمود متصل من الدخان؛ كان صباحا مدهشا.

رنا نستور إلى الأعلى بعينين خاشعتين، وإن حافظتا على الوعي والتيقظ والانتباه، انتظر حتى تغوطت العجلة. وحين سقطت آخر كتلة على الكومة محدثة صوت صفعة قوية، وبَخَرَ قالب الغائط في بركة من البول الأصفر، الذي اعتبر الآن مقدسا، رفع يديه، حاملا قرنا ذهبيا في كل منهما؛ وجه القرنين أولا إلى الأسفل في خضوع رمزي متوان، ثم رفعهما خلال الصلاة الأولى إلى "الأعلى" بتمهل، ثم أقيمت الصلاة.

تمتم، وأغمض عينيه بشدة مرة بعد أخرى مثل طفل قدمت له الحلوى، وأصغى هنيهة لذاك الذي يدخله ويتصعد داخله، ثم حدق إلى الأعلى، ومع توضح كلامه وألفاظه، تمكن تيليماكوس من متابعة نص صلاته، الخيط الطويل لصلواته الرائعة.

"يا ربة البوم وشجرة الزيتون الجليلة، أنت الهادية وحاملة الترس الباهر، والرمح الرائع، امنحينا القدرة على الفتك بكل أعدائنا، واختراق صفوفهم، وتقطيع أوصالهم، وذبح رقابهم، وبقر بطونهم، وخصيهم، ألهمينا أفكارا مفيدة حين نخوض النزال بحيث نقدر على الاختيار والضرب في المكان الصحيح! هبينا معرفة البشر كي لا نضل سواء السبيل، اعطنا كلمات فيها حكمة البوم وأفكار الزيتون!".

هنا، أضاع الخيط وأغمض عينيه وبحث عن الاستمرارية في داخلته، لكنها لم تصل بعد إلى شفتيه. أغمض تيليماكوس عينيه مجددا؛ كانت طبيعته دينية في جوهرها. حين طال التوقف، فتح عينيه قليلا. ما زال نستور يبحث، لكن بوليكاست كانت تنظر إليه، إلى تيليماكوس الواقف هناك، متألقا ومعطرا، بعينين متيقظتين. فكر مرة أخرى: فتاة حلوة حقا.

من صدر نستور، من أعماق عمره المديد، أتت صلاة جديدة، جامحة، وغريبة لم يسمع تيليماكوس مثلها من قبل.

"يا ربة الحكمة، يا أثينا التي تأمر كل شيء أن يكون، أنت مبدعة كل ما كان ويكون، ابنة كل ما كان ويكون، امنحينا سنة خير، وذبائح جيدة، وانصرينا إن اندلعت الحرب. يا أثينا المبجلة، التي أتت من الماء والنار (صدم ذلك تيليماكوس الذي لقنوه أنها أتت من رأس زوس، ابنته من ميتس). أنت ميليكروس المعسول الكلام، أنت يوسكوبوس المتوجة بالجمال (هنا، أدرك تيليماكوس أن نستور خلط بين الجنسين بطريقة غريبة لكن ليست أثيمة، كما أربك الإلهة الجليلة التي كان يخاطبها كما هو مفروض، وخلط بينها وبين هرميز، وأفروديت، وغيرهما. ثم نطق بأسماء سوتيرا، وليبراتريكس، وغلوكوبيس، إضافة إلى أسماء أخرى مثل مبدعة الناي وبانية السفن). أتيت من الماء والنار"، كرر ذلك بعناد، وبالتالي بدأ ابتهالا دينيا أكثر روحانية وسحرا من أي شيء آخر في الصلاة؛ لكن، عند التدقيق فيه، يتبين أنه هذر مطول من الأسماء: أنوبوس، زوس، كتونيوس، بتاح، فرين، هوموزوزو، ابلاناثو.. كلمات قديمة أو غريبة إلى درجة أن معظم المستمعين نظروا بسرعة إلى بعضهم بعضا وارتعدوا.

أثينا، التي أخذوا يبتعدون عنها باطراد على ما يبدو، رغم أنها كانت حاضرة في كل ثانية من الزمن، أصبح يدعوها الان "البغي"، "مغوية الرجال"، "ملتهمة الرجال"، "المهاجرة السوداء"، "المرأة السمراء"، "المرأة الزرقاء"، "العرافة النبيلة"، "الممثلة حاملة الترس" (أكثر الأشياء إثارة للاعتراض في تلك الصلاة المدهشة، حسبما فكر تيليماكوس)، ونطق عدة أسماء غريبة أخرى مثل نينسون وليليتو، علاوة على سلسلة من الأسماء المذكرة والمؤنثة جاءت على ما يبدو في ترتيب محدد: ايجيبوديس، صاحبة حافر الماعز، ايجاغروس، شاموا، ايجيس، الذي كان إما ترس الربة الشهير، أو ترس زوس ذاته، ومع ذلك له علاقة مع جلد الماعز والمعاطف المصنوعة منه، وايجاغما، النواحة، ايج، الوامضة اللامعة؛ ودعاها عدة مرات، وابتهل لها تحت اسم ايزيس الذي يبدو أنثويا واسم النهر المذكر ايجبتوس.

وظل طيلة الوقت يؤرجح برقة القرنين الذهبيين، حيث أشار الرأس المستدق لكل منهما إلى الأعلى والأسفل، وكان لمعانهما تحت أشعة الشمس بمثابة مسرحية، ملهاة متألقة. بل بدا لتيليماكوس أن بريقهما الذي يتلألأ باللون الأصفر حينا، وبالأحمر الداكن حينا آخر، يبعث إشارات رقيقة، ورنينا واهيا، كأنما يمكن انتزاع الصوت من أوتار ألق الشمس التي تقلصت أو تمددت تبعا لحركة يدي العجوز، الملك الذي يرأس القداس، في ابتعادهما أو اقترابهما من بعضهما بعضا، أو حين يرفعهما أو يدنيهما في تنويع إيقاعي منتظم.

ثم توقف الصوت. قطرات العرق ملأت جبين العجوز. تقدم بيسيستراتوس بضع خطوات إلى الأمام ومسح بكل احترام وجه أبيه وجبهته ووجنتيه وما تحت أنفه بقطعة قماش، بينما وقف نستور جامدا دون حراك وقد أغمض عينيه واستجمع قوة جديدة. حين انتهى بيسيستراتوس من مهمته وتراجع مجددا خطوتين إلى الخلف مظهرا كامل التبجيل والتوقير، سحب نستور نفسا عميقا كأنما احتاج الآن مزيدا من الهواء الذي جعله للتو مقدسا وأترعه بالآلهة. عندما فتح عينيه من جديد، رأى تيليماكوس نظرة تصميم صارمة فيهما.

مرة أخرى، وبكياسة عظيمة وواثقة، رفع أولا القمع الأيسر ثم الأيمن وتقدم خطوة إلى الأمام باتجاه الأضحية. وضع أولا القمع الذي حمله بيده اليسرى على القرن الأيمن

للحيوان الأحمر والأبيض الذي اتصف بكل شيء ما عدا القداسة. كان مقاسه أكبر قليلا ورن بصوت خافت مثل الجرس. القمع الآخر أصدر رنينا هو أيضا حين وضع على القرن. ثم نزع القمعين مجددا وحملهما معا على شكل رقم ٧، رمز دلتا النهر، خليج البحر، كقضيبين في حالة انتصاب، ورفعهما فوق رأسه، بحيث بدا هو بقرنين، وانحنى للأضحية وأعاد القمعين الذهبيين إلى الصندوق.

برغم كل استغراقه في المشهد وتوقيره الحقيقي له، كان تيليماكوس مدركا لشعور بالشك في صدره. تساءل، بينه وبين نفسه، بالطبع، وبأفكاره لم يكد يخطر في باله، إذا ما كان نستور يضحي ويقدس بطريقة صحيحة: ألا يمتزج تقديمه للقربان وقداسه بدنس أجنبي قديم العهد يوازي مرتبة الكفر والتجديف، أم أنه لا يضحي إلا ليحط من قدر الآلهة التي تعرضت طبيعتها وقوتها إلى تغيير كبير - آلهة فانية ربما لعبت دورها واختفت في طفولة نستور من طقوس أعياد الأضحى الجدية. أجل، فكر للحظة واحدة سريعة تعجز الحواس عن إدراكها بأن نستور لا يقدم أضحية على الإطلاق، وأنه نسي الطريقة الصحيحة، وأنه يستعرض أمامهم، وأنه لا يوجد أحد من الحاضرين - اللهم فيما عداه هو وباقي الايثاكيين - يعرف شيئا حول ما يجري. لكن الفكرة اختفت والشك زال مع الدخان القرباني الخفيف فوق السطح، وذلك مع نجاح نستور في إحداث جروح في العجلة بسكين ناولها له بيسيستراتوس. قطع شعر الناصية، وحمله بيده وأشار إلى ليركيس. كان ليركس يقف حاملا جرة الدهان والفرشاتين باستعداد. طلى القرنين بسرعة وحذق مثل مزخرف محترف؛ كان الدهان بلون أحمر فاتح. وضع الفرشاتين جانبا وأدخل الجرة في الصندوق بجانب القمعين الذهبيين وأخرج كيسا جلديا كان قد علقه تحت ردائه. احتوى الكيس ذرورا من البرونز أو الذهب نثره على الطلاء الدبق الذي يقطر قليلا فوق القرنين. تحركت يده بسهولة عليهما؛ مما يذكر بخباز يذر الطحين أو البهار على الكعك. الذرور الناعم دوم تحت أشعة الشمس، طرفت عينا العجلة بشدة، وتكاسل، فجأة، تلألأ القرنان ببريق الذهب، لكن لم يبد أنها لاحظته. فقد اكتمل تقديسها وتكريسها.

مرة أخرى أشار نستور بيده، وللمرة الثانية تركت لدى تيليماكوس انطباعا بأن الطقس الشعائري المقدس الذي كان يشهده عبارة عن أداء مدروس أعيدت تجربته في

السر عدة مرات. لكن ذلك لم يدمر الحالة المزاجية التي كان فيها؛ بل على العكس، جعلها أكثر مثالية واكتمالا وقدسية. وقف نستور مجددا بعينين مغمضتين وقام بحركة في الهواء بيده اليمنى كأنما يزرع البذار، وتمتم تعويذة لم يفهمها تيليماكوس، ثم فتح عينيه بحيوية وألقى بشعر ناصية العجلة الخشن بلونه الأبيض ـ المصفّر في النار. بقبق الدهن وملأت المكان رائحة الشعر المحترق. وقف ايكفرون وستراتيوس على جانبي الحيوان الذي ظل مذعنا تماما وسهل القياد، وبإيماءة من بيسيستراتوس الذي لعب دور مساعد الكاهن، أمسك كل منهما بواحد من القرنين المقدسين الدبقين المكسوين بالذرور اللماع. رفع نستور يده اليمنى إلى مستوى صدره وقلبها بسرعة بحيث أصبحت الكف للأعلى والإبهام ممدودة لكن الأصابع مضمومة إلى الداخل، الإبهام أشارت باتجاه وجه ابنه الأسمر اريتوس الذي علته الآن ملامح الكآبة والتصميم: كوجه جزار عاطل عن العمل ومحارب لا يملك أملا حقيقيا بالعثور على عمل دائم، وإن عمل بشكل متقطع. غاب اريتوس داخل القاعة الكبرى وسمعوا وقع خطوته الثقيل المذهل يتردد صداه في أرجاء البيت؛ حين عاد كان يحمل سلة منسوجة فيها ذرة القربان، وآنية من الذهب الأحمر نقش عليها رسم جميل لحبار؛ كانت عريضة مسطحة، بعمق إصبع وعرض كفين، وبداخلها قليل من الماء الفوار. انتظر بينما تمتم أبوه صلاة أخرى، حمد فيها نستور مرة أخرى، بتعابير طنانة لكن بعيدة كل البعد عن السخرية أو الفظاعة، الربة التي يقدم لها القربان، التي يمكن للمرء أن يعتبرها أثينا، لأنها تلطفت وتعطفت ـ وتلك إشارة دون شك إلى الربة الزرقاء العينين ـ وزارته وجلست على مائدته. لم يعرف تيليماكوس هل كان ذلك بمثابة استعارة مجازية، أم أن العجوز اعتقد حقا بأن الدوق مينتيس القادم من تافوس الذي كان في ذلك اليوم يمارس تجارته مع الكوكونيين في الساحل الجنوبي البعيد، هو إلهة متنكرة. حاملة الرمح والترس ذاتها، المتمتعة بحكمة البوم ونعومة الزيتون. ومهما كان الأمر، نطق نستور باسم أثينا مرة أخرى قبل أن يأخذ سلة الذرة الصغيرة ويرفعها أمام خطم العجلة الرطب، في حين مدت لسانها الطويل الخشن في محاولة للعق الذرة. لكن لم يسمح لها بذلك. اليد حملت السلة بحركة قوية نحو اليسار، باتجاه النار، وحين مدت العجلة ـ أو كما دعيت "العجلة" (بألف ولام التعريف)، "الأضحية المكرسة للآلهة" ـ عنقها نحوها، أمسك ايكفرون وستراتيوس

رأسها بإحكام من القرنين الدبقين. اضطر الأول لتبديل قبضته، ورأى تيليماكوس أنه مسح يده بطريقة فظة برقبة العجلة بينما ظهر تعبير دال على الاشمئزاز على وجهه، سرعان ما اختفى. آنية الماء أتت بنفس الحركة القوية وحركت العجلة رأسها مرة أخرى، كانت حقا وفعلا وبدون شك مكرسة، لكنها مع ذلك جائعة وعطشى.

الملك الذي ترأس القداس، الكاهن الأعلى، أمير الحرب السابق، كما كان يطلق عليه بشكل غامض، قائد المركبة الحربية، ومروض الخيول، نستور، أقام صلاة أخرى قبل انتهاء الطقس الشعائري. رتلها بصوت خفيض، ووقف ماداً ذراعيه كأنما ينوي التضحية بنفسه، لكن ممسكا بآنية الماء وسلة الذرة بثبات بحيث لم يندلق شيء؛ وكانت صلاته أعلى قليلا من الهمس:

"أيتها العجلة القربانية المقدسة، يا أضحية الربة المبجلة، الابنة المباركة الزرقاء العينين، أيتها الأخت، الآن أقدمك هبة لحاملة الرمح والترس، وإذا كانت الربة المبجلة حاضرة وغائبة عن النظر، أتضرع إليها أن تقبل تحيتنا وأضحيتنا الثقيلة الخفيفة! يا ابنة نيليوس، أيتها العجلة، اختنا المكرسة المقدسة، فلتذهبي الآن إلى الآلهة أو إلى مثوى الأموات!"

كانت الصلاة مهيبة جليلة سامية إلى حد جعلها تصيب الكل بالرجفة مرة أخرى. فهي تجربة - ما تمكن تيليماكوس أبدا من تفسيرها - جعلت قلبه يدق وصدغيه ينبضان. ألقى نظرة سريعة حواليه، وسيتذكر بعد مرور زمن طويل كيف وقفوا جميعا، وألوان ملابسهم، وتعابير وجوههم، أجل، حتى الطريقة التي كانوا يتنفسون بها. كانت بوليكاست تنظر إلى قدميها، وقد انقبضت يداها بشدة. لقد حول الملك/ الكاهن العجلة، إلى ابنة نيليوس، أخت أبيها، واحدة من شقيقاته الأحياء أو الأموات: ويمكن ذلك أن يكون تمظهرا لحب/ أو كره عمره دهور، بين أخ وأخت. ارتسمت على وجوه أشقائها تعابير دلت على اللامبالاة أو التحدي الخنوع، كلهم باستثناء بيسيستراتوس: كان منتبها رغم أنه بدا مراقبا ساخرا قليلا ربما. أما ثراسيميديس الذي بقي هناك حاملا فأس القربان الثقيلة، فقد بدا مترقبا ببلادة، كان مثل صبي جزار من خدم البيت عند انتهاء نهار العمل، أو أن آثار نعاس الصباح ما زالت بادية عليه. أظهرت البنات المتزوجات خضوعا قانتا، وفخر أزواجهن بالسماح لهم بحضور شعائر تقديم الأضحية

المقدسة غير العادية من هذا المكان القريب؛ في حين وقفت البنات العازبات - تبعا للأوامر، وكأنهن في عرض - خلف أمهن. كانت بوليكاست استثناء بينهن؛ فقد خبرت شيئا أكثر عمقا من مجرد العرض خلال الجزء الأخير من المشهد؛ إذ تملكها شعور بالغضب ربما، ويحتمل أنها أحست بأنها أضحية تقدم قربانا. لم يفهم تيليماكوس الملهاة الكاملة - أم هل كانت مأساة؟ - للمشهد، لكنه قبله. وماذا عن الأم، يوريديسي؟ بدت وكأنها تحمل سكينا مخبأة في يدها وترغب بقطع عنق زوجها. كان وجهها أشد صرامة من ذي قبل، عليه أمارات الازدراء والغضب الضاري، والرعب، وألف سنة من رعاية ربة المنزل واهتمامها. لربما كانت تفكر بأن بمقدور الرجال استبدال العجلة التي ستذبح الآن بحيوان أصغر، معزاة أو خروف، أو حتى بقرة أخرى: هل كانت تلك عجلة مفضلة؟ لربما اعتبرت الطقس الشعائري برمته هرطقة وتجديفا، أو ربما كانت تنتمي إلى طائفة دينية تعتبر أن الآلهة قاسية وحشية والبشر بله وحمقى، وهذا بمجموعه يشكل مصير الإنسان وقدره؟ ربما تذكرت صباها البعيد حين كان تقديم القرابين إلى المحاربات وحاملات الرماح أو إلى المتمتعات بحكمة البوم وبهجة الزيتون مناسبة للتيه والفخر والضحك؟ ربما كانت معادية لأثينا وأكثر اعتيادا على ديميتر أو واحدة أخرى من الربات البعيدات اللاتي يسمع بهن المرء بين حين وآخر، مثل ربة مصر التي كانت تدعى سيكيت وتحمي القطط؟ ربما كانت بكل جدية - ليست تلك الجدية التي تميز نستور أو الأسرة، ولا الأصهار والبنات والعديد من الأبناء، بل نوع آخر من الجدية فيه خلطة من زوس وبيرسيفوني، أو كتلك الشائعة في الخلافات المنزلية المريرة - ترغب بأن تتحول العجلة (التي تعتبرها مقدسة ومكرسة) إلى واحدة من شقيقات نستور فعلا وحقا، واحدة من بنات نيليوس اللاتي ما زلن أحياء أو قضين منذ عهد بعيد؟ ربة المنزل وقفت هناك، يحوطها جلال وأبهة الملكة، باسمها المعروف، يوريديسي، المغالية في تمسكها بالأخلاق القويمة، لكن استقامتها الأخلاقية كانت من النوع الإحيائي المتغطرس. ذلك هو انطباع تيليماكوس البصري، وتلك صورته التي تذكرها: لكن مضامين الصورة ذاتها لم تكن واضحة بالنسبة له، ولا طلب أن تكون كذلك. قبل ما رآه كما كان، ويمكن القول بأنه استوعبه.

أضاف تيليماكوس بصمت إلى صلاة الملك العجوز القربانية الفجة وغير المفهومة،

واحدة أخرى حملها في صدره أياما وأعواما: يا أثينا، مهما كنت فأنا مؤمن بقوتك، دعي أبي يعود إلى البيت من جديد، دعي أبي يعود إلى البيت من جديد، دعيني أحصل على بوليكاست، اسمحي لي بلمسها وامتلاكها، ودعي أبي يعود إلى البيت من جديد، وباركي لي حياتي مع بوليكاست، واجعلي كل الكاذبين المطالبين بالزواج من أمي يموتون ويختفون ويذهبون إلى بيوتهم، ودعي أبي يعود إلى البيت من جديد، ودعيني أصبح قويا وذكيا وقصري مدة السفر ودعيني أصبح بطلا ودعيني أحصل على بوليكاست وافعلي ما تشائين معي!

وصلى صلاته الصامتة: دعيني مرة أتمكن من تقديم أضحية عظيمة والكل ينظرون إلي!

فيما وراء الممثلين الرئيسيين، في الحلقات الخارجية، أمكنه رؤية سكان البلدة والعبيد ثم على مسافة أبعد شباب ايثاكا. اشرأبت أعناقهم، وحركوا رؤوسهم جانبا وأصغوا وحاولوا سبر أغوار ما كان يقوله نستور إلى الربة: أصغوا كأنما كلمات الملك ما زالت معلقة في الهواء، وهمس بعضهم تفسيرات وشروحا لبعضهم الآخر.

وفيما وراءهم، وحولهم جميعا: امتدت الباحة الأمامية، البلدة، الحقول تحت أشعة الشمس، الجبال الداكنة أو الخضراء في الشرق، البحر في الغرب والجنوب، والجزر في سديم الشمال؛ وفوقهم السماء الصافية وشمس الصباح اللاهبة.

انحنى نستور مرة أخرى، وخطا خطوة إلى الجانب، ونثر ذرة القربان على النار التي خمد الآن لهبها؛ سقطت الحبات من السلة بحفيف واه، ثم قذف الماء بعدها. هسهس الجمر وبقبق الرماد، وارتفع عمود من البخار الأبيض، قفزت بعض قطرات الماء على الحجارة السوداء الحامية. ناول السلة والآنية الذهبية إلى اريتوس الذي وضع الآنية داخل السلة ووقف ممسكا بها لصق معدته حتى شارف طقس تقديم القربان على نهايته. ما زال وجهه مكفهرا، لكن برغم فقده السيطرة على زمام نفسه، كان يدوس بقدميه متحفزا نفس البقعة كأنه متسابق قبل بدء سباقه. تراجع نستور، بسرعة مذهلة وبثقة مدهشة، خطوة إلى الوراء، وحاكت الحركة الملكة وأولئك الواقفات خلفها. الآن، ارتفعت اليد اليمنى للكاهن الملكي السامي، وخطا ثراسيميديس، الذي ثبت عينيه على والده طيلة الوقت، إلى الأمام والفأس المزدوجة متدلية من يده اليسرى ووضع

نفسه إلى يمين رأس العجلة. تقدم كل من ايكفرون وستراتيوس إلى الأمام قليلا، دون أن يرفعا أقدامهم ـ تقريبا ـ عن الأرض. احمر وجهاهما وتعرقا من الجهد المبذول لتثبيت العجلة ـ لا يعني ذلك أن "المكرسة المقدسة" تحركت كثيرا، لكنهما أمسكاها بإحكام تحسبا لأي احتمال. على اليسار وقف بيسيستراتوس حاملا السكين الطويلة وخلفه بيرسيوس وقد تدلى من يده وعاء نحاسي. ما زال جو القداسة مخيما على المكان، لكنه يقترب تدريجيا من ذلك الذي يلف موسم الذبح في الخريف. بدأ جمهور النظارة يتحرك، وأولئك الواقفون في الخلف اندفعوا إلى الأمام؛ ما زالوا صامتين، لكن وجوههم لم تكن متوترة كثيرا.

رفع نستور يده الأخرى واتخذ مرة أخرى وضعية الابتهال والتضرع والعبادة. تحرك فمه، وتدلت شفته السفلى قليلا؛ كان على ما يبدو يبحث عن كلمات وإلهام، لكن لم يأت أي منهما.

قال بصوت أجش: "الآن يا ثراسيميديس".

لمعت الفأس البرونزية في الهواء وضربت العجلة على رقبتها خلف القرنين مباشرة ضربة مكتومة بدت وكأنها تنهيدة. ثراسيميديس يقطع الآن رقبة عمته، هكذا فكر تيليماكوس بهدوء آلمه بشكل غريب. في تلك اللحظة، صرخت يوريديسي صرخة زاعقة حادة مولولة! كأنما الصيحة انتزعت من حنجرتها كقطعة من اللحم الدامي؛ صرخ أيضا عدد من البنات الأخريات، متزوجات وعازبات. سقطت العجلة والملكة في وقت واحد: العجلة أولا على ركبها، ثم خرت على جنبها الأيسر، واستلقت وركلت برازها المقدس في محاولة أخيرة لتخور، لأن هناك خوارا ما زال في داخلها؛ يوريديسي سقطت إلى الخلف على أذرع اثنتين من بناتها. ايكفرون وستراتيوس ما زالا ممسكين بالقرنين المطليين الدبقين حين خطا بيسيستراتوس فوق جسد العجلة، والذي ما زالت حوافره تركل الهواء بوهن، للوصول إلى رقبة العجلة وقطعها؛ لكن تبعا لأمر من نستور رفعوا العجلة ووضعوها على طاولة الذبح قرب الجدار. اندفع بيسيستراتوس؛ كانت يده هادئة، لكن وجهه فقد تعبيره المتهكم ليحل محله تصميم واستمتاع بما يفعله.

تحول الأمر كله الآن إلى مشهد الذبح. تخلى نستور ـ دون أية مرحلة انتقالية ـ عن كهنوته السامي وأعطى أوامر في مختلف الاتجاهات. استعادت يوريديسي رشدها

وخطت للأمام لتعلم بيرسيوس كيف يمسك الوعاء النحاسي بحيث لا يُسفح دم كثير على الأرض: ومثلما هو مفترض، قام بعض العبيد بإخراج الأمعاء وبقية الأحشاء الداخلية التي ما زال البخار يتصاعد منها، وتركوا الكرش يسقط بقوة على عربة خشبية، بينما بدأ بيسيستراتوس بمهارة وخبرة سلخ الجلد. وعند الانتهاء من ذلك، قطع ثراسيميديس الجثة بفأس وسكين. سحب الاخوة العظم وخلعوا المفاصل، بخر اللحم الأحمر. وقُطع الرأس بقرنيه الدبقين ووضع على جانبه.

كان نستور أول من تذوق اللحم. قطع شريحة رفيعة من داخل الفخذ، ولفها بشريحة من الدهن ثم غرز فيها قضيبا نحاسيا وقربه من النار التي تحولت إلى كومة من الجمر المناسب للشيّ. ازّت قطعة اللحم وقطر الدهن. شعر تيليماكوس على الفور بجوع شديد. لكن امتزج مع جوعه نوع من خيبة الأمل. لقد حضر العديد من طقوس تقديم القرابين من قبل: مراسم متعجلة خرقاء تقام كل يوم، أو أخرى أكثر قداسة عند مواسم الذبح أو الحصاد، أعياد صغيرة، تقطع رتابة الحياة اليومية، أضاحي تقدم عندما تبحر سفينة أو ترسو، أو عند ولادة ابن لأحد سكان ايثاكا أو قبل البدء بمشروع تجاري. فكر أحيانا: في أحد الأيام سوف يتاح لي ربما حضور واحد من طقوس تقديم القرابين الكبرى على البر الرئيسي. شهده الآن، وكان من نواحٍ كثيرة مقدسا واستحواذيا، ولم يشعر في حياته من قبل بأنه على هذا القرب من الآلهة. ومع ذلك، ترك فيه رغبة جامحة في الأكل، لكنه جوع لا علاقة له بحاسة الذوق أو بتلهف المعدة. الآن، حين تجمهر الحضور حول جثة العجلة المقطعة الأوصال، المسلوخة الجلد، الدامية، التي فقدت قداستها نسبيا، تبين أن هناك شيئا سخيفا في الأمر برمته. كأنما كان كاهن القربان يعتنق معتقدا إيمانيا خاطئا - أو كأنما كان نستور بالفعل في أعماق المخبأ، المستور، الروحاني، القريب من الآلهة، لكنه لم يخترق غياهب الإيمان الديني الصافي. وأتت الفكرة كومضة البرق: مع أبي سيكون الأمر مختلفا. أم..لا؟

حمل نستور السيخ فوق كومة الجمر بيده اليسرى، والإناء الذهبي المزخرف برسم الحبار والمليء بالدم باليمنى، سفح الدم على الجمر؛ صدر هسيس حانق وزكمت أنوف الحضور الرائحة الشهية/ التفهة للدم. وحين وضع الإناء على الأرض، قال بصوته المعتاد، صوت العجوز الأجش:

"الآن سوف نأكل؛ هيا تعالوا! اريتوس، صب بعض الخمر على الجمر".

بهذا اكتمل طقس تقديم القربان.

قطع كل واحد شريحة صغيرة من العجلة، وشكها بسيخ نحاسي وشواها ثم أكلها: كان اللحم شهيا، فقد ذبحت العجلة بأفضل طريقة. وبعد ذلك، دخل الضيوف المدعوون، ومن بينهم طاقم السفينة القادمة من ايثاكا، إلى القاعة الكبرى وتناولوا فطورهم: وجبة الوداع لتيليماكوس. اختفت بوليكاست مع أمها وأخواتها العازبات في الطابق العلوي. رآها تيليماكوس مرة خلال تناول الطعام واقفة هناك - للحظة واحدة - في المدخل المفضي إلى الحجرات الداخلية، وخطر له في سلسلة أفكاره الطويلة التي سوف تستمر لاحقا: تلك فتاة يود المرء لو يتزوجها.

جزء كبير من مجموعة نستور الرائعة من الطاسات والأقداح والكؤوس استخدمت مرة أخرى، وشربوا نخب بعضهم بعضا مرارا وتكرارا. اضطر تيليماكوس للشرب عدة مرات. لكنه حاول البقاء صاحيا. شعر بنوع من الخجل برفاق سفينته. أسرفوا في الشرب وسرعان ما سكروا. حمل بعضهم خارجا - وضعوا تحت أي ظل متوفر في الباحة الداخلية؛ وحين نهض نستور الذي ترنح قليلا، ليذهب ويأخذ غفوة الصباح، كان هناك ستة أو سبعة من شباب ايثاكا تحت المائدة، إضافة إلى آخرين تشاجروا في الباحة الخارجية، لكن تم تجريدهم من أسلحتهم.

كان نستور ما يزال صاحيا وثابتا في مشيته حين أصدر أوامره بسرج الخيول. اشتد فضول تيليماكوس، فهو لم يركب عربة من قبل. وبعد أن بلغ هليوس أوج السماء مباشرة، في ساعة الهجيرة، انطلق تيليماكوس بصحبة بيسيستراتوس عبر الجبال نحو إسبارطة والملك منيليوس. لم يكن الوقت مناسبا لبدء الرحلة، لكن لم يكن لديه وقت يضيعه. وقفا في العربة الخفيفة وباعد كل منهما بين ساقيه، مقدما رجله اليسرى إلى الأمام وانتصب في وقفته مثل الشخوص التي شاهدها تيليماكوس على الأباريق الفخارية، حيث اخترقا دروب البلدة ثم خبت الخيل بنشاط على طول الشاطئ، ومنه صعدا إلى الطريق المؤدي إلى فيري، وتلك بداية جيدة؛ ثم جلسا على مقعد أحضراه معهما. الحرارة أوهت العزيمة وفترت الهمة. غلب تيليماكوس النعاس بضع مرات، لكن بيسيستراتوس استطاع البقاء صاحيا. حين اقترب المساء وبرد الجو، توقفا عند نبع في

الجبال وتناولا طعامهما، وأخذا قسطا من الراحة، وتبادلا الحديث. طمح بيسيستراتوس إلى الذهاب إلى كريت وعالم ماينوس، أو عبر البحر غربا إلى حيث يفترض وجود بلاد جديدة، مجهولة ورائعة؛ كان يفكر جديا بالابتعاد لفترة. ولم يكن على ما يبدو سعيدا في موطنه بيلوس بجوها المميز للبلدات الريفية الصغيرة حسبما قال. تملك الفضول كلا منهما للتعرف إلى منيليوس وهيلين.

قال تيليماكوس: "يقال إنها ممتلئة الجسم مفعمة بالصحة وجذابة حتى الآن".

قال بيسيستراتوس: "أجل، أعتقد أن وزنها قد زاد - لكن يا لها من امرأة، يا لها من امرأة!".

وصلا مع الغسق إلى فيري ومنزل ديوكليس، صاحب الخان والملك، وهناك أمضيا الليل. في الصباح الباكر تابعا الرحلة باتجاه إسبارطة.

-٢٣-
الترنيمة الثانية

-١-

لم يقاطع وصولُه المشاورات المتداولة بين اثني عشر دوقا ومستشارا اجتمعوا في قصر الكينوس. أنجزوا عملهم وكانوا على وشك شرب النخب الأخير لـ"الحارس"، "حامي المصالح"، "الرسول" هرميز، حين دخل "الرحال" متعثرا ووضع رأسه على ركبتي الملكة أريت.

بقي على هذه الحال عدة لحظات - لا يعرف المرء كم عددها - قبل أن يتمكن من الخروج من غياهب الكرى، من ثمل البحر، ويدرك دهشتهم. بالنسبة للمشاهد الحيادي والصاحي، تمثل كل ما فعله - ظاهريا - في الركوع، وإمالة رأسه نحو ركبتيها، والنهوض فورا والوقوف أمام الملكة والملك المنذهل. وقف هناك لثانيتين (متوسطتي الطول)، وفي اللحظة التي صحا فيها ذهنه أدرك أنه أتى إلى رجل فاحش الثراء وربما بالغ القوة. النظرات التي ألقاها على الجانبين بحثا عن الأبواب التي سيهرب عبرها - إذا اضطر لذلك - زودته بصورة للقاعة. على موائد الرجال وضعت أقداح ثمينة تتلألأ تحت الضوء الصادر من الموقد المستدير داخل حلقة أعمدته. وفي أعلى الجدران امتد إفريز مرصع بالمينا والزجاج باللونين الأسود والأزرق. أما العتبة التي تسلقها فكانت من البرونز، في حين زخرفت عوارض الباب بالفضة، حيث انتصب كلب أو أسد من الفضة والذهب بارتفاع الركبة، وحتى جرس الباب كان من الذهب على ما يبدو. فكر: يجب أن أقول شيئا على الفور، قبل أن يبدؤوا بطرح الأسئلة أو يخطر لهم أن يلقوني خارجا. يجب أن أحاول التفسير.

قال وقد أدى لسانه وظيفته على أكمل وجه: "أستميحكم عذرا لأنني اقتحمت

مجلسكم على هذا النحو. أتيت من البحر. جنحت سفينتي، وتلقيت وحيا ملهما، لا بد أن مصدره الآلهة". - لفق الرواية بذكائه - "ويحتمل أنه من الرسول هرميز، أمرني بأن أدخل إلى هنا وأضع رأسي على ركبتي صاحبة السمو الملكة. كان بمجمله وحيا من الآلهة؛ لا يمكن أن أفسره بطريقة أخرى. والآن أنا أتوسل إليكم طالبا الحماية والعون".

انتظر. كان الملك قد وضع للتو كأسه على المائدة، لكن يده اليمنى ما زالت ممسكة به بقبضة لينة، في حين مسد وداعب بيسراه لحيته الطويلة السوداء التي التمعت بفعل الزيت.

لم يأت جواب. كان محلا للاستقصاء تمهيدا للحكم عليه. بعد ذلك تراجع خطوة للوراء. ضرب عقبه حافة الموقد الدائري وكاد يجلس على الجمر وكومة من الرماد، لكنه استطاع الحفاظ على توازنه. شعر بأن عليه أن يفعل شيئا، ويتوسل إليهم بطريقة أخرى. جلس على حافة الموقد فكر: سوف يغطي السخام العباءة بالطبع. هل أستطيع أن أذر بعض الرماد على شعري؟ سمعت بأن ذلك يحدث لدى بعض الشعوب عندما يريد شخص أن يظهر أنه في حالة مطلقة من البؤس والعجز.

أومأت الملكة كأنما رغبت بأن توقفه، في نفس اللحظة تنحنح عجوز رمادي اللحية يجلس على بعد مائدتين أو ثلاث من الملك، وقال:

"من المؤكد يا الكينوس أن من غير الملائم أن يجلس غريب على هذا النحو".

كانت العبارة توبيخا واضحا، لكنه لم يؤخذ عن سوء نية.

قال الملك إلى شاب يجلس على كرسي عالي المسند إلى يمينه: "لوداماس، انهض يا بني ودع الغريب يجلس".

تبع ذلك الآن فترة قصيرة من الصمت. قرقر بطن أحد المستشارين الشيوخ. انفجرت فحمة على الحافة الخارجية من النار مصدرة رنينا. تنهدت الملكة تنهيدة عميقة من الرضى. رفع الملك عيناه وأشار إلى كرسي لوداماس، ونهض "الرحال" الذي تضاعف شعوره بالحماوة في ظهره، ونفض بعناية عباءته ومشى إلى الطرف المقابل وجلس. كان الكرسي جميلا عند النظر إليه، مريحا عند الجلوس عليه، نجِّد مقعده وزود بمسندين للذراعين. فكر: أنا أجلس على الكرسي؛ إنها لمتعة أن أجلس، متعة لا تصدق. أتت جارية حاملة طستا فضيا، غمس فيه يديه وجففهما بمنشفة كانت تحملها.

ومنعوا طعاما على مائدته: لحم بارد وخبز. فكر: يبدو الطعام شهيا. رشف من الخمر، بضع قطرات داخل شفتيه، بحيث لا يفقد رشده مجددا كما حدث مؤخرا: كانت الخمر طيبة ولذيذة. فتح دوق من الحاضرين فمه وتثاءب بصوت مسموع.

خلال فترة الصمت، رقبه الكينوس عن قرب؛ وحين أكل بضع لقيمات شهية ولاكها وابتلعها ووضع يديه المشوهتين على ركبتيه وانتظر قليلا، قال الملك:

"أجل، أيها السادة، يجب أن نعتبر اجتماعنا منتهيا. فضيفنا القدير يبدو متعبا. كنت أنظر إليه حين كان يأكل، وأعتقد أنه مر بحوادث فظيعة. في كل الأحوال، أقترح أن نلتقي هنا غدا. لا يمكن أن أقرر هل هو إنسان أم إله، لكن سيكون من الممتع والمثير سماع ما عنده".

ينبغي أن يجيب؛ ومرة أخرى شعر بالنعاس يغالبه. قال: "لست إلها" ـ ثقل لسانه ـ "لكن، كما قلت، رجل جنحت سفينته. وأنا ممتن لكم جدا على تلطفكم باستقبالي بهذا الود".

قال الملك: "نحن مشهورون بكرمنا". بدا صوته جافا؛ لربما شعر بالإساءة.

نهض الرجال، وانحنوا وخرجوا زرافات ووحدانا. لم يتعثر أي منهم؛ ساروا بجلال ووقار: اجتماع مهم اختتم ولم يظهروا اهتماما خاصا به. كان ضيفا، وهم ضيوف أيضا. انسحب الأبناء وتركوه وحيدا مع الملك والملكة.

كانت الملكة تنظر إليه بعينين ملؤهما الفضول والدهشة. إنها الملابس كما أدرك. لابد أن أفكر بشيء يؤمنون به، شيء قريب إلى الحقيقة بحيث يشابه الواقع الفعلي.

قال وقد استعاد لسانه وحنجرته براعتهما: "جرفتني الأمواج إلى الشاطئ. عند مصب النهر هنا على الجانب الغربي، أمس أو أمس الأول. بقيت نائما على الأوراق تحت شجرة وصحوت على أصوات جماعة من الفتيات انهمكن في غسل الملابس. إحداهن، ابنة هذه العائلة (لم يستطع تذكر اسمها)، سمحت لي باستعارة بعض الثياب. قالت بأن علي الذهاب مباشرة إليكم وإبلاغكم بما حصل"،

قالت الملكة أريت: "خلت أنني ميزت التطريز على ردائك والعباءة!".

قال: "سأكون شاكرا فضلكم لو سمحتم لي بالاحتفاظ بها لفترة. وأتساءل هل بإمكانكم مساعدتي على العودة إلى دياري".

سأل الملك: "إلى أين تريد الذهاب؟".

قال: "جنوبا". أضاف متردداً: "إلى ايثاكا. أنا في طريقي إلى هناك، لكنني أمضيت زمنا طويلا في الترحال".

قال الملك: "الطريق بعيدة إلى الجنوب".

قال: "أجل، أعتقد بأن التيار جرفني كثيرا إلى الشمال".

قالت الملكة وقد بدا الآن وجهها المغطى بالذرور أمومياً مرة أخرى: "من أين أتيت؟". فكر: لا تستخدم مساحيق التجميل مثل كاليبسو. بل تشبهها - هي، بينلوبي قليلا. كم عمرها؟ أربعون، ربما، أو أكثر قليلا.

قال: "أتيت من أقاصي الغرب. شاركت في حرب قبل زمن طويل ثم ضعت في الطريق إلى الوطن. في النهاية، نزلت على ساحل مكان بعيد في الغرب، في أرض أطلس، حيث ينتهي العالم. هنالك أسماء عديدة للمكان، بعضهم يسميه أوغيغيا؛ إنه لسان من الأرض داخل في البحر، شبه جزيرة. بقيت هناك سبع سنين. بصراحة، كنت أسيرا".

سأل الملك: "هل كنت مع الفينيقيين. هل هنالك فينيقيون أيضا؟ في تلك البقعة النائية؟ أم كنت مع السود؟".

قال: "لا، كنت مع امرأة مقدسة. يمكنك اعتبارها إلاهة".

سألت الملكة وقد ملأها التعجب والإثارة وهي تميل إلى الأمام نحوه: "إلاهة؟ يجب أن تخبرنا عنها".

قال الملك بارتياب: "إلاهة! إذن أنت إله، أو نصف إله على أية حال؟".

قال: "لا، أنا بشر من لحم ودم. رحّال".

قال الملك: "إذن، دعنا نحتسي قدحا آخر".

- ٢ -

شرح بيسيستراتوس بن نستور، من هما بأسرع ما يستطيع، لكن ذلك تأخر قليلا؛ بينما فضل تيليماكوس المصاب بنوبة طويلة من خجل سكان الجزر عدم البدء برواية قصته أو طرح الأسئلة.

لكن، قبل وصولهما إلى هذه النقطة، مرت ساعات عديدة، نزلا على الشاطئ خلال إقامة مراسم زفاف، عرس عائلي كان أيضا احتفالا رسميا حضره أعيان المدينة العظيمة إضافة إلى ضيوف مميزين من الخارج: كان منيليوس، ملك إسبارطة الشهير يحتفل بزواج اثنين من أبنائه.

أجل، لكن قبل وصولهما إلى هناك!

مجرد قيادة المركبة إلى إسبارطة حطم أعصابها. صحيح أن الطريق من فيري لم تكن وعرة كما تتخيلون. أقصد: الطريق "المادي المحسوس". لكن الطريق "الذهني" الذي مضى الشابان عليه، واقفين أو جالسين، في مركبة نستور الخفيفة، الثابتة، المطلية بلون جميل، كان مترعا بالفضول والإثارة بالنسبة لبيسيستراتوس، ابن نستور المتلهف للترحال، ومرهقا وشاقا على نحو خاص بالنسبة لتيليماكوس، الابن المتسائل القلق لاوديسيوس الحي أو الميت، بسبب الشعور بالدونية الذي استحضره وأبقاه ناشطا متقدا. إلا أن غنى وجمال الطريق "المادي"، كما رآه الاثنان حين برزا من الممر الأخير، أخمد هذا الشعور إلى حد بعيد. حين شاهدا إسبارطة على السهل الممتد تحتهما، عند سفح جبال تايغيتوس، وأدركا كبر مساحة المدينة، ومبلغ الروعة والقوة اللتين تضمهما أسوارها، وتلال تربتها الخصبة، غدا حديثهما أكثر جدية مما كان عليه في الصباح. إقامتهما في فيري - حيث تقيم إحدى عمات تيليماكوس، التي لم يذهب لزيارتها - قد تحولت طبعا إلى احتفال بسيط يضاف إلى عيد الأضحى في بيلوس، ونظرا لأن تأثير الاحتفالين ما يزال عالقا فيهما، ضحكا كثيرا ذلك الصباح. ما رآه الاثنان الآن، وحين اقتربا من الطريق الجواني، طريق الروح والنفس والخيال والإدراك والفهم، إضافة إلى الطريق الحجري "المادي" المغبر عبر السهل الأخضر الخصب، كل ذلك أترعهما باحترام يقترب من شفا الخوف. حتى بيسيستراتوس الذي عاش في بيلوس تأثر وقال: لا بد أن لديهم عددا وافرا من الخيول هنا. قال: كان لدى منيليوس شيء مهم ليعود إلى الوطن من أجله، حين رجع من الحرب قبل ثلاثة أو أربعة أعوام.

من وجهة نظر تيليماكوس "الايثاكية"، بدت حتى بيلوس مكانا تتوفر فيه الخيول بأعداد تزيد عن الحاجة. وحتى في بيلوس هناك بيوت وقصور بدت أكثر عظمة وأهمية بكثير مما يوجد على جزيرته. المدينة التي كانا يتوجهان إليها الآن أكبر من بيلوس

بثلاث مرات على أقل تقدير، وحين خطر له ذلك شعر بقرويته الريفية أكثر أي وقت مضى؛ بل حتى بيسيستراتوس بدا متريفا. أحس الاثنان بأن ذلك لم يكن فقط بسبب ملابسهما، ولا لأنهما حين نظرا إلى ظهري حصاني نستور البنيين المغبرين، أفضل ما في اصطبلات ملك بيلوس من جياد، والمركبة المطلية التي بدت ألوانها بالأمس رائعة الجمال، وجدا أنها غدت اليوم ألوانا فلاحية مبهرجة. لا، لم يكن ما أحس به الاثنان يتعلق بالمظاهر الخارجية وحسب، بل في فم كل منهما، في حركة لسانه حينما يتكلم، وفي قبضة يديه المترددة، التي افتقدت اليقين، وأصبحت الآن ريفية خرقاء سمجة. كانت عباءة تيليماكوس حمراء اللون؛ والآن رغب لو كانت بلون مختلف. يا ليت صندله الأحمر كان أفضل صنعا: على الإسكافيين في ايثاكا أن يكونوا أكثر مهارة - ولم لا ينطبق الأمر ذاته على بيلوس أيضا؟ هذا النوع من الأفكار أثار أعصاب ابني البطلين وأصابهما بشرود الذهن والكآبة، وتوقفا عن الثرثرة ولغو الحديث: بدلا من ذلك تناقشا بإباء وكبرياء، عن الأبطال على الأغلب. قال بيسيستراتوس إن من المعتقد أن منطقة ارغوليس تضم مزيدا من الأبطال.

كل هذا كان قبل الآن. وكذلك ما سمعاه من أن وصولهما تزامن مع إقامة احتفال زفاف مزدوج. منيليوس يزف ابنته الوحيدة من هيلين، هيرميون، إلى نيوتلموس، ابن أخيل أشهر شخصية في العالم - قيل إنه وعد قديم منذ الحرب، لكنه زواج سياسي أيضا - وفي نفس الوقت كان يزوج ابنه غير الشرعي (من جارية) ميغابنثيز السوداوي؛ اختاروا له فتاة من الطبقة الوسطى في المدينة ذاتها، اسم أبيها اليكتور. كل ذلك عرفه تيليماكوس وبيسيستراتوس لحظة توقفهما عند البوابة الخارجية ونزولهما من المركبة. الحشد الذي طوقهما ظن أفراده على ما يبدو أنهما من المدعوين الذين وصلوا للزفاف متأخرين؛ هتفوا لهما مرحبين في البداية، ثم أخبروهما بما كان يجري.

كل هذا حصل قبل الآن. ومن قبل أيضا سئلا عما يريدان، أولا من حارس عند البوابة، ثم من شخص عرف نفسه بوصفه كبير الياوران، ايتونيوس، أو شيئاً من هذا القبيل، ركض إلى الداخل بسرعة وعاد على الفور - تقريبا - طالبا منهما أن يتبعاه.

وقبل أن يدركا تماما ما يجري، كانا في خضم احتفالات الزفاف، بعد أن حيا كل منهما مضيفيه وعددا من الضيوف، واستحم على عجل ثم أرشدوه إلى مقعده.

ثم أخذ تيليماكوس نفسا عميقا وحاول أن يهضم ما خبره، وهذا ما قد يعطيه بعضنا من العقل والكياسة اللذين شعر بأنه يفتقدهما. لم يستطع القول: أنا تيليماكوس بن اوديسيوس، هل تعرفون أين أبي؟ لكن بمقدوره القول: أوه، شكرا جزيلا امل أننا لم نصل في لحظة غير مناسبة ـ لا، لا، أرجوكم لا تقلقوا بشأننا:

قال منيليوس: "ليعتبر كل منكما نفسه ضيفنا، أيها السيدان".

كان رجلا طويل القامة، بدينا، شاحب الوجه، أشقر الشعر، أزرق العينين، ودودا. الملكة هيلين كانت أيضا ممتلئة الجسم: سيدة تقترب من الخمسين، لها أنف مستقيم ولحيم قليلا، وشعر أسود، وعينان بنيتان، وتسرف في استعمال مساحيق التجميل. حين كانا يأكلان ـ وسط الجلبة الموشاة بالأغاني وشرب الأنخاب ـ ألقى تيليماكوس نظرة فاحصة حوله.

ظل ينظر خلسة إلى هيلين أكثر من أي شيء آخر، بينما تابع منيليوس قصة قاطعها وصولهما: القصة تتعلق على ما يبدو به وبزوجته. كانت ترتدي ثوبا أبيض ووشاحا أزرق لم يكن يناسب سنها كثيرا، ووضعت في أصابعها وذراعيها العديد من الخواتم والأساور، وعدة سلاسل وقلادات لؤلؤية حول جيدها. القاعة التي جلسوا فيها كانت بمثابة إطار مناسب لإظهار أهميتها وشهرتها، طولها ثلاثون خطوة وعرضها عشرون. حين خطا فوق العتبة البرونزية وقادوه وبجانبه بيسيستراتوس إليها، إلى "المرأة" التي كانت سبب وهدف الحرب، كان انطباعه الأول: الترف، الثراء! الآن بإمكانه الجلوس في كرسيه ذي المسند العالي خلف مائدة صقيلة قدم عليها الطعام والشراب، ومراقبتها خلسة. جلس قريبا منها إلى حد تمكن فيه من استنشاق عبير عطرها الفواح بين غيره من العطور والروائح الإسبارطية. لم يستطع رؤية وجهها الأبيض المجمل بالمساحيق وشكلها الكامل على الضوء الصادر من الموقد المستدير. فالضوء الذي غمرهم جميعا، هو وهي والملك وبيسيستراتوس، أتى من وهج أخشاب الأرز التي تطقطق فيه، في حين ضاع باقي الضيوف، وحتى العريسان والعروسان، في القاعة الكبرى شبه المعتمة. لا يكادُ يمكن رؤية ميغابنثيز من حيث جلس تيليماكوس؛ كان هو وابنة اليكتور مجرد شيئين في الخلفية الداكنة. سلط ضوء أقوى على هيرميون ونيوتلموس، كان كافيا بالنسبة له ليرى أن ابن أخيل الذي أصبح هو أيضا شخصية

شهيرة من النوع المحارب بوجهه المفرط في الوحشية والغباء في واقع الأمر. لم تعط المجموعة انطباعا بأنها مكونة من مدعوين إلى الزفاف، بقدر ما كانت جماعة مختارة بعناية ـ وبلا رحمة ـ من المحدثين والمستمعين المحيطين بالشخصيتين الرئيسيتين، هيلين ومنيليوس.

أجل، كانت القاعة إطارا مناسبا لها. فالأرضية تحت قدمي تيليماكوس عبدت بحجارة مستطيلة ناعمة؛ وحول الجدران امتد إفريز معشق بالزجاج الأزرق أو الأسود، استطاع أن يميز عليه شخوصا أنثوية فاتحة، وأشكالا ذكورية بالأحمر الداكن ـ كما افترض ـ يطارد بعضها بعضا تبعا لإحدى الأساطير السرمدية. الموائد مرصعة بالعاج، والأطباق عليها مصنوعة من الفضة والذهب؛ وانتصبت على الباب الذي دخل منه أوان ذهبية وفضية؛ بمقدوره أن يرى في كل مكان ألق ولألأة المعادن الثمينة والكهرمان، طاسات وكؤوس وأقداح وامضة لامعة. ذلك ما رآه في الجو شبه المعتم المحيط بهيلين.

همس إلى بيسيستراتوس:

"لابد أنه هائل الثراء! ذهب وفضة وكهرمان وعاج أينما نظرت! يستحيل أن تجد مكانا آخر أكثر روعة ـ ولا حتى الأولمب ذاته".

رد بيسيستراتوس هامسا وفمه مليء بالطعام: "أجل، المكان ساحر أخاذ".

التفت منيليوس إليهما؛ لربما شعر بالإهانة لعدم إصغائهما لكل ما قال؛ حركه الفضول هو أيضا.

قال: "أجل، رأيت وفعلت كثيراً قبل أن أستقر هنا مجددا، وأواجه الصعاب في كل ما جمعته".

قالت هيلين: "أجل، حقا! بعد أن يتعلم المرء بأنه حي يرزق!".

تحدثوا طويلا؛ روى منيليوس العديد من القصص؛ بإمكانك سماع أصوات التثاؤب في القاعة، والعديد من الضيوف الجالسين بالقرب منهما داعب جفونهم النعاس ـ نعاس مفعم بالاحترام والإجلال! انتهى العرس؛ بدأ الناس ينهضون على أقدامهم ويستأذنون بالانصراف. اختفى ميغابنثيز، ابن الجارية، بصمت مع ابنة اليكتور، وبإمكان المرء أن يرى بأن الاهتمام الذي تركز عليه لم يفسد شخصيته؛ تلقى العروسان إيماءة من منيليوس وأخرى من هيلين. نهض الابن الشهير لأخيل الأكثر شهرة

محدثا اهتياجا وفوضى شديدين وتمنى للجميع ليلة سعيدة بصوت عال، وأخذ هيرميون، عروسه الخجلى التي تشبه هيلين لكنها مرتاعة نوعا ما، من ذراعها وقادها إلى غرفة النوم: لسوف يغادران في الصباح الباكر.

قال منيليوس لبيسيستراتوس وتيليماكوس بعد أن غادر الآخرون القاعة: "لكن لا شيء سيمنعنا من الجلوس والتحدث قليلا. لسوف تبيتان هذه الليلة، أليس كذلك؟".

قال ابن نستور بتهذيب: "أجل، إذا كان ذلك لا يسبب لكم كثيراً من الإزعاج".

ملأ عبد أقداحهم. جلست هيلين مغمضة العينين. فكر تيليماكوس: تبدو أمومية فعلا. كم عمرها؟ أكبر عمرا من أمي. لكنها أكثر استعمالا لمساحيق التجميل منها. وقد مرت عليها أحداث سيئة.

فكر: أحداث سيئة؟

قال منيليوس: "هل أنتما عابرا سبيل. أعني في رحلة عمل بالطبع؟".

أوشك بيسيستراتوس أن يجيب، وكذلك تيليماكوس، لكن لم يتح لأيهما الوقت الكافي. في تلك اللحظة أراد منيليوس ألا يدع أحدا يتحدث سواه.

قال: "أنا أيضا سافرت كثيرا - قضيت أكثر من سبع سنين مترحلا بعد الحرب، لذلك فأنا أعرف ما أتحدث عنه. بعد طروادة - كما تعلمان. أفكر بها طيلة الوقت، كل يوم".

فتحت هيلين عينيها ونظرت إليه.

قالت: "أجل، لا يستطيع المرء أن ينساها بسهولة".

أتت خادمة تحمل سلة فضية بديعة؛ كانت مليئة بخيوط مجدولة وفوقها خصلة كبيرة من الصوف الأزرق ومغزل ذهبي. لربما أرادت أن تظهر مدى اهتمامها بالشؤون المنزلية بعد كل سنوات المغامرة تلك. لم يستطع تيليماكوس منع شعور تملكه بأن المشهد برمته أعد مسبقا بحيث يظهر مبلغ سعادة الزوجين الأسرية، الآن؛ هنالك عنصر من خضوع الزوجة وتلميح إلى التفاخر بذلك. لم يستطع منع إحساس بالشك راوده بأن هذه المرأة الفاحشة الثراء، التي حضرت للتو عرس ابنتها وابن زوجها، وكانت المضيفة في احتفالات دامت طيلة اليوم، ترغب في الجلوس وغزل الصوف في هذا الوقت المتأخر من الليل. مضى بعض الوقت قبل أن يفهم المزيد عن هذه الإيماءات الإشارة الدلالية.

في الحقيقة، فهمها بكل وضوح: أرادت أن تجلس وتتحدث وتصغي لما يأتي "من الخارج". ولربما لتتابع مراقبة ما يقوله زوجها (الذي لم يكن صاحيا تماما) وتكون مستعدة لتدافع عن نفسها، وتشرح - وتجلس هناك، كأنها لا تجلس هناك، لتصغي وتراقب، لكن كربة منزل مقتصدة وحصيفة حرصت دوما على فعل شيء عملي.

قال منيليوس: "السلة أيضا" - وأشار إليها - "لها تاريخ. أعطتها لزوجتي الملكة الكاندرا في طيبه في أرض مصر، حين كنا هناك".

قالت هيلين وهي تلمس بأصابعها فلكة المغزل والصوف: "أجل، سافرنا كثيرا. هل أتيتم أيها السيدان من مكان بعيد؟".

قال بيسيستراتوس: "من بيلوس، بيلوس الرملية".

قال منيليوس: "أوه، بيلوس". دكن لون عينيه؛ نظر باهتمام إلى بيسيستراتوس وفي ذات الوقت ألقى نظرة سريعة على زوجته. "زرتها قبل عشرين سنة، حين قمت برحلة إلى.. لأقنع نستور بدخول الحرب".

انتظروا جميعا.

قال منيليوس: "كنت أنا وشقيقي في ايثاكا أيضا. أقنعنا اوديسيوس بالانضمام إلينا. كان مترددا وادعى الجنون للتخلص من الأمر، لكنه انضم إلينا في النهاية".

انتظروا جميعا.

قال منيليوس: "كثيرا ما فكرت به وتساءلت هل هو حي أم اختفى للأبد".

اغرورقت عينا تيليماكوس بالدموع؛ لم يستطع منعها. تدفق داخله شعور بالخذلان والعجز؛ لم يعد يرى بسبب الدمع.

قال بيسيستراتوس: "أنا ابن نستور".

- ١٠ -

انتظر كل من الكينوس وأريت.

قال: "هناك كثير من الأشياء التي يفعلها المرء ولا يرغب بتذكرها. لكن أحب أن أتذكرها، الربة التي كنت أسيرها. تعبت من الحرب، ومن الترحال أيضا - والوصول إلى أمكنة نائية، على الأقل ليست في الاتجاه الذي قصدته. قضيت معها سبع سنين.

رعتني واعتنت بي جيدا؛ لم أكن أحتاج شيئا. تعودت البقاء هناك، وحاولت أن أنسى. ونجحت: نسيت معظم الأشياء. ثم توجب علي الرحيل. أبحرت لسبعة عشر أو ثمانية عشر يوما".

قالت الملكة أريت: "تلك قصة رومانسية حقا".

"يمكنك تسميتها كذلك".

سأل الملك: "لكن لِمَ رحلت"، وفي تلك اللحظة لم تكن تعابيره تدل على حب الخير للآخرين بل على اهتمام متخم بالريبة وسوء الظن.

قال: "اضطررت لذلك. كان ضرورة ملحة. صدر الأمر. لم أمنح مهلة طويلة".

سأل الملك وهو يميل إلى الأمام مرتابا محققا مستقصيا: "لكن من أرسل إليك الأمر؟".

سألت الملكة: "هل كانت تعيسة جدا؟".

قال: "يصعب الإجابة عن ذلك. الأمر أتى من الآلهة؛ فأنا بين أيديها".

قالت الملكة: "كم هذا مثير وممتع!".

قال الملك وقد عاد إلى جلسته واستند إلى ظهر مقعده: "لا أعتقد بأنك تكذب. فأنت رجل مثير للاهتمام، أحد أكثر الرجال الذين قابلتهم في حياتي إثارة للاهتمام. أنا أثق بك؛ لا أدري لماذا؛ فبرغم كل شيء أنا لا أعرفك. لكن أثق بك. أستطيع أن أدعوك للبقاء هنا فترة طويلة. أستطيع أن أعرض عليك ابنتي".

قالت الملكة: "لكن، يا الكينوس!".

قال الملك وهو ينهض: "أجل، أجل، بإمكاننا الحديث أكثر حول هذا الأمر في الصباح".

قالت الملكة: "تم تجهيز سرير لك في القاعة المجاورة. آمل أن تنام جيدا بعد كل ما عانيت".

قال: "أشكركم جزيل الشكر. أشكركم من أعماق قلبي".

بدأت النار تخمد. أتت جارية تحمل مشعلا وأنارت له الطريق إلى القاعة المجاورة.

همست الفتاة: "الآنسة ترسل لك تحياتها".

سأل وهو يتثاءب: "من؟".

"الآنسة نوسيكيا".

قال بنبرة ودية: "أوه. أجل، بالطبع. بلغيها تحياتي أيضا وشكري للطفها".

غط في النوم حالما وضع رأسه على الوسادة.

ـ٢ـ

أراح تيليماكوس اكتشاف أن منيليوس شخص رقيق وعاطفي. شعر بأن حاجزا داخليا تحطم داخل كل منهما، ولم يشعر بأي خجل من الارتجاف في صوته حين سأل: "هل لديك أية فكرة عن مكانه؟".

قال منيليوس: "لا، لكنني كثيرا ما فكرت به وتحدثت عنه حين كنا نناقش الأمور التي حدثت آنئذ. لن أدخل في اللعبة السياسية التي سبقتها أو أحاول تحليل كافة القوى والدوافع الكامنة وراء الحرب ضد طروادة. كان على شقيقي أغاممنون أن يدفع ثمنا باهظا من أجلها ـ مثلما فعلنا جميعا. كان التوتر مخيما على الجو قبلها، وحين أتى ـ ابن بريام، الرجل الذي أرضعته الدبة، ولن ألفظ اسمه ـ إلى هنا وصادقنا ثم رحل مع هيلين.. حسنا، أصبحت الحرب الرد الوحيد. كلفتني سبعة عشر عاما من حياتي. واوديسيوس..".

نشق بيسيستراتوس بصوت عال.

قال ابن نستور: "أخي انتيلوكوس لم يرجع أبدا. كل عائلة أعرفها ذهب واحد من أفرادها ولم يعد".

قالت هيلين برقة، وبدأت تنوح هي أيضا: "أجل، أعتقد أن الغلطة غلطتي".

قال منيليوس ووضع يده برقة على ذراعها: "لا، لم تكن غلطتك يا طفلتي. أخبرتك مرات عديدة ألا تفكري بالأمر بهذه الطريقة. لم تكن غلطة أحد، إنها غلطة الآلهة ـ إذا امتلك المرء ما يكفي من الجرأة ليؤكد أن الآلهة قد تخطئ. لم تكن غلطة أحد. اندلعت الحرب هكذا. هكذا هم البشر. بعدنا سبعة عشر عاما ـ لكن اوديسيوس لم يرجع بعد. في واقع الأمر نجونا من العقاب. فكروا بأولئك الذين لم يرجعوا! وفكروا بأخي! لا، لا، لن نتحدث عنه الآن. لكن فكروا بأحلامنا، بما سنفعله من أجل

اوديسيوس! لدينا كثير من الأراضي، ووفرة من المدن هنا في منطقة إسبارطة. أحيانا تخيلت كيف سأقدم له هدية رائعة فعلا حين يعود، حين يأتي إلى هنا".

مد منيليوس يده وأشار إلى القاعة الكبرى شبه المظلمة.

قال: "كنت سأعطيه منزلا كهذا، مدينة كهذه. إذا سمحت مشيئة زوس لاوديسيوس بالعودة، فسوف يتلقى استقبالا هنا ما عرفه بشر. كنت سأفرغ مدينة من سكانها وأقول له: خذها، إنها لك، أحضر زوجتك وابنك وكل الناس على جزيرتك، واستقر معهم هنا. كنا سنتبادل الزيارات، ونهرم معا، إلى أن تأخذنا الأرواح إلى عالمها..".

رجفت شفتا هيلين، وأحدثت الدموع أخاديد في المساحيق على وجنتيها.

قالت: "أف، يا لها من طريقة أن نجلس هنا وننوح!".

قال بيسيستراتوس، ومسح حوالي عينيه براحتي يديه: "لا أبكي عادة بهذه السهولة".

قال تيليماكوس بصوت مبحوح: "من جهتي أنا لا أبكي أبدا. لا أظن أن والدي سيوافق..".

خرج النشيج من صدره رغما عنه في فقاعة هائلة من الحزن والأسى.

"أنت تعلم كيف تسير الأمور عندنا!".

قال منيليوس: "أعرف تماما ما يحدث هناك. لكن اهدأ يا بني، لسوف نفعل ما بوسعنا، كن متأكدا من ذلك!".

جفف هو أيضا دموعه، وفكر، لكن لم يخطر له شيء.

قال: "سوف نبحث الأمر من كافة الوجوه في الصباح. هيلين، أعتقد أننا نريد بعض النبيذ، أفضل ما لدينا، ويمكنك أن تضعي بضع قطرات من شرابك المصري السحري فيه، ما رأيك؟ لقد حصلت هيلين على عقار في أرض مصر، ولا يحتاج المرء إلا لبضع قطرات منه في الخمر ولسوف تجعله سعيدا مسرورا خلي البال - المصريون يفهمون فعلا هذه الأمور! لسوف نجعلها أمسية ممتعة. الآن وقد انتهى الزفاف والجلبة والضجيج. سنتناول لحما باردا ومن ثم.. الخمر الممتعة.

نهضت هيلين وذهبت إلى غرفتها وأحضرت قارورة صغيرة مغلقة بسدادة؛ وضعت

مساحيق تجميل جديدة حين ذهبت. أعطت أوامرها، وأحضر العبيد خمرا جديدة من المخزن.

قالت وهي تصب بضع قطرات في إناء المزج: "ليس خطرا على الإطلاق إن استخدمتم كمية قليلة منه".

قال الملك مبتهجا: "أجل، وسيكون هذا احتفالا إضافيا صغيرا لنا!". فرك يديه؛ وأصبح شخصا مختلفا، في حالة من الجذل والمرح.

ما زال تيليماكوس يشعر بانفصام بين الأمل والأسى. أخذ جرعة من الخمر وكانت طيبة المذاق. وعلى الفور تقريبا أحس كيف بدأ الأمل يأخذ الزمام وكيف عادت إليه الوحدة، وتنامى شعوره بالقوة والثقة بالنفس. وبعد أن أكلوا بعض شرائح اللحم وشربوا مزيدا من الخمر، قال منيليوس:

"هيا يا هيلين، أخبرينا عن الحصان الخشبي في طروادة. هل سمعت عنه؟ أجل بالطبع سمعت. لكنه كان أكثر الأشياء التي فكر فيها العقل البشري براعة وحذقا!".

سأل تيليماكوس وهو يرفع رأسه وينظر إليها: "هل صحيح ما قيل عن الحصان الخشبي؟".

ابتسمت له:

"أضيف إلى القصة كثير من التفاصيل الملفقة، بحيث لا أعرف ما حدث فعلا. لا بد أن المغنين أضافوا شيئا لجذب اهتمام عامة الناس، كما أفترض. لكن في كل الأحوال، كان اوديسيوس داخل طروادة قبل اقتحامها ـ قاس عرض البوابات، ثم بنوا برجا هجوميا أو مهما كان يدعى؛ لا أفهم هذه الأمور على أية حال، كان في القلعة معي. تنكر بزي متسول؛ كان من المستحيل التعرف عليه".

قال منيليوس: "أخبرينا القصة على أية حال، فهي ممتعة جدا. إذ إن للحرب ـ وقل فيها ما شئت ـ جانبا هزليا أيضا".

قالت هيلين: "كان موقفي مؤلما، كما تعرفون جيدا. لم يكن من السهل دوما إخراج القط من الكيس".

قال منيليوس: "في طريق العودة طعن وقتل عشرة طرواديين على الأقل. لا مزيد من التفاوض معهم! أجل كان الأمر مسليا. لا بد أن يكون المرء إلها تقريبا ليفكر

بخطة بهذا الدهاء والمكر".

قالت هيلين، وقد انشغل ذهنها: "أجل، هذا ما يتذكره المرء. ألا تظن أن الوقت تأخر كثيرا؟".

شربت؛ شربت كثيرا، بأسلوب أفضل من أي شخص عرفه تيليماكوس في حياته. كانت تعرف كيف تشرب. مصت الخمر مغمضة العينين.

قالت دون أن تفتح عينيها: "النسيان أمر مدهش".

-١-

أتى الضوء إليه في المنام؛ غاص في الضوء، في سحب "صوفية" وروائح متضوعة من نظافة الصوف والكتان، غاص دون مقاومة. لم تعد الحلكة فوقه حلكة التعب والإرهاق، أصبحت مشهدا. استطاع أن يراه. رأى الشخص ينحني إلى الأمام ويمسك استياناكس من رجله ويحطم رأسه على حجارة السور. "بومب"! رأى وجه الرجل. فكر: لست أنا هذا، إنه نيوتلموس، ابن أخيل. "بومب"! وفكر بشيء لم يفكر فيه من قبل، في حلمه.. فكر بأن رؤوس الأطفال طرية وسهلة التهشم إلى حد استثنائي.

-٢-

فجأة، انفجر الأربعة ضاحكين. صبت هيلين بضع قطرات إضافية في إناء مزج النبيذ وقالت لا ينبغي لأحد أن يفعل ذلك مرارا، لكن نظرا لأنهم نادرا ما شربوا هذه القطرات المصرية في تلك الأيام، فلا بأس أن يجربوا قليلا منها.

ضحكت ملء فمها، وبانت أسنانها البيضاء اللامعة خلف شفتيها المصبوغتين بالأحمر، لألأت عيناها وأشرقتا وهما تنظران إليه. مالت إلى الخلف بمقعدها وضحكت حين قال منيليوس دعابة مسلية. لم يفهم منيليوس النكتة، وكذلك بيسيستراتوس، لكنهما ضحكا على الكلمة ذاتها:

"بروتي/ بروتي".

جلس الملك محنيا إلى الأمام في كرسيه، وقد تدلت ذراعاه على المسندين، وقهقه بصوت عال. وضعت جارية قطعتين من الحطب في النار واكتسب كل شيء رونقا وألقا

جديدين: الزجاج والمعدن على الجدران، الإفريز الجميل، تلامعت العتبات وعوارض الأبواب، ولألأت الكؤوس ولحية منيليوس الذهبية: لم تترع السعادة والفرح تيليماكوس إلى هذا الحد من قبل.

"بروتي/ بروتي!".

"وهذا كان إلها!". انفجرت الكلمات وهي تخرج من فم منيليوس، ثم بدأ يقهقه من جديد. نوبة جديدة من الضحك أصابت هيلين. رفعت رأسها من شدة الضحك حتى بان داخل منخريها ورقص ثدياها، وفتحت عينيها إلى أقصى حد وارتجف فخذاها النبيلان اللحيمان؛ كانت رائعة وكان كل شيء رائعا. ثم صاح منيليوس بصوت كدوي الانفجار:

"وكان اسمه بروتي/ بروتي!".

رموا أجسادهم إلى الخلف، ومالوا إلى الأمام، وضحكوا.. أجل ضحكوا حتى اضطرب لهب النار. لم يشعر تيليماكوس بأنه سكر؛ شعر بأنه في أحسن حال، وبأنه مبتهج ومسرور إلى أقصى حد. لم يسمع طيلة حياته شيئا هزليا كهذا.

"بروتي/ بروتي!".

تناثر اللعاب حول شفتي بيسيستراتوس حين حاول نطق الكلمة بأسلوب منيليوس الهزلي، وأغرت "بروتي/ بروتي" تيليماكوس ليحاول نطقها، لكنه لم يتمكن إلاّ من لفظ المقطع الأول ثم أجبرته الكلمة على التكشير فدفع كأسه فانسكبت الخمر على سطح المائدة الناعم.

صرخت هيلين: "برو / برو"، علا صوتها، وأصبح زعيقا حادا تقريبا، ثم بذل منيليوس جهدا هائلا ليستعيد زمام نفسه وقال ببطء مع تحكم كامل بالنفس:

"برو/ تي/ برو/ تي، ذلك كان اسم الإله، وهو إله مصري!".

لم يستطيعوا المقاومة؛ اضطروا للضحك مجددا، فقهقهوا واهتاجوا وتناثر لعابهم، وفي الباب وقفت جاريتان وكشرتا تعاطفا مع الضاحكين. حين استعادت هيلين حالتها الطبيعية للحظة ولوحت بيدها لهما اختفت الاثنتان مثل شبحين أسودين، وأغلق الباب بعناية، لكنهما بقيتا على الأرجح خلفه تسترقان السمع.

صاحت الملكة - بهدوء الآن - باتجاه الباب: "حان موعد النوم أيتها الفتيات. هيا يا منيليوس أخبرنا".

ما زالت تلهث، ووضعت يدها على صدرها المرتجف لتهدئ من روع قلبها. هنالك بقعة على جبهتها زال عنها "المكياج" لمعت كالنحاس. شربت من جديد وكذلك فعل الآخرون.

قال منيليوس: "برغم كل شيء، يرتبط المرء بعدد من الآلهة أيضا. لا مفر من ذلك. لن أقدم أوصافا تفصيلية، كما يفعل المغنون عادة. أما بالنسبة لأنصاف الآلهة ـ والمرء متأكد من هؤلاء ـ فإن عدد هذا النوع الذي قابلته كثير جدا. هذا، كما قلت، كان إلها مصريا. وكان عرافا يرجم بالغيب، وكالة أنباء على أوسع نطاق، ومبالغا في التشديد والتدقيق إلى حد لا يصدق في القرابين. كان إلها/ فقمة أتى من مكان ناء في الشمال، من الطرف الآخر من العالم حيث لا يوجد إلا السديم والضباب، واستقر في البحر بعيدا إلى الجنوب وكان إله البحر لكافة المصريين. لكن في نفس الوقت كان حاكما، ملك بناة الأهرام، لم أتبين أبدا موقعه الحقيقي هناك. لكن، كما قلت، كان طماعا شرها للأضاحي والقرابين. حسنا، ثم وصلت هناك.. في طريقي إلى دياري".

جمع منيليوس شتات نفسه حول القصة، استوطن حولها، لكنها أمسكته وأسرته وطوقته. أصبح أسير حكاية ـ أو مثخنا بجراح خطيرة بسببها، أو صابته كنبل أطلق عليه من قوس عرضا. الجانب الهزلي الهائل في اسم الإله شمل أيضا عنصرا مروعا؛ وفوق هذا الروع كان ملك إسبارطة يحاول التسلق كأنما على غشاء رقيق، غطاء، قشرة من التبجح والهزء. لربما تثبت القشرة، وربما تتكسر قريبا. خلطة الفرحة والرهبة أتت من الشراب ربما، من القطرات المصرية السحرية؛ أو أتت وحدها. والاسم كان هزليا في الشبه المخادع بينه وبين اسم إله آخر، وحين يفكر المرء بالمصريين باعتبارهم يملكون في هذا الشبح عجل بحر أو فظاً شمالياً نتن الرائحة كواحد من آلهتهم.

جمع منيليوس شتات نفسه حول القصة، جمعها حول نفسه وهو جالس هناك كمضيف كريم ممتاز لابني رجلين أعجب بهما وكان صديقا لهما ورفيق سلاح طيلة العديد من السنين. يمكن تفسير قصته باعتبارها بادرة تقدير تعبر عن الامتنان، آية كبرى على الاعتراف بالفضل، عملا دالا على الوفاء والإجلال. لربما رواها ليخفف عبء القلق عن كاهل أمير ايثاكا، وكانت بمثابة جواب تفاؤلي لسؤال قلق لم يكد يطرح منطوقا، جواب لا يمكن أن يعطى إلا تلك الصيغة. ولربما كانت سخريته من الإله وسيلة

لحماية نفسه، أو أنه اخترعه من بنات أفكاره بحيث لا تؤخذ النبوءات التي تلت على محمل الجد كثيرا.

ومع ذلك، لا ينبغي تجاهل تأثير القطرات.

قال منيليوس: "حدث كل ذلك لأننا لم نقدم ما يكفي من القرابين للآلهة، وخصوصا زوس. أبقوني هناك في أرض مصر مدة طويلة بقدر ما يمكن للمرء أن يقيم تحت مثل تلك الظروف: سبع سنين. لكن، في النهاية خرجنا من هناك وبعد إبحار لمدة يوم واحد وصلنا فاروس قرب مصب النهر ومنطقة الدلتا. هناك، توقفنا ولم نشعر بنسمة هواء طيلة عشرين يوما".

سأل تيليماكوس: "أما كان بمقدوركم التجديف؟".

"بالطبع - في البداية. لكن بقينا هناك وانتظرنا يوما بعد يوم، وبالتالي أصبح الحصول على الطعام صعبا، واستنفدت مؤونتنا. بكل بساطة، لم نجرؤ على المتابعة. صنع الرجال شبكة وشغلوا أنفسهم بمحاولة صيد السمك على طول الشاطئ. ثم انتهى مخزوننا من اللحم المقدد، ولم يعد لدينا سوى بعض الخبز العفن. شربت كمية كبيرة من الخمر لأحافظ على روحي المعنوية. أدركت أنني أهنت أحد الآلهة، لكن لم أكتشف أي واحد منها. أؤكد لك أنني شربت بدافع القلق واليأس، ثم تجولت في الجزيرة مسافات طويلة، في حين انشغل الرجال بصيد السمك. وفي أحد الأيام..".

نظر بسرعة إلى هيلين. غدت لا مبالية ومتوانية وفاترة الهمة مرة أخرى، وفقدت عيناها كل تعبير. أومأ لها مشجعا؛ شربوا جميعا؛ رفع تيليماكوس وبيسيستراتوس كأسيهما.

قال منيليوس وعلى وجهه ابتسامة غريبة: "في أحد الأيام شربت كثيرا لأخلص نفسي من أفكاري الكئيبة السوداوية. ثم قمت بنزهة طويلة داخل الجزيرة. وهناك قابلت إلهة، أو امرأة ستصير كذلك على أية حال".

رفعت هيلين رأسها وابتسمت؛ لقد سمعت القصة مرارا وتكرارا.

قال منيليوس: "تبادلنا الحديث لفترة قصيرة. أجل، كنا نسلي أنفسنا بالكلام.. تحادثنا. كانت حورية بحر، أي أنها على البر تتحرك على رجلين - كان شكلها جذابا إلى حد استثنائي. وكان اسمها أبيها.. بروتي/ بروتي!".

"بروتي/ بروتي!".

ألقى بيسيستراتوس بنفسه إلى الوراء، وانحنى إلى الأمام، ووضع يديه على بطنه، وهز رأسه، وكح وصاح مقهقها؛ وانتشرت موجة الضحك منه إلى تيليماكوس؛ وفي خضم نوبة ضحكه سمع ضحكة هيلين "هوه -.هوه - هوه - هوه!"؛ تنطلق إلى السقف من فمها المفتوح عن آخره. كان منيليوس يقبض على ذراعي كرسيه، وهو يحاول أن يغلق فمه ليسيطر على الرغبة بالضحك، لكن عيناه كانت تلمعان بجنون الضحك.

أخذ الأربعة نفسا عميقا في وقت واحد تقريبا. وصمتوا لوهلة، وبدا أن هناك انقطاعا في إيقاع الفرح والمرح في تلك الأمسية وسكر القطرات المصرية، لو لم تقل هيلين بصوت فيه مسحة من الجدة:

"وماذا حدث بعد ذلك؟ متى تبادلتما.. الحديث؟".

قال منيليوس: "يجب أن أفكر".

فكر؛ وشربوا.

قال منيليوس وهو يضع كأسه: "من المؤسف أن القطرات المصرية تسبب النسيان قليلا. أعني التفاصيل الصغيرة. على أية حال، كانت تدعى ايدوثي، وقدمت لي نصيحة مفيدة. أخبرتني أن أباها إله بحر أو إله ما تحت البحر، وأنه مطلع بشكل مدهش على كل ما حدث، وكل ما خططت له الآلهة، وكل ما سيحدث. ما كان علي أن أفعله هو الاحتراس والتنبه وانتظار اللحظة المناسبة. فهو يبرز عادة في منتصف النهار، وعليك عندها أن تمسك به بسرعة. كان زعيما لعجول البحر. هل رأيتم عجول البحر؟ إنها لا تشبه أي حيوان آخر.. أجل، مثل علقات عملاقة ربما، أو نوع من الكلاب، أو القضاة (الإسبرطيين) الشيوخ، أو السياسيين أو المغنين. في بعض الأحيان كان يستعرضها، يعدها. طريقة الوصول إلى الإله العجوز هي التنكر، ثم الزحف فوقه وإمساكه بإحكام حتى يفضي بما يود المرء معرفته".

قال تيليماكوس: "يبدو أنه شبيه بالآلهة؛ أعني شيئا خارجا من الأساطير القديمة الحقيقية".

قال منيليوس: "لكن رائحته كريهة مقززة. فكر بالجلد! أعطتني ايدوثي بعضا من جلود الفقمة، سلخت حديثا، وأخبرتني ماذا أفعل بها بالضبط. أخذت ثلاثة رجال معي

وجلسنا في مكمن منتظرين. كنا في المكان في الصباح الباكر وحفرنا حفرا في الرمل بين الصخور حيث تذهب عجول البحر عادة. ثم زحفنا ونحن نلبس الجلود وكانت رائحتها مروعة، وحملنا الرائحة معنا. اختبأنا صامتين تماما ونظرنا إليها من خلال فتحات العيون في الجلود. كان المشهد رائعا واستثنائيا. ولولا الرائحة الكريهة لبدا المكان وكأنه مسرح. تخيل وجود حشد من المغنين أو السياسيين أو البحارة الهرمين مستلقين على بطونهم يفكرون تحت أشعة الشمس ويهضمون طعامهم ويتأملون في الحياة ـ هذا تقريبا ما كان عليه المشهد".

رشف من كأسه، وضغط على جفنيه معا، بينما كان يتذكر:

"وحين بلغ هليوس أوج السماء ونحن نختبئ هناك ونتصبب عرقا تحت الجلود الساخنة، أتى العجوز. أعتقد أنه خرج من البحر مباشرة، لكن لست متأكدا من ذلك؛ لربما أتى بمركب من البر الرئيسي. بدا رجلا عاديا من لحم ودم، إلها عاديا، لا تميزه سوى اللحية المربعة والشعر الطويل والحزام المصري؛ كان غليظ البنية قوي الجسم، هرما وأشيب، حتى الشعر على صدره كان رماديا، أتذكر ذلك. وبعدها اندفعنا نحوه وأمسكنا به".

نسي الثلاثة اسمه الهزلي ومالوا بأجسامهم إلى الأمام نحو منيليوس، وأصغوا بلهف شديد.

"نعم؟".

كان ذلك صوت بيسيستراتوس.

قال منيليوس: "غير شكله. العجول، الأخرى، عادت متهادية إلى البحر وشقت طريقها في الماء ـ ولم نشاهدها بعد ذلك. أمسكنا العجوز بإحكام؛ كان فنانا بارعا في تغيير شكله".

سأل تيليماكوس: "ما الشكل الذي اتخذه؟".

قال منيليوس: "تحول أولا إلى أسد، أقصد أخذ يزأر وحاول أن يعض ويضرب ويزمجر كالأسد. لكن صرخت في أذنه: لا تحاول ذلك، نحن نعلم الخدعة ولن تجدي معنا نفعا. لقد عرفنا كثيراً في حياتنا، ولن تفلت منا يا صديقنا العجوز! ثم حاول أن يتثنى ويتلوى كثعبان عملاق ثم فح وحاول أن يضربنا ويرعبنا، ثم نخر كخنزير بري

وقفز كفهد، وفي بعض الأحيان شعرنا بأننا في خضم سيل دافق، نهر، جدول، كان لينا لدنا، وفي النهاية باعد بين رجليه وتظاهر بأنه شجرة، سنديانة لا تتزحزح، متجذرة في عمق الأرض. لكن بقينا ممسكين به، ثم استسلم".

توقف منيليوس ليلتقط أنفاسه. مجرد رواية الحكاية أنهكته؛ ثنى ولوى جسده، وحاول أن يزأر حتى تردد الصدى في جنبات القاعة الكبرى، رغم أن صوته كان رفيعا، كالزعيق تقريبا، وحاول أن يحاكي جريان الماء وقفزة الفهد من خلال أرجحة جسده والركل برجليه والتلويح بذراعيه. تجمعت قطرات العرق على جبهته. جلست هيلين تصغي مغمضة العينين.

قال منيليوس: "حسنا، كما قلت، استسلم في النهاية. لم يعد بوسع العجوز فعل شيء. كنا ثلاثة ضد واحد برغم كل شيء".

سأل تيليماكوس: "هل تنبأ وصدقت نبوءاته؟".

"شيء من هذا القبيل. أخبرني عن شقيقي أغاممنون".

أمارات الكآبة علت وجهه وتبين أن سوداويته معدية. تيليماكوس فكر بأبيه، "الغائب". بيسيستراتوس نكس رأسه وتذكر، أو حاول تذكر، شقيقه الأكبر الذي رديَ في الحرب. هيلين فتحت عينيها، تنقلت نظراتها المحدقة بينهم بلا مبالاة. تنهدت، مثل ربة منزل لديها ما يكفي من الطعام والحكايا، مثل امرأة أرهقتها هموم سرية، وفي الصوت هنالك تعاسة واضحة. دون أن تقول شيئا، أخرجت قارورة القطرات المصرية من صدرها، وصبت بضع قطرات في الإناء ودفعته إلى الطرف الآخر من المائدة نحو الملك. رمقها منيليوس بنظرة سريعة، تقابلت عيونهما. أومأ رأسه، وصب مزيدا من الخمر والماء وملأ الكؤوس.

قال: "نخب الآلهة، ونخب السعادة والرخاء أيها السيدان"، وعبَّ جرعة كبيرة. شربت هيلين أكثر مما يجب أن تشربه امرأة، ملكة. ابتلع بيسيستراتوس شرابه بصمت، وحين أعاد كأسه سالت الخمر من زاويتي فمه إلى ذقنه التي تشبه ذقن مصارع. مسحها بظاهر كفه، مثل فلاح، هكذا فكر تيليماكوس في انتقاد ودود. ملأ هو فمه ببطء، وأغمض عينيه، وترك الخمر تجري إلى جوفه.

ابتهج الجميع على الفور.

- ١ -

في الغيمة فوقه كمنت الحرب. الاستعدادات الطويلة، الحصار، النصر، الاجتياح، أيام الاحتلال حين دمروا وهدّوا وأحرقوا كل شيء في طروادة. لمحها من خلال جفنيه وسمع أفكاره: لم أكن أنا. إنه ابن أخيل. إنها الحرب. كنت مجرد واحد من المشاركين في الحرب. لم أكن "أنا" الحرب.

نام نوما هادئا، أخذ نفسا عميقا ونفخ الهواء ثانية. استلقى على جانبه وتكوم في رحم الكرى؛ بعد برهة كان ممددا مرة أخرى على ظهره وقادرا على رؤية المنام، يمر؛ انقلب على جانبه الآخر، ومرت ساعات الليل. نادى أحدهم: اوديسيوس! أنت بطل، رحال لا مثيل له، أيها الماكر، قص حكايتك! غمغم: حسنا، أنا قادم، أحتاج فقط إلى بعض الوقت كي أصيغها بأسلوب يقبله الناس، لأنني إذا أخبرتهم الحقيقة فلن يصدقوها. يجب أن أنكرها بقناع القصة البطولية؛ يجب أن أخترع شيئا يمكنكم هضمه. كنت في عالم الأموات ثم عدت إليها، سورسي/ كاليبسو/ سيريبسو / كاليرسي وأنا..

تسلق الرجال الجبل. تعلقوا بالشجر ونظروا عبر أغصانها وشاهدوا السفينة رابضة في الخليج الضيق بعيدا في الأسفل. انبلج الفجر وسرعان ما سينتشر ضوء الصباح، الآن حل الصباح، الآن.

نادوا عليه: لن نمضي مسافة أبعد الآن. لن نمضي مسافة أبعد الآن كبشر، بعد أن مسخنا خنازير.

نادى عليهم في الحلكة: أنا قادم! أنا قادم! في حين بدأ الضياء، النهار، ينتشر رويدا رويدا تحته، خارجا من البحر.

مضغ نبتة.. مولي / مول / مول / مولالا، لا لا.. تلقاها من إله "صاحب القدم السريعة". فكر: لن أمسخ، لن أصبح خنزيرا.

فكر: سأتزوجها. لقد منحت لي. سورسي/ كاليبسو. سيريبسو/ كاليرسي/ كا - نوسيكيا - ا ! ها ها ! هاهاها!

-٢-

حين انتهوا من الضحك على "بروتي / بروتي" المضحك/ الموجع إلى حد هائل، تمكن منيليوس من السيطرة على نفسه بما يكفي ليخبرهم بأسلوب مترابط إلى حد ما نبوءة وتفسير الإله/ عجل البحر.

بابتسامة زادت رقة باطراد، وزادت حيوية وإنسانية، حين قلبت أخشاب الأرز في الموقد وتسعر اللهب، قال الملك:

"وقع أخي أغاممنون في شر أعماله. 'بوتي / بروتي/ برووت/ بلوب/ بليب/ بلوب/ بلوب/ بلوب' قال صراحة إننا علقنا هناك في محطة عجول البحر لأننا لم نقدم القرابين للآلهة الجليلة. علينا - حسبما قال - أن نعود أدراجنا ونبحر في نهر مصر مرة أخرى، دون الالتفات إلى بعد المسافة، ثم نقدم القرابين. ثم علمت كم ارتكب شقيقي وصحبه من شرور وآثام".

تناثر لعاب بيسيستراتوس على سطح مائدته وهو يقول مقهقها: "بروتي/ بروتي/سبلاش/ سبليش/ بلومب!".

سأل تيليماكوس وهو يضج بالضحك: "هل قال شيئا عن أبي؟".

قالت هيلين متأوهة: "أوه، أيتها الآلهة، سأموت من الضحك"، تشنجت، واستندت بقوة إلى ظهر مقعدها، وعلا صدرها وانخفض، وارتعش فخذاها. "لسوف أنفجر.. يا منيليوس!".

جمع شتات نفسه مجددا ونطق كلماته بوضوح كبير:

"عن اوديسيوس؟ أجل، سآتي على ذكر هذا. لكن الإله العجوز وصف ما حدث في ارغوس. لا، أخبرنا بادئ ذي بدء أن اياس الصغير، ابن اويليوس من لوكريس، قد أغضب بوسيدون - كان هذا تحذيرا لي! - وقتل في طريق العودة إلى الوطن، زلت قدمه فوق جرف صخري حين نزلوا على البر في مكان ما، وتلقى ضربة على رأسه لم تحطم جمجمته فقط بل صدعت الصخر أيضا..".

كشروا، قهقهوا، شربوا.

قال منيليوس: "ثم تحدث عن أخي. قال الإله/عجل البحر إن أغاممنون وصلت به الصفاقة إلى حد إغضاب الآلهة، مما جعل بوسيدون يدفع سفينته إلى موطن

ايجستوس، وهناك ـ كما قال ـ كان حراس ايجستوس يترصدونه، وهناك أيضا زوجة أخي كلايتمنسترا كما هو مفترض.. لكن يعرف الجميع طبعا أن أغاممنون أتى إلى مسينا وأن ايجستوس قد استقر هناك واستولى على سرير أخي وبيته. على أية حال، اغتالوا أخي بأشد الأساليب خزيا ودناءة". أردف منيليوس بنبرة لطيفة: "هذا ما حصلت عليه من بروتي/برو..".

انفجروا ضاحكين من جديد.

حين توقفوا عن الضحك لوهلة، جفف تيليماكوس الدمع في عينيه وسأل:

"وماذا عن أبي؟ ما الذي قاله الإله/الفقمة عن..".

قال منيليوس: "بكيت طبعا على شقيقي. لا تظنوا أنني لم أفعل. لكن.. إن أتيح لي أن أعبر بطريقة أخرى أقول: "في خضم حزني كانت الحقيقة نفسها بمثابة فرج، فرح، متعة. وكان العجوز مسليا فعلا. هذا ما فكرت فيه حين جلست على الرمل أبكي وأنوح".

قالت هيلين: "دعونا نشرب".

حين شربوا، سأل تيليماكوس مجددا؛ لوهلة، راوده شعور عابر، هاجس غامض، بأن الملك يرغب بتجنب الموضوع.

قال منيليوس: "اوديسيوس.. أجل، بالطبع. لسوف يرجع. في الحقيقة، هو الآن في طريق العودة. لقد نجا".

قالت هيلين: "أنا متأكدة من أنه نجا وأنه في طريق العودة إلى دياره".

قال بيسيستراتوس: "هذا يبدو مقنعا"، ورفع رأسه وابتسم لتيليماكوس ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه البيضاء.

عبثت أصابع هيلين بمغزلها الذهبي، ونقبت يدها البيضاء الناعمة المكورة في كتلة الصوف، وابتسمت، وتثاءبت، وهزت رأسها، وابتسمت مجددا.

كان صوتها مبحوحا قليلا حين قالت:

"أنا أصدق بروتي/بروتي".

أرادوا أن يضحكوا مرة أخرى، لكنهم سيطروا على أنفسهم.

"أجل، أؤمن بصدق العجوز الضئيل اللطيف. والحقيقة الكاملة تكمن فيما قاله.

صدقت نبوءته حول أغاممنون برغم كل شيء رغم أن علي الاعتراف بأنها بدت كخرافة. تزعُّم العجوز لعجول البحر مثلا. وتحولاته الجسدية، وسلوكه الغريب. لم يكن كل ذلك من صفات البشر".

مسد منيليوس لحيته الشقراء، ولمعت كالنضار.

قال: "خرافة، حلم، إن أردتم. لكن من أية زاوية نظرتم، فهي حقيقة من نوع ما. لقد قذف العجوز بنفسه في كل مكان وحاول التنكر بكافة الأشكال ليهرب من الحقيقة، وهذا برغم كل شيء لم يكن أمرا عجيبا استثنائيا. كل سياستنا حين بدأنا الحرب مع طروادة كانت تقريبا على هذه الشاكلة".

عاود تيليماكوس إحساس راسخ بالأمان، بالأمل القوي، شعر حتى بالإيمان واليقين والثقة. بالنسبة له كانت تلك ساعة من السعادة، من التوقع البهيج. كل شيء، سينتهي نهاية سعيدة.

خمدت النار في الموقد، وزحفت العتمة نحوهم من زوايا القاعة الكبرى. في تلك الحلقة الصغيرة، استمتعوا بسعادة باهتة، سعادة القطرات المصرية. فكر تيليماكوس: أنا شاب، أبي سيعود، الثأر والمُلك يكمنان بانتظاري؛ أنا قوي، رغم شعوري بالنعاس في هذه اللحظة. فكر بيسيستراتوس: لا يهم أن أخي انتيلوكوس قد قتل؛ كان بطلا وسيخلد اسمه في الأغاني. أنا أخوه وتيليماكوس صديقي؛ أخي تقريبا. فكرت هيلين: الشكر للآلهة على انتهاء هذا كله، ولن يكون هناك مزيد من السفر والترحال، ولدي دواء يبعدني عن التفكير بكل شيء. الشكر للآلهة على القطرات السحرية. وعلى العتمة الزاحفة نحونا، وعلى مساحيق التجميل، الشكر للآلهة لأنهم لن يروني حين أستيقظ في الصباح، ولأن منيليوس لطيف رقيق. الشكر للآلهة عليه وعلى النسيان. فكر منيليوس: ولدان لطيفان. لقد هدأت الحكاية روع كل منهما. صحتي جيدة. الرحلة التالية التي سأقوم بها ستكون إلى بلاد الآلهة. إلى عالم رادامنثوس المبارك، إن صدقت الرؤيا، إلى ايليزيوم، عالم السعادة المثالية والراحة. لا لمزيد من الحروب. لا للسياسة. لا لمشاكل الزواج. ستبقى الحالة على ما هي الآن: شراب يهب السعادة كل يوم.

حين وقف نظر إلى هيلين؛ أغمضت عينيها، لقد نامت؛ قال بصوت خفيض:

"لسوف أقوم برحلة يوما ما، رحلة طويلة، هذا ما عناه الإله/ الفقمة. إلى بلد شتاؤه دافئ، وصيفه بارد. لكن ليس الآن، بل بعد وقت طويل، لربما سأعيش حتى أبلغ أرذل العمر".

ـ ٢٤ ـ

الترنيمة الثالثة

ـ آ ـ

"لم أحب القطط أبدا"، هكذا قالت بينلوبي معبرة عن غضبها لمرأى ابنة دوليوس التي ما زالت جميلة، وذات فائدة عظيمة للخاطبين، وهي تعبر الباحة الأمامية. فكرت "المنتظرة": ليست من البشر، ليست امرأة، بل هي حيوان، مجرد جسد. إنها جارية أفعل بها ما أريد؛ أنا من أدعها تعيش. كثيرون ضاجعوها؛ آخرهم انتينوس. القطة الفاسقة، المنتفخة البطن. أنا.. لم يضاجعني العديد من الرجال. لست حشية. اقتصرت النتيجة على ذاك الطفل الوحيد. ستولده كالقطة، كالأفعى، كالـ..

استدارت فجأة إلى يوريكليا، التي كانت واقفة هناك، وصاحت:

"ألم يكن بمقدورك إبلاغي بذلك من قبل!".

"كان وعدا وعدته، يا صاحبة الفضيلة".

"وعد!".

لكن ذلك ذكرها بوعدها هي، تذكرت.. للحظة عابرة.. القماش المنسوج. للمرة الثانية في تلك الدقيقة حاولت السيطرة على صوتها:

قالت: "أنا أمه. كان من واجبك أن تخبريني بأنه رحل في مركب. لم أنت هنا إذن؟ أجيبي! أجيبي فورا!".

عاد غضبها:

"وإلا سأقتلك!".

* *

شعر نويمون بن فرونيوس بالقلق واعتقد أنه أفرط في الشراب في خانه الواقع في

الميناء، حيث يقيم الخاطبون، العطاش دائما وأبدا، من أهالي ساموس الصخرية. كان قد رأى شبحا. رأى مينتور في الشارع في ضوء النهار الساطع، رغم أنه علم بأن الحكيم العجوز غادر مع الصبي تيليماكوس في رحلته إلى بيلوس. ذهب إلى مينتور، ولمس ذراعه، ونظر إلى وجهه بلحيته الرمادية:

"حسبت أنك سافرت؟ أم هل عدت ثانية؟ أين وضعت المركب؟".

قال مينتور الذي يحب أن يلعب دور الفيلسوف: "سافرت؟ في رحلة؟ الإنسان مسافر دوما في رحلة. أنا مسافر في رحلة العمر". أضاف بأسلوب مهيب عويص: "نحن في رحلة في اليقظة والمنام. أنت في رحلة، أنا في رحلة، والآلهة في رحلة طويلة بصحبتنا، ومن المثير أن تعمر طويلا لترى كيف ستنتهي رحلة هذا العالم الكبير".

قال نويمون: "أوه، توقف! متى رجعت؟ سوف تفهم أنني أريد معرفة ما فعلته بمركبي الجميل!".

قال مينتور وهو يشد شعر لحيته ويتفوه بفكرة مجنونة بعد أخرى: "أنا أرجع دوما. رجعت من كريت حين كنت شابا. عدت إلى طروادة حيث لم أزرها من قبل أبدا، ومن ايثاكا حيث أقمت - والحقيقة تقال - طويلا. رجعت من طروادة بعد أعظم الحروب في تاريخ العالم وأكثرها دموية ووحشية. عدت من الريف البارحة؛ كنت مع ليرتيز نناقش أمور الفلسفة والخضار، فالاثنان يسيران جنبا إلى جنب، بل هما شيء واحد تقريبا، وجدنا حل المشكلة. أنا عائد من الميناء الآن، وبعد برهة سأعود من البيت أيضا، لأن علي أن اذهب إلى المكان وأعاين هؤلاء الشبان الخاطبين. ثم سأرجع دون ريب من هناك كما سترى. دائما أرجع، دائما في رحلة، هذه حال الدنيا".

قال نويمون وقد أغضبه ذو اللحية الرمادية تماما: "بوه، ما هذا الهراء الذي تتفوه به! أين وضعت المركب؟ أنا بحاجة إليه. وأين ابني؟ هل راح معه أيضا".

"المركب؟".

"أجل المركب. أفضل مركب لدي! سفينة مكتملة! أين وضعته؟".

قال مينتور: "مركب، سفينة؟ الحياة مركب، الحياة في واقع الأمر سفينة، إذا فكرت فيها".

كان مدركا لحكمته إلى حد أنه بدأ المشي: حسب على ما يفترض أن نويمون

سيذهب معه، سيمشي بجانبه ويصغي له. لكن نويمون وقف حيث كان لوهلة وسمع الغمغمة تخف. ثم تملكه الغضب بل حتى الذعر. ركض حتى وصل للعجوز، وأمسك بذراعه لاهثا.

"هل أتيت من البر الرئيسي أم لا؟".

توقف مينتور، ونظر إليه، وفكر، ووزن كلماته كأنما يحمل بيديه ميزان قبان، أو هكذا بدا من إشاراته.

"كل منا يأتي دوما من البر الرئيسي يا ولد. الآلهة والبشر جاؤوا من البر. أنا أيضا أتيت من البر. لكن من أين أتى البر؟ أجبني إن استطعت!".

صرخ نويمون: "لكن أقصد الآن!".

قال العجوز: "في الحقيقة، مضى زمن طويل مذ كنت على البر. كثيرا ما ذهبت إلى هناك، في المنام. لكن أيا من قدمي، قدمي المتعبتين، لم تطأ البر منذ سنين".

"لكن ألم تكن معهم، مع ابني والآخرين من أتباع تيليماكوس، حين أبحروا إلى بيلوس؟ قبل عشرة أيام؟".

قال العجوز مينتور وهو يرفع يديه مثل كاهن على وشك أن يمنح بركاته: "أنا تابع دائم لابن اوديسيوس. أتبعه بانتباه عظيم. هذا واجبي. ولا ينبغي أن يجهل إخواني المواطنون الأذكياء أن أباه كان أعز صديق لي. تيليماكوس واحد من أفضل الأشخاص الذين أتبعهم". أردف العجوز بفضول مفاجئ: "ماذا تقول، هو موجود على البر الرئيسي؟".

صاح نويمون: "أيها الأب في الغيوم!"، وركض، أولا إلى الميناء، ثم إلى خانه، حيث عب كأسا كبيرة من الخمر الصافية تقريبا، لأنه كان يتصبب عرقا، ثم ذهب إلى غرفته وقلب الرأي في الأمر. هناك، خطر له أنه رأى شبحا. أدرك أن مينتور لا بد أن يكون في بيلوس؛ فبرغم كل شيء، رآه رأي العين وهو يصعد إلى المركب. لكن من اللافت كم بدا الشبح حقيقيا، حسبما فكر في نفسه. رغم أن من سمات الأشباح المميزة أن تبدو كأشخاص حقيقيين.

وبدأ من فوره يشعر بحاجة ماسة لمركبه الجميل. فكر قليلا بابنه أيضا، لكن عرضا في أغلب الأحيان، لأن أفكاره قفزت مباشرة من المركب إلى حيوانات الجر التي

يملكها على البر: اثنا عشر حصانا وظف فيها - متفاخرا - جزءا من رأس ماله، إضافة إلى بعض البغال. يملك أيضا حيوانات وضعها في عهدة ابن عم له في اليس، وشعر في تلك اللحظة بحاجة شديدة لرؤيتها.

* *

قالت يوريكليا: "جاء نويمون إلى هنا، وتصرف بشكل غريب فعلا. حسبت أنه سيتمكن من إغلاق فمه، لكنه باح بكل شيء. قال إنه شاهد شبحا؛ كان ثملا حتى قبل تناول الفطور، وحين سأله بعض الأشخاص في القاعة الكبرى عما رأى، ليتسلوا معه فقط، قال إنه رأى مينتور".

* *

أمسك به انتينوس وصاح قائلا:

"قل الحقيقة يا رجل! ماذا بشأن مينتور؟".

قال نويمون وقد جفت شفتاه: "حسبت أنه موجود على البر. وما زلت أعتقد أنه هناك، وأن ما رأيته عبارة عن شبح. لكن يا للسموات كم يشبهه! كان.. أجل، كأنه هو بالضبط!".

قال انتينوس وهو يرخي قبضته ويقف هناك مهددا متوعدا وقد باعد بين ساقيه وتكتف، وبدا ضخما وقويا: "أيها السكير الحقير. قل الحقيقة الآن، وإلا..".

نهض أيضا كل من يوريماكوس وامفينوموس.

* *

ميدون العامل غير النظامي، المغني الاحتياطي، الرسول، الجاسوس المزدوج، رفع قدمه فوق العتبة المرتفعة (معنويا وماديا) ورأى المرأتين. السيدة كانت تقف أمام النافذة؛ تنظر إلى الباحة الأمامية، وتصغي. أمكنها سماع الجلبة والضجيج من القاعة في الأسفل، ثرثرة الأصوات، قعقعة الأطباق، خطوات سريعة، أصداء، وبين حين وحين صوت انتينوس الصارم القاسي كضربات العصا، وصوت يوريماكوس الواضح، الأنيس، وصوت امفينوموس، الزاعق الودود المستحث: أمكنها التقاط كلماتهم الفردية. خلف بينلوبي وقفت يوريكليا، ضاغطة راحتيها معا؛ كانت إما تحاول النظر من فوق كتف سيدتها، أو تحدق، بيأس مطلق ربما، إلى ظهرها.

استدارت الاثنتان. رأى الغضب في وجه "الزوجة" والرعب في وجه العجوز.

"ماذا تريد يا ميدون ؟".

رفع قدمه الأخرى فوق العتبة وكاد يتعثر، رغم أنه تخطاها بحذر شديد مرات عديدة من قبل. انقسمت مشاعره: بدا وكأنه يخون أولئك الجالسين في القاعة تحت، وكأنه سيسلم رسالة مهمة. في الواقع، كانت مثيرة.

"كان مينتور يقيم مع ليرتيز يا صاحبة الفضيلة".

قالت: "أعرف. لم يذهب إلى البر أبدا".

"لكن تيليماكوس ليس مع ليرتيز؛ بل في بيلوس، يا صاحبة الفضيلة".

قالت: "أعرف. ماذا تريد؟".

الإحساس بأنه عميل مزدوج ملأ صدره النحيل المهزول؛ تردد. باعدت يوريكليا بين كفيها في إيماءة تدل على التوبة والندم، ورفعت يمناها إلى فمها كأنما تتثاءب - برغم الرعب الذي حاق بها - أو تعطي إشارة تحذيرية. قال ميدون: "ينوون قتله يا صاحبة الفضيلة. سوف يكمنون في انتظار رجعته. هناك في مضيق ساموس، قبل أن يصل إلى هنا".

قالت: "أعرف".

تدلت ذراعا يوريكليا على جانبيها. تذكر ميدون فيما بعد، في الحياة التي سمح له بأن يعيشها بين البشر، كيف بدا له أن اليدين حقيقيتان، صادقتان، يدا أم أصيلة، يدان يائستان، مذعورتان، وكيف تغيرت صورة العجوز، في ذهنه إلى الأبد: الذكرى كانت قوية إلى درجة جعلته يأخذها معه إلى مثوى الأموات، أو مهما كان المكان الذي ذهب إليه في النهاية.

سألت بينلوبي بصوت مبحوح: "هل تعرف المكان الذي سيقبضون فيه عليه بالضبط؟". ثم تنحنحت: "أخبرني فورا ما تعرفه!".

قال: "كما قلت، بعيدا في المضيق. وضعوا مراقبين في استيريز وعلى لسان الأرض الشمالي في ساموس، كما سيَّروا دوريات في المضيق وعلى التلال".

أراحه أن يتمكن من التعامل مع الحقائق، والأفكار الواقعية.

قال: "هنالك عشرون منهم على استعداد للقبض عليه".

"أوه!".

انقبضت ثم ارتخت يداها، وانقبضت وارتخت.

نظرت العجوز إلى الأرض، وجمعت شتات نفسها.

وقف ميدون حيث كان؛ ليس هناك من مجال للتراجع. حاول ذلك بانحناءة، لكن السيدة لم تلحظها؛ كانت تنظر إلى نقطة خلفه، فوق الباب.

قالت: "هل يورياكوس طرف في هذه الخطة؟".

"أجل".

"و.. وانتينوس؟".

قال وهو مستعد لأن يلوذ بالحقائق، ليربط رهبته وفزعه بالأسماء: "أجل، وامفينوموس وكل الآخرين".

"أوه!".

فكر: هذا ما يحدث حين تطعن صدرك بخنجرك. لن تستطيع كبح جماح اليد التي تحمله، لكنك تعترض على السكين برغم ذلك.

فتحت يوريكليا فمها، لسانها الهرم تحرك فوق شفتيها الذاويتين؛ حركت قدميها وكأنها ستخطو خطوة، لكنها لم تقرر في أي اتجاه. الآن رفعت يديها مرة أخرى، وضغطت راحتيها معا، واستعادت توازنها.

قالت: "يستطيع ميدون الإبحار بمركب والجري".

أدارت بينلوبي ظهرها للنافذة؛ غمغمت شيئا، ثم قالت بصوت عال:

"أولا أخذته 'هو' - الآلهة أخذته. ثم أرسلت علينا أسرابا من القوارض، والجرذان، والجراد - غزو زوس! وبعد ذلك تريد تدميره، 'الصبي'، ابني الصغير. تريد أن تمحو حتى اسمه! وبأية أدوات؟ انتينوس ويورياكوس!".

التفتت إليهما فجأة بحيث انكمش ميدون وتراجع فصدم عقبه بالعتبة وكاد يسقط. أما يوريكليا العجوز فتراجعت خطوتين لكنها حافظت على توازنها.

صرخت بينلوبي: "لا أرغب بذلك! لن أوافق! لن أسمح به! لسوف..".

قالت يوريكليا: "يا سيدتي، بمقدور ميدون الإبحار بمركب والركض. فهو يملك رئتين قويتين وزوجا من الأرجل السريعة".

قالت الزوجة: "يجب أن نبعث رسالة إلى ليرتيز!".

تقدمت العجوز خطوتين متزنتين نحوها؛ استعادت رباطة جأشها كلية، واسترجعت إرادتها وتصميمها وقدرتها على التصرف.

"يجب ألاّ نزعجه يا سيدتي. فهو عجوز؛ بحاجة لأن ندعه يعيش بأمان. ليس بمقدوره فعل شيء".

قالت بينلوبي بصوت زاعق تقريبا، وقد حل الغضب محل يأسها: "هل تقدمين لي نصيحة الآن، مزيدا من النصح! ألا يكفي أنك لم تخبريني بمكانه، عشرة أيام ولم تنطقي بكلمة!".

قالت العجوز: "يا صاحبة الفضيلة. اقتليني أرجوك. اطرديني. لكن لا أستطيع نسيان أن تيليماكوس يحاول الآن إنقاذنا جميعا. من يعلم ماذا سيفعل نستور أو منيليوس، حين يسمع كل منهما الحقيقة من شفتيه! وحسب علمي، بمقدور ميدون أن يبحر بقارب ويركض".

شعر ميدون بضعف في ركبتيه، لكنه انحنى باحترام عميق. وما زال شابا تراوده آمال عريضة.

قالت يوريكليا: " اغسلي الدموع بالماء البارد يا سيدتي - وعلى السيدة أن تلبس ثوبا آخر؛ فتغيير اللباس يفيد كثيرا حينما يشعر المرء بالانزعاج. وبعد ذلك، على السيدة أن تدخل إلى أصغر حجراتها وتصلي إلى زوس، إضافة إلى صلاة طويلة وودودة إلى أثينا. ولسوف أهتم بالباقي".

قال ميدون وهو ينحني انحناءة أخرى: "لكن..".

قالت يوريكليا: "لسوف أجهز القارب والمجدفين؛ وكل ما عليك فعله أن تظل على أهبة الاستعداد".

قال ميدون وما زال منحنيا نصفين: "لكن، أين سأجده؟ لنفترض أنه ليس في بيلوس أو إسبارطة؟".

نظرت إليه العجوز "من فوق لتحت".

قالت: "يبدو أنك لست متدينا كفاية يا ميدون. أين ستجده؟ أسأل أثينا، هذا ما أفعله عادة في الحالات الصعبة. لكن يجب أن تساعدها بالجواب. فهي تريد ذلك".

خرجت بينلوبي ببطء من الغرفة، وثوبها يتجرجر على الأرض خلفها. انكمشت من الذعر.

قالت يوريكليا: "ميدون ستغلق فمك وتفعل ما امرك به. وبعون الآلهة وبقليل من الذكاء عملت الترتيبات اللازمة لاستخدام ذلك القارب الرابض في ديب هيفن جنوب الجزيرة. وهو قارب بعشرين مجدافا وأحسب أن أحدا لن يلاحظه حين يخرج إلى البحر. لسوف تبدأ هذا المساء، حين يحل الظلام. قل لهم فقط بأنني أرسلتك".

أصغت: ما الذي يفعلونه في القاعة؟ يتشاجرون ويتشاحنون؟

قالت: "أشفق عليهم حين يعود إلى دياره. أعرف نستور ومنيليوس كليهما".

بدت الأمور أكثر إشراقا بالنسبة إلى ميدون؛ في تلك اللحظة كان ولاؤه ـ تقريبا وليس تماما ـ غير مقسم.

قال: "لربما سيكون مع تيليماكوس حين يأتي أسطول كامل وجيش جرار". وبدا مسرورا تماما بدوره المهم، وسعيدا بنفسه، بخياله المبدع، وقدرته على التصرف في اللحظة المناسبة وبالأسلوب الصحيح الذي برأ نفسه به أمام "الزوجة". قال: "هؤلاء المقيمون على البر يعرفون تماما ما يفعلون".

قالت العجوز: "أقصد اوديسيوس".

غدا ميدون عميلا مزدوجا ـ إلى حد ما ـ مرة أخرى.

"هل أنت متأكدة من أنه سيعود يوما ما؟ هل تعلمين؟".

قالت يوريكليا: "لا. لكن أتصرف كأنني على علم أكيد بعودته. تلك هي الطريقة الوحيدة. الشيء الوحيد الممكن. هيا الآن".

قال ميدون: "في الواقع، لست بحارا جيدا".

ـ ب ـ

جسمه كله كان متألما ومتيبسا حين أفاق.

فكر في الأمسية الفائتة أن عليه أن يخبرهم باسمه، لكن لم تسأله لا الملكة ولا الكينوس ولم يرغب هو بالمخاطرة والاستعجال. هنالك أيضا أسباب أخرى وراء إحجامه وتردده. استلقى صاحيا على سريره في الحجرة المجاورة للقاعة الكبرى، وحاول مراجعة

الوضع. لم يكتشف حول الظروف السياسية، ولم يعرف في أي مجال نفوذ وجد نفسه فيه الآن. ما هي التطورات التي أعقبت الحرب الكبرى؟ هل يتعاطفون مع طروادة هنا في سكيري؟ ما هي علاقاتهم مع ارغوس، وإسبارطة، ومملكة الجزيرة؟ وبقدر ما استطاع أن يفهم، لا بد أن هذه السكيري المجهولة، حيث تقطعت به السبل، تقع في الشمال قرب ساحل ثيسبروت، لكن لم يعرف شيئا عن عادات وتقاليد السكان - أجل، من المؤكد أنهم طيبون؟ - وعن مفهوم سكان الجزر هؤلاء عن الوضع العالمي، وموقف زعمائهم. لو سئل، لأجاب حتما وأعلن اسمه. هل كان الملك جادا حين وعد بنقله إلى دياره؟ تأكد من أنهم قد كونوا رأيا حسنا عنه إلى حد ما. بل أراد أن يهبني ابنته! وهي سترغب بذلك! لكن من المؤكد أن الملك كان ثملا.

لم يشاهد نوسيكيا طيلة فترة الظهر؛ واجه سكان البلدة. استدعاه الكينوس حالما نهض من السرير واستحم، وأخذه إلى السوق. كان هناك ما يشبه الاجتماع، عرض. أعارته أريت مزيدا من ثياب أبنائها؛ بدا على العموم أنيقا، وظن هو نفسه أن منظره كان مؤثرا.

انتشر الخبر بالطبع. لم تكن المدينة تضم عددا ضخما من السكان كما ظن حين دخلها عند الغسق مساء البارحة، لكن برغم ذلك تجمع حوالي مائتين أو ثلاثمائة من أهلها، باستثناء العبيد والخدم، ووقفوا منتظرين في السوق الصغيرة قرب الميناء. أظهر الخليج الصغير أن البلدة تمتلك عددا وفيرا من السفن: ربضت واحدة لصق الأخرى على الرمل؛ بعضها مراكب سريعة، وفي منتصف الخليج رست ثلاث سفن تجارية عريضة البطن حمراء الجانبين. بيوت البلدة صغيرة متلاصقة، وأسوارها من الحجارة المكسوة بملاط رديء، لكنها ضخمة وعالية. كل شيء في البلدة بدا وادعا وآمنا. لا تكاد تجد بين سكانها من يحمل السلاح. الأطفال تراكضوا هنا وهناك، والكلاب نبحت لكن ليس بضراوة، والشمس بدأت ترسل أشعتها اللاهبة.

خطر له فجأة: بإمكان المرء أن يعيش هنا.

* *

بإمكانه أن يعيش هنا. هكذا فكرت وهي تقف أمام نافذتها وتراقب أباها، وأشقاءها، والغريب، وهم يعبرون على الباحة الأمامية والبوابة الخارجية باتجاه البلدة.

كان يرتدي واحدة من عباءات لوداماس الخفيفة الحمراء. بدا عريض المنكبين، لم يكن فارع القامة لكن قوي البنية - أجل، أجل، بدا أطول قامة اليوم، الآن بعد أن تمكن من النوم في سرير. خطر لها: حين يفكر المرء بما عاناه!

نادت أمها: "نوسيكيا!".

"نعم!".

قالت أريت وهي تدخل الغرفة: "هناك أمر أريد التحدث معك حوله".

* *

كان خطاب الملك وجيزا. أشار إلى أن من النادر أن يأتي الغرباء إلى هنا، وكيف اعتادوا أن يكرموا وفادتهم" تبعا لعاداتنا وتقاليدنا"، حسب تعبيره الرسمي. "هذا الرجل، هذا الغريب المحترم، وصل البارحة. أبحر في اليم، وهو في طريقه إلى موطنه، إذ يعيش على جزيرة في الجنوب، ايثاكا، التي سمعتهم عنها بالطبع. وعدت بنقله إلى دياره. الآن، أريد سفينة جيدة وخمسين مجدفا".

اعتدل "الرحال" في وقفته كي يبدو مهيبا. كان يجب أن أخبرهم باسمي - لربما هو معروف هنا؟ أتساءل هل هذه هي اللحظة المناسبة للإفصاح عنه؟

لكنه أحجم؛ علاوة على أن الأمر كله قد انتهى.

قال الملك وهو يشير إلى المجدفين بين الرجال الواقفين: "أنت، وأنت، وأنت، هل تذهبون معه؟".

"أجل".

"أجل".

"أنا لدي عمل".

قال الكينوس، حين اختار كل الرجال الذين احتاجهم: "ستكونون على أهبة الاستعداد في الصباح، إذا رغب ضيفنا؟".

الآن، عليه أن يفصح عن اسمه. كان على رأس لسانه، لكنه أدرك أن الأمر سيبدو سخيفا، حيث لم يطلب منه أحد ذلك. لم يسألوه. وكل الناس هنا افترضوا دون ريب أن الملك قد عرف اسمه؛ لربما يكون من غير اللباقة أن ينطق به الآن. خلال عودتهم سيرا على الأقدام، حاول أن يجد الفرصة للبوح به. كان على رأس لسانه عدة مرات.

قال الكينوس بتهذيب، ولمعت عيناه السوداوان ببريق الود والصداقة: "اليوم هو عيد لنا. لا نضحي كثيرا هنا، لأننا نعتبر أن من الواجب عدم إفساد الآلهة بالتدليل والقرابين، لكننا نفكر عادة بالآلهة الجليلة حين نأكل".

ربما كانت نكتة - ضحك الملك؛ أو قد تكون تعبيرا عن دين فاضل خيِّر.

فكر: بمقدوري العيش هنا.

سأل: "أي عيد هو؟".

"لتكريم.. ضيفنا. من عادتنا أن نفعل ذلك لأنك تلطفت بالقدوم إلى هنا".

قال: "أوه".

قال الملك: "أرسلنا في طلب ديمودوكوس، أفضل مغنينا - بمقدوره أن يغني أغنيات عظيمة عن الآلهة والحرب ببراعة".

عبروا الباحة الداخلية وفي إثرهم عدد من الضيوف.

الآن يجب أن أصرح باسمي.

"أنا..".

صاح الملك ولوح بيده: "أهلا!".

كانت الفتاة والملكة تقفان عند النافذة في الطابق العلوي. لوحت الاثنتان له؛ رد ملوحا؛ فكر: أجل، الفتاة حلوة، وصغيرة السن.

فكر: أجل، بمقدور المرء العيش هنا، لو لا.. مضى زمن طويل منذ أن ضاجع امرأة حقيقية من لحم ودم.

* *

قالت أريت: "إنها بالطبع فكرة من أفكار أبيك. ربما لم يكن.. أقصد شربا عدة كؤوس مساء البارحة".

اتكأت على النافذة.

"أمي، كم سيبقى هنا حسب ظنك؟".

"حتى الغد على الأرجح. لا أدري؛ ربما سيقيم فترة أطول. لكنه في عجلة من أمره على ما يبدو واضحا. نوسيكيا، هل ترغبين بأن يبقى مدة أطول؟".

قالت: "من الممتع معرفة اسمه".

قالت أريت: "يمكن سؤاله كما ترين، لديهم عادات غريبة في الغرب والجنوب".

"لكن من المؤكد أننا أتينا أيضا من الجنوب والغرب يا أماه".

"كان هذا منذ زمن بعيد".

"ومع ذلك، سيكون من المثير معرفة اسمه".

قالت الملكة: "سيعرف أبوك اسمه اليوم".

* *

كان ديمودوكوس في العقد السادس من العمر، وغزا الشيب لحيته. أصيب بالعمى وهو فتى في الحرب، وخلال العقود الثلاثة الأخيرة، جهد لتعلم الأغنيات التي ينشدها الآن بصوته الرفيع المتمتع بطاقة عظيمة. حينما كانوا يأكلون جلس وحده يدندن ويتمرن. ووضعت أمامه سلة من الخبز وكأس من الخمر. اكتظت القاعة الكبرى والباحة الداخلية بالضيوف؛ كان عيدا عظيما ستطول فعالياته على الأرجح. المستشارون/ حكام الدوقيات الاثنا عشر كانوا هناك، وكذلك كافة أعيان البلدة.

لاحظ مرة أخرى قلة عدد الذين يحملون أسلحة.

أتته الفكرة حين وصل ديمودوكوس إلى أغنيته الثانية.

الأولى كانت عن الآلهة. تفسير جيد للحادثة مع اريز، وأفروديت، وهيفاستوس. كانت أغنية جميلة قديمة، لم تكن بالضبط أنشودة مديح أو اعتراف بفضل، لكنها أعطت صورة أوضح عن الآلهة ومواطن ضعفها، وبالتالي قربت الإلهي من البشري. سمعها مرارا من قبل، في شبابه وفي المعسكرات الحربية، وكانت بالفعل مسلية للجنود. الإله/ الحداد، الأعرج، الغيور، الصَنّاع، صنع فخا، وحين استلقت زوجته مع اريز على السرير، سقط الاثنان فيه.

بذل ديمودوكوس جهده لتبدو الأغنية نظيفة ولائقة قدر الإمكان، لأن أريت والنساء الأخريات كن واقفات يستمعن في الطابق العلوي.

قال الكينوس: "والآن الأخرى.. أتعرفها؟".

حينذاك خطرت لـ"الرحال" الفكرة، ورأى طريقة ممكنة لتنفيذها.

* *

كان المغني يغني عن رجل يدعى اوديسيوس والبطل الشهير أخيل.. تشاجرا في

احتفال عيد تقديم الشكر، الذي أقيم في مكان ما خلال حرب الإغريق الكبرى ضد طروادة. حين سرد ديمودوكوس - أو لفق - كل الكلمات الفظة التي وجهها كل من الرجلين للآخر، أتى صوت قهقهة من الموائد البعيدة، أجل، بعض الشبان ضحكوا بصوت عال وابتسم الملك والمستشارون. مما ألهب حماس المغني وأعاد وكرر أسوأها: بهيمة نتنة، خنزير مخنث، ريفي أخرق، فاسق زان، جرذ المرحاض، إمبراطور ايثاكا، بطل غرفة النوم، ابن عاهرتين، آكل السمك، والعديد من الأسماء الأخرى الأشد قسوة وخشونة وفظاظة، الأمر الذي أضاف نكهة إلى جو المرح السائد. ثم وصف بكلمات أكثر احتشاما ولياقة إلى حد ما كيف تسلى أغاممنون بالشجار، لأن مبدأه كما عرف الجميع كان "فرق تسد" إذا دعت المصلحة النفعية، و"وحد تسد" إن كانت الوحدة في مصلحتك: المهم أن تسود وتحكم مهما كان الثمن.

لاحظ "الرحال" أن الكينوس يرمقه بنظرات جانبية طيلة الوقت. وعندها قرر تنفيذ فكرته. التقط طرفا من عباءة لوداماس الأرجوانية ووضعها للحظة أمام وجهه. لم تكن مجرد مسرحية: في الحقيقة الفعلية، تأثر قليلا، لكن كانت إلى حد ما تمثيلية ومعظم الإيماءات والإشارات متعمدة ومقصودة - والتعبيرات أيضا. تذكر فجأة شيئا آخر: اكتسحته الذكرى، فتحت الأبواب الموصدة في ذهنه. تذكر الحرب بكل أحداثها الكريهة البغيضة. لبضع ثوان زكم أنفه الدخان المتصاعد من مدينة بريام المحروقة، رائحة النيران النفاذة، رائحة الملابس المحترقة، والشعر المحترق، واللحم البشري المشوي، رائحة الدم، وغائط الموتى والمحتضرين، رائحة كل ما دعاه أغاممنون في واحدة من لحظاته البلاغية المنمقة، بعظمة الفاتحين، ومجد المنتصرين. لكن لم تكن روائح تلك الثواني وحدها هي التي نزت الدمع من عينيه. ففي خضم تلك الموجة الكاسحة من الذكريات، أدرك بأنه عثر على فرصة رائعة ليكشف عن اسمه بأسلوب نبيل، بل مقدس، ولم تغب عن باله حقيقة أن الكينوس ربما حزر من هو، أو على أية حال كان خلال الساعات القليلة الماضية في الطريق ليحزر بأنه واحد من تلك الثلة من الرجال المشهورين، "المشهورين"، الذين خاضوا الحرب، ولهذا ألح إلى المغني كي يغني تلك الأغنية بالذات. وهكذا، في خضم كربته شعر ببعض الرضا نتيجة الثناء والتقدير. لكنَّ هناك، كما قلنا، دموعا في عينيه. وخلف كل ذلك، تذكر الرحلة الطويلة التي انتهت بالأمان معها، الواحدة الوحيدة حقا، كاليبسو.

ربما لاحظ الآخرون، أو لم يلاحظوا. لربما حسبوا أنه يتمخط أو يمسح قطرة نبيذ عن خده، أو يخرج شعرة رفيعة من زاوية عينه.

* *

لمحته وهي تمر أمام الباب. جلس شبه محتجب خلف جسم أبيها الطويل وكان على وشك أن يرفع طرف عباءته؛ رأت وجهه كاملا، كان مستغرقا في التفكير، أجل، تعلوه أمارات الكآبة.

"نوسيكيا، تعالي الآن".

"لحظة يا أماه".

كانوا يضحكون هناك؛ سمعت بعضا من الكلمات الفظة.

سارت أمها أمامها إلى ذلك القسم حيث تقع غرف المؤونة؛ حملت المشعل بنفسها عبر الدهليز المعتم. لم يكن قبوا، لكن نوسيكيا شعرت دوما أن المكان يشبه مغارة سحرية. إلى اليسار هنالك غرفتان تحويان الطحين، وجرارا نحيلة للخمر المنزلي، وأخرى طويلة للزيت، وعلى مسافة أبعد إلى اليمين تقع غرفة الأطباق والأشياء الثمينة. الرفوف هناك متخمة بالطاسات والزبادي والأقداح.

"هذه هي؟".

أخذت أريت زبدية فضية كبيرة: مرصعة بالمينا ومبطنة بالذهب. رفعت نوسيكيا المشعل بحيث تستطيعان الرؤية.

قالت: "لا.. لا أدري".

لم تنتبه أريت لذلك، بل وضعت الزبدية على الأرض.

"وهذه؟".

كانت هذه طاسة كبيرة من الذهب وقدحين ذهبيين أصغر حجما.

"ألا يعطي من هذه دوما؟".

كررت الابنة قائلة: "لا أدري حقا".

قالت أريت: "وهذه أيضا"، وأخذت زبدية ذهبية أصغر.

التقطت الاثنتان الأدوات وعبرتا الممر إلى مخزن الزيت. خلف الباب مباشرة هنالك خابية خاوية عريضة الفم.

قالت الملكة: "خذي".

وضعت الأقداح والكؤوس والطاسة داخلها، ثم وضعت الزبدية في سلة عند الركن ومدت فوقها بعض الأقمشة القديمة.

قالت: "أشعر في أعماقي بأنه سيهب أشياء كثيرة هذه الأمسية".

لم تجب ابنتها.

قالت الملكة: " يندم دائما على ما فعل فيما بعد ويظن أن من الأفضل أن نخبئها".

سكت الجميع في القاعة الكبرى ولم يأت صوت واحد منها. حين خرجتا إلى القاعة مرة أخرى توقفتا عند المدخل. في الداخل، كانوا جالسين في أماكنهم ذاتها، جامدين، كأنهم تحولوا إلى حجارة في مقاعدهم. جلس الكينوس منتصب الظهر، قبالة "الضيف" ناظرا في وجهه مباشرة. ديمودوكوس الأعمى كان فاغر الفم، يده اليسرى على أوتار قيثارته، كأنما كتمها فجأة. المستشارون/ حكام الدوقيات رفعوا رؤوسهم وحدقوا إلى الملك والغريب. تلألأت عينا لوداماس، وربض كأنه على وشك أن يقفز ويصرخ. وبدا أن أشقاءه ينتظرون إشارة منه.

قال الضيف: "أجل، أنا. أنا هو اوديسيوس".

"أوه!".

قالت أريت: "انتظري هنا"، وأخذت المشعل وذهبت بسرعة إلى غرفة المؤونة. وقفت نوسيكيا حيث كانت وراقبت الرجل. يمكن أن يكون إلها. رن الاسم في أذنيها. سمعته من قبل؛ في إحدى الأغنيات. لوى عنقه، وحول عينيه نحوها، لا بد أنه رآها هناك في المدخل المفتوح شبه المظلم. انسحبت بضع خطوات. في الداخل، أخذ الرجال يتحركون ويتنقلون، بعد أن تحرروا من دهشتهم. المغني رفع يده ورنت القيثارة.

عادت أريت.

همست: "يجب أن نذهب إلى الطابق العلوي. علينا أن ننقذ أفضل الملابس أيضا. هذا هو اليوم الذي يهب فيه كل شيء".

همست: "أجل، إنه..".

سارت خلف أمها بعنع خطوات، لكنها توقفت عند أسفل السلم. سمعت همهمة الأصوات في القاعة الكبرى تعلو. عند أعلى السلم، وقفت أريت حاملة المشعل.

"هيا!".

صعدت الدرجات، وأخذت المشعل من أمها.

قالت: "سأعود بعد لحظة. سأذهب..".

عادت أدراجها ببطء، واجتازت الباب ومنه إلى الممر. فتحت بسهولة قفل باب غرفة الفضيات. لم تبق أمها شيئا على الرفوف؛ وكل ما تركته كان بعض الأقداح الذهبية العتيقة التي تهرأت مقابضها وزبدية فضية عادية اسودّ لونها.

وجدت البقية في مخزن الزيت، حشرت في زوج من الخوابي الخاوية ذات الفم العريض دستها خلف جرار طويلة اصطفت على طول الجدران. بحثن عن أفضل الزبادي والطاسات والكؤوس، تلك التي خبأتها أولا، ثم البقية، وحملتها عائدة إلى غرفة الفضيات ووضعتها على الرفوف.

حين رجعت عبر الباب باتجاه السلم، كان يتحدث إلى الرجال الحاضرين. لم تر إنسانا يشبه الآلهة مثله، برجولته، ووسامته، وحيويته.

* *

حين أعلن اسمه تملكه في البداية شعور هائل بالارتياح، ثم إحساس بالندم بعد ذلك مباشرة. الآن، لبسه اسمه، لم يعد "الرحال" ولا "أوتيس"، ولا "الغريب"، وعليه أن يتكلم، ويتكلم، ويتكلم، ويكشف ما بداخله أمام عالم البشر.

قال: "لسوف أخبركم عن رحلاتي".

-ج-

عرض منيليوس بتزويده بثلاثة خيول ومركبة جعله يشعر بدونية ساكن الجزيرة مرة أخرى. كان رأسه ثقيلا بسبب القطرات المصرية السحرية في الأمسية الفائتة أو من الخمر، وتطلب الأمر منه لحظة أو اثنتين لصياغة أجوبته. تورد وجهه، وهذا ما سبب له مزيدا من القلق والانزعاج.

قال: "ليست لدينا طرق في الوطن. ايثاكا.. جزيرة ماعز".

كانوا يقفون في الباحة الخارجية؛ امتدت أمامهم المدينة وما يحيط بها من حقول، وكروم، ومزارع زيتون، وفي الدائرة الأعرض حول السهل انتصبت الجبال في كل اتجاه. كانت الشمس في منتصف السماء، ومضى جزء من النهار.

قال منيليوس بنبرة ودية حارة، كأنه عمه أو صديقه الصدوق: "على أية حال، يمكنك البقاء بضعة أيام أخرى. فلست في عجلة من أمرك كما أفترض. وكما قلت، إن كان بمقدوري مساعدتك بأي شيء فأنا على أتم الاستعداد".

قال بيسيستراتوس آملا أن يقنعه بالموافقة: "بالنسبة لي ليس ثمة داع للعجلة".

فكر تيليماكوس محبطا: مساعدة؟ أعطني أسطولا، جيشا! لكنهم سيضحكون علي إلى درجة الازدراء إن ذكرت شيئا كهذا.

قال: "أفكر بهؤلاء في دياري".

لم يبد منيليوس أي اهتمام بالفكرة واستخف بإشارة تلغي نصف العالم.

"لا تقلق لذلك، ولسوف ترى!".

أتت هيلين من المنزل، وعبرت الباحة الداخلية، ثم اتجهت نحوهم. وضعت طبقة سميكة من مساحيق التجميل على وجهها؛ توهجت شفتاها تحت أشعة الشمس مثل جرح نازف.

انحنى تيليماكوس وبيسيستراتوس كلاهما.

"عم تتحدثون؟".

قال منيليوس: "يفكران بالرحيل. كنت أفكر بأن علينا إبقاء هذين الشابين معنا لعشرة أيام على الأقل. الآن وقد انتهى الزفاف وكل شيء، يمكن أن نظل وحدنا!".

ثم خطرت هذه الفكرة على بال تيليماكوس: ليست هذه مدينة كبيرة على الإطلاق، بل مجرد بلدة ريفية. الأشياء العظيمة هناك، في مسينا أو كريت!

قال: "علي أن أفكر بأمي، الأيام تمضي، وهي هناك وحدها برغم كل شيء مع.. هؤلاء الناس. لم أكن أنوي الابتعاد عنها طويلا. في الحقيقة، أتيت على عجل إلى هنا لأعلم إذا ما كنت تعرف أي شيء عن أبي".

قال منيليوس: "سيكون بخير، ولسوف ترى. كل شيء سيكون على خير ما يرام في النهاية".

بدا غامعنا.

"حسبت أنني ربما أحصل على .. أجل، بعض المساعدة، من أصدقاء والدي القدامى، هذا ما قصدته".

ألقى عليه منيليوس نظرة سريعة، ثم على زوجته.

قال: "بالطبع سوف تلقى العون والمساعدة، طبعا، طبعا، طبعا، لكنكم لا تستخدمون الخيل في ايثاكا! لكنني لست من يترك ابن اوديسيوس يمضي في طريقه خالي الوفاض!".

فكر تيليماكوس: لا فائدة ترجى منه.

قال: "كنت لطيفا معي".

قال منيليوس: "وهذا ما خلته. أمتعتنا زيارتك لنا!".

قالت هيلين: "ويجب أن تأخذ هدية لطيفة إلى أمك أيضا".

انحنى لها.

مالت إلى الأمام بسرعة وقرصته من أذنه، أدهشته أظافرها الحادة. وجهها الأبيض المعطر ضحك قرب وجهه، وأمكنه تفحص عينيها؛ كانتا لامعتين لكن ميتتين نوعا ما:

"وآمل ألا تندلع أية حرب يا بني! واخجلتاه! لا، لا للحرب. عدني بذلك! هذا أسوأ شيء! وعلى أية حال نتمنى أن تبقى عندنا يوما آخر".

سمع الحدة في صوتها. ورغم أنه خفيض وودود، إلا أنه بدا كما لو أنها صرخت من شدة الغضب والخوف.

قال وتورد وجهه خجلا مرة أخرى: "أجل، أعتقد أن بمقدوري البقاء يوما آخر، لكن..".

في ساعة متأخرة من إحدى الأمسيات وصل ميدون حاملا رسالة.

-٢٥-
تحت سطوة الراوي

كانت قصة طويلة تلك التي رواها؛ دامت ساعات عديدة، وامتدت طيلة المساء، وهزيعا من الليل.

شعر عدد من مستمعيه الأصليين الأربعة والخمسين أنها غدت مطولة أكثر مما يجب، فتثاءبوا، وأغفوا، وخرجوا من الحسبة؛ بينما غادر آخرون إلى بيوتهم. قدم ضيوف جدد، تجمعوا في الباحة الخارجية، في ظلمة أول الليل وبرودة المساء، وانسلوا خطوة خطوة إلى الباحة الداخلية، وانتظروا في المدخل العريض المفضي إلى القاعة الكبرى، حيث جذبتهم الحكاية برفق إليها، إلى لبها وجوهرها ومعينها. بدا وكأن البشرية جمعاء قد جذبتها إلى هناك سطوة "الراوي"؛ كأن البشر المتحضرين قد عادوا أدراجهم إلى مصدر بدائي يسمعهم قصتهم، ملحمتهم البطولية البعيدة الاحتمال. كثيرون انتظروا دورهم للدخول والاستماع، والحاجب ترقب إشارة من الكينوس تدل على توفر أمكنة لمزيد من الضيوف؛ وأولئك الذين انسلوا خارجا، المتعبون المرهقون، الذين "قصفتهم" الحكاية، وشغلتهم أمور أخرى، أظهر شيء في نظراتهم المحدقة وأصواتهم الهامسة أن الانتظار وسماع أكثر من مجرد بضع كلمات، وبضعة أصداء لصوت "الرحال"، أمر يستحق العناء.

هنا، على جزيرة سكيري، جمع الحقيقة في يده، حقيقة العالم الخارجي الفظة الوحشية، بجباله وبحاره. نتفها نتفا، ونثر النتف على شكل حكايا. طوافه كان طويلا ومترعا بالأتراح والأفراح والعواطف والأهواء التي لم يرغب بالاعتراف بها؛ والتي ربما لا يرغبون بأن يبتلوا بها في حياتهم. لذلك يجب أن يعيد سبكها، لا في تماميتها كصورة عامة، بل في تفاصيلها. يجب أن يعزو للآلهة معظم ما حدث ويضفي عليه

هالة من الألوهة بحيث يصدقونه. ارتقى مرتبة متفوقة عليهم بفضل سطوة حياته المغامرة، وتصويره في الأغاني، وبزه الآخرين في معرفته بالمجهول. استغل سطوته النافذة لأنه بحاجة لعون سكان سكيري للخروج من هناك إلى مكان آخر، مجهول أكثر منه. احتاج عونهم إن أراد الوصول إلى حيث تقوده الآلهة، والتحول إلى ذاك الشخص الذي أمرته أن يكونه، حين أخرجته من جزيرته، وحكمت على قدره المأساوي أن يجعله أداة إلهية لتحقيق العدالة، جلادا ينفذ قضاءها المحتوم. هل عرف ذلك؟ أجل: عرفه.

وجلس في مستوى أدنى منهم بكثير. تساوى في المرتبة مع المغني العمي الذي يحتاج آذان مستمعيه الصاغية ومشاعرهم الودية، إضافة إلى اللحم والخبز على المائدة كي يتمكن من العيش. السواحل التي رآها، وبدأت أسماؤها الآن تتلمس طريقها نحو وعي العالم - ليغيريس، تيرنس، كيرنوس، ساردوس، اوسونوس - تنأى عن المعقول والقابل للتصديق إلى حد أجبره على تقنيعها وتحجيبها وتغليفها بالأسطوري الخرافي والغريب الاستثنائي لكي يصدقوا أنها موجودة.

مال إلى الأمام على المائدة الخشبية الصقيلة ولمس بأصابعه المشوهة الكأس المترعة بخمر رديئة لها حلاوة العسل ونكهة الزبيب؛ وتابعت العيون حركات يديه حين رفعهما ليشير إلى ما هو موجود في النأي.

حمله ما شعروا به من تشويق وإثارة واعتقاد بعيدا عن الواقع الذي خبره طيلة عشر أو عشرين سنة، إلى واقع أرادوا للمحارب ذي الاسم الشهير أن يكون قد خبره. كان بمقدوره أن يقول إنه نزل على جزر بركانية أو على شطآن صدعها فوران البراكين، حيث تفرست قممها الميتة أو الهاجعة في السماء مثل عيني كاليبسو، وحيث قذفت البراكين الحية والناشطة حممها عليه وعلى رجاله. لن يصدقه مستمعوه، لكن حين قال إن الجبال التي تسعر لهيبها كانت آلهة تحمل مشاعل بيديها، وإن الحجارة لم تقذف من الفوهات بل رمتها أيد عملاقة، استعدوا لتصديقه ومتابعة الحكاية. حين قال إن الرابية الغابية شديدة الانحدار على "الشاطئ الطويل" سكنتها ربة نومت رفاقه بشراب مخدر ومسخت البحارة خنازير ناخرة، تخيلوا أنهم يرون حقيقة ما حدث بعين اليقين. وهكذا، لم يستطع في اللحظة التالية أن يقول إن خمرها كانت قوية مسكرة وأكثر قدرة على إثارة المشاعر البهيمية لدى البشر من سواها، وإن النبتة الغامضة التي أعطاها له

هرميز - كما قال - كي لا يمسخ كالآخرين. كانت "رجل الإوز" التي تنمو في المياه المالحة، وهي نبات عادي يمكن أن يجمعوه بأيديهم من أي شط. لم يستطع أن يقول إنه يحتوي على مواد تقي المرء من الشلل الناتج عن الإفراط في تناول الكحول. وحين تحدث عن المعبر الصعب في المضيق بين الجزيرة الثلاثية الشعب، التي ربما هي الجزيرة المثلثة، وبين المكان الذي غزوه على الشاطئ وارتكبوا فيه أعمالا مشينة، كان من الأسهل إخبارهم بأنهم ذبحوا قطيع هليوس ذاته، لأن المستمعين من سكان هذه الجزيرة عرفوا قوة الشمس ويمكنهم تخيل غضبة هليوس. وحين حول الفتيات المغنيات إلى "السيرانات" الأسطورية، أصغوا إليه بانتباه أشد وترقب أكبر مما لو قال إن الفتيات كن بنات مزارعين أو رعاة، وكذلك فعلوا حين تناول العلاقات - القوية أو الواهية - مع السيدة المهيبة التي دعاها سورسي، وحولها لتسلية الحضور إلى الساحرة المشعوذة "سورسريز".

أعطاهم ما أرادوا. حارب بالكلمات، والصوت، والإشارات لتحقيق غايته، في سبيل رحلته إلى الوطن، إلى المجهول. دفعه استعجاله الداخلي نحو الأهداف التي لم يرغب حقا بالوصول إليها. رغب بإرضائهم، واستمتع بجلوسه هناك، أراد أن يقهرهم، ولذلك حول العواصف التي واجهها في تلك المناسبة إلى تصفية حساب شخصي بينه وبين ايلاس، إله الرياح، وإلههم العظيم، الذي يعتبر الكينوس نفسه قريبا له - بوسيدون.

أخبرهم كيف نهب هو ورجاله بلدة ازماروس في بلاد السيكونيين في طريق عودتهم من طروادة. وصف لهم كيف دمروا المدينة حتى سويت بالأرض، وقتلوا البالغين القادرين على حمل السلاح، وسبوا النساء، وحملوا معهم أسلابا ضخمة، وكيف أعطى رجاله لأنفسهم عطلة، وسكروا وانهمكوا في ذبح القرابين من ماعز وثيران، في حين استدعى السيكونيون التعزيزات من الداخل. لاحت مركبات العدو الحربية ومشاته مع أول ضوء في الفجر؛ دامت المعركة طيلة النهار وانتهت بفرار الإغريق إلى سفنهم بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة. أخبرهم عن القتال، مترددا، محجما، كأنما لم يشارك فيه بنفسه بل سمع عنه، أو ربما شهده عن بعد، وقال إنهم خسروا ستة رجال من كل سفينة، أي قتل واختفى ستة وسبعون (لأن لديهم اثنتي عشرة سفينة)، وإنهم نادوا على كل

رجل ثلاث مرات، أي أنهم نادوا مائتين وست عشرة مرة، ولكن ربما انحصر مجموع الخسائر في ستة من أصل اثنين وخمسين رجلا كانوا على السفينة التي كان هو قبطانها. لربما بالغ إلى هذا القدر كي يستحوذ على مستمعيه ويظهر لهم مدى الأخطار التي حاقت بالرحلة، خوفا من عدم إدراكهم لحجمها.

أخبرهم عن آكلي اللوتس، الذين وصلوا إلى شواطئهم بعد إبحار دام تسعة أيام بلياليها من العواصف، وكيف جرفهم التيار بعيدا إلى جنوب ماليا ـ هؤلاء الطيبون الذين يأكلون التمر ويزدرون الخبز واللحم، وذلك الشعب الناعس الودود في الجنوب، على ساحل السمر والسود حيث ينمو النخيل فيما وراء المستنقعات. العديد من رجاله أرادوا البقاء هناك. تعبوا من الحرب، بل ملوا الحياة التي سيعودون إليها، ومن أجل إقناعهم بالعودة معه توجب عليه تقييدهم وجرهم إلى السفن.

ثم سقطوا في قبضة البحر. قال: "يد بوسيدون القوية"، ولم يكتف بمجرد القول: "الريح هبت بشدة" أو أن "هناك أمواجا مزبدة". قال إنهم قُذفوا، وتشتت شملهم، وأغرقوا، وحملتهم قوى إلهية مقدسة تريد الشر لهم لأسباب ليس لها تفسير. جرفهم التيار إلى أقصى نقطة تقع إلى الجنوب من مسقط رأسهم (تبين فيما بعد أن ذلك حدث بعد زيارتهم إلى السيكونيين)، جنوب سيثيرا، وربما جنوب كريت، ثم جرفوا غربا ـ كما قال ـ أسفل الجزيرة الثلاثية الشعب التي ربما كانت الجزيرة المثلثة. بين حين وآخر، كان يعود إلى قصته ويضيف تفصيلا صغيرا. بعد رشفة أو رشفتين من النبيذ، تذكر كيف حاولوا الوصول إلى الميناء في سيثيرا، لكن بوسيدون وايلاس منعاهم، ولذلك جرفهم التيار إلى أرض آكلي التمر حيث رغب كثير منهم في البقاء. ثم وصلوا إلى بحر ساردوس، ومنه إلى بحر سايرنوس، حيث تحطمت إحدى عشرة سفينة من سفنهم على أيدي مردة يعيشون على "صخرة اليمامة" في جزيرة ساردوس ـ دعاهم الليستريغونيين. قذف المردة الخليج بصخور ضخمة، فتحطمت السفن وتمزقت إربا إربا، ثم تصيدهم المردة، بمذار وحراب عملاقة والتهموهم بعد ذلك؛ بينما نجت سفينته ورجاله. حدث هذا في أقاصي تخوم العالم، بعيدا باتجاه "المساء"، حيث تغوص مركبة هليوس تحت حافة الماء.

هنالك كثير من الغموض في قصته. عرفوا بأنه كان يتحرك خارج حدود العالم

المعلوم، حيث لا تأتي إلا الآلهة. لكنه أخبرهم عن عالم ذوي العيون الدائرية، أرض السيكلوبيين، بحيث يتخيلونه ويرون بأم أعينهم "السيكلوب"، ذلك العملاق بعينه الدائرية الواحدة في منتصف جبينه، وابتسامته الشريرة الساخرة. صدقوه لأن ذلك جزء من قواعد الرواية والسرد، كما حفرتها كالوشم في أذهان البشر أيدي زوس وأثينا. صدقوا، لكن ليس إلى حد الفرار والاختباء أو الانسحاب من أمام هذا الرجل الذي أثار مثل هذا الغضب العارم في صدور الآلهة، وأنصاف الآلهة، والعمالقة. اكتفوا بالارتجاف ولكز بعضهم بعضا، في حين أن أولئك الذين وقفوا بعيدا في عتمة الباحة الأمامية سددوا نظرات عجلى على ما حولهم.

لم يتمكنوا من متابعة مسار طوافه وتجواله على الدوام؛ فهو يجري في اتجاهات شتى. سمعوا أسماء الجزر التي لم تكن أسماء، بل مجرد رموز تعني أن الجزيرة لم تكن كبيرة، "جُزيْرة"، جزيرة ماعز صخرية، مثل نيسيدا، أو كانت كبيرة، مثل تريناكيا أو تريناكريا - وقال إن الجزيرة بدت مثل رمح ثلاثي الشعب، أو مثلث، وبإمكانهم اختيار أيهما. سمعوا عن العملاق ذي العين الواحدة، بوليفيموس، كاره البشر، وفسروا اسمه على أنه "المغني"، أو "المهذار"، أو يعني خرير الماء، وفي النهاية أدركوا أنه يعني رجلا يصرخ غاضبا، "عملاق الجبل"، في كهف بعيد حيث يرعى قطيع ماعز بشعور طويلة وخراف بصوف سميك. شاهدوا أشجار السنديان والصنوبر الضخمة التي وصفها، وسمعوا خرير المياه التي تلطم الصخور على الشاطئ، وأصوات الصرير والحك على الحصى حين سحب الرحالة مراكبهم في المرافئ؛ سمعوا صوت المطر يغدق خارج المغارة حيث جلس أسرى العملاق، وهدير العواصف، والخطوات الثقيلة عندما أتى "الخطر"، وصرخات الرجال حين حطمتهم قبضة القدر الجبارة، وصلواتهم وتنهداتهم، كما سرهم سماع صيحات الانتصار حين خدع بوليفيموس. كان بمقدوره أن يقول: إنها أرض البراكين. لو فعل، لذهب كثيرون إلى بيوتهم وناموا في أسرتهم بعد أن يقولوا لبعضهم بعضا في ظلمة طرقات المدينة: أراضي البراكين، أليس كذلك؟ حسنا، ما الغريب في الأمر؟ ذهبوا إلى هناك وشاهدوا بركانا يطلق حممه. سمعنا عن هذا من قبل. هيفاستوس وبوسيدون تقلبا في نومهما وبصقا حجارة ونارا من الجبال أو البحر. نريد أن نسمع عن المآثر البطولية الحقيقية، وإلا لن يكون هناك معنى لوقوفنا وانتظارنا

هناك، من الأفضل أن نعود إلى بيوتنا ونلعب بالكرات الرخامية الصغيرة مع أطفالنا، ونحك ظهور خنازيرنا في الزرائب.

قال:

"بدا وكأننا سحرنا؛ كنا ننزل دوما في المكان الخطأ. جرفنا الموج إلى جزيرة العمالقة ذوي العيون الدائرية، التي تقع في الخليج العظيم قبالة 'الساحل الطويل'. الضباب خيم على كل شيء. نزلنا على شاطئ جزيرة صغيرة؛ أذكر أنه كان يوما مرهقا، كلّت فيه أجسادنا وجَهُمت وجوهنا. في صبيحة اليوم التالي تفحصنا الجزيرة الصغيرة عن قرب. كان هناك قطيع كبير من الماعز البري؛ اصطدناه بالنبال والرماح؛ معنا اثنتا عشرة سفينة، وحملنا تسعا من الماعز على كل واحدة، لكن حصلت أنا على عشر، لذلك كان اليوم جيدا من هذا المنظور. على الطرف الآخر من الخليج أمكننا رؤية جزيرة أصحاب العيون الدائرية؛ أتى منها دوي راعد وجلبة صاخبة، وارتفعت سحب دخانية هائلة من كهوفهم حين أشعلوا النار لطبخ طعامهم أو تدفئة أجسامهم، في المساء وهجت النار بحيث أضاءت السماء. في اليوم التالي أبحرت في سفينتي فيما تريثت السفن الأخرى عند الجزيرة الصغيرة وانتظرت. أردت معاينة جزيرة أصحاب العيون الدائرية عن قرب، ورؤية أي نوع من الناس يعيشون هناك. كان لدينا على السفينة مؤونة وافرة من الطعام والخمر - أقوى خمر ذقتها في حياتي، فقبل أن تستطيع شرب كأس منها عليك أن تخلطها بعشرين كأساً من الماء. هبت ريح معاكسة حين جدفنا نحو الجزيرة، على ما أذكر، لكن وصلنا إليها برغم ذلك. أول ما وقع بصرنا عليه كان فتحة كهف يقع في أيكة من أشجار السنديان والصنوبر الضخمة فعلا. أخذت معي اثني عشر رجلا وصعدنا إليه. عبرنا أولا ما يشبه فناء محاطا بجدران عالية. لم نجد أحدا هناك، لكن المكان متخم بالطعام وهناك حجر ضخم داخل الفتحة".

شرب وفكر، لكنه لم يدع الصمت يطول بما يكفي ليطرحوا الأسئلة.

"هناك كمية وافرة من الطعام في الكهف، مخزون ضخم منه. جبن وخبز في سلال كبيرة، دجاج وجدايا وخراف. أراد رجالي أن نأخذ كل شيء ونهرب. لكنني رغبت بلقاء قاطن الكهف، حسبت أنه سيعطينا هدايا بالتأكيد، وهو ما يفعله الناس عادة مع الضيوف. أشعلنا نارا، وأكلنا وشربنا وانتظرنا. في المساء عاد قاطن الكهف، كان

اسمه بوليفيموس، أضخم رجل رأيته في حياتي. احتشدنا بسرعة في أحد الأركان ـ الكهف بحجم سبعة منازل، هل ذكرت ذلك؟ ـ ولم يكتشف وجودنا على الفور. انشغل بإدخال قطيعه من الخراف والماعز قبل حلول الظلام ثم جلس وحلب الإناث مستخدما أواني وأحواضاً خشبية ضخمة. وبعدها دحرج الحجر الكبير ليسد فتحة الكهف. وهكذا وجدنا أنفسنا محتجزين هناك".

توقف ونظر إلى جمهوره. ما زال بإمكانه تعديلها، أم لا؟ الوجوه التي استطاع رؤيتها على ضوء نار الموقد توهجت بالتشويق والإثارة. كانوا ينتظرون معه في الكهف، جلوسا ووقوفا وفي كل مكان حوله، ليس فقط هنا في قاعة الكينوس الكبرى، بل في مغارة بوليفيموس أيضا. لو قال الحقيقة، لما استطاع تحمل خيبة أملهم، هكذا شعر. كان بمقدوره أن يقول: كنت أخدعكم، ما حدث في الحقيقة هو أننا وصلنا خلال تفجر البركان، كانت الحجارة تهتز حولنا، كنا حمقى حين زحفنا إلى الكهف حيث سقط حجر كبير وسد فتحته. تطلب الأمر منا ساعات عديدة كي نزحزحه بما يكفي لنخرج ونهرب إلى السفينة ونجدف مبتعدين. فقدت عددا من رجالي؛ رجموا حتى الموت.

لكن لم يكن هناك مجال للعودة إلى الحقيقة. رشف من الخمر وقال:

"جلسنا هنا وانتظرنا، ثم لمحنا. كان تقريبا بحجم سبعة رجال، حسنا، لربما عشرة، بدا كالطود. حين أشعل النار، رأيت أن له عينا واحدة. كانت بحجم الطبق وتوضعت في منتصف جبينه. نشق كالكلب ثم زمجر: هل من أحد هنا؟ صوته الهادر يصم الآذان. كان علينا أن نزحف خارج الكهف. قال: أي نوع من الحشرات أنتم؟ من أين أتيتم، وماذا تريدون؟ قلت: نحن إغريق، نحن أبطال عدنا من طروادة بعد أن أحرزنا نصرا مؤزرا وأبدنا المدينة عن بكرة أبيها. لكننا ضللنا الطريق، والآن نتوسل على ركبتيك العاريتين أن تساعدنا من أجل زوس. قال الكافر: زوس! لا أبالي بزوس. العجوز لا يعني شيئا بالنسبة لي. اين وضعتم مركبكم؟ فكرت: هذا ما لن أخبرك عنه. وقلت: لم يعد لدينا مركب ـ تحطم حين جنح على الشط. ثم قفز وأمسك باثنين من رفاقي، من أرجلهما وضرب مؤخرة رأسيهما بالصخر كما نفعل حين نقتل جروا. تهشم الرأسان وقتل الرجلان. كانت الطريقة على درجة من الوحشية بحيث لن أنسى المشهد

ما حييت. ثم قطعهما وبدأ بالتهام لحمهما النيء، مكسرا العظام وماصا النخاع. أجبرنا على مشاهدة المنظر؛ كنا في حالة يائسة. لم يكن ثمة فائدة من الهجوم عليه بسيوفنا: كل ما كان بمقدورنا فعله هو الانتظار. وهكذا جلسنا في الزاوية وانتظرنا. غط في نومه وشخر، لكننا لم نجرؤ على مهاجمته؛ ففي ذلك مخاطرة لا تحمد عقباها. بدأ عدد منا بالنواح، ظنا منهم أنهم لن يعودوا إلى ديارهم أبدا. وهذا ما حصل. في الصباح، حين استيقظ المارد وأشعل النار، نظر حواليه، وتلمظ، تذكرنا وأخذ اثنين آخرين من رفاقي، هشم جمجمتيهما والتهم ما فيهما، ثم بصق قطع العظم، وخلل أسنانه بغصن، وشرب إناءين من حليب الماعز وأكل ملء قبضتين من الجبن الدسم. حين انتهى، تجشأ فارتج الكهف وتشقق السقف وخرج الدخان من فتحة في أعلاه. كنا كمن أصيب بالشلل ولم نستطع فعل شيء سوى أن نسعل ونرتجف. ثم دحرج الحجر بعيدا عن مدخل الكهف وأخرج الخراف والماعز، ووضع صخرة ضخمة أمامه قبل أن يذهب - وجلسنا هناك".

فكر، وفكر، ثم وجدها:

"لكنني لست من النوع الذي يستسلم بسهولة. بحثت في الكهف ووجدت عمودا في مكان حظيرة الخراف. كان عبارة عن جذع شجرة تقريبا. حين أكلنا - طلبت من رفاقي الثمانية المتبقين أن يأكلوا وجبة جيدة لتقوى أجسادهم - خططت لما كنا سنفعله. وحين عاد بوليفيموس إلى الكهف في ذلك المساء كان كل شيء على أتم الاستعداد. جعلنا طرف العمود مستدقا بواسطة حرقه وحكه بالخناجر والسيوف، وخبأناه في الزاوية. ثم أجرينا قرعة لتحديد من سيساعدني. حرك بوليفيموس الصخرة بعيدا عن المدخل وأدخل قطيعه وزحف خلفه وأغلق الفتحة من الداخل. تكومنا في الزاوية، ولم ينطق بكلمة حتى حلب الماعز واطمأن على قطيعه. ثم غمغم شيئا، وأدركت أنه يريد رجلين منا للذهاب إليه. عرفنا بالطبع ما يعنيه ذلك ولم يرد أي منا الذهاب. بدأ أحدنا بالبكاء والنواح بصوت عال ووضع اللوم علي بسبب كل ما جرى لنا. تفهمون مشاعري آنئذ. ثم أمسك باثنين منا. لا، لن أنسى فظاعة المشهد الشنيع. بعد أن أكل وشرب وشبع إلى حد ما وتجشأ، استجمعت كل شجاعتي و..".

توقف: ساد صمت مطبق. فغر عدد من المستمعين أفواههم، ولهث آخرون؛ في

الحلقة الخارجية بين الظلال على طول الجدران، وفي المداخل، رأى أزواجا من العيون اللامعة، وبكلات متلألئة؛ كانوا ينتظرون. فكر: الآن أسيطر عليهم فعلا.

قال: "تذكرون أنني تحدثت عن الخمر القوية. كانت معنا كمية منها في قربة جلدية، ونسيت أن أذكر أننا أحضرنا معنا أيضا إناء كبيرا لمزج الخمر. بعد أن أكل حتى أتخم، ملأت الإناء بالخمر السوداء تقريبا وسرت إليه وانحنيت وقلت: لربما ترغب بخمر طيبة الآن بعد أن تناولت طعامك. كنا قبل أن تغرق السفينة قد أنقذنا قربة مليئة بخمرة طيبة المذاق فعلا. أخذ رشفة في البداية، ثم صبها كلها في جوفه وتلمظ وقال: ليست سيئة بالفعل. أعطني دلوا آخر وقل لي اسمك ولسوف تحصل على هدية مني. ملأت له الإناء ثلاث مرات وشربه حتى آخر قطرة. حين بدأت الخمر تحدث مفعولها، ذهبت إليه مرة أخرى وقلت: اسمي اوتيس، أي "لا أحد"، إن رغبت أن تعرف، ما هي الهدية التي سأحصل عليها؟ قال، آه، أجل، وطرف بعينيه، هديتك أنك ستكون آخر من آكل. لكن حافظ على الهدوء الآن، فلسوف أنام".

صاح رجل من جمهور المستمعين: ""يا له من وحش!".

نظر الراوي حوله، ورشف من كأسه، ومسد لحيته، ثم صمت بضع لحظات وهو ينظر إلى يديه.

قال: "بإمكانك وصفه بالوحش دون أن تبالغ. في رأيي هو خنزير حقير. قاء في نومه، ودفق قيئه كالحمم البركانية التي تخرج من جوف جبل. وفعل كل شيء أيضا. ويمكنكم تخيل أية رائحة انبعثت منه! أكثر الأشياء التي عرفتها إثارة للقرف والاشمئزاز. وحين بدأ بالشخير دوى الصوت كهزيم الرعد فتهاوت الحجارة الصغيرة من السقف وارتجت الأرض، وجرفت العاصفة الرماد من الموقد وأطلقت شررا، ودوَّمت قطع الخشب المحترق كالزوبعة حولنا، وحسبت أننا سنتقطع إربا إربا ونختنق بفعل الدخان. اغتص المكان بقذارته الممتزجة بالدم وبقايا عظام رفاقنا الموتى. يمكنكم تخيل المشهد! ثم.."

وضع يده أمام عينيه. كان عليه أن يفكر، أن يجد نهاية أو خاتمة مناسبة للحدث، وجعلها معقولة على تخوم اللامعقول. الآن وقد طغى عليهم، فلسوف يساعدونه على بلوغ غايته إن لم يفسد كل شيء بنهاية حمقاء. نظر بطرف عينه إلى الكينوس. كان

الملك مسحورا أيضا. والملكة أريت انسلت إلى داخل القاعة وجلست صامتة، وعلى وجهها تعبير وضيع ومرتاب؛ ألقت نظرات سريعة حولها، ثم نظرت إلى حجرها. تنهد أحدهم في العتمة المخيمة على الخارج. فكر: لسوف أجعلها أكثر روعة الآن. سامية، مهيبة، منكّهة بالآلهة. لا، لا يمكن للمرء أبدا أن يخبرهم بما حدث فعلا. لن يحصل على هدايا إن فعل؛ لربما لن يعطوه حتى ما يكفي لرحلة العودة إلى وطنه.

قال: "حملنا العمود ووضعنا الطرف المدبب في النار، وحين توهج رفعناه - أربعة منا رفعوه وكنت أنا الموجه. خرقنا به عينه وفتلناه عدة مرات. هسهس سائل العين وبقبق، وزكمت الأنوف رائحة اللحم المحروق، وتفجر الدم دافقا كالبخار. اشتعل حاجبه، أتذكر ذلك بوضوح. ثم قفزنا بعيدا واختبأنا في الأركان".

توقف مرة أخرى، واسترد نفسه:

قال: "يمكنكم تخيل زئيره المزمجر حين صرخ طالبا العون. قفز واقفا على قدميه وذهل تماما. نزع العمود من عينه مما جعل الدم يتدفق بغزارة وأخذ يضرب به على غير هدى. ارتج الجبل، كأنما ضربه زلزال، كأن بوسيدون رأى كابوسا وتقلب في نومه ليجر جزرا إلى غيهب الأعماق ويخرج أخرى جديدة إلى السطح، مثلما قيل إنه فعل في البحر الشرقي. استيقظ طبعا كافة العمالقة على جزيرة أصحاب العيون الدائرية، وأتوا مهرولين وتجمعوا أمام الكهف متسائلين عما حصل. نادوا بأصواتهم التي تشبه أصوات الانهيارات الأرضية: ما الأمر يا بوليفيموس؟ هل أساء لك أحد من البشر، هل سرق أحد قطيعك؟ وأجاب الأحمق العملاق عندئذ: 'لا أحد' يحاول قتلي. 'لا أحد' ينزل بي ضررا جسيما هنا؛ 'لا أحد' خدعني. قالوا: آه، إذن إنه منام وحسب؛ لكن بدا وكأن مصيبة وقعت. زمجر: لا، 'لا أحد' هنا في الداخل معي. قالوا: عد إلى فراشك مرة أخرى ولا تصرخ بهذا الشكل. وعادوا إلى بيوتهم وفراشهم مجددا".

رفع صوته. لوح بذراعيه ومثل المشهد كله أمامهم. علا صوت قهقهة؛ واحد من الجالسين في العتمة ضرب بكفه على ركبته ضربة قوية؛ أما أولئك المتواجدون داخل القاعة فقد مالوا بأجسامهم إلى الجدران ومساند كراسيهم وضحكوا برقة أكبر، ورفعوا كؤوسهم وشربوا؛ ابتسم الملك، وارتسمت بسمة على محيا الملكة أريت. ثم أتى صوت من الظلمة في الباحة الأمامية:

"تلك أدهى خدعة سمعتها في حياتي!".

تناهت إلى سمعه أصوات قهقهة وهمس، وحين وصلت الكلمة الحلقات الخارجية من المستمعين تعاظمت أصوات الضحكات والصيحات ولطم الركب؛ ثم تدفقت عائدة إلى القاعة الكبرى كالموجة.

"قال، 'لا أحد' !، فكروا بهذا، 'لا أحد'!، 'لا أحد'!".

انتظر حتى هدأت. استعاد الملك وضعية الإصغاء. التقت عيونهما، هل صدّق؛ أراد سماع المزيد. تشوق المحيطون به وأولئك الواقفون خارج القاعة أيضا.

شرب الكينوس، ووضع كأسه:

"في النهاية، سارت الأمور على ما يرام بالطبع؟".

يمكن أن يدل السؤال على التهكم والسخرية، فقد طرح باستخفاف - من قبل الرجل/ الإنسان لا الحاكم/ الملك - لكنه ملأ فترة الصمت. ينبغي ألاّ يجعلهم ينتظرون أكثر، وإلا فسيظنون أن الراوي نفسه يحاول تلفيق نهاية لقصته، وأنه متردد، كمغن نسي النص الذي ألفه بنفسه وحاول اللجوء إلى خرافة قديمة أو اختراع واحدة جديدة.

رد بنفس نبرة الاستخفاف؛ فإن قصد الملك الهزء فهو يهزء بنفسه. "أوه، أجل؛ سارت الأمور على خير ما يرام في النهاية".

تكلم بتمهل، دون أن يرفع صوته كثيرا - لكي يكبلهم بقيود الصمت وصموت الإصغاء - واصفا كم تطاول الليل، وكيف هرول بوليفيموس في أرجاء الكهف باحثا عنهم في كل ركن، وكيف راوغوه مرة بعد أخرى، وقفزوا بكل جرأة، وتعثروا، وكَبَواْ وزلوا في الدم والقذر، وكيف جهزوا سبيل نجاتهم.

قال: "لخرافه صوف سميك، هل ذكرت لكم ذلك؟ في الأمسية الثانية تلك أدخل قطيعه كله أيضا. وحين أخرجه في الصباح بعد أن دحرج الحجر بعيدا عن مدخل الكهف، جلس هناك ليمسك بنا إذا حاولنا التسلل بين الخراف والماعز. لكنني كنت أكثر ذكاء ومكرا. وجدنا بعض الأماليد الطرية وربطنا كل ثلاثة خراف معا، وتحت الخروف الأوسط من كل ثلاثة ربط رجل منا نفسه بأملود وضفره مع الصوف. حصل اهتياج كبير وفوضى عارمة؛ ثغت الإناث التي امتلأت أثداؤها بالحليب، لكنه لم يأبه

لها. اعتقد أن خطته ستنجح. أحسب أنه نوى إخراج القطيع لتتوفر له مساحة كافية بحيث يدفعنا إلى أحد الأركان ويقتلنا هناك. وهكذا جلس في مدخل الكهف وتحسس بيديه ظهور الخراف والماعز ـ لكنه بالطبع لم يجد أحدا منا على ظهورها. كنا معلقين بالصوف تحت بطونها؛ هناك كنا!".

تردد صدى خارجا من العتمة: "تحت بطونها!".

انتظر حتى انتهوا من الضحك.

"كنت الأخير، وتعلقت تحت بطن أكبر كبش. تحسس ظهره وقال ـ أذكر ذلك كأنما حدث البارحة: أنت الأخير اليوم يا صديقي العجوز،، لماذا؟ تكون في العادة أول من يخرج. لكن السبب يعود إلى تعاستك إذ 'لا أحد' قد تصرف بهذه الطريقة الشريرة مع سيدك؛ كان من المؤثر فعلا سماعه وهو يقول ذلك، رغم تهديده لنا بكافة الأشياء الفظيعة. ثم ترك الخروف يمر وهكذا خرجنا جميعا".

تنهيدة ارتياح عبرت حلكة الباحة الأمامية وبدأ المستمعون الذين وقفوا هناك يتبادلون الحديث مع بعضهم بعضا. عدة أصوات طلبت منهم السكوت، راغبة بسماع المزيد على الفور. رفع الملك يده وخيم الصمت مجددا.

قال: "ساءت الأمور تقريبا مرة أخرى. فما إن أصبحنا خارج الكهف حتى أخذ رجالي يعولون وينوحون على الرفاق الذين فقدناهم، وتوجب علي إسكاتهم بواسطة دفعهم إلى تحميل السفينة بالخراف والماعز. وهكذا حصلنا على شيء على الأقل للحملة. ثم جدفنا بعيدا وحسبنا أننا أصبحنا في مأمن. حين نظرنا إلى الوراء، شاهدنا بوليفيموس يقف أمام الكهف، فقد ظن دون ريب أنه يحبسنا داخله؛ أو أن الشكوك قد راودته. وعلى أية حال، لم أستطع منع نفسي الصراخ عليه مناديا بأعلى صوتي: لقد خدعت أيها الرفيق الأعمى! إنما كان علي ألا أفعل ذلك أبدا. فقد كان ـ كما قلت ـ بحجم سبعة أو عشرة رجال. والآن كسر الجزء العلوي من صخرة وقذفه علينا. سقط قريبا من مقدمة المركب وأحدث موجة رهيبة دفعتنا باتجاه الجزيرة مرة أخرى. لكننا لم نصل إلى الشط، فذلك سيكون مؤذنا بنهايتنا. حين كنا قريبين من الصخرة تمكنت من وقاية السفينة بمجداف ودفعتها إلى الأمام مجددا، ثم جلسنا نجدف. حين تقدمنا قليلا وبدأنا نشعر بالأمان مرة أخرى، قلت إنني سأنادي عليه من جديد، لأنني أردت إخباره

بمن نكون. توسل إلي رفاقي أن أدعه وشأنه، لكنني لم أستطع كبح جماح نفسي وصرخت: إن كنت تتساءل من هو 'لا أحد' الذي جدع أنفك، أيها الأبله الأعمى، فيمكنك أن تعلم أنه البطل اوديسيوس من ايثاكا، ابن ليرتيز! وهكذا لديك الآن من تصب عليه لعناتك وشتائمك. لكن ما كان علي أن أفعل ذلك طبعا. جأر بصوت كالخوار: إنه لأمر جيد أن تخبرني. لقد تنبئوا لي بأنك ستأتي وتقتلع عيني. حسبت أنك رجل ناضج ولست حشرة حقيرة كما أنت فعلا. لكن شكرا لإخباري. والآن دعنا نكون أصدقاء وننسى ما فات، لست وحشا بهيميا كما تظن، ولسوف أطلب من أبي أن يساعدك. وبإمكانه أن يعالج عيني على أية حال، إن سألته ذلك، إذن ليس ثمة ضرر حدث هنا. تعال فقط ولسوف نتحدث معا. لكنه لم يخدعني بكلامه المعسول؛ فلست رجلا يخدع بسهولة. لذلك صرخت عليه: إن استطعت إرسالك إلى مثوى الأموات وأعماق جهنم، تأكد أنني لن أتردد! لقد أتينا بكل أدب وتهذيب في زيارة ودية لك، وربما لنحصل منك على هدية أو اثنتين، ثم تصرفت معنا بتلك الطريقة. الخزي لك! ولن تستعيد عينك أبدا، وهذا أكيد! حنق وغضب وبدا يرقص ويقفز أمام الكهف بحيث تطايرت الحجارة في الهواء، ولفظت كل حفرة في الجزيرة الدخان ونفخته، ثم جأر صارخا: إن كنت اوديسيوس، فأنا أريدك أن تعلم بأن أبي هو بوسيدون، إذا سمعت الاسم من قبل أيها الحشرة! لسوف يعتني بك أنت ورعاعك القراصنة، تأكد من ذلك! وسوف يمر وقت طويل قبل أن تعود إلى ديارك، وحين تفعل فستكون وحيدا على سفينة غريبة، والورطة التي ستقع فيها ستكون أسوأ من أي شيء عرفه إنسان من قبل! ثم أمسك صخرة أخرى ورماها علينا فشكلت موجة أخرى اكتسحتنا وجرفتنا باتجاه جزيرة صغيرة أخرى، أي أنها ساعدتنا فعلا، رغم أنها كلفتنا مجداف التوجيه. رست سفينتنا بهدوء على شاطئ مليء بالحصى. أما الطريقة التي استقبلنا بها رفاقنا المنتظرون هناك مع سفينتهم فتجل عن الوصف. تقاسمنا الأسلاب، وحصلت أنا على الكبش الضخم، ثم بدأنا الاحتفال والأكل والشرب طيلة اليوم، وقدمنا القرابين إلى زوس، وبكينا قتلانا. وفي اليوم التالي أبحرنا بعيدا".

استمعوا، واستمعوا. أولئك الذين لم يجدوا مكانا على الكراسي والمقاعد استندوا إلى الجدران، أو جلسوا على العتبات والأرض؛ والعديد من الذين انتظروا خارجا في

العتمة لم يتخذوا قرارا بالعودة إلى بيوتهم، ولذلك حين تعبت أرجلهم، جلسوا على الأرض. بينما ندم العديد ممن رجعوا، فعادوا واستمعوا، واستمعوا، بعضهم قهقه ضاحكا، وغيرهم تنهد ونشج باكيا. ظل يتحدث حتى مضى هزيع من الليل، لكن بعد قصة "العمالقة ذوي العيون الدائرية"، وخلال الصمت الذي أعقبها، أمر الملك بإحضار المزيد من الطعام والشراب، بحيث أخذ قسطا من الراحة حين كانوا يأكلون. لكن حالما شبعوا، تابع الحكاية من جديد. أراد أن ينهيها ويتجاوزها، قبل أن يأتي النهار الجديد الذي قد يحصل فيه على العون والمساعدة للوصول إلى وطنه.

نادرا ما ذكر الحرب، تحدث عنها بكلمة أو اثنتين في سياق القصة، لكن تكلم بسرعة وبلمسات رشيقة، أو بتمهل وبطء، وبأسلوب تفصيلي تناول كل الأشياء الأخرى التي لم يسمعوا عنها من قبل، أو لم يعرفوا عنها سوى النذر اليسير. سخر من نزوات الآلهة بقدر ما يجرؤ البشر، ووقرها وجلها كي لا يعتبروه مجدفا أحمق، بل ينظروا إليه بوصفه شخصا محنكا وخبيرا وذكيا.

أخبرهم عن ايلاس، إله الرياح، وجزيرته المرتفعة المزنرة بالنحاس في البحر شمال تريناكيا. أقاموا معه ومع أبنائه الستة وبناته الست طيلة شهر كامل، وتلقى أجمل هدية يمكن أن يتلقاها بحار: كل الرياح داخل كيس من جلد الثور.

النبرة غدت أكثر إشراقا، وثمة رنة بهيجة ومتفائلة فيها حين روى كيف استطاعوا الإبحار، بمساعدة الريح الغربية، لمدة تسعة أيام بلياليها، وبلغوا نقطة تمكنوا عندها من مشاهدة ذرى التلال في مسقط رأسهم. ثم تجهمت الحكاية مرة أخرى وأثقلتها العواصف والأحزان، وذلك حين روى لهم كيف تفاقمت مشاعر الشك والغيرة في صدور رجاله بسبب هذا الكيس الغامض. حسبوا أن فيه كنزا من الذهب والفضة، وحين نام فتحوه، فهبت عليهم كل عواصف البحار وجرفت سفينتهم إلى عرض البحر من جديد. عادوا إلى ايلاس، الذي أحنقه الغضب وأخبرهم بأنه لن يراهم ثانية.

روى لهم عن عالم الليستريغونيين، عن ساردوس في أقصى الشمال، حيث جرفتهم عاصفة هبت ستة أيام بلياليها. لربما خلط تلك الحكاية بأخريات سمعها: عن ليالي الصيف القصيرة، والشاطئ الضبابي في عمق الخلجان البحرية الضيقة التي تكتنفها الجرف العالية. لقد خدعتهم ابنة الملك المارد أنتيفاتيس، وتعرضوا للقصف

بالحجارة؛ مما كلفهم إحدى عشرة سفينة. كان بمقدوره أن يقول إنهم علقوا بين جدارين من الصخر، وحدث انهيار عنيف، لكن ذلك سيبدو موتا مبتذلا بالنسبة لرجال عانوا وجربوا مثلهم. أخبرهم كيف استطاع أن ينجو بسفينته وطاقمه بعيدا عن الميناء، لكن كافة السفن الأخرى حوصرت هناك؛ وقتل العمالقة أولئك الذين لم يغرقوا أو اصطادوهم بحراب طويلة كتلك التي يستخدمها البشر لصيد سمك التن. وكيف جرف الموج السفينة المتوحدة باتجاه الشرق نحو "الساحل الطويل" ووصلت إلى جزيرة تدعى إيا، أو جزيرة سورسي، أو جزيرة عشبة الصقر، وهنالك كثير من الحوادث التي جرت هناك سيرويها لهم.

سنحت له فرص جديدة للعودة إلى أرض الواقع؛ كان على وجه العموم هناك رغم اختلاف التفاصيل: إذ تعامل مع الآلهة، والأحلام، والرغبات، والرعب، وكان عليه أن يصوغها جميعا في قالب يتمكنون من رؤيته وقبوله. كان بمقدوره القول إن هؤلاء البحارة، الذين ضربتهم العواصف، ولم يعرفوا موقعهم، قد أغرموا بأرملة مزارع، أو ابنة فلاح ضخم الجثة، عازبة وتعيش بمفردها، سيدة قوية تملك "عزبة" وتجمع الرجال لمضاجعتهم؛ بمقدوره أن يقول ذلك عن سورسي وكاليبسو كلتيهما. أم أن الوصف لا ينطبق على كاليبسو؟ لكن هذه الجماعة من المستمعين، الذين سيجدفون سفينته من سكيري، هذه الزمرة من الآباء، والأمهات، والزوجات الفضوليات، والأخوات، والبنات، والعبيد، كانت ستعتبرها حكاية عادية حمقاء حول "أشخاص متطرفين" يمكن العثور عليهم في كل بلد، يرقدون وينتظرون في العديد من البيوت والأسرّة. الجزيرة حقيقية، المزرعة حقيقية، والقاعة الكبرى على جزيرة سورسي، جزيرة عشبة الصقر، موجودة فعلا هناك خلف تلتها الغابية المنحدرة. لكنه قال:

"كانت إلهة".

ألمح إلى أنها ابنة الشمس، وريثة هليوس المتمتعة بوصايته. كان بمقدوره أن يشرح قائلا إن لديها خمرا قوية تسكرك على الفور، وإن العديد من ضيوفها قد أدمنوا الكحول، وإن الخمر سلبت لبهم، ولم يعودوا قادرين على الكلام أو الجواب، بعد أن أصيبوا بالفُواق. في هذه الحالة سيرد مستمعوه في قاعة الكينوس أو في الباحة الأمامية، وهم يتمتمون قائلين: حسنا، لم تكن مضطرا للسفر كل تلك المسافة لتقابل

مثل هذه المرأة أو أولئك السكارى في مثل هذه المزرعة. الآن سوف نعود إلى بيوتنا وننام؛ لا نريد أن نسمع حكايا عن السكارى.

قال: كانت إلهة. وصلوا هناك، وجدوا ميناء مناسبا في الخليج الصغير. تسلق تلة غابية شديدة الانحدار ليعرف موقعه هناك، ويعاين الساحل الممتد باتجاه الجنوب، ومن هناك شاهد دخانا في المنطقة الداخلية. إنها مزرعتها، بيت أبيض وسط أيكة خضراء على الطرف البعيد من مستنقع. لربما هو على البر، والجزيرة ليست جزيرة حقيقية، مجرد رأس شاهق داخل في البحر وخلفه المستنقعات. قنص أيلا ضخما برمحه وحمله إلى السفينة وأخبر رجاله بأنهم في ورطة مأزقية في واقع الأمر، وأنهم على بعد مسافة هائلة من أرض الوطن، لكن ما زال ثمة أمل. ذبحوا الأيل وأقاموا احتفالا آخر؛ نفد اللحم بسرعة، فعددهم ستة وأربعون. ثم ناموا على الشط، ولم يخبرهم إلا في صبيحة اليوم التالي عن الدخان الذي شاهده. أصابهم القلق، وتذكروا بوليفيموس والليستريغونيين، وأرادوا الرحيل فورا، لكنه اقترح أن يكتشفوا أين هم. قسموا أنفسهم إلى مجموعتين، وأجروا قرعة في خوذة، ووقعت القرعة على يوريلوكوس الرعديد، الذي انطلق بعد إحجام وتردد مع عشرين رجلا. تسلقوا الرابية الغابية ثم انحدروا إلى واد على الطرف الآخر. الآن، ابتعدت روايته خطوة صغيرة عن الحقيقة مرة أخرى، لكنه بقي ضمن حدود المقبول. وبينما كان أفراد الجماعة يتقدمون بحذر - كما قال - التقوا بذئاب وليوث ودودة تمسحت بهم كالكلاب الأليفة الخائفة ونظرت إليهم بعيون اغرورقت بالدمع. حين وصلوا إلى المنزل الأبيض وسط المزرعة، توقفوا خارج الباب وأصاخوا السمع. في الداخل، كانت هناك امرأة تغني. بوليتيس، أحد الضباط المتهوسين بمضاجعة النساء، اقترح اقتحام المنزل، لكن يوريلوكوس الحذر أراد البقاء خارجا، وهكذا تركوه هناك.

قال الرحال: "وعندئذ مارست خدعتها بخمرها. مسخوا خنازير ناخرة". ثم أصبحت القصة ضبابية نوعا ما: إما أنها خلطت الجبن والطحين والعسل مع الخمر، أو أنها صبت بضع قطرات من عقار سحري. يوريلوكوس، الذي لمح ما حدث بطريقة مشهودة لم يتمكن أحد من تفسيرها أبدا، ركض عائدا إليهم وأخبرهم بالأمر كله. كان منهارا بسبب الذعر الذي حاق به، ولا عجب في ذلك أبدا.

قال الراوي: "وهكذا تمنطقت بسيفي وذهبت إلى هناك وحدي".

توقف وشرب. طرفت العديد من العيون الناعسة، لكن حكايته ما زالت تشد المستمعين. ابتعد من تلقاء ذاته عن الحقيقة داخله، وحين بالغ في الابتعاد أصبحت الرواية أسهل. بحث عن إله، أي اسم: هرميز قد ينفع.

قال: "قابلت هرميز. وأخبرني عن الموقف هناك. كانت، مفترسة الرجال، تقدم لضيوفها خمرا وضعت فيه سحرا، ثم تحولهم إلى أسود وذئاب وخنازير وغير ذلك مما لا يعلمه إلا زوس وحده. كانت تستمتع ببعضهم جسديا، لكن معظمهم يهيمون هناك على غير هدى يزأرون ويعوون وينخرون".

ها هو يمسك الخيط من جديد. أخبرهم كيف أعطاه هرميز العشبة السحرية، 'مولي' أو 'موليه' أو'موله'، التي ساعدته. وصفها بأفضل ما يستطيع، لكنه لم يقل إنها نبتة قدم الإوز التي تنمو في المياه المالحة، بل استخدم اسما غريبا إلهيا لها. وضع هذه النتفة الصغيرة من الحقيقة أمام مستمعيه. قال: "مولي. كُل جذر المولي. أمرني هرميز بما كنت سأفعله بالضبط".

قال: "وصلت هناك. وقفت في الخارج قليلا وأنا أمضغ النبتة المرة. ثم ناديت. أتت بنفسها، كانت من أجمل من رأيت في حياتي من نساء، أعني من ربات، ولقد التقيت بعدد منهن. كل ما فيها جميل: الشعر، العينان، البشرة، الثياب. أومأت لي ودعتني للدخول. جلست على كرسي مرصع بالذهب والفضة، ثم أعطتني بعضا من خمرها الشهيرة، التي تراوح لونها في الكأس بين الأصفر والأحمر الفاتح والداكن والأسود، كانت حامضة الطعم ومسكرة إلى حد لا يصدق، لكنني كرعت الكأس كلها جرعة واحدة. جلست وانتظرت قليلا لتحدث مفعولها، بينما تحادثنا عن الريح والجو. ثم مالت إلى الأمام فجأة ولمستني بعصا عاجية حملتها بيدها، وقالت: يمكنك الآن أن تذهب وتستلقي أيها الخنزير السكران! قلت: أستميحك عذرا! وامتشقت حسامي ووضعت رأسه على صدرها. أنا صاح تماما، شكرا لك؟ لم كل هذا؟ - صعقت وذهلت، أؤكد لكم ذلك! قالت: ألست ثملا؟ قلت: أنا صاح تماما يا عزيزتي. سألت وقد خرجت عن طورها بفعل الذهول: من أنت بحق السماء؟ فكل من يشرب هذه الخمر القوية يمسخ خنزيرا. قلت: ربما، لكنني لم أمسخ خنزيرا. قالت: إذن لا بد أنك اوديسيوس. فقد

نبئت بأنك ستأتي إلى هنا. هذا سيجعل الأمور مختلفة تماما؛ الآن سنذهب إلى السرير حالا. تعال! لكن قلت آنئذ: حسنا، إذا وعدت بأن لا تأخذي رجولتي مني. هذا هو الشـرط. لأنني لا أرغب بأن أعود إلى دياري وبلدي وأداة الرجولة لدي لا تؤدي وظيفتها على أفضل ما يكون. قالت، حسنا، وأعطتني الوعد. حسنا، بعد أن انتهينا من ذلك، أخذت حماما ساخنا وشعرت بالحيوية والنشاط والقدرة على القيام بأي شيء، ثم قدمت لي وجبة طعام فاخرة لم أذق مثلها من قبل. وهو أمر له دلالات عديدة. لكن، لا بد أنني بدوت مكتئبا متجهما على المائدة، لأنها سألتني عما بي. وعندئذ ذكرت أصحابي. قالت: سوف يرجعون إلى حالتهم الطبيعية وسأحررهم من السحر".

توقف مجددا؛ وبالرغم من شعوره بالنعاس وبثقل في الرأس واللسان، إلا أنه عب جرعة أو اثنتين من الخمر. فكر: لا بد أن الآخرين يشعرون مثلي.

قال الكينوس بصوت أجش: "حسنا؟".

"أجل، أين كنت؟ نعم! أعادتهم بشرا مرة أخرى. بل بدوا أكثر شبابا ونشاطا، لكن بعضهم فقدوا شعورهم ولحاهم".

توقف وفكر.

سأل صوت قادم من العتمة: "وبعد ذلك ماذا جرى؟".

قال: "بعد ذلك؟ أجل، أحضرنا الآخرين الذين بقوا في السفينة، لكن يوريلوكوس ظل مذعورا وعنيدا، بحيث كدت أقتله".

توقف من جديد. فكر: يجب أن أتابع. ينبغي ألاّ أدعها تتحول إلى قصيدة قصصية رومانسية أيضا، وإلا سيغلبهم النعاس أو يذهبون إلى بيوتهم. يجب أن أخيفهم بشيء، أجعلهم يرتعبون من العتمة. لكنه لم يستطع التفكير بشيء.

قال: "بقينا هناك فترة. بقينا هناك فترة طويلة. قضينا الشتاء هناك - عدة أشهر - أمضى رجالي وقتا ممتعا رائعا. ارتحنا تماما".

سأل أحد المستشارين: "ماذا حدث للبقية؟".

"البقية؟".

"أجل، أول من مسخوا ذئابا وأسودا أليفة ودودة؟ أولئك الذين كانوا هناك حين وصلتم؟".

قال: "اه، نعم. بالطبع، بالطبع كانوا على ما يرام. أصبحوا.. تحرروا".

"ماذا؟ كرجال؟ أم كأسود وذئاب؟".

توجب عليه أن يفكر بشيء.. بسرعة.

قال: "اختفوا. هاجروا إلى بلاد أخرى كما هو مفترض".

صمت.

قال وشعر بتعبه يعنّيه من جديد: "أمضينا وقتا طيبا هناك".

بدؤوا يتململون هناك في العتمة.

سأل الكينوس: "وماذا حدث بعدئذ؟".

لا بد أن يفكر بالمزيد، حالا.

قال: "بعدئذ! أجل.. ذهبنا بعدئذ إلى عالم الموتى".

خيم صمت مطبق على البلدة برمتها.

كان الملك أول من تكلم.

قال: "يجب أن نشرب شيئا. مزيدا من الخمر".

* *

فكر: تأخر الوقت، لا يمكن أن أبدأ الحديث عن مرضي هناك، عن هلوساتي. لا يمكن أن أقول إنني سقطت مريضا في المستنقعات خلف التلة، وأصبت بالبرداء، وتمددت وأنا أهذي وأرجف وعرقي صبيب. لا يمكن أن تتمدد في السرير تعرق وتهذي بفعل حمى المستنقعات وأنت في منزل إلهة. إذ قد يسألون لمَ لمْ تبرئْك فورا، وهم يعرفون أنها تمارس السحر.

قال حين قدمت الخمر من جديد على الموائد وشعر بأن الثقل في رأسه غدا أخف وطأة: "بعد أن أمضينا هناك عدة أشهر وأتى الربيع وحان موسم الإبحار، سألتها في أحد الأيام عن المستقبل. فأخبرتني بأن أول ما يتوجب علي فعله هو أن أذهب إلى مثوى الأموات وأسأل روح العراف ثيريسياس، وغيره ممن يتواجدون هناك. حاق الرعب برجالي طبعا؛ وحسبوا أن تلك ستكون نهايتنا. لكن لم تكن هناك من طريقة لتفادي ذلك".

لم يطرح أحد أية أسئلة حين توقف عن الكلام ليفكر، وعرف بأنه استحوذ عليهم بسطوة الترهيب والتخويف.

لا ، ينبغي ألاّ أخبرهم عن مرضي، هكذا فكر ثانية وهو يشعر بالإغرا ء لإخبارهم. لكنه استرجع مع ذلك ذكرى الحمى التي صَابته في جزيرة عشبة الصقر، وذكريات الأحلام التي رآها خلال رحلته الطويلة على متن الطوف، وعاذ بالأساطير القديمة التي سمعها في موطنه ايثاكا من أمه وأبيه ويوريكليا. ينبغي ألاّ يهرطق ويسفه معتقداتهم.

فكر بارتباك: يجب ألاّ أحطم الأسطورة، لكنهم جميعا يرغبون حتما بالذهاب إلى سقر الآن!

هنالك بعض الحركة في الباحة الأمامية. امرأة تصطحب أطفالها قررت بكل تصميم العودة ـ وإياهم ـ إلى المنزل. كثيرون فكروا ـ على ما يفترض ـ بخطاياهم وذنوبهم بحق البشر والآلهة؛ جروا أقدامهم على الأرض، وتنحنحوا، ومسحوا أنوفهم، وندموا وتابوا عن معاصيهم. في حين تملك الفضول سواهم وسرعان ما سيطرحون الأسئلة عن الأقرباء والمعارف في عالم الأموات.

فكر: لا يمكن القول إنني كنت راقدا في السرير بسبب حمى المستنقعات وحلمت بمعظم الحكاية. سيكون ذلك تجديفا على الآلهة.

قادهم بعيدا نحو مثوى الأموات بقدر ما تصل إليه مخيلته. النتف التي استعارها من الأساطير القديمة شهدت على صدق روايته كما رغبوا بها. وتلك التي أخذها من أحلامه أثبتت أنه كان هناك ورأى أشياء جديدة لم ترد في الأساطير القديمة. أصغوا له، بغض النظر هل صدقوه أم لا.

اشتغل كما لو أنه نجار ماهر أو بنّاء حاذق: تفحص أولا مواده وعاين الأرض. خلال تلك الدقائق التي توقف فيها عن الكلام أصبحت الخطة واضحة؛ كان مثل مهندس يصمم مبنى.

كان هناك بعض الحركة في القاعة الكبيرة؛ بعض من نسوا الطعام في أطباقهم، عاودوا الأكل؛ آخرون وقفوا، وطلبوا من جيرانهم أن يحرسوا مقاعدهم، وهمسوا معتذرين وتسللوا على رؤوس أقدامهم ليلبوا نداء الطبيعة. الليلة جميلة، والريح تتلمس طريقها بحذر. يمكنك سماع دفق السوائل من مثاناتهم الممتلئة في الباحة الأمامية خارج القاعة. إضافة إلى الهمسات وهدير موج البحر البعيد. فكر: هذه هي

حدود العالم المنحصر. كل شيء مربوط معا بواسطة نفس التخيلات، بسُرَّة الأرض، كل شيء هنا ما زال مربوطا بالحبل السري مع البر الرئيسي. كلنا بشر، من هو الإله المجرد ومن هو الإنسان المجرد؟

أحدهم أخرج ريحا داوية في الخارج، كست وجه الكينوس للحظة أمارات الاستياء. بعضهم عادوا على رؤوس أصابعهم، وجلسوا وعلائم الارتياح بادية عليهم، وبحثوا في أطباقهم، والتقطوا قطع لحم بعظمها، وقضموها. الأقداح وضعت على الموائد، وسمعت أصوات الماء المترقرق حين كان العبيد يخلطونه بالخمر في أوان خاصة عند الباب، ثم يملؤون به الأقداح. ارتطم مرفق أحدهم بطبق خبز فارغ، فسقط على الأرض وتردد صدى رنين الفضة لوهلة.

أصوات خوار وثغاء أتت من الحيوانات في الحظائر والحقول خارج أسوار المدينة. في حين كان رجل في المدى البعيد يغني بصوت أجش: أحد السكارى كان في طريقه إلى بيته. فرقعت خشبة في الموقد؛ وانتثر الشرر مع سقوط الجمر. الملكة أريت رفعت كأسها، فتبدى بياض يدها وذراعها كالمرمر، كالدقيق الأبيض؛ رشفت خمرها، وأغمضت عينيها، وغابت عن وجهها الآن أمارات التجهم والصرامة والارتياب؛ ثم فتحت عينيها مرة أخرى ووضعت كأسها على المائدة. فكر: إنها جميلة جدا. أين الابنة يا ترى؟ خارج البيت مع الشبان؟ ما كان اسمها؟ شيء يتعلق بالبحر، بالترحال، بالإبحار؟

كان يرتب وينظم مشاهده. لا بد أن يروي حكاية أخرى أو اثنتين، ليدعم هذه، لأنه لا يستطيع أن ينتهي في الهاوية ويتركهم هناك. بعد ذلك، سألتزم بحقيقة ما حدث فعلا، هكذا فكر آنئذ. لكن هل أعلم حقا أن زيارتي لمثوى الأموات كانت حلما وليست حقيقة؟ في بعض الأحيان أعرف بأنني كنت على شفا مثوى الأموات.

كان الآن يرتب وينظم مشاهده. فكر: يجب أن أعود إلى سورسي من جديد. لا يمكن أن أقول إنني سقطت مريضا هناك وحلمت بكل الرواية؛ يجب أن أذهب إلى هناك، وأقوم برحلة إلى مثوى الأموات، ثم أعود إليها وأتلقى تحذيرا من مغبة التعرض لقطيع هليوس، والبدء من جديد، وإلا لن أتمكن من تفسير كيف ضاع أفراد طاقمي. يجب أن ينتهوا في مثوى الأموات. لكن ينبغي رواية ذلك بطريقة أخرى.

الرواية الموضوعة الآن أمام الراوي كانت تجره نحوها. نصفه رغب في الانتقال إلى الأخرى الأساسية، المروعة، المشؤومة، اليائسة، المتعذر تغييرها. لقد عرف: لم تطأ قدماي الجحيم أبدا. بل لم أزرها حتى بأحلامي. كنت عند بواباتها وجلست خارج بركة سوداء من الدم فيها دقيق وعسل، وانتظرت. لم أهبط إلى عالم الأرواح. الأرواح هي التي أتت إلي. سألت عن مصيري ولم أتلق جوابا مناسبا. جاوبني أملي، رغباتي: لسوف تعود إلى وطنك يوما ما. ولربما تجد السعادة هناك. وستخوض نزاع محتوما فيه. في أحلامي قابلت أمي، قالت إنها ميتة قتلها شوقها إلي. ربما حدث ذلك. فلمَ يكذب الحلم. لكن هل سأجلس هنا وأروي لهم حكاية أمي؟ لن تمتعهم ولن تثيرهم. ولن يصدقوني بعد الآن بسببها، ولن أحصل منهم على مزيد من الهدايا. أم أنها ستثيرهم؟

كان يرتب وينظم مشاهده. تذكر بالصدفة اسما.

"حسنا الآن، كان معنا على جزيرة سورسي رجل - اسمه بالمناسبة البينور - طائش شديد التهور. حين أقمنا احتفال الوداع، سكر وصعد إلى السطح طلبا للهواء المنعش، أو لربما كان يلاحق جارية، أو ذهب إلى هناك لينام. على كل حال، سقط من على السطح ودقت عنقه. كنا في عجلة من أمرنا استعدادا للانطلاق ولم يتوفر لنا الوقت لدفنه".

كان يجمع خيوطها معا. حبكها على نموذج أساطير الجنوب والشرق، أساطير المصريين والفينيقيين، وشعر بمتعة السرد في نفس الوقت الذي انجذب فيه إلى روايته ذاتها.

قال: "أبحرنا وجدفنا جنوبا طيلة يوم بكامله. شعر رجالي بالخوف، لكنهم أجبروا على الذهاب معي. في المساء وصلنا إلى أرض السيمريين، حيث لا يوجد نور باهر ولا ظلام دامس. سحبنا المركب وانطلقنا في نهر الموتى العظيم. قطعنا مسافة تحت ضوء رمادي في بلاد رمادية. قبل أن نصل، أوقفت رجالي، وأخذت معي رجلا يدعى بيريميديس وذلك الرعديد المسكين يوريلوكوس لسوق الحيوانات التي سأضحي بها والقرابين التي سأقدمها. في نهاية المطاف وصلنا إلى الطريق السفلي. هناك، فعلت ما أمرتني به سورسي: حفرت بسيفي حفرة بعرض قدمين وصببت فيها سائل القربان، الحليب والعسل والنبيذ الحلو، ثم طحين القربان، ثم ساعد يوريلوكوس بيريميديس الذي

كان أفضل من يذبح القرابين بيننا ، بقطع رقاب الحيوانات - كان لدينا كبش أسود وشاة سوداء ، صب دمهما في الحفرة. بعد أن انتهينا من كل ذلك طلبت من مساعديَّ الاثنين التراجع إلى الوراء قليلا. ثم ناديت على الأرواح".

توقف الكلام، ورفع كأسه، لكنه وضعها ثانية دون أن يشرب.

قال: "احتشدت خارج الفتحة السوداء كأنها السديم، كالحجب السديمية التي يراها الناظر فوق مروج البحر في أمسية خريفية. لم يكن لها وجوه، ولا أطراف؛ أو بالأحرى، كانت أشكالها ووجوهها تتبدل باستمرار. ومن بين هذه الحجب خرجت غمغمات وتنهدات وسعال وأنين؛ سمعت أصواتا ناعبة وخوارا كأنه صادر عن أشخاص تلبستهم الشياطين، وولولات خفيضة وزعقات ضارية، إضافة إلى دمدمة وهرير وأصوات تهدد وتتوعد وتستجدي وتتوسل وتوبخ وتتذمر، هناك.. ".

توقف مجددا وبحث عن الكلمات.

قال: "أدركت أنها كانت لعبيد عاشوا على الأرض".

لاحظ على الفور أنه ارتكب خطأ؛ عرف ذلك من التعبير على وجه الكينوس. وهناك في الباحة الأمامية، علا صوت وقع الأقدام، تنحنح الناس، تهامسوا؛ تهاوى السحر، وعادوا للحظة إلى أرض الواقع.

قال الكينوس وهو يرفع حاجبيه: "هل هؤلاء العبيد في مثوى الأموات. هل يذهب العبيد إلى مثوى الأموات؟ لم أسمع ذلك من قبل! أنا من جهتي آمنت دوما أن العبيد يذهبون إلى داخل الأرض ويبقون هناك. حسبت أن الشخصيات البارزة وحدها هي التي تذهب إلى مثوى الأموت حين تموت. والعبيد ليسوا من أعيان الموتى، ليسوا أمواتا حقيقيين، بل مجرد عبيد موتى، أم لا؟ ما الذي يفعلونه في مثوى الأموات؟".

كان ذلك انتقادا صريحا لحكايته بحيث توجب عليه تعديلها؛ أضاف إلى بناء الرواية:

"بعضهم يذهبون إلى مثوى الأموات، لكن ليس جميعهم بالطبع. إنهم العبيد الخونة والكسالى والعجز الذين يذهبون إلى هناك من كافة أنحاء العالم ويذوقون عذابا أليما لا يحل بغيرهم. هؤلاء كانوا أول من تجمهر حولي وأرادوا أن يشربوا دم القربان، لكنني أعدتهم إلى أمكنتهم وطردتهم بسيفي. صحيح أن العبيد لا مكان لهم أبدا - أو

غالبا ـ في الأغاني أو سجلات التاريخ أو حتى في الأحلام، لكنهم كانوا هناك. وكما قلت، لعبوا دورا صغيرا جدا في مثوى الأموات أيضا".

لاحظ أن الكينوس ألقى نظرة خاطفة على المدخل المعتم، باتجاه أولئك الذين يستمعون في الظلمة، الناس من كافة الأصناف والمشارب الذين وقفوا هناك في الباحة الأمامية.

قال الراوي: "كانوا عبيدا مأفونين ثاروا ضد أسيادهم الشرعيين. لم يكونوا عبيدا من الإغريق، بل أتوا من بلاد تقع في أقاصي الجنوب والشرق، حل بهم العقاب الأبدي، وعانوا كل يوم وجلدوا بالسياط وتضوروا جوعا في الجحيم. فقد أثموا وأذنبوا بحق الآلهة برغم كل شيء. كانوا في الحقيقة غبارا، سديما، سحبا دخانية نتنة تنفخها الأرض".

خلص ذلك روايته من العبيد ـ لكن الفكرة القديمة ظلت واضحة المعالم داخله. خطرت له مرة بعد سقوط طروادة: العبيد التابعون للجنود المشاة وأولئك الذين قادوا المركبات الحربية تعرضوا للقتل مثلهم مثل الأبطال تماما. بل أكثر. كانوا يردُون بسهولة.

قال: "في واقع الأمر يمكن القول إنه لا يوجد عبيد في مثوى الأموات. أي أن الأرواح، السديم الذي تدفق نحوي، كانت سدما من العبيد، علاوة على أن من المعتقد أن بعض الشخصيات البارزة من الموتى أخذت خدمها معها. لا أستطيع أن أدلي برأي قاطع في هذا المجال".

بذل ما بوسعه ليقدم لهم جحيما سمعوا بها وتلتزم بما أوردته الأساطير القديمة عنها.

قال: "برغم كل شيء، ما زاغ البصر وما طغى. إذ لم أر ما كان يحدث هناك، لكنني كونت على أقل تقدير فكرة عن المكان حين سمعت أصوات الخوار والتنهدات تلك. استطعت أن أرى بعين الخيال سيزيف يدحرج صخرته ويتصبب عرقا ويسيل الدم من قدميه ـ ويرتقي صعدا نحو قمة الجحيم ثم يعيدها كرة أخرى. وحسبت فعلا أنني رأيت تانتالوس، وقد جفت شفتاه واشتد غليله أكثر من كل العطاش، يقف في نبع صاف والماء يصل إلى ذقنه. تخيلوا ذلك: ماء عذب بارد صالح للشرب في يوم صيفي

لاهب! (قال ذلك ورفع كأسه ليرفع كثير من المستمعين كؤوسهم أيضا). ثم انحنى وحاول أن يقرب شفتيه المشققتين من سطح الماء، لكنه غار، وانحنى أكثر فغار بسرعة أكبر، ثم خر على ركبتيه وانبطح في حفرة ليختفي الماء تماما في جوف الأرض، وما لمسه فمه في نهاية المطاف لم يكن سوى حمأ جاف، كجفاف شفتيه. وحين يحاول الوصول إلى غصن الفواكه المعلق فوقه أو اللحم على الأطباق حوله، يرتفع الغصن وتنزلق الأطباق مبتعدة عنه - مسافة لا تمكنه إلاّ من لمسها بأنامله".

أمكن سماع الناس يزدردون ريقهم حتى في الباحة الأمامية خارج القاعة، وعلت لبضع لحظات قرقعة الكؤوس وهي تستبدل على الموائد. وضع الكينوس كأسه؛ قال والتمعت عيناه أكثر الآن:

"أجل، ذلك هو مثوى الأموات!".

تلك هي اللمسة الصائبة؛ كانوا معه.

قال: "لا أستطيع سرد كل ما حدستُ فيه وخبرته تقريبا هناك على طول الطريق السفلي، كل ما كنت قريبا منه وتمكنت من تخيله".

تلمس طريقه باتجاه الأسطورة كما تذكرها الآن في ساعة الإرهاق والإنهاك تلك. التقط الأبطال - زرافات ووحدانا - من الحرب، إضافة إلى عدد من أنصاف الآلهة، وتركهم يمرون في رتل واحد، ثم جعلهم يتقدمون إلى بركة الدم ويشربون أو يمتنعون عن الشرب. استرد معدل تقدمه السردي. تردد عند هرقل، لكنه قدم أغاممنون - كان دائما مصدر نفع وما زال ذائعا في الأغنيات - واياس وآخيل، وأخبرهم أن آخيل قال إنه يفضل أن يرعى القطعان على الأرض، على سطحها، من أن يكون علما بارزا ونصف إله تحتها، في عالم الموتى. قدم أيضا شخوصا أخرى في أوضاع اختلط فيها الحابل بالنابل، حالما خطرت له، مما أعطى الحكاية مزيدا من التنويع. ارتعب مستمعوه؛ لكنهم فتنوا، أسرهم واستحوذ عليهم - تماما مثلما سيطر على مثوى الأموات وفعل به ما شاء من خلال كلماته. وعبر هذه الطرق الالتفافية رجع إلى الشخص الذي نسيه فترة طويلة: ثيريسياس.

عرف بأن عليه أن يبتكر شيئا مفيدا وعمليا من روح عجوز طيبة. تذكر منامه على الطوف وأجرى تعديلا عليه ليناسب المقام والمقصد.

"وعدت بتقديم أفضل بقرة لدي قربانا للأرواح حين أرجع إلى الوطن، وحصل ثيريسياس على وعد بذبح خروف كامل له إن تنبأ بمصيري. وهذا ما فعل. تنبأ بكل ما حدث لي منذئذ، وأخبرني أن من الصعب تهدئة غضب بوسيدون علي. حذرني من مغبة لمس قطيع هليوس على الجزيرة الثلاثية الشعب (ينبغي تسميتها فعلا بالجزيرة المثلثة)، ثم قال إنني سأذهب إلى أماكن أخرى، لكنني سأفقد كافة رجالي في الطريق، وإن المطاف سينتهي بي مع كاليبسو، حورية البحر. كما توقع، قبل كل شيء، بأنني سآتي إلى هنا، وسيكون هذا المكان بمثابة المرحلة الأخيرة قبل أن أصل وطني من جديد".

توقف وفكر. لم يكن هناك شيء في أحلامه يتعلق بهذه الجزيرة وسكانها، لكن كانت تلك فكرة عملية وتابع لها:

"قيل لي إنني سألقى استقبالا حافلا منكم، وسأجلس مع مليككم في إحدى الأمسيات وسوف تقدمون لي المساعدة للعودة إلى وطني على متن سفينة جيدة. وقال إنكم مشهورون بالجود والكرم وتعودتم تقديم هدايا كبيرة لضيوفكم".

شرب وفكر مرة أخرى. مسد الكينوس لحيته ونظر إلى المائدة. وحدق حكام الدوقيات إلى طاساتهم وأقداحهم. نهضت أريت بحذر وانسلت خارجة بهدوء. سمع وقع صندلها في الممر، سمعها تنادي ابنتها - نوسيكيا كان اسمها - وتطلب مشعلا. أحدهم صعد - أو نزل - بضع درجات. أتى عبد وأضاء المشعل من النار وخرج ثانية وهو يقي اللهب بيده.

قال الكينوس وهو ينظر إلى الأعلى: "فكرت فعلا بتقديم الهدايا لك. ونويت إعطاءك اثنتين من أفضل الكؤوس لدي إضافة إلى زبدية. بالمناسبة، هل ذكر ثيريسياس شيئا عن الكؤوس؟".

"لا، لم يدخل في التفاصيل".

قال الملك: "كل ما تقوله لنا يبدو صادقا وصائبا، فيما عدا ما ذكرته عن العبيد في مثوى الأموات بالطبع".

قال: "كانوا سديما على الأغلب".

أدرك أن عليه أن يخبرهم المزيد عن الموت. كانوا خائفين، وربما محزونين، لكنهم لم يسأموا من الموت بعد: لم يكن موتهم. تذكر حلمه على الطوف.

قال: "نبئت عن موتي. لن يأتي من البحر. ولسوف أحمل مجدافا على كتفي يوما ما وأتوغل في المناطق الداخلية حتى أصل إلى قوم لا يعلمون شيئا عن الحرب أو البحر وسيحسبون المجداف رمحا أحمله على كتفي. ومن ثم سأقدم قربانا إلى بوسيدون، ونصبح صديقين، وأفترض أنني سأصبح..".

أوشك أن يقول "سعيدا".

"من الواضح أنني سأموت بهدوء. سأبلغ أرذل العمر على ما يبدو".

الآن هزتهم الإثارة.

قال: "لربما سأصبح صنفا جديدا من البشر".

سأل الكينوس: "من أية ناحية؟".

قال: "لا أدري، لم يكن ذلك واضحا".

سمع صوت الملكة الحاد الصارم وصوت الفتاة الخفيض الناعم. دخلت أريت وجلست صامتة، ونظرت متسائلة إلى زوجها. بدا وجهها أكثر قتامة تحت "مكياجها" الآن. أما في المدخل المفضي إلى الحجرات الداخلية فقد وقفت الابنة.

سأل الكينوس: "وماذا قال أيضا".

"لا شيء. اختفى في جوف الأرض من جديد. ثم ابتعدت أنا، إذ لم يتبق شيء أسأله عنه".

"لا، لا، بالطبع".

"ثم مشيت على طول ضفة النهر ووجدت رجالي والمركب وأبحرنا عائدين إلى سورسي".

"إلى سورسي؟".

ثم تذكر خطته.

"أجل لا بد أنني نسيت إخباركم بأن أول من ظهر من بوابات الجحيم كان البينور، ذاك الذي صعد إلى السطح وسقط فكسرت عنقه. تركناه دون أن ندفنه والآن أرادت روحه منا أن نبحر عائدين إلى سورسي لكي نواريه الثرى. فعلنا ذلك، ومن ثم..".

* *

تحدث عدة ساعات أخرى، وحين تكلم كبرت الذكريات داخله، أصبحت واضحة

وحقيقية. يمكن القول إنه انسحب إلى الوراء هربا من ذكرياته، مراوغا ومخترعا وملفقا. روى لهم حكايا: حكاية "السيرانات"، لكنها لم تكن مطابقة تماما لتلك التي رواها لكاليبسو. حولهن إلى بنات الصيف، إلى حبال معقودة على شكل أنشوطات تمتد وعليها ملابس صيفية، كما دعاهن، لكي تلتف حول عنق الرحال الذي تسهل غوايته، إلى "مقدرة الإقناع". أخبرهم كيف أمر رفاقه بوضع سدادات شمعية في آذانهم، بينما وقف هو مربوطا بالصاري وسمع أغنيتهن المغوية، حين أبحرت السفينة قرب جزيرتهن. روى لهم كيف تردد قبل أن يختار الطريق التي سيسلكونها وقر رأيه على المعبر الشرقي الخطر الواقع بين البر والجزيرة الثلاثية الشعب - التي ربما كانت الجزيرة المثلثة - بحيث يتجنب الخط الالتفافي، لأنهم سوف ينعطفون شرقا إلى البحر الايوني عند الطرف الجنوبي من ساحل البر الطويل. مرة أخرى أرعبهم وأسرهم لوهلة بوصف المعبر بين سيلا وكريبديس، وكيف لم يتمكن من مقاومة تحدي سيلا، المرأة/الوحش بأقدامها الاثنتي عشرة ورؤوسها الستة وصوتها النابح كالكلاب، بالرغم من التحذير الذي تلقاه من مغبة القيام بذلك. الإيماءة التي أداها برمحه ربما كانت أشبه بإشارة صياد المياه العميقة، حامل الحربة الطويلة، منها بإشارة المحارب، لكنها كلفته ستة رجال: مدت عنقها وأخذتهم في حين كانت كريبديس على الطرف الآخر من الدوامة الهائلة تبصق نارا. لم يجرؤ على القول - في تلك الساعة المتأخرة من الليل وأمام ذلك الحضور من المستمعين المتمرسين - إن التيار على طرف كريبديس كان قويا فلم يجرؤوا على الإبحار بمحاذاة الشاطئ هناك. لكن خسر ستة رجال. أفسح المجال للذكرى. أجل، لم يتراجع أمام ذكرى تلك الحادثة حين بدأ رجاله الشجار فيما بينهم، وكيف هللت المغاور عند حافة المياه حين دُفع اثنان وسقط أربعة من السفينة بجانب الصخرة. همس شيء في أعماقه: إنها أسماك القرش!

في آخر الليل أخبرهم عن قطيع إله الشمس المقدس، الأبقار الحمراء والثيران، الخراف البيضاء والسوداء وتمرد الأبطال من أفراد طاقمه ودمارهم. لم يستخدم كلمة تمرد: سماه الجوع.

بحلول ذلك الوقت، انقضى قسم كبير من الليل، وانخفض عدد المستمعين برغم كل شيء. كثيرون عادوا إلى بيوتهم - يجرون أقدامهم، وتطن آذانهم. عدد من أعيان

البلدة غلبهم النعاس حيث جلسوا إلى موائدهم؛ بعض المستمعين الأقل شأنا غطوا في نومهم على العتبة وعلى الأرض بمحاذاة الجدران. في حين نام غيرهم في الباحة الأمامية، وعلا صوت شخيرهم، وبين حين وآخر، كان يصحو واحد من حكام الدوقيات وينظر حواليه جفلا. في بعض الأحيان كان الكينوس يغمض عينيه، لكنه ظل صاحيا دوما؛ كان يريح عينيه في العتمة وهو يصغي. غفت أريت فترة قصيرة، لكنها كانت صاحية تماما قرب النهاية؛ وحين التفت هو نفسه نحو باب المنزل، لكي يخفي تثاؤبا دهمه وحاول مقاطعة حكايته، رأى نوسيكيا: ما زالت جالسة على العتبة تحدق إليه بعينين صاحيتين متيقظتين أكثر من كل العيون الأخرى. ومضتا باتجاهه، بترقب وانتظار.

روى لهم كيف أبحر هؤلاء الرجال، هؤلاء الأبطال، وكدحوا وعانوا طيلة شهور عديدة، طيلة ثلاث سنوات ربما في سبيل العودة إلى زوجاتهم، وأطفالهم، وآبائهم وأمهاتهم، وقطعانهم، وحقولهم. كيف أثقلهم، بل أنهكهم عبء المجد، بأسمائهم التي حفرت للأبد في الأغاني، لكن بأيد فارغة، تصلبت وتشققت بسبب الماء المالح، وبطون خاوية في معظم الأحيان، وعيون تاقت بلهف للأمان والسعادة البعيدي المنال. لم يصلوا أبدا إلى دوليكيوم المشهورة بزراعة القمح، ولا ساموس الصخرية، ولا زاكينثوس الغابية، ولا إيثاكا التي كانت بالنسبة لهم "سرة" العالم.

خلال هذا الفصل الأخير من حكايته، لم يعد يحاول اتباع خطة محددة، أو يسليهم أو يخيفهم. دفقت القصة منه مثل ماء ينساب من إناء نزعت سدادته، أو مثل خمر ثقيلة صرفٍ تسيل من جرة. لم يسخر من الآلهة ولم يقل شيئا يغضبها، لكنه أيضا لم يتذلل لها. أبعدها جانبا، باتجاه ما ليس مهما ولا جوهريا، وآخرها هليوس. ترك إله الشمس الغاضب يعاقب الرجال الذين ذبحوا وأكلوا حيواناته، وذلك لتأكيد مغزى القصة لالكينوس. وفي هذا كفاية. الرجال واجهوا مصيرهم المحتوم. لم يعلق على الأمر كثيرا، لم يعنف رفاقه بشدة؛ اكتفى بالقول إن ذلك كان قدرهم. بوسيدون وزوس وهليوس أرادوه على هذا النحو؛ وحل الدمار بالرجال. قال:

"هبت العاصفة. جرفنا الموج باتجاه الدوامة الهائلة من جديد. بين الجزيرة المثلثة، التي ربما هي الجزيرة الثلاثية الشعب، والبر الرئيسي، انقلب المركب. كنت الوحيد الذي

نجا. غرق الآخرون. جرفني التيار طيلة تسعة أيام باتجاه الحافة القصوى للعالم، نحو الغرب، وما وراء الغرب، نحو أراضي أطلس، ومقاطعات الاسبان. في الليلة العاشرة جرفني الموج إلى شاطئ أوغيغيا حيث تعيش حورية البحر كاليبسو. بقيت معها سبعة أعوام. لا أرغب في الحديث عنها".

أغلق الحلقة حوله: سلسلة من الأحداث، دائرة، حيث مثل جزءا من شخصيته البحّارُ، الحافة الخارجية، محيط الدائرة، والجزءَ الآخر جسدُه المركز، المراقب.

قال: "تلقيت أمرا. كان نداء داخليا مستحثا، لا، كان هرميز. قطعت الرحلة من أوغيغيا إلى هنا بسبعة عشر أو ثمانية عشر يوما. وليس هنالك المزيد لأرويه".

صمت. سقط طاس فارغ وتدحرج على الأرضية الحجرية مصدرا قعقعة ورنينا. ارتفعت الذقون، أفاقوا من إصغائهم أو غفوتهم. بدأ أولئك الواقفون في الباحة الأمامية خارج القاعة بالتحرك، الأقدام الحافية خطت بصوت خافت، الصنادل علا وقعها. طفل بدأ البكاء، أسكته صوت امرأة. تسمرت الرؤوس على الفتحة السوداء للمدخل، همس أحدهم: "هل هذه هي الخاتمة؟". نظر الكينوس متسائلا إلى الرحال الذي أغمض عينيه، ثم أومأ إلى الوجوه القابعة هناك، في العتمة.

في القاعة، بدأ الحضور ينهضون، لكن تطلب الأمر وقتا قبل أن يقنعوا أنفسهم بذلك. الشيب بمفاصل يبّستها السنون، والشبان بخطوات جليلة؛ لكنهم أصبحوا سواسية حين احتشدوا في المدخل. في الباحة الأمامية غمغمت أصوات، وعلت، وأصبحت تواقة متحمسة. الشيوخ من حكام الدوقيات انحنوا أمام الملك، وبعد تردد، انحنى أمام الراوي أيضا أكبرهم عمرا، ايكنيوس، ذو اللحية البيضاء؛ ثم حذا حذوه المستشارون الآخرون. آخر من غادر كان المغني، ديمودوكوس، ويده على أوتار قيثارته، التي كانت مترعة بالنغمات الجديدة إلى حد أنها ارتعشت.

انسحب أيضا أبناء الكينوس الصامتين، بقاماتهم الطويلة. لكن حين نهضت نوسيكيا من العتبة لتفسح لهم الطريق، دخلت القاعة بخطوات وئيدة وجلست بجانب أمها. بقي أربعتهم فقط حين بدأت النار تخمد.

سأل الملك: "مزيدا من الخمر؟".

نظر ضيفه إليه وهز رأسه.

"شربنا ما يكفي، وأخشى أنني أطلت الحديث إلى حد الملل؟".

قالت أريت: "أوه، لا أبدا. ينبغي ألاّ تظن ذلك".

قال الكينوس: "الشيء الوحيد الذي لا أستطيع تحمله هو ذلك الجزء المتعلق بالعبيد".

حاول أن يتذكر.

"العبيد؟".

"أجل، في مثوى الأموات".

قال: "آه، في مثوى الأموات. بالطبع. لا، لم يكن هناك عبيد في الحقيقة. كانوا كلهم موتى. أعني رقدوا في الأرض وتفسخوا بعد موتهم. لم يحدث لهم شيء بعد ذلك".

قال الملك، بعد أن فكر بهذا دقيقة أو اثنتين: "أجل". ثم تمطى، ونفخ صدره ورفع ذراعيه: أوشك على التثاؤب. لكنه لم يأت، فتحررت الذراعان، ثم تدلت كل واحدة على جانب وهي ما تزال مثنية؛ نهض واقفا. قال بصوت فيه ملمح من الوقار: "لن تذهب من هنا بدون هدايا يا ملك ايثاكا". لكنه ترنح قليلا. أردف: "تعال معي".

سار الاثنان عبر الممر إلى حجرات المؤونة، الملك أولا، ثم أريت؛ وأخيرا الفتاة؛ أخذت معها مشعلا.

قال الكينوس: "أعطني المشعل من فضلك". حمل المشعل الداخن بينما فتحت الملكة باب حجرة الكنوز.

جاب بالمشعل أرجاء الحجرة. تجمعت الكؤوس والأقداح والطاسات والأواني الذهبية والفضية في فوضى عارمة على رفين اثنين. تراقص الضوء كاليراعات فوق تلك الكنوز كلها.

قال الكينوس: "تحدثت مع المستشارين، لسوف يحضرون هداياهم غدا. لن تعود إلى ديارك خالي الوفاض. كلهم أثرياء. وعلى أية حال سوف يسترجعون بعض ما سيقدمونه عبر جمع العطايا من الجمهور، جمهور الحاضرين الذين استمعوا إليك. لكن فكرت أن أعطيك هدية إضافية على الفور".

تفرست نظراته في الرفين.

"أين هما الكأسان البديعتان والزبدية الكبيرة يا أريت؟ تعرفين أيها أقصد".

بان الاضطراب والارتباك على أريت. ثم استجمعت حصافتها:

"لكن وهبت هذه من قبل. ألا تذكر؟ في الاحتفال الديني بعد الحصاد في السنة الماضية، حين زارنا ضيوف من البر الرئيسي؟".

بدا منذهلا، ولربما محرجا أيضا.

قالت نوسيكيا: "لا، ها هي هناك في الخلف".

أشارت؛ فارتعشت اليد النحيلة.

قالت أريت: "أوه، لا، ولكن.. لم أقصد هذه. إنها غلطتي".

قال الملك بعد أن أنزلها من الرف: "خذ". كانت من الفضة المطعمة بالمينا من الخارج ومطلية بالذهب من الداخل.

قالت أريت: "لسوف أحرص على وضعها مع البقية. في صندوق الثياب الذي سيأخذه معه. نوسيكيا، هل.. أتيت إلى هنا ورتبت التحف والكؤوس؟".

قالت الابنة: "أجل".

قال الملك: "ولسوف نقيم مأدبة غدا. تليق بك. من المؤسف أنك لن تستطيع البقاء هنا، معنا، مع الأسرة. لكنني أتفهم تماما رغبتك بالوصول إلى وطنك".

أحنت الفتاة رأسها ونظرت إلى الأرض.

قال: "يجب أن أعود إلى دياري، وبأسرع ما يمكن".

قال الكينوس: "لكنك لن تغادر قبل حلول المساء. لسوف نخدع بوسيدون. لا، كنت أمزح. لكننا نبدأ دائما رحلاتنا الطويلة نحو الجنوب في المساء، تلك عادتنا. تساعدنا على الإبحار التيارات الجنوبية والرياح التي تهب من البر".

قال: "أجل، أنا شديد الامتنان".

كان مرهقا منهكا. ويكاد لا يصغي، لكنه نظر إلى مجموعة التحف. فكر: لن أعود إلى وطني فقيرا. لكن كيف سأحتمل يوما آخر هنا؟

كانت نوسيكيا تقف خلفه؛ أمكنه الإحساس بأنفاسها، والدفء المنبعث من جسدها، ورائحتها الأنثوية.

حين عادوا إلى القاعة سار بجانبها. فكر: لو أنه رجل آخر مختلف، وأصغر عمرا، لربما بقي هنا.

-٢٦-
المتردد

تعاون الكل: الآلهة، والبحر، ومنامه.

فيما يتعلق ببوسيدون، ينبغي أن نذكر أنه خدع بحلكة الليل ثم بسديم الصباح، لكن برغم ذلك اقتنص فرصته ليسدد ضربة، ويستفيد منها. الضربة أصابت البحارة الفيشيين من سكان جزيرة سكيري في طريق عودتهم إلى الوطن وأوقفت لمدة طويلة مساعدتهم للآخرين، وبالتالي قضت على نوازع وميول عمل الخير لدى البشر في كافة أرجاء العالم. حين انطلق بحارة سكيري في رحلتهم جنوبا تحت جنح الظلام، لم يرهم إله البحر، لكن بمقدور المرء - طيلة ألف عام - أن يلمح دوامات الغضب العارم الذي شعر به حين اكتشف عند الصباح ما حدث: الرحال أفلت من قبضته. في الفصل الثالث عشر من "الأوديسة" يمكنك - إن رغبت - قراءة كيف تحولت سفينة بحارة سكيري العائدين إلى جزيرة صخرية صغيرة. زوس نفسه هو الذي فعل ذلك بابتسامة ربما كانت في نهاية المطاف مريرة. مغامرة جديدة لمصير البشر كانت على وشك أن تبدأ.

* *

أجل، كل العوامل تضافرت لتقديم العون - مجدفو الكينوس، البحر المعتم، نسيان وإهمال بوسيدون، الريح الشمالية المناسبة، والتيار المتدفق جنوبا، وسلطان الكرى الذي استسلم له. غط في نوم عميق سببته مأدبة الوداع. أقام الكينوس مأدبة على شرفه. حملوه إلى السفينة في المساء وبلغوا وجهتهم وما يزال الظلام مخيما. وحسب التعليمات المقررة، أنزلوه على ساحل الخليج العميق، بفراشه وأمتعته، ووضعوه في المكان المحدد تماما، بعيدا قليلا عن الشط قرب الجبل تحت شجرة زيتون ضخمة، ووضعوا بجانبه صندوقي السفر وزادا يكفي ليوم واحد: خبز ونبيذ. المكان كان محميا

تماما ويقع مباشرة فوق درب الشاطئ أمام مغارة. زحفوا بعيدا، وانطلقوا بمركبهم مجددا، ونحن نعلم ما حدث لهم بعد ذلك.

* *

أفاق وظل مستلقيا لوهلة مغمض العينين، مصغيا للبحر. ترقرق الموج، وأصدر خريرا وأزيزا وهو يسيل بين الحصى على الرمل. وداعبت الريح الخوذة المورقة فوق رأسه؛ فتح عينيه ونظر إليها. لألأت الأوراق مثل الفضة الباهتة. زيتون شجرة أثينا. تلمسها بيده. كان مستلقيا على حشية ناعمة. تحت عباءة رمادية سميكة. لقد نقلوني إلى هنا

جلس. آخر شيء تذكره كان نهوضه عن المائدة. كان رأسه ثقيلا، ورجلاه على وشك الانهيار، لكنه منعهما؛ سيذهب ويستلقي قليلا. أمسك يد الفتاة، ثم الأم، ثم عاد إلى يد الفتاة. تكلم عن موضوع ما. بكت الفتاة. طلبوا منه البقاء. لم يتذكر بم أجاب. أراد أن يستلقي وينام. كانوا سيوقظونه، لكنهم لم يفعلوا؛ على أية حال لم يستطع أن يتذكر أكثر من أنه حين كان شبه نائم، سمع رجالا يتهامسون وهم يحملونه عند الغروب. تأرجحت السفينة؛ وأبحرت. ما استطاع الآن أن يراه من خلال الأوراق والأغصان كان بلدا مجهولا لم تطأه قدماه.

رأى حافة الماء، والزبد على الشط، ثم السديم الضبابي. كان الشط مقفرا، ولا يوجد أي مركب. حين استدار باتجاه جدار الجبل خلفه، شاهد فتحة كهف. انتصب فوقه الجبل، شاهقا، مغطى بالشجر. أبعد العباءة ونهض؛ كان جسمه متيبسا. آلمته كتفه اليسرى، وثمة وجع في ركبته اليمنى.

كان الهواء باردا رطبا؛ لاحظ أن السماء تمطر رذاذا خفيفا. الصندوقان موضوعان خلف جذع شجرة. على أية حال لم يسرقوا كل شيء. تبللا بفعل الرطوبة. انحنى إلى الأمام وحدق داخل فتحة الكهف، وزحف إليه مترددا. التمعت الجدران وهي تقطر ماء تحت الضوء الرمادي المتسلل من فتحة صغيرة في مؤخرة السقف. لا بد أن انهيارا حدث هناك فالحجارة متداعية. لربما أرادوا أن ينهار فوقه. راوده شعور بأنه كان هناك من قبل، ربما في منامه.

قال بصوت عال وانسل خارجا: "هذا غريب فعلا".

وقف مرة أخرى أمام الصندوقين وفكر مليا قبل أن يمسك بالسيور الجلدية التي تربطهما ويسحبهما إلى الداخل. كان المدخل ضيقا بحيث اضطر لأن يدب ببطء أمامهما ويجرهما خلفه؛ المكان في الداخل كان أرحب. توجع جسمه؛ ووخزته يداه. حين أدخل الصندوقين فك السيور الجلدية. وجد في أحدهما زبدية كبيرة من الفضة والذهب، واثني عشر قدحا، وبعض الكؤوس الأصغر حجما. وفي الأسفل هناك قالب ذهبي بطول ذراع وبسماكة معصم قبطان سفينة مكتمل النمو. إذن لم ينهبوا شيئا من الهدايا التي قدمت له. الصندوق الثاني ضم ملابس، لكن خاب أمله حين فتحه: الثياب على السطح كانت خرقا قذرة، عباءة رقيقة مهترئة بالية، ولباسا داخليا وسخا وممزقا إلى حد لا يصدق. ثم ظهرت قطعة قماش كتانية نظيفة، وتحتها ملابس فاخرة غسلت حديثا أو لم تستعمل وقد طويت بعناية. هنالك ثلاثة عشر رداء مطرزا بعدة ألوان، وثلاث عشرة عباءة صوفية، مطرزة أيضا، وثوب نسائي أحمر وأبيض خيطت عليه اللآلئ، بالإضافة إلى أربعة أزواج من الصنادل الجديدة، وقطعتي قماش مهدب بخيوط الذهب، وخوذة برونزية بعرف أبيض، ونصل رمح وسيف قصير بمقبض من الفضة والذهب.

لكن اختفت الكأسان وزبدية النبيذ التي اهتمت بها أريت.

لا بد أنهم سرقوها، ولهذا انسلوا خفية. لكن شعر بنوع من الامتنان والفضل. كان بمقدورهم قتلي ونهب كل شيء. وجد الطعام. إذن لم يرغبوا بأن أموت جوعا أيضا. لقد تركوني في مكان ما.

أدخل الحشية إلى الكهف. لم يدخله مخلوق منذ زمن بعيد على ما بدا. قرب أحد الجدران هنالك سرير من العشب والأوراق المضغوطة والمسحوقة؛ وضع الحشية عليه. مرة أخرى، فكر وتأمل، وعاين ملابسه؛ كانت أنيقة؛ خلع رداءه، وفك صندله ولبس الأسمال. هنالك قصد ذكي رائع خلف هذا، هكذا فكر ببلادة. الناس لا يقتلون المتسولين على الفور، بل يعطونهم الفرصة للكلام والجواب. حزم باقي الملابس ووضعها داخل الصندوق. جلس على الحشية ولاك قطعة من الخبز. الوحدة اكتسحته، من الداخل والخارج في آن. همست قطرات المطر الناعمة على قمة الشجرة في الخارج. ذهب الصداع لكن ما زال يشعر بثقل في الرأس.

تفاقم قلقه. بعد برهة دب خارجا من الكهف. بدأ السديم الضبابي ينقشع وينجرف على شكل لفائف عظيمة باتجاه البحر. كان في مكان قريب يشرف على شاطئ الخليج الواسع الذي بدا كبحيرة رقيقة الموج: ميناء محمي على الخليج. شهقت الجبال حوله، وغابت عن البصر ذراها. المنحدرات تغطت بالغابات. موجات متمهلة كانت تأتي فوارة إلى الشطآن، لكن سطح البحر هناك بدا هادئا ساكنا.

ما رآه ملأ كيانه بتبريح الخوف. كان هنا في الحلم. حاول لوهلة أن يقنع نفسه بأنه ربما رجع إلى جزيرة كاليبسو، لكنه عرف بأنه ليس هناك. ارتقى المنحدر. الدرب اختفى في الدغل الكثيف. أخذ غصنا يابسا وحمله كعصا ليصعد مسافة قصيرة مخترقا الشجيرات الخفيضة؛ كانت المياه تقطر من أغصانها. لم يكن الدرب طويلا؛ ويبدو أن أحدا لم يطرقه منذ زمان بعيد. خفق قلبه بشدة وهو يتسلق جذور أشجار ميتة قديمة هرأتها أقدام داستها قبل عهد بعيد. فكر: لا. لكن اليقين قال أجل. فكر ثانية: لا.

برز خارجا من أرض مغطاة بأشجار خفيضة إلى ما يشبه النجد. صفا الجو الآن أكثر؛ لمح البحر، ولاحت الروابي المحيطة بالخليج بصورة أوضح. بعد مسافة قصيرة ولج غابة سنديان. شاهد آثار حوافر على الدرب.

على مسافة أبعد قليلا، وتحت منحدر شاهق جديد، وجد نبعا، أو بالأحرى سدا يحجز مياها نقية عذبة. توقف وحدق إليه فترة طويلة قبل أن يركع ويشرب. عب مع الماء قلقا جديدا، ومزيدا من الفزع. وهنا أتى اليقين المؤكد. تبع الدرب صعدا وببطء أكبر ووصل إلى مصطبة أخرى. هنا أمكنه أن يراه.

شاهد معظم الخليج ممتدا أمام ناظريه من مكانه المرتفع. لاح سطح مياهه كالقصدير، كاللجين الباهت. عرف معالم المنطقة فجأة. هناك إلى الشرق بر أكارنانيا. وإلى الغرب خلف الغابات والتلال يقع مضيق ساموس. وإلى الشمال، على الطرف الآخر من البرزخ الضيق المؤدي إلى جزيرة الشمال، على مسيرة نصف يوم من هناك، تقع مدينته.

لا يمكن للراوي، ناقل الأحداث، فهم ما شعر به قبل ظهر ذلك اليوم، حين وقف في الفرجة وسط غابة السنديان تلك، في الغابة الواقعة أسفل صخرة رافري إلى الجنوب من ايثاكا، إلا من خلال الحدس والتخمين. أشارت إليه الأغنيات التي تناولت الرحال

بكلمات فخيمة جليلة، ووُصف باعتباره تجربة إلهية مقدسة، كانت بالطبع أيضا: تجربة بصحبة إلهة الحكمة والمعرفة، ابنة ميتيس، حاملة الرمح أثينا. لكن في واقعنا الحياتي الذي يمكن الوصول إليه بواسطة الحدس، كانت تجربة مكثفة من التوحد.

عرف الأمر قبل فترة والآن اعترف به، قبله في داخله. لم تتركه الآلهة يرمى مباشرة في قلب ما كان سيحدث: لقد منح وقتا ليستعد. بحث متلمسا الطريق عن شيء يتعلق به. أمسك بالذكريات. فكر: لقد نمت أشجار الغابات. الأدغال الكثيفة أصبحت أشد كثافة. أشجار السنديان ماتت وسقطت وهو بعيد. العشب خلال عشرين سنة، جال تحت الأشجار، نبت، ونما، وذوى، وضوع أريجه. كانت هناك طحالب أكثر على الصخور. أغصان أشجار الزيتون أصبحت أكثف. حين ركع على ركبتيه وعب من النبع، حين ملأ الماء فيه وبلَّ وجهه، عرف تماما أين كان، مثلما يعرف الرضيع ثدي أمه. لكن الآن، بعد ذلك مباشرة، حين جمع شتات نفسه، تعرف على المكان بذكاء رجل في الخامسة والأربعين.

خلال الحرب وسنوات التيه والترحال، والبدايات في أوغيغيا، كانت زوجته وابنه قريبين منه: امرأة ما زالت شابة، وصبي ما زال صغيرا يكاد لا يستطيع المشي. كان الاثنان ملكه، لاسميهما معنى دلالي بالنسبة له. أحيانا، وإن لم يكن دائما، تلهف لأن يكون معهما هنا. وها هما هناك الآن، ضمن إطار ساحل محدد يستطيع الوصول إلى أية نقطة فيه بمسيرة نصف يوم عبر التلال والغابات ـ لكنهما أشد نأيا من ذي قبل. إنهما على بعد عشرين عاما. أعمق ما شعر به هو الوحدة، أي: الرهبة من لقائهما.

* *

شم رائحة خنازير تأتي من مكان بعيد. بدأت الكلاب النباح قبل أن يصل الفسحة تحت الجدران الناتئة لصخرة رابضة. صوت حاد صرخ عليها، ورأى عجوزا بلحية شعثاء وشعر أبيض طويل يركض بين الشجيرات القصيرة. كان يحمل هراوة مستدقة الطرف بيد، وبالأخرى شيئا يشبه قطعة الجلد.

"سافوفونتيس! سكايرو! سكينوتس! كيليكيوس!"

كانت أربعة كلاب خشنة الشعر، ثقيلة الفكين، رشيقة الحركة، تقفز حوله، وتهر، وتنبح.

صرخ العجوز: "اجلس! اجلس حالا! واترك هذه العصا!".

لم يكن هناك شيء اخر يفعله. وضع عصاه، وقرفص، وانتظر. وقفت الكلاب حوله نابحة. نادى العجوز أسماءها مرة أخرى، وتلقى الأول بينها ضربة بالهراوة، فتراجعت جميعا وهي تئن وتهر وتجر أذيالها خلفها.

"حسنا، يمكنك الآن أن تقف".

ربض الكوخ الصغير بين الشجيرات، قرب منحدر تحت الصخرة المثقبة؛ وهو مشيد بواسطة بضعة جذوع من شجر الصنوبر واحدا فوق آخر، أما السقف فقد غُطي بالتربة والأغصان. وله ما يشبه الرواق المفتوح جلست فيه الكلاب تراقب بارتياب، وتنتظر. وخلفه تقع حظيرة حجرية تمتد حتى حافة الصخرة، مدعمة بركائز ومسقوفة بسياج من الزعرور البري. زعقت الخنازير الصغيرة، ومثل قرع الطبول الثقيل في "أوركسترا" أتت أصوات أمهاتها الناخرة. هناك مزيد من روث الخنازير في المغاور تحت الصخرة.

قال العجوز وعلى وجهه تكشيرة مكفهرة/ ودودة: "كانت على وشك قتلك! ليس هناك مزاح معها. فهي تتكلم بأسنانها، وأنت تعرف ما تقصده تماما".

قال: "أوه، رأيت كلابا من قبل. هل أنت يومايوس؟".

أومأ العجوز بجلال، وتمطى.

"أجل، هذا أنا. لقد سمعت عني إذن؟".

"نعم، أحدهم قال لي بأنني سأجدك هنا ـ أقصد ـ سمعت نباحا".

تفحصه العجوز بعناية، أولا وجهه ـ العينين بلونهما الفاتح، والشعر الخفيف، واللحية الحمراء بخطوطها الرمادية، ثم الثياب.

قال بتمهل: "أعتقد أنني رأيتك من قبل، منذ زمن بعيد". فكر لبضع لحظات وأضاف: "لكنك لست من هنا، من الجزيرة؟".

"لا، ولا أظن أنك رأيتني من قبل".

هنالك حدة في صوته. رماه العجوز بنظرة سريعة أخرى. ترددت عيناه ونظر إلى الأرض.

قال مغمغما: "لا، لا أعتقد أنني رأيتك"، وبدأ يمشي باتجاه الكوخ. سار الآخر بجانبه.

قال بلهجة تعالية: "أتيت من كريت يا بومابوس. علي.. أعني: أنا في طريق العودة إلى وطني. شمالا". لو ح بذراعه. "نزلت هنا.. بمحض الصدفة. غرقت سفينتي. غادرت بلدي إلى مكان بعيد.. كنت في الحرب. اه. أجل، إنها قصة طويلة".

قال العجوز: "إنها طويلة عادة مع الحرب. فكرت بهذا الأمر قبل مدة ليست بالبعيدة. كنت أجلس هنا أفصل صندلا جديدا حين اهتاجت الكلاب. من الغريب أنني فكرت في تلك اللحظة بهذا: قصة الحرب الطويلة دوما. تتواصل وتستمر وتتواصل مثل مويجات تصدر عن حجر ألقي في الماء. تستمر القصة بعد مدة طويلة من انتهاء الحرب فعلا. أو بعد أن يقال بأنها انتهت".

على مقعد في الرواق وضعت سكين برونزية معقوفة، وقطعة من الجلد، وزوج من السيور التي قطعت حديثا. العجوز هوّى وجهه بالنعل الجلدي الذي أمسكه بيده كأنما يبعد ذبابا لجوجا. انسحبت الكلاب وهرت. الباب كان مفتوحا؛ هنالك بعض الكراسي المنخفضة داخل الكوخ، ومنضدة طويلة ومقاعد بمحاذاة الجدران، وأسرة عليها أوراق شجر، وأماليد، وجلود. الجمر توهج بين الرماد في الموقد في منتصف الغرفة.

قال العجوز: "اجلس. أنت جائع كما أتوقع؟ كل من يأتون إلى هنا يكونون جياعا عادة. ماذا؟".

"لقمة من أي طعام تكفي".

"انتظر لحظة".

فتح العجوز بوابة ضخمة في الحظيرة واختفى داخل الجدار وسياجه. نخرت الخنازير الكبيرة وزعقت الصغيرة. وحين ظهر العجوز مرة أخرى عند البوابة، كان يحمل خنوصا رضيعا تحت إبط كل ذراع، وهما يركلان ويصدران زعقات حادة، في حين تبعته أنثى ضخمة مترهلة العنق. ركل الأنثى على خطمها ليتخلص منها ويتمكن من إغلاق البوابة. كان يلهث كالمربوء حين وصل إلى الرواق مرة أخرى.

"هل تمسك هذا من فضلك؟".

أخذ الرحال أحد الخنوصين؛ لا بد أن عمره لا يتجاوز بضعة أسابيع؛ ركل وزعق بين ذراعيه.

"اهدأ يا صغيري المسكين!".

قال يومايوس: "يجب أن نكتفي بالصغار. فهم - هؤلاء الناس في المدينة - يرغبون بالخنازير الكبيرة اللحيمة. لكن بقدر ما يتعلق الأمر بذلك، لا بأس بهذه أيضا".

ذبح الخنوص بسرعة ومهارة، مثل صياد يصطاد سمكة: قطع رقبته، وشق بطنه وأخرج أحشاءه، لكنه وضع جانبا الكبد والكليتين والقلب؛ إذ لم تكن كبيرة جدا. ثم أخذ الثاني.

قال: "إنها كائنات حلوة جميلة. مثل الأطفال الرضع تقريبا".

قال الآخر: "أنا..".

"ماذا؟".

"لا شيء في الواقع. لكن رأيت، أو بالأحرى سمعت أنهم يقتلون الأطفال الصغار في.. أعني، هناك في الحرب".

"هل شاركت فيها منذ زمن بعيد؟".

"أجل، منذ أعوام. تسعة.. عشرة أعوام".

"كانت تلك طروادة إذن؟".

لم يجب.

لمح البحر من خلال الفرجة. ابتعد السديم الضبابي الآن، لكن ما يزال يربض هناك على شكل ركام خفيف. إلى الشمال، أمكنه أن يرى الخليج العظيم الذي يخترق الجزيرة عميقا في الطرف الشرقي بحيث لم يتبق سوى ممر ضيق يربط جزيرة الجنوب بجزيرة الشمال. هناك خليج صغير تقع عليه جزيرة أخرى، لكن الخليج العميق، ميناء إله البحر القديم فورسيز، يقع إلى اليمين. وحول الأراضي الداخلة في البحر عند المدخل إليه، شاهد حافة الماء البيضاء والموج المتلاطم. لكن داخل ميناء فورسيز كان البحر ساكنا، كأنما هو في كأس. اصفرت خضرة المنحدرات المفضية إلى الشط، فنحن في منتصف الخريف: شحب لون أشجار الزيتون، وتلألأ شجر السنديان ببريق مصفر، لكن الصنوبرات كانت خضراء. الهواء كان دافئا، برغم برودة الخريف.

قال: "أجل، طروادة. كنت مع رجل يدعى.. كان يدعى ايدومينيوس من كريت. تطلب الأمر بضع سنين قبل أن نرجع من هناك".

قال العجوز وهو يضع قطع اللحم على المقعد القريب من الموقد: "كثيرون لم

يرجعوا". كسر بعض الأماليد اليابسة في إحدى الزوايا، وألقاها على الجمر، وقرفص، وانحنى إلى الأمام، ونفخ. حين تسعرت النار، كدس الأخشاب والأغصان الثخينة حول اللهب. تجمع الدخان الكثيف تحت السقف وشق طريقه إلى الخارج عبر ثقب فيه. قطع اللحم قطعا أصغر، وحرق الشعر الناعم، وضمها في عيدان، ووضع العيدان على قضيبين مشعبين. زكمت أنفيهما رائحة الشعر المحترق والدهن. وحين خرج العجوز إلى الرواق المفتوح كان وجهه أحمر كوجه الطاهي.

قال: "سيدي لم يرجع".

نظر إلى الرجل الجالس هناك.

"اسمه اوديسيوس إن سمعت عنه؟ كان ملك الجزر هناك".

مياه الخليج العظيم بدت هادئة، لكن إن أنعمت النظر عبر أهداب جفنيك يمكنك تخيل تقدم موجة خفيفة.

قال الرجل: "سمعت عنه كثيرا".

كان يومايوس ينظر هو الآخر شرقا نحو البحر.

قال: "نادرا ما يعود المحارب سليما معافى". قطر اللحم دهنا وأزّ.

قال الرجل الجالس على المقعد: "أعتقد أن أباه يدعى ليرتيز. كيف حاله، هل هو حي؟".

قال العجوز: "يعيش في الريف عند الطرف الشمالي. أعتقد أنه بخير. لكنه محزون. فحين يذهب الرجل إلى الحرب، لا يرجع سليما معافى أبدا. حتى لو عاد فعلا في أحد الأيام. أنا لست من هذه الأنحاء أيضا".

* *

حين كانا يأكلان، أخذ يومايوس إناء وصب فيه نبيذا من جرة وخلطه بالماء وناوله صامتا لضيفه عبر المائدة. تقابلت نظرات عيونهما، وللحظة أو اثنتين حدق كل منهما في عيني الآخر. فتح العجوز فمه، لكنه اكتفى بالغمغمة؛ لربما كان يصلي. ارتفعت الشمس في السماء، وامتدت الظلال عبر الوادي وعلى طول المنحدرات. مرة أخرى حسب الرحال أنه سمع هدير الموج من الشاطئ هناك. هبت الريح عبر الغابة: سس.. سس.. سس. ركام من السحب الجديدة الآتية من الغرب ارتفعت فوق حافة الجرف وخبأت الشمس.

أكل الاثنان بتمهل وثبات حتى شبعا.

جلسا إلى جانب بعضهما بعضنا على المقعد خارج الكوخ. الالهة جلبته إلى هنا؛ أكل وشرب، اللحم والخمر كانا ملكه؛ الآن لم يعد لديه مزيد من التعليمات.

تفجر الكلام خارجا من فم يومايوس وهما يلغوان: بدأ يخبره عن الأوضاع في الجزيرة.

قال: "ظلوا لعدة سنوات هناك، يأكلون ويشربون في المدينة. ذهب تيليماكوس إلى نستور في بيلوس؛ اضطر لأن يغادر متسللا في السر؛ وإلا لمنعوه من السفر. من الواضح أنه لم يصادف حظا من النجاح في بيلوس، لأن هنالك شائعة تقول إنه الآن في إسبارطة ليطلب العون من الملك منيليوس. سمعت هذا الصباح من رجالي أنهم يكمنون في انتظاره على قمة تشرف على المضيق على طرف ساموس، حيث يمكنك مراقبة الحركة كلها من هناك، كما أن لديهم قوارب تبحر فيه باستمرار. فهم جادون الآن، وينوون قتله. لكن من المفترض أن تكون يوريكليا قد أرسلت شخصا إلى البر لتحذيره. فإن تمكن من دخول المدينة سالما، فسيكون بخير، لأنهم لن يجرؤوا على المساس به هناك".

فكر: هنا يجب على الإلهات المتعطشات للانتقام أن تدخل قلبي وتمنح ذراعي القوة.

في اللحظة التالية خطرت له أفكار عادية: لا أشعر بأي غضب محدد. أمر غريب.

* *

كان يمشي عبر الأرض المغطاة بالأشجار الخفيضة وغابة السنديان فوقها. قال ليومايوس الذي ربط كلابه، إنه سيرتقي التل ويلقي نظرة من هناك. لم يعد روث الخنازير تحت الجرف مرئيا، لكن الدخان المتصاعد من الكوخ وجد طريقه إلى أعلى الصخرة. ومن بين أشجار السنديان على النجد سمع أصوات الخنازير البرية المبتهجة بثمار أشجار البلوط وصيحات قطيع الخنازير. لم يستطع من هناك رؤية المنحدر نفسه أو "المرفأ العميق"، لكنه شاهد الخليج العظيم ينعطف باتجاه شقة الأرض الضيقة. وحين بلغ حافة الجرف رأى جزر ساموس وزاكينثوس الصخرية العالية، والجزر وساحل

أكارنانيا في الشرق، وليوكاس بوينت في الشمال الشرقي. وباتجاه الشمال، على الطرف الآخر من المنعطف نحو ممر الأرض الضيق، رأى الجبال الداكنة على جزيرة الشمال. ووراءها، على بعد مسيرة نصف يوم، تقع مدينته.

حدق إلى الشمال. كان لقاء صامتا، صورة خرساء كان ينظر إليها. لم يكن محايدا أو غير مكترث: لكنه متحفظ كبت مشاعره. عرفها كما يعرف رحال عابر ما يرى: ها هي هناك. جزء من عالمه يقع هناك أمامه. تمكن من أن يقول عن القطاع الساحلي هناك، والجبال في الشمال، والغابات خلفه، والخنازير والرعاة فيها، والخنازير الضخمة التي سرعان ما سيولم سكان المدينة الولائم بها: إنها لي جميعها. عرف أن "لي" تمتد كقوة سلطوية على الرجال والجزر، والسفن وجرار الخمر، والزيت واللحم، والجلد والصوف، ولا تنحصر في الجزيرة هناك. تشمل ساموس وزاكينثوس ودوليكيوم بدوقاتها، وملاك أراضيها، وعبيدها وسعادتها، وعرقها وكدحها، وتوقها للبحر. وقف هناك وامتلكها الآن. عرف ما كان يكمن في انتظاره في الصباح، أو في صباح اليوم الذي يليه، إذا ما تابع طريقه على طول ذاك الدرب المتجه شمالا عبر الغابات، وشقة الأرض الضيقة، وفوق الجبال، ثم نزولا إلى مدينته. سعى جاهدا ليطوق ما يملكه. لقد أحضرته الآلهة إلى هنا. أو ربما صاغ العبارة في فكره بصورة مختلفة، بشكل أقل خضوعا وتذللا: يجب علي أن أنتفض وأصبح محاربا من جديد حين يأتي الأمر. يجب علي؟

عرف ما يستتبعه ذلك لزوما. لن يكون هناك سلام طالما عاش. ولربما بعد مماته.

غارت نظرته المحدقة، وأبصرت عيناه مرة أخرى. رأى قطاعا من الشاطئ، وموج البحر.

* *

في وقت متأخر من ذلك الأصيل، قبل أن يرخي الليل سدوله بقليل، كان يجلس مرة أخرى وسط الظلال الداكنة على المقعد في رواق يومايوس. العجوز انتهى من صنع زوج آخر من الصنادل، وانشغل بخياطة السيور، وقال بصوت رفيع مترع بالرضى:

"يجب على المرء أن ينمي ثروته. وهذا ما تفعله بينلوبي على ما أظن".

انحنى الرحال والتقط الصندل ولمس جلد الثور الناعم المدبوغ.

"من أين حصلت على هذا؟".

قال العجوز: "مقايضة. أي ليس عن طريق الاختلاس؛ لا تظنن ذلك. مراكب الشحن ترسو عادة في الخليج ويأتي بحارتها لزيارتي. يرغبون باللحم دوما. إنهم شباب يتميزون بالأمانة والاستقامة وليسوا قراصنة. وكثيرا ما أعطيهم عن طيب خاطر بعض الخنازير الصغيرة. وفي مقابل ذلك أحصل منهم على قطع من الجلد وأحيانا القماش بحيث أتاجر بها فيما بعد..".

توقف عن الكلام فجأة؛ تقابلت نظراتهما، حدق كل منهما إلى الآخر.

قال: "هذا يساعدني على العيش أيضا. أنا مكتف ذاتيا. أستطيع قول ذلك بكل ثقة. وهكذا لا تخسر شيئا علي".

قال: "أنا متأكد من أنها لا تخسر شيئا. وكذلك اوديسيوس حين يرجع".

أخذ العجوز الصندل ووضعه بجانبه على المقعد. نظر إلى الأعلى ومسد لحيته الشعثاء عدة مرات. كانت الأظافر سوداء، انكسر اثنان منها، وتجاعيد الشيخوخة بدأت تظهر على اليدين.

"هل تظن بأنه سيعود إلى وطنه؟".

وضع ضيفه رجلا على رجل؛ وتهدلت عباءته الرثة القذرة على ركبتيه.

قال: "لا أدري. لكن أعتقد أنه سيعود. هذا ما سمعته من أقاويل يتناقلها الناس هنا وهناك - أن مَن المفترض أن يكون في طريقه إلى الوطن".

قال العجوز: "هَمْ م م. آه، أجل. سيكون ذلك خبرا جيدا بالنسبة لبينلوبي. أظن بأنك تعلم بأن الأنباء الجيدة تفيد ماديا".

أومأ العجوز باتجاه الشمال.

"كثيرون أكلوا ملء بطونهم هناك، اعتمادا على حكاية أنهم يعرفون بأنه في طريقه إلى أرض الوطن. وأنهم سمعوها تتردد على البر الرئيسي، وفي كريت، أجل، في أصقاع لا تعرفها سوى الآلهة. في أرض مصر. أصغت إليهم. أكلوا وشربوا وهي تصغي لهم. حصلوا على الطعام والخمر ليمتلكوا القوة والقدرة على رواية قصتهم. وقبل أن يتابعوا طريقهم يزودون بالثياب والأحذية وصرة كبيرة يأخذونها معهم".

"من هم هؤلاء؟".

قال العجوز: "من هم؟ أولئك الذين يأتون إلى الجزيرة بأسمال بالية. أفاقون ومشردون ومتسولون. افترض أن ما يقومون به نوع من المقايضة أيضا".

قال الآخر: "آه، أجل. لكن ما رأيها هي؟".

التقط العجوز زوج الصنادل وتفحصه عن قرب. حرك السيور قليلا.

"لا أعرف بم تفكر. لكن أظن أنها تأمل".

"هل هي.. متقدمة في السن؟".

فكر العجوز بترو مرة أخرى.

قال: "لا أدري بم أجيب". وضع الصندل على الأرض كأنما انتهى من الحديث عنه. "تناهز الأربعين. لكن أظن أنها تبدو أصغر عمرا. عليك أن تعرف بأنها تنتظر منذ تسعة عشر أو عشرين عاما. وأنا متأكد بأنه لن يرجع أبدا.. أعني، لن يرجع هو نفسه".

"تظن بأنه قد تغير إلى حد أنه لن..".

انتظر العجوز. وحين ظل الآخر صامتا، قال:

"أجل، شيء من هذا. أي نوع من الرجال كانه اوديسيوس حين رحل في ذلك الوقت ليشارك في حربهم الملعونة؟ شاب في الخامسة والعشرين أو نحوها. حتى إن كان حيا يرزق، وقدر له أن يطأ بقدميه تراب ايثاكا اليوم، فإن ذلك الرجل الذي ذهب لم يرجع".

قال الآخر بصوت خفيض: "أفهم ذلك".

قال العجوز: "وهي! مَنْ أولئك الذين ستختار منهم؟ أتى إليها كل متأنق من كافة مناطق الجزيرة!".

"تقصد أنه لا يملك فرصة كبيرة؟".

قال العجوز: "ماذا أعرف أنا! إنها امرأة ذكية وليست فقيرة أيضا. ويرغم أنهم يأكلون خنازيرها وخرافها وماعزها وخبزها ويشربون نبيذها، ويبلون مقاعدها وأقداحها، مثلما يفعلون منذ عدة سنوات، إلا أن لدي شعورا مبهما بأن مواردها على البر الرئيسي تنمو وتتعاظم".

"حقا؟".

"وإذا عاد ينبغي له ألا يكون عجوزا هرما، مثلي. لا، عليه في الحقيقة أن يظهر قيمته وأهميته".

"تعني أن عليه أن يبدأ من البداية؟ من نقطة الصفر؟".

قال العجوز: "لا يمكن أن أجيب عن ذلك. لا أريد أن أفكر به. لم أقتل في حياتي أحدا. لكن لا أعرف ما الذي أفعله إذا كان لي ابن في خطر".

قال الآخر وهو ينظر إلى قدميه: "أنت محق طبعا".

قال العجوز: "لسوف يواجه بإما/ أو. وهو مجبر على الاختيار. فإذا جاء إلى الجزيرة ولم يعرف ذلك.. حسنا، لن تكون فرصته كبيرة".

قال: "لا، ربما لن تكون".

نظر العجوز إليه بطرف عينه.

قال العجوز: "يمكنه البقاء هنا. معي ومع الخنازير. لكن إن أراد العودة إلى بيته لن يفيده ذلك. بمقدوره اللجوء إلى أحد أمرين".

لم يقل الآخر شيئا.

"إما أن يعود من حيث أتى على أول مركب دون أن يفصح عن شخصيته. أو يسلح نفسه ويذهب.. إلى هناك. إلى المدينة ويقتلهم. ومهما فعل بعد ذلك، ستظل رائحة الدم تزكم الأنوف طيلة حياته.. وحياة ابنه".

قال الآخر بعد لحظة تفكير: "ألا يمكن التفكير بالتوصل إلى حل وسط أو شيء من هذا القبيل؟".

قال العجوز: "لا، طالما عنده مثل هذه الزوجة. وبغض النظر عما ستقوله فيما بعد عن أن التسوية أمر جيد! لا، طالما عنده مثل ذاك الابن. فهو الآن رجل ناضج أو يكاد أن يكون. الزوجة والابن سيشعران دوما بأنهما انتظراه طويلا. فهو أسيرهما. وهو أسير الآلهة. لم يرد أحد ذلك. لكن لا بد أن يحدث ـ إما/ أو. فهي غنية. وهي قوية. ولسوف تتزوج من يعتقها من عشرين عاما من الانتظار والهياج والتوق. حين يتزوج الابن، ستصبح الملكة الأم.. إن لم تتزوج أولا، أو إن اختار هو، الميت ربما، عدم العودة إلى هنا. الخاطبون لن يفسحوا المجال لأحد إلا إذا كان من حزبهم. فهم يتنازلون كثيرا ليصبحوا أصدقاء 'الغائب'".

قال الآخر بعد برهة: "يومايوس، ما الذي ستفعله لو كنت مكانه؟".

قال يومايوس: "سيدي"، ثم صحح نفسه: "أيها الرحال، الغريب. ليس أمامه من خيار. سمعت عن أشخاص آخرين، من بلاد نائية تقع وراء البحر العظيم، أشخاص قادرين على الاختيار. إنه لعار مشين، ودنس خطير، وجريمة بحق الآلهة أن تقتل البشر. لكننا الآن في عالم الواقع - أيها الرحال - نحن في الحاضر! نحن في العالم المتحضر! ليس ثمة خيار. إن كان يعرف ذلك، وفقد روحه القتالية ولم يعد قادرا على القتل.. فعليه ألا يعود إلى وطنه ثانية".

"لا يعود؟".

"لا! وإلا سيتكرر ما حدث مع عائلة أغاممنون. لسوف يجبر على قتل آباء وأبناء الخاطبين إضافة إليهم، وعلى ابنه أن يتابع المسير على هذا السبيل. والموت، والثأر، والدفاع عن الحق، أو مهما سميته، سوف يستمر في القفز من عائلة إلى أخرى، ومن جزيرة إلى جزيرة. لن يعود إلى وطنه ليرتاح بعد أن خاض حربا؛ بل يأتي ليبدأ بداية جديدة. لكن يجب أن يفعل ذلك. كل بحر الجزيرة سيتخضب بالدماء. لن يتمكن الناس من الإشارة باتجاه الغرب والقول: الآن ستغور الشمس في العالم الغربي، أو خلف أقصى أراضي الفينيقيين؛ لا، لسوف يقولون: البحر مضرج بالدم المتدفق من ايثاكا وساموس ودوليكيوم، ومن كل حيد بحري وجُزيرة في أراضي اوديسيوس. لقد عاد إلى الوطن".

قال الآخر: "يومايوس، ما الذي كنت أنت ستفعله، لو كنت.. اوديسيوس؟".

التقط العجوز الصندل من جديد، حمله أو تشبث به.

"سأفكر ربما بأن لي ابنا ينوون قتله. لسوف أذهب إلى هناك - إلى المدينة - وأشعل حربا تستمر فترة أطول من تلك التي شنها السادة الإغريق على الملك بريام في طروادة. ستكون مبررة.. هكذا سأفكر ربما. لكنَّ كثيرين سيُرْدَون فيها. لسوف أحاول العثور على الحقائق التي لم يكتشفها أحد قبلا: بعد حربي التي خضتها سيظهر سلطان جديد وسيادة أخرى. الآن، النزعة هنا في ايثاكا تجنح باطراد نحو العبودية. لم يكن هنالك مجلس شعبي حقيقي منذ عهد بعيد. لكنني ربما سأعتقد أن من الضروري وضع نفسي في مواجهة الآلهة. ولربما سأقول لنفسي: الآلهة تلهو. الآلهة تمضي وقتا ممتعا، تأكل

وترقص وتمارس حيلها المخادعة ومعجزاتها الصغيرة لتسلية أنفسها. إذ لم تدرك خطورة الوضع، هكذا سأقول".

جلس صامتا للحظة.

قال: "لم يكن قصدي التجديف على الآلهة. أنا أنحني أمامها. رغم أنني لا أعلم هل أمتنع عن ذلك لو كنت اوديسيوس".

أحنى الآخر رأسه ونظر إلى قدميه الحافيتين. ثم فتح راحتيه المتقرحتين وتفرس فيهما كأنما يبحث عن دلالات تنبئ بالآتي.

قال: "لكن من المؤكد أن الآلهة هي التي تقف خلف البشر. هي التي تخلق الأوضاع والحالات".

قال يومايوس: "فكرت أحيانا أن هنالك شيئا يكمن خلف الآلهة. نحن؛ سادة وعبيدا، شيبا وشبانا. البشر. لقد خُلقت الآلهة قبل آلاف مؤلفة من السنين، في الزمان البربري القديم، زمان التشوش والفوضى والخوف، الذي لا يشبه أبدا عصرنا، عصر الثقافة هنا في ايثاكا وعلى البر الرئيسي.. الآلهة خُلقت آنئذ، خرجت من قلوب الناس. تلك فكرة لا يمكن تقريبا التفكير بها. لم نفهمها جيدا لأننا بين أيدي الآلهة، نخضع لإرادتها ومشيئتها. لكن فكر: افترض أن أيدي الآلهة ضعفت وذوت؛ وأننا نملك إرادتنا؟ عندها سوف نسقط من هذه الأيدي. ولن يتبقى هناك سوى الإنسان. عندئذ سوف ينقذ الموقف بنفسه ـ ولسوف يقوم بالمهمة لأنه سيدرك مدى خطورته. عندئذ سوف..".

سكت.

"تابع يا يومايوس".

قال العجوز: "أنا عبد يا سيدي. عبد غني؛ لدي عبيد أملكهم، وأصدر لهم الأوامر، ولا أهتم بالسياسة. لكنني عبد. التجار الفينيقيون خطفوني من سورية حين كنت صغيرا، لا يزيد عمري عن بضعة أعوام. أستطيع القول إن والدي كان ملكا، لكنه فقد كل الأهمية بالنسبة لي الآن: أنا عبد. الفينيقيون أغروا مربيتي لتذهب معهم ـ كانت منهم، من صيدا، اختطفت حين كانت طفلة وبيعت لنا. يمكنك القول إن عتقها كان جريمة ارتكبت بحقي. على أية حال لم تعد إلى وطنها أبدا، بل ماتت على متن

السفينة في اليوم السابع؛ أصيبت بضربة شمس حين وقفت تغازل أحد معاوني القبطان، وسقطت في عنبر السفينة وقتلت. رموا بجثتها في البحر. ثم جرفتهم عاصفة ـ عاصفة إلهية! ـ إلى الأرخبيل هنا. نزلوا على شط ايثاكا وباعوني إلى ليرتيز".

نظر إلى الآخر شزرا.

"لربما سمعت القصة يا سيدي؟".

"لن أنكر ذلك".

قال يومايوس: "أرعى الخنازير. أنا رئيس الرعاة، وليس هذا عملا سيئا لكنني عبد. إن أعتقت فعلا فلربما سوف يستعبد آخرون. ؟ فكرت كثيرا بذلك".

تنهد؛ ولم يكن الصوت محزنا.

قال: "أجل، ذلك هو منهج الآلهة".

"وهل تظن بأن هناك منهجا مختلفا ؟".

قال يومايوس: "لربما سيكتشف الناس واحدا مختلفا. بخلال ألف سنة".

دخل إلى الكوخ وأشعل النار. حين تسعرت جلس في المدخل.

قال: "السلطة هي التي تؤثر. لو امتلك الخاطبون السلطة وأخذها اوديسيوس منهم، فلربما لن يتغير شيء عندئذ. سوف تنتقل السلطة، هذا كل ما في الأمر. يمكنك القول إن سلطة اوديسيوس ستكون أقوى من مجرد سلطة حزب الخاطبين. لكننا لا نستطيع التنبؤ بالمستقبل. الآلهة وحدها قادرة على ذلك، لكنها لا تكلف نفسها مشقة جعل سلطتها وقوتها أداة لسعادة الإنسان ـ فهي تلهو وتستمتع بوقتها. سلطتها عربة تتدحرج من تلقاء ذاتها وتحطم كل ما يعترض طريقها ـ مازحة هازلة. تحرص أن تبقى العربة على الطريق وأن لا تنقلب. وبين حين وآخر تعطيها دفعة لتستمر في سيرها. إن كان قولي لا يبدو تجديفا فسأقول: الآلهة عمياء. عمياء لكنها تمرح وتهزل وتبتهج؛ تضحك بينما تلعب دور الأعمى القوي المفتول العضلات. الجنس البشري يدوّم كالغبار حول أقدامها. الآلهة تحكم البحر والسماء والحيوانات والحشرات وكل شيء. ليس لديها اهتمام خاص بالإنسان. أوه، أجل.. إذا ثار أحد ضدها، تصرعه.. هازلة مازحة، دون أن تغضب في أغلب الأحيان، بل تكتفي بمحوه والقضاء عليه. ذلك هو منهجها".

قال الآخر: "يومايوس، كيف تصور في أحلامك منهج الإنسان؟ بخلال ألف سنة؟ إن ماتت الآلهة ـ بافتراض إمكانية موتها ؟".

"كل شيء يعتمد على تعلُّم الإنسان من الآلهة. أو تعلمه من تجربته، من الحياة على الأرض، على سطحها، من الألم، من الحرب. إذا تعلم من جنسه وعرقه، فلربما سيسير الأمر على ما يرام. لربما عندئذ سيتقاسم السلطة. ويلغى الرق. وتحل المشاورات محل الحرب، وتبادل البضائع بدلا من النهب والسلب. ربما سيوزع الخبز بعدالة. لكن ذلك بعيد جدا عن زماننا؛ لا أستطيع رؤيته بوضوح. لا أرى هدفا؛ لدي مجرد فكرة مبهمة عن الاتجاه. بخلال ألف أو ألفين أو ثلاثة آلاف سنة، سوف يسود الإنسان".

قال الآخر: "ربما، ربما. ليس سوى ربما! لكن هل يمكن أن تولد آلهة جديدة من قلوب البشر الآن؟ وليأخذوا السلطة.. لاحقا، بعد أن ينضجوا".

قال رئيس رعاة الخنازير: "في الحقيقة، هنالك ذلك الخطر. إذا نسي البشر تجربتهم الدنيوية".

نظر إليه الآخر. تقابلت عيونهما فترة وتريثت على تلك الحال. ابتسم العجوز.

"يومايوس، إذا أتى اوديسيوس إلى هنا وطلب منك العون ليفعل ما يتوجب عليه فعله ربما، ماذا سيكون جوابك؟".

حكت أظافر العجوز السوداء لحيته الشعثاء. ابتسم هو الآخر برقة.

قال: "سيدي، لسوف أساعده. سأفعل ذلك لأن معركته عادلة ـ أو أكثر عدلا من تلك التي يخوضها أعداؤه ضده. لسوف يقلص سلطتهم المتعاظمة هناك. ويستعيد النظام أو يوجد النظام من جديد، ولربما يكون ذلك بمثابة القاعدة المؤسسة لشيء أفضل. سأساعده للوصول إلى نقطة الانطلاق".

"تساعده على تعاسته؟".

قال يومايوس: "أجل، في سبيل تعاسته. عليه أن يقتل. ويُضحى به من خلال القتل. لكنه ربما سينقذ احتمالا ـ من أجله ومن أجل ابنه. الصوت المطالب بالثأر سيولول حوله، وسيستعيد بيته حالته الطبيعية بالدماء التي ترتفع من الأرض إلى السطح حين يستولي على السلطة. لكنه وحده القادر على توزيعها وتقاسمها فيما بعد؛ يمكنه أن يكون 'جديدا' ويعطيها إلى إخوانه المواطنين! سوف يهمس ويزمجر الناس مطالبين بالانتقام منه. سيأتون من كل المناطق. هنالك جماعة من الخاطبين جاؤوا

من ساموس يحلمون بأن يصبحوا سادة العالم بأسره، إن استطاعوا الاستيلاء على السلطة في الجزيرة. يقولون إنهم ولدوا من أجل ذلك، اصطفتهم الالهة لهذه المهمة. هنالك مجموعة أخرى من الخاطبين ـ من الجزيرة ـ يقول أفرادها إنهم يريدون السلطة من أجل الحكم لمصلحة الشعب. يقولون إنهم سيحكمون الجزيرة ـ والعالم ـ لصالح الشعب، لكنهم يريدون الحكم بأنفسهم. يرغبون أيضاً بمد سلطانهم إن استولوا على الحكم. وإذا نجحت أية مجموعة منهم، لسوف تتشبث بالسلطة ولن تترك أي احتمال للمستقبل. وسوف تبدأ عربتهم بالسير. ولن يأبهوا كثيرا للحياة الإنسانية. لربما ليسوا أشرارا، لكن تلك هي طبيعة السلطة. لهذا السبب سأساعد اوديسيوس إذا أتى إلى هنا وطلب مني العون. سوف أقول له: حدد سلطتهم، عرقل هيمنتهم، أنقذ الفرصة! سأقول له: اضرب أيها السيد إن توجب عليك ذلك! لكن إياك أن تظن فيما بعد أن ما قمت به كان فعلا مقدسا وأن حربك نعمة تبارك كل من أصابته نوازلها! إنها طريق ممكن للاحتمال، لا أكثر ولا أقل! لا تنس أنك بدأت مذبحة للبشر. لا تبق في المسلخ، ولا تجعله مثواك!".

"يومايوس، هل تقصد أن عليه أن ينسى الحرب فيما بعد؟".

قال يومايوس زعيم قائد الخنازير وزعيم رعاتها: "ينسى؟ على العكس، أقصد أن عليه أن يتذكر، إن انتصر".

"ماذا يتذكر؟ كل شيء؟".

"أولا وقبل كل شيء، يتذكر ما فعل. كيف سال الدم، كيف صرخوا حين ماتوا. ويتذكر أن يوزع سلطته بقدر الإمكان، بحيث يتطلب جمعها معا في أيد قليلة أو في يد واحدة، زمنا طويلا".

قال الآخر بتمهل ونظر إليه: "إذن عليه أن يثور على الآلهة أيضا. وكيف يوزع سلطته؟ هل يهب للآخرين سفنه، هل يعتق عبيده، هل يجب أن يتحول الجميع إلى رعاة خنازير ورعاة ماعز، وحرفيين، ومنتجين صغار للكرمة والزيتون؟".

قال يومايوس: "لا أدري. أنا أحلم، كما أظن. الآلهة وحدها هي التي ترى المستقبل. لكن أستطيع أن أخمن بأن الإنسان سيجبر على محاولة حل مشكلته على طول المسارات الإنسانية. بخلال ألف سنة. ربما قبل انقضاء هذه المدة، وربما بعد

انقضائها. إذا عاد اوديسيوس وفعل ما يجب أن يفعله، ينبغي له ألاّ ينسى تجربة الإنسان. ويجب ألاّ يتخيل أن الحرب التي يشعلها شأن عائلي لا يهم الآخرين. بل يهمنا جميعا هنا وهناك وفي كل مكان. الحجر الذي يرميه في البحر سيسبب مويجات لا تصل فقط إلى هذا الشط. بل ستجتاح كل الشطآن. كل الأمور مرتبطة ببعضها بعضا. الموجات الدامية ستصل إلى ساموس وزاكينثوس ودوليكيوم وليوكاس وبيلوس بين ليلة وضحاها ثم ستسافر على طول سواحل البر شمالا وجنوبا، سوف تندفع غربا من هنا ومن كافة الجزر. وتستمر زمنا طويلا، أعواما وأعواما، وتبلغ أقصى ما يصل إليه هليوس. ستحمل رسالة للشعوب الأخرى التي تعلم ربما من أين أتت الموجات الدامية، لكنها ستحولها وتعدل دلالتها المهمة لتغدو شهادة أكثر بطولية من حقيقتها الفعلية، وتجعل من أعماله أو مآثر غيره المشابهة نماذج تحتذى، وأهدافا للتطلعات والطموحات. الموجة الآتية من ايثاكا ستصل إلى كل إنسان في كل زمان، في كل العصور التالية لعصرنا".

قال الآخر بصوت خشن: "ألن تتوقف أبدا ؟".

التفت يومايوس جهة النار، ودخل إلى الكوخ وألقى بضعة عيدان خشبية إضافية. عاد حاملا فأسا برونزية بيده.

قال: "أجل، ستتوقف عندما يتوقف البشر عن التقاتل من أجل السلطة، وتتوقف الآلهة عن دفعهم لذلك، عندما يتعلمون فهم أوضاعهم. الموجة الدموية التي وصلت إلى كل شاطئ ستهدأ وتخمد حين يقف إنسان جسور لا يخشى عقاب الآلهة ليقول لآخر: في سالف الدهر اعتاد الناس قتل بعضهم بعضا. حسبوا أن ذلك مأثرة جليلة. هذه الموجات الحمراء دماء بشرية سفكها اوديسيوس ملك ايثاكا فانسابت إلى البحر قبل عهد بعيد بعيد. أو سفكها آخرون اقتدوا به ودفقت إلى البحر. لقد وصلت توا إلى شواطئنا. لكنها ستختفي. ويستعيد البحر زرقته من جديد. وسرعان ما سيذكرنا الغروب وحده بما حدث في الماضي".

لم يجد الآخر، ولم يطرح أسئلة. رئيس رعاة الخنازير وحاكمها وزعيمها، يومايوس، سار قربه حاملا الفأس بيده.

قال: "أنا ذاهب لأقطع بعض الحطب قبل أن تمطر مرة أخرى".

* *

كانت الخنازير الهرمة تنخر في الزرائب ،والصغيرة تزعق، والكلاب تهر وتنبح في الغابات، حين أتى رعاة الخنازير وساقوها إلى المغاور والحظائر لتبيت ليلتها، وساعد هو يومايوس في حمل الحطب وتغطيته وتكديسه على شكل كومة خلف الموقد. دخل الرعاة إلى الكوخ، مبللين، منهكين، جالبين رائحة الخنازير معهم. كهلان وصبيان على وشك بلوغ سن النضج. أومأوا برؤوسهم محيين بلا مبالاة وعلقوا عباءاتهم الصوفية الخشنة تحت السقف لتجف، لكنهم لم يطرحوا أي سؤال، بل ألقوا بأنفسهم على المقعد البعيد وانتظروا طعامهم. من الواضح أنهم اعتادوا رؤية الأفاقين.

غدق المطر عند الغسق مع هبوب الريح الغربية. كان يومايوس يجلس على المقعد المواجه للموقد، يفكر بشيء ما. تحركت شفتاه كأنه يحصي.

قال فجأة ورفع رأسه وابتسم: "القربان ليس فكرة سيئة".

قفزت الابتسامة من وجه إلى وجه كأنها انعكاس للنار.

قال يومايوس: "ربما سيكون مناسبا الليلة نظرا لوجود ضيف عندنا. والآن وقد بدأت أمطار الشتاء، ربما من الأفضل الحفاظ على علاقة طيبة مع الآلهة".

سأل الآخر: "هل أنتم متدينون كثيرا هنا؟ أعني هل تضحون كثيرا في العادة؟".

قال يومايوس: "في الواقع لا. كل الخنازير الجيدة تؤكل.. هناك. لكنني كنت أفكر الآن بأن نأخذ واحدا لحسابنا!". نهض وأومأ إلى خادمه الشخصي، أحد الصبيين. "تعال يا ميسوليوس".

تقديم القربان طقس شعائري، يؤدى بأسلوب جميل ومهارة بارعة؛ ومن وجهة النظر الرسمية يعتبر أمرا لا عيب فيه، لكن بالنسبة للرحال لم يبد أن شعورا دينيا عميقا يتخلله. جرى التعبير عن توقير وتبجيل الآلهة بانحناءة خفيفة، وبأمارات الوقار والرزانة على وجوه يومايوس والآخرين، وهم يذبحون ويقطعون الحيوان أشلاء، لكن لم تكن هناك مبالغة أو خنوع أو تذلل.

أضاء المساعدون المشاعل وأحضروا خنزيرا ضخما عمره ثلاث أو أربع سنوات من الزريبة. جره اثنان من أذنيه، وسحبه واحد بواسطة سير جلدي ملتف حول خطمه، وسار ميسوليوس خلف الحيوان الزاعق الناخر وضربه وركله على مؤخرته. انتظر يومايوس بسكين طويلة وعصا ثقيلة من خشب السنديان وسط الضوء المتدفق من الباب. قطع

غرة الخنزير ودخل وألقاها في النار بينما تمتم صلاة لمعظم الآلهة، بسرعة واستعجال مثلما أنجزت بهما كل الأمور الأخرى. خرج ثانيه إلى الرواق، ووضع السكين على المقعد، والتقط العصا، ورفعها وقال:

نرغب كلنا، أقصد القول: نتضرع إلى الآلهة الخالدة التي لن تموت أبدا والتي تريد الخير لنا دوما، أن تدع سيدنا ومليكنا اوديسيوس يعود إلى وطنه بأسرع ما يمكن، أجل، اليوم، هذا المساء، هذه الليلة إن أمكن!".

ثم ضرب الخنزير على جمجمته. أصابته الضربة وهو ينخر. أخذ يومايوس السكين وطعنه بها. ركل الخنزير الهواء بضع ركلات قوية بينما سال الدم وتجمع في بركة على الأرض.

قال يومايوس: "دعوه يركل جيدا، لأن الدم يجري بصورة أسرع عندها".

أحضر ميسوليوس قضيبين من الخشب اليابس، وأشعلهما، فأحرق اللهب بسرعة الشعر الخشن حول جثة الخنزير. شق يومايوس بطنه، وأخرج رجاله الأحشاء. ووضعوا القلب والكبد والكليتين في وعاء منفصل. وألقوا جزءا من الأمعاء في النار فامتلأ الكوخ والفسحة المفتوحة أمامه على الفور برائحة اللحم المحترق. قطع مساعدا يومايوس الخنزير بالفأس والسكين إلى أربعة أجزاء. واقتطع يومايوس شرائح صغيرة لفها بالدهن، ورش عليها طحين القربان ووضعها في النار، حيث احترقت. تلك هي الأضحية عموما. ثم أخذوا قطعا كبيرة وشكوها في عيدان وانتظروا حتى يشوى اللحم. قطر الدهن وأز. أمكن سماع العبيد الأربعة وهم يزدردون ريقهم. يومايوس اعتنى بنفسه بكومة الفحم، في حين قلب الصبيان العيدان بين حين وآخر.

حين نضج اللحم وضعوا القطع المشوية في أطباق خشبية كبيرة. قطع يومايوس قطعة لحوريات البحر لكي يقدمن ماء نظيفا صالحا للشرب، وأخرى لهرميز لكي يبارك القطيع وينمي ثروتهم، ثم قدم شريحة سمينة لضيفهم وقطعا أخرى مناسبة للآخرين. وضع ميسوليوس خبزا على المائدة ومزج الخمر وبدأ الجميع الأكل.

حولوا الجلسة إلى سهرة. المطر غدق في الخارج وقطر داخل الأركان ومن خلال فتحة الدخان في السقف. أكلوا كثيرا، وعبوا إناءين من الخمر، لكنهم لم يتحدثوا كثيرا. الدخان والأبخرة المتصاعدة من اللحم تجمعت على شكل غيمة كثيفة تحت

السقف، وفي النهاية بدأت الخمر تحدث مفعولها. بدأ الرجال بالتثاؤب وأراحوا مثاناتهم، ثم انسلوا إلى أسرتهم بعباءاتهم الجافة وسرعان ما علا شخيرهم.

جلس إلى جانب يومايوس على المقعد المواجه للنار الوهاجة.

قال: "أتساءل هل أتابع طريقي في الصباح؟".

"إلى المدينة؟".

"أجل، هذا ما فكرت به".

التفت يومايوس نحوه؛ تقابلت عيناهما وتريثت النظرات.

قال بشيء من السخرية: "يمكن للمرء دوما أن يروي قصة للسيدة؛ وهو أمر يعود بالفائدة عادة. إن كنت تحمل خبرا يا سيدي.. كأن تكون قد سمعت أن الزوج في طريقه إلى الوطن. لكن عليك أن تنتظر على أية حال حتى يرجع تيليماكوس. إن كان سيأتي. تساورهم الشكوى الآن، ويميلون إلى التفكير بالمؤامرات والتجسس، وقد لا يكون من المرضي بالنسبة.. لغريب مثلك أن يظهر هناك بمفرده. حين يأتي تيليماكوس يمكنك الذهاب معه".

"تقصد أنه سيأتي إلى هنا؟".

قال يومايوس: "الآلهة هي التي تقصد وتشاء"، لكن لم يكن هناك تقوى إيمانية محددة في صوته. "علاوة على أنني أراهن على ذلك. المنطق يخبرني هذا، وأنا أتوقع قدومه. لقد تلقى التحذير ويعرف أنهم يترصدونه في المضيق. لكن في المدينة لن يجرؤوا على المساس به".

"لكن ماذا لو أتى ومعه من يعينه يا يومايوس؟".

قال المضحي بالخنازير وقائدها الممتاز: "سيكون أمرا جيدا لو اعتقد حزب الخاطبين بذلك. لكن من جهتي، لا أعتقد أنه سيصطحب معه أسطولا حربيا. أظن أنه سيأتي مع أصحابه فقط. لست ساذجا إلى حد تخيل أن نستور ومنيليوس سيشعلان حربا إكراما لخاطره".

قال الآخر: "لا، لكن برغم كل شيء، لأجل خاطر منيليوس غادر - أعني اوديسيوس - بلده. أو هكذا أظن".

قال يومايوس: "لا أعرف شيئا عن هذه الأمور الآن. وليس لي رأي حولها. لكن

لو كنت مكانك، سأنتظر بضعة أيام هنا. لست في عجلة من أمرك، أليس كذلك؟ فيما تنوي عمله؟".

"أنا؟ لا، لست مستعجلا يا يومايوس. هل أسألك سؤالا؟ هل تيليماكوس شاب مهذب جدير بالاحترام؟ أعني على وجه العموم. إذ تتفاوت صفات وأخلاق الشبان كثيرا. هل يتمتع بشخصية خلوقة؟".

قال تيليماكوس: "يمكن أن ندعوه شابا مهذبا ومحترما. لم يكتمل نضجه بعد. ظل على الدوام، تجاهي وتجاه الناس هنا وفي القصر، لطيفا دمثا ومراعيا لمشاعر الآخرين. لكنه يحلم. أود أن أعبر عن ذلك كما يلي: إنه مشدود إلى والده. سمع عنه كثيرا واشتاق له كثيرا. يمكنك القول إن مصيره في يد والده ومصير والده في أيدي الآلهة. زوس وبوسيدون. أو ربما لم يعد تحت رحمة بوسيدون؛ لا أدري. لو كنت مكانك لانتظرت هنا حتى تنضج الأمور هناك".

"ما الذي تعنيه بـ 'تنضج'؟".

نهض يومايوس، وأخذ عودا وحرك الجمر قبل أن يضع قطعتين كبيرتين من الحطب.

"الفواكه تنضج في الخريف. لربما ليس هناك منطق في لهو الآلهة، لكن بين حين وآخر يؤدي إلى شيء ما. حل ربما، حل مؤقت".

قال الآخر: "لربما أنت على حق".

قال يومايوس: "أنام أحيانا في مغارة بجانب الزريبة التي وضعنا فيها الخنازير الموشكة على الولادة. من المفيد أن تكون جاهزا وقريبا إن ولدت أية واحدة منها. فهي سريعة جدا في التهام أولادها. وأنا أريد أن يكون لدى اوديسيوس بعض الخنازير حين يعود إلى الوطن". ابتسم وأردف: "يمكنك أن تنام في سريري هنا" وأشار إلى السرير الأقرب من الباب، المغطى بجلود الخراف والماعز. "عباءتي الأخرى معلقة هناك، إذا شعرت بالبرد في وقت متأخر من الليل".

أخذ السيف المعلق على الجدار فوق السرير وتمنطق به، ولف نفسه بعباءة صوفية سميكة وقذرة، وأخذ رمحا من الجدار قرب الباب وخرج إلى الريح والمطر المدرار. فكر الآخر: بدا كمحارب خرج من القبر.

وهكذا أصبح وحيدا معه.

- ٢٧ -
الحصى تحتك بقعر المركب

-١-

احتكت الحصى بقعر المركب، انتهت رحلة الشاب.

بدأت تمطر في المساء حين غادرا بيلوس وانطلقا شمالا بمحاذاة ساحل اليس. لم يكن بيسيستراتوس يريد مغادرة إسبارطة بهذه السرعة، واعترض كل من منيليوس وهيلين مرة أخرى، لكن الجميع انحنوا صاغرين للضرورة التي قدروها حق قدرها. كان منيليوس قد أرسل مركبة ثانية معهما لحمل الهدايا والعميل المزدوج ميدون. انطلقوا بأقصى ما تستطيع الخيل أن تعدو على طريق يرتقي صعدا إلى فيري، حيث ناموا بضع ساعات. وبلغوا بيلوس الرملية في أصيل اليوم التالي.

عند المفترق حيث انعطف الطريق إلى شمال المدينة من الطريق الساحلي تعرض مرة أخرى لإغراء الاختيار.

قال بيسيستراتوس: "أبي لن يسامحك أبدا إن لم تبت عندنا ليلة واحدة على الأقل".

قال تيليماكوس: "علي أن أسرع، ولسوف يتفهم ذلك. وسأعود حين ينتهي كل ذلك. هذا إن استطعت أن أعود، إذا بقيت حياة تدب في أوصالي. ربما قبل الربيع، وربما خلال الشتاء. بلغ تحياتي إلى شقيقتك بوليكاست وقل لها ذلك".

كان رفاقه ينتظرون قرب المركب؛ على أتم الاستعداد. أبحروا حالما ركب ميدون وتم تحميل صندوقي الهدايا. اضطروا للتجديف في المياه الضحلة على ساحل بيلوس، لكن بعد ذلك أصبحت الريح مؤاتية. وحققوا سرعة جيدة بين زاكينثوس والبر الرئيسي.

مع حلول الليل شربوا الأنخاب تعبيرا عن الشكر والامتنان. أرسلت الخمر من

مقعد إلى مقعد. ملأ كل منهم كأسه. اعتبر معظمهم الرحلة ناجحة، رغم أن الابن كان الوحيد التي وصل إلى أبعد من مدينة نستور. في وقت لاحق من تلك الأمسية، شعر العديد منهم كأنهم عائدون من طروادة. حافظوا على مسار باتجاه الشمال، عبر الخليج العريض الطويل الذي يفصل مناطق بيلوبس عن ساحل أكارنانيا ـ باتجاه الجزر المسننة، ثوي؛ وحين مروا بمحاذاتها كانت السماء مكتظة بالنجوم إلى حد جعلهم يتمكنون من التوجه على هديها غربا نحو الطرف الجنوبي من جزيرتهم.

كانوا على علم تام بما يحدث، وظل ميدون يكرر تحذيره بصوت حاد تقريبا، من مغبة عدم الانتباه للحراس على الجبال وفي المضيق بين ساموس وايثاكا.

أرخوا الشراع وأنزلوا الصاري، وانسلوا إلى الخليج الضيق غير المطروق تحت الرأس الجنوبي. قفز إلى الشط مباشرة. قال بأنه سيبقى مع الرعيان لفترة، لكنه سيأتي إلى المدينة هذا المساء إن استطاع. وغدا في كل الأحوال. يمكنكم أخذ الصندوقين إلى منزل كلايتيوس. ويمكن أن يخبر ميدون والدتي بأنني هنا. إن سارت الأمور كما اشتهى، سيكافئ كل فرد منكم.

انطلقوا مجددا وجدفوا بقية المسافة عبر المضيق إلى المدينة، محافظين على مسار تخفيه التلال الساحلية. بعضهم بدل ملابسه ليترك أفضل انطباع ممكن.

* *

ربح أم خسارة؟

حاول أن يحسب النتيجة وهو يرتقي الدرب الشاهق. كل شيء كان بسيطا حين رحل. الآن عليه أن يراقب كل خطوة يخطوها: الحجارة كانت زلقة بسبب المطر وربما نصب الحراس كمينا له في أي مكان بين الشجيرات.

ربح أم خسارة؟ أنا الآن شخص مختلف ووحدي تماما. وحتى لو عاد أبي إلى الوطن سأظل وحيدا.. لأنني لم أعثر عليه الآن، ولم أجد آثاره الآن.

أتى من عالم عظيم. العالم العظيم كان السياسة والأحاديث الممتعة والمثيرة. السياسة مخبأة تحت سطح زلق مثل هذا الدرب. فكر: سيكون من الأفضل لأمي أن تتزوج مرة ثانية بأسرع ما يمكن. هل أعتقد بأن أبي سيعود؟ لا، لا أعتقد.

رائحة الخريف ملأت المكان هنا. حين تذرى الجبل، كانت الرؤية سيئة بحيث لم

يتمكن من مشاهدة شيء سوى أقرب أشجار السنديان. اتكأ على قناة رمحه وحاول أن يلمح البحر عبر فرجة بين الشجر.

ما زال الربيع بعيدا. كم مضى عليه وهو مسافر؟ عشرة أيام؟ كان الوقت صيفا حين غادر. فكر: إن بقيت حيا، سوف أذهب إلى بيلوس حين تتزوج. وإذا أقامت في منزل مع أحدهم فلسوف أبقى هناك قليلا. وأستطيع فيما بعد أن أعود، جهارا نهارا. ولن أكون بمفردي. ولن يقتلوا صهر نستور دون أن يفكروا بالأمر مرتين.

أمكنه أن يسمع كلابا تنبح من بعيد في الغابات.

-٢-

ربما لأن في الهواء رائحة الخريف، وسديما ورذاذا ناعما، أتى الإدراك فجأة بأنها هرمت وشاخت. يمكن الافتراض بأنها عرفت الأمر من وقت بعيد، سرا، لم تكشفه قط، لكن رأته حين عبرت ابنة دوليوس السمينة الباحة الأمامية وأدت دورها في حياة الانتظار التي تعيشها بينلوبي.

"تزداد تكبرا ومباهاة يوما بعد يوم"، هذا ما قالته ليوريكليا التي كانت تقف خلفها قرب النافذة، وذلك بعد أن انتهت من تسريح شعرها.

مربية "الغائب" القديمة، التي ما زالت عجوزا عاجزة لا ترى ولا تسمع، لكنها كلية الحضور تقريبا، نظرت هي أيضا إلى الباحة.

قالت: "القطة ستلد هريرات. إنها سلالة رائعة. أحضرها إلينا ليرتيز من أرض مصر. أحسب أنه الجيل السابع والثلاثون أو نحوه".

قالت بينلوبي: "أفترض أنك تدركين أنني أعني الفتاة لا القطة؟".

قال يوريكليا: "الفتاة؟ لم أكن أفكر بها. أجل، أعرف؛ أعرف بأنها تتكبر وتتباهى. لا بد أنها في شهرها الثامن الآن. والحامل لا تكون في حالتها السوية في هذه المرحلة".

"أحسب أنه يوريماكوس، أليس كذلك؟".

قالت العجوز: "إنها في ميعة الصبا".

سمعت الاثنتان ضجة وجلبة في الباحة الخارجية. مالت بينلوبي على النافذة

وحركت المصاريع الخشبية جانبا كي تتمكن من رؤية ما يجري وراء سطح القاعة الكبرى. أحدهم أتى راكضا. سمعت صوت امفينوموس، ثم انتينوس. حين ظهرا عند البوابة اكتشف وجود يوريماكوس أيضا. اللجنة كلها اجتمعت، لكن أعضاءها لم يصعدوا إلى الطابق العلوي.

من الواضح أن شجارا وقع بينهم.

صاح انتينوس: "أحضر الحراس إذن!".

قال يوريماكوس: "لقد أصدرت الأوامر".

"وزورق الدورية في المضيق!".

أجاب امفينوموس بهدوء بلهجة أهالي دوليكيوم الجميلة ـ كما فكرت الآن: "إنه في طريق العودة. بعثت رسولا حالما اكتشفت أن الصبية قد عادوا. لم يكن تيليماكوس معهم".

فكرت: أوه، يا زوس! ووضعت كفها على فمها. ضغطت يوريكليا يديها على ثدييها المرتجفين.

صاح انتينوس: "من حذره؟".

قال يوريماكوس: "ميدون على ما أعتقد. لم يره أحد منذ عدة أيام. والعجوز الشمطاء بالطبع".

تقدمت يوريكليا خطوة إلى الأمام، واقتربت كثيرا من سيدتها ونظرت إليهم.

زمجر انتينوس الذي خرج عن طوره من شدة الغضب على ما يبدو: "لسوف يدفع ثمن هذا!".

قال امفينوموس: "الآن، الآن، الآن. لا شيء يمكن أن نفعله الآن".

"أليس هذا هو؟".

نظروا عبر الجدران باتجاه الجزء المنخفض من البلدة والميناء. انقشع الضباب السديمي، لكنها تمطر رذاذا. رسا المركب وتم سحبه إلى الشط. بعض الشبان كانوا يحملون المجاديف والشراع، وغيرهم جرار المؤونة والأكياس، ثم ستة منهم يجهدون في حمل صندوقين ثقيلين على ما يبدو. زورق الحرس أتى من المضيق، وقد أنزل صاريه، وتهادى بمجاديفه المرفوعة عاليا؛ قفز بحارته إلى الشاطئ وهم يجرون الآن المركب الطويل الملطخ بالقار الأسود. حتى من نافذة بينلوبي يمكن سماع شجارهم.

قالت بينلوبي: "هل سمعت؛ لم يكن معهم؟".

مشت العجوز جيئة وذهابا، بعنع خطوات في كل مرة؛ ضغطت راحتي يديها معها، مترددة محتارة، وأرجحت الجزء العلوي من جسدها؛ غطى السواد عينيها.

قالت: "إذا سمحت يا صاحبة الفضيلة..؟".

"أجل، اركضي!".

لم تركض العجوز، لكن يمكن للمرء أن يقول بثقة إنها أسرعت. لم تأبه لصندلها الذي تركته أمام الباب. اندفعت كفأرة رمادية عبر الباحتين والبوابة الخارجية ووصلت إلى المنحدر المفضي إلى الجزء المنخفض من البلدة قبل أن تنهي ميلانثو جولتها الصباحية.

عند ذلك بالضبط، وفي خضم ساعة الألم والتبريح، خطرت على بال "الزوجة التي ما زالت تنتظر" الفكرة الغريبة التي ليس لها مبرر: هرمت وشخت! أنا عجوز!

* *

العجوز الآن في طريق العودة. كانت تسبق أشخاصا آخرين، ويمشي بجانبها ابن كلايتيوس الشاب. اعتقدت بينلوبي أنهما يتمهلان بصورة لا داعي لها. حين وصلا الباحة الداخلية، نادت من فوق:

"حسنا؟".

رفع كلايتيوس الشاب رأسه، لكن يوريكليا لم تسمع شيئا. سار الاثنان عبر الصالة الخارجية ثم القاعة الكبرى، والآن صعدا السلم. قابلتهما عند الباب.

قالت يوريكليا محاولة أن تلهث - حتى تلك اللحظة فكرت بينلوبي بأن ذلك تعاطف لا ضرورة له: "أوه، أوه، لم أركض بمثل هذه السرعة في حياتي كلها!".

لكن صوتها بدا هادئا؛ هنالك تهلل رزين فيه.

"حسنا؟".

قال ابن كلايتيوس (مهما كان اسمه): "يا صاحبة الفضيلة، طلب منا تيليماكوس أن نبلغك تحياته ونخبرك بأنه نزل في مكان آخر من الجزيرة".

"أين؟".

"طلب أن نبلغك بأنه سيأتي إلى هنا هذا المساء أو ربما في صبيحة الغد".

"أين هو؟ على أي شاطئ نزل؟ تكلم يا رجل!".

قالت يوريكليا: "اعذريني، هذا يظهر إن تيليماكوس شخص عاقل ومحنك".

فتح ابن كلايتيوس فمه ليضيف المزيد؛ تلك كانت مهمته الديبلوماسية الأولى، لكنها أسكتته بإشارة من يدها.

"حسنا، حسنا، فهمت. هل سيأتي وحده؟".

لم يفهم الرسول.

قالت يوريكليا والأمل يراودها: "لربما هناك أسطول حربي يأتي لاحقا، غدا أو نحوه".

أجاب الشاب: "لا أعرف شيئا عن ذلك".

وضعت العجوز مرة أخرى كفا على كف.

قالت: "في كل الأحوال ما يزال حيا يرزق!".

قالت بينلوبي: "حسنا. شكرا لك. يمكنك الذهاب. أجل، وأنت أيضا يا يوريكليا".

قالت العجوز: "كنت سأستأذنك للتو".

* *

كان أبرز الخاطبين يعقدون ما يشبه الاجتماع عند المدخل الخارجي. وبالإضافة إلى طاقم زورق الحرس، هنالك عشرة من المتوددين قدموا من البلدة. أتى انتينوس ويوريماكوس وامفينوموس وساروا عبر الباحة الأمامية من جديد. بعد لحظة رأت ابن كلايتيوس - ماذا كان اسمه؟ لقد كبر؛ كبر هؤلاء الصبية! - تفادى أعضاء اللجنة الثلاثية، وخلفه أتت يوريكليا، حافية القدمين. لكنها توقفت في الفناء الداخلي، قبيل البوابة، وحين عبرت قربها خلسة تلك القطة المقززة، انحنت ومسدت ظهرها برفق ورشاقة غير مألوفة. الآن حملتها وجلست على المقعد الحجري قرب البوابة والقطة القذرة على ركبتيها. استطاعت بينلوبي أن ترى بأنها كانت تداعب بطن الحيوان المثير للاشمئزاز.

سمعت أصواتا آتية من البوابة الخارجية لكنها لم تتبين ما تقول. لكن فجأة:

"لا، لا، وألف لا! لن أشارك في هذا! يجب وضع حد له الآن! علينا أن ننتظر حتى تقرر! لن يسبب أي أذى!".

كان هذا امفينوموس؛ التفت مرة أخرى في المدخل وصاح قائلا شيئا آخر لهما ـ بصوت غير عادي بالنسبة لشخص هادئ مثله ـ وعاد ليسير عبر الباحة الأمامية. بعد ذلك مباشرة، ظهر انتينوس ويوريماكوس، كانا يسيران جنبا إلى جنب ويتحدثان معا.

وضعت يوريكليا القطة على الأرض وتبعتهما. قالا شيئا لها، ملاحظة ساخرة من تلك التي يطلقها الشبان على العجائز الشمطاوات.

قالت يوريكليا، التي لم تطلب منها السيدة أن تصعد وتخبرها: "لقد عقدوا اجتماعا". كانت العجوز تقف قرب العتبة داخل الغرفة وتنظر إلى قدميها.

قالت بينلوبي: "حقا؟".

قالت العجوز: "أذعنوا لامفينوموس. فهو لن يفعلها. قال إن عليهم الآن أن يتوقفوا".

قالت مدعية عدم الفهم: "لن يفعل ماذا؟".

قالت يوريكليا: "لن يقتله. لن يقتلوه حين يأتي إلى هنا. وهم لا يجرؤون أيضا".

التفتت "الكهلة" إلى النافذة. كانت ابنة دوليوس السمراء، المجعدة الشعر، الحبلى، تمارس التمارين مرة أخرى.

فكرت: قتل!

قالت بهدوء: "لا، لا أعتقد بأنهم يجرؤون على ذلك".

قالت العجوز: "امفينوموس هو الذي أقنعهم بالعدول عن الأمر. فهو أرقهم وألطفهم".

فكرت: ذاك الشاب، الوسيم الطيب امفينوموس.

أضافت العجوز، رغم أن أحدا لم يطلب منها أن تهذر وتتطفل إلى هذا الحد: "وفي هذا المساء أو غدا سوف يأتي تيليماكوس كما قال. أنا ـ بإذن صاحبة الفضيلة ـ متلهفة فعلا لرؤيته. فكري بكل هذا الوقت وهو بعيد!".

قالت: "أقل من أسبوعين".

قالت العجوز: "آه، شاب ويستطيع الإبحار بعيدا! شاب وقادر على القيام برحلات! فكري بذلك".

الإبحار بعيدا برفقة امفينوموس، بفتوته، ووسامته، وحكمته، ورقته. إلى دوليكيوم. بعيدا عن وجه انتينوس؛ ويوريماكوس. وابنة دوليوس.

كانت ميلانثو الآن تجلس على المقعد والقطة على ركبتيها. فكرت الكهلة": قتل!

-٣-

رأى الأب الشاب واقفا في الرواق المكشوف وأربعة كلاب تقفز حول رجليه. شاب ربعة، لم يمتلئ جسمه بعد، وجهه عادي، ليس فيه غباء ولا ذكاء لماح أيضا، مكشوف، وغرير.

أول من رآه الابن كان يومايوس، الذي اهتاج وابتهج صادقا لمرآه، وأمسك بيده عدة مرات، واغرورقت عيناه بالدمع. من مقعد قرب النار نهض رجل ملتح. بدا وكأنه أتى إلى هنا هربا من معاملة سيئة تلقاها؛ الندوب غطت وجهه؛ وثيابه اتسخت ورثت. لم يترك انطباعا خاصا لدى تيليماكوس.

ما شاهده الأب بواسطة القدرة الاختراقية على الفهم، الرؤية المتبصرة الحادة التي أفرزها شعوره المأساوي بالخذلان والنبذ، وإحساسه بالغيرة في حضور الشخص الذي كان طفله، ابنه الصغير، ما شاهده كان شابا عاد إلى دياره من مهمة فاشلة ويحاول إخفاء إخفاقه. كان صوته متوترا في بهجته، وحادا في تفاؤله، حين تحدث وضحك مع يومايوس والكلاب، لكن بالرغم من كل شيء كان لا مباليا إلى أبعد الحدود - كان يمثل دورا. دخل الكوخ ليرتاح ويستخدم المكان/المسرح كما يستفيد المرء من كل وسيلة مهما كان نوعها: لبرهة قصيرة. ما خبره الوالد آنئذ ربما كان ما تختبره حين تموت: اللاعودة.

ربما كان الابن كما تخيله في أحلامه: شاب من هذا النوع تقريبا. لكنه مختلف، لن يتمكن أبدا من معرفة السبب. ذاك الذي تخيله سيختفي ولن يفكر به مجددا؛ التعود كان وشيكا، تطلب الأمر عدة دقائق للتآلف معه. للشاب أنف بينلوبي المستقيم واللحيم إلى حد ما، لكن أخذ من الرحال لون عينيه الفاتح. ذقنه لأبيه، لكن القوة لم تظهر عليها بعد. الفم على وشك أن يعبر عن المرارة. الحركات ما زالت صبيانية، في المرحلة الانتقالية إلى الرجولة الناضجة. قد يستطيع المرء أن يتنبأ له قائلا: هذا الرجل

ربما سيصبح حاكما واعيا لكن ليس على قدر كبير من الحكمة والذكاء وحدة الذهن، ملكا ودودا لكن أخرق إلى حد ما.

تخيل الابن أباه على صورة مختلفة، بل مختلفة جدا. لم يخطر له ولو للحظة واحدة أن الأفاق العجوز الجالس على المقعد قد يكون اسمه اوديسيوس.

أمر الكلاب: "هيا انزلوا! اهدؤوا الآن!".

قال يومايوس، وهو يستخدم الكلمات للمرة الأولى في مخاطبته: "سوف أجهز الأكل حالا يا صاحب الفضيلة".

قال للغريب: "جيد!.. لا، اجلس، اجلس".

قال يومايوس: "يوجد متسع هنا".

أكلوا لحما باردا من اليوم السابق ومضغوا خبزا تفها. حاول تيليماكوس الاحتفاظ بنبرة بهيجة ومرحة، لكن بمقدورك أن ترى بأنه يبذل جهدا من أجل ذلك.

قال لرئيس رعاة الخنازير: "من الممتع حقا أن أكون معك هنا من جديد. أنت مبتهج ونشيط كعهدك دوما".

قال يومايوس وقد تعود الآن على صيغة الخطاب الرسمية تلك:" يا صاحب الفضيلة، أنت لا تأتي كثيرا لزيارتي هذه الأيام. لكن على أية حال لدي ضيوف آخرون".

قال تيليماكوس: "من المؤسف أن يكون الجو سيئا إلى هذه الدرجة".

قال يومايوس: "غرقت سفينة ضيفي قريبا من هنا حين هبت عاصفة قوية قبل يومين. وهو يفكر بالذهاب إلى البلدة. لربما ترعاه أنت يا صاحب الفضيلة؟ يقول بأنه أتى من كريت ولديه أخبار كثيرة يرويها بدون شك".

قال الابن وألقى نظرة سريعة على الرحال: "أوه!". وأضاف على الفور بنبرة لا مبالية: "هذا مشوق. مشوق للغاية!". ثم أردف: "اسمع يا يومايوس، هنالك شيء أريدك أن تفعله من أجلي".

نظر إلى الضيف مرة أخرى، نظرة ملؤها الريبة.

قال رئيس رعاة الخنازير: "يمكن الوثوق به. لدي شعور أكيد بأن من الممكن الوثوق به".

قال الابن بلا مبالاة: "أجل، وأضاف: إنها مهمة".

"لست بحاجة يا صاحب الفضيلة لأن تقول ما هي. هل أبلغ ليرتيز أيضا؟".

قال الابن: "لا، هذا سيطيل المسافة والمدة. لكن اطلب من والدتي أن تبعث رسالة إلى جدي بأنني رجعت ولسوف أزوره في خلال بضعة أيام، إذا سنحت لي الفرصة. ثم تعرف على الوضع هناك وعد إلى هنا مباشرة. هل فهمت؟".

* *

التحول الذي حدث، مثل أمور كثيرة أخرى، نسب إلى أثينا. لكن لم يُستخدم السحر المعجز على نحو استعراضي، بل اتخذ مشهد تحول مقبول تماما وإن يكن غير مألوف ربما. أساسه، بالطبع، كان تبريح الفكر وعذابه.

والارتياب والشك. تيليماكوس، الشاب الذي ما زال يشعر بتهديد القتل يدهمه، بقي وحيدا مع غريب بدا بالتأكيد أعزل، لكنه قوي على ما يبدو، ولم تكن حركاته خرقاء. وقف هناك أمامه، برمحه، وسيفه، وشكه، بينما ذهب رمح يومايوس الكليل وسيفه الثقيل معه.

* *

قال الابن: "إذن كنت في رحلة؟".

"أجل، كنت في رحلة".

"ثم نزلت هنا بالصدفة؟".

كانا يجلسان على مقعد في الرواق. اسند تيليماكوس رمحه إلى الجدار الخشبي؛ كفاه أن يمد يده اليمنى ليصل إليه. صفا الجو قليلا، لكن هناك برودة في الهواء.

"بالصدفة؟. أجل يمكن أن نقول ذلك. التيارات تدفع المرء ولربما توجه الصدفة التيارات".

ثم في محاولة للوصول إلى موضوعه:

قال: "شاركت في حرب. لكن في الحقيقة بقيت مسافرا طيلة عشرين سنة".

فاتته دلالة العبارة.

قال الابن بتهذيب وارتياب: "حقا؟ أمر مشوق للغاية. ثم أتيت إلى هنا، إلى هذا الوضع.. إلى ايثاكا؟".

"أجل".

سأل الابن: "ما هي حرفتك. هل لك اهتمامات سياسية؟ أنت تعطي انطباعا.. كيف سأعبر عن الفكرة: لا يبدو عليك بأن سفينتك قد غرقت؟".

فكر الآخر وسط تبريح الخوف: لن يفهم قصدي. أنا معرض للقتل بذلك الرمح في أية لحظة، بدافع الخوف فقط. إنه ساذج مغفل.

لكن هناك رقة وحنان في ذهنه: كيف يمكن لأحد أن يتوقع منه أن يفهم؟ لا، لا يمكن أن يطلب منه ذلك. يبدو في واقع الأمر حاد الذكاء. أو عادي الذكاء على أية حال.

قال: "بقيت مدة طويلة في الطريق إلى وطني. لدي ابن ينتظرني - ظل في انتظاري سنوات عديدة! وزوجة. ظل الاثنان يتوقعان عودتي طيلة السنوات العشر الأخيرة على اقل تقدير. وهما في وضع غير آمن، يتعرضان للضغوط من كل حدب وصوب؛ والدها يريدها أن تتزوج مرة أخرى وابني ينتظر أباه. هذا ظني. الأمور صعبة بالنسبة لهما".

قال الشاب دون اهتمام وإن ظل مرتابا: "هذا مشوق للغاية. كما أتخيل، لست واحدا من هؤلاء الذين يأتون دوما إلى هنا ويخبرون والدتي بأن أبي في طريق العودة إلى دياره؟ عرفنا العديد منهم. يريدون الطعام والكساء. يقولون إنهم سمعوا شيئا ما من شخص ما يؤكدون بأنه أهل للثقة سمع إشاعة هنا أو هناك - في كريت مثلا - تقول إن والدي يفترض أن يكون في طريقه إلى وطنه".

تحمل الآخر وكبت مشاعره.

قال: "لربما أستطيع أن أخبرها شيئا. لكن، من أجل تغيير الموضوع: هل تتذكر كيف كانت هيئة والدك؟".

قال تيليماكوس بشيء من الانزعاج: "أتذكر كيف لا أتذكر! أنا الذي أراه بعين العقل كل يوم! سأتعرف عليه فورا حتى وإن كان وسط ألف شخص، ألف بطل. سأكون قادرا على الذهاب مباشرة إليه وأقول: أنت أبي!".

سأل الآخر: "كيف كان يبدو؟".

قال تيليماكوس: "يبدو؟ يبدو؟ أجل.. انتظر. أنا..".

فكر بالأمر.

"أجل، كان طويل القامة نوعا ما. أتذكر ذلك بوضوح. في الحقيقة، كان ضخم الجثة عريض المنكبين - رغم أنهم في الجزيرة هنا فضلوا طبعا تصويره بشكل أصغر مما كان".

فكر الآخر: كان؟

قال الابن: "كانت له لحية كالذهب، والشعر أيضا، لون عينيه أزرق فاتح، أزرق إلى حد يثير الانتباه. وفوق ركبته اليسرى، من الداخل، هناك ندبة طويلة مزدوجة: فقد جرح نفسه حين كان صبيا، ثم عارك خنزيرا بريا، هكذا أخبرتني أمي ذات مرة".

"هل رأيت الندبة".

كانت نظرة الابن المحدقة مليئة بالشك.. نظرة صبي جريح.

"لِمَ تسأل عن ذلك؟ هل هذا تحقيق؟ بالطبع رأيتها!".

"وكان عمرك آنئذ أكثر من سنتين بقليل".

قال تيليماكوس متذمرا: "لدي صورة واضحة تماما عن الندبة. وعلى أية حال، ليس هذا من شأنك! أعرف بالتأكيد كيف يبدو والدي!".

قال الآخر: "طبعا، طبعا".

* *

التعبير عن الحزن يمكن أن يأخذ شكل ثياب سوداء أو أرجوانية على البدن، أو دموعا في المآقي، أو رمادا في الشعر، أو صوتا بشعا في الحنجرة. يمكن أيضا أن يأخذ شكل الوضوح، والتصميم، وإلقاء النظرات العجلى على الأيدي والأقدام.

"هل تظن أن أمك قادرة على التعرف على أبيك إذا عاد إلى البيت الآن؟".

نظر الابن إليه مؤنبا بعينين محدقتين.

"لكن هذا واضح تماما! سوف نتعرف عليه فورا، حالا".

فكر الرحال: أدعوك يا أثينا، أن تساعديني الآن بفكرة! لكن هذا كان مجرد أسلوب مهذب، انحناءة جوانية أمام الآلهة؛ الفكرة موجودة لديه قبلا.

فكر: إنها مخاطرة، لكن على المرء ركوبها.

نهض واقفا.

"لدي شيء أريدك أن تراه. انتظر هنا؛ سأعود بعد برهة. لكن حافظ على الكلاب هادئة من فضلك".

نهض تيليماكوس واقفا أيضا؛ أخذ رمحه، وبدأ يحفر الأرض بطرف القناة.

قال: "لا أدري.. أنا..".

قال الآخر بصوت فيه حدة: "يمكنك أن ترى بأنني لا أحمل سلاحا. ومن المؤكد أنك لا تظن بأنني سأحضر عصبة من القتلة؟ فإن فعلت فمن الأفضل أن تعيد النظر. يمكنك أن ترمي رمحك على ظهري الآن وأنا أمشي".

قال الابن: "لكني لا أفهم..".

قال الآخر: "لا، ولكن سرعان ما ستفهم. هدئ روع الكلاب الآن".

حين سار بين الأشجار الخفيضة فكر ثانية وكانت الفكرة صبيانية مرة أخرى، ومبالغاً في سخفها، لكن لم يكن منها بد. انسل داخلا إلى الكهف ووجد صندوقيه على حالهما. من المؤكد أنه سيدرك أنني مكتف ذاتيا، ولا أريد شيئا منه. لن يتعرف علي أبدا، لكن ربما سيقبلني. لن يتعرفوا علي أبدا. لكنهم سوف يقبلونني. ربما سيتعرفون على جسدي، وينادونني باسمي. لكنهم لن يتعرفوا على "ذاتي" أبدا.

وقال بصوت عال:

"ولن أتمكن من أن أطلب ذلك منهم أبدا".

تفحص الملابس، والخوذة، والسيف الثمين، ونصل الرمح الجديد، التي تلقاها جميعا من الكينوس. الرداء منسوج من كتان ناعم ومطرز بالفضة حول الياقة، والعباءة بيضاء بحاشية زرقاء ومطرزة بالذهب عند الصدر والظهر؛ اختار ما بدا فاخرا وملوكيا. ابتسم ابتسامته الموروثة البشعة وهو يحكم إغلاق الصندوقين، ووضع الملابس تحت إبطه وخرج.

غسل بسرعة وجهه وصدره في ماء النبع وحاول تسريح لحيته وشعره وتمليسهما قبل أن يغير ملابسه. انتعل الصندل؛ كان جديدا وزلقا وصرَّ قليلا. قطع لنفسه قضيبا، وبراه وصنع منه قناة بديلة لسنان الرمح. أخيرا اعتمر الخوذة وتمنطق بالسيف. حين ارتقى المنحدر والدرب الزلق عبر الشجيرات الندية حاملا الثياب القديمة في صرة تحت إبطه، فكر ـ بكل الحزن الكامن فيه ـ أن الأمر كله هزلي مضحك. قبيل أن يبرز إلى

الفرجة بين الشجر، خبأ صرته تحت إحداها. نبحت الكلاب، ثم هرّت، لكنها لم تتحرك. وقف تيليماكوس في الرواق، ينتظر، ويسراه على مقبض سيفه ويمناه تمسك بقوة بقناة رمحه.

لكن أثينا تدخلت إلى حد ما؛ ما كانت أبدا عاطلة عن العمل. لم تكتف بأن تملأ ذهن تيليماكوس بالدهشة، بل أترعته بالأفكار أيضا. كان الابن متدينا بطبعه، وحين وجدت خلطة الخوف والتحدي التي دفقت في كينونته الداخلية على شكل موجات متفاوتة الكثافة، التعبير في الأصوات، في الكلمات، كانت:

"ما هذا بحق الآلهة..".

ثم الفكرة المستلهمة من الإلهة:

"هل أنت إله؟".

اقترب الآخر أكثر وأكثر، لمعت خوذته تحت ضوء النهار الرمادي، ووهجت عباءته بالأبيض والذهبي، أما صندله فكان أحمر بنيا ولا يكادُ يسمع صريره على تلك الفسحة المفتوحة التي تسطحت من دوس أقدام البشر وحوافر الخنازير. لألأت الجواهر ولمع الكهرمان على مقبض سيفه وغمده، وبعث نصل الرمح عدة ومضات بيضاء وزرقاء وصفراء وحمراء واضحة. خلال تلك الثواني اختفى الجانب الهزلي: أصبح عودة عظيمة للوطن، كان في الحقيقة رجلا خارقا نوعا ما.

قال: "رجعت إلى الوطن. ها أنا ذا".

تراجع الابن خطوة إلى الوراء واتكأ بمنكبيه على إطار الباب. الكلاب هرت حول رجليه.

قال: "إن كنت إلها، فقل ذلك حالا".

لكنه عرف. لمَ لمْ يعرف؟ أمام هذه الأبهة الفخيمة غدا صغيرا، الرجل الذي كانه في رحلته إلى البر الرئيسي، والذي شعر بالأمان في رجولته الجديدة برغم كل تباريحه، عاد الآن ليتحول إلى صبي صغير. وقف جسده هادئا ساكنا هناك في الرواق، لكن بقية كيانه كانت صبيا صغيرا يركض إلى الأمام نحو الرجل الباسل الجسور الذي يقترب منه.

قال الآخر وهو يرفع قدمه ويخطو داخل الرواق: "لقد عدت، أنا هنا يا تيليماكوس. أنا هنا. أنا أبوك".

* *

لم يختبر أي منهما فيما بعد ما حدث آنئذ: بكى كل منهما أمام الآخر. لم يعرفا، أو على الأقل لم يعرف الابن، لمَ كانا يبكيان. أسند الابن رمحه على الجدار خلفه؛ سقط محدثا صليلا على المقعد، لكنه لم يأبه لذلك. كانت عيناه تطفحان، عرضة لموجة كاسحة من الدمع/الماء فيها أثر من خيبة الأمل، لم يكن ثمة مفر من ذلك. تخيل عودة الأب على صورة مختلفة، لكنه قبلها كما هي. فكر: هذا أبي. أتعرف عليه باطراد. إنه طويل القامة فعلا، عريض المنكبين قوي البنية على أية حال. ويمكنك أن ترى بأنه عانى كثيرا. الأب ناح على مصيره؛ وليس من المستحيل أنه اعتبر في تلك اللحظة ـ لوهلة طبعا ـ حالة الأمور السائدة في جزيرته بوصفها حالة مثالية من الهدوء والأمان والسعادة. لكن عليه أن يحطمها.

بعدئذ قال الابن:

"تخيل يا أبي أنهم يريدون قتلي!".

وضع الكهل رمحه جانبا، بحرص كي لا يسقط، ومد يده نحو الشاب، ولمس ذقنه الناعمة.

قال: "يا بني المسكين".

* *

في تلك الأمسية، وقبل تحول حمرة الشفق إلى حلكة الليل، حين عاد يومايوس، كان المتسول ـ أو كما دعاه قائد الخنازير المتاز في أعماق صدره: "المتردد"، "الرجل الذي ما زال مترددا" ـ يجلس بأسماله بجانب الابن على المقعد القريب من النار. يمكن سماع الرعاة وهم في طريق العودة إلى البيت. غدا الجو مرة أخرى سديميا ورماديا؛ كان رئيس الرعاة العجوز متعبا.

قال: "صاحبة الفضيلة عرفت مسبقا بكل شيء. أصحابك يا صاحب الفضيلة عادوا ولم يمسسهم سوء. أمتعتك يا صاحب الفضل مع كلايتيوس؛ تم استدعاء كافة الحراس، من المضيق والجبال. لا تظن فضيلتها بأن هناك خطرا داهما يتهدد سموك"،

وأضاف وعلى وجهه ابتسامة خفيفة: "فهم يخافون أيضا. يتوقعون عودة فضيلتك هذا المساء".

قال تيليماكوس بثقة ورباطة جأش غير عاديتين: "لا داعي للعجلة. ما زال أمامها عدة أيام. لسوف أبقى هنا حتى صباح الغد".

قال العجوز: "أجل، لا داعي للتعجيل بما سيحدث".

قال تيليماكوس: "هذا السيد.. ضيفك، سوف ترافقه إلى البلدة بعد أن أرحل. الآن دعونا جميعا نستمتع بالأمسية. يومايوس، ماذا عن قتل أفضل ما لديك من خنازير وتقديم أطيب ما لديك من خمر؟".

قال العجوز: "لقد فكرت في ذلك".

نظر إلى الرحال؛ تقابلت العيون وحدق كل منهما بالآخر لوهلة.

قال زعيم رعاة الخنازير: "وقد رأيت أن سيدنا قد عاد إلى وطنه".

- ٢٨ -

الاستعدادات

حطت ذبابة منزلية عادية على ما يبدو على الطرف الأسفل من عارضة صقيلة من خشب الأرز ملوثة بالسخام، وجدلت أرجلها وحلمت بالدماء.

* *

شعروا جميعا بأنهم يقتربون من حد فاصل، من نهاية حاسمة. بعضهم قاس الزمن بالأيام، وغيرهم بامتداد عمر البشر. همست بينلوبي إلى نفسها كل صباح: ثمانية أيام، سبعة أيام.. وما زالت لم تستقر بعد على رأي يحدد هل هي مدة طويلة أم قصيرة. تسعة أيام، ثمانية أيام، سبعة أيام، هكذا غمغم أو فكر الخاطبون، وملاك الأراضي، والطفيليون الآملون أو المتلهفون، والعشاق، والماكرون الأنانيون الذين حسبوا المدة باهتمام أو لا مبالاة، ولم يتمكنوا جميعا من تقرير هل الأمر سيئ أم جيد. لكن عهد الخاطبين قد ولى تقريبا. لسوف يعودون إلى تلك الحياة الأخرى - أحدهم سيرجع مع أرملة ملك ايثاكا وهي زوجة له، وخمنوا من هو؛ فقد شاهدوا عنوان دوليكيوم على صناديق أمتعتها. بعضهم سيستمر في ممارسة أعماله التجارية هناك، بعضهم الآخر سيكرسون أنفسهم لرعاية مساحات الأراضي التي زرعوها بالملفوف، وآخرون سيبحرون بعيدا في حملات وبعثات إلى سواحل لم تنهب بعد. بعض من هؤلاء سيُرْدون قريبا، في خزي وعار، وغيرهم سيغادرون إلى مثوى الأموات كسادة نبلاء وأقوياء بلغوا من العمر عتيا، وبعضهم الآخر سيُسبون عبيدا إلى البلاد الأجنبية.

وآخرون، من بين أشدهم كتمانا وتحفظا، الذين لم تتضح بعد ماهية الدور الذي كانوا يلعبونه، فكروا بما حدث اعتمادا على عدد من يموت ويبقى حيا. هنالك قوائم تضم سلسلة من الأسماء همس الناس بها. يجب أن يُقتل اثنا عشر، خمسون أو اثنان

وخمسون. فكر شاب بحمية الكراهية التي تملأ جوانحه وهو يبالغ في تقدير أهمية حشد الخاطبين: لربما سيقتل مائة وثمانية.

الخنازير استشعرت ما سيحدث، ولم يعد نخيرها حزينا؛ فقد كان الوقت، علاوة على كل ذلك، خريفا وهناك وفرة من جوز البلوط في الغابات، والخراف التي جز صوفها قبل مدة وبدأ ينمو مجددا كانت ممتنة سعيدة وزادت ثقتها بالإنسان. أما الماعز فليس من الممكن وصف حالها حتى بعد مرور وقت طويل، لكنها سرت هي أيضا دون شك. لسوف يتقاعد أسوأ الطفيليين قريبا - سيذهبون، أو يبحرون، أو يؤخذون بعيدا. القطعان على الجزر المعشوشبة تنفست براحة أكبر، ولاكت واجترت بعصبية أقل. وعلى سقف القاعة الكبرى حطت ذبابة، كما أسلفنا، ذبابة عادية منزلية على ما يبدو ولفت أرجلها وحلمت بالدم.

الشمس، هليوس الرؤوم حينا الغشوم حينا آخر، وأحد أبرز جواسيس الآلهة، أرسلت أشعتها يوما بعد يوم عبر الجو الخريفي السديمي أو الصافي إلى كل أصقاع العالم المعروفة وصبغت البحر في الأمسيات.

* *

فكرت فعلا بأن "الابن" قد تغير خلال الأيام التي غاب فيها، لكن ليس إلى الحد الذي خشيته. لم يرجع إلى أرض الوطن بصحبة أسطول حربي أو جيش عرمرم؛ أتى حاملا ثوبا فاخرا مطرزا و "بناتيا" نوعا ما، قصد به أن يكون دون ريب هدية العروس. كان تحية متكتمة من ابنة العم هيلين في إسبارطة. تلقى هو نفسه العديد من الهدايا؛ أتيح لها أن تلمحها بعد أن ذهب إلى البلدة وأحضر صناديق أمتعته من بيت كلايتيوس.

قال: "أرسلا إليك أحر تحياتهما القلبية. وعبرا عن السعادة عندما سمعا بأنك في صحة جيدة يا أمي".

لكن بدا كتوما بطريقة جديدة. قبل ذلك قالها بصراحة ووضوح: أنا كتوم متحفظ بقدر ما أستطيع؛ لدي أفكار لا تستطيعين بلوغها. الآن، بدا ذلك في عينيه فقط. إذ حملتا توكيدا: أعرف شيئا. علاوة على أنه اكتسب أسلوبا جديدا؛ لم تستطع منع نفسها من التفكير: أسلوب متكبر تياه. كان يرفل بملابس جديدة؛ رداؤه طرزته هيلين

بيديها - ذكر ذلك عرضا - بحواشي زرقاء وحمراء. وبدلا من عباءته السابقة الحمراء الجديدة، تزيا بعباءة فاخرة مطرزة بالذهب أعطاها له منيليوس، أما صندله الملكي فتوهج بلون أصفر وبكلة فضية. كانت بشرته تلمع بفعل الزيت وجسده يتضوع عطرا.

وصل إلى مسامعها صخب أصوات الخاطبين في القاعة الكبرى الذين قصفوا وعربدوا وأفرطوا في الشراب منذ اليوم السابق. العديد منهم فعلوا ذلك تعبيرا عن شعورهم بالارتياح: إذ لن يضطروا لقتل "الابن". بعض الذين أتوا من جزر أخرى استعدوا الآن للرحيل؛ غادروا المنزل لتفقد محاصيلهم أو لمقابلة ربابنة السفن التي أرسلوها إلى البحار للمتاجرة مع البلاد الأخرى أو نهبها خلال فصل الإبحار. بعضهم تخلوا عن المشروع برمته. حيث اعتبروا القضية محسومة ولم يرغبوا في البقاء. أقيمت حفلة وداع لجماعتين في ذلك اليوم بالذات: قاموا بشي خروف وقدموه قربانا في الباحة الأمامية.

سألت: "وهل أمضيت وقتا ممتعا وأنت هناك؟".

قال: "أوه، أجل، السفر متعة".

"ولم تعلم شيئا.. أعني عن أبيك؟".

أحنى رأسه ونظر إلى صندله الأصفر.

قال: "لا شيء مهما".

شعر بحب ومودة تجاهها، مودة قلقة مترددة. تقدم خطوتين إلى الأمام ووقف بجانبها قرب فتحة النافذة، مكانها المعتاد طيلة الأيام الثلاثة والعشرين الفائتة. وهناك في الأسفل، كانت ميلانثو ببطنها المكور المتدلي تمشي عبر الباحة الأمامية وهذا ما أزعجه قليلا.

قال: "كل شيء سيكون على ما يرام، لسوف ترين".

أجابت مثقلة بالهم: "يجب أن نأمل بذلك".

قال بأقصى ما يستطيع من مرح وبهجة: "كانوا على قدر كبير من اللطف والكرم في بيلوس يا أمي. نستور شخصية تستحق أن يتعرف المرء عليها، ملك حقيقي".

"وماذا عن منيليوس وهيلين؟".

قال: "أوه، أجل. كانا في غاية اللطف. رغم أنني استمتعت أكثر في بيلوس.

أظن أنني سأذهب إلى هناك مرة أخرى. في الشتاء أو الصيف. أصبحت صديقا مقربا من بيسيستراتوس".

سألت، وحاولت أن تبدو فضولية ومهتمة: "هل هو أحد الأبناء؟ لديه بنات أيضا، عدة بنات، أليس كذلك؟".

قال بحماس أكبر، بحماس حقيقي: "أجل. أصغرهن اسمها بوليكاست.."

تجنب النظر إلى الأسفل باتجاه الباحة الأمامية.

قالت: "أريد أن تخرج ميلانثو تلك من المنزل. لا يمكن بيعها الآن. بل إرسالها إلى مكان بعيد".

قال بصوت ثابت: "لا أظن أن من المستحسن القيام بذلك".

بحثت عن شيء آخر تقوله حول الموضوع.

قالت: "لعبت دورا مقيتا في محاولة قتلك". كان هذا أفضل ما فكرت به.

قال: "لا أظن أن من الأفضل إبعادها".

التفتت نحوه قبل أن تجيب: نظرتها المحدقة جالت في وجهه، وصدره، ومنكبيه.

"هل مضى وقت طويل منذ.. كنت معجبا بها، وتعاني من نقطة ضعف تجاهها؟".

لم يجب.

سألت: "تسعة أشهر، عشرة؟".

قال: "لا أظن أن من المستحسن إبعادها. كل شيء سيكون على ما يرام يا أمي. كل شيء سيتغير قريبا".

فكرت وهي تضع يدها على ذراعه: حين أرحل أنا أو يموت هو.

نزل السلم وجلس في مكانه، في مقعده العالي، وتصرف كأن شيئا لم يكن. كانوا على قدر كبير من الود، بل حتى التملق.

**

أرادت الآلهة أن تثير غضبه وقامت بعدة محاولات قبل أن تحقق النجاح. أم هل نجحت فعلا؟

حين سار يومايوس والرحال عبر الدرب الذي يخترق البرزخ الضيق وبلغا مكانا تظهر منه بشكل كامل ساموس الصخرية في الغرب وجزيرة البحر في الشرق، ثم عبرا

كافة أراضي جزيرة الشمال تقريبا، قابلا رئيس رعاة الأغنام ميلانثيوس، الخائن منذ سنين عديدة. كانا قد سارا عدة ساعات قبل الوصول إلى تلك النقطة، النقطة الحاسمة قرب النبع في أيكة الحور المشرفة على البلدة مباشرة.

كان ميلانثيوس، المسؤول الطموح، قد استدعى عددا من الرعاة إلى هناك لعقد اجتماع سري؛ تعلق بالإرساليات طبعا، ولم يرغب بالذهاب إلى الحقول؛ كان في عجلة من أمره.

يمكن للمرء القول: الآلهة وضعت هذا القدر أو ذاك من الغضب في سبيل الإنسان؛ لعبت به ولهت وفي نفس الوقت رأت النهاية مسبقا. وضع ميلانثيوس تمثل في أنه مال كثيرا إلى جانب حزب الخاطبين الذين انتووا قتل الابن، بحيث ذبح قطيع الماعز، أو باعه في السر على ما يفترض، أو بالغ في الكرم في إرسال رؤوسه إلى المطبخ. فكر الآن أن الضيوف لم يأكلوا لحم الخنزير كثيرا. وبعد أن غادروا استأسد على أولئك الأضعف منه، لكن ذلك لم يستنفد الحصة المسموح بها من الغضب الإنساني في صدر زعيم رعاة الماعز. جلس هناك بجانب النبع ووضع خطة. كان في موقف حرج. لقد ألحقت أخته العار بنفسها بحيث لن يتمكن من تزويجها مقابل ثمن معقول حتى لو وافقت بينلوبي، وسيصبح موقفه بائسا جدا ـ بكل سهولة ـ إذا ما قررت "المنتظرة" واختارت. ولسوف يعود الخاطبون والطفيليون من الجزر المجاورة والبر الرئيسي في وقت قريب إلى ديارهم للأبد بعد كل هذه السنين، وسيتحول حزب الخاطبين في الجزيرة إلى الحزب التقدمي أو الحزب الوطني وقد يصبح تيليماكوس السيد الأوحد برغم كل شيء. ومهما حدث، إذا جرى جرد لأعداد القطيع، سيصبح مستقبل ميلانثيوس في مهب الريح. والعادة المتبعة هي تقطيع أوصال الوكلاء المسؤولين عن القطعان إذا خانوا الأمانة قبل أن يشنقوا.

شاهد العجوزين يهبطان المنحدر باتجاه النبع وانتظر حتى وصلا. كان يومايوس بشع الهيئة، وفاحت منه رائحة الخنازير القوية؛ الآخر بدا على نفس القدر من القذارة، وإن بزه في الرثاثة: رجل مرتجف منهك يحمل عصا طويلة بيده وكيس المتسولين على ظهره. لم يقل شيئا حتى قرفص الاثنان وشربا.

ومن ثم:

"حسنا، الخنزير العظيم شخصيا! يخرج مرة أخرى للنزهة! أليس لديك ما تفعله يا يومايوس؟ هل ماتت كل خنازيرك جوعا؟".

غمغم يومايوس شيئا.

"ماذا قلت يا ملك الخنازير؟".

"قلت إننا نذبح أعدادا كبيرة منها، لكن ذلك لن يستمر طويلا".

الغضب العارم تكشف إلى حد أن ميلانثيوس نهض واقفا على قدميه.

"ما الذي تعنيه بذلك؟".

قال يومايوس: "ما أعنيه أن الزمن يمر. أن الآلهة تركته يمر. وأن كل شيء يتغير".

الوكيل المسؤول عن الماعز، ذو الجسد الضخم، والعضلات المفتولة، والشعر الفاحم، والعينين السوداوين، اقترب خطوة أو اثنتين. لم يكن محاورا بارعا؛ بحث عن الكلمات واستخدم الأولى التي وجدها:

"المتسولون الرعاع الذين تأخذهم إلى البلدة هم الذين يأكلون ويأكلون ولا يفعلون شيئا بالمقابل".

"كيف؟".

صاح ميلانثيوس: "المتسولون الرعاع! أفاقون كهذا! لا تقف هكذا وتحدق بي!".

ركل برجله. الغريب العجوز لم يقفز بسرعة ليتفادى الركلة فأصابته في فخذه، وترنح. صرخ يومايوس:

"ستدفع ثمنا باهظا لهذه الركلة يا ميلانثيوس!".

كانت لعبة الآلهة على هذا القدر من البساطة.

شعر الرحال بالغضب يأتي؛ كان مدركا لقوة عضلاته وقدرة يديه على الضرب، لكنه حاول مع ذلك تهدئة يومايوس:

قال: "حسنا، هدئ من روعك".

قال يومايوس: "لو يرجع اوديسيوس إلى وطنه..".

زمجر ميلانثيوس وكشر هازئا: "اوديسيوس! لن يأتي أبدا. لكن إن أردت أيها الشحاذ العجوز، سوف أكومك في صرة وأضعك في جوف مركب، وأرسلك إلى مكان نقبض فيه على الأقل ثمنا لك. هذا إذا لم أقطع خصيتيك بالطبع!".

قال القائد العام للخنازير يومايوس: "تيليماكوس..".

قال الرحال: "حسنا، لا بأس، اهدأ".

زعق الآخر وقد تملكه الغضب - عاقبته الآلهة بملء جوانحه بالغضب ظلما: "تيليماكوس، ها! سوف يحاسب قريبا أيضا. والآن أغلق فمك، وإلا سأقطع خصيتي كل واحد منكما!".

أدار ظهره لهما وانطلق مسرعا باتجاه البلدة.

لم يشعر الرحال حتى الآن بالغضب الحقيقي. كان سيرد الضربة، لكن الرد سيكون على الأغلب من أجل المبدأ. فكر: المبدأ؟

قال يومايوس بخشونة مفاجئة: "أحسب أن المرء سيفقد خصيتيه في أحد هذه الأيام".

لقد تدفق الغضب إلى كيانه هو.

* *

رأى البيت. تعرف عليه. جدرانه وجدران الباحتين أصبحت رمادية. تبعا الدرب المحاذي للجدار الخارجي الذي داسه العديد من الحوافر والأقدام، حتى وصلا إلى الفسحة المفتوحة أمام البوابة. ما زالت البيوت المجاورة هناك؛ بحث عن الأسماء في ذاكرته. رفاق ذهبوا إلى الأبد، أصحاب ومعارف ما زالوا أحياء ربما. وهناك بين كتلة البيوت المتشابكة قبل أن تصل إلى الجزء المنخفض من البلدة، شاهد الناس يمشون؛ كان هو نفسه هناك في ذكرياتهم. نظر إلى الجانب الآخر من بيوتهم، هو الذي كان فضلة ونتيجة الحرب: رجل عاد إلى دياره في كل الأحوال.

قال: "آه، أجل، ذاك بيت اوديسيوس".

سمعا موسيقى تأتي من الداخل. وحين عبرا الباحة الخارجية، رفع كلب يربض على كومة من النفايات خطمه وتنشق. نظر الرحال حوله في كافة الاتجاهات. فكر: كانت الموسيقى تصدح من قبل أيضا. كأنما كنت هنا بالأمس. لكن كل شيء هرم وشاخ في ليلة واحدة. توقف عند مذبح زوس في الباحة الداخلية. وفيما وراء السقف المسطح للقاعة الكبرى انتصب الجدار الرمادي للمبنى الرئيسي الذي يضم طابق النساء والسقيفة. المصاريع كانت مفتوحة.

حاول الكلب أن يزحف، لكنه استطاع فقط أن يرفع رأسه.

دخل يومايوس أولا. الرحال انتظر قليلا قبل أن يتبعه عبر العمالة الخارجية ويجلس على العتبة الحجرية.

قال الوكيل المسؤول عن الماعز، المتملق المتزلف، القلق، اللاهث، الذي جلس لتوه مقابل يوريماكوس: "انظر!". التمع الدهن حول شفتيه؛ لقد بدؤوا الأكل.

سأل انتينوس من المائدة المجاورة: "إلى ماذا؟".

تساءل امفينوموس، الرجل الهادئ القادم من دوليكيوم: "ما الأمر؟".

انحنى يومايوس حين وصل مائدة تيليماكوس أمام الابن:

"ضيفنا جالس على العتبة".

* *

عاد إلى بيته، وها هو يجلس على العتبة الحجرية لقاعته، وعلى الأرض عند قدميه رقدت حقيبة المتسولين الجلدية التي أعطاها له يومايوس. كانت يداه مشوهتين. اعوجت الخنصر والبنصر في كفه اليسرى باتجاه الوسطى، ومن جهة أخرى مالت السبابة باتجاه الوسطى، كأنما قبض بكفه على شيء بجهد هائل بحيث استحال فتحها مرة أخرى كما ينبغي. اليد اليمنى فقدت البنصر؛ اقتلعت من جذرها. على ظاهر اليد هنالك ندوب قديمة أحدثتها سكاكين وسيوف وسهام ورماح، إضافة إلى ندوب جديدة، طازجة، خلفتها أصداف بلح البحر، والحجارة، والأشواك. الجلد على رجليه مسحج ومكشوط؛ قدماه الحافيتان قذرتان. ورائحة الخنازير فاحت منه.

أمكنه رؤية كل شيء. قرب الموقد كان ابنه يجلس إلى مائدته. يومايوس كان يميل نحوه ويهمس.

وفي أرجاء القاعة جلس الرجال الذين يجب أن يقتلهم.

أم هل يجب عليه ذلك؟.

رأى تيليماكوس أباه. خلال طفولته وسنوات فتوته، خصوصا في أعوام عهد الخاطبين، كثيرا ما حلم بهذا الرجل. الآن، قال لنفسه: ذاك أبي، أتيت من صلبه، بطل متنكر بزي متسول، بطل سمع الناس عنه جميعا، مالك كل شيء هنا، يملك أمي، وأنا ابنه. إن أغمض عينيه فلسوف يتمكن من رؤية الملك الطويل النجاد، أو العريض

المنكبين على أية حال، المهندس، الجنرال، والأدميرال العائد من طروادة، اوديسيوس، الذي سيلوح برمحه، ويمتشق حسامه، ويسدد قوسه، ويزأر. وخلفه ستقف ثلة من الرجال، صفوة من المحاربين نزلوا من سفينته التي رست في خليج البلدة ذات صباح، مثقلة بحمولة الأسلاب والأنفال والفخار.

هناك، على العتبة، جلس رجل قذر أشعث اللحية، بدا أكبر عمرا من حقيقته. لسوف يمثلان دورا ليوم وليلة.

وفي الصمت المخيم، بينما الذبابة ما تزال تجدل رجليها بهدوء على السقف الصقيل الملوث بالسخام، يستطيع الراوي/المراقب الفعلي، ممثل الحكاية، المعلق المسجون في إسار الحكاية، المسترق السمع، المثير للاهتمام الأكاديمي، أن يترك نظراته المحدقة تتجول في أنحاء القاعة الكبرى. عشرة رجال، وربما خمسة عشر، جلسوا هناك في أماكنهم. قرب الباب، قرب عتبة الشحاذ، جلس المغني فيميوس، والعميل المزدوج ميدون الذي كان يحاول أن يحزر العدد الصحيح في "عملية السحب" تلك، لكن لم يتبين له ذلك حتى الآن. ومن يقدر على الرؤية بوضوح في تلك المقامرة؟ ليس انتينوس، الزعيم الصلب، الذي عرف في تلك اللحظة أن بينلوبي لن تختاره إذا ما أعطيت حرية الاختيار. على المائدة المجاورة له جلس يوريماكوس، الساحر الفتان، الذي امتلك منذ مدة طويلة كل مبرر للأمل، لكن علم الآن أن بينلوبي لن تختاره، لو أتيحت لها فرص الاختيار بحرية مطلقة. الرجل الثالث على رأس قائمة المرشحين كان امفينوموس القادم من دوليكيوم. لم يكن يعرف، لكنه استشعر من ستختار إذا سمح لها أن تختار بحرية. فكر بالأمر بجدية. سوف يعود إلى وطنه بوصفه "المختار"، "المبجل المكلل بالشرف"، ولسوف تضفي ألقا بهيا ومجدا عظيما على جزيرته كما فعلت هيلين مع إسبارطة.

فكر: أنا. والاحتمال أقلقه. فكر: ولا بد من حدوث نزاع حول ثروتها على أية حال.

نظر ميلانثيوس، وأشار، والتفت إلى يوريماكوس، ورفع كأسه، وعب منه. في قعر الكأس كمنت فكرة. حدق فيه وفكر: يا للسماوات، كيف لم يخطر لي شيء بهذه البساطة من قبل! طبعا ذاك هو الحل! فكر: أنا. أنا مؤهل. أستطيع أن أزرع وأرعى

القطيع وأهتم بالتجارة. ومظهري ليس سيئا أيضا. صحيح أنني متحدر من سلالة حبشية، لكنها سلالة ملكية. وأنا مكتمل الرجولة والفحولة.

في الفناء الخارجي، كانت ميلانثو، شقيقة الوكيل المسؤول عن الماعز، وابنة دوليوس السمراء، تقوم بجولتها الصباحية، لم تكن شريرة ولا خيرة، كانت أمة حبلى لها أحلامها. رأت ظهر المتسول المحدودب والشعر الخفيف على مؤخرة رأسه، وفكرت: شحاذ. منعت من الدخول إلى القاعة الكبرى؛ فدخولها أدى إلى ضحك كثير، لكنها استطاعت أن تسير في الصالة الخارجية وتنظر عبر الأبواب. رأت وجنة أخيها الداكنة؛ ثمة أمارات غضب عليها، وذعر. رأت وجه امفينوموس الوسيم الهادئ، وقسمات يوريماكوس المنتظمة الجميلة التي أغرمت بها كثيرا، ورأت وجه انتينوس الصلب المتجهم.. وحدقت إليه فترة طويلة.

شعرت بمدى دنو اللحظة المبهجة الموعودة. فكرت: أتساءل هل هو ولد أم بنت؟ ومن سيشبه أكثر؟

كانت بينلوبي في غرفتها ونظرت ـ صدفة ـ عبر النافذة. توقفت الفتاة عند مذبح زوس ونظرت باتجاه مدخل القاعة. كان الجو رماديا. الميناء بدا ميتا كالخريف: السفن ربضت هناك، نائمة، على الرمل والحصى.

في ذلك الصباح راجعت الحسابات؛ النتائج جيدة فعلا، لكن لم تأبه لذلك. فكرت: بعد وقت قريب لن يشغلني هذا الأمر.

قالت يوريكليا التي ظلت آنئذ مستمعة متحمسة:

"هناك شحاذ جديد اليوم، أتى مع يومايوس".

* *

ثم انتهت فترة الصمت فتحرر الجميع من إساره. استيقظت الآلهة وتذكرت خطتها. تركت الذبابة عارضة السقف، وانقلبت وهي تسقط لتحوم دائرة حول طبق انتينوس.

قال تيليماكوس:

"يومايوس، قدم لضيفنا قطعة من اللحم. وبلغه تحياتي، وأخبره أن بإمكانه التسول هنا. لا، لا تقل تسول: قل جمع الطعام".

أخذ رئيس قطيع الخنازير طبقا خشبيا عليه قطعة مشوية من لحم الضأن من مائدة "الابن" - وهذا شيء غريب - وسار من الموقد إلى الجانب الآخر من القاعة الكبرى. مر بمحاذاة رئيس قطيع الماعز، الذي جلس إلى مائدة يوريماكوس وظهره إلى الصالة، ثم يوريماكوس وانتينوس وامفينوموس، ووصل إلى المتسول على العتبة وقال:

"طلب مني سيدي أن أعطيك هذه يا سيدي، ويقول سيدي إنك تستطيع، يا سيدي، أن تجمع الطعام من كل مكان في القاعة هنا".

كان كلاما غريبا جعل الكل يلتفت نحو الباب مرة أخرى. وقفت الذبابة على جبهة انتينوس. من لا يستطيع القول إن أثينا تنكرت على هيئة ذبابة وإن الآلهة ناشطة تماما على كافة الجبهات؟

قال انتينوس وهو يكش الذبابة: "لم أسمع في حياتي كلاما هزليا كهذا!".

نهض الرحال وبدأ التجول في أرجاء القاعة، بدءا من اليسار. حمل الطبق أمامه ورجفت يداه. ارتعش وجهه، وبدا مزويا وقبيحا بشكل غريب. اغرورقت عيناه؛ حسبوا بالطبع أنه تأثر بلطف وطيبة تيليماكوس، وأن في عينيه دموعا فعلا - ماذا سيظنون غير ذلك؟ أجل، لا بد أنهم ظنوا أن الدموع تجري في عينيه. قطعوا شرائح من اللحم؛ سمحوا له بأخذها، كانت إشارة ذات دلالة منهم. يمكن للمرء أن يتخيل بأنهم بهذه الإشارة الدلالية كانوا يقبلون بتيليماكوس ملكا على ايثاكا.

كانت وجوههم إما لا مبالية أو فيها فضول الشباب؛ وهنالك ذعر واحتراس في عيون كثيرين.

قال ميلانثيوس إلى انتينوس على الطرف الآخر من المائدة: "إنه أفاق أحضره يومايوس إلى هنا".

مرة أخرى وقفت الذبابة على جبهة انتينوس وأبعدها من جديد.

"كأنما لا يوجد ما يكفي من المتسولين هنا!". هذا ما قاله زعيم الخاطبين بصوت مرتفع، كأنه صرخة في واقع الأمر. وأضاف: "كأن أطباقنا لم تلعق بما فيه الكفاية!".

قال رئيس قطيع الماعز: "يومايوس يجرهم إلى هنا جرا كي يتخموها بالحكايا بحيث تبقي على الأمل بعودة الذي رحل للأبد، الغريق الذي التهمه السمك، إلى بيته من جديد ويسبب فوضى واضطرابا واهتياجا. هذا الرجل حاول أن يبدأ شجارا معي هذا الصباح، لكنني أخرسته".

كان المتسول الآن يقف خلف ميلانثيوس.

فكر: أنا أختارهم. أنا أحاول الاختيار بينهم. أنا أحاول أن أستثني منهم. أنا أحاول أن أبعد نفسي عن هنا.

قال انتينوس بفظاظة: "ابتعد من هنا!".

فكر الرحال ـ العائد إلى أرض الوطن: لسوف أتحدث إليه، ربما أستطيع إنقاذه.

قال الآن، وهي أول كلمات ينطقها في تلك القاعة: "كنت رجلا قويا ذات يوم".

حومت الذبابة، وانحدرت متهادية لتقف على جبهة انتينوس الدافئة اللذيذة. حطت على عرقه. عرق حامض أفرزه غضب عارم فاح برائحة جلد بشري شهي. ربما سكرت بأبخرة النبيذ المتصاعدة من الفم. فجأة عرفت واجبها تجاه البشر والقدر. فكرت الذبابة التي كانت أثينا متنكرة: الآن سأعض!

حين عضت الذبابة، وكانت عضتها قوية، سدد انتينوس ضربة لها فأصاب جبهته، مرة، مرتين، ولم يعرف أنها كانت الآن واقفة على عارضة خشب الأرز الصقيلة الملوثة بالسخام تجدل رجليها.

صاح: "ابتعدي! اختفي أيتها المتسكعة الملعونة المقرفة!".

الرحال الذي عاد لتوه إلى الوطن، تراجع خطوتين واستدار نحو الباب قبل أن يجد انتينوس الوقت لينحني ويمسك بمسند القدمين ويرفعه إلى المائدة ثم يقذفه. صَابه في ظهره، في منتصف عظم اللوح الأيسر. تقدم خطوتين اثنتين، وواحدة أخرى، وواحدة أخرى؛ آلمته ألما شديدا، لكنه ظل واقفا على قدميه. المسند أصاب قماشا رقيقا هرئا وجلدا وعظما طريين، ثم سقط على الإفريز المحيط بالموقد وتدحرج على الأرض.

صاح انتينوس: "هذه لك أيها 'الرجل القوي' أيها الجيفة النتنة!".

فكر الرجل الذي عاد لبيته: أصاب كتفي، لا شيء خطرا. كان يمكن أن يسقط على رقبتي. كنت سأقع على وجهي وسيثير منظري الشفقة.

صاح تيليماكوس بصوت عال وقفز من مقعده: "انتينوس!".

فكر الرجل الذي عاد حديثا إلى وطنه: ليس ثمة حاجة لقتلهم.

صرخ يومايوس: "انتينوس!".

فكر الرحال الذي نزل على البر هناك: لا حاجة أبدا لقتلهم.

قال امفينوموس بهدوء: "لكن يا انتينوس..".

فكر الرجل الذي كان يشق طريقه ببطء - نحو الباب: لا ضرورة لقتلهم، كثير منهم لطفاء طيبون، يمكن التحدث إليهم بالمنطق، أنا واثق من هذا.

قال ميلانثيوس: "يستحق ذلك"، وحاول أن يضحك، لكن احتراسه تحول فجأة إلى ذعر عظيم. حاول أن يخفيه ببصقة خلف الشحاذ.

فكر "هو"، الذي دخل الآن في لعبة الآلهة: كثير منهم يستحقون التقدير ولم يقولوا شيئا.

راقبتهم الذبابة جميعا بعيونها العديدة. طارت نازلة وحومت حول يوريماكوس.

حسبت ميلانثو، التي كانت تقف في الباحة الأمامية، أنه يشير إليها، فسارت في المدخل باتجاه العتبة. فكرت: هو الذي يعجبني أكثر من سواه، وسحبت بطنها إلى الداخل بأقصى ما تستطيع بحيث لا ينتأ أمام ناظريه. فكرت: كان ألطفهم وأرقهم معي. لكنها لم تقابل عينيه؛ لم يكن يشير إليها، كان يكش ذبابة. الشحاذ كان يقف أمامها مباشرة؛ بينهما العتبة الحجرية. أحدهم رماه بشيء؛ أرعبها وجهه.

قالت: "لا تقف هنا وتمنع الناس من الدخول، أيها البائس، يا لاعق الصحون".

لكنها خافت من عينيه، وارتسمت على فمه تكشيرة مورّوبة وشريرة.

قالت دون أن تجرؤ على النظر مجددا في وجهه: "لا تقف هناك وتمنعني من المرور أيها الطفيلي العالة - ورائحة الخنازير تفوح منك".

عضت الذبابة يوريماكوس من جبهته. كان سيقذف بمسند القدمين لو لم تكن الفتاة واقفة هناك. فكر: ما الذي تفعله هنا؟ لِمَ تقف هنا وتعرض نفسها.

أشار لها بأن تبتعد.

جلس المتسول مرة أخرى على العتبة الحجرية دون اكتراث بهم.

* *

رأى يومايوس وجه تيليماكوس. فكر: الآن سوف يصرخ معلنا الحقيقة. لكن الابن أحنى رأسه ونظر إلى المائدة. اشتغل فكاه: كان يمضغ قطعة قاسية من لحم يدعى "الغضب". وضع قبضتيه على المائدة أمامه. كانتا تضغطان على ذاك الشيء الصلب، "الألم". فكر يومايوس: لقد كبر، ويستطيع السيطرة على نفسه. في الباب المفضي إلى

الحجرات الداخلية، خلف الابن، وقفت يوريكليا، وضغطت راحتيها على بعضهما بعضا، بينما كانت نظرات عينيها الحسيرتين تنظران وتبحثان على غير العادة. فرقت يديها ووضعتهما على كتفيها النحيلين. مر بجانب تيليماكوس ووصل إليها.

"السيدة ترغب بالتحدث معك يا يومايوس".

* *

سمعت شيئا ثقيلا يسقط على الأرض ويتدحرج؛ واثنتين أو ثلاث صرخات عنيفة متزامنة تقريبا. مالت على النافذة. كانت ابنة دوليوس المكورة البطن تعبر الباحة الأمامية بشكل مروروب، ثم توقفت، وابتسمت، وغمزت لشخص في المدخل أو فيما وراءه، واختفت تحت سقف القاعة المسطح.

قال يومايوس: "شيء ما أغضب انتينوس فقذف الشحاذ الجديد بمسند القدمين. قال إنه لا يحب الطفيليين".

"ما علاقة ميلانثو بكل هذا؟".

قال، وابتسم بلطف: "يبدو أنها لا تحب الطفيليين أيضا"؟

"من هو يا يومايوس؟".

"هذا ما لا أستطيع أن أقوله يا سيدتي".

قالت يوريكليا: "يبدو وكأن شيئا لديه يبلغنا به يا صاحبة الفضيلة".

"من أين أتى؟".

أجاب يومايوس: "يقول إنه من كريت. ولمَ لا يكون من كريت؟ يقول إنه قابل 'الغائب'، الذي نأمل بأن يعود، أجل، الذي سرعان ما سندعوه 'العائد إلى بيته'، الذي 'وصل إلى الوطن'، من يعرف؟".

أدارت لهما ظهرها. كانت الجارية المنتفخة البطن تخطو متراجعة نحو مذبح زوس.

قال يومايوس: "التقى بـ'المبجل الغائب' عنا، الذي ربما سندعوه قريبا 'المبجل الحاضر' بيننا، قبل مدة طويلة. أو ربما ليست بعيدة. لم يكن واضحا حول هذه النقطة، ولم يصرح بشيء حولها".

قالت بينلوبي: "كثيرون يأتون، ويتكلمون ويتكلمون بدون نتيجة. مجرد كلام في الهواء".

قالت يوريكليا، وضغطت راحتيها معا لكي تخفف من الارتعاش الذي سببته الشيخوخة لهما: "يبدو مشوقا إلى حد مخيف. وأظن أنه سافر بعيدا والتقى بأصناف عديدة من البشر. أحسب أنك يا صاحبة الفضيلة ستجدين المتعة في صوته. فهو هادئ جدا".

بدت ابنة دوليوس وكأنها تعرضت للتو لضرب مبرح.

قالت بينلوبي: "أحضروه إلى هنا ودعوني أنظر إليه".

لاحظت الآن للمرة الأولى أن يومايوس قد هندم قدميه القذرتين بصندل جديد لونه أصفر غامق. وسُمع وقعه على السلم من حجرات النساء؛ كان العجوز مستعجلا. في القاعة، بدأ فيميوس الغناء. القطة الرمادية، صائدة الفئران، ما زالت تتجول، رغم أنها قالت إنها لا تريد رؤيتها مرة أخرى. ابنة دوليوس كانت تجلس على المقعد القريب من البوابة المؤدية إلى الباحة الخارجية، والقطة تحك جسمها برجليها السمراوين.

رفعت بينلوبي يدها البيضاء إلى جبهتها التي لم تضع عليها "البودرة" بعد.

قالت ليوريكليا بصوت بالغ الود: "لا شك بأن هناك عاصفة رعدية في الجو. أشعر بثقل في رأسي".

علا صوت ارتطام في القاعة تحت. أحدهم عطس بعنف مرتين أو ثلاثا. قالت العجوز: "أعاني من نفس الشعور. جسمي يرتجف برمته؛ لا بد أن 'نقرس' الخريف بدأ".

أصدر صندل يومايوس صليلا على الدرج؛ لم يكن مستعجلا كثيرا؛ الآن، كان يقف في الباب ورائحة الخنازير تفوح منه.

التفتت نحوه.

"حسنا، ألم تجده؟".

"يبعث إليك بتحياته وشكره، لكنه يطلب من فضيلتك الانتظار حتى المساء. قال إنه حمل نفس عبء الغائب، الذي ربما سيرجع قريبا. وإذا سمح له بالبقاء، فسيروي الكثير مما لديه هذا المساء حين يذهب الجميع، كما قال".

قالت دون أن تشعر بأي غضب: "يظن نفسه مهما. أوه، حسنا، قل له إنني سأستمع إليه هذا المساء. لا يعني هذا أنني بحاجة إلى/ أو حتى لدي رغبة بالاستماع؛ لكن سأصغي إليه رغم ذلك؛ إنه واجبي".

كان اثنان من العبيد يحملان جثة حيوان عبر الباحة الخارجية باتجاه البوابة. القطة التي كانت تحك جلدها برجلي ابنة دوليوس قفزت وتبعتهما. ابنة دوليوس الحبلى التي استخدمها الرجال، انحنت إلى الأمام ونظرت بفضول من خلال البوابة في الجدار؛ والآن نهضت واقفة على قدميها.

قالت السيدة: "هل بدؤوا بذبح الكلاب الآن؛ ألا يكفيهم الطعام؟".

تقدمت يوريكليا بخطى خافتة إلى الأمام، ومدت عنقها وتمكنت من الرؤية. وصل العبدان البوابة الخارجية واختفيا خلف الجدار.

قالت: "إنه الكلب العجوز. ارغوس كلب 'الغائب'. ساءت صحته خلال الأيام القليلة الماضية، بقي رابضا في مكانه يلهث".

قال يومايوس الذي تقدم بضع خطوات داخل الغرفة: "هذا يعني بالطبع أنه لا حاجة به لمزيد من الانتظار".

لم يرق لها قوله، كما أن رائحة الخنازير الفواحة منه كانت قوية.

قالت: "حسنا، يمكنك الذهاب".

عطس أحدهم بعنف، ودوى الصوت كصرخة عنيفة صادرة من تحت أيضا.

قالت وحاولت أن تبتسم: "من كان هذا". أجل، كانت تقهقه، قهقهة فتية رنانة. "صوت العطاس مضحك حقا. من كان هذا؟".

قال يومايوس من العتبة: "أعتقد أنه تيليماكوس، فقد عطس عدة مرات هذا اليوم".

قالت: "آمل ألا يكون أصيب بالرشح في ذاك المركب".

* *

وفي ذاك اليوم المترع بالقلق، والغضب، والمحن، وتلمس الطريق، ومحاولات جمع شتات الأفكار من أجل وضوح الرؤية، تلقت المرأة التي ما زالت - ربما - تنتظر، "المهجورة" على ما يبدو، المالكة الثرية لقطعان الخنازير والماعز والخراف، تلقت عرضا جديدا، أتى من مصدر استثنائي.

أفرطوا ذلك اليوم في الشراب وزاد قصفهم وضجيجهم عن المعتاد هناك في

القاعة الكبرى. جماعة من ساموس وأخرى من الجزر الشرقية سار أفرادها في موكب إلى سفنهم بعد أن وقف مبعوث عنهم عند أسفل السلم وانحنى وعبر عن شكرهم. لم يقولوا صراحة: لكنهم لن يرجعوا أبدا كخاطبين. قوات الخاطبين كانت تضعف وتتقلص. فكرت: اعتقدوا أنني قد اخترت وعرفوا أن الاختيار لم يقع عليهم. أم هل توترت أعصابهم، توترت إلى حد سخيف مضحك لسبب ما؟

بقي تيليماكوس جالسا في القاعة الكبرى طيلة فترة الأصيل. نظموا مباراة في المصارعة أو الملاكمة في الباحة الداخلية. وذكرت يوريكليا - دون أن يسألها أحد - أن متسولا آخر قد وصل، ايروس من البلدة؛ وعلى ما يبدو تشاجر مع القادم الجديد، معتبرا أنه يسرق من ممتلكاته. وحين حدث ونظرت - بالصدفة، بمحض الصدفة - عبر النافذة، كان الشجار قد انتهى، وشاهدت انتينوس واقفا في منتصف الباحة يزمجر مقهقها.

قالت يوريكليا: "بدا قويا جدا. ذهلوا حين عرفوا مبلغ قوته".

"من؟".

قالت العجوز: "القادم الجديد. الرجل الذي سيروي لك قصته الليلة".

"هل هو من النوع المشاكس المحب للنزاع إذن؟".

قالت "المخبرة" المحنكة، رغم أنها كانت في ذلك اليوم ملحة ومزعجة بشكل خاص: "لا، يصعب اعتباره كذلك. لكنهم حاولوا إثارة النزاع بينهما؛ كان هذا انتينوس؛ لقد خرج عن طوره، يبدو أنه قد جن، وهكذا حرضوهما على بعضهما بعضا. لكنه طرح الرجل أرضا".

"من طرح من؟".

قالت يوريكليا وحدقت إلى قدميها: "القادم الجديد طرح ايروس أرضا. يتمتع بقوة غير عادية بالنسبة لمتسول. لربما لا يتسول منذ زمن طويل. أو ربما أتى مباشرة من عند أسر ثرية وكريمة".

* *

أجل، ها قد أتى خاطب جديد، ومتأخر، ومرغوب.

لم يكن صاحيا تماما، وإن كان الوقت بعد الأصيل. أرسل جارية وطلب التحدث

مع السيدة على انفراد. وحين دخلت الصالة العلوية كان يقف وينحني عند أسفل السلم. فكرت: بدأ يتعلم ادابا سلوكية رفيعة.

"ما هو الموضوع؟".

"إنه أمر مهم أود لو تسمحين لي بمناقشته معك".

"ما هو الموضوع".

"لا يمكن أن أخبرك به وأنا أقف هنا عند أسفل الدرجات".

عندئذ، سمحت له بارتقاء درجات السلم الإحدى والعشرين إلى الصالة العلوية. تمسك بحاجز السلم واستند إلى الجدار. على وجهه أمارات الذعر، والخنوع أيضا.

وقفت في مدخلها.

"هل الأمر متعلق بالإدارة؟".

أجاب، ووجه لها ابتسامة خرقاء: "يمكن أن ندعوه كذلك. أجل، يمكن دعوته كذلك، في الحقيقة أجل".

انتظرت.

قال: "إنه أمر مهم، عظيم الأهمية. إنه خطة".

قالت، وسدت المدخل بمهابتها، بذراعيها البيضاوين العاريتين، وصدرها الناهد: "لا أفهم قصدك عموما".

قال واتكأ على الجدار: "إنها خطة محكمة بديعة".

السواد في عينيه فاحم والبياض مخضب بالدم. لم تكن الرائحة التي تفوح منه رائحة تيس بقدر ما كانت رائحة معزاة، أجل، هنالك شيء من رائحة التيوس أيضا. ذراعاه طويلتان وقويتان ومنكباه عريضان حتى في وقفته الخائفة حاليا. رجلاه متينتان كدعامتين وإن ترنحتا قليلا آنئذ. أما شعره فأسود أهلب كالمقشة، وبشرته سمراء.

قال: "لقد فكرت وأجهدت عقلي. أنا رجل".

انتظرت.

قال، وابتسم بسخرية، وبؤس، وتوسل: "أنا رجل مؤهل مقتدر تماما".

"أنا صالح ومؤهل كالعديد من الرجال".

انتظرت. سرعان ما ستتوقف عن الانتظار. بخلال لحظة سوف ترفع يدها وتشير - ليس إليه أو لأي جزء محدد منه، مثل جبينه المتعرق أو عنقه القوية، أو صدره الأشعر تحت لباسه الداخلي، لكن باتجاهه، نحو رائحة الماعز، وتأمره بالانصراف.

قال: "أنا عبدك. أعرف كثيراً عن اللعبة الداخلية. أعرف كثيراً عن السياسة".

لم يأزف الوقت بعد.

قال: "يمكن أن أصبح أداة في يدك لتحقيق الحرية الكاملة. لدي خطة. أحبك جدا. وأحب ايثاكا جدا. كنت طيبا على الدوام ولطيفا مع المعيز والنساء والأطفال. أستطيع أن أحكم مثلي مثل الآخرين".

لكن الآن!

رفعت بينلوبي يدها. يمكنك القول إنها ركلت رئيس قطيع الماعز، العبد ميلانثيوس، من فوق السلم. يمكنك القول بثقة إنه لُطم بكف على رقبته وقدم على مؤخرته، ودفع ليتدحرج إحدى وعشرين درجة، وإن بقية حياته ستكون تتمة لما حصل له في التو. لكنها لم تتزحزح تقريبا. رفعت يدها البيضاء وأشارت باتجاهه، باتجاه رائحة المعيز.

"اذهب".

نزل الدرج مترنحا، وتعثر في الصالة الداخلية للقاعة الكبرى، واحتك بالحائط وراء ظهر تيليماكوس، ووجد بابا صغيرا وخرج منه إلى الدهليز الضيق بين جدار المنزل وجدار الفناء. ذهب باتجاه البوابة الخلفية، وتجاوز مخزن السلاح واتكأ على الجدار وفكر بأن في الداخل أسلحة: قف على قدميك، أيها المخلوق المداس بالأقدام! اجمع شتات نفسك، أيها المظلوم المعتدى عليه! شكل حزبا، حقق نصرا، أظهر من تكون! لن تصل إلى ما بين فخذيها، لا، فهما بالطبع على قدر رفيع من القداسة والبهاء والجمال بحيث لا تطاولهما أعضاؤك! تفوح منك رائحة الثوم المقززة بالنسبة لها، ورمح شهوتك الشبقة لن ينغرس في أيكة حضنها ليجد القوة والسلطة والسعادة هناك - ولكن يمكنك أن تحضر رمحا وتغرسه كعلامة، كتحية منك، بين ثدييها المتهدلين، هذا ما يمكنك أن تفعله، إن أردت، أن أردت!

كان ثملا تماما. تلمس طريقه بمحاذاة الجدار، ومس بأصابعه باب السنديان الثقيل، الطويل المغلق، المؤدي إلى مخزن السلاح، وتعثر. تمكن من المشي عبر الباحة الخلفية ثم تبع جدار المنزل على الجانب الآخر، ودار حول الركن القريب من الصالة الأمامية، ثم سار بثبات استثنائي مخترقا الباحة الداخلية باتجاه الخارجية.

غمغم قائلا لأخته: "لا تقفي هكذا تحدقين إلي، أيتها القطة السمينة!".

وحين تجاوز مذبح زوس، قال بصوت مرتفع:

"إنه لا يساعد إلا السادة النبلاء! لكن يوما ما.. حسنا..!".

ـ ٢٩ ـ
الليلة السابقة

في وقت متأخر من تلك الأمسية، حين غادر كل الضيوف/ الخاطبين، تحدث الرحال مع بينلوبي.

سمح له بالبقاء؛ نظفت القاعة الكبرى ورتبت، وتسعرت قطعتان من الحطب في الموقد. جلس على العتبة الحجرية وانتظر. أحضرت له جارية حوضا نحاسيا فيه ماء بحيث يستطيع أن يغتسل قليلا؛ رائحة الخنازير فاحت منه.

الآلهة، التي تمسك الزمن بأيديها، جعلت اليوم طويلا بالنسبة له. حاول الضيوف ـ لم يستطع أن يقول بعد إنهم أعداؤه الألداء، بل سماهم تافهين مدعين تعافهم النفس، وشبانا تدفعهم الشهوة، وكهولا ـ أن يحرضوا متسولا آخر ضده. دفع الرجل جانبا وجره إلى الباحة. فعل ذلك بمتعة ما عرفها منذ زمن بعيد. كان مدركا للقوة الكامنة في ظهره وذراعيه ورجليه. لم يستعرضها كلها، بل اكتفى برفعة، وبضع مسكات. كانت متعة مزعجة: متعة تحويل الآخرين إلى أشخاص عديمي الجدوى والنفع، والسيطرة عليهم بقوته. بعد ذلك تركوه وحده. جلس برهة على المقعد في الباحة الداخلية؛ مشى إلى المدخل الخارجي. أخذوا الكلب؛ كان ميتا. لم يفكر بالكلب بشكل خاص. اسمه ارغوس. تذكر أن لديه جروا، لكنه لم يعرف بأنه هو الذي كبر عشرين سنة أو أنه واحد آخر.

تحدث للتو مع الابن؛ تهامسا معا قبل أن يذهب تيليماكوس لينام.

قال تيليماكوس: "أشعر بالإثارة من كل ما يحدث. وأنا متوتر قليلا أيضا. أبعدت كل الأسلحة القديمة عن صالة الاستقبال؛ وهي في مخزن السلاح الآن. لكن تركت ثلاثة تروس وبضعة رماح خلف الخزانة. بعضهم يحملون سيوفا ويدخلون بها القاعة الكبرى. أعرف تعليماتك. حين يأزف الصدام، حين تعطي الإشارة، عندئذ..".

قال: "إذا حدث الصدام، إذا أعطيت الإشارة! لكنني لم أقرر بعد".

قال تيليماكوس: "يجب أن نتخلص من أسوأ اثني عشر رجلا منهم. لا أعتقد أن كثيرين سيأتون غدا. أربعة وعشرون غادروا اليوم. إن كان الجو سيئا، فإن العديد من أولئك الذين يأتون من البلدة سيبقون في بيوتهم على الأرجح".

قال للابن: "خذ قسطا كافيا من الراحة يا بني. بعد قليل سأتحدث مع أمك".

مشى الابن عبر القاعة المعتمة. سمع وقع خطواته في الصالة الداخلية، ثم انفتح باب وانغلق؛ ذهب إلى غرفة نومه.

كان "العائد" في الظلمة، فيما يشبه الظلمة. طقطق الخشب بين حين وآخر في الموقد. جلس خارج دائرة الضوء المنبعث من النار، ومرت السنون.

* *

فتح باب في الطابق العلوي فوق الصالة الداخلية. نزلت الدرج بتمهل، واجتازت الصالة، وفي إثرها امرأة أخرى تمشي بخطى خافتة. وصلت إلى المدخل؛ استطاع أن يتبين شكلها. حين اتجهت إلى النار، نهض واقفا، لكنه بقي قرب العتبة. جلست الآن في مقعد تيليماكوس.

قالت: "أوه، أنت تقف هناك. اقترب؛ الجو بارد هذا المساء".

قال من قلب العتمة: "سيدتي، عذرا لإقحام نفسي بهذا الشكل وإزعاجك في هذا الوقت المتأخر. وأنا شاكر لفضلك وتجشمك عناء القدوم إلى هنا".

قالت: "اجلس أرجوك".

بإمكانها رؤيته الآن: رجل كهل بأسمال بالية. لمعت لحيته مثل الفضة والنحاس تحت الضوء الباهت. أخذ مسندا للقدمين وجلس على مسافة أقرب منها، وسقط ظل أحد الأعمدة على وجهه.

قالت: "سمعت أن لديك شيئا تخبرني به عن زوجي؟".

فكر: بالغت في استخدام مساحيق التجميل، أكثر من الماضي. زاد وزنها؛ هنالك نضج أكبر في قسمات وجهها، صدرها أعلى وأعرض، وفخذاها أسمن. لمع شعرها وفاح عطره؛ ما زال سميكا وكثيفا. مشيتها أثقل، تبعا للخطوات القليلة التي رآها تمشيها. بدت أنيقة، بملابس الصبايا، وهذا ما لمْ يعجبه. ارتدت ثوبا أزرق بحاشية حمراء؛ وقلادة، من ثيسبروت أو كريت، مشغولة بالفضة عليها لآلئ حمراء أو نتوءات مطلية. وحول معصمها أساور ثقيلة تخشخش، أربعة من الفضة واثنان من الذهب؛ تعرف عليها. وانتعلت صندلا أبيض مرصعا باللآلئ؛ ويبدو أنه جديد لم تستخدمه من قبل.

شمت رائحة روث الخنازير، ورأت أنهم أحضروا له حوضا نحاسيا ملئنا بالماء، لكنه لم يغتسل بعد. سقط ضوء النار المرتعش على قدميه؛ كانتا قذرتين إلى حد مريع. لربما رأته من قبل، أو رأت اخر مثله، منسولا يشبهه؛ ثمة شيء مقيت حول ذلك.

قال: "سيدتي، آمل أنه سيأتي قريبا ويجلس هنا ويشعر أنه مرتاح في بيته".

"ماذا تعني؟".

قال: "آمل أنه سيعود قريبا".

بدت مثل القصة المعتادة القديمة. فهم يبدؤون دوما بالآمال، لكي تبقى وتتابع الاستماع لهم. كانت مستعدة للإصغاء الآن. اعتبرت ذلك واجبا عليها، واحدا من التزاماتها باعتبارها "المنتظرة". وما زالت تشعر بنوع من الفضول - بعد كل تلك السنين! - وبلهف تواق للمجهول الذي لم تصله أبدا إلا بأذنيها، من خلال روايات الرحالة والزوار الذين يأتون صدفة.

سألت باقتضاب لكي تدفعه للتركيز منذ البداية: "من أين أنت؟".

"أنا من جزيرة يا سيدتي. أو بالأحرى من بلد محاط بالبحر".

قالت بهدف دفعه إلى تحديد كلامه أكثر: "سمعت أنك من كريت". تأخر الوقت؛ كان لها الحق بأن تشعر بالنعاس، وإصغاؤها الذي يفرضه الواجب سيصل إلى نهايته قريبا.

"التقيت بزوجك يا سيدتي. حين كان مع رفاقه في الطريق إلى طروادة قبل عشرين سنة".

قالت: "أوه"، والتفتت نحو النار وحاولت أن تمنع نفسها من التثاؤب. "تلك مدة بعيدة جدا، أليس كذلك؟".

"أجل بعيدة جدا".

قالت بسخرية: "قابلته أنا أيضا قبل عشرين سنة. أتذكر ذلك بوضوح. أجل، بل أتذكر ملابسه".

قال: "سيدتي، لن أفاخر بأن ذاكرتي مثالية وكاملة تسترجع كل التفاصيل، لكنني أتذكر ذلك أيضا، بمحض الصدفة، لأنني كنت أصغر سنا وأكثر قدرة على ملاحظة التفاصيل في تلك الأيام.. أنا أيضا أتذكر ملابسه".

قالت ورفعت حاجبيها والتفتت نحوه: "حقا؟ إذن فإن لديك ذاكرة ممتازة على ما يبدو".

قال: "بين حين وآخر لسوء الحظ. وهذا ما يزعجني كثيرا. أتذكر جملة من الأشياء. على سبيل المثال، بعض الحروب التي خضتها وهذا يعرقل نشاطاتي".

قالت: "نشاطاتك؟ ما الذي تعنيه فعلا بنشاطاتك؟".

قال: "سيدتي، ظل عملي لعدة سنين، لسبع سنين، متمثلا في محاولة العيش بهدوء، مع أشخاص أحبهم. ثم استيقظت الذاكرة وازعجتني. الآلهة استثارتها. فانطلقت في رحلة".

قالت مجددا وتجاهلت عبارته الأخيرة: "حقا؟ حسنا، ماذا كان زوجي يلبس آنئذ؟".

قال: "أتذكره يرتدي عباءة صوفية سميكة وطويلة أرجوانية اللون".

قالت: "كثيرون ارتدوا مثلها؛ كانت دارجة في تلك السنة. كل رجل كانت لديه عباءة حمراء طويلة؛ كانت دارجة. وأرادوا أن يؤثروا في العدو".

قال: "لقد أثروا فيه تماما. اللون الأحمر يبقى مدة طويلة".

"ماذا تقصد؟".

قال: "بعض الذين لبسوا عباءات ذات ألوان فاتحة صبغوها أيضا".

أصغت للنبرة الباطنية، لمسحة السخرية في صوته.

قالت: "لا أفهم ماذا تعني بالضبط"، ونظرت إلى النار وشمت رائحة الخنازير. "هل تتذكر تفاصيل أخرى؟".

قال: "كان يستخدم مشبكا ذهبيا، مصنوعا من قسمين ونقشت عليه بعض الأشكال. انتظري، الآن تذكرت. كلب صيد يقبض بأسنانه على ساق غزال".

حدقت بعناد إلى النار.

قالت باقتضاب: "وماذا بعد؟".

قال: "كان يلبس رداء ناعما فاخرا. قماشه رقيق مثل.. أجل، برقة قشرة البصلة. لونه أصفر، وتلألأ مثل الذهب. أتذكر ذلك".

ثم بدأت بينلوبي البكاء. رغما عن إرادتها. غمر الدمع عينيها. فكرت: من الغباء أن أبكي بهذا الشكل، لربما يكذب؛ يحتمل أنه سمع ذلك من شخص آخر، إنه ذكي ماكر، هذا الرجل، يريدني أن أبكي، من الغباء الشديد أن أبكي الآن.

"الدخان يملأ الجو هنا، والهواء ثقيل".

قال: "الهواء ثقيل هنا".
قالت: "سيهطل مزيد من المطر، هذا أكيد".
انتظر برهة. وحين سرق نظرة إليها، رأى خطوطا كالأخاديد في "المكياج" على وجنتيها.
قال: "لا أعلم بالطبع هل كان يرتدي هذه الثياب حين غادر وطنه. من المحتمل أنه حصل على الثياب والمشبك من مكان ما على الطريق".
قالت: "أصدقك. أصدق بأنك رأيته في كريت. لكن كيف تعرف الآن بأنه حي يرزق وفي طريق العودة إلى الوطن؟".
قال: "سيدتي، سافرت كثيرا. أستطيع فقط أن أقول هذا: كان اوديسيوس على ساحل ثيسبورت قبل وقت ليس بالبعيد. كان يخطط للذهاب إلى دودونا ليسأل زوس ماذا يفعل - إن كان عليه أن يفعل شيئا حين يعود إلى أرض الوطن".
قالت، ورفعت وجهها نحو العتمة التي كانت هو: "ماذا يفعل؟".
قال: "هل ينبغي عليه أن يقتلهم أم يعفو عنهم. هل يأتي سرا أم علنا. هل يقول لزوجته: سيدتي، زوجتي العزيزة، ها أنا ذا. ابتعدت عن البيت زمنا طويلا، في رحلة. لم أتمكن من العودة قبل الآن. لا أريد أن آتي خالي الوفاض".
صمت مطبق.
قالت: "أو؟".
"أو هل عليه أن يأتي بصمت، في الليل، ويجلس في العتمة ويراقب ما يتحرك تحت الضوء، ويفكر أولا".
خيم الصمت، بينما حاولت أن تتقبل ذلك وتتخيله.
قالت: "هو.."؛ ثم أغلقت فمها.
قال: "هو عارف بالوضع هنا".

**

جمعت شتات نفسها، فكرت: يجب أن أختار، الآن، بسرعة؛ واختارت.
قالت: "أيها الرجل الطيب، أنا لا أصدقك".
قال: "لا، يا سيدتي، لا تصدقين ما أقول. لكن شيئا ما داخلك يصدقني".
قالت: "أيها الرجل الطيب، زوجي مات. يجب أن أتزوج مرة أخرى. هنالك كثير من الوعود؛ أريد أن أفي بواحد منها".

قال: "أجل، يا سيدتي، بالطبع تريدين ذلك".

قالت: "أيها الرجل الطيب، لم أتحدث بهذه الصراحة معك؟ لا أدري. لكن تذكر، أنا أحدث نفسي".

قال: "أعرف بأنك تحدثين نفسك يا سيدتي، وأنا لا أصغي كثيرا".

قالت: "يجب أن أختار أيها الرجل الطيب. آمل أنك تفهم ذلك؟".

قال من الظلمة: "أفهم يا سيدتي. لقد غاب فترة طويلة. لقد اخترت".

كذبت: "لا".

قال: "أنا لا أصغي لك أبدا. بل أكتفي بالجلوس هنا. ألا تظنين بأن رائحتي مريعة؟".

قالت: "اجلس حيث أنت. من الممتع التحدث معك. ربما ستلهمني أفكارا. ربما أريد أن أسألك حول العديد من الأمور والقضايا والأحداث أيها الرجل الطيب، يا ضيفي الكريم. ربما سأسألك النصح والمشورة".

"سيدتي، كلي آذان صاغية".

قالت مرة أخرى ونظرت إلى العمود: "ربما سأطلب نصيحتك أيها الرجل الطيب". اختفى وجهه تماما الآن. أضافت: "هنالك اثنا عشر لأختار من بينهم. لمَ لا أختار الآن؛ لمَ أنتظر ستة أيام، لمَ لا أختار غدا؟".

قال: "إن لم تكوني قد اخترت، فيمكنك طبعا أن تختاري يا سيدتي. هل قلت بأن هنالك ثلاثة؟".

قالت: "اثنا عشر. يقول الناس إن هنالك مائة وثمانية وضعف هذا العدد كانوا هنا يأكلون ويشربون. لكنك تعرف ذلك كما أفترض، وسمعت عنه أيها الرجل الطيب؟".

قال: "حسبت أنك قلت ثلاثة، لكن ربما لم أكن أصغي بدقة. إذن، هنالك اثنا عشر رجلا".

قالت: "في الحقيقة هنالك اثنان وخمسون. لكن الشائعات ضخمت العدد إلى مائة وثمانية، شمل كل زائر وضيف".

قال: "من السهل جدا الاختيار من بين اثني عشر. لكنه صعب إن كانوا ثلاثة. أو ربما ليس صعبا. لكن من الأسهل أن تجرح، أن تجرح مشاعر الاثنين اللذين لم يقع عليهما الاختيار، مقارنة بأحد عشر. هل أستطيع أن أسألك سؤالا يا سيدتي؟".

فكرت بذلك وعيناها على النار.

قالت وشمت رائحة الخنازير: "في الواقع لا أسمح بالأسئلة".

قال: "لا حاجة بك طبعا للإجابة".

قالت: "هذا صحيح. ربما لن أجيب. ما الذي تريد أن تسأل عنه؟".

"إن رجع اوديسيوس، هل..".

قالت بصوت صارم: "لن يرجع. لقد مات. سؤالك لا داعي له أبدا".

قال: "تحظين بكثيرٍ من التقدير والتوقير والحب يا سيدتي. شهوة العديد من الرجال موجهة إليك".

قالت بحماس وهي تنظر إلى النار: "إذا كنت سأتزوج ثانية فمن أجل إنقاذ تيليماكوس. أعتقد أن بمقدوري الثقة بك ولهذا أقول التالي: إن لم أتزوج في وقت قريب فسوف يقتلونه. سوف يقتلون شخصا ما قريبا، من الأمور غير السوية ألا يقتل أحد. لا بد أن يقتلوه، وإلا سيقتل.. أحدا. واحدا منهم. ربما ثلاثة. لقد كبر الآن. إذا تزوجت وذهبت من هنا، فسوف أختفي من المشهد. وعندها سيكون نبيلا بين نبلاء الجزيرة، ولكن يكون هناك حزب للخاطبين، ولن يقف أحد في الطريق. وسيكون حزب واحد للنبلاء سينتمي إليه. ثم يصبح ملكا. سيصبح ملكهم. وسيتمكن ليرتيز من أن يمد يده ويباركه ويقول إنه الشخص المناسب، ولم ينقطع الخط. عندئذ ستتمثل القضية في أن زوجي قد اختفى في رحلة بعيدة، بعد حرب طويلة، وخلفه ابنه، واستمرت الحياة".

لم يجب.

قالت موجهة كلامها إلى العتمة: "أنت ترى بأنني أثق بك ثقة عظيمة أيها الرجل الطيب".

قال: "أنا أصغي. لديك ثقة عظيمة بي يا سيدتي".

قالت: "وإن ابتعدت، لا ضرورة لأن يقتل أحد. لا الاثنان والخمسون، ولا الاثنا عشر. ولا الثلاثة. إذا توجب على 'الغائب'..".

قال: "توجب عليه؟".

قالت: "لم أمنحك الإذن بطرح مثل هذه الأسئلة".

قال: "لن تكون هناك ضرورة لقتل الثلاثة أيضا".

قالت: "لا، ليس الثلاثة.. الذين يجب على الميت قتلهم. الرب يرتب كل شيء. زوس أعلم".

قال: "أجل، زوس أعلم. لنفترض أن الرب المبجل يعطي جوابا مختلفا في دودونا عن ذاك الذي يعطيه لسان المرأة، قلبها، في ايثاكا؟".

شعرت فجأة بمدى قوة رائحة الخنازير.

قالت: "يمكن أن يجيب زوس في ايثاكا بمساعدة العقل. لزوس وسائله للقيام بذلك. يمكن أن يجيب بالمنطق العقلي ومن خلال ألسنة النساء، أجل، بالمنطق من خلال قلب المرأة".

سأل بتهذيب من العتمة: "مضى وقت طويل منذ أن فكرت بذلك الأمر المتعلق بتيليماكوس يا سيدتي؟ لا، لا حاجة بك لاعتبار ذلك بمثابة سؤال. إن رغبت، يمكنك اعتباره غمغمة بعيدة، صوتا لا كلمات. أعني: أنت تنقذينه بالزواج مرة أخرى. كان بمقدورك أن تفعلي ذلك في وقت أبكر، أليس كذلك؟ ألم يكن ذلك أقل كلفة، وأقل إنهاكا؟ بالنسبة لك، أن تعتبري زوجك ميتا، أليس كذلك؟".

قالت: "قلت للتو إنه في الطريق، إنه متوجه إلى الوطن. لكن معظم ما قلته للتو سمعته كغمغمة صادرة من مكان ناء".

قال: "أجل، ولكن ليس التالي: لنفترض أن تيليماكوس سيجري اختبارا بدلا منك؟ بين ثلاثة أشخاص؟".

قالت: "علي أن أجعله بين اثني عشر. أما اثنان وخمسون فعدد كبير جدا بالنسبة للظروف التي نمر بها".

قال: "أجل، اثنا عشر ربما. ما رأيك بالفؤوس؟ لنفترض أن ابنك سيجعلهم يجرون الاختبار بواسطة الفؤوس؟".

"بواسطة الفؤوس؟".

قال: "سيدتي، قيل لي إن لدى زوجك اثنتي عشرة فأسا برونزية جميلة لم تستخدم أبدا إلا في المباريات التنافسية".

قالت للعتمة: "أوه!".

قال: "أجل، قيل لي ذلك. كان زوجك يضعها في خط مستقيم داخل الفناء، تفصل بين مقبض كل منها والآخر خطوة واحدة، ثم يرمي سهمه ليمر عبر الحلقات التي تستخدم لتعليقها. يرفع الحلقات ويرمي السهم خلالها".

قالت: "أنت تعرف كثيراً أيها الرجل الطيب".

قال: "سمعت أمورا عديدة يا سيدتي. لنفترض الآن أن تيليماكوس أخذ أقوى

ألهواس زوجك وطلب منهم أن يشدوا الوتر ويرموا السهم خلال الحلقات؟ والذي يتمكن من شد الوتر ورمي السهم ليخترق الحلقات يكون الرجل الذي يقع عليه اختيارك".

قالت: "أيها الرجل الطيب، بدأ الوقت يتأخر. افترض أنك متعب. هل اغتسلت؟".

قال: "سيدتي، أعرف بأنني قذر جدا. أقمت ثلاثة أيام مع يومايوس ولم أجد الفرصة للاغتسال مذ أتيت إلى البلدة. حسبت أنني سأتمكن من ذلك قبل نزولك لمقابلتي. قدماي قبل كل شيء. ورائحة الخنازير التي تفوح مني. لهذا السبب أجلس بعيدا عنك".

قالت: "أنت تراعي مشاعر الآخرين كثيرا أيها الرجل الطيب. لكن لا تتأخر بسببي، يمكنك أن تغسل قدميك حالا".

قال: "لا أريد أن أدفعك خارج قاعتك أنت واوديسيوس يا سيدتي".

قالت: "أنت لا تدفعني خارجها أبدا أيها الرجل الطيب. اغسل رجليك، بينما أجلس أنا هنا. أنت رجل عجوز، أليس كذلك؟ وأنا امرأة ناضجة. يمكننا متابعة حديثنا لبعض الوقت.. يوريكليا؟".

برزت العجوز من العتمة المخيمة على المدخل.

قالت: "نعم يا صاحبة الفضيلة. كنت أمر من هنا".

قالت بينلوبي: "ضيفنا، ضيفنا الكريم الموقر، يريد أن يغسل قدميه. يظن أن رائحة تنبعث منهما".

قال: "سيدتي كريمة بما يكفي لتستخدم مثل هذه الكلمات اللطيفة. أظن أن رائحة كريهة تنبعث من قدمي. لا أعرف كيف استطاعت سيدتي احتمال الرائحة النتنة لقدمي العاجزتين".

قالت: "كان زوجي، زوجي الراحل، يستخدم نفس الطريقة في الكلام. كانت لديه مثل هذه التعابير المسلية أحيانا، كان سريعا وذكيا في حديثه، ومبالغا، ومتواضعا بسخرية، ومتطرفا".

يوريكليا، التي أصبحت في تلك اللحظة المربية العجوز للأبطال، انحنت واختبرت حرارة الماء بإصبعها، وأخذت الحوض النحاسي وحملته عدة خطوات إلى العتمة. نهض، والتقط مسند القدمين، وتبعها.

أغمضت بينلوبي عينيها وأصغت لصوت الماء. خيم صمت مطبق فجأة. فكرت: لا أريد أن أرى. لا أريد أن أراه. لكنها فتحت عينيها. رأت ظهره في المكان شبه المعتم خلف الدعامة، والشعر على مؤخرة عنقه، وباطن رجله اليسرى حتى أصل الفخذ. وضعت المربية يدها المعروقة على ركبته. وبحركة عنيفة جذب طرف عباءته. تحول وجه المربية نحو لحيته النحاسية. رأت بينلوبي ذقنه، وكيف كانت تعمل حنجرته. امتدت يده إلى الأمام، وضغطت على فم العجوز.

أغمضت عينيها مجددا. أحدهما همس شيئا، لم تكن تريد أن تسمع. تناهى إليها صوت رشاش الماء في الحوض، وسمعت وقع خطى المرأة العجوز وهي تعبر القاعة الكبرى وتخرج إلى حجرات المؤونة، ثم تعود، وتنشف وتفرك قدميه، بحذر ورقة، مثلما تدلك أم طفلها الحبيب بالزيت. تضوعت رائحة العطر داخل الغرفة. فكرت: ما زالت تفوح رائحة الخنازير. وفتحت عينيها. كان يجلس وقد انحنى إلى الأمام، ينظر إلى قدميه؛ عاينت صورته الجانبية، وخط شعره وجبهته وأنفه، ولحيته، ورقبته. انحنت يوريكليا فوق الحوض، وحملته. نهضت واقفة.

قالت ببرود: "أشعر بالنعاس. أعتقد أنني سأذهب إلى السرير. يمكننا التحدث عن مزيد من الأمور فيما بعد. لسوف نجد الوقت الكافي لذلك. لأنني أفترض بأنك ستبقى هنا فترة طويلة أيها الرجل الطيب".

أجاب: "أشكرك يا سيدتي".

حين تقدمت بضع خطوات نحو الباب المفضي إلى الغرف الداخلية توقفت والتفتت. أمكنها رؤيته بوضوح أكبر الآن. كانت يوريكليا تمشي باتجاه الباب الخارجي حاملة الحوض؛ رج الماء وقرقر.

قالت: "فكرة الاختبار كانت جيدة فعلا. فكرة جيدة من أفكاري، إنه لأمر جيد أن تخطر لي".

قال: "إنها فكرة من أفكارك الممتازة يا سيدتي".

توقفت يوريكليا بصورة مفاجئة وحادة بحيث اندلق الماء من الحوض. نقلت نظراتها المحدقة وبصرها الحسير وعينيها الغائبتين بين أحدهما والآخر.

قالت بينلوبي: "ليلة سعيدة".

قال بصوت خفيض: "أتمنى لك ليلة في منتهى السعادة يا سيدتي".

- ٣٠ -
المحكومون بالهلاك

ما هو الدور الذي لعبه داكريوستراكتوس، الأبكم، الطويل القامة، العريض المنكبين، الأشْعَر، "نصف العبد" البالغ من العمر أربعين عاما، الذي وهبه الراوي حريته؟.

قطعوا لسانه على ساحل ذوي الوجوه المحروقة قبل أن يشتريه ليرتيز بوقت طويل. ثمة كراهية في داخله بحثت عن سبيل لتعبر عن نفسها بالأفعال. كان سلاح يوريكليا السري، وغدا دوره حاسما في النهاية لتحقيق الفعل على أرض الواقع.

كان قادرا على الإصغاء. في العديد من رحلات العمل والبعثات السياسية (إذا جاز التعبير) التي قام بها مع تلك المرأة العجوز، امرأة القدر والمصير، لم يتحدث معها أبدا - بالطبع - بل أصغى وفهم، أو أنه تحدث لغة لم تفهمها سوى يوريكليا وحدها.

في صبيحة ذلك اليوم، وقفت أمامه تحت ماء المطر الذي يقطر من حافة السقف في الفناء الخلفي وأعطته التعليمات. وقفت على رؤوس أصابعها وركع هو على ركبتيه، بينما كانت تبربر في أذنه. أجاب بأصوات مبهمة، ونظرات زائغة.

سال الدمع من عينيه، وارتجفت يداه غضبا.

في حجرات العبيد، كانت امرأة تئن بصوت عال.

* *

تمددت بينلوبي على سريرها، لكن لم يعرف هل نامت أو أمضت ليلة هانئة. حين دخلت العجوز وسحبت الستائر الثقيلة الداكنة وفتحت المصاريع، فتحت المرأة التي ربما "ما زالت تنتظر" عينيها وأبانت للنهار وجها مضنى منهكا. تلبدت سماء البلدة بغيوم منخفضة، عرفت بأن ذلك اليوم أقرب من سابقه إلى بداية الشتاء.

"إنها تمطر يا صاحبة الفضيلة".

سمعت صوت الماء يتدفق تحت، ووقع أقدام مستعجلة أو متثاقلة في الصباح الباكر، ونباح كلاب، ورنينا مكتوما من الأجراس المعلقة على الماعز: ثمة حيوانات كانت تساق للذبح.

قالت العجوز: "تغير الجو كثيرا يا صاحبة الفضيلة. إنه موسم النضج من نواح عديدة".

انتظرت حتى جمعت ما يكفي من أفكارها كي تعطي جوابا.

"ما قصدك بذلك يا يوريكليا؟".

تركت العجوز النافذة وتقدمت إلى السرير بخطوات خفيفة. كانت على وشْك أن تضم راحتيها معا، لكنها تذكرت أن السيدة تعتبر ذلك إيماءة مقيتة؛ رفعت ذراعيها، وتركتهما تتدليان على جانبيها.

قالت بجرأة: "سنة الخاطبين الطويلة أينعت يا صاحبة الفضيلة. حان القطاف تماما. أجل، أنا محدودة التفكير ووقحة إلى درجة شعوري بأنني أجرح أذني فضيلتك بأسماء عبيد غير لائقة".

انتظرت بينلوبي مرة أخرى قبل أن تسأل. تمطت، وبحثت عن وضع مريح على السرير؛ وجدت سؤالا.

"يوريكليا، هل هو اسم من يزعق ويئن هناك في الأسفل؟".

قالت يوريكليا: "صاحبة الفضيلة حررت لساني من بعض قيوده وأطلقت العنان لثرثرتي المخرفة وحماقتي. أجل بدأت آلام المخاض. لكن يبدو أن الطفل يخاف من القدوم إلى العالم الجميل لإلهنا زوس. الفتاة ظلت تصيح وتزعق طيلة الصباح".

قالت المرأة التي "لم تفق تماما" : "لا أريد سماع المزيد عن هذا. فهو لا يناسب مقامي واعتباري".

نظرت إلى العجوز مليا.

"يوريكليا، عيناك كعيني فأر على غير العادة اليوم. هل بقيت صاحية طيلة الليل؟".

الآن أدت العجوز الإيماءة الكريهة، وحين ضغطت راحتيها معا، قالت: "لا يمكن أن

تقولي صاحية، تماما. لكنني صرت أمشي في نومي يا صاحبة الفضل. سينتهي أمري قريبا. نمت، أجل، نمت نوما عميقا، كحجر، كخنزير، ولا ريب أنني شخرت بصوت مرتفع أزعج البيت برمته، من المرجح أنني أخور كالبقرة في نومي، أو على الأقل أثغو كالنعجة. أتخيل.. ثم نهضت وبدأت أمشي، سرت متجولة كأعظم الأبطال".

قالت بينلوبي ببرود: "هل كنت تحرسين المنزل ليلة البارحة؟".

قالت العجوز: "لا يمكن أن تسميها حراسة. لكن نظرا لأنني أمشي في نومي على أية حال، فربما أترك غرفتي وأتجول في أرجاء القاعة الكبرى وفي الباحات".

قالت المرأة التي "أفاقت تماما" الآن: "جربت أيضا كل الأقفال في نومك. وضعت المزاليج ورفعتها، وربطت العقد وحللتها. أنا من جهتي نمت جيدا. نومي كان هادئا لم يزعجه شيء. لكن بمحض الصدفة، حدث وأيقظتني جلبة غير ضرورية، أظن أنها دوي رعد، أو كنت أفكر بشؤون البيت، لذلك لم أستطع منع نفسي من سماع شخص.. كان يسير في نومه".

قالت العجوز بصوت بالغ في مرحه: "أجل، إنه لأمر غريب. بعض الذين يمشون في نومهم يهرولون على غير هدى، ويحدثون جلبة وضوضاء، لكنني كنت واعية طيلة الوقت ولم أركل أي طاولة أو اقذف بأي مسند للقدمين. بل حسبت بأنني قادرة على التفكير. لم أتلق تعليما أو تدريبا على التفكير، تعلمت فقط الإشراف على المرضعات والتأكد من عدم اختلاسهن الحليب؛ وعلاوة على ذلك، أحاول بطريقتي الخرقاء والمزعجة رعاية وخدمة السيدة. لكن بينما كنت أمشي في نومي - لم يكن وعيي في أفضل حالاته - حسبت أنني قادرة على التفكير. المشي في النوم أمر غريب حقا".

قالت السيدة بسخرية: "وهكذا زحفت إلى هناك.. وفكرت. هل أردت أن تعرفي أهو نائم أم لا؟ هل حسبت بأنه ربما شعر بالبرد؟".

قالت يوريكليا: "خطر لي أنه ربما يشعر بالبرد، لا بد أن أعترف بهذا. لم يكن لديه سرير مناسب، لكنه أصر على النوم على الأرض في بهو المدخل وتغطى بجلد ماعز خفيف وعتيق ورث، أو ثلاثة على الأكثر. حسبت أنني فكرت: لربما يصاب بالرشح والحمى، أو يزعج الآخرين بعطاسه على أية حال".

سألت باقتضاب، واستندت إلى مرفقها: "هل كان نائما؟".

منعت العجوز نفسها للتو من الإيماءة المنفرة:

"انطباعي المحدد أشار إلى أنه كان نائما. لكن العنوء المنبعث من القاعة الكبرى كان خافتا، رغم أنني وضعت حطبة أو اثنتين، وحملت علاوة على ذلك مشعلا يبعث دخانا كثيفا ـ إضافة إلى أنني كنت أمشي في نومي ـ وبالتالي لا يمكن أن أقسم على أنه كان نائما. لكن انطباعي ـ وأنا أمر بأقصى سرعة ـ أشار إلى أنه نام: كانت عيناه مغمضتين".

قالت بصوت صارم: "هل تكلمت؟".

قالت العجوز: "لا يمكن أن ندعوه كلاما. أتذكر فقط أنني تلفظت ـ في نومي طبعا ـ بكلمة أو اثنتين وأدركت أنه استدار على جانبه وغمغم شيئا، لكن افترضت أنه كان يتكلم في نومه أيضا".

مرة أخرى أنعمت النظر في وجه العجوز.

"هل ذكر الاختبار؟".

قالت يوريكليا بانذهال عميق: "الاختبار؟ أوه، كنت هنا في الوقت المناسب لأسمع عن ذلك في الليلة الفائتة! بالفؤوس؟ لا، لا أتذكره تكلم عن ذلك. لكنني قابلت تيليماكوس قبل برهة، وحدث أن ذكرت الأمر أمامه".

قالت بصوت فيه حدة: "جيد. أخمن بأنك ستولين الترتيبات عنايتك. ممتاز. أين الضيف الآن؟ لا، أقصد: ما الذي يفعله تيليماكوس الآن؟".

قالت العجوز: "ذهب في نزهة على ما يبدو".

جلست في سريرها.

"يوريكليا، لمَ تفحصت الأقفالَ والمرابط؟".

نظرت العجوز إلى قدميها، وكانتا قذرتين؛ إذ ركضت كثيرا في أرجاء المكان خلال الصباح الباكر.

"فكرت، نظرا لأنني نهضت وكنت أمشي في نومي، وأن أتحقق أيضا من الأقفال والمرابط؛ فنادرا ما سنحت لي الفرصة للقيام بذلك في الليل. لم أستطع أن أرى طبعا. تحسست وتلمست طريقي. حسبت أن قدرتي على التفكير كانت عظيمة إلى حد جعلني أفكر بأنها بحاجة لأن أتفحصها بين حين وآخر. البوابات الخارجية بحاجة لمزاليج وحبال

في حالة قدوم أحد أو بعض الناس من الجزء المنخفض من البلدة - ليس من المرتفع طبعا بل من المنخفض! - أو بعض المتوحشين الذين يعيشون هنا، قراصنة ينزلون على الشاطئ ليلا ويتسللون ويحاولون اقتحام البيت عنوة. وأنا مهتمة على الدوام بالمزاليج والأقفال والمرابط. وأعتبر ربط العقد واحدا من الفنون الرفيعة".

"إذن جربت كافة البوابات في الباحة وكل الأبواب في المنزل والباب الكبير المؤدي إلى القاعة الكبرى أيضا؟".

"أجل، نظرا لأنني كنت أجرب بعضها، فكرت أن أختبرها جميعا".

أنزلت رجليها البيضاوين من فوق حافة السرير، وانحنت يوريكليا بخفة لا تصدق ورشاقة عجيبة وألبستها خفيها الحمراوين.

"يوريكليا، أين ذهب تيليماكوس؟".

قالت العجوز التي تمشي في نومها: "أوه، لا أعرف بالضبط. لا أستطيع طبعا أن أتجسس ثم أقوم بعملي. لكن بدا وكأنه ذهب في جولة حول المنزل والجدار المحيط به بأكمله. وحين حدث وخرجت إلى الفناء هذا الصباح، كان هناك".

سألت: "عند مخزن السلاح؟".

"أجل، أعتقد أنه فتح الباب، قليلا، ونظر في الداخل. ثم أعاد المزلاج وثبته بعقدة صعبة متينة إلى حد استثنائي".

قالت الأم: "هل يستطيع ربط عقد صعبة. هل تعلم كيف يفعل ذلك؟ هل يعقد بسرعة؟".

قالت يوريكليا: "كان ذلك بمحض الصدفة، لكن الضيف، أو مهما سميناه، كان معه".

نهضت؛ أصبحت واقفة.

"أين هما الآن؟".

قالت العجوز: "هذا ما لا أعرفه، أقصد لا أستطيع أن أجزم". ووضعت يديها المعروقتين الذاويتين معا بشكل يثير التقزز. "يبدو أنهما عبرا الباحتين وخرجا. أعتقد أنهما يقفان خارج البوابة الخارجية".

"تحت المطر؟".

"ارتدى كل منهما عباءته. لكن عباءة الضيف رقيقة جدا ومهترئة".

* *

أمضت وقتا طويلا تسرح شعرها بمساعدة يوريكليا وحدها. ازدادت حدة البصر في عيني العجوز الساهرتين، لكن عيني بينلوبي قد غشاهما الضباب - لسبب أو لآخر - وأحاطت بهما دوائر حمراء: غالبا ما كانت هناك غشاوة من الدمع فوقهما، وتحولت الآن إلى قطرات مختلفة الأحجام. مالت العجوز الواقفة خلف الكرسي وانتزعت العديد من الشعرات الرمادية.

"ليست رمادية، بل هي شعرات جديدة فتية تماما، لكن لونها أفتح قليلا من الأخريات ولهذا انتزعتها يا صاحبة الفضيلة. ولولا ذلك فهي شعرات ممتازة".

"دعيني أراها!".

قالت العجوز: "لقد أسقطتها. كانت واحدة أو ثلاثة على الأكثر، لكن هذه واحدة أخرى سأنتزعها".

انتزعت واحدة بنية اللون وأعطتها لها.

"ها هي".

لكن في المرة التالية، كانت السيدة أكثر سرعة، حيث قبضت على يد المرأة العجوز ورفعت الشعرة لتراها. كانت رمادية حقا.

قالت العجوز: "إنها واحدة من قلة قليلة جدا من الشعرات الرمادية يا صاحبة الفضيلة".

غسلت بينلوبي جسدها، قدميها، يديها، ذراعيها، عنقها، وأحضرت العجوز ماء ساخنا وحكت ومسدت. أخذت الكهلة قارورة الزيت من يد يوريكليا ودهنت به جسمها، ووضعت بعناية طبقة كثيفة من مساحيق التجميل: على جبهتها، ووجنتيها، وعنقها، وذراعيها. ثم ارتدت الثوب الذي أحضره الابن من إسبارطة: هدية هيلين الودودة المراعية لمشاعر الآخرين.

أكلت قليلا، بضع لقيمات من الخبز والزيتون ولحم الضان، مع عدة رشفات من النبيذ. ولم تنزل إليهم إلا بعد الظهر حين تم إعداد كل شيء.

* *

حسمت كل الأمور. كل شيء سوف يحسم. لن يحسم أي شيء أبدا.

كان الأب والابن يقفان خارج البوابة الخارجية تحت المطر. وامتدت أمامهما منحدرات التلال والجزء المنخفض من البلدة. وربضت على الشط الآخر من خليج الميناء بعض المراكب السوداء الطويلة التي سحبت إلى هناك تأهبا لفصل الشتاء. ذلك هو السبيل الذي كان عليه أن يأتي عبره، من المضيق والبحر، مبحرا علنا، نهارا جهارا، مع أسطول ضخم ورجال كثر، حاملا الغنائم والأسلحة.

قال: "أعتقد أنني سأتسلل وأهاجمهم من الخلف. وأكون الداهية الماكر من جديد".

قال تيليماكوس، وهو يشعر بالفخر والمفاجأة في آن: "ما العيب في ذلك. الحرب خدعة ويحق للداهية الماكر أن يفتخر. مجدك يا أبي يجسده أيضا ذلك الحصان الخشبي الذي استخدمته في طروادة. أنشد المغنون عنه، وترنم به عدد من الأغنيات التي سمعتها".

قال: "أوه، انس الأمر".

حسم كل شيء؛ لن يحسم شيء أبدا.

كانت الآلهة إلى جانبهما؛ وبم ترغب الآلهة. لا أحد يعلم. لكنها إلى جانبهما. دوى الرعد خلال الليل؛ وغدقت السماء الآن، مطرا مدرارا ينفر الناس. كان يومايوس في الطريق مع راع وعميل أرسلته الآلهة من ساموس؛ جنده هو؛ ويوريكليا جندت داكريوستاكتوس. المطر سيبعد كثيرين. في وقت مبكر من ذلك الصباح دخل الأب والابن مخزن السلاح في الفناء الخلفي وجربا القوس: يوريكليا وقفت حارسة. كان مصنوعا من مادة قرنية وخشب. كاد تيليماكوس أن يشد الوتر، وكان سينجح لو قام ببضع محاولات أخرى. توجب على أبيه أن يتمرن كثيرا قبل أن يستخدمه، ولمسه بذراعيه، وكتفيه، وأصابعه. لكنه تذكر الحركة البسيطة التي تجعله يذعن لك، والوتر يضغط على أصابعك لكنه يعلق في مكانه.

قال تيليماكوس: "أعرف اثنين فقط قد يكونان قادرين على شد طرف الوتر وتعليقه في مكانه".

قال الأب: "ربما يكون انتينوس أحدهما، لكن من الآخر؟".

قال تيليماكوس: "ميلانثيوس. لكن لن يسمح له أبدا بالمحاولة".

حين رجعا عبرا الباحتين غدا المطر أكثر غزارة. الجارية التي تعنّيها آلام المخاض، وتوشك أن تضع، كانت تزعق في قسم سكنى العبيد خلف المطبخ الشتوي. استنجدت بالآلهة. يا زوس! يا ديميترا! يا بوسيدون! (ما جدوى الدعاء؟). تضرعت أيضا لآلهة أخرى من سواحل في أقصى الجنوب وصرخت بأسماء من نهاية العالم المعروف في الشرق، أسماء أحضرتها عائلة دوليوس السمراء معها من هناك وربما نسيتها حتى ذلك الحين:

"بيلوس! بوباستيس! سيخت! ميليتا".

توقف الاثنان تحت وابل المطر وأنصتا.

"تمر بوقت عصيب. هل هو المخاض؟ من هي؟ السمراء التي رأيتها البارحة؟ الفتاة الصغيرة الحبلى؟".

قال الابن بسرعة: "على ما أعتقد"، وأراد متابعة المشي؛ كان يستعجل الدخول هربا من المطر.

تبعه الأب.

سأل: "هل هي أخت ميلانثيوس؟ لم تكن قد ولدت حين رحلت والآن ها هي تلد طفلا. هل هي الفتاة التي يضاجعها يوريماكوس؟".

قال الابن وسار بخطوات طويلة: "أحسب ذلك. لكن لا ترفع صوتك. علينا أن نبدأ بتمثيل دورنا مجددا".

"تيليماكوس، هل ضاجع العديد من الجواري الخاطبين؟".

قال الابن: "لا أعلم". ودخل بهو المدخل وخلع عباءته المبللة ونفضها. "تعال الآن. يجب أن يلعب كل منا دوره كما قلت يا أبي".

قال: "أريد أن أعرف من هن. أنا هنا لأرتب كل شيء. اليوم سأنظم الأمور. ولا أدري فيما بعد هل أتمكن من ترتيب شيء من أجلك".

قال الابن: "افترض أن عشرا منهن تقريبا فعلن ذلك. يوريكليا تعرف أسماءهن. يوريكليا تعرف كل شيء".

علا صوته، غدا صراخا:

"الآن يجب أن يلعب كل منا دوره يا أبي!".

* *

لعب كل منهما دوره؛ شاءت الآلهة ولم يحسم شيء.

كان يومايوس يقوم بجولة استعمائية وتحدث مع رعيانه. كان واسع الاطلاع، بمقدوره أن يفكر ويرى. ربما رأى أن هناك حاجة لحشد احتياط كاف بخلال يوم أو اثنين أو في الصباح. وإلى جانبه كان فيلويتيوس، وهو غريب نسبيا، تملؤه رغبة حقيقية متلهفة للمغامرة على الأرجح، ووكيل للقطيع ورئيس لرعاة قطيع السيدة الذي وضعته في ساموس. كان الاثنان يقطران ماء حين نزلا من التلال خلال فترة ما بعد الظهر. غابت يوريكليا عدة ساعات، ومن المحتمل أنها كانت في البلدة تتحدث مع أشخاص يمكن الاعتماد عليهم، أو ربما تحذرهم، لا أحد يعلم بالضبط؛ ربما كانت تصغي فقط، ومعها معينها على الإصغاء، جهاز الاستماع لديها، داكريوستاكتوس - بالرغم من أنها قد تكون طبعا في غرفتها تقوي نفسها بالنوم، من يعلم؟

رتبت الآلهة الأمر بحيث ترسل السماء طوفانا من الماء بين حين وآخر. وابل المطر الذي انهمر على الأرخبيل، والجزر الغربية، أتى مباشرة من جزء العالم الغربي وإسبانيا، ومن الأطلنطيد، ومن مناطق ابنة أطلس، ومن جهة كاليبسو، ومن جزيرة الليستريغونيين، ومنطقة صخرة اليمامة، من ذلك الذي كان يدعى بحر سيرنوس. حملته رياح الخريف الغربية من "البلاد الطويلة"، التي ستصبح إيطاليا فيما بعد، ومن ساحل سورسي، ومن منطقة سيلا وكريبديس، ومن "سرات" بوليفيموس الأرضية التي تلفظ نارا، تلك الحلمات على أثداء ربة الأرض جيا. أتى من منطقة زوس، ومن جهة هليوس وبوسيدون، ووبل مدرارا، بوحشية تتعاظم باطراد، مغرقا العقل وحاجباً الرؤية؛ دفق طوفانا جارفا اكتسح الجزر التي كانت تسمى زاكينثوس وساموس والأراضي الخرافية مثل دوليكيوم الخصبة. غدق سيلا عارما على تلك البقعة الصغيرة التي اختارها القدر في المدى الفسيح: ايثاكا.

في الجزء المنخفض من البلدة، جلس الناس داخل بيوتهم وقالوا إن الشتاء كان على الأبواب، والآن أتى، هذا هو اليوم الأول من الشتاء الحقيقي. حمدا للآلهة أن رجالنا عادوا من البحر، وأننا وعبيدنا بخير، وأن لدينا أربعة جدران نجلس داخلها. الحمد لزوس أن لدينا ثيابا، وطعاما، وبيتا، ووطنا، ولسنا بحاجة للخروج في يوم كهذا! وفي الجزء المرتفع من البلدة، في منازل الطبقة العليا المحيطة بالبيت الكبير،

الذي يدعى - رسميا - القصر أحيانا، جلس الشبان والكهول وفكروا: يمكن للمرء الذهاب إلى هناك، لكن لم يبلله المطر دونما داع، فبالإمكان الذهاب يوم غد أيضا، من المستحسن الاحتفال بعيد أبولو في البيت إن توجب الاحتفال به في مثل هذا الجو. ما زالت هناك ستة أيام أخرى. لسوف نعرف من اختارت في وقت قريب؛ في الحقيقة نعرف الشخص منذ الآن، الشائعات تدل عليه، وهكذا ستنتقل للإقامة في دوليكيوم، حمدا للآلهة وحظا أوفر للآخرين. وهناك في المزارع والخيم والأكواخ في الجزيرة الشمالية والجزيرة الجنوبية، جلس الرعاة، ومراقبو قطعان الماعز، والمشرفون على الخنازير، والمزارعون الصغار، والصيادون التعساء، وفكروا بمدى سعادتهم ويسر حالهم مقارنة بالأغنياء والأعيان والوجهاء المثقلين بهموم السلطة، وأية مزايا يرتعون بها حين يتحررون في مثل هذا اليوم من الأعيان والوجهاء والنبلاء الذين انشغلت عقولهم وقلوبهم القاسية بهموم السلطة والقوة - وفوقهم جميعا يغدق المطر، ويدفق ويقطر. واكتسح المطر البر الرئيسي على شكل طوفان هادر حول البحر إلى زبد، وأسقط أوراق أشجار السنديان المصفرة، ورش رذاذه على أوراق أشجار الزيتون الخضراء، وشق الأرض بجداول، وغدران، وسيول جارفة تتدفق من الجبال، وينابيع وأنهار تلاطم موجها. جرى ماء المطر من الأشجار نزولا إلى الأرض ومن الأرض إلى البحر: من الروابي والتلال حيث ملأ الينابيع وأظهر أن الحوريات ما زالت على قيد الحياة، وعبر الجداول الطينية البنية والصفراء دفق إلى حلقوم بوسيدون ذاته.

لكن بعضهم اخترق حاجز الماء المعيق الذي أقامته الآلهة. الراوي، خادمكم، ناء به حمل الحقائق العديدة، والوقائع المتنوعة، ولم يتمكن إلا من حساب الأعداد الصغيرة وتسمية تلك الأسماء المدونة: أسماء رجال، شيب وشبان، قطر منهم الماء، وذهبوا لملاقاة مصيرهم المحتوم.

أتى انتينوس كأنما ليظهر: لست أنا الذي يخاف من بضع قطرات من الماء، من رشة مطر، علاوة على أنني زعيم الحزب. وسار يوريماكوس مخترقا الباحة كي لا يظنن أحد أنه فقد ابتسامته، فقد سحره لمجرد هطول بضع زخات من المطر، كما ذهب إلى هناك كي لا يظنن أحد أنه يخجل من وجوده في المنزل، لأن إحدى الجواري، وهي أمةٌ،

حدث وضاجعها ليلة أو اثنتين أو عشرا على الأكثر، قبل ستة أشهر، قبل سنة أو نحوها، تلد طفلا ـ لأن خادمة سمراء، مجعدة الشعر، مفرطة البدانة قد تلد طفلا في أية لحظة، وربما في ذلك اليوم نفسه. وغادر امفينوموس ـ القادم من دوليكيوم ـ مكان إقامته في خان نويمون، وقطع الطريق ماشيا دون أن يضع شيئا على رأسه. فكر: ربما "أنا". ليس من المناسب البقاء بعيدا ولو ليوم واحد. ولا أعتقد أن كثيرا من الأشخاص سيأتون في مثل هذا الطقس؛ ولربما سأحظى بفرصة قول بضع كلمات لها وأتمكن من ترك انطباع جيد لديها ودفعها إلى فهم حقيقة أنني لست رجلا خجولا رغم أن ذلك قد يبدو علي أحيانا.

ولدينا أسماء أخرى: ديموتوليموس، يوريديس، ايلاتوس، قدموا من بيوت فخمة مترفة في الجزء المرتفع من البلدة، أو من مساكن وخانات في الجزء المنخفض، عبروا الباحتين، تحت أفاريز تقطر ماء ودخلوا القاعة الكبرى لـ"الغائب" ـ كما أتى بيساندر ويوريداماس، وامفيدون وبوليبوس وتيسيبوس من ساموس، وايجيلوس وليوكريتوس وليوديس واثنان أو ثلاثة آخرون، ولربما نجا واحد منهم، وربما لم ينج منهم أحد.

أتوا جميعا، وخلعوا عباءاتهم في بهو المدخل وحملوها معهم إلى القاعة الكبرى، وطلبوا الإذن بتعليقها حول النار لوهلة كي يتبخر بعض البلل منها. نفضوا أجسادهم وقالوا: "يا للسماء كيف تمطر وتبلل الناس دونما داع، والآن دعونا نأكل لقمة ونشرب قطرة أو اثنتين من النبيذ الصرف". شكلوا مجموعة، جمعية، عصبة من الأشخاص الذين تم اختيارهم بطريقة مفرطة في وحشيتها، وعلى الحافة، في الحلقة الأبعد عنهم، جلس فيميوس الذي سيصدح بالغناء، والعميل المزدوج والرسول ميدون، الذي لم يقرر بعد إلى أي جانب سينضم.

وهناك العديد غيرهم ـ كما تقول الأغنية. لكنَّ في ذلك مبالغة وغلوا على الأرجح. إذ ليس بمقدور مغن من البشر، أو حتى الآلهة، تقرير مصير مائة وثمانية أو حتى اثنين وخمسين في مثل هذه القاعة الصغيرة وبكنانة لا تتسع إلا لأربعين سهما.

أو؟

لا ندري.

جلس تيليماكوس في مقعده المرتفع المسند والطعام والخمر أمامه، ورمحه متكئ بتكبر ومباهاة على العمود خلفه. كان قد سمح للمتسول في اليوم السابق بالجلوس إلى طاولة صغيرة قرب الباب المفضي لبهو المدخل. وخلف الابن، قرب العتبة الفاصلة بين القاعة والبهو وقفت (بمحض الصدفة) رئيسة المربيات، العجوز الذاوية لكن المتحمسة، يوريكليا، وخادمها ورفيق سفرها الأبكم - لكن ليس الأصم - داكريوستاكتوس، وخلفهما، على مسافة أبعد، كان هناك أيضا المغامر والوكيل فيلويتيوس وصديقه ومعلمه يومايوس.

أمام الابن، جلس على الموائد المصفوفة بين الأعمدة بمحاذاة الجدران، عشرون شخصا، وربما ثلاثون. الغشاوة على العينين تمنع المرء من إحصائهم الآن: لكنَّ هناك عددا من الأشخاص. كان ليوديس كاهنهم الذي قام بأداء الشعائر الدينية، حين اعتبرت هذه ضرورية، والمسؤول عن شيٍّ اللحم وتقديم القرابين وإمامة الصلاة. أما المسؤول عن قطيع الماعز ميلانثيوس، فكان أفضل من يمزج خمرهم، ورئيس السقاة، ونظرا لأنه أمضى فترة طويلة في قاعات المقامرة فقد اعتبر مقامرا رغم أن من غير المسموح له أن يلمس النرد. فيميوس كان مغنيهم الذي أثار رثاءهم دوما، وميدون عميلهم المزدوج الذي أثار - كما قيل - ريبتهم والذي لم يقرر بعد إلى أي جانب سينضم، لكنه سرعان ما سيختار - في ذاك اليوم - الجانب الصحيح، الأقل خطرا، دائما الأقل خطرا.

* *

في الطابق العلوي، حيث يضرب المطر سقف حجرتها وسطح القاعة الكبرى، رفعت بينلوبي قدما، وخطت مبتعدة عن النافذة، خطوة، ثم أخرى، ثم أخرى، واجتازت الحجرة، وفتحت الباب، وبدأت تهبط السلم.

أحدهم أخبرها، أحد عبيدها حمل إليها رسالة: سيأزف الوقت قريبا الآن. فهم مجتمعون. تيليماكوس سيتحدث أمامهم.

قال تيليماكوس:

"أيها السادة، ضيوفي الأجلاء! لطف منكم أن تأتوا إلى هنا برغم الطقس السيئ. لربما يكون يوم سعد بالنسبة لبعضكم هنا في القاعة. لقد قررت والدتي أن تختصر مدة

الانتظار، أن تتجاوز الأيام القليلة الأخيرة وتجعل هذا اليوم أينع الأيام التي سقطت من يدي زوس وهليوس منذ عدة سنين".

اعتقد هو نفسه أنها بداية جيدة، عرف ذلك بقلبه، لقد تعلم درسه.

سمعت صوته، توقفت على الدرجات وفهمت بضع كلمات. لربما سيطيل؟ عادت مترددة لتصعد السلم مجددا وتدخل غرفتها، وتلتقط المرآة النحاسية الموضوعة على السرير وتنظر فيها.

قال الابن: "أيها السادة، من أجل اختصار مدة الانتظار قررت والدتي أن تجري لكم اختبارا. يجب أن نعتبر أولئك الذين حضروا إلى هنا اليوم أفضل الخاطبين وأكثرهم جدية: لم يسمحوا للطقس بإعاقتهم. كما أنني مقتنع بأنه يجب عدم استثناء أو تجاهل أحد من الغائبين".

قال انتينوس بصوت عال: "أي هراء هذا! تابع ما أردت قوله. ما هو هذا الاختبار؟ منافسة على الأكل؟ أو لمعرفة من يستطيع عد الزغب في لحيتك أسرع من الآخر؟ أحسب أن العدد سبعة ونصف!".

جمع تيليماكوس شتات نفسه مجددا، بينما ضحك الجميع. رجفت يداه، وزحف الاحمرار صعدا من صدره وعنقه وبلغ وجنتيه. خلال الصمت التالي، وسط الهدوء الذي تلا سخريتهم الهازئة، أمكن سماع أنات متأوهة صادرة من مخادع العبيد. تغامز بعضهم. حدق يوريماكوس أمامه مباشرة، باتجاه النار حيث تبخر العباءات، وقد أطبق فكيه بإحكام وغالبه شعور بالقلق والانزعاج. امفينوموس نظر حواليه متسائلا. المتسول كان منذ اليوم السابق ينظر إلى يديه، ربما كان يعد أصابعه ويحاول رفع المجموع إلى أكثر من تسعة.

قال تيليماكوس بعد أن خف احمرار خديه: "أيها السادة، أيها السادة الضيوف الأجلاء، لدى والدي، الغائب تقريبا في هذه اللحظة، الغائب مؤقتا والعائد حتما في وقت قريب (حفظ الهراء عن ظهر قلب!) اثنتا عشرة فأسا برونزية. في سالف الأيام، اعتاد أن يصفها في الباحة الأمامية ويطلق سهما يخترق حلقات مقابضها كلها. لم يتمكن أحد من القيام بهذا. أخذ والدي أقوى قوس لديه و..".

"أما اعتاد أن ينزع المقابض من مائة فأس ويطلق سهامه لتخترق كافة الثقوب من مسافة خمسمائة خطوة.. البطل الخارق!".

ذاك واحد حكم عليه بالإعدام: تيسيبوس من ساموس هو الذي تكلم.

ميلانثيوس، الذي ما زال يعاني من آثار الشراب من ليلة أمس، أراد هو أيضا أن يلعب دورا:

"لا، اعتاد أن يصفّ الفؤوس على قمة نيريتون ثم يجدف إلى ساموس ويرمي سهامه من هناك!"، تطاير اللعاب من شفتيه وهو يسخر. "لا لتخترق أية ثقوب، لا، بل لتدخل في البرونز مباشرة! والنبال كانت تصل إلى بيلوس الرملية، ساخنة ملتهبة، بحيث تلسع أصابع نستور إن حاول التقاطها قبل أن تبرد!".

تركهم يضحكون. فكر: ميلانثيوس قتل تقريبا، قطع إلى أربعة أشلاء.

حكم آخر بالإعدام صدر بعد ذلك على الفور؛ على ليوكريتوس.

"اعتاد أن يضم كل الحلقات بنبل قبل أن ينبله، هكذا سمعت! هذه هي الخدعة، أخدعُ خدع أخدع الرجال!".

ضحكوا مقهقهين.

قال تيليماكوس: "أخذ والدي أقوى قوس لديه..".

* *

جلس كما جلس في إحدى الأمسيات قبل عشرين سنة، لكن بعيدا عن صدر القاعة: حين قدم أغاممنون ومنيليوس وأخذاه إلى الحرب ضد طروادة. حنى رأسه، وارتاحت لحيته على عنقه، وأمكنه أن يرى على سطح الطاولة اللامع انعكاس ضوء النهار الرمادي ولهب النار. غدق المطر مدرارا على السقف، وسال منه إلى براميل المياه التي فاضت في الخارج. أغمض عينيه وأصاخ إلى خطاب ابنه، الدرس الذي تعلمه جيدا، عن ظهر قلب، تمرين في الخطابة والبطولة. الفصاحة الفخيمة التي امتلك ناصيتها ذلك اليوم كانت في جزء منها من ابتكاره. قنّعت معنى الكل، ونكّرت الغرض بحيث لا يبدو شنيعا مريعا إلى أقصى حد. سمع من حين لآخر أنات الفتاة الصادرة من غياهب المنزل ـ فتاة تلدُ بكرها عبر ثقب يكفي لإرضاء الشهوة لكنه يضيق

كثيرا عن إخراج عاقبتها. حكم على شليلة الرجل بالموت. سليلة دوليوس التي حلمت بأن تصبح أميرة، كما همس له يومايوس ذلك الصباح. ها هو طفل يأتي خارجا من جسم امرأة. طفل من النوع الذي يمسكه الأبطال من رجله على أسوار طروادة ويقتلونه كالجرو. فكر: طفل سيصبح استياناكس. أو كخنزير رضيع ينبغي تقديمه قربانا على الفور. أين يسير الحد الفاصل بين الجارية والخنزيرة؟ الرجال، الرجال الأحرار، أخذوا الرضيع وسمنوه قليلا، لمدة نصف شهر، لبضعة من أيام هليوس، ثم ضحوا به: أكلوه، وملؤوا بطونهم بلحمه. أو أنهم سمنوهم قليلا، العبيد والجواري، وتركوا رمقا من الحياة فيهم، ثم أوكلوا إلى فصول الشتاء والحمى مهمة تنحيفهم، أو قاموا بجزء منها بأنفسهم، والبقية التي تخلفت، الجواري الناجيات اللاتي بلغن العشرين من العمر، أصبحن خادمات وحشايا للأبطال، والعبيد سائقين للمركبات الحربية: وحدات مقاتلة في سور الرماح، السور الغفل الذي لا اسم له ـ السور الذي سمعتم عنه في الأغاني. يجب أن يعامل ذلك الطفل معاملة حسنة، ربما سيعتق، هكذا فكر وفتح عينيه ونظر إلى الرجال المحكومين بالهلاك وهم يجلسون إلى الموائد. هل أملك القوة لفعل ذلك؟ أنا أداة الآلهة لإعادة النظام أيضا. تلك هي مهمتي. أنا الجلاد الذي اصطفته الآلهة، بعثت إلى هنا لأنفذ السياسة التي تخطط لها. أنا الذي أجلس هنا، أنا المختار، أتمنى لو لم يكن هناك أطواف، لو لم يكن ثمة وسيلة للإبحار. أتمنى لو أنام حتى ينتهي الأمر برمته. أريد أن أغط في نوم عميق بحيث لن أتذكر ما سأفعله.

وخطرت له فكرة غريبة مجنونة أخرى: أتمنى لو كنت انتينوس. أتمنى لو كنت يوريماكوس وامفينوموس.

نقل بصره من واحد لآخر، نظر إلى وجوههم: وجه انتينوس الصلب، قائد الرجال، القرصان الغرير، البطل/المحارب العظيم الذي لم يخض بعد أية حرب كبرى. ويوريماكوس، الشاب الفتي بابتسامته الناعمة وضحكته الرقيقة، وعينيه الودودتين اللتين تطاردان أجساد النساء. وامفينوموس، ابن مالك الأراضي الثري، القادم من دوليكيوم الشهيرة بزراعة القمح ـ وجهه كان متبلدا ورقيقا، وودودة حركات يديه المتمهلة. رجل يسمن عبيده. وإلى الآخرين: في وجوههم سوء وشر، وشره وطمع

بالمكاسب، وشهوة للمغامرة، وود، ومكر، وتعلق موّله بالحياة. فكر: زوس، أيها الرب الجليل، الذي لا تحد حكمته حدود، خذ مني ذكاءك العنيف، واجعله رقيقا، وحولني إلى سنونو، إلى نورس، ودعني أطير بعيدا عن هنا إلى جزيرة عشبة الصقر أو "إليها"! احملني بقبضتك، يا بوسيدون القاسي الحقود، احملني بعيدا!

* *

قال تيليماكوس: ".. أقوى قوس لديه. أخذ أبي قوسا لم يستخدمه أبدا لشيء آخر، ولا يستطيع إلا هو استعماله، ثم أطلق سهما عبر كل حلقات المقابض فورا".

"ونحن بالطبع لن نستطيع أن نفعل ذلك! ألم يكن رأسا أبيك (ذي الرأسين) أكثر ارتفاعا من كل الرجال والآلهة أيضا؟ أما كانت القملة التي تدب بسرعة بحاجة ليوم بطوله كي تقطع ظهر أبيك من جانب لآخر؟ أما كان هو الذي يحمل البيوت ويضعها جانبا إن أراد القيام بنزهة هنا في ايثاكا؟".

كان هذا امفينوموس يصادق على حكم إعدامه.

قال تيليماكوس: "والدتي..".

استطاع بيساندر أن يخطو خطوة واسعة باتجاه مثوى الأموات:

"يصاب المرء بالسأم فعلا من الحديث عن 'بابا' الذي لا نظير له! ادخل في الموضوع!".

ديموتوليموس سار برفقة بيساندر على نفس الدرب:

"ألا يكفي كل الهراء التياه الذي نسمعه من فيميوس، هل ستغني أغنيات طروادة أنت أيضا! أين قيثارتك؟ في بطنك؟".

"قيثارة؟ إنها في بطن الفتاة الزاعقة هناك! انصتْ، ولسوف تسمع كيف تعزف!".

ميلانثيوس، الذي حكم عليه بالهلاك مرتين، أدار وجهه الأسمر نحو ايلاتوس ويورياديس المزمجر وحكم على الاثنين، مرة أخرى، بأشنع ميتة. فكر: إن امتلكت القوة سأقطع خصيتي كل منهما إضافة إلى بعض الحاضرين أيضا!

قال تيليماكوس: "والدتي..".

* *

كانت في عين ذهنه، هذا الذي عاد إلى وطنه، الذي غاب طويلا، صورة رجل يسبح. تأرجح على الموج، وجرف باتجاه صخور حادة، لكنه عرف أن وراءها يكمن الخلاص، حلاوة النساء، وابتسامات نوسيكيا، وأحضان اللاتي سيريح رأسها عليها. إن تجاوز الصخور وبلغ الخليج الهادئ، حضن الأرض الممتدة، سوف يجد الراحة. لكن الموج كان عاتيا، بوسيدون، ذلك الإله الشرير، وقف فوقه، ودفع أمواجه عليه، وسحبه من حين لآخر باتجاه القرار. لن يبلغ الشط أبدا. سيتحطم على الصخور، وبقايا كينونته، أسمال الإنسان البالية التي يتريث فيها الفكر طويلا، ستنجرف دائرة في بحر الدم - دائما وأبدا. فكر: لو أستطيع إنقاذ واحد منهم فلن يكون الأمر بهذه الصعوبة والقسوة، ونظر من وجه موجه. لو أستطيع إنقاذ واحد منهم لوجدت فيه عذرا لنفسي فيما بعد. نظر من وجه لوجه. أدانوا أنفسهم بالإعدام حتى الموت، واحدا إثر الآخر، حكموا على أنفسهم بالهلاك بطريقة مزدوجة، أحدهم حكم على نفسه مرة بعد أخرى بميتة مخزية، وآخرون حكموا على أنفسهم بالاختفاء، بالتيه في الطريق إلى مثوى الأموات، بالزوال. فكر: لو أستطيع إنقاذ أحدهم، فسوف أنقذ نفسي أيضا. آنئذ سأتمكن من القول: أنت يا استياناكس، أو مهما كان اسمك، أنا أنقذتك! بفضلي أنت على قيد الحياة! كنت في طريقك إلى مثوى الأموات، حاولت أن تحكم على نفسك بالموت، لكنني أنقذتك، تظاهرت بأنني لم اسمع جملتك. أنا المراوغ الماكر، لم أخدع أيا من الآلهة عامدا متعمدا، لكنني لم أصغ بدقة لكل أوامرها.

بعد ذلك عرف: أتيت إلى هنا لأقتل. أتيت لأوجد نظاما في هذه الفوضى. عدت إلى وطني لإنقاذ مستقبل ابني وشرف زوجتي. أتيت رسولا من الآلهة، ضابط النظام في محكمتها.

ما زالت هناك أسماء باقية. يوريداماس، هل ترغب بأن تنقذ حياتك؟ يوليبوس، هل تريد الخروج من دائرة الخطر؟ ايجلوس، هنالك سبيل؛ لا تقل شيئا وارخ بصرك، أو اهرب قبل أن تغلق الأبواب!

* *

بدأ مرة أخرى: "والدتي..".

قال يوريداماس: "من المؤكد أنها تستطيع أيضا أن تشد القوس وتصيب بسهمها ثورا في دوليكيوم!".

نظر إليه امفينوموس وفكر: لقد تعرضت الان لاستفزاز فعلا. أستطيع الآن أن أشعر بالغضب يتعاظم داخلي. يجب أن أرميه بنظرة صارمة حقا. وإذا ما أجبرت على قتل أحد، فسأختاره هو.

غزا الاحمرار الناري وجه تيليماكوس مرة أخرى.

فكر يوريماكوس: يوريداماس، يا لك من حمار غبي! لو كنت عبدي لجدعت أنفك وقطعت أذنيك، وربما أجزاء أخرى منك أيضا، ثم أجلدك حتى الموت.

قال تيليماكوس: "والدتي قررت..".

قال ايجلوس: "آه، إذن هي من تقرر. لم نكن نعرف ذلك. إذن، إنها هي فعلا؟ حسبنا أن جلالة الابن المعظم هو الذي يقرر في هذه الأيام!".

ضحكوا جميعا، كان من الممتع أن يتمكنوا من الضحك، فهم شبان وكهول شربوا وضحكوا.

وضع انتينوس طاسه.

"وما الذي قررته المرأة المرغوبة إلى الأبد؟ قل بسرعة؛ ليس لدينا وقت لنصغي للغو فارغ، لم نأت إلى هنا لنستمع إلى خطب رديئة، بل لنأكل ونشرب ونتودد إلى المرأة التي يتعذر الوصول إليها".

"والدتي قررت أن يتزوجها من يستطيع ثني القوس وإطلاق سهم يخترق حلقات الفؤوس كلها مثلما كان يفعل والدي".

* *

على الرغم من كل شيء كانت فكرة جديدة واختصارا لمدة الانتظار، بحيث خيم الصمت على القاعة الكبرى. أولا، لم يعرفوا هل هذا خبر سار أو سيئ. نظروا إلى أمير دوليكيوم ثم إلى الابن. في صمت اندهاشهم سمعوا أنين الولادة عبر الجدران، كما سمعوا وقع خطواتها الجليلة لكن غير المتمهلة حتى الآن في القاعة الداخلية. نزلت بينلوبي الدرج من مخادع النساء ووقفت في المدخل وراء ابنها بقليل. أنعمت النظر

ليهم، وأظهرت نفسها لهم وكانت فائقة الجمال. لألأ بياضها تحت ضوء النهار الرمادي الذي بدأ يتحول إلى حمرة الشفق. كانت تتزين بكثير من الجواهر، وترفل بثوب جديد، واخترق ضوع عطرها المكان حتى الباب الخارجي وبهو المدخل.

تحركت، تقدمت بضع خطوات أخرى، حدقت إليهم مرة أخرى، ونظرت باتجاه باب القاعة حيث جلس المغني، والجاسوسان، والشحاذ.

قالت: "ما قاله ابني صحيح. اليوم سوف أختار واحدا من بين الحاضرين هنا في القاعة. تيليماكوس، صف الفؤوس".

أتى بها أربعة عبيد على قصبات رماح اخترقت حلقاتها: تأرجحت الفؤوس بشدة وتصادمت محدثة رنينا مدويا. توقفوا في بهو المدخل وانتظروا. ألقى تيليماكوس عباءته على كتفيه وتبعهم. حفر الخدم أخدودا في الجانب البعيد من الباحة الداخلية. صف تيليماكوس بنفسه الفؤوس في خط مستقيم على طول سير جلدي مشدود، وباعد مسافة خطوة بين إحداها والأخرى ورفع الحلقات. سقطت إحدى الحلقات فعاد مرة أخرى ووضعها بحماس في مكانها على السير الذي شده العبيد، سقطت واحدة أخرى فأعادها من جديد. كانت يوريكليا تقف في بهو المدخل، وهي تضغط راحتيها معا. هطل المطر غزيرا على ظهور العبيد العارية، وتدفق ضوء النهار الرمادي حولهم. بينلوبي جلست جامدة الوجه في مقعدها ذي المسند العالي المغطى بجلد الماعز والكتان. وضع أحدهم مزيدا من الحطب في النار؛ الرحال، الرجل الذي عاد، الشحاذ الصامت، مال إلى الأمام على طاولته. بهذه الوضعية أمكنه رؤية حلقات الفؤوس عبر باب القاعة، والباب المفتوح من بهو المدخل إلى الباحة الأمامية: كانت مصطفة باتجاهه. فقد قاست يوريكليا المسافة بشكل صحيح.

الأشخاص الأشد فضولا بين الخاطبين تركوا موائدهم وتجمعوا في بهو المدخل، وحجبوا عنه المشهد: جدار حي، جدار ما زال حيا من الأذرع، والظهور، والأرجل. جلس انتينوس حيث كان، لكن يوريماكوس نهض، وتبعه امفينوموس؛ غادرا القاعة وألقيا نظرة ثم عادا وجلسا إلى مائدتيهما. الجو أصبح أكثر جدية الآن. تهامس الحاضرون، وانتظروا، وربما فكروا بفرصهم المتاحة. بعض الذين فقدوا الأمل بالأمس، أو أول أمس

الأول، عاودهم الأمل من جديد. عاد تيليماكوس إلى مقعده. وقبل أن يجلس رفع إحدى يديه. غدا هادئا وواثقا. وحين أصبح الصمت معلقا النفت نحو الباب الداخلي:

"يومايوس! القوس".

في عتمة القاعة الداخلية وقف أيضا داكريوستاكتوس الأبكم الأشعر. كانت عيناه تدمعان رغم عدم وجود رياح، ويداه ترتجفان غضبا.

- ٣١ -

رنة وتر القوس

ربما ظنوا أنه قوس عادي، بعض الأشخاص الأكبر سنا ربما تذكروا بصورة مبهمة شكله، لكنهم في أحلامهم، وفي لامبالاة استرجاعهم لأحداث الماضي، جعلوه صغيرا وطريا. الآن رأوه رأي العين.

رئيس قطعان الخنازير، القائد القوي لأتباعه ومرؤوسيه، حاول حمله بيد واحدة. كان مصنوعا من عظم القرون والخشب، وبطول يعادل الارتفاع ما بين الكتف والعقب. في المنتصف، عند المقبض، كان بثخانة المعصم، وحتى في الطرفين هنالك سماكة غير عادية. كان انحناؤه قليلا، مثل عصا بسيطة الانحناء، فالمسافة الفاصلة بين مركز الانحناء والوتر المشدود القاسي المكون من ثلاثة أوتار مجدولة لم تكن تزيد عن عرض نصف كف. كان قد صقل حديثا؛ شاهدوه يومض ويلمع، ولربما حسب بعضهم أنه وميض برق. كان كل من السهام الأربعين الموضوعة في كنانة شدها يومايوس بسير على كتفه، بطول ذراع. يمكن التعبير عن المشهد كالتالي: القوس سبب الصمت.

أخذه تيليماكوس.

قال: "ضيوفي الأجلاء، يجب ألاّ تظنوا بأنني أرى نفسي بارعا وممتازا في فن الرماية. لكن في الوقت الحاضر أنا سيد القوس، الوصي على القوس ومالكه".

أدار انتينوس وجهه الصلب نحوه.

"ألا تأخذه وتطلق سهما لتظهر لنا نحن الضعفاء ماذا نفعل؟".

حمل الابن القوس الثقيل ووضعه على مائدته ونظر إليه. وحين تكلم بدا صوته أكثر خشونة مما كان قبل وهلة.

قال كاتما غيظه: "لست واحدا من المتنافسين، لكنني سأحاول".

قال انتينوس: "يبدو صلبا. فيه بعض الشبه بك. لكن لا تطلق كافة السهام".

أخذ تيليماكوس القوس وسار عبر القاعة وهو يحمله. رفعه أمامه بكلتا يديه، وتحركت شفتاه، لربما كان يغمغم تعويذة. تبعه يومايوس مرتجفا. اتخذ الابن موقعا في بهو المدخل وظهرُه إلى طاولة والده. انحنى، وأمسك بالمقبض بيسراه، ووضع أصابع يمناه الثلاث على الوتر المشدود السميك، بينما أمسك سهم السنديان الطويل برأسه البرونزي بين الإبهام والسبابة، سحب الوتر مسافة كفين، وربما ثلاث، نحوه، إلى أن بلغ معصماه وأصابعه وعضلات ذراعيه أقصى درجات التحمل. بدا منحنيا تقريبا وهو يكرر المحاولة ثلاث مرات. في الثالثة شعر بأنه قادر على إطلاق السهم. ربما؟ فكر: سأنفجر. كان يلهث من الذعر. فكر: ماذا لو لم يقدر أبي أيضا؟

قال: "انسحب"، ونهض متكئا على القوس. "الآن يمكنكم أن تجربوه ـ حسب ترتيب جلوسكم".

قال انتينوس والتمعت عيناه: "من اليسار إلى اليمين!".

تبعا لترتيب جلوسهم سيكون آخر من يحاول إن بدأ كاهن الطقوس، مرشدهم الروحي، ذاك الرجل الممتلئ الجسم ذو اليدين البيضاوين الناعمتين.

كان الأول ليوديس، لكنه بدأ الاختبار لمجرد الالتزام بالدور، سلم تيليماكوس القوس والسهم إلى يومايوس ونظر حوله قبل أن يمشي عائدا إلى مائدته. وعلى العمود القائم خلفه استند رمحه، وكان الرمح الوحيد داخل القاعة الكبرى.

أداء ليوديس كان ملهاة هازلة. إذ بارك القوس بإيماءات غريبة مضحكة، وقبل السهم، ورفع بصره إلى السماء وحاول جذب الوتر.

قال وهو يعيد القوس إلى يومايوس: "لا يهمني هذا. لست في أحسن حالاتي اليوم. ربما غدا. علاوة على أنني لا أريد أن أفسد ردائي. أنا مكرس لخدمة الآلهة".

تمكنوا من الضحك مجددا، الأمر الذي كان له تأثير جيد عليهم. نهض ليوكريتوس وسار ليأخذ القوس .

قال انتينوس: "انتظر. في العادة يتم تشحيم الأقواس العتيقة وتطريتها قليلا. وإلا يمكنك أن تكسرها كالعيدان اليابسة وتدخل الشظايا في عينيك وتفقد بصرك. ميلانثيوس، ضع حطبتين في النار ولسوف نحميه ونشحمه".

خفف ذلك من الجدية المخيمة على الجو، شربوا وبدؤوا يتحدثون فجأة بينما رفع رئيس قطيع الماعز القوس قرب النار في القاعة الكبرى وحك القوس بخرقة غمست بالشحم السائل، بدءا من منتصفه.

صاح ايجلوس: "ضعه تحت المطر، وسيتشرب بالماء تماما عندما يأتي الصباح".

صاح ديموتوليموس: "لا، ضعه في ماء يغلي وسأضمن لك ألا تبقى امرأة في هذا المنزل دون زواج!".

في تلك اللحظة تردد صدى ولولات الجارية في أرجاء المنزل.

صرخ يوريداموس: "لا حاجة لغلي القوس! ليس الكل بحاجة لذلك. يوريماكوس مثلا لديه القوة اللازمة للأمرين معا".

حملق فيه يوريماكوس باندهاش. وحدق تيليماكوس إلى المائدة؛ كان يجلس متكئا على رمحه.

قال انتينوس: "لا، الآن سنشرب. دعونا نبدأ بسرعة حتى ننتهي من الأمر؛ أشعر بتوق ملهوف لرمي النبال!".

جلست بينلوبي صامتة طيلة الوقت، وجهها ثابت لا يتحرك. بدؤوا كرة أخرى. أخفق ليوكريتوس في محاولاته الثلاث؛ لم تخف قساوة القوس. استطاع امفيميدون أن يشد الوتر قليلا، لكنه أسقط السهم على الأرض واستسلم. أخذ يومايوس القوس منه وناوله إلى بوليبوس الذي أعاده بعد محاولة واحدة فقط.

قال: "ليس هذا بقوس يستخدمه البشر. فحتى القوس الذي تطلقه الإلهة المتبجحة لا يبدو مثله".

تقدم تيسيبوس القادم من ساموس إلى الأمام، وأخذ القوس، وتفحصه بدقة، ووزن السهم بيده، ونظر حوله، وقرر المحاولة. استطاع أن يشد الوتر مسافة كفين، لكن الجهد الذي بذله كان هائلا بحيث جعل من نفسه أضحوكة. ضحكوا وضحكوا. حاول أن يعدل الوضع بما حسب أنه إطراء: "الحق على رئيس الطهاة!".

أضحكت العبارة الرجال المحكومين بالهلاك مرة أخرى.

قال ديموتوليموس: "الآن حان دوري".

اتخذ وضعية الرمي، فقدم ساقه اليسرى إلى الأمام، وركع، وشد الوتر. اضطروا للاعتراف بأنه شده مسافة كبيرة. ثم تزحلق وجلس على الأرض؛ لم يكن صاحيا تماما. أراد القيام بمحاولة رابعة، لكنهم لم يوافقوا.

قال بانزعاج: "أنتم تخافونني، تلك هي الحقيقة!".

يورياديس اكتفى بتجريب القوس وانسحب. ايلاتوس كان أقوى وشد الوتر مسافة كفين. أما أنجحهم فكان بيساندر. صمتوا وملأتهم الإثارة والتشويق.

صاح أحدهم آملا: "حركة واحدة فقط!".

لم ينجح؛ سقط السهم من يده. كان التالي ايجلوس الذي ترك القوس بعد محاولة ضعيفة واحدة.

* *

راقبتهم بعينين نصف مغمضتين. حين أخذ يوريماكوس القوس من يومايوس، أخذت نفسا عميقا ومالت على المائدة. لم يكن قويا على نحو خاص، ولا أسوأهم، لكنه ما زال يحتفظ بابتسامته الساحرة ورشاقته. لم يتمكن من شد الوتر. أعاد القوس إلى يومايوس دون أن ينطق بكلمة ورجع إلى مكانه دون أن ينظر لأحد. حاول يوريداماس بعده، لكن كان كل ما فعله أن لهث ونفخ حانقا، ثم أتى امفينوموس.

فكرت: لربما الآن تنقذ الوضع، الآن ستنقذني، الآن ستنقذ كثيرين. كان قويا جدا، فلاحا قويا يمكنه ترويض الخيول، كما قيل، كما أنه مجدف جيد. فكر: ربما

سأكون "أنا". انثنت ركبتاه، وجرح الوتر كفيه الصلبتين بفعل العمل الزراعي الشاق، ويمكنك سماع أسنانه تصر. لن أتركه، هكذا فكر وهو يرى سوادا أمام عينيه، وحين بدأ يرى شررا أبيض في السواد. لن أتركه، أبدا! جرح الوتر الحاد أصابعه. لكن لم يأبه لذلك. لن أتركه، لن.. أتركه! ربما هو "أنا". ثم استسلمت ذراعاه، وانجر إلى الأمام؛ مثلما شاءت الآلهة. ناول القوس إلى يومايوس. لم يستطع الكلام؛ رفع يده اليمنى، الثقيلة، الموجوعة، شبه المشلولة، ومسح العرق عن جبهته. وقف على هذه الحال بضع ثوان، قبل أن يعود جاراً قدميه إلى مائدته.

نهض انتينوس واقفا على قدميه. وتقدم بضع خطوات نحو العتبة، وخطا فوقها ووقف هنا في قاعة الاستقبال. ارتسمت على وجهه ابتسامة قاسية وهو يأخذ القوس من يومايوس. وزنه بيده.

رأته يقف هناك. امفينوموس القادم من دوليكيوم، عاد ليجلس مجددا إلى مائدته؛ أراح ذقنه على إحدى راحتيه وشرب دون مبالاة، وسال لعابه. ما زالت يده ترتجف.

رفع انتينوس القوس فوق رأسه. حسبت أنه سيرميه فكرت: ارمه! ارمه! ارمه على الحائط لينكسر، أو في النار ليحترق، اقذفه إلى الباحة الأمامية، على الجدار، ارمه، ارمه! لكنه اكتفى بحمله فوق رأسه؛ رأوا ذراعه المفتولة العضلات؛ حمل القوس كما تحمل رمحا لترميه.

قال: "حان دوري. لكنني لا أنوي المحاولة. لا أريد أن أرمي بالقوس اليوم. أي يوم هذا أيها السادة؟ عيد أبولو؟ لا أنوي تكريمه بإطلاق الرماح على المطر. لا، لا استسلم، لا أتراجع أو أنسحب، لكن لا أنوي أن استخدم القوس اليوم. أعرف بأنني قادر على القيام بذلك. لكنني اليوم أريد أن أستمتع، لا أريد اليوم أن أطلق سهاما تخترق حلقات الفؤوس. سوف نؤدي الاختبار مرة أخرى، غدا، وعندئذ سنبدأ من البداية ـ والكل سيحاول؛ كل الموجودين هنا في المدينة، الذين يجلسون في بيوتهم بسبب المطر، والذين يمكنهم الوصول إلى هنا في الوقت المحدد من ساموس وزاكينثوس. ألست على حق؟".

صاح بعضهم: "برافو.. برافوا".

لكن برغم ذلك خيم صمت محرج. كانت خاتمة مشينة. بعضهم عبوا بشراهة من كؤوسهم، وغيرهم حدقوا متسائلين إلى انتينوس، وبينلوبي، وامفينوموس المستغرق في تفكير كئيب، والابن.

تفحصتهم جميعا، واختارت من بينهم. لم تنظر إلى المتسول الجالس قرب الباب، الذي أومأ ليومايوس.

فكرت: شكرا للسماء! شكرا للسماء لتأجيل الاختبار!

في الصمت الذي خيم، سمعوا الجارية من جديد: صرخة قصيرة، ثم زعقة طويلة.

فكر يوريماكوس: لا أستطيع تحمل المزيد من هذا. فكر تيليماكوس: لا أستطيع تحمل المزيد من هذا، وأحكم قبضته على قناة رمحه. رفع كأسه ليشرب، لكن وضعه على المائدة مرة أخرى.

"لحظة!".

التفت الجميع نحو الشحاذ الجالس قرب الباب.

قال: "أود لو أجرب".

نظروا إليه؛ وفغرت أفواههم.

قالت بينلوبي: "ولكن.. ولكن".

قال انتينوس الذي جلس للتو: "ما هذا بحق السماء!".

قال الشحاذ بصوت بدا أكثر خشونة: "لا أفكر بمنافستكم". ثم تنحنح وأردف: "أود فقط أن أجرب، إن لم يكن لديكم أي اعتراض. هل يمكن أن أستعير القوس يا يومايوس؟".

"قف عندك!".

كان هذا انتينوس مرة أخرى. توقف يومايوس الذي كان قد بدأ يمشي نحو طاولة الشحاذ قرب الباب.

قال انتينوس، وهو يبذل جهده ليتحدث بنبرة سهلة ساخرة: "إن تمكن من جذب الوتر سيجعل منا أضحوكة. على أية حال، لا يحق له أن يحاول معنا".

فكرت: يجب أن أقول شيئا الآن!

استطاعت أن تشم رائحة الدم في الغرفة.

بدأت: "أنا..".

قال تيليماكوس: "أنا..".

قالت: "ليس لدي اعتراض على ذلك، لكنني أظن أن بإمكاننا الانتظار حتى صباح الغد".

قال الرحال: "لن أخطب السيدة المبجلة، التي طال انتظارها".

نهضت واقفة؛ وعضت شفتها، تحسست بأصابعها المائدة أمامها.

قالت: "لسوف ننتظر حتى يوم غد. يومايوس، أحضر القوس إلى هنا! الضوء ينحسر. وسيحل الليل قريبا. لا ينبغي لأحد رمي السهام في الظلام. فهذا خطر".

نهض تيليماكوس واقفا أيضا.

قال بصوت متقلقل ومتلعثم وحاد، وسحب نفسا على قدر من العنف بحيث سمعوه جميعا: "أنا من يقرر في مسألة القوس. يومايوس! دع ضيفنا الكريم يحاول. لديه وقت كاف قبل أن يبهت الضوء ويخيم الظلام!".

تحرر يومايوس من تردده وسار عبر بهو المدخل إلى العتبة. في ذات الوقت أدارت بينلوبي ظهرها لهم جميعا ومشت ببطء باتجاه الحجرات الداخلية. في باب القاعة الداخلية وقفت يوريكليا. أغلقت الباب خلف سيدتها. أغلقت أبوابا أخرى. مرافق يوريكليا في السفر، الأبكم لكن ليس الأصم، كان يقف في الباب الضيق الجانبي إلى اليمين قليلا من تيليماكوس. خرج، وأغلقه، وسار بمحاذاة سور المنزل نحو الباحة الداخلية ووقف هناك بجانب الفؤوس.

خرق يومايوس كل القواعد: مشى نحو الشحاذ الذي ما زال جالسا إلى مائدته وناوله القوس أولا ثم الجعبة الثقيلة المليئة بالسهام.

قال: "سيدي أمرني بأن أسلمك هذين، يا سيدي".

* *

رفع القوس، وتفحصه بعناية على ضوء النار والنور الرمادي المنبعث من الخارج. فحص النهايتين الرابطتين للوتر، ومال بجسمه ليتفحص عن قرب الخشب، وحدق إلى العظم، وقلب القوس كأنما استمتع بالانعكاسات عليه، أو أراد رؤية كيف تتحرك. بدا وجهه معجّى، كشر بطريقة فظيعة للقوس، كأنما برحه ألم في أسنانه، أو وخزه وجع في معدته. رفع يمناه كأنه يستحضر أرواحا، أو أبطالا موتى، أو شياطين. ثم أمسك وتر القوس برأسي إبهامه وسبابته الغليظتين وإن احتفظ الظفران بشكلهما الملوكي النبيل، جذب الوتر مثل موسيقي يعزف بدون ريشة، وتوقف لحظة، ثم تركه.

رن الوتر؛ غنى القوس، واستمعوا.

اكفهرت وجوههم. احتك كرسي ميدون بالأرض، واقترب من الشحاذ. انتينوس مد يده باتجاه طاسه، وهز كتفيه استخفافا ـ لكن وجهه اسودّ ـ وعبّ منه.

الرجل الذي عاد إلى بيته لم ينهض. أخذ السهم الرابض بجانب الكنانة المحشوة بالموت، ونظر إليه، وسدد به، ثم وضعه جانبا وسحب واحدا آخر. أراح ذراعه اليسرى على سطح الطاولة، في حين تمدد القوس بشكل أفقي؛ وضع السهم في مكانه على إبهام يده اليسرى وبدأ يجذب الوتر ببطء باتجاهه. مالوا على موائدهم، واشرأبت أعناقهم، وحدقوا، وفغرت أفواههم. بعضهم تابعوا الحركة برؤوسهم، وسبابات أيديهم، وألسنتهم: تفرسوا في يدي الغريب وهما تبتعدان برقة ونعومة عن بعضهما بعضا، في سلاميات الأصابع البيضاء، في الرسغين الضخمين اللذين شابها رسغي قبطان سفينة، رجل أمضى في البحر زمنا طويلا؛ حدقوا إلى كفه اليمنى المعوجة مثل خطاف حول وتر القوس، وإلى السهم، ذلك السهم الطويل إلى ما لا نهاية الذي تراجع زاحفا وراء الإبهام، بينما سمعوا آلافا من أصوات الصرير والطقطقة الواهية التي أصدرها القوس ـ الآن!

أطلقت ابنة دوليوس، ميلانثو السمراء زعقة حادة ـ من مكان ما خارج القاعة، داخل المنزل ـ صيحة ألم طويلة.

وبعدئذ، انطلق السهم. تناهى صوت رنة، السهم أصاب الجدار الحجري، وارتد، وسقط.

اندفع واحد كان يجلس قرب الباب وصاح:

"اخترق كل الحلقات! اخترق كل الحلقات!".

علا شهيقهم وزفيرهم، ولهاثهم. لم ينهض الجميع. يد انتينوس امتدت إلى طاسه، لكن عينيه لم تره، فقد اتجه طرف بصره عبر القاعة إلى تلك اليدين المشوهتين المتضررتين. اليمنى أخذت سهما جديدا من الجعبة على الطاولة، واليسرى حملت القوس، خطاف الكف اليمنى جذب الوتر مرة أخرى، زحف السهم، ووصل الآن إلى موقعه؛ الرأس البرونزي يبعد عرض إصبعين فقط من الإبهام. الرجال عرفوا ولم يعرفوا. ارتفع القوس؛ القوة كلها كمنت بينه وبين وتره، قوة السهم التي لم تتحرر بعد، رجفت مثل فحل على البر مكبل بلجامه، وتحرك القوس مع رأس السهم المستعد للدغ من اليسار إلى اليمين، ببطء، ببطء، ببطء، ليتجاوز المدخل العريض ـ ويتوقف؟ لا لم يتوقف؟ ما زال هناك أمل ـ توقف؟ لم يتوقف؟ لا، لم يتوقف؟ ـ تجاوز المدخل العريض برمته ورأس السهم مثل المؤشر، مثل عدسة آلة التصوير، يمر من طاولة إلى أخرى، ومن صدر إلى آخر. تيليماكوس ويومايوس وانتينوس هم الذي تحركوا أكثر من النبّال، نهض الأول واتكأ على رمحه، وتراجع الثاني باتجاه الباب والعتبة المرتفعة، ومد الثالث يده نحو طاسه ـ إلا إذا اعتبرت طبعا التشنجات التي شعروا بها جميعا في قلوبهم وكآبة مثوى الأموات التي انتشرت أماراتها على وجوههم، حركة.

ثم توقف كل شيء. أما أكثر الأشياء جمودا في العالم، السكون المطلق الذي لا يدانيه شيء في ثباته ورسوخه تحت درب هليوس، فكان إبهام وسبابة العائد إلى بيته. رأس السهم صُوب نحو صدر انتينوس، وارتفع باتجاه عنقه، وتوقف.

قال بصوت خفيض: "أنا يا انتينوس. أنا عدت..".

عدت، عدت، عدت، الكلمة خرقتهم كلهم.

"إلى البيت!".

غنى وتر القوس، بصوت بدأ على شكل رنة، نغمة، وانكتم فجأة. انطلق السهم الطويل - لم ير أحد سبيله وهو يهفو بخط موروب عبر القاعة - مخترقا نقطة من الصمت المطبق والسكون المطلق الجديد اللذين خيما على العالم. سكت الهدف الذي استقر فيه؛ ارتعش لكن لم يصدر عنه صوت. الآن في تلك اللحظة بالذات، ولج لتوه حنجرة رجل وخرج من مؤخرة عنقه. تابعت يد انتينوس حركتها باتجاه الطاس، وضربته، وأبعدته جانبا، فسقط، وتدحرج من على حافة المائدة. الذراع المندفعة رمت سلة الخبز وطبق اللحم، حين ارتمى انتينوس على المائدة واندفع صدره إلى الأمام وامتدت ذقنه ورقبته كأنهما خارجتان من ياقة عالية، وقلبها، وارتطم بالأرض وانبطح محدثا صوتا مكتوما.

وعندئذ أغلقت كل الأبواب.

نهض اوديسيوس، لا بسرعة البرق، لكن قبل أن يختلط صراخهم بزعيق الجارية المبرحة بآلام المخاض في مكان ما في أعماق المنزل، في العالم الخارجي. وخلف العتبة، في صالة الاستقبال، وقف يومايوس وبجانبه فيلويتيوس، وعلى الجانب الآخر من باب الصالة كان داكريوستاكتوس، ووضع المزلاج وعقد الأربطة. بوابات الباحتين أغلقت هي الأخرى، وركض أحدهم حافيا، عَدت العجوز الضئيلة، مثل الفأرة في الغسق الرمادي، عبر الباحتين، وتحققت من إغلاق البوابة الخارجية، وجربت البوابة الداخلية والأبواب المؤدية إلى مخادع العبيد - حيث سكتت تأوهات آلام المخاض بعد صيحة أخيرة طويلة عبرت عن الألم والارتياح - ودارت حول المنزل وصولا إلى القاعة الداخلية: في حين ركض تيليماكوس بقدميه القويتين الثقيلتين عبر القاعة واتخذ موقعه بجانب أبيه.

قال اوديسيوس وهو يجذب الوتر للمرة الثالثة ويسدد السهم على يوريماكوس الذي اندفع إلى الأمام ووقف على مسافة بضع خطوات منه ويده على مقبض سيفه: "لقد عدت إلى البيت".

صاح: "مات رجل يا اوديسيوس، لكن كل الأمور ستنصلح مجددا!".

* *

سمعتهم من غرفتها.

فكرت: أنا نائمة، لست صاحية، أنا نائمة تقريبا. إن مات، إن قتلوه.. عندئذ..

فكرت: أنا نائمة، محتجزة وأغط في النوم. لسوف أفيق بعد حين. انظروا، أنا أخلع ملابسي، أنا نائمة.

كانت تجلس على حافة سريرها في غرفتها؛ لم يكن ثمة دمع في عينيها؛ لم يتمكن من الوصول إليهما بعد، لكنه في الطريق. مارست حركات خلع الثياب. ركلت بقدمها، كأنما تخلع صندلها الجديد المرصع باللآلئ، وحركت يدها كأنما تخلع الثوب الذي أهدته لها هيلين، ورفعت يديها كأنما تحل شعرها ليتهدل على كتفيها. تعرت دون أن تخلع ملابسها، كانت عارية.

دعونا الآن في مثل هذه اللحظة نمعن النظر في هذه الكهلة العارية. ما زالت ناهدة الصدر، وما زال جسمها جميلا في امتلائه. عضلات بطنها ما زالت مشدودة، لكنها بدأت ترهل. رجلاها بيضاوان وملفوفتان، وقدماها نالتا حظهما من الرعاية والعناية، ولم تعرفا إلا الأرض الناعمة الطرية في تجوالهما. الكفل مكور، وجذاب بالنسبة للكهول عموما والشباب على وجه الخصوص. وما زال في الظهر ومؤخرة العنق نعومة ورقة. والجيد جميل، والشعر غزير، رغم وجود بعض الشعرات الرمادية، لكنها قليلة العدد بحيث لا توجد ضرورة لحسابها. الجبهة خالية من التجاعيد، أو على الأقل لا يظهر منها شيء في ذلك الضوء الشاحب، وتحت مساحيق التجميل. الأنف مستقيم رغم أنه لحيم بعض الشيء، والمبسم

رقيق، فيه عزم سيدة نبيلة طيبة، أم فتية، طال انتظارها، أم لم تنتظر أبدا دون جدوى قبل تلك اللحظة. هناك حزم وتصميم في الذقن، وليس فيها شيء من التهتك والضعف.

فكرت: كنت حرة ذات يوم. كنت حرة أمام كل الرجال ذات يوم. كنت قادرة على الاختيار ذات يوم.

فكرت: أنا نائمة، ولا شيء يحدث. أنا جالسة هنا، نائمة، على حافة سريري. أرسلت أثينا الكرى إلى جفوني. لربما أنا أحلم، تلك هي الحقيقة، أنا أحلم. أنا شابة، ولدي معجبون، وسرعان ما سيعود زوجي الشاب إلى البيت، وسيستلقي بجانبي ويحميني بذراعه. نحن في ميعة الصبا، نتبادل الحب والحديث، نصغي إلى صوت انهمار المطر الرقيق في ليالي الخريف وليالي الشتاء، نحن في البيت، في بيتنا، ولدينا صبي صغير اسمه تيليماكوس. ولن تندلع أي حرب، زوجي، رجلي العزيز المحبوب، لن يغادر البيت أبدا، سيبقى معي، سنكون معا ونهرم سويا. لكنني أعلم بأن الغرباء قادمون وسيأخذونه بعيدا، أحلم بأن عجوزا يأتي إلي وأنا ما أزال صبية يعجب بي الشبان، وحرة، وأستطيع اختيار من أريد، لأن زوجي العزيز الذي أفتقده وأحبه، مات في الحرب أو في البحر، وأنا أحلم بأن العجوز، الرجل النتن الذي تملأ الندوب وجهه يقول إنني من ممتلكات الذاكرة، إنني عبدة لوعد الشباب، وإنني لست حرة بعد الآن. وأنا أحلم بأن شابا قويا يأتي ويبعد العجوز، لا، لا يقتله، بل يبعده، ويدفنه، وتقول ذكراه: ابتعد أيها العجوز الهرم، يا حطاما خلفته الحرب، لقد غبت طويلا وانتظرناك طويلا، ابتعد، اختف، لأنها إذا فتحت الباب وطردتك، ستنسل السعادة إلى الداخل وتبقى معها. أعطها حريتها لتختار، وهذا من حقها، لا من حقك. ذاك ما أحلم به حين أنام ملء جفوني، وحين أنام تنام أثينا.

ولم تدمع حتى الآن عيناها، عيناها الناعستان.

* *

لتلهم جميعا وأبقى على اثنين، واحد لجسس على الحياة، والآخر غنى للحرب.
أصبح ميدون وفيميوس رجلين سعيدين الآن، بعد أن عانى كلاهما من التعاسة دائما، وإن تمتعا بموهبة خاصة بهما.

لم يصفح حين أراد يوريماكوس أن يفاوض، بل رماه بسهم اخترق صدره. حاولوا الاختباء خلف الطاولات؛ حاولوا الحصول على أسلحة أخرى غير السيوف، لكن دون جدوى، تعرضوا للدمار والخراب. لم يكن بشرا، ولم يكن إلها أيضا؛ كان مجرد جسد إنسان تحت سلطة الآلهة العابثة. كان الحرب ضمن هذه الجدران الأربعة، رجلا، سممته الحرب، أحنقه اريز، وتصرف كأنه الأداة التي تم اصطفاؤها ليكونها: رجل قدره أن يغتال السلم لعديد من السنوات القادمة، ربما لعدد لا يحصى من السنين.

حين اندفع امفينوموس، الفلاح الهادئ من دوليكيوم، شاهرا سيفه عليه، تلقى رمح تيليماكوس في ظهره: رُديَ منبطحا على وجهه ولم يستطع أن يقول سوى "أوه!"، وظل الرمح منغرسا في ظهره، في حين انكسرت القناة، لكن هناك مزيدا من الرماح مخبأة خلف الخزن في بهو المدخل. كل شيء كان مرتبا ومنظما بدقة بمساعدة يوريكليا، ومعونة الآلهة طبعا. حين نجح ميلانثيوس في كسر المزلاج والخروج عبر الباب الجانبي الضيق الذي حدث وكان بدون حراسة، ومنه إلى الدهليز الضيق بين جدار المنزل والسور الخارجي، وتمكن من الوصول إلى مخزن السلاح والعودة ببعض الرماح والتروس والخوذ، دفعت الآلهة داكريوستاكتوس للتدخل؛ وحين قام ميلانثيوس بمحاولته الثانية قبض عليه وقيد بإحكام وترك مرميا في السقيفة: لسوف يفعلون به شيئا فيما بعد.

لا، لم يصفح أبدا. قتلهم كلهم بسهم بعد سهم، وقتل ابنه بعضهم. سيوفهم القصيرة لم تصل إليه، ولا طاولته شجاعتهم. افتتح اوديسيوس وابنه مسلخا في ايثاكا، ولا يعلم أحد ما هو الحق وما هو الباطل وما هو قصد الآلهة الخفي بتلك

العاصفة والمطر؛ لكن ترجمة النية إلى حقيقة، كما سيفهمها البشر، كانت وحشية.

صرخوا عليه، لعنوه، استرحموه؛ اختبؤوا خلف الطاولات، ورمى كل من امفيميدون وتيسيبوس (من ساموس) رمحه فأصيب تيليماكوس بجرح في المعصم ويومايوس في الكتف؛ لكن المحكومين بالهلاك يئسوا. ما عادوا يؤمنون بقوتهم، وارتابوا في تلك الساعة بالآلهة: شعروا بفراغ حولهم، وآمنوا بقوة اوديسيوس وسقطوا ووجوههم ناظرة إليه. يمكننا رؤية المشهد لقطة لقطة أو في كليته، يمكننا رؤيتُهُ حوادثَ أو قدراً محتوماً؛ ماتوا ، قتلوا.

كم كان عددهم؟ يمكنك القول أربعة عشر، ثلاثة عشر، أو خمسة عشر. أولئك المتعطشون للدماء، أو المصابون بالذعر، أمكنهم القول بعد الحدث بدافع الرغبة في المبالغة والغريزة المشروعة لتفخيم كل شيء حتى يفقد بشاعته المريعة: هنالك اثنان وخمسون، بل مائة وثمانية.

وهب الحياة لاثنين. أواخرهم قتلوا أنفسهم على رمحه وسيفه حين تشبثوا بركبتيه طالبين الرحمة، محاولين أن يستجدوا لأنفسهم مثل تلك الهدية. السيف ضرب، والرمح طعن، شق أجسادهم لتنزف دماؤهم وتفسح مكانا للموت. لكن سمح لاثنين بالبقاء على قيد الحياة، لكي ينشد أحدهما مدائحه ويتجسس الآخر ويكتب التاريخ نيابة عنه: المغني فيميوس والرسول والعميل المزدوج السابق ميدون.

تسعرت النار بلهب وهاج طيلة الوقت. وأحاطت بها العباءات شبه الجافة أو المبللة. انبعثت من بعضها رائحة الخشب المحترق. وقف على العتبة وتفحص القاعة. كانت يداه، ورجلاه، وأسمال الشحاذ الرثة، ووجهه المعجى بتكشيرته الشريرة، وشعره ولحيته، لزجة كلها بفعل الدم البشري. كان صوته خشنا وحادا حين نادى على يوريكليا وأمرها بفتح الأبواب.

"أحضري الجواري!".

* *

قامت النساء، الجواري المختارات الاثنتا عشرة، بجر جثث الرجال ووضعها عند مذبح زوس في الباحة الداخلية. ثم أدخلت الفتيات الاثنتا عشرة اللواتي اختارتهن يوريكليا العجوز، التي ظلت تصغي طيلة عام، التي ظلت تصغي وتكره يائسة قانطة، من أجل تنظيف القاعة. ألقيت العباءات على الجثث. كان الوقت مساء، ليلا بالأحرى، في ايثاكا.

قالت يوريكليا:

"حياتهن وباء، ويجب استئصال رائحتهن النتنة، فهن لطخة عار تلوث كل العصور، وليس لهن نفع بعد الآن".

قتل الجواري الاثنتي عشرة بمساعدة ابنه، ويومايوس، وفيلويتيوس، وداكريوستاكتوس الأبكم. شنق الشابات، النساء الملطخات بالدم اللاتي غسلن الأرضية، لأنهن ضاجعن الرجال الذين غازلوا زوجته.

فكر: لست أنا الذي يفعل هذا. أتاني هرميز بأمر وتهت في الطريق إلى هنا. إنها الآلهة التي تفعل ذلك من خلالي. لن أحب الآلهة مرة أخرى، لكنني أخشاها كثيرا.

جال في المكان جاراً قدميه، حاول أن يمشي بثبات. استند إلى جدران البيت والسور الخارجي وترك آثارا داكنة من يده غسلها المطر وهو يهطل مدرارا عليه. فكر: إنه اريز في داخلي. فتحت فرعا وأنا أديره نيابة عنه هنا. لكنني أنا نفسي لست حاضرا. لقد غادرت أنا إلى جزيرة بعيدة في الغرب. حيث أسير تحت المطر وأتلهف لأكون في أي مكان، لكن ليس هنا.

كان يومايوس يقف أمامه.

"لدينا ميلانثيوس في مخزن السلاح، يا معلم".

لعق شفتيه، ووصف لسانه الشكل المدور لفمه، بحث عن طعم، عن مذاق. حين تكلم، لم يخرج من فيه صوت. اضطر لأن يكرر مرة أخرى.

"افعل به ما تشاء".

قال قائد الخنازير: "إنها النهاية تقريبا الآن، لكن يجب الانتهاء من هذا أيضا، ثم تبدأ السلطة الجديدة يا معلم".

"أجل".

جر فيليتيوس ويومايوس ميلانثيوس المكبل بمحاذاة الجدار إلى الباحة الداخلية. كان في فم زعيم قطيع الماعز خرقة تسد حلقه وتمنعه من الصياح ولم يسمعا سوى أناته. كان عملا بطيئا؛ والجسد الثقيل التصق دوما بالأرض المبللة. فعلا به ما توجب عليهما أن يفعلا، قبل أن يشنق على العمود البعيد. أشارت الأغنية إلى أنهما قاما بجدع أنفه وقطع أذنيه، إضافة إلى العضو الأهم، أداة النسل، وسلّمه إلى المستقبل، ورموه إلى الكلاب لتلتهمه. يمكنك أن تنحني أمام مثل هذه الحقائق. يمكنك أن تجبر نفسك على إدراك أن الآلهة كانت تلهو وتعبث، وأنها تمزح وتهزل، وأنها تتمتع بروح الدعابة، وأنها أرادت أن تحظى بأكبر قدر من التسلية من احتفالاتها.

* *

زعقت ابنة دوليوس مرة أخرى: زعقة طويلة اخترقت البيت كله مثل سكين حادة حامية. وبجانبها رقد طفلها. طفل أي رجل منهم، أي رجل، لم يعد هذا يقلقها. لكنه طفلها، بكرها. حسبت أن شعره أسود، وأن ابتسامته ستكون رقيقة لطيفة: رجل تعجب به النساء. تساءلت هل عيناه زرقاوان مثل ليرتيز وتيليماكوس. صرخت حين دخل داكريوستاكتوس الأبكم حاملا مشعلا بيده واتجه نحوها.

أشار لها، أومأ لها بأن تنهض. أخذها من ذراعها. أشار إلى الطفل، وفهمت أن عليها أن تأخذه معها.

* *

كان تيليماكوس قد ذهب إلى غرفته. وعلى الأرض قرب الباب كان هناك حوض

نحاسي مليء بالماء الدافئ. وعلى سريره وضع ثوبان جديدان، وعباءتان مطرزتان. في حين كان هناك زوجان جديدان من الصنادل الصفراء في منتصف الغرفة. كانت هذه له ولأبيه.

انحنى وغمر يديه في الماء.

* *

يوريكليا، رئيسة المربيات العجوز، تلك العزيزة التي لم تكن تذوي وتضعف بالتأكيد بل تفيض كراهية وبغضا، وقفت في بهو المدخل وراقبت الحبيب، الملتحي، الملطخ بالدماء، الذي عاد أخيرا إلى بيته، يعبر الباحة الحالكة.

سأل بتثاقل: "هل هناك المزيد؟ أنا في رحلة. أنا على وشك البدء برحلة. هل انتهى الأمر الآن؟".

قالت: "ابنة دوليوس، ابنة دوليوس رزقت بطفل للتو".

نظر بتبلد إليها. سقط الضوء المنبعث من داخل القاعة الكبرى على وجهيهما. رفع اليد الأكثر تضررا، الأبشع بين يديه، إلى جبهته ومسحها

قال: "أنا في رحلة. علي فقط أن ألقي التحية على بعض الأشخاص قبل الانطلاق. أريد أن أنام. أريد رحلة في عالم الكرى. أريد أن أكون نظيفا. لا أعرف ابنة دوليوس".

قالت يوريكليا: "سببت كثيراً من الأذى. سوف تسبب هي وطفلها كثيراً من الضرر".

قال: "أنا في رحلة. لا أعرف أحدا - لا من الأحياء ولا من الأطفال - سبب لي أي أذى".

قالت رئيسة المربيات: "لسوف أتولى الأمر. سأطلب من داكريوستاكتوس تولي الأمر. أعتقد أن السيدة ترغب بطرد الفتاة والطفل من البيت، من عالم الأطهار".

قال: "أمنعك..".

قالت: "فات الوقت يا معلم".

انحنى إلى الأمام وتفحص وجهها.

قال: "أجل، فات الوقت، وليس لدي وقت للتفكير بذلك. أنا على وشك البدء برحلة، رحلة طويلة، إلى الغرب".

هزت رأسها؛ وابتسمت له، ابتسامة إخلاص وحب.

"انتهت رحلتك يا ولدي؛ السفينة سحبت إلى الشط استعدادا للشتاء. جهزت لك الحمام، يا سيدي الحبيب".

العودة إلى ايثاكا

ايفند يونسن

يستعيد الكاتب السويدي ايفند يونسن الرحلة الطويلة الأكثر تأثيراً في الأدب العالمي، رحلة أوليس، وعودته إلى ايثاكا، ليس كما جاءت في الأوديسة الهوميرية، وإنما كما يراها ويسقطها كاتب معاصر يعيش اغترابات مختلفة.

ISBN:2-84305-834-X
9 782843 058349